



وسط الجزيرة العربية وشرقها

تأليف : وليم جيفور بالجريف

ترجمة : صبرى محمد حسن

المشروع القومي للترجمة

269

الجزء الأول

المشروع القومى للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها

(١٨٦٢ - ١٨٦٣)

(المجلد الأول)

تأليف

وليام جيفورد بالجريف

ترجمة

صبرى محمد حسن



٢٠٠١

قائمة محتويات

المجلد الأول

الصفحة

الخرائط والمخططات

مقدمة الترجمة

كتاب كتبه مؤلفه منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عامًا ، ويتناول فترة زمنية مراجعها السياسية نادرة جداً وغير دقيقة ، وإذا كان بوكو Pocoke الفرنسي ، وبركخاردت Burckhardt ونيبور الألمانيين قد كتبوا عن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية أو الطبوغرافيه فقط ، بحكم أن ما كتبوه كان على مرأى ومسمع من السلطات التي كانت تقوم على أمر تلك المنطقة في ذلك الوقت ، فإن كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" يتناول الجانب الديموغرافي والأنثربولوجي الذي غاب عن هؤلاء المؤلفين .

ومؤلف هذا الكتاب إنجليزي دمًا ولحمًا ، أعد نفسه لموضوع هذا الكتاب إعداداً جيداً ؛ فقد درس العربية إلى أن كادت تكون لغته الأم ، فضلاً عن إجادته للغات الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، وكذلك اللغة اللاتينية ، ومعرفته أيضًا للغة اليونانية القديمة ، كما درس أيضًا مقرراً في طب المناطق الحارة .

وفي بداية الأمر وصل هذا المؤلف إلى مدينة مُعَان في العام ١٨٦٢ الميلادي ، واستأجر سوريًا أسماه بركات في حين أطلق هو على نفسه اسم : سليمان العيص ، واتفقا على أن يتنكرا في زي طبيب عربي ومساعده .

وينطلق ذلك الطبيب العربي المستعار ومعه مساعده من مدينة مُعَان إلى مدينة الجوف ، ويكسب ود حاكمها الذي فشل في اكتشاف شخصية ذلك الطبيب الحقيقية ، وبعد أن يكسب ثقة حاكم الجوف ، يتوسط الأخير له عند حاكم حائل ، الذي فشل بدوره في تعرف شخصية هذا الطبيب الحقيقية ، ويمكث ذلك المؤلف فترة في حائل دوَّن خلالها ملاحظاته - مثلما فعل في الجوف - عن كل شاردة وواردة ، ثم ينطلق من حائل إلى بريده التي شاهد فيها المعركة التي شنها محمد بن فيصل على عنيزة لإخضاعها والاستيلاء عليها ، ومن بريدة ينتقل إلى الرياض التي فشل أهلها أيضًا في اكتشاف شخصيته الحقيقية ، برغم أنهم ناقشوه ، من منطلق "الوهابية" في الإسلام بصفة عامة ،

والكبائر بصفة خاصة ، وأثبت لهم أنه ضليع فى الدين ، وحاولوا اكتشافه عن طريق التحدث إليه بالإنجليزية ولكنهم فشلوا فى ذلك أيضًا ، ونجح فى استمالتهم إليه وتسخيرهم لأغراضه فيما يتعلق باستخلاص المعلومات والحصول عليها .

وبحكم أنه كان طبيبًا ، ولندرة الأطباء فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت أصبح مقربًا إلى الصفوة ودوائر صنع القرار ، بل إنه كان من المقربين إلى أفراد البلاط الملكى ، مما جعله قريبًا من الأحداث ، ويقضى بالجريف فى الرياض فترة من الزمن تصل إلى قرابة الخمسين يومًا ، ينتقل بعدها إلى الأحساء دون أن يُكْتَشف أمره ، ومن الأحساء ينتقل إلى البحرين، ومن البحرين إلى قطر حيث يزور رأس ريكان ، والبداع ، ويزور الدوحة ، ووقرة ؛ ويتكلم عن بدو المناصير وبنو ياس ، ويغادر قطر إلى بر فارس على سفينة فارسية ، ويتحدث عن صخور هلُّول وينزل فى شاراك ، ثم يبحر إلى لينجا ومنها إلى سواحل عُمان ، حيث يزور الشارقة وخورها وميناءها ، ثم يصل بحرًا من السُّويِّق إلى صوحار، ويزور رأس الخيمة وساحل الجبل، ورءوس الجبال ، وشاعام ، وخبب ، ويصل إلى رأس مسندم ويرى صخور سلامة ، ويزور هرمز ، ويزور روية ، وليمة وميناءها ، ويزور قلحاط (قلحوط) وقطَّاع اللحَّى ، وباطنة ، والفجيرة ، وشيناز ، وفرقصة ، ثم يصل إلى مسقط ، والظاهرة ، والجبل الأخضر .

ويغادر مسقط إلى بندر عباس ، وشيرو ، وأبو شهر ثم إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد فى العراق ، ثم يعود إلى سوريا لينطلق منها فى النهاية إلى بريطانيا .

وتستمر رحلة هذا المغامر عامًا كاملاً ، يجمع خلاله مادة علمية أصيلة ، من أفواه الناس ، ومن ملاحظاته الشخصية ، ليكتب كتابًا فى مجلدين إجمالى صفحاتهما حوالى ألف ومائتى صفحة من القطع الكبير .

وعلى الصعيد اللغوى يندرج الكتاب ضمن الأدب الراقى ، ودقة مؤلفه فى اختيار ألفاظه ومصطلحاته تغيظ قارئ النص الإنجليزى ، وتفاصيل الكتاب كثيرة وتشد الانتباه وتوحى بغزارة مادته .

بقى أن أقول : إن نص الكتاب لم يكن سهلاً ، فقد استغرقت ترجمته حوالى العام ونصف العام ، رجعت خلالها إلى الكثير من المراجع والمصادر ، فضلاً عن الاستنارة بآراء كثير من أساتذة الجامعة الزملاء المتخصصين فى الجغرافيا، وفى اللغة الإيطالية، وأخص منهم الأستاذ الدكتور / سلامة محمد سليمان ، الذى لا أنكر فضله فى ترجمة

الأبيات التى اقتبسها المؤلف عن "الكوميديا المقدسة" التى ألفها دانتى الشاعر الإيطالى الفحل ، كما استعنت أيضاً بأساتذة قسم اللغات القديمة بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، فى ترجمة مصطلح أو اثنين وردا باللغة اليونانية القديمة ، وترجمة بعض التعبيرات اللاتينية أيضاً ، أما عن الأبيات التى أخذها المؤلف عن جيته الشاعر الألمانى العظيم فلم تستقر ترجمتها لدىّ إلا بعد أن راجعت أساتذة هذه اللغة ، ثم فى النهاية السفير الألمانى فى القاهرة .

وعلى صعيد إعداد الكتاب للنشر فقد أنهى الأستاذ الدكتور / حلمى عبد المنعم - وكيل كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف - قراءة مخطوطة ترجمة المجلد الأول وأعد الهوامش الخاصة بالرد على القضايا الشرعية فى الكتاب .

وفيما يتعلق بالأسماء ، لم يترك المؤلف مجالاً لأى اجتهاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الأماكن فى وسط الجزيرة العربية ، فقد كان يدون الأسماء تدويناً صوتياً حسب سماعه لها ، وأشهر مثال على ذلك هو الاسم (قلحاط) الذى دونه أيضاً على أنه (قلحوط) من منطلق سماعه لهذا الاسم ملفوظاً بتلك الطريقة أيضاً ، وبرغم ذلك يؤكد المؤلف فى مقدمة الكتاب أنه لاقى شيئاً من الصعوبة فى الأسماء ، وتمنى أن يصحح ذلك إن امتد به العمر لإصدار طبعة ثانية من الكتاب ، وهذا لا يعيب الكتاب ، إذ إنه يترك لنا حرية الإبقاء على الاسم كما هو داخل النص ، على أن نضيف هامشاً بالتصحيح المطلوب وذلك توخياً لمبادئ الأمانة العلمية وأصول التحقيق العلمى الدقيق ، زد على ذلك أن تناول المؤلف لأسماء الأماكن وبخاصة فى وسط الجزيرة العربية ، كان رائعاً ، مما جعلنى أشرع فى كتابة بحث عن الأسماء التى وردت فى المجلدين ، على أمل أن أنتهى منه وأنشره بعد نشر الكتاب .

ولم يغب عن بال بالجريف - وهو على طريق توخى الدقة والإمعان فيها - أن يورد ضمن الكتاب عدداً من الكروكيات التى حدد فيها مواقع بعينها ، قام هو بزيارتها ، أو أقام فيها ، فضلاً عن خريطة وقع عليها خط سير رحلته ، وأبى أن يضيفها إلى الكتاب إلا بعد أن عرضها على الجمعية الجغرافية الألمانية ، التى شهدت بدقتها وبدقة تفاصيلها .

واستكمالاً لأمانة التحقيق العلمى الدقيق ، نحن نرحب بالتعليق على الأحداث السياسية فى الكتاب ، مع تحديد مواضعها فى النص ، أسوة بما فعلته كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف ، وأن تكون تلك التعليقات موقعة من أصحابها الذين نفضل أن يكونوا من بين الشخصيات المشهود لها بالعلم .

والكتاب جريء سياسيًا ، ويحتاج لناشر جريء أيضًا ؛ لأنه يتعرض لكثير من الأمور السياسية الحساسة التي لا يعرف كثير من المثقفين وصنّاع القرار حقائقها الأصلية ، كما يتعرض للدور المصري في التعامل مع "الوهابيين" في تلك المنطقة ، ويكشف عن كثير من حقائق المطبخ السياسي في ذلك الوقت .

ويسعدني أن أورد هنا أيضًا أن هناك مؤلفًا عاصر بالجريف مؤلف هذا الكتاب ، وشاركه في جزء من رحلته ، ووضع كتابًا آخر ما زلت أبحث عنه ، وأتمنى أن أعثر عليه ، وعندها سيكون لكل حادث حديث .

وإن قدر لهذا الكتاب أن يرى النور مترجمًا ومنشورًا بطريقة لائقة تناسب أهميته ، فإنه سيثير الكثير من الجدل السياسي والعلمي ، وسوف يصحح كثيرًا من المفاهيم المغلوطة ، ولا أبالغ إن قلت : إنه سيكون من الكتب الرائجة التي تشكل إضافة حقيقية إلى المكتبة الخليجية بصفة خاصة ، والمكتبة العربية بصفة عامة .

صبري محمد حسن

مقدمة

هذه الرحلة التي قمت بها إلى كل من وسط الجزيرة العربية وشرقيها ، مستهدفًا بها الاستكشاف والملاحظة وليس النشر ، هيأت لي الحصول على قدر كبير من تفاصيل هاتين المنطقتين ، التي تستحق التسجيل والتدوين ، وأنا أعترف أن ظروف زيارتي لهاتين المنطقتين ، وكذلك القيود التي لازمت تنكُّري الوطني ، هما اللذان حالا بيني وبين القيام بالبحث الأثري والاستقصاء الجيولوجي والنباتي ، كما حرماني أيضًا من استعمال الوسائل اللازمة للتحري العلمي الدقيق ؛ من ذلك – على سبيل المثال – الأدوات المعتادة اللازمة لمعرفة خطوط الطول ودوائر العرض ، والأدوات اللازمة لقياس درجة الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، والأسوأ من هذا كله أنني – في بعض الأحيان – لم أكن أستطيع تدوين ملاحظة واحدة ، أو الاحتفاظ بكراسة من كراسات المخططات أو حتى آلة من آلات التصوير ، برغم جمال المناظر الطبيعية وسطوع الشمس ؛ ومن هنا اعتمدت على قلمي فقط في القيام بدور القلم ودور المرسام (قلم الرصاص) ، في حين سيكون خيال القارئ قادراً على الوفاء بما يتبقى بعد ذلك ، وسوف أتناول في القصة الأسباب التي دعت إلى كل ذلك ، وعلى الجانب الآخر ، فإن السنوات الطوال – أحلى سنوات عمري في الواقع – التي أمضيتها في الشرق ، وإتقاني للغة العربية إلى أن أصبحت لغتي الأم ، فضلاً عن معرفتي بأخلاقيات وسلوكيات الشعوب "السامية" ، إن جاز لي أن أستعمل الاسم الرمزي لهذه الشعوب ، كل هذه الأشياء أعطتني مزايا تزيد بكثير على العيوب التي سبق أن ذكرتها ، يضاف إلى ذلك أن سكان هذه الأرض ، وليست أرض هؤلاء السكان كانوا هم الهدف الرئيسي لهذه الدراسة وهذا البحث ، لقد كان اهتمامي منصبًا أصلاً على الأحوال الأخلاقية ، والظروف الفكرية والسياسية لسكان هذه البلاد ، ذات الأهمية الكبيرة ، ولكنها ليست لها هذه الأهمية عندي ، أما فيما يتعلق بالملاحظات التي أوردتها عن العصور القديمة ، وعن العلم ، وكذلك الملاحظات التي أوردتها عن النباتات والأحجار ، وعن الجغرافيا والأرصاد ، فأنا أعترف بأنها ليست على ما يرام .

وقد دونت الحروف العربية ، بالحروف الإنجليزية ، مستعملاً في ذلك الطريقة التي استعملها لين Lane في كتابه الجميل المعنون "المصريون المحدثون" باعتبار أن ذلك الشكل من التدوين هو الشكل المفهوم من القراء الإنجليز ، وأنا عندما دونت الجيم التي تأتي في بداية الكلام باستعمال Dj بدلا من J (التي استعملتها في تدوين الجيم عندما تجيء في وسط الكلمة أو في نهايتها) ، أكون قد خالفت أبناء بلدي في طريقة التدوين المتعارف عليها ؛ كما وجدت أنه ليس من الضروري أن أنبر الصوائت ، واكتفيت في ذلك بوضع (–) لتدل على أن الصائت طويل أو منبور ، وذلك في المواقع التي تتطلب مثل هذه العلامة ، وقد تكون هناك بعض الأخطاء ، أو بعض الشواذ على أقل تقدير ، التي استرعت انتباه المصححين والمراجعين في الطبعة الأولى ؛ وأنا أعتقد أن الطبعة الثانية ، سوف يجري فيها تحاشي هذه الأخطاء وتلك الشواذ ، والخرائط التي ألحقتها بهذا الكتاب رغم أنها ليست دقيقة تمامًا إلا أنها توضح ، إلى حد ما ، السمات الرئيسة وكذلك التقسيمات الرئيسة للمناطق الرئيسة ، والمدن والبلاد كلها بصفة عامة .

والقارئ ، ربما يود أن يعرف الهدف المخصص لهذه الرحلة والظروف الحاكمة لها ، لقد كان يحدوني أمل كبير في الإسهام في شيء من أجل الصالح الاجتماعي لهذه المناطق الشاسعة ؛ كان يحدوني أمل تحريك مياه الحياة الشرقية الراكدة حتى تلحق بأنهار التقدم الأوربي الجارية وتتصل بها ؛ وربما لدي أيضًا دافع لتعرف ذلك الذي كنت أجهله حتى ذلك الحين ، وكذلك الرغبة في الاستكشاف التي تملأ قلوب الإنجليز : كانت تلك هي الدوافع الأساسية ، ويمكن لي بصفتي المؤلف ، أن أضيف إلى ذلك ، أنني كنت منضماً في ذلك الوقت إلى الجمعية اليسوعية ، تلك الجمعية التي اشتهرت في حوليات التاريخ بأعمالها التي تستهدف حب البشر والناس ؛ ويجب أيضًا أن أعترف ، بصفتي المؤلف ، بخالص شكري لامبراطور فرنسا الحالي ، على كرمه في توفير المخصصات النقدية اللازمة لهذه الرحلة .

ومن الأهمية بمكان أن تكون لدينا فكرة صحيحة عن الشعوب والأمم التي يغلب على الظروف أن تجعلنا أكثر اتصالاً بها ، وكذلك الشعوب التي يحتمل أن نكون نحن في المستقبل ، متحكِّمين بفضل العناية الإلهية ، في كثير من أمورها المستقبلية ، ويؤسفني أن أقول : أن هذه الأفكار تبدو مشوهة ومبالغ فيها ، في كثير من الأحيان ،

ومع ذلك فهي تمثل الأفكار السائدة في الغرب عن أهل الشرق ، ويمكن أن نرد هذه الأفكار إلى الملاحظة غير الدقيقة ، وربما أيضًا إلى تعمد الإساءة ؛ كما يمكن أن نردها أيضاً إلى الرَّحالة ، الذين يبلغ انشغالهم بأفكارهم وتخيلاتهم حداً ، يحول بينهم وبين فهم الأطوار العقلية والسلوكية التي تسود بين شعوب غير شعوبهم ؛ هذا في الوقت الذي ربما يكون الخيال الجامح قد سلط فيه ضوءاً باهراً على أضواء الشرق الخافتة ، لقد كان هدفي الرئيسي من هذه الدراسة ، هو إعطاء فكرة صحيحة ، إلى حد بعيد ، عن العرق العربي ، وعن حالة هذه العرق الفكرية والسياسية ، والاجتماعية والدينية ؛ على النحو الذي رأيته أنا شخصيًا ، ولو يسعدني الحظ بتحقيق ذلك ، فلن أتطلع إلى أكثر منه ، إن الكثير من هذا الكتاب لن يفيد منه فقط الأمم والشعوب والقبائل التي تسكن شبه الجزيرة العربية ، وإنما سيساعد أيضًا على فهم كثير من بلدان وشعوب الشرق ؛ سيساعد على فهم كل من مصر ، وسوريا ، وبلاد الرافدين ، بل فهم الأناضول ، وكوردستان ، وبلاد فارس ، نظراً لأن كل هذه البلاد عدَّلت الكثير من أمورها بفضل تأثير العرب عليها ، وبفضل اختلاط العرب بها واستعمارهم لها . ومن هنا ، فإن الفهم الواضح لأسباب الازدهار والتدهور في الجزيرة العربية وداخل حدودها المستقلة ، قد يساعد مساعدة كبيرة في حل كثير من الألغاز داخل أطوار مناطق الامبراطورية العثمانية التي تجاور الجزيرة العربية ، كما قد يساعد أيضاً على حل ألغاز الحكومات الأسيوية الأخرى . زد على ذلك ، أنني سوف أركز بصورة خاصة ، على التطبيق العملي ، والنتائج التي ترتبت على تلك الظاهرة العجيبة من ظواهر الذهن البشري ، أو أن شئت فقل العقيدة المحمدية[1] ، أو بالأحرى الإسلام ؛ وأنا أود أن أضع هذه النقطة بصفة خاصة أمام أعين هؤلاء – في الشرق أو الغرب على حد سواء – الذين يودون أن يعربوا عن إيمانهم بالنبي وإعجابهم به وبرسالته .

وفيما يتعلق بصحة الحقائق والأحكام التي تتعلق بماضي الجزيرة العربية وحاضرها ، والتي أوردتها في هذا الكتاب ، قد يكون من المفيد أن أشير إلى أنني كنت أميز، على طول الخط ، بين ما شاهدته حقيقة أو تأكدت منه عن طريق التحري الفعلي وبين ذلك الذي استخلصته أو استنتجه ، وذلك الذي جمعته على شكل روايات من أفواه

(١) ليس في الإسلام ما يعرف بالعقيدة المحمدية وإنما العقيدة في الإسلام تنسب إلى الله فيقال العقيدة الإلهية (د. حلمي عبد المنعم) .

مواطني هذه البلاد ، وهذا بدوره يجعلني أقسم مادة الكتاب إلى ثلاث مستويات ، أزعم أن المستوى الأول منها يصل إلى مستوى التأكيد واليقين ، أي أنه يرقى إلى المستوى الإنجليزي الذي يقول المرء فيه : "لقد شاهدت" أو "لقد سمعت" ، وأنا أضع القسم الثاني تحت تصرف القارئ لينقده ويقول رأيه فيه ، ثقة مني أن السنوات التي أمضيتها في الدراسات الشرقية، وفي الملاحظة ، وفي المقابلات ، سوف تصحح الحكم، عندما ينحرف ، ليكون في صالحي ؛ وأنا بدوري لا أريد أن أفرض نظرياتي واستنتاجاتي على أولئك الذين قد يكون لديهم من الأسباب ، ما يجعلهم يَشُكُّون في صحة هذه النظريات أو تلك الاستنتاجات ، وفيما يتعلق بالجزء الثالث ، أي الجزء الخاص بالروايات المسموعة ، فأنا أتركه لرأي القارئ وتقويمه ، ليقول فيه ما يشاء . والشيء الوحيد الذي أريد أن أركز عليه هنا ، وأنا أنقل عن مصادر من هذا القبيل ، هو التأكد إن كانت تلك المصادر من مواطني البلدان التي يصفونها أو جيران لها على أقل تقدير ، وهل شهدت هذه المصادر تلك الأحداث التي حكت لي عنها ، أم أنها كانت غير هذا وذاك ، وقد وجدت ، من الصعب ، أن أُدوِّن أسماء هؤلاء الأشخاص ، وألقابهم ، حتى لا أملا صفحاتي بقوائم طويلة من قبيل محمد ، وحسن ، وعلي ، وهو تكرار يشبه إلى حد بعيد ، ما يحدث في إنجلترا عندما نكرر الأسماء التي من قبيل توماس ، جون ، أو وليام .

وينبغي أن أشير هنا أن مسألة عمل حواشي ، في نهاية كل صفحة ، أشير فيها إلى أسماء المؤلفين الشرقيين ، لن تقدم أو تؤخر وإذا ما أراد أي مستشرق أن يتعرف هؤلاء المؤلفين ، فأنا أذكر من بينهم أعمال كبار المؤلفين الذين يمكنه الرجوع إليهم إذا ما سنحت له الفرصة وتوفر له الوقت ومن أشهر المؤلفين الذين رجعت إليهم[1] : حماسة أبو تمام ، معلقات امرؤ القيس ، المقريزي ، شمس الدين الدمشقي ، ابن خلِّكان ، ابن خلدون ، الحريري ،المقَّري ، أمثال الميداني ، ألف ليله وليله ، (الكتاب الذي فيه من المغزي أكثر مما تسمعه الأذن) ؛ قصة عنترة ، وأبو زيد ، وبنو هلال ، والزير الشجاع، وقصائد أو "ديوان" عمرو بن كلثوم، وقصائد جرير ، وديوان الأخطل ،

(١) ينبغي مراعاة ذكر المؤلفين أولاً أو ذكر الكتب أولاً ثم المؤلف . وقد أشار الكاتب في بدء عبارته بأنه يذكر أشهر المؤلفين لكنه خلط فذكر الكتاب ثم مؤلفه ، وأحياناً يذكر المؤلف فقط ، وأحياناً يذكر الكتاب فقط ، وهذا خلط علمي .

والفـرزدق ، والمغـربي ، والمتنبي ، وابن الفـارض ، وأبو العـلاء ، والنابلوسي ، وديوان حظيل ؛ علاوة على تفسير القرآن لكل من البيضـاوى ، والزمـخشرى ، وجلال الدين ، وآخرين ، كمـا رجعت أيضًـا لكتابات الغزالي الصوفية ، الكبريت الأحمر ، الأنوار القدسية ، ومقالات محى الدين ، وآخرون ، من أولئك الذين لم يصلنا من أعمالهم سوى قصاصات صغيرة ؛ كما رجعت أيضًا لكثـير من المخطـوطات مجهولة المؤلفـين التي تتناول الجـانب التـاريخي والجـانب الأخـلاقي ، وكنت قـد حـصلت على تلك المخطوطات من بعض مـعـارفي في كل من سـوريا ومـصـر ، ولكن مـعظم هـذه المخطوطات قـد أحرقت أو دمرت بفعل أصدقائي الدروز عندما أحرقوا رحله ومعها منزلي أيضـا في العـام ١٨٦٠ الميـلادى ، وأنا هنا أحـيل القـارئ الكريم ، إلى هذه المصادر ، كيما يتأكد بنفسه من الإشارات والحقائق التي أوردتها في هـذا الكتـاب ، أو النظريات التي جمعتها من كتب هؤلاء المؤلفين .

أما فيما يتعلق بالمراجع الأوربية الخاصة ببلاد الشرق ، وعن الترحال في الجزيرة العـربية والمناطق المجاورة لها ، فلم أقرأ سوى القليل منها ، وهذا لا يرجع إلى عدم رغبتي في ذلك ، وإنما لضيق وقتي ، وقد أغراني أسلوب نيبور البارد والعذب والمحايد إلى دراسة رحلته التي قام بها إلى الجزيرة العربية ؛ ولقد أعجبتني كثيرًا صراحة هذا الرجل وصدقه ، فضلاً عن ملاحظاته الدقيقة والفاحصة ، ولقد وجدت أن هذا الرجل الفذ قد جانبه الصواب في بعض المسائل الطفيفة ، وقد اكتشفت ذلك ، أثناء قيامي برحلتي ، مع احترامي الشديد لهذا الألماني الفذ ، وكنت أترك للقارئ الحكم بعد أن أضع أمامه العبارتين المتناقضتين .

وبعد أن عدت إلى بلدى ، وضعت أمامي وتحت تصرفي مذكرات الكابتن والستد WELSTED ومـذكرات السيد/ والين WALLIN، باعتبارها من منشورات الجـمـعية الجغرافية الملكية ، وقد اكتشفت أن رحلتي ، تؤيد دقة هذه المذكرات ، والفارق بيني وبين هذين الرجلين أن أبحـاثهما كانت أبحـاثًا طبوغرافيه في الأسـاس ، إذ لم تلق أبحاث هذين الرجلين بالاً يذكر الظروف السكانية في هذه البلاد ، وأنا برحلتي أسد ذلك الفراغ في أبحاث هذين الرجلين .

وفـيمـا يتـعلق برحـلات كل من بوكوك POCOKE، وبركـخارت BURCKHARDT، وآخرين فـأنا ليس لدى مـا يمكنني من تأييدها أو رفـضهـا ، ويبـدو لي أن رحلة بركخارت فيها شيء من المبالغة ، وهذا أمر شائع في مؤلفين كثيرين آخرين ، وذلك فيما يتعلق بالبدو وحياة البدو ؛ وربما نجد في كتاب بركخارت ، أيضًا ، شيئًا من

عدم الوضوح وعدم الدقة فى الصور التى رسمها بركخاردت للحياة الاجتماعية ، بل هناك عدم وضوح وعدم دقة أيضاً فى إحصائياته ، وأنا أرى قلة قليلة من المؤلفين هى التى استطاعت تقييم السكان الجائلين ، فى الجزيرة العربية ، تقييماً عادلاً وحقيقياً ، كما أن فئة من المؤلفين ، أقل من هذه الفئة القليلة ، هى التى استطاعت أيضاً تقيم السكان المقيمين من سكان الجزيرة العربية ، تقييماً عادلاً ؛ وأن عدداً من المؤلفين ، يعد على أصابع اليد الواحدة ، هم الذين فهموا الطريقة التى يعمل بها النظام العشائرى (القبلى) بين السكان المترحلين والسكان المقيمين ، وفى الأماكن التى تكمن فيها القوة والأماكن التى يكمن فيها الضعف ، ومحصلة هذا الفهم النهائية غامضة وغير واضحة ، إضافة إلى التفاصيل المفككة تعد ناقصة وغير كافيه ؛ ولكن إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا الصعوبات التى اعترضت طريقهم ، فإننا يجب أن نمتدحهم ونثنى عليهم ، بدلاً من انتقادهم على ما فاتهم .

وإذا كنت قد استقيت من الجيل الماضى شيئًا من العون والمساعدة ، فإن ذلك كان بفضل أصدقائى الأحباء أصحاب المعرفة الواسعة والمكتسبات الشرقية الكثيرة التى مكنتهم من أن يكونوا خير عون لى فى الزيادة والحذف والتعديل ، بل الحصول على بعض المعلومات ، وأنا أتوجه بالشكر إلى الأستاذ روبجير فى برلين ، وإلى السيد / ستانلى بول ، فى لندن ، لأنهما هما اللذان وضعانى على هذا الطريق فى ظل التزامات واقعية ودائمة ؛ وأنا يسعدنى أن أذكر اسميهما ، لا لاستبعاد الأصدقاء الآخرين ، وإنما ليكونا مجرد رمز إلى قائمة طويلة من الأصدقاء وأصحاب الفضل ، هما يقفان على رأسها ، وخريطة الجزيرة العربية ، الدقيقة والعامرة بالتفاصيل التى ألحقتها بهذا الكتاب راجعها الأستاذ / كاييرت البرلينى ، بدقته وعلمه المعهودين فيه ؛ يضاف إلى ذلك أن الجمعيتين الجغرافيتين فى كل من لندن وبرلين ، ممثلتين فى رئيسيهما : السير/روديرك RODERICK مورشيزون MURCHISON والأستاذ/بارت BARTH ، قد قدمتا لى كثيراً من العون والمساعدة ، وخلاصة القول أن العاصمة الإنجليزية وعاصمة شمالى ألمانيا ، قدمتا لى كل ما يمكن أن يكون تعاونًا معى ومسانده لى . وبالتالى أن كان هناك أى تقصير ، فى هذا العمل الذى أضعه أمام القارئ ، فذلك مردة لى أنا شخصياً ، برغم إنى بذلت قصارى جهدى لتقليل هذه الأخطاء إلى أقل حد ممكن ، ولكن أتمنى أن يكون القارئ على استعداد الآن لمرافقتى أثناء رحلتى ، ومن ثم ، وبدون أية مقدمات هيا بنا نركب جمالنا ونرحل .

الترحال والإقامة

فى

وسط وشرقى الجزيرة العربية

الفصل الأول

الصحراء وسكانها

ولكنى أرى أن الهمجى الكئيب أقل من الطفل المسيحى .

ألفريد تينيسون

الرحيل عن مُعَان – رفاقنا البدو – المتاع والتنكر ؛ أسباب التنكر ونوعه الأحداث التى وقعت فى مُعَان – عبادة البدو للشمس – ملاحظات عن دين البدو وأخلاقهم – آبار وَقْباء – خمسة أيام فى الصحراء الشرقية – طريقة الترحال – الأخبار الأولى عن طلال بن الرشيد – الآبار – الوصول إلى وادى السِّرحان – مُخيَّم الشرارات – كرم البدو وأحاديثهم : – ظروفهم الاجتماعية – السَّمْح والمصاع – نفوذ حكومة طلال على البدو – الطُّرف والنوادر – الحروب – نظرة عامة على التكوين الأول للجنسية العربية ، تقسيم هذه الجنسية إلى عرب عاربة وعرب مستعربة ، قيمة كل منهما – طريق وادى السرحان : الكثبان الرملية والغاضة – ملاحظات على الجِمال – شرارة عزَّام فى المعجوع – تغيير المرشدين – الطريق إلى الجوف : النعام ، العقارب – جبل الجوف : قرية جُون – أول لقاء مع رجال الجوف – مداخل الوادى .

"هيا بنا نحاول ، بشكل نهائى وقاطع ، أن نتعرف الجزيرة العربية تعرفًا كاملاً وشاملاً ، بعد أن تعرفنا سواحلها إلى حد كبير ؛ فقد استُكْشِفَ بالفعل كثير من مناطقها البحرية استكشافًا كافيًا إن لم يكن كاملاً ؛ ولم يعد اليمَن أو الحجاز أو مكة أو المدينة ألغازًا بالنسبة لنا ، فضلاً عما لدينا من معلومات أيضًا عن منطقتى حضرموت وعُمَان ؛ ولكن هل ما نعرفه بحق من خلال الروايات والأوصاف ،

عن المناطق الداخلية من الجزيرة العربية ، وعن سهولها وجبالها ، وقبائلها ومدنها ، وعن حكوماتها ومؤسساتها ، وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم ، وعن ظروفهم الاجتماعية ، ومدى تقدمهم الحضارى أو مدى تخلفهم ، هل ما نعرفه الآن يجنبنا مخاطر الروايات والأوصاف التى تفتقر إلى الدقة والكمال ؟ وهل ردم هذه الفجوة ، التى سنحاول ردمها في خريطة أسيا برغم المخاطر التى قد تترتب على ذلك ؛ ستجعل الأرض التى أمامنا مقبرة لنا ، أم سنغيرها من أقصاها إلى أقصاها ونعرف كل ما تحتوى عليه ؟ "لا تراجع إلى الوراء" .

كانت هذه ، أو هكذا كانت ، الخواطر التى دارت بخلدى ، وبخلد رفيقى تقريباً ، عندما وجدنا نفسينا مع حلول الليل خارج البوابة الشرقية فى مدينة مُعَان ، بينما راح كل من العرب الذين سيرشدوننا هم والعرب الراحلين الآخرين يملأون قرب المياه من مصدر الماء الذى ينبثق من خارج أسوار البلدة مباشرة ، ويعدُّون سروج وأحمال جمالهم ، استعداداً للرحلة الطويلة التى تنتظرنا وتنتظرهم ، حدث ذلك ، فى مساء اليوم السادس عشر من شهر يونيو من العام ١٨٦٢ الميلادى ؛ وكنا نرى النجوم الكبيرة وهى تتلألأ فى أعماق السماء الزرقاء السحيقة الخالية من السحب ، فى حين كان الهلال ساطعًا ، ناحية الغرب ، كما هى عادته فى سماء تلك المناطق ، مما بعث فينا أمل مساعدته لنا لبضع ساعات فى مسيرتنا أثناء الليل ، وسرعان ما ركبنا حيواناتنا الهزيلة طويلة الأعناق ، وغدونا كما يقول الشاعر العربى "كما لو كنا على قمة السوارى" ، ويممنا المسير ناحية الشرق ، وتراءت لنا من خلفنا قلعة معان وأسوارها كما لو كانت كتلة من الظلام محدودة المعالم الخارجية هى ومنازلها وحدائقها ، ومن ورائها عن بعد سلسلة جبال شراع SHERA'A المتصلة بسلسلة جبال الحجاز الساحلية ، ومن الأمام وعلى الجانبين كان يمتد سهل واسع ومستوٍ ، اصطبغ باللون الأسود بفعل حصى البازلت وحصى الصوان الذى لا يحصى ولا يعد ، اللهم باستثناء تلك البقع الرملية التى كانت تتخلل ذلك الحصى وتتلألأ عليها أشعة القمر البيضاء ، أو تلك الأشعة الضئيلة الضاربة إلى الاصفرار التى كانت تعكسها الأعشاب الذابلة الزاوية ، التى أنتجتها أمطار الشتاء القليلة ، ثم تحولت الآن إلى هشيم جاف ، يضاف إلى ذلك كله ، ذلك الصمت الرهيب الذى كان رفاقنا العرب يخشون أن يكسروه ؛ فقد كانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وبأقل الكلمات ، فى حين كان وقع أقدام الجمال يسرع الخطى خلسة خلال الظلام ، دون أن يفسد سكونه .

وكنا قد اتخذنا بالفعل بعض الاحتياطات ، لأن تلك المرحلة من الرحلة التى نحن مقبلون عليها كانت تتسم بالأمان والسلامة ، فقد كنا قاصدين منطقة الجوف ، أقرب المناطق المأهولة فى شبه الجزيرة العربية ، إلى بلدة معان ، أو أن شئت فقل كنا قاصدين إلى المحطة الخارجية لوسط الجزيرة العربية ، كانت المنطقة الممتدة بين معان والجوف ، تمثل فى مجملها ، خطراً مزدوجاً يتمثل فى اللصوص والظمأ من ناحية ، وفى عصابات الغزو والسطو فى حر الصيف ، من ناحية ثانية ، فى حين كانت المسافة التى سنقطعها فى خط مستقيم ، تقدر بحوالى مائتى ميل ، يحتمل أن تطول أكثر من ذلك ، بفعل ظروف خارجة عن إرادتنا ، والسبب فى ذلك أن آبار المياه ، تلك العلامات الأرضية التى يهتدى بها الرحّالة ، والتى يحددون مساراتهم على أساس منها ، لا تكون منتظمة مثل الخطوط الرياضية المستقيمة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ضرورة تجنب المناطق التى تتردد عليها القبائل المعادية ، أو التى تثور من حولها الشكوك ، هى التى تضطر البدوى إلى أن يتخذ لنفسه مساراً دورانياً غير المسارات المعتادة .

زد على ذلك ، أن المجتمع الذى كنا فيه بالفعل ، لم تكن طبيعته تبعث الاطمئنان فى القلوب ، وبخاصة مع مطلع رحلة من هذا القبيل ، وفيما يتعلق برفيقى ، وهو بحق – واحد من أبناء قرية زحلة فى سوريا – فأنا أثق به وأعتمد عليه ، فهو قوى ، وشاب ، ومقدام ، وهو من أبناء منطقة ، تعوّد سكانها على الأخطار ، فى حين أن الدونية التى ينظرون بها إلى السكان المجاورين لهم تجعلهم أقل تأثراً ، من إخوانهم المواطنين ، بانطباعات الخوف المعتادة التى تنتاب الناس عندما يكونون فى أرض غريبة ، ومع ذلك ، فقد كان رفاقنا من البدو يشكلون مجموعة غريبه بحق : فقد كانوا ثلاثة من حيث العدد ؛ وقد كان زعيمهم سليم العطنة من عرب الحويطات ، تلك القبيلة كبيرة العدد ، النشطة التى تسكن المنطقة الجبلية الممتدة من كيراك KERAK على شاطئ البحر الميت إلى مُعَان . بل أن رفيقنا نفسه كان فرداً من أفراد إحدى العائلات القوية فى تلك القبيلة ؛ فضلا عن كونه أيضاً أحد أقرب الأقارب إلى رؤساء العشيرة ؛ غير أنه خرّب سمعته وأثار الشكوك من حولها بسبب ارتكابه حوادث السرقة والسلب والنهب مراراً وتكراراً ، إضافة إلى ارتكاب حوادث القتل من حين لآخر ، إلى أن أصبحت سمعته الحالية لا تزيد عن كونه مجرمًا وخارجًا على القانون ، فقد كانت بنيته الضامرة وملامحه الداكنة وشفتاه المكتنزتان تعطى انطباعًا بالحزم والجرأة ، فى حين كانت عيناه الرماديتان توحيان بالبرودة والتأمل ، اللذين لا يخلوان من احتمال الخيانة .

وأنا أزيد على ذلك هنا ، أن الصورة الحلوة التى يرسمها الرحّالة من حين لآخر ، لطهارة القصد البدوى وعفته لا تتفق فى جميع الأحوال مع الوقائع الحقيقية التى قد يتمناها المرء ، وعلى العكس من ذلك ، نجد أن أعمال الخيانة التى يأتيها أصحاب الدم البارد لا تشيع أو تنتشر بين هؤلاء البدو الرُّحل : إذ نجد أن الغرباء الذين يحظون بحمايتهم وإرشادهم ، بل حتى إخوانهم المقربين إليهم فى الصحراء ، يكونون فى أحيان كثيرة ضحايا لمثل هذه الأعمال ، ومسألة تضليل الرحّالة ليسيروا على غير هدى فى البيداء إلى أن يصيبهم الإعياء بسبب الظمأ والإرهاق ، وسلب ونهب ما معهم ثم تركهم يموتون فى الصحراء ، مسألة بدوية تحدث مراراً وتكراراً ؛ كما أن الأمثلة على ذلك أكثر من أن نعزوها إلى مجرد المصادفة أو نعدها من قبيل الاستثناء ، وعلى ذلك ، فإن قافلة كثيرة العدد ، كانت تتكون فى معظمها من الأثرياء اليهود ، وهم فى طريقهم من دمشق إلى بغداد، ضيَّعها البدو المرشدون وضللوها ؛ وهلك الرحّالة إلى آخر رجل ، بينما راح مرشدوهم الذين خلت قلوبهم من الأيمان ، يراقبونهم من بعيد إلى أن تأكدوا أن الظمأ والشمس الحارقة قد قاما بعملهم ، ثم عادوا إلى مشهد الموت ونصَّبوا أنفسهم أوصياء على بضائع رفاقهم الذين وثقوا بهم ، وعلى أموالهم المنقولة وعلى ثرواتهم ، وقد صادفت ، أنا بنفسى ، أيام أن كنت فى حائل ، فى وسط الجزيرة العربية ، مؤلفًا عبريًا من الحجم الكبير ، كان ملكًا لواحد من أولئك اليهود التعساء . وقد أحضر البدوى ذلك المُؤلَّف ، الذى جاء ضمن نصيبه من المنهوبات ، عبر هذه المسافة الطويلة ، أملاً أن يحقق ربحًا من خيانته عن طريق بيع كتاب قيم من وجهة النظر الشرقية طالما أنه غير مفهوم .

وعلى كل حال ، وفيما يتعلق بـ سليم العطنة ، ومهما كانت العيوب والنقائص التى فى مظهره أو التى فى تاريخه الشخصى المعروف تمامًا ، فإن إحساسه الطيب وطابعه الرجولى كانا يشكلان أرضية مشتركة لثقتنا فى إخلاصه وولائه لنا فى وضعنا الحالى ؛ فهو رجل شجاع بعيد النظر ، وبغض النظر عن عدم إلتزامه بالمبادئ ، يمكن أن نوليه ثقتنا بقدر معلوم ، ومع ذلك يصعب علىّ أن أقول الشىء نفسه عن رفيقيه على وجوردى ، وهما من بنو الشرارات ، وهما مختلفان تمامًا من حيث المظهر والمخبر ، وهمجيان ، ومتقلبان ، ومتهوران ، إضافة إلى أن مقدرتهما الفكرية كانت ضئيلة وهزيلة شأنها شأن مكوناتها ، والحق أقول : إن سليم العطنة نفسه نصحنا مراراً بتجنب الانفتاح عليهما ، خشية أن يقلل ذلك الانفتاح من الخوف الذى يحسه الرجل غير المتحضر إزاء الرجل المتحضر .

كان زى البدو وتجهيزاتهم للرحلة التى من هذا القبيل عبارة عن : قميص طويل متسخ تماماً ، يصل طوله إلى ما فوق كاحل القدمين ، ومنديل أسود من القطن يضعه البدوى فوق رأسه ، ويثبته بحبل مصنوع من وبر الجمال ، ومشلح بالٍ ، مقلّم بالأبيض والبنى ، وحزام من الجلد ، ردىء الصنعة ، يتدلى منه سكين علاه الصدأ ، وبندقية فتيل مزعجة لها ماسورة طويلة ، ورمح مدبب أطول من البندقية ، وحزام من البارود المكسّر والملصوق إلى بعضه بالخيوط ، كان زى سليم العطنة بهذه الأوصاف نفسها ، اللهم باستثناء أن مكونات الزى كانت من نوعية أفضل .

أما أنا ورفيقى فقد كنا نرتدى زى اثنين من الرّحالة ينتميان إلى الطبقة المتوسطة جاءا من المناطق الداخلية من سورية ، وهذا الزى نفسه هو الذى مررنا به من غزه ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، إلى بلدة مُعَان دون أن يتفحصنا أحد ، أو يستجوبنا أى إنسان من أولئك الذين التقيناهم ، عندما كنا نعبر ذلك البلد الذى أطلق عليه كل من بوكوك POCOCKE، و لابورد LABORDE، ومن جاءوا بعدهما ، اسم ARABIA PETRAEA، إلى حد أنه ليس من الضرورى علىَّ أن أورد المزيد من ذلك الوصف ضمن كتابى هذا ، كان الزى الذى كنا نرتديه مكوناً فى بعض أجزائه من قميص خارجي من قماش القنب المصرى ، كنا نلبس من تحته ، وذلك على العكس من رفاقنا من الرحّالة البدو ، سروالا تحتانيًا فضفاضاً من القطن الفاخر ، يشيع ارتداؤه فى الشرق ، فى حين كنا نثبت غتره الرأس الملونة بعقال تبدو عليه الأناقة ؛ وجاء الحذاء الجلدى الأحمر الذى يشيع لِبسه فى هذه البلاد مكملاً لذلك الزى .

ومع ذلك ، فقد كانت الإخْراج التى كانت تتدلى على جوانب الجمال ، تحتوى على أزياء أكثر جمالاً من تلك التى كنا نرتديها ، حرصنا أن نخفيها عن أعين البدو ، انتظاراً الظهور بها عندما نصل إلى المناطق العامرة بالسكان، والأكثر تحضراً وتقدماً، كانت تلك الملبوسات الاحتياطية تشتمل على أشياء من قبيل : القمصان الخارجية الملونة ، والكمباز COMBAZ السورى ، ومناديل مقلّمه بالحرير بدلا من القطن ، وأحزمة مصنوعة من قماش جيد وزاهى الألوان ؛ أو بمعنى آخر كل الملابس اللازمة تماماً للحفاظ على تنكرنا، كنت أرتدى زى طبيب وطنى رحّال، أو إن شئت فقل طبيباً دجّالاً ؛ ومن هنا كان لابد من ارتداء الزى الذى يصلح لمهنتى الطبية ويناسبها ، أما رفيقى ، الذى كان ينتحل صفه زوج شقيقتى ، فقد كان يمتهن تجارة التجزئة ، ويتظاهر بأنه

زار هذه البلاد مراراً ، وفي بعـض الأحيـان الأخـرى كان ينتحـل صفة تلميذى أو مساعدى في مهنه الطب .

كانت المواد الصيدلانية التي نحملها معنا من العقاقير الفاعلة رغم قلة عددها ، وكنا نحتفظ بها في صناديق صغيرة محكمة الغلق مصنوعة من الصفيح ، ولكنها في الوقت الراهن ، كانت في قاع أخْراج[1] الترحال ، وقد بلغ عدد هذه الصناديق حوالى خمسين صندوقًا، تحتوى على ما يكفى لشفاء، أو قتل نصف مرضى الجزيرة العربية ، وقد حذفنا ، بقدر المستطاع ، من قائمة أدويتنا تلك الأدوية ذات الطابع السائل ، وكانت أسباب ذلك الحذف لا تتركز فقط في صعوبة تداول ونقل هذا النوع من الأدوية في ظل هذا الأسلوب الوعر ، من أساليب الترحال ، وإنما أيضا بسبب البخر السريع الذى يحدث لهذه الأدوية في مناخ جاف حارق من هذا النوع ، والحقيقة أقول أن اثنين أو ثلاثه قوارير من قوارير الأدوية السائلة ، التي كنت أرى أننا ستكون بحاجة ماسة إليها ، سرعان ما تبخرت ولم يتبق فيها أى شىء من الدواء ، اللهم باستثناء البطاقات التي لصقتها عليها توضيحًا لمحتوياتها ؛ لقد تبخرت محتويات تلك القوارير برغم أغطيتها التي لا تسمح بتسرب الهواء ، وبرغم تغليفى لها تغليفاً مزدوجًا ، وأنا أسجل هذا هنا ، من قبيل التذكير النافع لكل امرئ ينوى التنكر في الزى نفسه ، للقيام بمغامرات من هذا القبيل .

كما اصطحبت معى لاستعمالى الشخصى أيضًا كتابين أو ثلاثة من كتب الطب الأوربية ، الضرورية لممارسة المهنة ، حرصت على إخفائها بعيداً عن فضول العرب ؛ كما اصطحبت معى أيضًا مقالين من مقالات إيسكولاب ESCULAPE مكتوبين بلغة عربية سليمة، بغية التباهى المهنى من ناحية واستكمالاً لتجهيزاتنا من الناحية الأخرى. كما أخذنا معنا أيضًا ، قدراً كافيًا من القماش ، والمناديل ، والعقود المصنوعة من الزجاج ، وأطباق الغلايين ، وما إلى ذلك من تلك الأشياء ، لعرضها للبيع في الأماكن التي لا يروج فيها فن الشفاء من المرض ، وقد ملأنا أخراجنا عن آخرها بالأشياء التي من هذا القبيل ، أخيراً ، وليس بآخر ، حملنا معنا أيضًا جوالين كبيرين من البن ، كان ملاذ تجارتنا الأخير وأملها الرئيسى يشكل حمولة جمل قوى متين .

(١) واحده : خرج وهو ما يوضع على ظهر الحمار أو الجمل وتوضع فيه الأشياء أثناء السفر أو الترحال (المترجم) .

قد يتعجب القارئ من ذلك الشكل المركب من أشكال التنكر ، بل ربما يصفه تحت أى ظرف من الظروف ، بأنه شكل من أشكال المبالغة والتزيد ، غير أن مثل هذه التجهيزات أو الإجراءات التى تكون مساوية لها ، على أقل تقدير ، إذا لم تكن أمراً ضرورياً تماماً ، فهى مفيدة تماماً لأولئك الذين يودون الترحال الآمن فى وسط الجزيرة العربية ؛ أما الأسباب والمسببات الداعية لذلك فسوف أترك لمجريات الأحداث تفسيرها وتوضيحها ، وإذا ما أخذ القارئ العزيز كلامي مأخذ الصدق فإننى أقول : لولا اتخاذنا لهذه الإجراءات وتلك التجهيزات لما تمتع القارئ، تحت أى ظرف من الظروف ، بالقيام بهذه الرحلة العظيمة من خلال هذا الكتاب عن الجزيرة العربية العظيمة ، وهو جالس إلى جوار مدفأته ، بعيداً عن الأخطار التى تَعَيَّنَ على الرحالة أن يمروا بها والمنغصات التى أصابتهم أثناء قيامهم بهذه الرحلة .

وعلى كل حال ؛ لو قدِّر لنا ، قبل بداية الرحلة ، أن نعرف الطابع الحقيقى للبلدان التى زرناها ، فلربما استغنينا من ناحية عن جزء كبير من مؤننا وبضائعنا ، التى قصدنا بها أصلاً الاتجار مع البدو ، وزدنا ، من الناحية الأخرى مؤننا وإمداداتنا الطبية التى تصلح كثيراً للريف والحضر ، ولكن ، إذا ما افترضنا ، مثل سائر البشر ، أن الجزيرة العربية تكاد تكون مقصورة على البدو الرحل فقط ، وأن عدد السكان المستقرين لابد وأن يكون صغيراً وغير ذى بال قياساً على عدد سكان البدو ، فذلك يعنى أن الصنف الأول من تجهيزاتنا مهم مثل الصنف الثانى تماماً؛ وهذا خطأ خطير، سرعان ما تبيناه ، والسبب فى ذلك ، أننا بعد أن أنهينا المرحلة الأولى من رحلتنا ، أصبحت المرحلة الثانية منها التى اجتزنا فيها المناطق الداخلية إلى أن وصلنا تماماً إلى شاطئ الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، تمر خلال بلدان لا يمثل البدو فيها شيئاً على الإطلاق ، فى حين ، كان السكان المستقرون بأراضيهم ، ومدنهم ، وزراعتهم ، وحكوماتهم يمثلون كل شىء ، ومع ذلك لابد لنا أن ندرس كل ذلك ونتعلم منه .

والواقع أن مظهرنا شبه التجارى تسبب لنا فى كثير من المضايقات ، فى حين أن مظهرنا الطبى جنبنا الهزيمة الكاملة ، إذ وقع الحادث على النحو التالى :

معان تلك البلدة التى غادرناها منذ وقت قصير ، عبارة عن بلد صغير أو بالأحرى قرية صغيرة ، تقع على جانبى طريق الحج الذى يمتد من دمشق إلى مكة ، مسافة تقدر بمسير ثلاثة عشر يوماً من ناحية دمشق ، ومسير ستة وعشرين يوماً من ناحية مكة .

وقد ورد وصف هذه البلدة في الكتاب الذي كتبه السيد/ والين WALLIN عن الرحلة التي قام بها إلى شمالي الجزيرة العربية ، وعندما وصلنا إلى بلدة معان ، قادمين إليها من وادي العقبة ، في منتصف موسم الحج ، وجدنا حامية تركية صغيرة تحتل البلدة ، وتتمركز فيها طوال أشهر الحج ، لحماية الطريق وتأمينه ، في حين كان سكان البلدة في حالة استنفار واستعداد غير عاديين ؛ وهذه الأمور كلها ، غير مواتية لنا وليست في صالحنا ، نحن الذين كنا نريد أن نقلت من البلدة بهدوء وبدون أن يلاحظنا أحد بقدر المستطاع، وبينما كنا ننتظر في بلدة معان طوال عشرة أيام مرهقة، استرعى ظهور المرشدين القادرين على إرشادنا طوال رحلتنا ، انتباه حكام البلدة ، وانتباه الأفنديات الأتراك وانتباه الحامية التركية نفسها ، وجعلهم يراقبوننا عن كثب ، ولم يستطيعوا الوقوف على الأسباب التي جعلتنا نتخلى عن مبيعات رائجة ومربحة في طريق مكة ، وبخاصة في موسم الحج ، إلى مشروع أحمق لا طائل من ورائه ويتمثل في عبور الصحراء الشرقية ، وبناء عليه ومن باب السخرية منا ومن عملنا التجاري ، وبرغم أن تلك السخرية لم تخل من شيء من الشك والريبة ، راح هؤلاء الحكام والمسئولون يبذلون الجهود لإقناعنا بسلوك طريق مكة ، غير أن رفضنا أضحى محرجاً وغير منطقي ، ولن أقول أكثر من ذلك ، ومع ذلك ، توصل الآخرون الذين كانوا يولون فننا ومهارتنا الطبية اهتماماً كبيراً إلى تفسير مفاده أن الهدف الحقيقي وراء إصرارنا على أن نسلك طريق الجوف لابد وأن يكون البحث عن الكنوز المخبأة ، التي لا يعلم متى ومن خبأها سوى الله وحده ، في أعماق الجزيرة العربية ؟ وأن المغامرين المغاربة ، الذين يذيع صيتهم في الطب وفي العلوم الطلسمية ، هم الذين يبحثون عن هذه الكنوز ويعبرون الصحراء من أجلها بين حين وآخر ، وهذه الفكرة هي التي جعلت أصدقاءنا يساندون خطتنا أملاً في الحصول على نصيب من الأرباح المرتقبة ، ويشرعون هم أنفسهم في البحث عن مرشدين جيدين لنا ، لم يكن بوسعنا العثور عليهم بغير مساعدة هؤلاء الأصدقاء لنا ؛ وبذلك أمكن لنا بهذه الطريقة التغلب بسهولة على واحدة من المشكلات المعقدة تماماً ، ولنعد الآن إلى مسيرتنا مرة أخرى .

وبعد أن حملتنا رحلة الخبب السريع التي استمرت عدة ساعات ، إلى مسافة بعيدة عن بلدة مُعَان ، وأخذ احمرار القمر يتلاشى على أثرها من ناحية الغرب ، توقف مرشدونا عند بقعة صغيرة من العشب الجاف في منتصف السهل الصخري الأسود ، وبعد أن تبادلوا معنا كلمات قليلة ، وبركُوا الجمال وأنزلوا عنها أحمالها ، وتركوها

ترعى حرة ، تحت سمع وبصر واحد من المجموعة ، على حين نامت بقية المجموعة عدة ساعات بالقرب من أمتعتنا ، التي وضعناها على شكل كومة بالقرب منا ؛ ومع ذلك ، فقد كان النوم مجرد غفوة ، إذ ما أن بزغت أول خيوط الضوء من ناحية الشرق ومن خلف نجوم الصباح الفضية حتى أيقظنا المرشدون لنعيد وضع أحمالنا على الجمال ، ونمتطى صهواتها كيما نستأنف المسير .

وأشرقت الشمس ، ثم شاهدت بعد ذلك ، ولأول مرة ، ذلك الذى أصبح منظراً يومياً ، ألا وهو التعبد اليومي الذى يمارسه البدو فى أراضيهم ، وما أن بدأت أشعة الشمس تظهر عند الأفق ، حتى بدأ رفاقنا البدو الذين ولّوا وجوههم صوب قرص الشمس المشرق ، دون وضوء أو النزول عن ظهور جمالهم ، يتبادلون تلاوة صيغ وابتهالات محددة ، ولم يتوقفوا عن ذلك إلا بعد أن بدى قرض الشمس واضحًا عند حافة الصحراء ، وبرغم أنهم عبدوا الشمس قبل أن يبعث محمد (ﷺ) ، فقد ظلوا كذلك بعد بعثته ؛ كما أن كل ما قاله نبى الحجاز ، أو ما يردده القائمون على شريعته ، عن قرون الشيطان التى تشرق الشمس من بينها ، كما هو معروف أو هو ما يجب أن يعرفه أتباع محمد ، وبرغم عبادة الجن التى تترتب على الصلاة والعبادة ، فى مثل ذلك الوقت ، وفى وضع يتوجه البدو فيه بصلاتهم وعبادتهم صوب رأس الشيطان ، فأن كل ما قيل عن هذه الأمور أُلقِي بكامله على كاهل أولئك المشايعين المتعصبين للأعراف القديمة[1] .

والحقيقة هى أن دين محمد (ﷺ) ، لم يترك لدى السواد الأعظم من البدو الرّحل ، على امتداد اثنى عشر قرنًا سوى انطباع قليل جدًا عن الصواب أو الخطأ ؛ الحقيقة هى أن دين محمد (ﷺ) لم يكن له أيضا تأثير يذكر فى هذا الجزء من

(١) ما ذكره المؤلف عن تعبد البدو للشمس أو سجودهم لقرن الشيطان إنما هو تلبيس وتدليس ، حيث أن الثابت تاريخيًا أن الإسلام عم أرجاء الجزيرة العربية ، وأن جميع القبائل دخلت الإسلام سواء كانوا حضراً أم بدواً وأن ما ذكره المؤلف من التعبد تجاه قرص الشمس إنما هو الصلاة عند دخول وقت الصبح والاتجاه إلى القبلة ، التى غالبًا ما تكون جهة المشرق ، وأن تلك الترنيمات التى ذكرها المؤلف إنما هى التسبيحات والأذكار التى تقال عند الصباح فى كل يوم ويصدق ذلك حديث رسول الله (ﷺ) "أن الشيطان قد يأس أن يُعبد فى جزيرة العرب بعد اليوم" وهذا يدل على انتشار العقيدة الصحيحة فى كل أنحاء الجزيرة العربية فى حياة الرسول (ﷺ) ، وما كان بعد ذلك من انحراف ، فهو ردة وتقصير فى الالتزام بتعاليم الدين الإسلامى (د . حلمى عبد المنعم) .

الجزيرة العربية ، فى مطلع ظهور الإسلام ، وهذا هو ما يخبرنا به القرآن ، وما يقول به الأثر الوثيق ، وليس معنى ذلك أن البدو من جانبهم كانوا ممقوتين من إخوانهم المسلمين أو من الإله الواحد (الله) ، وإنما لأن البدو أنفسهم عجزوا ، ولا يزالون عاجزين ، عن تلقى أو استيعاب أى شىء من تلك التأثيرات المهمة ، أو الصيغ والممارسات الفكرية المحددة التى كانت بمثابة القوالب الأصيلة الخالدة عند مسلمى الحجاز وفى مناطق أخرى كثيرة ؛ والحال هنا يشبه أثر الختم الذى ينمحى بفعل الماء ، فى حين أن الشمع يحافظ عليه ، وهكذا نجد أن اللعنة التى تقول : "ولأنك متقلب مثل الماء ، فلن تتفوق" ، والتى قُصِدَ بها ريوبين REUBEN ، قد حلت بكل معانيها على بدو الجزيرة العربية ، وفى ذات الوقت ، ونظرا لأن البدو كان يحيط بهم المسلمون المخلصون من كل جانب ، أو لأنهم كانوا يعتمدون على هؤلاء المسلمين المخلصين ، فقد رأوا أن من الحكمة أن ينتحلوا بين الحين والآخر اسمًا شقيقًا ورمزًا ، وأن يسموا أنفسهم بأنهم من أتباع محمد فى الوقت الراهن ، بل إنهم كانوا يؤدون أيضًا بعض الصلوات أو الطقوس الإسلامية ، فى الوقت الذى كانوا يحاولون فيه تعلم شىء من هذه الصلوات أو الطقوس ، ولهذه الأسباب نفسها فإن البدو بصورة عامة أكثر حرصًا على الحفاظ على وجود عقيدة وأعمال تتباين تباينًا واضحًا عن العقيدة السائدة فى البلاد ؛ تمامًا مثلما فعل الفجر – رغم أنى لا أعرف إن كان ذلك صوابًا أم خطأ فى أوربا المسيحية على امتداد عدة قرون ، ومن ثم فإن هؤلاء البدو عندما يحسون بالأمان وأنهم فى مأمن من الخوف والكبت والسيطرة يبدءون فى الكشف عن ألوانهم الحقيقية ؛ ويندر على الغريب أن تسنح له الفرصة بمشاهدة البدو فى مثل هذه الظروف ، أما فيما يتعلق بأشباه البدو داخل الأراضى السورية ، أو المصرية أو الحجازية فإن الاختلاط المستمر ، مع البلدان ومع السكان التى تتخذ من الإسلام عقيدة ومذهبًا ، أعطى هؤلاء البدو بدورهم صبغة مميزة أيضًا ، من هنا فإن الحكم الذى أصدره العديد من الرحالة الذين اتصلوا بهذا أو ذاك النوع من البدو ، والذى مفاده أن البدو بصورة عامة هم من أتباع محمد ، مثل بقية المسلمين ، باستثناء البدو المتطين : هذا الحكم لا ينطبق إلا فى ظل القيود التى أوردناها آنفًا .

يبدو لنا سطح الأرض مستويًا وذا خلفية متجانسة من المسافات البعيدة ، ولكننا إذا فحصناه من مسافة قريبة يظهر لنا ، فى معظم الأحيان ، مكسرًا وليس مستويًا ، كما تظهر أيضًا ألوان عدة فى المنطقة التى لم نكن نرى فيها سوى لونًا واحدًا .

وقد أعلن ، على الملأ ، السيد/ فينلى FINLAY المؤلف المحايد ، صاحب كتاب " الامبراطورية البيزنطية "وليس هناك من وَهْم أكثر من وَهْم الحديث عن وحدة الكنيسة المسيحية" ، وأيا كان الأمر ، فبوسعى أن أثبت انطباق هذا الحكم انطباقًا تامًا على الإسلام فى الشرق ، إذ أن مقدار الانقسام السرى ، والحقد ، وخطأ العقيدة (إذا ما أخذنا دين محمد مقياسًا لنا) والكفر فى الأراضى التى تبدو من الناحية الشكلية داخلة فى عقيدة القرآن المشتركة الواحدة ، أكثر من أى مكان آخر فى العالم ، ومع ذلك سوف يتعين علينا أن نعود إلى هذا الموضوع مرارًا كلما مضينا قدمًا فى هذا الكتاب ؛ ولعلنا نكتفى هنا ببدو الشرارات الذين تجعل من عزلتهم داخل تلك "البرارى السحيقة العاصفة" مثالاً جيداً على جنس من البدو الحقيقيين الخُلّص .

وفيما يخص بدو الشرارات ، وجدت أنهم جميعًا وبلا استثناء ليسوا أفضل من أى راع من رعاة الماشية الإنجليز الأمناء، فى إلمامهم بصيغ العبادة المحمدية المعتادة ، بكل ما فيها من سجود وتكرار ، بكل وضوئها وطقوسها ؛ وجدت أيضًا أنهم لا يعرفون شيئًا عن الحج ، اللهم باستثناء معرفتهم لأساليب نهب الحجاج ؛ كما وجدت أيضًا أنهم لا يبالون بالتزامات شهر رمضان ولا بفضائل صومه ، ولكن وجدتهم ، من الناحية الأخرى ينحرون الذبائح التى من قبيل الأغنام والإبل على قبور الموتى من أقاربهم ، وأنهم يكررون هذه العملية ، وأنهم يعوضون النقص فى طقوس الإسلام بما يسىء إليه .

زد على ذلك أن رخصة السلوكيات البدوية المبالغ فيها هى التى تجعل منهيات ومباحات الشريعة الإسلامية (المحمدية) فى موضوع الزواج غير ذى بال ولا ضرورة لها ، وأخشى أن يكون الزواج الجماعى ، وليس التعدد ، هو الذى يجسد أحوال الزواج عندهم ، إضافة إلى أن العبارة التى تقول : "إنه لطفل ماهر ذلك الذى يستطيع تعرُّف من أنجبه" يشيع تطبيقها بين هؤلاء البدو ، والواقع أنه فيما يتعلق بموضوع الزواج ، وفيما يتعلق أيضًا بموضوعات أخرى كثيرة تتصل بذات الموضوع ، والتى أرجو من القراء أن يعفونى من الخوض فيها ، وجدتهم يرددون تعبيراً شائعًا بينهم يقول : "الكلاب أفضل منا" على مرأى ومسمع منى ، وأنا هنا أكبرُ فيهم قول الحق، كل الحق ، ولا شىء غير الحق ، وبعد هذه الصورة المبدئية التى رسمتها لحياة البدو وسلوكهم ، والتى سوف استكملها تباعًا ، هيا بنا نعود الآن إلى مسار حكايتنا اليومى .

عندما طالعتنا بعض الأشجار القزمية المتناثرة ، التى تعد علامات على مياه وقباء WAKBA، والتي كنا قد يممنا المسير إليها لم يكن يتبقى على حلول الظهيرة سوى ساعتين تقريباً وكانت الحرارة شديدة جداً ، وبينما كنا على بعد مسافة قصيرة من ذلك المكان ، استحث واحد من البدو المرافقين لنا ، جمله إلى حد الخبب واتخذ لنفسه مساراً دائرياً حتى يتأكد بنفسه من عدم ترصُّد أو اختباء أحد من أفراد القبيلة المعادية، في المنطقة المجاورة لآبار الماء ؛ ولكن المنطقة كانت خالية من الصديق والعدو، إذ كان المكان صامتاً ؛ وكانت أنقاض القرية المهدمة المهجورة التى تناثرت هنا وهناك على المنحدرات الزلطية وبالقرب من مجرى جاف لواحد من سيول الشتاء ، تبدو كئيبة فى حرارة شمس الظهيرة المتزايدة ، كما توجد فى تلك المنطقة عدة آبار ضحلة ، يكتظ بعضها بالأحجار ، ويعطى بعضها الآخر كمية ضئيلة من الماء قليل الملوحة المختلط بالطين ، وتقع بالقرب من الأشجار الشوكية ، وملأنا من هذه الآبار قرب الماء ، وهى عملية أنجزناها بحرص وإتقان ، لعدم وجود أى مصدر للماء ، على طريقنا ، إلا بعد مسيرة أربعة أيام بأقصى سرعة ممكنة ؛ وهذا اعتبار مهم ، خاصة فى أواخر شهر يونيو .

وبعد أن أنهينا كل هذه الأمور ، ركبنا الجمال مرة ثانية ، ووجهنا رءوسها صوب الشرق من جديد ، بينما رحت أنا أناظر المناظر الطبيعة الشاسعة من حولى ، وهنا بدأت تتراءى لنا سلسلة جبال شرعاء 'SHERAA ، برغم أنها كانت تختفى عن أنظارنا بسرعة نظراً لبعد المسافة ، فى حين كان يمتد على جانبينا ومن أمامنا سهل كئيب من العُدم الأسود الذى يبعث الملل فى النفوس ، لم يكن يحيط بنا من كل جانب سوى بحيرات السراب التى تخدع الأعين وتضللها بحدودها الخارجية الخادعة ، فى حين كانت تتناثر هنا أو هناك صخور البازلت التى كانت تظهر على نحو غير متوقع عبر ذلك السهل المستوى ، وتبدو بفضل انعكاس أشعة الجو الحار كما لو كانت جرفاً هائلاً شديد الانحدار أو جبلاً معلقاً ، أرض الموت الموحشة التي يبدو وجه العدو فيها منجاة وسط هذه العزلة التامة ، ولكن على امتداد خمسة أيام كاملة كانت سحالى السهل ، التى كانت أجسامها تبدو خالية تماماً من أية قطرة من الماء ، وكذلك الجرابيع ، أو فئران الحقل فى الجزيرة العربية ، هى المخلوقات الوحيدة التى كانت تواسى أبصارنا .

ثم تلت ذلك مسيرة ، ربما ندمنا خلالها على القيام بهذه الرحلة ، لو كان للندم نفع أو فائدة، فقد وجدنا أنفسنا يومًا بعد آخر نستحث جمالنا طلبًا لسرعتها القصوى، طيلة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، تحت شمس عمودية من فوقنا ، والتي كان أحباش هيرودوت على حق عندما لعنوها ، ولم يكن على سطح الأرض ولا في رفاق الرحلة أي شيء يمكن أن يريح البصر أو الذهن ولو للحظة واحدة ، ثم تلت ذلك وقفة قصيرة كي نستريح أو ننام خلالها ، مدة ساعتين أو ثلاث على أكثر تقدير ، سرعان ما كان يتخللها دوي التحذير الذي كان يتردد في معظم الأحيان ليحذرنا أننا "إذا تخلفنا في هذا المكان فسوف نموت جميعا من الظمأ" ؛ ثم نعود إلى ركوب جمالنا المجهدة ونروح نستحث خطاها في جوف الليل البهيم وسط احتمال مستمر بهجوم السلاَّب الجائلين علينا ونهب ما معنا ، أما أنا نفسي ، فقد كنت تحت تأثير حمى رجعية أصابتني عندما كنت في بلدة مُعَان ، وبدا ذلك الذي كان يتأرجح بين الإجهاد والروح المعنوية المتدنية ، يتخيل بحق أن الماء الذي كان ينتظرنا هو ماء الموت لنا وماء النسيان لأصدقائنا ، ومرت الأيام كما لو كانت حلمًا مليئًا بالهذيان ، إلى حد أننا كدنا ، في أحيان كثيرة ، نفقد الوعي بالأرض التي نسير عليها وبالرحلة التي نقوم بها ، ولم يظهر عند أقدامنا سوى نوع واحد من العشب ليوحي لنا بشيء من التغيير والحياة ؛ إنه عشب الحنظل المر الصحراوي السام .

وجاء نظام سيرنا على النحو التالي ، فقد كنا نبدأ المسير قبل طلوع الفجر بوقت طويل ، ونستمر فيه، إلى أن تصل الشمس إلى وضع تتوسط فيه الأفق وسمت الرأس ، وهو الوقت المحدد لإشعال النار طلبًا لأعداد وجبة الصباح ، وكان البدو المرافقين لنا يحرصون دومًا أن يكون ذلك في غور من الأغوار الأرضية أو في مكان منخفض ، حفاظًا منهم على الإخفاء والتستر : أما في الأمور الأخرى فقد كان لنا مطلق الحرية ، إذ كانت مسألة اختيار رقعة صغيرة من الأرض التي يكسوها الحصى الأسود وشيء من الرمل والحشائش الجافة ، طلبًا للمأوى أو الظل أو الأشياء التي من هذا القبيل ، أمرًا لا يقبل الجدل أو النقاش في مثل هذه "الأرض الجرداء" ، وبعد أن أشعلنا النار ، كنت أنا ورفيقي نكدس أمتعتنا على شكل جدار يشكل شبه حاجز يحمينا من أشعة الشمس الحارقة، ونستلقي بجواره فترة من الوقت ، ثم تبدأ بعد ذلك تجهيزات الطهو ، التي تتفق تمامًا مع طبيعة المؤن التي نحملها معنا ، والتي كانت غاية في البساطة وتماثل تلك المؤن الحقيقية التي يتزود بها الرحالة العرب الحقيقيون ؛ كانت تلك المؤن

على وجه التحديد عبارة عن جوال من الدقيق الخشن المخلوط بالملح ، وقليل من التمر ، دون أن يكون هناك صنف ثالث على قائمة الطعام ، ثم أحضرنا بضع حفنات من الدقيق ، عجنها أحد البدو بيديه غير المغسولتين أو بقطعة من الجلد المتسخ ، وصب عليها شيئًا من الماء الآسن الذى فى حوزتنا ثم قام بعد ذلك بتسوية العجين على شكل كعكة كبيرة مستديرة ، يصل سمكها إلى حوالى بوصة واتساعها حوالى خمس أو ست بوصات ، وفى ذات الوقت ، يقوم بدوى آخر بإشعال النار فى شىء من الحشائش الجافة ، وجذور الحنظل ، وروث الإبل الجاف ، إلى أن يصنع من ذلك جمرًا متوهجًا ؛ ثم يلقى بالكعكة بين هذه الجمرات ويغطيها بعد ذلك مباشرة بالرماد الحار ، ويتركها بضع دقائق ، يخرجها بعدها ليقلبها على الوجه الآخر ، ثم يغطيها بالرماد الحار مرة ثانية ، إلى أن تصبح فى النهاية نصفها عجين ، والنصف الآخر نيئ ، وشبه مخبوزة ، وأكثر من نصفها محروقا ، ثم يخرجها بعد ذلك لتقسم على المجموعة الجائعة ، لتأكلها وهى حارة تمامًا قبل أن تبرد وتتحول إلى مادة جلدية تستعصى على الوصف ، تتحدى أشد الشهايا انفتاحًا ، ولم يكن يصاحب هذه الكعكة سوى جرعة من الماء الآسن .

وبعد أن انتهينا من تناول الوجبة ، استأنفنا على الفور مسيرنا من سراب إلى سراب ، إلى أن "قارب على الانتهاء ذلك النهار الذى كان يزداد حرارة على حرارة" ، وقبل غروب الشمس بحوالى ساعة واحدة كنا نترنح ونحن ننزل عن ظهور الجمال ، استعدادًا لتجهيز وليمة المساء التى كانت تمامًا من قبيل وجبة ما قبل الظهيرة ، بل إننا فى أحيان كثيرة كنا نكتفى بالتمر ونصف ساعة من الراحة على الرمال ، خشية أن يلفت إلينا الدخان الصادر عن النار انتباه أفّاق بعيد عنا ، وأخيرًا نفذ التمر ، مثلما نفذ كيس خبز عيسوب (ESOPE) AESOPE أو بيهاس BEYHAS نظيره العربى ؛ وهنا تحول عشاؤنا إلى ما يشبه عشاء الجنود ؛ ذلك الذى يعرفه أصدقائى من العسكريين ؛ ولم يكن لنا من سرير سوى حبيبات الرمل والحصى، وبعد النوم على الرمل والحصى ، كنا نعاود ركوب الجمال ، ونستأنف المسير فى ضوء القمر أو الاهتداء بالنجوم ، إلى ما قبل منتصف الليل بقليل حيث كنا نستلقى أرضًا لنأخذ قسطًا كافيًا من النوم الذى كنا نعذب به أنفسنا ولا نريح به أجسادنا .

"هل ستواصل المسير معى ؟ " أيها القارئ الكريم ، فى هذه الرحلة العربية ؟ من ناحيتى ، أنا أقر أن تذكرى تلك الحكاية الصغيرة فى الرائعة التى عنوانها "الجمال

النائم" التي كتبها صديق من أصدقائي ، أن أذن لي أن أسميه بهذا الاسم ، والذي يعني اقتباسي عنه تسمية له – تلك الحكاية التي لها مغزى رغم أن مؤلفها ينكر ذلك – هي التي قوّتني وشدت من أزري في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى شبيهة بها ؛ إنه "تكرار الفشل ، وتوحّد النجاح" ، والثقة في "تنوير شيء عادل" هما اللذان رفعا من روحي المعنوية وشجعاني ، وبذلك يمكن القول بأني "ربطت هذا الهدف بنهاية مفيدة" ، مع العلم بأن ذلك الهدف لم يكن تماماً ذلك الهدف الذي كان يقصده ألفريد تينيسون TENNYSON. ومع ذلك ، شأنه شأني تماماً ، يتعين عليه أن يرهق نفسه فترة من الوقت مروراً بمصاعب ذلك "الحاجز " HEDGE الصحراوي ، إلى أن يقتحم حاجزاً آخر جميلاً ، مثلما فعل الأمير ، إن لم تخنه شجاعته ؛ إن أشياء أجمل وأحسن تنتظرنا في الفصول القادمة .

يضاف إلى ذلك التشجيع الذي استجمعناه أنا ورفيقي من الذاكرة ومن بنات أفكارنا ، أن رفاقنا من البدو كانوا يشجعوننا دوماً وفي جميع الأوقات ، بأن راحوا يؤكدوا لنا إنه برغم أن ذلك الأسلوب الترحالي السريع يعد أمراً ضرورياً تماماً في أرض يحيط بها الخطر والجفاف من كل جانب ، إلا أن هناك مسيرات لينة هينة وحرمان أقل في انتظارنا فور وصولنا التخوم الحدودية لـ طلال بن الرشيد ، عاهل جبل شومر SHOMER. وأضاف هؤلاء الرفاق أن تلك الحدود تبدأ من وادي السرحان VALLEY OF SERHAN، الذي كنا نقترب منه بسرعة ، والماء فيه عذب وغزير ، ويحميه اسم طلال القوي من الأعداء والغزاة ، آناء الليل وأطراف النهار .

أفاض البدو المرافقون لنا في الحديث عن طلال ، وتحدثوا كثيراً عن نشاطه ، وعدله ويقظته ، وعن شجاعته العسكرية برغم حديثهم في الوقت نفسه عن تذمرهم منه لأنه يقمع حرية البدو ، والقيود التي قيّدَ بها حقوق البدو الفطرية في النهب والسرقة والقتل من وجهة نظرهم هم تلك الشكاوى التي جعلتنا ، على العكس مما قصد إليه الراوي نزيد ولم نقلل من تثميننا لذلك الحاكم ، أيًّا كان ، وحتى ذلك الحين ، لم يكن قد توفر لدينا سوى القليل جداً من المعلومات عن التاريخ الشخصي لذلك الأمير أو مركزه السياسي ، كان يسعدنا أن نعرف إن كانت سلطته أساسية أم ثانوية ، وهل هو مؤسس مملكته أم وارثاً لها ؟ وما مدى وطبيعة المملكة ذاتها ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، كنا نود معرفة كل هذه الأشياء وحاولنا الوقوف عليها من كل من علي ، وسليم العطنة ،

وجوردى ، ولكننا لم تنجح فى ذلك : والسبب في ذلك أن أفكارهم ولغتهم كانت مرتبكة ومتضاربة نظرًا لأن الأمر كان أكبر من مستواهم ، من هنا ، فإن كل ما استطعنا التأكد منه فى تلك المرحلة ، هو أن ذلك الأمير كان يقيم فى مدينة حائل ، التى تقع فى جبل شومر SHOMER، فى مكان ما ناحية الجنوب الشرقى ؛ وأن هذا الأمير كان قويًا جدًا ؛ وأنه لم يكن يسمح داخل مملكته بالسلب أو النهب أو الخروج على النظام العام : وأن كلمته كانت تسرى مسرى القانون فى وداى السرحان من الناحية الجنوبية والناحية الشرقية ، ورأينا فى وضعنا الراهن أن نكتفى بهذه المعلومات على أمل أننا كلما اقتربنا من مملكته زادت معلوماتنا واتضحت أكثر فأكثر .

كنا نعلم فعلا أن وسط الجزيرة العربية، ينتمى فى بعض أجزائه، على أقل تقدير ، إلى الأسرة الوهابية المالكة ، وأنا أحسب أن القراء على علم تام بالاسم "وهابى" ومغزاه العام إلى الحد الذى يعفينى هنا من تقديم تفسير مسبق لهذا الاسم ، وبخاصة أن فصولاً عدة من هذا الكتاب سوف تتناول الأرض والسكان اللذين أعطيا ذلك الاسم شهرة واسعة وصيتًا ذائعًا ، وعن طلال بن الرشيد بصفة خاصة ، وبصفته حاكمًا يرتبط بالوهابية بشكل أو بآخر ، سمعت ذلك يتردد ولكن بصورة غامضة وغير واضحة فى كل من سوريا ودمشق ؛ حيث كان البعض يميزونه عن الأسرة المالكة فى نجد ويخلط البعض الآخر بينه وبين الأسرة نفسها . وعليه جمعنا بين هذا وذاك ، وتوصلنا إلى أنه لابد أن يكون حاكمًا تابعًا ، أى حاكمًا إقليميًا ، نائبًا عن الحاكم الوهابى ؛ وهذا نوع من الحدس ، لم يكن يمثل سائر أنـــواع الحــدس الأخرى ، صائبًا تمامًا أو خاطئًا تمامًا .

كان اليوم يوافق الثانى والعشرين من شهر يونيو ، أى اليوم الخامس من تاريخ مغادرتنا منطقة أبيار وقباء ، ولم يكن الماء المتبقى فى القرب الجلدية والتى زادت فيه نسبة الطين ، يكفى لإطفاء ظمئنا ، ولم تظهر حتى الآن دلائل الحصول على كمية جديدة من الماء ، وأخيرا وصلنا ، قبيل الظهر إلى بعض الهضاب الصغيرة التى تتكون من الزلط والحجر الرملى ؛ وإلى اليمين منا تشاور البدو المرافقون لنا مع بعضهم بعضا برهة قصيرة ، غيروا بعدها مسارهم ومسارنا إلى نفس الاتجاه ، ونادانا سليم قائلا : "تشبثوا بالجمال لأنها سوف تفزع وتدور حول نفسها ، ولم أفهم الأسباب التى تجعل الجمال تفزع وتدور حول نفسها ؛ فقد شاهدنا أثناء عبورنا الجبال التى ورد

ذكرها خمسا أو ستًا من الخيام السوداء ، من النوع الفقيرة جداً والمتواضع تمامًا ، نصبها أصحابها بالقرب من بعض الأبيار المحفورة في التجويف الزلطى في الأرض المنخفضة عن هذه الخيام ، وهنا بدأت تتضح أسباب التحذير الذى أطلقه سليم ، إذا بدأت جمالنا السخيفة ، بعد أن أبصرت الخيام ، كما لو كانت لم ترَ شيئًا من هذا القبيل قط قبل ذلك ، بدأت الجمال تعدو هنا وهناك ، وتروح هنا وتروح هناك ، إلى أن تسبب نخعها (لأن ركوض الجمل يشبه ركوض البقرة) وضحكنا ، فى فشلنا فى البقاء على ظهورها ، وهنا سرعان ما تغلب ظمأ الجمال على ألفتها ، فتركت مزاحها وراحت تقترب من حافة البئر وتتشمم ما به من ماء .

وشببنا النار ، وسرعان ما اقترب منا سكان الخيام ، وهن عدد من النسوة يعددن على أصابع اليد الواحدة ورجل أو اثنان من كبار السن ، وكلهم ينتمون إلى قبيلة الشرارات ، التى تنتشر فى أنحاء هذه الصحراء ، اقتربوا منا ليقولوا لنا "مرحبًا" و"يا هلا" إلخ كل هذه العبارات ، وليسألونا أيضًا عن أسباب رحلتنا والمكان الذى نقصده ، ولم يكن فضولهم هذا بدون مبرر ؛ والسبب فى ذلك أن المسار الذى سلكناه إلى هذا المكان لم يكن مطروقًا فى أى وقت من الأوقات ، وبخاصة القادمين من دمشق أو من المنطقة المجاورة لها ، فقد دلت ثيابنا ولهجتنا على أننا من دمشق ، وفى هذه الفترة من ذروة الصيف ، غير أننا كنا قد بلغنا من التعب والإرهاق مبلغًا لم نستطع معهما التحدث كثيراً عن هذه الأمور ، وكنا نبحث عن قليل من الظل كى نستظل به بعد هذه المسيرة الطويلة ، بدلاً من حديث مستفيض عن أسباب الرحلة ومقاصدها ، وعليه ، تركنا البدو المرافقون لنا لحال سبيلهم ، فقد كانوا هم أيضًا مهدودين من التعب والإرهاق ، وراحوا يسحبون الماء من البئر بطريقتهم الخاصة ويسكبونه فى التجويف الصغير المجاور للبئر كى تشرب منه جمالهم ، ولو شاركنا فى هذه العملية لكنا قد عطلناها بدلاً من المساعدة على إنجازها ؛ وبعد الاستئذان والموافقة ، دخلنا خيمة صغيرة ضيقة كان الهدف من أغطيتها السوداء هو استبعاد الضوء ومنع انتقال الأشعة المتولدة عن حرارة الظهيرة ، وداخل الخيمة استلقيت أنا ورفيقى على الرمل إلى أن يحلوا لرفاقنا البدو أن يجيئوا إلينا ويجبروننا على النهوض ، وقد حاول الأخساء أن يجبرونا على النهوض بعد فترة قصيرة جداً غير أننا أجبناهم ، أننا طالما أصبح لدينا كمية كافية من الماء ، وطالما اقتربنا ، أو كدنا نقترب ، من تخوم ابن الرشيد الحدودية فليس هناك ما يدفعنا إلى مثل هذه العجلة وهذا التسرع ، ولما كان

سليم متفتحًا فقد سلَّم بقوة الأسباب التى أوردناها ، وبقينا داخل الخيمة إلى أن غابت الشمس وبدأ النسيم العليل ، وفى ذات الوقت أتحفتنا صاحبة الخيمة ، تلك العجوز القبيحة الشمطاء طيبة القلب ، شأنها فى ذلك شأن غالبية البدويات بخطبة انتقادية لاذعة عن استبداد ابن الرشيد ، والقهر الذى كان يمارسه على أبناء بلدها ، خلصنا منها إلى أن ابن الرشيد كان يؤدى ذلك الذى يكون مفروضًا على ملك يحب النظام ، ومن هنا ازدادت قيمته فى نظرنا .

وعندما استأنفنا مسيرنا فى المساء اكتشفنا تغير شكل الصحراء العام إلى حد ما إذ بدأت تظهر على سطح الصحراء الأسود بقع كبيرة من الرمال والحشائش ، التى تزايدت أعدادها وأحجامها مع استمرار مسيرنا ، وفى اليوم التالى ، الموافق الثالث والعشرين من شهر يونيو ، زاد وضوح العلامات التى توحى باقتراب وصولنا إلى وادى السرحان ، وعندما اتجهنا صوب الشمال حتى يتسنى لنا الدخول إلى وادى السرحان شاهدنا عن بعد سلسلة من التلال الزرقاء ، تمتد من الغرب إلى الشرق ، وتشكل جزءاً من البيداء السورية العربية ، وأَعْلَمُ جيداً إنها لم ترد ضمن الخرائط الأوربية ، وربما كان السبب فى ذلك هو عدم اكتشاف ذلك الجزء ، أو بسبب عدم اكتشاف ذلك الجزء ، أو بسبب عدم استكشافه تمامًا على أقل تقدير ، وراحت ، فى الوقت نفسه ، البقع الرملية تتزايد من حولنا فى كل اتجاه كما راح البدو المرافقون لنا يمنون أنفسهم بالوصول إلى وادى السرحان قبل حلول الليل .

ومع ذلك ، وقع عند هذه المرحلة من الرحلة ، حادث كاد أن ينهى على الرحلة والرَّحَّالة على حد سواء ، و لا بد أن يكون القارئ ، قد قرأ مثلما قرأت أو سمع مثلما سمعت قصصاً كثيرة عن ما يسمى بالسَّمُوم ، أو تلك الريح الصحراوية المميتة ، ولكن بالنسبة لى لم يحدث قط أن واجهتها وهى فى كامل قوتها وعنفوانها ؛ ولم يحدث قط أن واجهتها فى شكلها المعدل ، أو فى مرحلة الشلوك ، كما يقول المصطلح العربى ، معنى ذلك أن الشلوك هذه هى الريح الحارة المزعجة التى تهب على البيداء السورية ، وبرغم أن هذه الريح مزعجة بما فيه الكفاية إلا أنها لا تدخل فى عداد الرياح الخطرة ، من هنا فقد آثرت تسجيل الحكايات التى حكاها أصحابها عن الظواهر الغريبة والآثار المميتة، التى تترتب على هذه "العاصفة المسمومة" ضمن حكايا الكثبان الرملية المتحركة ، التى ورد ذكرها فى كتب تتسم بالطابع التاريخى أكثر من كتاب "THALABA".

وعندما كنت استفسر من أولئك البدو الذين كانوا يشاركون في أرتال اجتياز الحدود أو في القوافل التي تجوب الرمال ، عن مثل هذه الحكايات ، كانوا ينفجرون في الضحك ، ويقولون : إنه باستثناء العواصف الترابية الطارئة ، التي تشبه تلك العواصف التي يندر ألا يواجهها أي إنسان يزور بلاد السند SINDE في فصل الصيف فإن الجزيرة العربية لا يهب عليها أي نوع من أنواع الرياح الرومانسية التي كنت ألح إليها ، ولكني عندما كنت أسألهم عن تاريخ السموم ، كانوا يأخذون الأمر ، دومًا ، مأخذ الجد ، وهاهو ما نحن فيه الآن .

كان الوقت قبيل الظهيرة ، وما أدراك ما الظهيرة أيام الصيف تحت سماء الجزيرة العربية الخالية من الغيوم ، وفوق الصحراء المحروقة ، عندما بدأت تهب فجأة عصفة ريح حارقة على شكل نوبات متقطعة ، من ناحية الجنوب ، وراحت كثافة الهواء ووطأته تتزايدان لحظة بعد أخرى ، إلى أن بدأت أسأل رفيقي ويسألني عن معنى ما يدور من حولنا ، وما يمكن أن يترتب عليه من نتائج ، واتجهنا بأسئلتنا إلى سليم العطنة الذي كان قد لف وجهه بالفعل في عباءته وانحنى إلى الأسفل منكفئًا على عنق جمله ، ولم يجبني ولو بكلمة واحدة ، وكان زميلاه من بدو الشرارات ، قد اتخذا وضعاً مماثلاً والتزما الصمت تماماً . أخيراً ، وبعد أن عاودت السؤال مراراً أشار سالم بدلاً من أن يجيب على سؤالي بطريقه مباشرة ، إلى خيمة صغيرة شاءت العناية الإلهية أن تكون أمامنا وبالقرب منا ، ثم قال : "حاولا الوصول إلى هذه الخيمة ، لأننا إن أفلحنا في الوصول إليها سنكون من الناجين" ، وأضاف قائلاً " انتبها ولا تدعا جمليكما يتوقفان ويبركان" ؛ وراح يكيل لجمله العديد من الضربات ، ثم لفّه صمتٌ رهيبٌ .

ونظرنا بلهفة إلى الخيمة ؛ وكانت لا تزال تبعد عنا بحوالي مائة ياردة أو ما يزيد على ذلك ، وازداد ، في الوقت نفسه ، عصف الريح حرارة وعنفًا ، ولم نستطع حث جملينا على المضي قدمًا إلا عن طريق محاولة ذلك مراراً وتكراراً ، وسرعان ما تحول لون الأفق إلى اللون البنفسجي الداكن ، وبدى وكأنه يطبق علينا من كل جانب مثل الستار ؛ في حين بدأت تهب ، في الوقت نفسه ، خلال هذا الجو الكئيب عصفة خانقة ، كما لو كانت صادرة عن فرن هائل انفتح فجأة في طريقنا ؛ وبدأ جملانا أيضاً ، برغم كل المحاولات التي بذلناها يدوران من حول نفسيهما ويثنيان ركبهما استعداداً للبروك . لقد أطبقت علينا ريح السموم .

وكان من الطبيعي أن نحنو حذو العرب الذين كانوا يرافقوننا بأن غطينا وجوهنا ، ورحنا أيضًا نستحث جمالنا عن طريق الضرب والركل إلى أن أجبرناها على المضى قدمًا صوب الملجأ الوحيد الذى فى متناولنا ، وقد بلغت ظلمة الجو ، والحرارة الحارقة حدًا هُيِّئ لنا عنده أن جهنم قد بزغت من الأرض ، أو هبطت علينا من السماء ، ومع ذلك وصلنا الملجأ المنشود فى الوقت المناسب ، وفى اللحظة التى بدأت العصفة السامة تحيط بنا فى أسوأ مراحلها ؛ وعندها كنا جميعًا ساجدين داخل الخيمة ، وقد لففنا رءوسنا ، ونكاد نموت خنقًا ، ولكنا كنا فى مأمن من تلك الريح ؛ بينما كانت جمالنا ترقد خارج الخيمة وكأنها قد نفقت ، وهى تفرد أعناقها الطويلة على الرمل فى انتظار مرور العاصفة .

كان بداخل الخيمة عندما دخلناها أول مرة امرأة بدوية عجوز وحيدة ، كان زوجها يرعى إبله فى وادى السرحان ، وعندما أبصرت تلك المرأة العجوز خمسًا من الرجال المتأنقين ، مندفعين إلى داخل منزلها دون استئذان أو تحية ، كان من الطبيعى تمامًا أن تطلق صرخة تعبر عن الاستغاثة من القتل ، أو الحريق أو السرقة ، وأنا لا أعرف شيئًا آخر غير ذلك ، وسارع سليم إلى طمأنة العجوز بأننا "أصدقاء" ، ثم ألقى بنفسه على الأرض دون أن يلفظ كلمة أخرى ، وحذى الجميع حذو سليم فى صمت .

وبقينا على ذلك الوضع مدة عشر دقائق شعرنا خلالها بموجة حرارية ، تمر من فوقنا مثل تلك الموجة الصادرة عن الحديد بعد أن يُسخن إلى درجة الاحمرار ، ثم بدأت جدران الخيمة تترجرج على إثر عصفات الريح العائدة ولتعلن لنا أن أسوأ مراحل ريح السموم قد انتهت ، ونهضنا على أقدامنا ، وكاد يقتلنا الإرهاق والإعياء ، ورفعنا الأغطية عن وجوهنا ، وبدى رفاقى كما لو كانوا جثثًا وليسوا أحياءً ، ومن المسلم به أننى كنت على الحال نفسه ، وعلى كل حال ، لم يكن بوسعى ، رغم التحذيرات ، أن أمتنع عن الخروج وألقى نظرة على الإبل ؛ التى كانت لا تزال مستلقية على الأرض كما لو كانت قد قتلت رميًا بالرصاص ، كان الهواء لا يزال مُغْبرًا ، غير أنه صفى مرة ثانية بعد فترة قصيرة وعاد إلى حاله التى كان عليها قبل العاصفة . كانت فترة هبوب ريح السموم خالية تمامًا من الرمل والغبار ؛ إلى حد أننى لا أعرف الطريقة التى أستطيع بها تعليل هذا التناقض الفريد .

أما عن مضيفتنا ، وبعد أن تخلصت من قلقها ، وانتهت مخاوفها ، التى لم يكن لها ما يبررها ، فقد ظلت بلا حراك فى ركن من أركان الخيمة وهى مغطاة تماماً ، إلى أن انتهت عاصفة السموم ، واستغلت العجوز فصاحة لسانها ، فى أن تقدم لنا أفضل دليل على أن عاصفة السموم قد انقضت دون أن تخلف ورائها عرض من أعراضها ، وراحت أيضاً تشبع فضولها الشديد نحونا بعد التحفظ الذى فرضته عليها ظروف دخولنا الخيمة أول مرة ، ثم استأنفنا مسيرنا فى ساعة متأخرة من المساء ؛ ثم دخلنا ، فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، وادى السرحان ، الذى أدخلنا فيه الكثير من التعديلات على طابع الرحلة التى كنا نقوم بها ، وقد يكون من المناسب ، قبل أن أروى ما حدث لنا فى ذلك الوادى ، أن أقول شيئاً عن الموقع العام لذلك الوادى وخصائصه ، وعلاقاته النسبية مع الصحراء التى تحيط به ، هذا لا يعنى أن وادى السرحان ليس معروفاً للجغرافيين أو الرحَّالة ، وإنما هناك بعض التفاصيل الخاصة بهذا الوادى ، وبخاصة فى فرعة الجنوبى ، التى يهم القارئ العادى أن يعرفها ويقف عليها ، ويجب ألا يغفلها البحث العلمى إغفالاً تاماً .

هناك حزام صحراوى واسع يمتد من جنوب البيداء السورية ، ويسير بمحاذاة المنطقة المجاورة للبحر الميت إلى أن يصل إلى وادى نهر الفرات ، وتتشابه أوصاف الجزء الأكبر من ذلك الحزام ، مع تلك الأوصاف التى أوردناها عن ذلك الجزء الذى عبرناه من الصحراء ، فالتربة فى هذا الجزء قاسية وصخرية ، تتخللها بعض مصادر الماء الذى يصل إلى سطح الأرض ، حتى فى فصل الشتاء ؛ وفى فصل الربيع تنبت فيه الحشائش والأعشاب على شكل بقع متناثرة ، ولكنه يكون جافاً تماماً فى فصلى الصيف والخريف ؛ وأرض هذا الحزام مستوية بشكل عام ، ورتيبة وجرداء ، وترى فى هذا الحزام صخرة منعزلة هنا أو هناك ، أو مجموعة من التلال الخفيضة ، وقد نشاهد فى أحيان نادرة جداً سلسلة مستمرة من الارتفاعات الضئيلة ، المحددة المعالم الخارجية ، والتى تتخلل ذلك الحزام الصحراوى ، هذا هو القطاع الشمالى من تلك الحلقة الصحراوية التى تحيط بالجزء الأوسط من الجزيرة العربية ، وهذا هو ما يجعل الاتصال المعتاد صعباً بين ذلك الجزء والأراضى المجاورة له فى كل من سوريا وبغداد ؛ وهذه الحلقة الصحراوية هى التى تعزل وسط الجزيرة العربية عن المناطق البحرية مثل الحجاز ، واليمن ، وعُمَان ، وإذا ما توغلنا جنوبياً نجد أن هذه الحلقة الصحراوية ، برغم استمرارها ، تتخذ شكلاً مختلفاً ، ولكننا سنتكلم باستفاضة عن

ذلك الجزء ، في مرحلة لاحقة من هذا الكتاب ، عندما يحين أوان اجتيازنا لمواضعه التي تقع على طريقنا .

وعلى أية حال، فإن الصحراء الشمالية ، التي هي محط اهتمامنا في هذه المرحلة، تحتوي ، برغم قفرها وجدبها ، على بعض المناطق الحظيظة نسبيًا ، إذ الماء فيها غزير والحياة النباتية وفيرة ، وتشكل هذه الأماكن أفضل المنتجعات عند البدو ، كما تستعمل هذه الأماكن أيضًا في تحديد المسارات المعتادة التي يسلكها مختلف الرحّالة سواء أكانوا تجارًا أم لدوافع أخرى ، وأولئك الذين قد يخاطرون بعبور هذه البرية ، هذه الواحات ، إن كانت تستحق بحق أن نطلق عليها هذا الاسم ، تكونت نتيجة انخفاض طفيف في سطح الصحراء المحيطة بها ، كما تشكل في بعض الأحيان واديًا طويلاً ، أو إن شئت فقل رقعه من الأرض بيضاوية الشكل، تنعدم فيها التربة الزلطية والرملية ، لتحل محلهما تربة مختلطة بالرمل ، وتخفي تحت سطحها مقدارًا كبيرًا من الرطوبة على بعد مسافة قريبة تحت الأرض ، ونتيجة لذلك تنبت في هذا الوادي الأجمات ، والحشائش ، والأعشاب ، كما أن فترة اخضرار الحشائش هنا ، إذا لم تكن على مدار العام فإنها أطول منها في أي مكان آخر ؛ كما تنمو في هذا الوادي أيضا بعض النباتات المثمرة ، من الأنواع التي تفي باحتياجات البدو الحياتية الهزيلة ، وهذه الأشجار تنمو تلقائياً في هذا المكان ؛ خلاصة القول ، إن الإنسان والحيوان لا يجدان العيش الوفير وإنما الضروريات التي تحفظ عليهما الحياة ، هذا هو وادي السرحان ، ومعنى هذا الاسم الحرفي هو "وادي الذئاب" ، الذي ربما أطلق عليه هذا الاسم نتيجة تقليد قديم مفاده أن الذئب كان الحيوان الرئيسي في ذلك المكان ، ولكن يبدو أن الأصل الدقيق لهذا الاسم ربما اندثر مع الكثير من ماضي العرب ، هذا المنخفض المتعرج الطويل يمتد في الأصل ، من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي ، أو ما يشابه ذلك ، ويعبر نصف الصحراء الشمالية على شكل سلّم طويل تقع رأسه بالقرب من البصرة في الحوران HOWRAN، على بعد مسافة قصيرة من دمشق ، بينما ترتكز قاعدة السلم على الجوف، الذي يعد منطقة تمهيدية ومدخلاً إلى وسط الجزيرة العربية ، من هنا ، يجيئ وادي السرحان بمثابة الطريق المعتادة للأعمال المالية والتجارية المعتادة التي تتردد بين كل من سوريا والجوف ، زد على ذلك ، أن قبيلة بدو الروالة السورية العربية كبيرة العدد تسكن الطرف العلوي من ذلك الوادي ، في حين يسكن عرب الشرارات الجزء الأوسط والجزء الجنوبي الشرقي ، ويكاد يكون مقصوراً عليهم .

وليس في هذا الجزء من البلاد أي وادٍ آخر يماثل ذلك الوادي في الطول ، أو في الخصوبة ، باستثناء الجدب والقحط الشديد ، فالماء متوفر في كل انحاء وادي السرحان ، وعلى عمق يتردد بين عشرة وعشرين قدمًا ، والحياة النباتية وفيرة ومتنوعة فيه .

من هنا نبدأ أو بدأت ، أن صَحَّ التعبير ، أيام أن قمنا برحلتنا ، ممتلكات طلال ابن الرشيد ، أمير شومر SHOMER الذي يمتد نفوذه ويفرض اسمه الاحترام بل الخضوع على الصحراء كلها بدءًا من وادي السرحان في اتجاه الشرق ، وعلى امتداد الوادي بكامله ، إضافة إلى نزاع على اللقب في الناحيتين الغربية والشمالية . إذ برغم أن هذه الإحراج التي لا تزيد على ما أطلق عليه اللورد بايرون BYRON اسم المحيط ، تستعصي على كل محاولات الإنسان لاستصلاحها أو التغيير من طبيعتها ، إلا أن أجزاء هذه الإحراج التي تجاور مراكز السلطة والحكم المنظم قد تُغَيِّر ، بل تُغَيِّر فعلاً من وضعها ، على نحو أو آخر ، حتى تسير في ركب الحكومة المتحضرة ، شأنها في ذلك شأن أي جزء من البحر يكون مجاورًا لساحل من السواحل القوية عندما يختار الانضمام إلى هذا العلم أو ذاك ، الذي يجبر السفن الحاملة له على احترامه ؛ اللهم إلا إذا بلغت تلك السُّفُنُ من القوة مبلغًا يُمَكِّنها من قبول التنازع وتحمله ، والحال هنا هو حال البدو الذين ولدوا على "سفن الصحراء" التي تسبح فوق هذه اليابسة التي تشبه بحرًا هائلاً ؛ وعليه ، يستطيع طلال بن الرشيد ، من خلال الجوف وحاكمه أن يجبر البدو على الرضوخ لأوامره في كل أنحاء النصف الجنوبي من وادي السرحان والمناطق المتاخمة له .

دخلنا وادي السرحان في اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو ، وسعدنا عندما وجدنا أنفسنا على الطريق السريع – برغم أن هذه العبارة لا يمكن أن تنطبق على أرض لم تعرف الطريق مطلقًا - المؤدي إلى الجوف ؛ في حين راح البدو المرافقون لنا ، والذين سئموا مثلنا أكل التمر وخبز الجمر ، يمنوننا بأوصاف الكرم الحاتمي الذي سنلقاه يوميًا ونحن في وادي الذئاب .

والواقع أننا ما أن دخلنا منطقة التلال الرملية التي تتناثر هنا وهناك فوق هذه الأرض الخفيضة ، حتى بدأنا نشاهد بين الحشائش عن قرب وعن بعد ، عديداً من الخيام السوداء مضارب أهل كيدار ، التي كانت تشبه وبلا أدنى شك ما كانت عليه تلك

المساكن عندما شبهها سليمان SOLOMON (عليه السلام) بعروسه المصرية صاحبة البشرة الداكنة ، (رغم أنى لا أعــرف إن كانت العروس المصرية تعد هذا التشـــبيه أو لا تعده من باب المجاملة) ، غير أن مظهر هذه الخيام بلغ من البؤس والشقاء حداً جعلنا نشك فى صـدق "حكايات" الكرم "الخـرافيـة" التى حكاها لنا البـدو الذين كـانوا يرافقوننا ، والحقيقة ، أن عرب الشرارات هم أفقر فقراء القبائل البدوية المترحلة التى تسكن الجزيرة العربية ، إذ ليس لديهم سوى أعداد قليلة جداً من قطعان الأغنام ؛ زد على ذلك أن وجود حصان فى القبيلة يعد أمراً نادراً ؛ وتتمثل كل ثروة كل هؤلاء البدو ، إذا اعتبرنا ذلك ثروة ، فى الإبل ، التى لا يحتاجها الناس ؛ وذلك على العكس من بدو الشمال ، من أمثال السبّاع ، والرواله ، والفظعان FIDHA'AN، وإخوانهم ، الذين تتزايد قطعـان أغنامـهم وأعداد خيولهم بشكل يتمكنون معه من الاتجـار بها ، الأمـر الذى يجعلهم يحيون حياة المخلوقات المتحضرة تماماً أو فى مـأمن من الحرمـان والشقاء اللذين تنطوى عليهما الحياة البدائية تماماً ، المصير الحزين لأصدقائنا الجدد ، عرب الشرارات .

وعرب الشرارات الذين ينتشرون فى كل أنحاء ذلك الحزام الصحـراوى الذى أتينا على وصفه ، والذين يتخذون من وادى السرحان مكاناً معتاداً يتجمعون فيه ، ليس لهم شيخ يعترفون به ، ولا زعيم أو رئيس ، وهؤلاء العرب ينقسمون إلى جماعات أصغر فأصغر لكل منها رئيس مستقل جدير برعاياه من جميع النواحى ، وعلى كل حال ، فقد أمكن مؤخراً تجميع هؤلاء الشيوخ ورءوساء العشائر فى إطار شكل الإذعان والخنوع بفـضل ذراع طلال بن الرشـيـد الحـديدية ، وهم يدفـعـون له جـزيـة سنوية من الإبل ، ويتذمرون منه يومياً ، ومع ذلك فان المقابلات التى على وشك أن نبدأها مع هؤلاء البدو الرحل سوف توضح لنا طبيعتهم وظروفهم أكثر فأكثر .

وبينما كنا نتجاوز خيمه إثر أخرى ، مخلفين وراءنا بدواً كثيرين يرتدون أسمالاً بالية ، ويرعون الإبل ، حدد لنا سليم العطنة SALEM فى النهاية مجموعة من المنازل ، كان من بينها منزلان أو ثلاثة أبعادها أكثر بكثير من أبعاد المنازل الأخرى ، وقال لنا : إن عشاءنا فى تلك الليلة (ذلك أن فترة المساء كانت قد قاربت على الانتهاء) سيكون على حساب هذه المنازل ، وأردف قائلاً ، تشجيعاً لنا على الاستقبال الأنيق المرتقب : "أجـاويد" . وبطبـيـعـة الحال ، لم يكن أمـامنا سـوى أن نذعن لما قـاله سليم SALEM :

وخلال دقائق معدودة أصبحنا جنبًا إلى جنب مع الحراس السود الذين يحتمون بأغطية مصنوعة من شعر الماعز الأسود ، التي يعيش تحتها المضيفون المرتقبون .

وظهر لنا الرئيس أو الرؤيس ، لأنه لم يكن يزيد على ذلك ، وتبادل مع سليم SALEM بعضًا من الكلمات الموجزة المحددة ، وعاد إلينا سليم حيث توقفنا إنتظارًا لعودته، واقتاد إبلنا إلى مسافة قريبة من الخيمة ، وأبركها في ذلك المكان ، وساعدنا على إنزال أحمالها عنها ، وعندما اخترنا لأنفسنا مكانًا على منحدر رملي يواجه مضارب القبيلة ، أوصانا سليم بأن نحرص في مراقبه متاعنا ، إذ ربما يوجد لصوص أو نهّابين بين مضيفينا لأنهم جميعاً "أجاويد بحق" ، وهذا خبر سيئ ؛ والسبب في ذلك أن كلمة "أجاويد" على لسان العرب تســاوي على وجه التقــريب الكلمة الــدالة على "السيد أو الماجد" GENTLEMAN في اللغة الإنجليزية ، وهنا نقول : إذا كان السادة أو الأماجد لصوصًا فماذا يكون الحراس السود ؟ ووضعنا أعيننا على متاعنا ، ثم جلسنا على الرمل جلسة توحي بالرزانة والوقار ، انتظارًا للنتائج التي ستسفر عنها المفاوضات التي يجريها دليلنا سليم مع الحراس السود .

وبقينا لوحدنا فترة من الوقت ، برغم أن من حولنا كانوا يراقبوننا ، فقد تجمعت مجموعة من العرب حول رفاقنا عند باب الخيمة ، وشغلوا أنفسهم بالحصول منهم على أكبر قدر ممكن من المعلومات ، التي تخصنا وتخص متاعنا بصفة خاصة ، ذلك المتاع الذي كان في آخر المطاف محطًا للفضول ، ولا أقول الجشع ، وجاء دورنا بعد ذلك ، إذ حضر الرئيس، وأسرته (باستثناء النساء) ، وأتباعه المقربون ، ومعه عشرون آخرون ، من الشباب ومن كبار السن ، ومن الصبية والرجال ، وبعد تقديم التحية ، على طريقة البدو ، نظرًا لأنهم لا يعرفون ولا يقدمون التحية على الطريقة التركية أو الطريقة الفارسية التي دخلت إلى أماكن أخرى ، حضر الرئيس ومن معه وجلسوا أمامنا على شكل شبة دائرة ، كان كل واحد منهم يمسك في يده مشعابًا قصيرًا يستعمل في قيادة الإبل ، كي يومئ به أثناء الكلام ، أو يتلاعب به خلال فترات المحادثة ، في حين كان الشبان الصغار أقل تعجلاً في الخطاب وراحوا في أدب يستثمرون وقت فراغهم في إطالة النظر إلينا وإصاخة السمع لحديثنا ، أو التقاط كريات الأوساخ من بين حبات الرمل ثم يلقون بها حولهم .

ولكن كيف لي أن أصف حديث هؤلاء البشر ، وأسئلتهم وإجاباتهم ، وسلوكياتهم ونكاتهم ؟ وقد سمعت غريبًا وقورًا من بلدة حمص السورية ، تلك البلدة التي يضرب

بغباء سكانها الشديد المثل ، سمعت هذا الغريب الوقور يقول : "العاقل في هذه المدينة شأنه شأن رجل رُبِطَ بين قطيع من البغال داخل الإسطبل ؛ ولكن الضيف بين بدو الصحراء ، الذين يفتقرون إلى مزايا الإسطبل ، يشبه رجلاً وُضِع في وسط حقل بين بغال سائبه تمرح وترفس بأرجلها من حوله في جميع الاتجاهات" ، هنا يمكن لنا أن نعرف الطبيعة البشرية في أحط مراحلها ، أو نراها عن قرب تماماً ؛ فمن هؤلاء البدو من يتمدد باسطًا ذراعية وقدميه على الرمل ، وهذا آخر يرسم بمشعابه ، على الرمل ، خطوطًا لا معنى لها أو خارجة عن الموضوع ، أو يلقى نكاتًا يظن إنها ظريفة وفكهه ، ولكنها بذيئة للغاية في واقع الحال ، وفي الوقت نفسه ، تجد الصبية يندفعون إلى الأمام بدون أي ضوابط ويقطعون على الكبار حديثهم ، ولا يمكن أن أقول كبراءهم - دون أدنى اهتمام أو توقير .

وهم لا يرون في كل ذلك أي دليل على الوقاحة ، أو أي قصد لمضايقة الغير ؛ وإنما العكس هو الصحيح تماماً ، فهم يودون من كل قلوبهم أن يتجملوا أمام الزائرين ، وأن يجعلونهم يتصرفون على راحتهم ، وأن يقدموا لهم أفضل ما في وسعهم من الخدمات ، وكل ما في الأمر أنهم لا يعرفون الوسيلة إلى تحقيق ذلك ؛ وهم عندما يخرجون عن حدود اللياقة والأدب ، فإن ذلك يكون بسبب الجهل المطبق ، وليس من قبيل الحقد المُبيَّت: وبين انعدام القصد في ذهن غير مثقف تماماً، يكشف هؤلاء البدو ، من حين لآخر عن دلائل تشير إلى قدر كبير من الكياسة والحصافة الفطريتين ؛ في حين تظهر من خلال التقلب الذي يناسب الرجال الذين لم يعتادوا التمسك بالضوابط الأخلاقية أو الضوابط البدنية ، بنيه أساسيه لطبيعة رجولية كريمة ، من قبيل الطبيعة التي نجدها أحيانًا ، إن لم يكن دومًا في الفرس أو الأتراك ، إن عيوب البدو تكمن في ظروفهم ، كما أن خصائصهم الافتدائية تنبع من داخلهم .

ما المحسنه التي يمكن أن تنتظرها ؟ في واقع الأمر ، من أناس أمضوا كل حياواتهم في رعي الإبل في البيداء الواسعة ، بلا قانون ، وبلا دين ، وبلا تثقيف وبلا أي مثل يحذون حذوه؟ وبدلاً من كل ذلك ، يعيشون في عوز شديد ، وحرمان لا ينقطع ، وخطر دائم ، وأمن منعدم ، إنه التعليم الهمجي ؛ كما إنه من الطبيعي تماما أن تُخرِّج مثل هذه المدرسة تلاميذاً من هذا القبيل ، إن كل ما أتمناه من كل أولئك الذين يعْملون خيالهم في إنتاج صور مثاليه للحياة الصحراوية ؛ ويفهمون البدو وظروفهم على إنها

جديرة بالإعجاب أو جديرة بالحقد والحسد ، أتمنى لو أنهم قضوا ثلاثة أيام فى مخيم من مخيمات عرب الشرارات ليروا ـ لا من خلال وسيط الروايات الرومانسية ، التى كتبت بداهة ، كما يقولون طلبًا للمال ـ بأعينهم عمق الهوان الذى يمكن أن ينزل إليه عرق من أنبل الأعراق التى تعيش على الأرض ، بفعل تأثير الحياة البدوية الدنّية .

وأنا أقول : واحدا من أنبل أعراق الأرض ، لأن هذا هو واقع العرب المستقرين ، الذين تحكمهم حكومات منظمة ، والواقع أننى بعد الأسفار الكثيرة التى قمت بها وبعد أن تعرفت تمامًا على كثير من الأجناس الأفريقية ، والأسيوية والأوربية ، أجد من الصعب علىّ أن أفضل أى عرق من الأعراق التى تعرفت عليها ، على عشائر وسط وشرقى الجزيرة العربية ، تلك العشائر خالصة النسب غير المهجنة ، وبرغم أن هذه العشائر يجرى فى عروقها الدم نفسه الذى يجرى فى عروق البدو الرحل فى هذه الصحراء ، وبرغم أنها تتكلم نفس اللغة التى يتكلمونها إلا أنها أعلى وأرفع مقامًا منهم إلى حد بعيد جداً ، الفارق بين قاطع الطريق الهمجى والأجودى GENTLEMAN الإنجليزى فى مدينة "روب روى" أو فى مدينة "ويفرلى" ليس صارخًا تمامًا ، واسمحوا لى أن أورد هنا بعض الأمثلة لمحادثات البدو ، حتى يكون القارئ على بينه منها .

عادة ما يبدأ خطاب البدو المعتاد الذى لا تسبقه أية مقدمات ، على النحو التالى : "ما عملك ؟ وما هو الهدف من مجيئك إلى هنا ؟ وأجبنا على هذه الأسئلة على النحو التالى : " نحن طبيبان من دمشق ، والهدف من مجيئنا إلى هنا هو ما كتبه الله لنا" ؛ وكان السؤال الذى تلى ذلك متعلقًا بمتاعنا ؛ بينما راح أحدهم يتحسس ذلك المتاع بمشعابه ، لسيترعى إليه الأنظار ، وهو يقول : "وما هذا ؟ هل لديكم أشياء صغيرة تبيعوننا إياها ؟"

والعارفون بدقائق اللغة العربية ، يلاحظون ، عندما يلتقون هؤلاء الناس أول مرة ، مهما تدهورت أحوالهم الاجتماعية ، أن تعبيرات هؤلاء الناس ، مع بعض الإستثناءات الطفيفة جداً ، سليمة تمامًا ، وأنها تخضع بشكل عام للقواعد الدقيقة ومقتضيات ما يسمى فى بعض الأحيان، برغم عدم صحة هذه التسمية تمامًا ، "اللهجات القواعدية" ؛ ولكن سوف يتعين علىّ أن أعود إلى نفس الموضوع ، بالمزيد من الشرح والتفصيل ، عندما أصل إلى جبل شومر الذى اكتسبت ، أو بالأحرى احتفظت اللغة الدارجة فيه بأفصح وأنقى أشكالها المغرية ، هيا بنا ندع فقه اللغة جانبًا فى هذه المرحلة ، ونعود إلى أولئك البدو الذين تركناهم فى حالة اهتياج شديد بفعل متاعنا .

نحن نتجنب البيع : لأن مسألة عرض بضائعنا ومنقولاتنا أمام الجميع فى الهواء الطلق ، وعلى الرمل ، وأمام جمع لا يعطي مظهره ولا ظروفه أقل الضمانات التى تقضى بمراعاة الوصية الثامنة من الوصايا العشر ، هذه المسألة جديرة بأن نوليها حرصنا واهتمامنا ، وبعد عديد من المحاولات التى باءت بالفشل ، كف هؤلاء الناس عن طلبهم ، وهذا بدوى آخر يعانى من عيب جسمانى ، تفشل فى علاجه كليات لندن وباريس مجتمعة ، مثل اليد الضامرة أو العين العمياء تماماً ، يطلب دواءً ، يتوقع ، بعد أن يستعمله مباشرة ، أن يستعيد به كامل عافيته وصحته وسلامته ، ومع ذلك ، فقد سبق لى أن تلقيت تحذيراً مفادة أن البدوى هو البدوى سواء أكان يعيش فى ظروف طيبة أم مع الإبل ، وبنفس القدر من الحماس رفضت طلبه فى أدب ، ووجدته مصراً على طلبه ؛ ولكنى رددته إلى حال سبيله بكلمات ظريفة .

وأجابنى الرجل بصوت يشبه الأنين ، فى حين قطَّب الصبية عن جباتهم ، دون وعى منهم ، مشاركة منهم لذلك القبلى الحزين ، ، رد علىّ الرجل قائلاً : "إذاً فأنتم تسخرون منا يا سُكَّان الحضر ، نحن بدو ، ولا نعرف شيئا عن عاداتكم ."

وينادى أحدهم الذى لاحظ أن غليونى كان لا يزال مملوءاً بالتبغ والذى أراد أن ينتهز الفرصة لاستجداء القليل من التبغ ـ برغم إنه كان لديه مخزوناً كبيراً منه وضعه فى خرقه ربطها إلى حزامه الملوث بالشحم ـ طالما إنه لم يستفد من الطب أو التجارة ، ينادى هذا البدوى قائلاً : "يا وُلِيد" ، (فهذا هو الاسم الذى ينادون به الذكور من سن الثامنة إلى الثمانين وبلا أى استثناء) . "هلاّ ملأت غليونى بالتبغ ؟"

ولكن سليم SALEM الذى أصابه الخوف والفزع بين الحاضرين أعطانى إشارة بعدم الموافقة على ملئ غليون البدوى بالتبغ، وبناء عليه رفضت ذلك الطلب، وبرغم ذلك ، واصل البدوى التماساته ، وحذى حذوه اثنان أو ثلاثة آخرون ، مدَّ لى كل واحـد منهم (إيماءه إيرلندية صرفه) قطعة من عظام النخاع ، مثقوبة من أحد طرفيها حتى يتسنى استعمالها غليوناً للتدخين ، أو حجراً مساميًا ، لا يشيع استعماله فى الصحراء ، ومشكل بطريقه بدائية تماماً ليكون جهازًا للتدخين ، أو إن شئت فقل إنه غليون مرشومى .

ومع ازدياد وقاحتهم ، ازداد غضبى أيضاً ، إذ كنت أقاطعهم قائلا : "أيها البدو ، إننا ضيوف عليكم ؛ ألا تخجلون من سؤالنا ؟" ويتدخل أحد الحاضرين الذين يجلسون

بجوار الرئيس وتبدو ملابسه أفضل حالاً من أولئك الأفراد الآخرين أنصاف وثلاثة أرباع العرايا الذين يكملون تلك الجماعة ، تَدخَّل هذا الرجل قائلاً : لا عليك ، لا تؤاخذنا ؛ إنهم رفاق جهّال ، أوغاد عديمو التربية ... إلخ " .

ويردف رئيس المجموعة قائلاً : "هل تؤهل بالتبغ غليون أخيك الصغير ؟" ثم يمد إلىّ غليونه الفارغ مع شئ من التواضع ، ولغة البدو ، شأنها شأن لغة السواد الأعظم من الشرقيين تزخر بالصور الرشيقة الأنيقة ، ومن ثم فأن كلمة "يؤهل" PEOPLE تدل على الكلمة "يملأ" FILL ، ويعطينى سليم إشارة بالموافقة ؛ وأتناول حفنة من التبغ ، وأضعها على كم قميص الرئيس ، الذى يقوم بدوره بربط كم القميص حول التبغ ، ثم تبدو عليه بعد ذلك دلائل البشر والسرور ، إن هؤلاء البدو يسهل ارضاؤهم تحت إى ظرف من الظروف .

والحوار الذى يكون من هذا القبيل والأنماط الكلامية المماثلة له هى التى تزجى الوقت بسرعة ، فمن البدو من ينهض وينصرف ، ومنهم من يجلس محل الذين انصرفوا ، وكلهم لديهم ملاحظات أو استفسارات ؛ فى حين سنحت الفرصة لنا تماماً بدراسة طبيعة أولئك البدو ، وميولهم ، وعاداتهم ؛ لأنهم كلما ابتعدوا عن التفكير فى حقيقتنا ، زاد تخليهم عن حرصهم وحذرهم .

غير أن الرؤيس ، بعد أن أعطيته نصيبه من التبغ ، الهدف الرئيسى للزيارة ، إن قدر لى أن أقول الحق ، عاد إلى خيمته ليصدر منها الأوامر اللازمة للترفيه المنتظر : وبعد ذلك بفترة قصيرة، شاهدنا مجموعة من الأفراد العاطلين وقد تجمعوا فى الخلف؛ وتلك إشارة إلى المكان الذى يجرى فيه ذبح شاة أو جمل ، تبعًا للظروف ، استعداداً لوجبة العشاء ، وبعد ذلك بفترة قصيرة أبصرنا النبيحة ممددة بالقرب من أحد أركان الخيمه ، ليتم تقطيعها بواسطة المختصين على مرأى ومسمع جمهور من المشاهدين المهتمين بهذه العملية ، والسبب فى ذلك أن المخيم بكامله سوف يشارك فى المأدبة التى ستقام على شرف الضيوف .

ويقينا لوحدنا فترة من الوقت، نظراً لأن الطهو يبلغ من الأهمية حداً يسمح بتغيب الجيران الذين يشاركون فيه ، ففى أوربا يقال إن كثيراً جداً من الطهاة يكون تأثيرهم سيئ على المرق ، ولكن الطهو فى هذا المكان من الجزيرة العربية يبلغ من السهولة حداً يصعب عنده تلف الطعام ، ومسألة إشعال النار من تحت مرجل كبير لم

يطهّر مطلقًا ، ثم تسخين الماء إلى أن يغلى ، ثم بعد ذلك إلقاء أرباع الذبيحة فى الماء إلى أن تصبح شبه ناضجة فى شحمها ، هذا هو كل فــن الطهو فى ولائم البــدو ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

ومع ذلك ، فإن هذه العملية تستغرق شيئًا من الوقت ؛ والسبب فى ذلك أن النار التى يشبها الناس فى الهواء الطلق لا تعمل عملها بسرعة كما لو كانت فى موقد داخل المطبخ ، زد على ذلك أن كتل اللحم الكبيرة لا يمكن تقطيعها بسرعة إلى قطع تناسب الأكل ، من هنا ، تكون النجوم قد ظهرت فعلاً فى السماء ، ويكون نسيم الليل قد بردّ الرمــال ، قبل أن نسمع الجَلَبة المعتــادة بين الواقـفين وتدافع الشرر الذى يوحى بأن المرجل قد رُفِع أخيراً عن الأحجار التى كانت تعمل عمل التنور ، ويتم بعد ذلك التخلص من الماء ، ثم يُكَوَّم اللحم بطريقة عشوائية فى طبق خشبى كبير شديد الاتساخ ، وبدون أى تتبيل أو إضافات أو أى شئ آخر ، ثم يوضع ذلك الطبق على الأرض فى منتصف المسافة فيما بيننا وبين الخيام .

ثم يحضر الرئيس ، أو شاب بدون سروال طويل من أفراد أسرته ، ليقول لنا : "تفضلوا" ، بمعنى شرفونا بقبول دعوتنا ، وبعدها نقترب من الطبق ، ولكننا سمعنا ، قبل أن نتخذ أماكننا حول الطبق ، سمعنا اندفاعًا من جميع الأنحاء فى اتجاه مركز الجذب العام ، وتكونت دائرة كبيرة راحت تنتظر فى صمت إشارة البدء والذى يعطى إشــارة البدء هو الرئيس ، الذى يكرر صــيـغـة الترحيب نفسـهـا ، وهنا يتناول سليم ورفيقى (وأنا أعترف هنا أننى كنت أعزف دائمًا عن هذه المناسبات لا بسبب الشبع وإنما لأن نفسى كانت تعافها) وصلة كبيرة من اللحم شبه الناضج ، ويشداها فى اتجاهين عكسيين ، ويقسماها إلى قطع يسهل تناولها أو التعامل معها ، ثم يبدأ الجميع فى تناول الطعام ، وتمتد إلى الطبق ثلاثين أو أكثر من الأيدى غير المغسولة ، وخلال خمس دقائق يجرى جمع العظم الخالى تمامًا من اللحم ليقدم غذاءً للكلاب الهزيلة ، التى تقوم بالحراسة ، وبذلك يصبح العظم هو كل ما تبقى من هذه المأدبة .

ويكرر المضيف الكلام نفسه على فترات قصيرة ، ويستعرض أسلوب الكرم بأن يكون هو نفسه مثالاً طيبًا عليه فيقول : "لماذا لا تأكلون ؟ كلوا ، اشتغلوا ؛ يا مئة مرحبا بضيوفنا الكرام" ، وإن جاز لى أن أبدى ملاحظة هنا فإننى سأقول : إنه لو قدر للسلطان نفسه أن يكون فى مكاننا ، فإنه لن يحصل على أحسن من ذلك ، والسبب فى

ذلك ، بسيط للغاية ، وهو أن عرب الشرارات ليس لديهم أفضل مما يقدمونه في هذه المناسبة .

ثم يمرر ، الماء الذى له نكهة النوشادر النفاذة ، والذى يجرى جلبه من منطقة قريبة جداً من الإبل ، إلى الآبار التى يجرى فيما بعد سحبه منها للاستعمال ، يمرر هذا الماء على كل من يرغب الشرب ، في سطل صغير ، لا يجد مكانًا له في إنجلترا إلا بجوار لجام مهر صغير ، وأيا كان الأمر ، فنحن عندما نشارك في الشرب من محتويات ذلك السطل ، لا ينسى من سيأخذ من السطل بغيته أن يقول : "هنا" أو "بالصحة" ، وذلك من قبيل المجاملة ، ويشير إلى أن نمرر له السطل .

ثم ننصرف بعد ذلك عائدين إلى متاعنا والمنحدر الرملى ؛ والسبب في ذلك أن النوم في خيمة المضيف ليس من عادات الحياة البدوية الحقيقية ، زد على ذلك أن صغر حجم المنزل الذى تتزاحم فيه أسرة من جميع الأجناس ، وعدم تقسيمه إلى غرف مستقلة ، هو الذى يفسر هذا الاستعمال الحذر ويبرره ، ذلك الاستعمال الذى ليس له علاقة بالكرم مطلقًا .

وهواء الليل في هذه القفار هو بحد ذاته حياة وصحة ، فنحن ننام نومًا عميقًا دون إزعاج من أحد يوقظنا في ساعة مبكرة لنواصل مسيرنا في صباح اليوم التالى ، والسبب في ذلك أن البشر والحيوانات يحتاجون على حد سواء ، إلى أن يرتاحوا يومًا كاملاً ، وعندما تشرق الشمس يدعوننا إلى خيمه الرئيس ومعنا متاعنا ليكون في حماية تلك الخيمه ، وهدف المضيف الرئيسى ، من هذا التصرف ، هو محاولة الاستفادة لنفسه ، بصورة أو بأخرى ، من هذه الزيارة ، إما عن طريق التهادى أو الشراء ، والرئيس يتلاعب هنا بكل ما في وسعه من أدب ، وسرعان ما يظهر على المسرح سطل من حليب النّياق ، ذلك المشروب الممتاز ، ويتعين علىّ هنا ، أن أترك للمحللين الكيماويين مسألة تحديد الأسباب التى لا تجعل هذا النوع من الحليب ينتج زبداً ، لأن هذا هو الواقع ، ويكفينى أن أشهد هنا على أن هذا النوع من الحليب له خصائص مفيدة ومغذى بدرجة كبيرة جداً .

ثم نقوم بعد ذلك ، وبناء على طلب مُلح من الرئيس ، ومن زوجته ، وأخواته ، وأبناء عمومته ، ولاطلاعهم الخاص وليس أحد سواهم ، نقوم بفتح ركن من زكائبنا ، وبعد كثير من المساومة والمماحكة نبيع لهم قطعة من القماش ، أو عصابة رأس ، أو أى

شئ من هذا القبيل ، والمشكلة هنا تتمثل في دفع ثمن الشئ المباع ؛ ذلك أن صديقنا ليس على استعداد تمامًا فحسب للتخلي عما يملكه من نقود ، وإنما لأنه جاهل تمامًا بالقيمة النوعية المحددة لمكونات تلك النقود ، وتأسيسًا على ذلك ، يتعين عقد مجلس من حكماء القبيلة للبت في قيمة كل قطعة من قطع النقود المعدنية، وبعد تحديد هذه القيمة، تجرى عملية التجميع الإجمالي ، وهي عملية تتطلب من البدو مجهودًا ذهنيًا جبارًا ، إذ أن عملية الحساب هذه تتكرر بنودها عشرات المرات قبل أن يعرف البدوي إن كان ما بيده المتسخة هو عشرون أم ثلاثون قرشًا .

سوف أتكلم عن النقود المعدنية السائدة في الجزيرة العربية عندما أصل إلى جبل شومر أو الرياض ؛ والسبب في ذلك أن إعطاء فكرة واضحة عن هذا الموضوع قد يحتم عليَّ أن استطرد فيه لفترة طويلة جدًا تبعدني عن موضوع البدو .

ويمضي النهار ، ومن الطبيعي تمامًا أن يظن مضيفنا أننا جائعون ، ويترتب على ذلك إحضار طبق جديد إلينا ، يشبه إناء كبير به عجين مجروش أحمر اللون ، أو الرِّدَّة المخلوطة بالمُغْرة[1] الصفراء ، وهذه مادة يعيش عليها بدو شمالي الجزيرة العربية ويطلقون عليها اسم سمح SAMH ، وينمو خلال ذلك الجزء من الصحراء ، نبات عشبي مسامي ، سيقانه كثيرة العصارة وأوراقه صغيرة بيضوية الشكل تميل إلى الاصفرار ؛ وزهور هذا النبات صفراء فاقع لونها ؛ تحتوي على كثير من أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير ، وبعد أن تتساقط زهور هذا النبات تخلف وراءها كبسولات كل واحدة منها مغلفة في أربع ورقات ، وهي في حجم حبة البازلاء المعتادة ، وعندما تنضج تلك الكبسولات ، تتفتح لتكشف بداخلها عن مجموعة من الحبوب الصغيرة التي يميل لونها إلى الاحمرار ، تشبه البرغل (الجريش) من حيث الملمس والمظهر ، ولكنها تنتمي إلى المواد النشوية ، وموسم نضوج هذه النباتات يكون في شهر يوليو ، الذي يخرج فيه الكبار والصغار ، والرجال والنساء لحصاد ذلك المحصول الذي لم يبذروه ولم يفلحوه ، وهم يجمعون الكبسولات، ويفصلون الحبوب عنها ، ويحتفظون بها كمخزون من الدقيق (الطحين) للعام المقبل ، والبدو عندما يحتاجون هذه الحبوب ، يجرشونها في رحاة ، ثم يخلطونها بالماء ، ويسلقونها في المادة الموجودة أمامنا الآن ، وقد وصف سليم مذاق

(١) أكسيد حديديك مائي يكون لونه أصفر أو أحمر (المترجم) .

ونوعيه هذه المادة وصفاً سريعًا ، عندما قال : "إنها ليست في جودة القمح (البر) ، ولكنها أفضل من وجبه الشعير" .

لقد شكرنا العناية الإلهية التي وفرت لهؤلاء البدو الرُّحل مادة يعيشون عليها ، والتي لولاها لتعرضوا لمخاوف وأهوال الموت جوعًا ، لقد بلغ هؤلاء البدو من الكسل مبلغًا كبيرًا لا يستطيعون عنده فلاحة الأرض أو زراعتها حتى وإن توفرت المياه الجوفية التي تجعلها صالحة للزراعة ، ولولا هذا النبات ، لاقتصر هؤلاء الناس في معيشتهم على حليب ولحوم الجمال التي يرعونها ، وهذا بحد ذاته ليس مصدراً كافياً للغذاء ، في حالة عدم توفر مصادر أخرى ، غير أن نبات السمح ، الذي ينمو في كل مكان بشكل طبيعي ، ويعطي انتاجًا بدون زراعة أو فلاحة ، هو الذي يسد هذا العجز وهو الذي يشكل أيضًا المادة الأساسية في غذاء هؤلاء البدو ، إنه مادة الحياة بالنسبة لهم ؛ وبرغم أن السمح لا يغني تمامًا من الجوع أو غير مستساغ من أولئك الذين اعتادوا تناول غذاء أفضل منه ، إلا أنه يشبع أولئك الذين نادراً ما تناولوا أولم يتناولوا قط شيئا مغذيًا أو أفضل من السمح .

والمصاع نعمة أخرى من نعم الطبيعة ، وهو عبارة عن ثمرة شهيرة لدى البدو ، برغم أن غيرهم يتجاهلونها، وشجيرة المصاع يتردد ارتفاعها بين قدمين وثلاثة أقدام ، وشجيرات المصاع شجيرات غابيه ومتشابكة ، ولها أوراق صغيرة مدببة شديدة الاخضرار ، وزهورها تشبه النجوم وتميل إلى الاحمرار ، وبعد أن تتساقط هذه الزهور في شهر يونيو ، تخلف وراءها قرونًا تشبه إلى حد كبير حبّة الكشمش[1] الأوربية من حيث الحجم ، واللون ، والمذاق ، ولكن ليس لها النكهة نفسها ، في حين تتفوق حلاوتها على حموضتها تفوقًا كبيراً ، والبدو يجمعون ثمرة المصاع ويلتهمونها ، أو يسلقونها في شئ من الماء ، ليحصلوا بذلك على نوع من الدبس ، الذي يحترمه البدو ، وحدهم ، احترامًا كبيرًا ، وبذلك نجد أن قائمة مأكولات البدو تتكون من المصاع والسمح ، الذي أتينا على ذكره ، وحليب النياق ، ووجبه موسميه من لحم القصاب ، برغم أن هذه الأخيرة تعد شكلاً من أشكال الترف النادر .

وليس من بين أفراد قبيلة الشرارات كلها أحد يتفاخر بامتلاك دلة القهوة أو القهوة نفسها ؛ لأن ملكية الأشياء التي من هذا القبيل جماعية بين البدو العرب -

(١) حبة مثمرة من الفصيلة الكشمشية تزرع لثمرها (المترجم) .

السوريين ، الذين تقدر ثرواتهم بما يملكونه من أغنام وخيول وقربهم من الحضر ، ناهيك عما ينهبونه ويسلبونه من الفلاحين أو الرَّحَّالة بسبب ضعف قبضة الحكم العثماني ، ولكن الأغنام هنا ، في الجزيرة العربية ، تكاد تكون الثروة الخالصة لدى كل من الريف والحضر ، زد على ذلك أن هؤلاء البدو بلغوا من القوة حداً يمكّنهم من حماية أغنامهم ، في حين تحاول الحكومات النشطة أن تضغط على البدو ، بذراع من حديد ، لتعيدهم إلى حالهم المعتاد ، أي مجرد رعاة للأغنام فقط ، وإذا كان البدو هم الخاسرون مع مثل هذا النظام ، فإن الأرض هي الرابح الأول ؛ وأنا أرى أن غالبية القراء يتفقون معي على أن ثروة وأمن الفلاحين والتجار تفوق بكثير مزايا الترخيص لعرب الصحراء السورية بالبداوة والترحال وخروجهم الوقح على القانون وأنا أخص الصحراء بالذكر هنا لأنها في أيدي البدو .

ومع ذلك فإن هذه الأراضي – وأرجو من القراء أن يعذروني في هذا الاستطراد الذي أخرج خلاله من الجزيرة العربية إلى سوريا – التي هي الآن جرداء خالية ، كانت في الماضي وفي ظل حكم أفضل ، منزرعة ومليئة بالسكان ، إذ تشهد على ذلك الخرائب الأثرية العديدة التي تنتشر هنا وهناك فوق هذه الأرض الجرداء ؛ في حين تشهد بقايا الآبار الكثيرة ، التي ردمتها الآن الرمال والأحجار ، على الأماكن التي كانت غزيرة الماء وفيرة الزراعة .

غير أن ذلك يتطلب المهارة في العمل والمواظبة عليه ، ولكن البدو الذين جعلهم الحكم التركي ملاكاً للأراضي لا يملكون هذا أو ذاك ؛ إذ أن كل ما يحتاجه أولئك البدو هو المراعي الواسعة ، من هنا نجد إنه كلما تقلصت الزراعة من حول مراعيهم كان ذلك أفضل لهم ، ولذلك فهم لا يرفضون فحسب أية محاولة ترمي إلى تحسين أراضيهم ، أو استكشاف مواردها المخبأة ، وإنما يعارضون المحاولات التي من هذا القبيل ويرفضونها من منطلق أن ذلك إنما يشكل تعدياً على حقوقهم ؛ ومن ثم فإن البدو يشكلون العدو الأبدي للحكومات ، والقرى وللفلاحين ليس من منطلق الجشع ، وإنما من منطلق منظومة محددة ، شأنهم في ذلك شأن الكلب في قصة المِذْوَد[1] والذي لم يأكل التِّبن وإنما كان يود الاحتفاظ به ليسترخي عليه ، وأكتفي هنا بهذا القدر ، وهيا بنا نعود إلى الجزيرة العربية وعرب الشرارات .

(١) معلف الدابة (المترجم) .

يبدو أن القوة العسكرية القبيلة ، في ضوء ما قلته عنها حتى الآن ، صغيرة ومتناثرة على نحو يصعب معه أن تقوم القبيلة بعمل عسكري جماعي ، كما تبلغ تلك القوة من التواضع مبلغًا يصعب معه أيضًا على القبيلة أن تزود نفسها بالسلاح الفعال . زد على ذلك الأسلحة التي لدى القبيلة تتكون من بنادق الفتيل العتيقة والرماح التي يعلوها الصدأ .

وإذا ما توغلنا ، في وسط الجزيرة العربية ، نجد فيه قبائل أكثر ثراء ، وقوة وتنظيمًا ؛ مثل الشومر SHOMER، في جنوب الجوف ، ومطير وعتيبة في الأراضي الوسيطة ، والعجمان وبنو خالد ، ناحية الشرق ، الذين سنورد المزيد عنهم فيما بعد . ولكن إذا ما جمعنا تلك القبائل إلى بعضها نجد أن عددها الإجمالي يقل بكثير عن عدد السكان المستقرين ، حوالي السدس أو السبع في أفضل الأحوال ، وذلك من واقع السجلات المدونة فيها أسماء ضباط وجنود الوحدات العسكرية والموجودة في مختلف المناطق العربية ، زد على ذلك ، أن القوات العسكرية القبلية تظهر وقت الحرب على شكل قوات مساعدة لهذا الطرف أو ذاك من الحضر ولا تظهر كقوة مستقلة أو معادية وقد كالت الحكومة الوهابية للبدو الضربات الواحدة تلو الأخرى إلى أن "كسرت شوكتهم" إذا جاز أن استعمل هذه العبارة العربية ؛ وبرغم أن قوات البدو العسكرية ، ليست جميعها من النوع الضعيف أو الهمجي من حيث العادات والتقاليد كما هو الحال في بدو الشرارات ، إلا أنها أكثر خضوعًا للسلطة الحاكمة ، ولا تجرؤ على القيام بأي تحرك إلا بناء على إذن منها .

وسوف نلقي المزيد من الضوء على كل هذه الأمور ، ونفسرها تفسيرًا كاملاً فيما بعد ، ولكني عندما وجدت أننا سوف نتناول موضوعات أهم وأخطر ، آثرت أن أعطي القارئ ، منذ البداية ، فكرة عامة عن تلك القبائل البدوية التي سيقل دورها تباعًا في هذا السَّرد (الحكي) نظرًا لأننا في اتجاهنا صوب المناطق المتحضرة سوف نستبدل الصحراء والبدو بالمدن والحضر إلى حد كبير .

وبعد أن ارتحنا يومًا كاملاً ، تغير حالنا وأصبحنا قادرين على استئناف المسير في صباح اليوم التالي بين الشجيرات والتلال الرملية في الوادي الذي يسير متلويًا بين ضفتيه الصخريتين ، صوب الجنوب كما لو كان نهرًا ضحلاً واسعًا ، وكان من الطبيعي أن نصادف كثيرًا من البدو ، وأن نختار العديد من المخيمات الكبيرة ، التي

كنا نتوقف فيها ، طلبًا للطعام ، في بعض الأحيان ، ولا نتوقف فيها في أحيان أخرى ، أضف إلى ذلك إننا كنا نبيعهم بعض الأشياء التافهة ، من حين لآخر ، حفاظًا منا على مظهرنا التجاري ، ولم يحدث أي شئ غريب ، خلال هذا الجزء من الرحلة ، برغم خلوها من الرتابة والكآبة ، بفضل الضحك الكثير الذى كنا نضحكه بفعل مرافقينا ومضيفينا أو من مرافقينا ومضيفينا ، فقد كان هؤلاء وهؤلاء يروون لنا قصصًا طويلة عن حياة الترحال والمغامرات ، أو عن الإبل الضالة أو المسروقة ، كما كانوا يحكون لنا قصصًا عن أبطال الحرب الذين كانوا يمشون تباهيًا ، وعن المحبين المغامرين شأنهم شأن أى محب آخر اللهم باستثناء أنهم أقل دقه ؛ وقصص عن الطلاق بدون قانون ، وقصص عن زواج أظن أن نقطه التحول والموضوع الرئيسى فيه هو عشاء من لحم القصَّاب ، الذى هو من قبيل ذلك العشاء الذى تناولناه مرارًا ؛ وعندما كانوا يتطرقون إلى موضوع العشاء هذا ، كانوا يستطردون فيه بطلاقه مبالغ فيها ، وهم على حق فى ذلك ، نظرًا لأن هذا الموضوع هو فردوس البدوى الذى لا يعرف ولا يهتم بأى شئ غيره فى هذه الدنيا أو فى أى مكان آخر .

حدث فى يوم من الأيام أن طرحت سؤالاً على شاب من شباب بدو الشرارات الذى كانت خصال حبه المليدة ، ومظهره المقذر - إذ أن الصحراء لها غنادرها أيضًا - وتجهيزاته المهلهلة ، تتفق تمامًا مع حديثه ، الذى لم يكن حديثًا مثقفًا على الإطلاق ؛ طرحت على هذا الشاب السؤال التالى : "ماذا ستفعل عندما تلقى الله يوم القيامة بعد هذه الحياة الفاسدة ؟" وأجابنى بدون تردد قائلا : "ماذا سنفعل ؟ ولماذا ؟ سنتجه إلى الله ، ونحييه ، وإذا برهن على كرمه (يعطينا اللحم والتبغ) ، سنبقى معه ؛ أما إذا حدث غير ذلك ، فسوف نركب خيولنا وننصرف لحال سبيلنا ." هذه مجرد عينه من أفكار البدو عن الحياة الآخرة ، ولولا خوفى من إتهامى بالكفر والتجديف لأوردت خمسين نكته أخرى من هذا القبيل ، ولم يحدث قط ، أن صادفت ، بين القبائل البدوية الحقيقية أى إنسان لديه فكرة روحيه عن الإله أو الروح الإنسانيه ، أو أى شئ آخر غير مادى ، أيا كان ، والإله ، عند بدو الشرارات عبارة عن رئيس ، يبدو إنه يسكن ، فى الشمس بصفة أساسيه، الشمس التى يتمثل فيها الإله، مثلما سبق أن لاحظنا بالفعل ، الإله أقوى ، بطبيعة الحال ، من رئيسهم ، بل أقوى من طلال بن الرشيد نفسه ، ولكن من نواحى أخرى له الطابع نفسه والأسلوب نفسه ، زد على ذلك أن الأرواح التى يرد ذكرها فى قصصهم عن الأشباح ، مثل الغول ، والجن ، والمرَدَة ، وما إليها من

المخلوقات المخيفة بكل المعايير ، والتي تشبه إلى حد ما الأقزام الخرافية[1] والأرواح المائية[2] NIXES وصيادي البراري WILD HUNTERS عند جيراننا الألمان، هذه الأرواح، برغم خصائصها العفريتية ، هي مخلوقات جسديه تماماً ، تستطيع أن تتزاوج مع الجنس البشري ، برغم أن الأطفال الذين ينشأون عن مثل هذا التزاوج يقال عنهم ، ولا عجب في ذلك ، أنهم يكونون سيئي الطبع إلى حد كبير ، وأرواح الموتى ، عند هؤلاء البدو ، أفضل قليلا من تلكم الأرواح ؛ وهي ترضى ، بل تطلب إراقة دم الذبائح على قبورها ، لأن الدم الذي يراق بهذه الطريقة يغذيها ويشبعها تماماً .

ومع ذلك ، وبرغم كل هذا الفكر المادي الغليظ يعرف البدو كيف يميزون بين الفضائل والرذائل في أشكالها الأوسع على أقل تقدير ؛ فكل البدو يُقّرون أن القتل ، والخيانة ، والسرقة والزنا شين (عار) ، برغم أنهم يسمحون بحدوث الأعمال التي من هذا القبيل بينهم ، وبخاصة السرقة والزنا ، وعلى كل حال ، وإنصافاً لأولئك البدو ، فهم ليسوا جنساً دموياً ، ويتحاشون القتل بما يناسب اللصوصية التي اعتادوا عليها .

ومعارك البدو ومنازعاتهم كثيرة ، ولكنها لا تزهق الأرواح ؛ لأن الهدف الرئيسي من الإغارة هو الغنائم ، وليس القتل ؛ وبرغم أن البدوي متبجح فظيع ، إلا أنه يحمل في داخله قلبًا يمنعه من أن يكون قاتلاً أو قتيلاً ، والبدو يروون بالساعات الطوال قصصاً عن صلابة الرأي وسفك الدماء في حروبهم أو في معاركهم مع هذه القبيلة أو تلك ، ويوردون بياناً عن المعارك يضعها في مصاف معركة بالاكلافا BALACLAVA أو معركة واترلو WATERLOO، إلى أن يحين الوقت الذي يتطرق المستمع فيه ، بهدوء ، إلى معرفة عدد الضحايا ، الذي حدده الراوي تحديداً مرتجلاً "بالآلاف" ، ليكتشف أن ذلك العدد قد انخفض إلى العددين المتواضعين "اثنان" أو "ثلاثة" ، بل إن هذين العددين لا يدخلان أيضا في عداد الأموات ، لأنهما يكونا قد أصيبا بجروح طفيفة ، ويظهران أحياءً من جديد في رواية اليوم التالي .

ومن بين الأسباب الرئيسة لهذه السماحة والحفاظ على حياة الإنسان هو غياب تلك المبادئ القومية والدينيه التي في البلدان الأخرى ، والتي توجد في أسيا أكثر منها

(١) روح شريرة في الفلكلور الألماني (المترجم) .

(٢) روح مائية تتخذ في الأساطير الجرمانية ، صورة امرأه حينا ، وصورة رجل حينا أو صورة نصفها رجل ونصفها سمكه (المترجم) .

في أوربا ، وتحض الناس على سفك الدماء ، والبدوى لا يقاتل دفاعًا عن موطنه ، لأنه بلا موطن ؛ ولا دفاعًا عن بلده فهو يعيش في أى مكـان ، ولا دفاعًا عن شـرفه ، إذ لم يسمع عن ذلك قط ؛ ولا دفاعًا عن دينه ، (لأنه ليس له دين ولا يهتم بالدين)(١) . والهدف الرئيسى للحرب ، عند البدوى ، هو احتلال قطعة أرض من المراعى الهزيلة احتلالاً مؤقتًا ، أو استغلال بئر من آبار المياه المالحة ؛ وربما كان الهدف الرئيسى للحرب أيضًا ، هو الاستيلاء على حصان الغير أو جمله ، الهدف الرئيسى للحرب باختصار شديد ، هو كل تلك الأشياء التى تنطوى على قليـل من العداء ، والتى إذا لم تتحقق فى الإغارة التى يقوم بها البدوى ، يمكن تعويضها بطرق أخرى ، لا تنطوى على المرارة والقسوة اللتين تصاحبان الصراع المدنى أو الدينى أو تنتجان عنهما .

ومن الواضح تمامًا لكل من درس تاريخ شبه جزيرة العرب القديم ، أن البدو لم يكسبوا أو يخسروا شيئًا ذى بال ، فى كل هذه الأمور ، خلال فترة من الزمن تقارب الألفى عام ، ولكن يجب ألا يغيب عن القراء أننا يتعين علينا ألا نعد هؤلاء البدو الرُّحل مثالاً حقيقيًا للجنس العربى ، أو نوعه الأصيل ؛ والسبب فى ذلك أن البدو فرع منحط من فروع هذه الشجرة العظيمة ، بمعنى أن هؤلاء البدو لا يمثلون جذور هذه الشجرة أو فروعها الرئيسية ، وخلاصة القول هى : أن هؤلاء البدو ، هم مجرد سكان رعاه نشأوا عن هذه الأمة الراسخة وعاشوا حولها ، وسنرى الكثير من أعمال هؤلاء السكان البدو ، كما سنرى الكثير من جوانب حياتهم الهمجية، والجهل والرذيلة المصاحبين لها، بفعل الظروف المحيطة بأحوالهم ، أو تلك الجوانب التى تتعزز لتتحول إلى غطرسة ونهب علنى نتيجة ضعف وتراخى أولئك الذين كان يتحتم عليهم أن يجعلوا أولئك البدو يلزمون الحدود المرسومة لهم .

غير أننا إذا أردنا أن نفهم هذه المسألة فهمًا جيدًا ، فمن المهم أن أورد هنا شيئًا مختصرًا عن القاعدة أو الأساس الذى يقوم عليه الإطار الاجتماعى القومى العربى كله ؛

(١) أنا أتحفظ على هذه العبارة وأمثالها التى يطلقها المؤلف تلميحًا أو تصريحًا رغبة منه فى تأكيد نتائجه التى يلح عليها دائمًا وهى أن البدو بلا عقيدة وبلا دين وهذا خطأ تاريخى ودينى ، وإذا كان سلوك شخص أو عدة أشخاص هى قاعدة الحكم الكلى فهذا استنتاج ناقص وكما تقول القواعد العلمية : إن الحكم الكلى أو المطلق هو القائم على الاستقراء التام وهذا ما لم يتوافر للمؤلف فى رحلته ، ولهذا كان ينبغى على المؤلف الدقة العلمية فى إرسال الأحكام ، (د. حلمى عبد المنعم) .

وأنا على ثقة من أن القارئ لن يمانع فى أن أولى دراسة هذا الموضوع بضع دقائق ؛ والسبب فى ذلك أن الآراء الصحيحة حول هذا الموضوع سوف تمكن القارئ من استيعاب ، ومن ثم الاستفادة ؛ من قراءة هذا الكتاب ، وكثير من الكتب الأخرى التى تتصل بهذا الشعب وهذه البلاد اتصالاً مباشراً أو غير مباشر ، وبعد أن انتهى من توضيح هذا الأمر توضيحًا كاملاً ، سنواصل مسيرتنا بأقل قدر من الاستطراد أو الإسهاب ؛ والواقع ، أن مساحة الأرض التى قطعناها ، حتى هذه المرحلة من الرحلة ، هى بمثابة مدخل أو مقدمه للرحلة ، والسبب فى ذلك ، أن الرحلة ذاتها ، سوف تبدأ من منطقة الجوف وليس قبلها .

والقومية العربية ـ مثلها مثل قومية اليهودى القديم أو قومية النجدى الإسكتلندى ـ تقوم ، ولا تزال منذ قديم الأزل ، على الانقسام إلى أسر وعشائر وقبائل كما هو معروف ؛ كما أننا لا نخطئ فى تطبيق الاسم ، إذا ما أخذناه فى معناه الأصلى الذى يعنى التحالف والولاء الوراثى ، وبدون أن نلحق صفتى الهمجية والحياة غير المستقرة اللتين تلحقان به فى الاستعمال الحديث ، وسرعان ما انقسمت هذه القبائل ، أو العشائر بحكم طبيعة الأرض نفسها ، إلى فرعين ، متلازمين ، ولكنهما غير متساويين فى الحجم أو الأهمية ، وبقى الفرع الأكبر من هذين الفرعين على شكل حضر أو فلاحين فى المناطق التى تصلح للزراعة ، والإقامة الدائمة ، مع احتفاظهم بالكثير من أشيائهم وأشكالهم القبلية ، برغم الخلط والتوليف بين هذه الأشياء فى أحيان كثيرة ، بل إنها كان يطويها النسيان فى بعض الأحيان نتيجة الاندماج الذى يلازم التنظيم المدنى والاجتماعى ولا يمكن فصله عنهما ، فى حين كرّس الفرع الأصغر نفسه لحياة الرعى التى وجد لها متسعًا فى الصحراء ، التى تشكل ثلث مساحة شبة الجزيرة العربية ، كما احتفظ ذلك الفرع أيضًا بأموره الأسرية والعشائرية الأساسية ، دون أن تضعفها المدنية أو يصيبها التوليف والخلط بفعل العلاقات التى يقوم عليها المجتمع المترابط ؛ إلى حد أنه ، وفى هذه النقطة وحدها ، ظل أهل هذا الفرع بمثابة المُسْتَوْدعين الأوفياء للتقاليد العربية البدائية ، كما يشكلون أيضًا شكلاً من أشكال الحكم النمطى للأمة كلها ، من هنا ، وعندما تنشأ الشكوك المتعلقة بالتسلسل النَّسَبِى ، مثلما تنشأ فى معظم الأحيان ، بين السكان المستقرين ... أو "سكان القرميد" ، إن قدر لنا أن نسمى سكان المدن والقرويين بالاسم العربى الذى يطلق عليهم ، فإن المرجع فى ذلك يتمثل دومًا فى الرجوع للبدو الذين يجاورون أولئك الحضر للبت فى أمر

لا يمكن البت فيه عن طريق سجلات حياة المدينة المعقدة ؛ يضاف إلى ذلك أن البدوى الذى يعيش فى الصحراء يستطيع عن جدارة تفسير كل قسم بل كل طابع فى شعار النبالة العربية ، أما فيما يتعلق بالأمور الأخرى ، فى الدين ، فى الفنون ، فى العلوم ، وفى الحضارة فمن الطبيعى أن يتراجع أولئك البدو ، إلى الوراء ، بدلاً من أن يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام ، كيف يحدث غير ذلك ؟ فى واقع الأمر ، لهؤلاء البدو ، الذين ليس لهم معلم سوى الصحراء ، ولا يزاملهم فى الدراسة سوى الإبل والنعام ؟ ولهذا السبب ، تجد أن السكان المستقرين قد أضافوا ، من ناحية ، إلى ما لديهم من معرفة وفنون كثيراً من المستلزمات والتحسينات الجديدة ، التى يحدثها قانون العقل البشرى التقدمى بين الرجال ، إذا ما سمحت له الظروف بذلك ، فى حين ، تراجع البدو من الناحية الأخرى ، ومن بين العرب ، إلى أبشع حدود الهمجية ؛ وأضحوا فى النهاية على ما نراهم عليه اليوم ؛ إلى حد أنهم لا يزالون يحتفظون بالعلاقة نفسها مع بقية إخوانهم المواطنين ، تلك العلاقة التى تقول : إن السلالة العرقية الهمجية سيئة الطبع الموجودة فى الأسفل تخدم الأفرع النامية المثمرة الموجودة فى الأعلى .

والبدو يستمدون وسيلة عيشهم الرئيسية من قطعان الرعاة ، وهم يتاجرون فى الإبل والأغنام عندما تتوفر لديهم ، إضافة إلى تعاملات قليلة فى الخيول ، وبخاصة فى المنطقة الشمالية ، وفى مقابل اللحم والصوف يحصل البدو على السلع الهزيلة مثل الملبوسات ، والطعام ، والأثاث الذى يحتاجون إليه فى حياتهم : وهذه السلع الهزيلة ليست متعددة الأنواع ؛ بل هى مثال صادق على قول الشاعر "الإنسان لا يحتاج تحته إلا إلى القليل" ، زد على ذلك ، أن صيد الغزال والنعام يشكل لديهم حرفه إضافيه ومصدراً للربح ، فى حين أن الصحراء نفسها ، التى لا تفلحها أو تزرعها يد الإنسان ، هى التى تجود على كسلهم الشديد بالحصاد الهزيل الذى وصفناه فى الصفحات القليلة الماضية ، كما يشكل سلب البدو ونهبهم سواء للرحّاله أو القرويين ، مهنة إضافيه أخرى ، غير أن عملية السلب والنهب هذه تعد شكلاً من أشكال الترف الذى يندر أن يحدث فى الأراضى العربية ذاتها ، برغم أن ذلك يحدث مراراً فى الأراضى الموالية للقسطنطينية .

وأضيف هنا كلمة أخيره ، أكون قد انتهيت بعدها مما أريد قوله عن أصدقائنا البدو ، فضيافة البدو ، التى شاهدنا منها عينه منذ قليل ، بل أقول كرمهم ، يسهب

الناس فيه ويتحدثون عنه مراراً وتكراراً ، وأنا بدورى لا أريد أن أبخسهم مزايا هذه الخصال الطيبة ، برغم أنهم فى هذه المسألة ، بل فى أمور أخرى ، يعدون أقل منزلة من إخوانهم المواطنين المتحضرين ، ومع ذلك نجد أن سخاء البدو ينتج فى معظمه عن الطيش الصبيانى الذى ينطبع به الشخص الهمجى أكثر من السخاء الحقيقى الجدير بالثناء والذى ينبع من الشخصية نفسها ، والبدوى شأنه شأن الطفل الرضيع يمد يديه الصغيرتين ويفتح فمه الصغير لكل ما يجئ فى متناوله سواء أكان جنيها إنجليزيا أو حبة كرز ، وهو بنفس القدر من التأهب يدع ذلك الذى حصل عليه ، يفلت منه ، والبدوى سلاّب ونهّاب ومسرف فى آن واحد ، فهو يتوق إلى الحصول على كل ما يرى أو يشاهد ، دون أن يعول كثيراً على قيمته ، كما أنه على استعداد أن يتخلى بسرعة عما حصل عليه بالفعل ، والسبب فى ذلك هو عجز البدوى عن تقييم أو تقدير ذلك الشئ ، والعطاء ، أو الشحاذة ، أو السلب والنهب كلها أمور مترابطة عند البدوى ، وهى تنتج أصلاً عن جهل البدوى المطبق بقيمة المُلكية وأهميتها ؛ من هنا نجد أن البدوى يستحق المدح والثناء عليه فى أحيان قليلة جداً ويستحق اللوم الشديد فى معظم الأحيان ؛ وخلاصة القول بالنسبة للبدوى هى : ليس فى الإمكان أحسن مما كان ! أضف إلى ذلك ، أن البدوى ليس لديه ما يقدمه بصورة عامة سوى القليل جداً ، وهو يُمنِّى نفسه ، مقابل ذلك القليل بمكافأة كبيرة ، عندما سيقوم بسلب ونهب من حل عليه ضيفًا فى الليلة الماضية ، بعد أن يكون على بعد عدة ساعات من مستقر ذلك البدوى ، فى صبيحة اليوم التالى ، وعلاوة على ذلك ، فإن الشعور بالشفقة تجاه الغرباء ، ذلك الشعور الذى يشكل ملمحًا أساسيًا من ملامح الطابع الأسرى العربى ، لا يخلو منه صدر ذلك البدوى الهمجى ؛ إذ أن كل ما يقدمه ذلك البدوى بطريق الكرم والسخاء يكون مصحوبًا بحرارة الاستقبال ، ومحاولة غريبة لإشاعة البهجة والسرور ، وهذه كلها أمور لها مزاياها ، إذ يترتب عليها فى معظم الأحيان المدح والثناء اللذان يطربان أذن البدوى ، والبدوى فى أفضل الأحوال ، ما هو إلا طفل ناقص التعليم والتربية ، ظلت سماته الفطرية الطيبة بلا تطوير أو مقيدة ، والسبب فى ذلك ، هو معاملة البدوى معاملة سيئة أو إهماله إهمالاً تاماً .

ويخلص القارئ ، من كل ما تقدم ، إلى نتيجتين عامتين ، يندر أن نخطئ فى تطبيقهما وأولى هاتان النتيجتان مفادها أن رفاه وأهمية كل من ساكنى الخيام (البدو) وساكنى القرميد (الحضر) إنما يتناسبان تناسباً عكسياً ؛ وثانية هاتان النتيجتان ،

مؤداها أن هؤلاء البدو ، عندما يتم وضعهم في إطارهم المناسب ، بفعل القوانين الحكيمة الصادرة عن حكومة قويه ، ليكونوا مجرد رعاة أغنام أو ماشية ، دون أن يسمح لهم باكتساب أي قدر من القوة أو النفوذ اللذين ليسا من حقهما ، واللذين قد يسئ البدو استعمالهما ، فإن ذلك يكون في صالح جميع الأطراف .

وقد ترتب على عدم الاهتمام بهاتين النقطتين ، بل ربما عدم الوقوف عليهما ، إلى ظهور كثير من النظريات الخاطئة والأحكام غير الدقيقة ، سواء في الكتب أو على ألسنة الناس ، عن الأمة العربية ، ومن ثم رأيت أن أنتهز فرصة وجودي بين عرب الشرارات ، أحاول إصدار حكم أدق وأوضح عن موضوع الأمة العربية ، وقد يساعد مثل هذا الحكم ، وهذا هو ما أتمناه ، على تصحيح الحكايات التي رواها المؤلفون ، وبخاصة الفرنسيين منهم ، عن حقائق الموقف القاسية التي لا مفر منها في الصحراء ، وعن سكان الصحراء أنفسهم ، زد على ذلك ، أن الحقائق التي من هذا القبيل تكون وثيقة الصلة بالموضوع ، وقد يفيد الإلمام بها والوقوف عليها ، من نواحي مختلفة ، أولئك الذين يكلَّفون بالتعامل مع العرب على المستويين الجماعي والفردي ، والإنسان الذي يتعامل مع شعب لا يعرفه يكون شأنه شأن من يقرأ في كتاب مكتوب بلغة غير معروفة له ، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور الأفكار الخاطئة وارتكاب الأفعال الخاطئة في بعض الأحيان .

وكان من الطبيعي أن أدرك على الفور أنا ورفيقي أن الهدف المحـــدد لرحلتنا ، أو النتيجة المبتغاة منها ، أيًا كانا ، يجب ألا نتوقع الحصول عليهما ، أو نجدهما بين العشائر المستقرة ، من هنا ، بدأنا نتطلع في شغف ، إلى المناطق المأهولة التي تنتظرنا ، والتي وصفها البدو لنا ، وراحوا يفصِّلون الوصف ويبالغون فيه شأنهم شأن ساكن الكوخ في جزيرة مان man الذي راح يصف لندن أو ليفربول بعد أن زارهما أول مرة ، ولكننا بعد أن توصلنا إلى كل هذه الاستنتاجات المفيدة ، من كل هذه القصص البهيجة ، توصلنا أيضًا إلى نتيجة مفادها أن ما ينتظرنا لا بد وأن يكون مختلفًا من حيث الأرض ومن حيث السكان عن المناطق التي اجتزناها في المسافة ما بين غزَّة والجوف ، وهذا هو ما اكتشفناه عندما وصلنا إلى منطقة الجوف بعد ذلك بأربعة أيام .

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو اجتزنا ، بشئ من الصعوبة ، سلسلة التلال الرملية التي تطبق فجأة على مجرى وادي السرحان ، وشاهدنا في هذا

الوادى ، ولأول مرة شجرة الغاضه Ghada، وهـــذه الشجيرة ، فى رأيى ، لا توجـد إلا فى شبه جزيرة العرب ، وهى غالبًا ما ترد كثيرًا فى أشعار الشعراء العرب ، وهذه الشجيرة من فصيلة البرتنون Euphorbia ، وساقها من النوع الخشبى ، ويتردد ارتفاعه فى معظم الأحيان بين خمسة وستة أقدام ، وبها الكثير من الأغصان الدائرية الخضراء، وهذه الأغصان رفيعة ومرنة ، وتشكل خصلة ريشية كبيرة، تسر الناظرين ، كما تشكل مأوى وملاذًا للرحالة وغذاء لأبلهم ، والإبل شديدة الولع بالغاضة ، وغالبًا ما تخرج عن مسارها ، برغم ما تلقاه من ضرب وركل ، لتملأ أفواهها بالغاضة ثم تعود من جديد إلى مسارها الأول ، مع استعدادها لتكرار المحاولة نفسها مع شجيرة الغاضة التى تعترض طريقها بعد ذلك ، دون أن تراعى مطلقًا الضرب والركل الذى أصابها ، بسبب فعلتها الأولى .

لقد قرأت وسمعت ، عندما كنت فى إنجلترا ، عما يسمى "الجمل الطيع" ، وإذا كانت الكلمة الإنجليزية Docile تعنى "غبى ، ولكن جيد وطيب" ؛ فإن الجمل فى مثل هذه الحال يعد أفضل مثال على الطاعة والانقياد، أما إذا كان الهدف ، من هذه الكنية، هو تعيين حيوان يهتم براكبه مثل سائر الحيوانات ، إلى حد أن هذا الحيوان يفهم نوايا راكبه بصورة أو بأخرى ويشاركه إياها من منطلق أسلوب التابعين ، وإذا كان الهدف من هذه الكنية أيضًا ، تعيين حيوان يطيع راكبه باعتبار ذلك خضوعًا أو صداقه مع صاحبه، كما هو الحال بالنسبة للحصان والفيل، إذا كان المقصود هو ذلك ، فأنا أقول : إن الجمل ليس طيعًا بأى حال من الأحوال ؛ وإنما هو على العكس من ذلك تمامًا ؛ فالجمل لا يعبأ براكبه ، ولا يلقى له بالاً سواء أكان على ظهره أم لا ، أو حتى عندما يبدأ السير فى خط مستقيم ، والسبب الوحيد لذلك هو أن الجمل يبلغ من الغباء حدًا لا يستطيع معه أن يتحول إلى جنب من الأجناب ؛ كما أن الجمل عندما تستهويه بعض الأشواك الجذابة أو الأغصان الخضراء وتخرجه عن طريقه ، فإنه يواصل المسير فى نفس الاتجاه الجديد لأن غباءه يحول بينه وبين عودته إلى مساره الأول ، وهم الجمل بالدرجة الأولى ، هو أن يجتاز أكبر قدر ممكن من المراعى أثناء تقدمه إلى الأمام بطريقه آلية ؛ وعنقه المرن الطويل يعطيه ميزة كبيرة فى تحقيق هذه المهمة ، وضرب الجمل أو ركله أسفل البطن يساعد على توجيهه أو إيقافه ، والجمل لن يحاول مطلقًا الإطاحة براكبه من على ظهره ، نظرًا لأن مثل هذه الحيلة أكبر بكثير من فهم الجمل المحدود ؛ وإذا ما سقط راكب الجمل من على ظهره ، فإن الجمل لن تراوده

أحلام الوقوف انتظاراً لراكبه ، وإنما يواصل سيره بالطريقة نفسها ، ويقتات ، عن طريق الرعي ، أثناء السير ، دون أن يعرف أو يهتم ولو مثقال ذرة ، بما أصاب راكبه . وإذا ما أطلق عنان الجمل ، فسوف يستحيل عليه مطلقًا أن يرجع إلى وطنه أو مرعاه المعتاد، وإن يجد أول من يصادفه غضاضة في أن يركبه ؛ فزيد وعبيد يستويان عنده ، وافتقاد الجمل لصاحبه أو للجمال الأخرى التي كانت ترافقه لا يحزنه ولا يجعله يحاول العثور عليها مرة ثانية ، والإشارة الوحيدة التي يطلقها الجمل ، ليدل بها على إنه يعرف راكبه تحدث عندما يهم الجمَّال بالركوب على ظهر الجمل ،وفي مثل هذا الحال ، وبدلاً من أن يخاطب الجمل راكبه ، بالطريقة نفسها التي خاطب بها الجمل الذكي بلعام Balaam قائلاً : "ألم أكن أنا ذلك الجمل الذي تركبه منذ أن أصبحتُ ملكًا لك وإلى يومنا هذا" ؟ ، فإنه يثني عنقه الثعباني الطويل إلى الخلف صوب راكبه ، ويفتح فكيه الضخمين استهدافًا العض إذا ما قوى على ذلك ، ثم يزأر زئيراً يشبه الأنين ، كما لو كان يشكو من ظلم جديد أوشك أن يقع عليه ، وخلاصة القول هي : أن الجمل من البداية إلى النهاية حيوان غير مستأنس ، حيوان متوحش ، أمكن استغلاله نتيجة غبائه فقط ، دون أن يتطلب الأمر مهارة من صاحبه أو أي تعاون من جانبه هو ، باستثناء سلبيته الكاملة . والجمل لا يتأثر بالولاء أو العادات ؛ فالجمل ليس أليفًا على الإطلاق ، رغم أنه لا يعي أنه حيوان متوحش تماماً .

والجمل لا يملك سوى نوبة غضب واحدة فقط ، ألا وهي الثأر ، الذي يعد الجمل أبشع مثال عليه ، وبخاصة إنه عندما يثأر لنفسه يكشف عن حقد دفين لا ننتظره منه ، ويكون ذلك الغل مصحوباً بكل الغباء المتبلد في طابع هذا الحيوان ، وأنا أتذكر جيداً مثالاً على هذا الانتقام ؛ وقد وقع هذا الحادث بالقرب من بلدة صغيرة في سهل بعلبك التي كنت أقيم فيها في ذلك الوقت . حدث أن صبيًا صغيراً يبلغ من العمر حوالي أربعة عشر عامًا ، كان يقتاد جملاً كبيراً ، محملاً بالحطب ، من تلك القرية إلى قرية أخرى تبعد مسير نصف ساعة أو ما يقرب من ذلك ، وعندما تسكع الجمل ، أو تحول عن مساره ، عاود الصبي ضربة مراراً ، وعلى نحو يبدو أنه كان أكثر مما ينبغي . ولما لم يجد الجمل الفرصة المواتية للإنتقام في حينه ، راح "ينتظر الفرصة الملائمة" ، ولم يطل انتظار الجمل لتلك الفرصة ، وبعد ذلك بأيام قلائل ، كان على الصبي نفسه أن يقتاد الجمل عائدًا ، غير مُحَمَّلٍ ، إلى قريته ، وعند منتصف الطريق ، وعلى بعد مسافة قصيرة من المنازل ، توقف الجمل فجأة ، ونظر من حوله في جميع الاتجاهات ،

كيما يؤكد لنفسه أن أحداً لم يكن على مقربة منه ، وبعد أن تأكد الجمل أن الطريق خال من المارة عن قرب وعن بعد ، خطى خطوة إلى الأمام ، وأمسك رأس الصبي التعيس في فمه الضخم ، ورفعه في الهواء وألقى به على الأرض ، بعد أن انفصل تمامًا الجزء العلوي من جمجمة رأس الصبي عن جسده ، وتناثر مخه على الأرض ، وبعد أن شفى الجمل غليله على هذا النحو ، استأنف مسيره صوب القرية كأن شيئًا لم يكن ، إلى أن جاء بعض الرجال الذين شاهدوا كل ما حدث ، برغم أن المسافة التي كانت بينهم وبين مكان الحادث لم تكن تسمح لهم بالوصول لمساعدة الصبي في الوقت المناسب ، وقتلوا الجمل .

والواقع أن هذه النزعة الكريهة ، تبلغ من البروز حداً ، يجعل بعض الفلاسفة ، وهم ينتمون بطبيعة الحال إلى مدرسة الأستاذ جورز Gorres يعزون طبيعة العرب الانتقامية إلى الحصة الكبيرة من غذائهم التي يستمدونها من لحم الإبل وحليب النياق، والتي من المفروض أن تنقل إلى أولئك الذين يتناولون كميات كبيرة منها ، الصفات الأخلاقية أو غير الأخلاقية للحيوان المأخوذة منه ، وأنا لا أجد نفسي مؤهلاً لإصدار حكم أو الإدلاء برأي في هذه المسألة المعقدة ؛ ولكن بوسعي أن أقول : إن الجمل وسيده بينهما أوجه شبه واضحة كثيرة ، إلى حد أنني لا أظن أن أحد أعراب شومر كان مخطئًا عندما سمعته يقول في إحدى المرات ، "خلق الله البدوي للجمل ، وخلق الجمل للبدوي" ، رحم الله تويكنهام الذي لم يكن قريباً فيسمع ذلك ؛ فلربما أَضْفَتْ تلك المقولة على مقاله المعنون "مقال عن الإنسان" مزيداً من الإيضاح المبجل والمشرف لعملية الخلق أكثر من "الإوزة المدللة" ، ولكن هيا بنا نقتاد جمالنا ونتجاوز شجيرات الغاضة ، التي بدأ عندها استطراد الراكب والمركوب ، ونعود من جديد إلى استئناف مسيرتنا الأساسية .

وبعد أن تجاوزنا التلال الرملية التي أتينا على ذكرها مؤخراً ، خرجنا من خط الوادي المباشر ، ودخلنا مشهداً جديداً ، كانت البلاد لا تزال عبارة عن أرض وصحراء مفتوحة ، ولكن لونها تغير عن لون الأراضي المرتفعة السوداء التي تسبق وادي السرحان ، كان لون السهل ، برغم تناثر الزلط فيه ، يميل إلى الاصفرار ، كما أن سطحه لم يكن قاحلاً تمامًا ؛ في حين ظهرت فجأة على الجانب الأيسر سلسلة من التلال هي سلسلة "جبال الجوف" ، التي تمتد إلى مسافة بعيدة ، كان طريقنا يسير

فيما يشبه البيَّارة ، تفريعه جانبيه من وادى السرحان ، تتجه ناحية الجنوب ، وبعد الظهيرة بوقت قليل دخلنا غوراً كبيراً حيث توجد مياه مجوع 'Magooa'، ومن حولها حوالى مائتى خيمة من خيام عرب الشرارات (رحت أنا ورفيقى نحصى هذه الخيام إلى أن عددنا منها مائتى خيمة قبل أن نشعر بالتعب) ، وهذه المياه عبارة عن مجموعة من الآبار العميقة الدائمة ، التى لن تتلف مياهها إذا ما أبعد الناس عن حافتها كلاً من النفايات والجمال ، كان مخيم البدو فى تلك المنطقة ، تحت رئاسة سعيد ، شيخ الفرع العزّامى من قبيلة الشرارات ، والذى خضع فترة طويلة لسلطة طلال بن الرشيد .

وكان علينا أن نقضى بقية ذلك اليوم واليوم التالى فى منطقة الفرع العزامى ، أما فيما يتعلق بـ ـ سليم العطنة Salem الذى لم يستطع شخصيًا دخول الجوف معنا ، بسبب حادث قتل ارتكبه فى تلك المنطقة فى تاريخ سابق ، كان لابد من أن يتوقف ويتطلع إلينا تطلع من استطاع أن يصل بنا إلى بر الأمان فى تلك المنطقة والذى يستحق منا شهادة مكتوبة تفيد وصولنا بسلام إلى نهاية رحلتنا ، وبعد تحرير هذه الشهادة والتوقيع عليها وختمها ، كان لا بد من تسليمها إلى سليم Salem ، والتى لن يستطيع بدونها الحصول على الأجر المنصوص عليه ، والذى سبق أن أودع ، منذ بداية الرحلة ، أمانة لدى قاض عادل من قضاة مدينة مُعَان ، اسمه إبراهيم ، كان مفروضاً أن يحصل سليم من القاضى إبراهيم على أتعابه ، بعد تقديم ـ خطاب اعتماد ـ الوثيقة المشار إليها ، والتى نقر فيها بأننا وصلنا إلى نهاية رحلتنا بسلام بدون أى شكوى أو منغصات من مرافقنا .

إنه لمن الحكمة لكل من يود السفر الآمن فى الصحراء ، أن يتخذ إجراءً مماثلاً للإجراء الذى سبقت الإشارة إليه ، وأن يجعل أولئك الذين يرافقهم فى رحلتهم مسئولين أمام أولئك الذين يخلفهم وراءه ، وأمام من سيلتقى بهم إن أمكنه ذلك . وترتيباً على ذلك ، وإضافة إلى الاحتياطات التى من قبيل الاحتياطات التى أشرنا إليها على سبيل المثال ، فإنه من المستحب ومن المفيد أيضاً أن يقول الرحال أنه يحمل معه رسائل مهمه لهذا الحاكم أو ذاك ، وأن يحمل معه قطعة من الورق مطوية ومختومة وتحمل عنوان هذا الحاكم ، وما يكتب فى مثل هذه الأوراق لا يهم كثيراً ، والسبب فى ذلك أنه لا يوجد من بين كل خمسين ألف بدوى واحد يستطيع أن يقرأ حرفاً واحداً . وقد حرصنا على تزويد أنفسنا بالمستندات التى من هذا القبيل ، من مرحله إلى أخرى

طوال رحلتنا ، وبفضل هذه الوثائق ، بعد العناية الإلهية ، استطعنا أن نعود سالمين في النهاية من أراضي يعد الدخول إليها أمراً صعبًا ، ولكن العودة منها أصعب من الدخول إليها ، وعلى كل حال ، فأنا أنصح أولئك الذين يريدون التعامل مع البدو ألا يعطونهم أجورهم مقدمًا عن الخدمات التي يقدمونها ؛ وبذلك يضمنون إخلاصهم للأجور التي يتقاضونها ، بدلاً من أن يستثيروا فيهم الجشع وحب المال الذي ينبغي أن يظل حبيساً في داخلهم . وبفضل ، للسبب نفسه أيضًا ، أن نساوم البدو إلى أبعد حد ممكن ، لا من أجل توفير قرش أو اثنين ، وإنما لنترك لديهم انطباعاً بفكرة مفادها أننا لا يتيسر لنا سوى القليل من النقود ، وبالتالي فنحن لا نتحمل فكرة الإسراف في تلك النقود ، ومن الأفضل لنا أن نبدو أمامهم أننا بحاجة إلى كرمهم ، أكثر من أن نجعلهم مدينين لنا بكرمنا ، والسبب في ذلك أن شخصية المدين يصعب التلاعب بها ، في حين أن شخصية الدائن ، لا تحظى ؛ بأي حال من الأحوال ، بنفس السلامة ، بين أناس يقل اعترافهم بالجميل ومشاعرهم الطيبة ، عند تصفية الحسابات عنه في السلب والنهب والخيانة ، والإنسان المتحضر هو فريسة هؤلاء البدو ، وهم يجيدون التعامل معه من هذا المنطلق ، إذا ما أحسوا أنه يصلح أن يكون فريسة لهم يفترسونها ، زد على ذلك ، أن الإنسان إذا ما أظهر أمام البدو عدم اكتراثه بالإنفاق فتلك علامة على أن هذا الإنسان أوربي ، وهذا هو آخر ما يمكن أن يفعله الإنسان العاقل في الجزيرة العربية ؛ أما الظهور بمظهر المعدم الفقير ، فذلك يكون بمثابة جواز سفر ممتاز يجعل البدو يحسبون صاحبه من أهل دمشق ، القاهرة ، أو بغداد . وهذا تنويه إلى الرحالة ، يجب أن يضعوه في اعتبارهم ، سواء أكانوا في الصحراء العربية ، أم في أراضي مماثلة لها أو بين أناس مماثلين لبدو هذه الصحراء .

وبعد كثير من البحث والتمحيص ، وبعد تقديم ورفض الكثير من العروض ، أنهى سليم SALEM ذلك النقاش ، بأن عثر على شخص حسن الطبع ، ولكنه جبان إلى حد ما ، هو سليمان العزَّامي ، الذي تعهد بأن يكون مرشداً لنا إلى أن نصل الجوف ، وفي الوقت ذاته ، راح كل من سعيد SEY'EED ، وأقاربه ، الذين كانوا يطمحون إلى الحصول منا على تقرير لصالحهم عن سلوكهم ، عندما نمثل أمام حاكم المنطقة ، راحوا يعاملوننا معاملة حسنة ؛ فقد قدموا لنا اللحم والحليب ، والتمر والسمح الواحد بعد الآخر ، وقضينا نهارنا مرتاحين بشكل عام ، بين التحدث في الخيام ، أو التجول بين الكثبان الرملية الموجودة في الغور ، برغم شدة الحرارة ، التي زادت حدتها بشكل يجعل البنغالي يشكو منها ، ويجعل المدراسي يحكم عليها بأنها لا تطاق .

ومع مطلع اليوم التاسع والعشرين من شهر يونيو استأنفنا مسيرتنا من جديد وبصحبتنا سليمان العزامي ، وكثير من أفراد القبيلة الذين كانت لهم مصالح عند حمد نائب حاكم الجوف ؛ في حين بقي سليم في المخيم وبصحبته كل من علي وجوردي . ومن أمامنا كانت هناك قطعة من الأرض الجرداء التي تتصل بالشمال من خلال ممرات جبال الجوف ، هذا فضلاً عن سلسلة أخرى من الجبال تشترك في الحدود مع الصحراء السورية - العربية ، ويسكن بدو عنيزه من عشيرة بشر ، الفراغ الذي يقع بينهما ، وقد شاهدنا في هذه المنطقة قطيعًا كبيرًا من النعام ؛ والنعامة هي أحسن الطيور التي تعيش على سطح هذه الأرض ، كما أنها أصعب الطيور فيما يتعلق بالاقتراب منها ، وعندما شاهدنا النعام ، من بعد ، وهو يجري واحدة إثر أخرى في صف طويل ، كما لو كانت حياته تعتمد على هذا الصف ، حسبناه مجموعة من الجمال المذعورة ، ويدو الشرارات يصطادون النعام ، نظرًا للإقبال على شراء ريشة في مناطق الحدود واستهدافًا لإعادة بيع هذا الريش في مصر أو سوريا ، اللتين يمرر عن طريقهما إلى أوربا ، غير أن بدو الصُّلَيبه هم ألَدّ أعداء النعام ، وسوف نورد المزيد عن هؤلاء البدو فيما بعد .

وليس الماء وجود في هذا السَّهْب[1] ، وواصلنا المسير طوال نهار ذلك اليوم من أيام الصيف ، ولم نتوقف سوى ساعة واحدة عند غروب الشمس ، أعددنا خلالها وجبة محلاة بجمر النار؛ ثم ركبنا جمالنا من جديد ، ومررنا بالقرب من الرُّعْن[2] الجنوبي الشرقي لجبال الجوف ، وواصلنا المسير إلى ما بعد منتصف الليل إلى أن توقفنا وقفة قصيرة طلبًا لقليل من الراحة والنوم .

وعلى كل حال ، فقد عضني عقرب فأفسد عليّ نومي وراحتي : والواقع أن هذا الحادث لم يكن خطيراً ، مثلما يبدو ، وذلك إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا النوع الذي ينتمي إليه ذلك العقرب ، غير أن هذه العضة كانت مؤلمة للغاية ، برغم أن تأثيرها لم يدم طويلاً ، وعقارب الصحراء ، ليست سوى مخلوقات عجيبة صغيرة ، يصل طول الواحد منها حوالي ربع بوصة ، ومن حيث الشكل ، فإن لون مخالبها وذيلها بني غامق

(١) سهل واسع خال من الشجر (المترجم) .
(٢) الرعن : بتشديد الراء وتسكين العين ، هو أنف الجبل (المترجم) .

يميل إلى الاحمرار ، وهى كثيرة الحركة والنشاط ، وتكثر هذه العقارب فى التربة الرملية ، وأثناء النهار تتحاشى هذه العقارب الطرق العامة ، ولكنها تخرج أثناء الليل لتتمتع بالهواء البارد ، ولدغ العقارب يشبه تماماً الألم الناتج عن الضغط بسن قطعه من الحديد الساخن ، على جلد الإنسان ، وأنا عندما أحسست بذلك الألم فى جبهتى ، قفزت قفزة شديدة إلى الأعلى ، توقعت بعدها أن يستمر الألم معى مدة أربع وعشرين ساعة ، وهى المدة المحددة لمثل هذا الألم من المنظور الشعبى على أقل تقدير ؛ ولكنى أقول : إن أملى قد خاب تماماً ، نظراً لأن الألم الناتج عن هذه اللدغة لم يدم أكثر من ساعة ، وكان مصحوباً بتورم قليل ، ثم زال الألم واختفى الورم ، ولم يترك أى أثر على الإطلاق .

ومع انبلاج ضوء الفجر ركبنا جمالنا من جديد ، وكلنا أمل وشوق أن ندخل الجوف قبل حرارة الظهيرة الشديدة ؛ ولكن المسافة المتبقية لنا كانت طويلة ، وكان طريقنا يمر عبر عديد من الألتواءات التى تمر بين التلال الخفيضة وسلسلة من صخور البازلت ، دون أن نصادف أى عَرَضٍ من أعراض الاقتراب من المناطق المزروعة . وأخيراً بدأت خضره المنحدرات تتزايد ، ثم ظهرت لنا بعد ذلك مجموعة صغيرة من المنازل بالقرب من أرض محروثة ، كانت تلك هى قرية جون DJOON الصغيرة ، التى تمثل جزءاً ثانوياً تماماً غربى الجوف نفسه . وعددت من بين منازل هذه القرية عدداً يتردد بين عشرين وثلاثين منزلاً ، ثم دخلنا بعد ذلك إلى ممر ضيق طويل ، تحجز ضفتاه شديدتا التحدر رؤية أى شئ على الجانبين ، ثم ظهرت فجأة مجموعة من الخيالة على الصخرة المقابلة ؛ ونادى واحد منهم ، وهو شاب أنيق ، متموج الشعر ، ومسلح تسليحاً جيداً ، ويركب حصاناً جيداً أيضاً (سوف نتعرف على هذا الشاب تماماً فى الفصل الثانى من هذا الكتاب) ، نادى هذا الشاب على مرشدنا وطلب إليه أن يتوقف ، ويرد عن نفسه وعنا ، وتصرف سليمان العزامى مثلما قال المنادى ، ولم تكن نبرات صوته خالية من دلائل الخوف ، أو تلك الإشارة التى يندر أن يفشل البدوى فى إظهارها عندما يقترب من مدينة من المدن ، أو بلد من البلدان ، إذ أن البدوى ، ما أن يدخل مدينة من المدن ، يتحتم عليه أن يتسلل خلالها ، مثل كلب أوسعه الناس ضرباً لاتهامه بالسرقة ، وبعد أن أجاب سليمان العزّامى على أسئلتهم بنبرة تنم عن الخضوع والتواضع ، تشاور الخيّالة برهة قصيرة ، شاهدنا بعدها اثنين من الخيالة يديران رأسى حصانيهما ، وأخذا يعدوان بحصانيهما فى اتجاه الجوف ، بينما نادى

الشخص الذى وجه إلينا الأسئلة ، على سليمان العزامى وقال له : "كل شئ على ما يرام ، استمروا فى سيركم ولا تخشوا شيئًا" ، ثم اختفى بعد ذلك مع بقية المجموعة خلف حافة الأرض المرتفعة .

وكان علينا أن نواصل مسيرنا المرهق مدة ساعة كاملة ؛ لقد انهار جملى انهياراً تامًا ، وراح يسقط أرضًا مرة بعد أخرى ؛ وحذا الجمل الذى يحمل البن حذوه أيضًا ؛ كانت الحرارة فظيعة فى تلك المداخل الضيقة ، فضلاً عن دخول وقت الظهيرة . واستطعنا فى النهاية اجتياز ذلك المدخل الضيق ، ولكننا اكتشفنا أن طريقنا مسدود نظراً لأن صخرة ضخمة كانت تعترضه ، لقد نفذ الماء الذى كان معنا ، فضلاً عن أننا لم نتناول أى شئ منذ الصباح الباكر ، ترى ، متى نشاهد الجوف ونراه ؟ أم أنه طار من أمامنا ؟ وبينما كنا نواصل مسيرنا ونحن مرهقين تمامًا ، تجاوزنا كومة ضخمة من الصخور شديدة الانحدار ، شاهدنا بعدها مشهداً جميلاً بدأ يطالعنا .

غير أن ذلك المنظر ، وذلك الذى أعقب أول انتقال لنا من الجزيرة العربية الصحراوية إلى الجزيرة العربية المأهولة ، يستحق أن أخصص له فصلاً مستقلاً من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

الجوف

هكذا مشينا فى أخاديد الأرض
دون عائق
شكسبير

نظرة على الجوف من الشمال – مقابلة كل من غافل وضافى – منزل غافل : القهوة – رسميات المجتمع – صنع القهوة – التمر – وصف عام للجوف – منازل الجوف – أبراج الحرب ، الحدائق ، وبيارات النخيل – المناخ – السكان – القرى الأخرى – التاريخ السابق ؛ الغزو الوهابى ، الفوضى التى تلت ذلك – تدخل عبد الله ابن الرشيد – الرواية . غزو طلال ؛ غزوه الجوف وجعله منطقه تابعه له – تعيين حمود حاكمًا للجوف – الطابع الدينى والأخلاقى والبدنى لسكان الجوف – عدم المبالاة بالدين – أوجه الشبه مع الإنجليز – التجارة والتقدم – مساكننا الجديدة – الحياة اليومية – عشاء فى الجوف – الإتهامات التى وجهّت إلينا – زيارة القلعة – الشكل المعمارى للقلعة – برج مارد – حمود ؛ قهوة حمود ، حاشيته فى شومر – العدل –المسجد – المضايقات – المجتمع فى الجوف – وصول مندوبى العوازم ، موافقتنا على مرافقة مندوبى العوازم إلى حائل – مرشدنا الجديد – مغادرة الجوف – الطريق صوب الجنوب – بئر شقيق ، إنشاؤه – تأمل ماضى ومستقبل الجزيرة العربية .

كان منظر الجوف ونحن نقترب منه أول مرة من ناحية الغرب على النحو التالى : وادى واسع عميق ، سلاسل من الجبال المنحدرة الواحدة إثر الأخرى إلى أن تختفى أعماق هذه السلاسل الجبلية عن الأنظار بين رفوف صخرية يميل لونها إلى الاحمرار ، وتنتشر فى كل مكان ، يوجد أسفل هذه الرفوف الصخرية ، مجموعات من بيارات

النخيل وأشجار الفاكهة على شكل بقع شديدة الاخضرار تمتد إلى آخر منعطفات الوادى ؛ كتلة كبيرة من المساكن بنية اللون غير المنتظمة تتوج التلة الرملية الرئيسية ؛ ومن خلف هذه التله برج وحيد مرتفع يشرف على الضفة الأخرى من الغور ، وفى الأسفل توجد مجموعة من البوريجات الدائرية الصغيرة وقمم المنازل المنبسطة التى تختفى بين أوراق نباتات الحدائق ، كان كل ذلك يسبح فى فيض من الضوء والحرارة العموديين ، كان المشهد جميلاً ، بل إنه كان أكثر جمالاً فى عيوننا التى أجهدها الإقفار الطويل الذى مضت رحلتنا خلاله ، يوماً بعد يوم ، وبلا أى استثناء منذ أن ألقينا نظرة الوداع الأخيرة على كل من غزه وفلسطين إلى أن دخلنا الجزيرة العربية المأهولة بالسكان أول مرة . وأنا أجدنى هنا أقتبس ما قاله أحد الشعراء العرب ، عندما كان يصف مكانًا مماثلاً فى الجزائر ، "مثل جنة الخلد ، لا يدخله أحد إلا بعد المرور على الصراط" .

ولما كان المنظر قد بعث الأمل والحياة فينا ، بدأنا نستحث جمالنا المجهدة ، وبدأنا فعلاً فى نزول المنحدر الأول من منحدرات الوادى ، وهنا تقدم خيالان ، مهندمان ومسلحان تمامًا على طريقة سكان الجوف ، كانا قادمين من المدينة ، وحيونا تحية حارة وبصوت عال "مرحبًا"؛ وأردفا قائلين بلا مقدمات: "فلنشب النار ونتناول الطعام" ، وحذيا حذو الخيال السابق ذكره بأن نزلا من على جواديهما ، وفتحا حقيبة جلدية كبيرة مملوءة بالتمر الممتاز ، وقربة ماء ملآها من مياه العين الجارية ؛ وبعد أن فردا كل هذه المأكولات الخفيفة على الصخرة ، وأردفا قائلين : "كنا على يقين أنكم لا بد أن تكونوا جوعانين وعطشانين ، ولذلك جئنا ومعنا الزاد" ، ودعونا مرة ثانية إلى الجلوس وتناول الطعام .

كنا جوعانين وظمآنين بالفعل ؛ أما التمر فكان من الجوف ، أحسن أنواع التمور التى تأتى من شمالى الجزيرة العربية ، وكان الماء عذبًا ، باردًا وصافيًا ، وليست عليه أى ملاحظات من قبيل الملاحظات التى على آبار كل من مجوع 'MAGOWA والأويسيط ، وترتب على ذلك أن وجدنا أن ليس من الضرورى أن يلح علينا أصدقاؤنا الجدد ، ويكررون دعوتهم لنا إلى الطعام ، وجلسنا على الفور نتمتع بالخير الذى مَثُلَ أمامنا ، وتركنا المستقبل بكل همومه للعناية الإلهية ولمجريات الأحداث ، ورحت أنا ، فى الوقت ذاته أدرس بدقة مظهر أولئك الذين أحسنوا إلينا .

كان أكبرهما رجل يبلغ من العمر حوالى أربعين عامًا ، طويل ، قوى البنية ، داكن البشرة ، وتوحى ملامحه بعدم الثقة ، فى الوقت الذى تكشف فيه عن كثير من

الذكاء ومزيد من التعالي المعتاد ، كان الرجل يرتدى لباسًا عربيًا أنيقًا ، فقد كان يرتدى صُدْرة من القماش الأحمر ، لها كُمَّان طويلان يتدليان فوق قميصه الأبيض الطويل ، ويضع فوق رأسه منديل (غتره) من الحرير المقلم بالأحمر والأصفر ، فى حين يعلق على جنبه سيفًا مقبضه من الفضة ، وقصارى القول ، إن مظهر ذلك الرجل كان يوحى بأنه كان شخصية ثرية ومهمة ، كان اسم هذا الرجل غافل الحابوب رئيس وأهم وأعنف عائلات الجوف ، بيت حابوب ، الذين لم يعودوا بعد حكامًا للمدينة ، وإنما هم الآن ، مثل بقية إخوانهم المواطنين ، مجرد رعايا متواضعين من رعايا حمود ، نائب طلال بن الرشيد ، أمير جبل شومر .

أما رفيقه ، واسمه ضافى ، فقد كان يصغره سنًا ، نحيف البنية ، ولكن لباسه لم يكن من مستوى غافل ، برغم إنه كان يحمل ، مثل غافل تمامًا ، السيف ذى المقبض الفضى الذى يشيع حمله فى الجزيرة العربية بين رجال الحسب والنسب ومن يشغلون المناصب المهمة ، كان لقب ضافى أيضًا حابوب ، ولكن ملامحه كانت توحى بالاعتدال ، وشخصيته أكثر انبساطًا عن شخصية الرئيس ، ابن عمه من الدرجة الرابعة .

وبعد أن انتهينا من وجبتنا ، أمضينا بعضًا من الوقت فى طرح الأسئلة والإجابة عليها ، ونظرًا لأنهم كانوا أبلغونا بأن الحاكم حمود يسكن فى مدينة الجوف نفسها ، اقترحنا على غافل أنه كان من الأفضل والأنسب لنا أن نقوم بزيارة هذه الشخصية المهمة والسلام عليها فور دخولنا ، ولكن الرئيس كان لديه مجموعة من الأسباب ، سيقف عليها القارئ فيما بعد تمنع قيامنا بزيارة الحاكم فور دخولنا ، وبناء على ذلك ، أجابنا غافل بأننا ضيوفه هو شخصيًا ، وبالتالى فإنه هو نفسه له حق استقبالنا أول مرة ؛ أما فيما يتعلق بحمود فسوف نزوره فى فترة لاحقه ، ويرفقه غافل شخصيًا ؛ كما أبلغنا أيضًا أن الزيارات التى من هذا القبيل تتم بعد يوم أو يومين ، وأنه فى ذات الوقت يعد ضمانًا كافيًا لشعور الحاكم الودى تجاههم .

وهنا تدخَّل ضافى وطلب أن نحل ضيوفًا عليه ، قائلاً إن منزله أقرب من منزل غافل ؛ كما قال أيضًا : إنه حضر شخصيًا لاستقبالنا ؛ وبالتالى يصبح من حقه ، مثل غافل ، أن نحل عليه ضيوفًا ، وعلى كل حال ، كان لا بد له من التنازل لمن يكبره مقامًا من أهله. ثم ركبنا دوابنا جميعًا وواصلنا مسيرنا ببطء ، وعندما أوشكنا على الوصول إلى المستوى المنخفض من الوادى، وبدأنا نسير فعلاً بين ظلال بيارات النخيل الكثيفة ،

وقدم ضافي اعتذاره عن سماحه لنا بتجاوز منزله دون أن يشارك في تقديم واجب الضيافة لنا ؛ وبعد أن وجه لنا الدعوة ، تمنى علينا أن نلبيها في أقرب وقت ، ثم انتحى جانباً بين جدران الحديقة العالية قاصداً منزله ، الذي سنتركه فيه مرحلياً، ولكنه عندما فارقنا كان وجهه يحمل نظرة ذات معنى، بالنسبة لغافل أولاً ، وبالنسبة لنا ثانياً، ولم نفهم مغزاها تماماً بعد . -

وواصلنا مسيرنا بصحبة مضيفنا الجديد ، الذي واصل ترحيبه بنا على امتداد الطريق بكامله ، وراح يعبر عن استعداده لتلبية أية خدمة تخطر ببالنا وبعد أن ابتعدنا قليلاً عن تلة القلعة والبرج اللذين كانا على يميننا ، ومضينا نقطع بيارات النخيل واحدة إثر الأخرى ، إلى أن دخلنا من خلال بوابة عالية إلى مجموعة من المنازل أقيمت من حول مكان واسع فسيح ، كانت تتناثر فيه مصاطب بُنيت من الطين والحجر بجوار الجدران هنا وهناك ، مكونة بذلك حجرة انتظار الزوار الذين لم يتم بعد استقبالهم في فناء المنزل الداخلي ، مما يوحي بأهمية المنزل وبالتالي أهمية صاحبه .

وتجاوزنا مدخلاً ثانياً فوجدنا أنفسنا في فناء صغير كانت المباني السكنية تشكل ثلاثة جوانب من جوانبه ؛ ولكن الجانب الرابع كان اسطبلاً للخيول والجمال ، ومن أمام هذا المدخل كان هناك جدار عالٍ ، به عدة نوافذ صغيرة مثقوبة في الجدار (لأن المناخ لا يتطلب زجاجاً في هذه الأماكن الحارة) تحت السقف مباشرة ، علاوة على باب كبير في منتصف الجدار ، هذا الباب باب القهوة – الجهوه – كما يسمونها ، إن شئت فقل حجرة الاستقبال ؛ وطالما أن السيدات لا يستعملن هذه الغرفة ، فلن يكون من المناسب أن أطلق عليها اسم قاعة الاستقبال ، ووصف واحدة من تلك القهاوي ، (الجهاوي) ، مع قليل من التعديلات الطفيفة ، يصلح أن يطبق على بقية القهاوي (الجهاوي) في الجزيرة العربية كلها ؛ والقهوة ملمح أساسي لا غنى عنه في كل البيوت المحترمة في كل أنحاء شبه الجـزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، ولا تتبـاين تلك القهاوي (الجهاوي) تبايناً كبيراً ، اللهم إلاّ من حيث الكـبر أو الصغـر أو التـأثيث الجيد ، أو غير الجيد ، وذلك في ضوء ظروف صاحبها ولهذا السبب فأنا أستأذنكم أن تسمحوا لي بالدخول في بعض التفاصيل الصغيرة التي شاهدتها في منزل غافل ؛ والذي يمكن أن نعتبره مثالاً لآلاف المنازل الأخرى .

كانت قهوة غافل عبارة عن صالة بيضوية كبيرة ، يصل ارتفاعها إلى عشرين قدمًا ، وطولها خمسون قدمًا ، وعرضها حوالى ستة عشر قدمًا تقريبًا ؛ وكانت جدران الغرفة مطلية بألوان سمجة هى البنى والأبيض ، وكانت تتخلل جدرانها تجاويف مثلثة الشكل ، خصصت لاستقبال الكتب برغم أنها لم تكن تتوفر لغافل هى والمصابيح ، والأشياء الأخرى التى من هذا القبيل ، وسقف القهوة مسطح ومصنوع من الخشب ، أما أرضية القهوة فكانت مفروشة بالرمل الناعم النظيف ، ومزينة بطول جوانب الجدران ، بقطع طويلة من السجاد ، وضعت من فوقه ، على بعد مسافات متساوية مساند مكسوة بالحرير ، وفى المنازل الفقيرة يقوم الكليم المصنوع من اللباد مقام السجاد ، وفى أقصى أطراف القهوة ، وبالتحديد فى الطرف البعيد عن الباب ، يوجد وجار[1] صغير ، أو إن أردت الدقة موقد القهوة الذى يتكون من كتلة كبيرة مربعة من صخور الجرانيت ، أو من أى نوع آخر من الأحجار يبلغ طول ضلعها حوالى عشرين بوصة ؛ ويوجد بهذه الكتلة تجويف على شكل مدخنة مفتوح من الأعلى ، ويتصل من الأسفل بأنبوب أفقى صغير ، أو إن شئت فقل فتحه على شكل أنبوب ، يمر من خلالها الهواء ، الذى يدفع خلالها بواسطة منفاخ ، يصل إلى فحم الخشب المكوَّم على مِنْصَبْ مُقَضَّب فى منتصف المدخنة من الداخل ، وبهذه الطريقة يمكن الوصول بالوقود المشتعل إلى درجة الابيضاض خلال وقت قصير جداً ، وبالتالى يمكن الوصول بالماء الموجود داخل إناء القهوة الموضوع فوق فوهة المدخنة ، إلى درجة الغليان فى زمن قصير ، ومنظومة فرن القهوة هذه تشيع فى كل من الجوف وجبل شومر ، أما فى نجد نفسها وفى الأماكن البعيدة الأخرى التى زرتها فى جنوبى وشرقى الجزيرة العربية فهم يستبدلون الوجار FURNACE بوجار مفتوح عبارة عن تجويف فى الأرض ، له حاجز صخرى مرتفع ، وبه مكان للوقود ، إلخ مثل تلك المواقد التى قد نشاهدها فى أسبانيا أو فى قصور مُلَّاك الغرب الإنجليز ، ويرجع هذا التباين والتنوع فى مواقد القهوة ، فى الجزيرة العربية ، إلى توفر الحطب فى الجنوب ، والذى يتمكن السكان بفضله من إشعال النار على نطاق أكبر ؛ فى حين يقل الحطب فى كل أنحاء الجوف وجبل شومر ، ولا يتيسر للسكان هناك سوى الفحم النباتى السيئ ، الذى يُجْلَبُ من مسافات بعيدة ، ويقتصد الناس فى استعماله تمامًا .

(١) الوجار : بكسر الواو وفتح الجيم هو موقد صنع القهوة (المترجم) .

وركن القهوة هذا هو مكان التميز ، الذى يبدأ منه التكريم والتشريف بدرجات متزايدة إلى كل أنحاء القهوة ، وهذا هو المكان الذى يجلس بالقرب منه رب البيت ، أو أولئك الضيوف الذين يريد رب المنزل تكريمهم بصفة خاصة .

وعلى الحافة العريضة للوجار أو الموقد ، حسب الأحوال ، توجد مجموعة من دلال القهوة النحاسية التى تسترعى الأنظار ، تتباين أحجامها وأشكالها ، وصناعة هذه الدلال فى الجوف شبيهة بتلك التى تصنع فى دمشق ؛ ولكن هذه الدلال فى نجد وفى المناطق الشرقية تختلف من حيث الشكل والنقوش التى تزينها، وهى طويلة ونحيلة، وعليها عديد من دوائر الزينة والمصبوبات البارزة الجميلة ، إضافة إلى البزابيز الطويلة التى تشبه مناقير الطيور وأغطيتها التى تشبه الأبراج ، وعدد تلك الدلال كبير بشكل يستثير الضحك ، فقد شاهدت ذات مرة اثنى عشرة دلة فى صف واحد بالقرب من وجار من تلك الوجارات ، برغم أن تسوية القهوة لا تتطلب سوى ثلاث فقط من تلك الدّلال ، على أكثر تقدير ، أما هنا ، فى منطقة الجوف ، فإن خمسًا أو ست من تلك الدلال هو العرف الجارى ؛ ولكن فى الجنوب ، يتضاعف هذه العدد ؛ وكل ذلك للإيحاء بجود وسخاء مالك هذه الدِّلال ، عن طريق الإيحاء بكثرة الزائرين والمقدار الكبير من القهوة الذى ينفقه فى إكرامهم .

وفى منازل الأثرياء على أقل تقدير ، يجلس من خلف ذلك الموقد عبد أسود ، ينادونه باسمه مصغراً ، إشارة إلى الألفة والمودة : وهو عند غافل اسمه سويليم ، أى تصغير سالم ، ووظيفته تسوية القهوة وصبها : وفى الأسر التى لا يكون لها عبيد ، يقوم رب البيت بنفسه ، أو واحد من أبنائه ، بواجب الضيافة ؛ وهو عمل متعب ، كما سنرى فيما بعد .

وسوف أتكلم عن العبيد وعن أحوالهم فى وسط الجزيرة العربية ، عندما نصل المناطق الوسطى التى يوجد العبيد فيها بأعداد أكبر من الجوف .

وندخل ، وعند الدخول يفضل أن نبدأ باسم الله ، وعدم البدء باسم الله يعد فألاً سيئًا بالنسبة للداخل والموجودين فى المنزل على حد سواء ، ويتقدم الزائر فى صمت ، إلى أن يصل إلى منتصف القهوة ، ويحيِّى جميع الحاضرين بينما ينظر إلى رب البيت بصفة خاصة ، ويقول : "السلام عليكم" ، وفى هذه الأثناء يَثْبُتُ كل من فى المقهى ، فى مكانه بلا حراك ، ودون أن ينطق بكلمة واحدة ، ولكن رب المنزل بعد أن يتلقى

السلام بالطريقة المعتادة ، ينهض واقفًا ، وإن كان وهابيًا متشددًا ، أو يود أن يبدو كذلك ، فإنه يرد السلام ردًا مطولاً قائلاً : "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" ، أما إذا كانت لدى رب البيت ميول غير وهابية فإنه يرد قائلاً : "مرحبًا " ، أو "أهلاً وسهلاً" أو أي شئ آخر من هذا القبيل ؛ إذ يوجد عدد لا يحصى ولا يعد من هذه العبارات ، ويحذو بقية الحاضرين حذو رب المنزل وينهضون واقفين ويسلمون ، وهنا يتجه الضيف صوب رب المنزل ، الذي يكون بدوره قد تقدم خطوة أو خطوتين إلى الأمام ويمد يده إلى ضيفه ، لكن دون أن يقبض عليها أو يصافحها ، وتمر المسألة مرورًا شكليًا ، ويكرر كل واحد من الحاضرين التحية مصحوبة ببعض العبارات المهذبة التي من قبيل: "كيف حالك ؟" "إيش أخبار الدنيا معاك ؟" إلخ هذه العبارات ، وتكون كل عبارة من هذه العبارات مصحوبة بنغمة تعبر عن الاهتمام ، وتتكرر هذه العبارات ما يزيد على أربع مرات إلى أن يقول أحدهما : "الحمد لله" ، وهذه إشارة إلى التحول إلى الأسئلة الاحتفائية .

ثم يجلس الضيف ، بعد مباراة قصيرة في أدب الضيافة ، في المكان المخصص له بالقرب من "وجار" القهوة ، بعد أن يحيي العبد الأسود ، معتذرًا ، الذي يجلس بجانب الموقد ، ويحيي جاره الذي يجلس على الجانب الآخر ، يضاف إلى ذلك أن أفضل مسند وأجدد سجادة تخصص للضيف ، أما عن الأحذية والصنادل (النّعال) ، والصنف الأخير فقط هو المستعمل في الجزيرة العربية ، فيخلعها الضيوف ويتركونها على الرمل ، قبل أن يجلسوا على السجادة ، وتبقى الأحذية والصنادل على الرمل بالقرب من الضيوف ، أما المشعاب أو العصا ، الرفيق الذي لا يفارق العربي الأصيل ، سواء أكان بدويًا أم حضريًا ، غنيًا أم فقيرًا ، ماجدًا أو بسيطًا ، فيظل العربي ممسكًا به في يده ، ويستخدمه في التلاعب به خلال فترات الصمت التي تتخلل الحديث ، شأنه في ذلك شأن المروحة التي كانت جداتنا تستعملنها أيام الهزيمة .

ويبدأ سويليم على الفور تجهيز القهوة ، ويبدأ هذا التجهيز بخمس دقائق ينفقها سويليم في النفخ باستعمال المنفاخ ، وتجهيز الفحم النباتي على نحو يعطي أكبر قدر من الحرارة ، ثم يضع بعد ذلك "اللقمة"(١) ، وهي عبارة عن دلة ضخمة ، ثلثاها مملوء

(١) اللقمة : كلمة دارجة بين البدو ، تدل على الدلة الكبيرة التي يوضع فيها الماء ، ويؤخذ منها ما يكفي الدلال الصغيرة (المترجم) .

بالماء الصافى ، بالقرب من نقطة توهج الفحم ، إلى أن تسخن محتوياتها تدريجيًا ، في حين يقوم سويليم بإجراء بعض التجهيزات الأخرى ، ويتناول سويليم بعد ذلك ، صُرَّةً متسخة ، من مشكاة في الحائط القريب منه ، وبعد أن يفك هذه الصُرَّة يأخذ منها ثلاث حفنات أو أربع من البن غير المحمص ، يضعها على صينية مصنوعة من الحشائش المجدولة ، ثم ينقى البن من الحبوب السوداء ، ومن المواد الأخرى الغريبة ، التي عادة ما تختلط بحبوب البن عند شرائها بكميات كبيرة؛ وبعد تنظيف البن وغربلته، يصبه في مغرفة كبيرة من الحديد ، يضعها بعد ذلك فوق فتحة المدخنة ، ثم يبدأ في النفخ بالمنفاخ وتحريك حبوب البن ببطئ إلى أن تطقطق ، وتحمر ، ويتصاعد منها قليل من الدخان ، على أن يرفعها بعيداً عن النار والحرارة قبل أن تَسْوَدَّ أو تحترق ، على الطريقة الخاطئة التي يصنعون بها البن في كل من تركيا وأوربا؛ ثم يترك سويليم البن، بعد ذلك ، يبرد قليلاً فوق ذلك الطبق المصنوع من الحشائش المجدولة ، ويرفع سويليم "اللقمة" ويداخلها الماء الحار ليضعها فوق فتحة النار ، لكي يبدأ الغليان في اللحظة المناسبة ، ويسحب سويليم بعد ذلك ، بين رجليه اللتين لا يغطيهما السروال ، هاونًا كبيراً من الحجر ، في وسطه فتحة ضيقة ، تسمح بمرور يد الهاون ، التي يبلغ طولها قدمًا واحداً وسمكها حوالى بوصة ونصف البوصة ، التي يمسك بها سويليم في يده ، وبعد أن يصب حبوب البن المحمصة في الهاون ، يبدأ في جرشها عن طريق دقها في فتحة الهاون الضيقة ، باستعمال يد الهاون وبمهارة فائقة ، تصيب ضرباته فتحة الهاون الضيقة ولا تخطئها، إلى أن يتم جرش الحبوب ، بحيث لا تتحول إلى مسحوق . ثم يُفْرِغْ سويليم الحبوب بعد جرشها ، عن طريق الغَرْف ، بعد أن تتحول إلى حبيبات خشنة يميل لونها إلى الاحمرار ، وذلك على العكس تمامًا من رماد الفحم النباتي الناعم ، الذي يبيعونه في بعض البلدان على إنه بن مطحون ، والذي يكون بلا أي رائحة بسبب الحرق أو الطحن ، وبعد الانتهاء من هذه التجهيزات ، التي ينجزها سويليم بحرص وامتياز كما لو كان رفاه الجوف كله يعتمد على هذه التجهيزات ، يحضر دلة أصغر، يملأها إلى أكثر من نصفها بالماء الساخن الذي يأخذه من "اللقمة"، ثم يهز البن المطحون داخل الدلة الصغيرة ليخلطه بالماء ، ويضعها على النار إلى أن تغلي ، ويحركها من حين لآخر باستعمال عصا صغيرة كلما فار الماء ، منعًا للطفح . ويجب ألا تشتد فترة الغليان أو تطول ، وإنما يجب على العكس من ذلك ، أن تكون قصيرة وطفيفة بقدر المستطاع ، وأثناء غليان القهوة يتناول سويليم صُرَّه أخرى فيها

حبوب لها رائحة مميزة تسمى الهيل ، وهو منتج هندى ، يؤسفنى ألا أعرف اسمه العلمى ، أو قليلاً من الزعفران ، وبعد أن يجرش هذه المكونات ، يلقيها على القهوة التى تفور حتى يُحسِّن من نكهتها ، والسبب فى ذلك أن هذه التوابل تعد مكونًا أساسيًا من مكونات القهوة فى الجزيرة العربية ، برغم الاستغناء عنها فى الشرق عموماً ، فى معظم الأحيان ، ويحق لى أن أقول هنا إن السُكَّر ، هنا شئ غير معروف كلية . ثم يقوم سويليم بعد ذلك ، بتصفية المشروب من خلال قطعة من ليف النخيل توضع خصيصًا لهذا الغرض فى بزبوز الدلة ، ويقوم بعد ذلك بتجهيز الصينية المصنوعة من الحشائش وعليها فناجين القهوة الصغيرة استعداداً لصب القهوة ، وهنا تكون كل هذه التجهيزات قد استغرقت ما يزيد قليلاً على نصف الساعة .

وفى غضون ذلك دخلنا فى نقاش جاد مع كل من مضيفنا وأصدقائه ، غير أن سليمان ، مرشدنا الشرارى ، شأنه شأن البدوى الحقيقى ، يشعر بالحرج ، عندما يكون بين الحضر ، إلى حد لا يستطيع معه مجاراة أصحاب المراكز العالية ، برغم توجيه الدعوة إليه مراراً ، ولذلك آثر أن يجلس القرفصاء على الرمل بالقرب من مدخل القهوة ، القهوة فيها الكثير من أقارب غافل ، وسيوفهم المزينة بالفضة تشير إلى أهمية العائلة ، كما حضر معهم آخرون ليكونوا فى استقبالنا نظراً لأن قُدُومنا ، قد أعلنه بصورة مسبقة أولئك الخيالة الذين التقيناهم عند ممر الدخول ، فضلاً عن أن وصولنا يعد حدثًا من أحداث المدينة ؛ كانت ملابس البعض منهم توحى بالفقر ، وملابس البعض الآخر توحى بالنعمة ، ولكن الجميع يتصفون بالأدب واللياقة ، ووجه لنا الحاضرون أسئلة كثيرة عن بلدنا والمدينة التى جئنا منها ، بمعنى أنهم كانوا يسألوننا عن سوريا ودمشق ، مما جعلنا نرتاح إلى التنكر الذى كنا عليه ، والذى كان من المهم أن نحافظ عليه تمامًا ؛ ثم بدءوا يسألوننا بعد ذلك عن رحلتنا ، وعن تجارتنا ، وما أحضرناه معنا ، وعن أدويتنا وعن بضائعنا والملبوسات التى معنا وعن أشياء أخرى كثيرة ، ومنذ الوهلة الأولى لاحظنا أن المشترين والمرضى سوف يتزايدون ، وفيما يتعلق بى أنا نفسى فقد كنت لا أزال مهدوداً من الحمى الرجعية التى أصبت بها ، وكنت لا أزال مرهقًا ، وألمحت لرفيقى بأن يتجنب موضوع الطب ويركز على الموضوع التجارى بقدر المستطاع ، والمعروف أن القليل جداً من الرحالة ، إن لم يكن أحداً على الإطلاق ، يزورون الجوف فى هذا الوقت من العام ، والسبب فى ذلك ، أن من يزور الجوف فى حر شهرى يونيو ويوليو ، لابد أن يكون مجنونًا أو أوشك على الجنون ؛ أما عن نفسى

فقد قررت ألا أفعل ذلك ثانية ، ومن ثم أصبح خطر المنافسة قليلاً جداً ، وكانت السوق تحت إمرتنا تماماً .

ولكن قبل أن تمضى خمس عشرة دقيقة ، وبينما كان سويلم يحمص البن أو يجرشه ، حضر صبى طويل نحيف ، شقيق غافل ، وهو يحمل طبقاً كبيراً مستديراً ، مصنوع من الحشائش المجدولة ، مثل سائر الأطباق الأخرى ، ثم وضعه بحركة رشيقة قريباً منا على الأرض المفروشة بالرمل ، وأحضر بعد ذلك سلطانية كبيرة مصنوعة من الخشب ومملوءة بالتمر ، الذى وضع فى وسطه فنجان مليئ بالزبد المنصهر ؛ وبعد أن يضع كل ذلك على الطبق المدوّر، يقول: "سمّوا" ومعناها الحرفى "اذكروا اسم الله" ؛ بمعنى "كلوا مما هو أمامكم" ، وهنا يتحرك رب المنزل من مكانه ليجلس على الرمل فى مواجهتنا ؛ ونقترب جميعاً من الطبق ، ثم ينضم إلينا أربع أو خمس آخرون ، بعد شئ من الخجل ، ويتناول كل واحد تمرة أو اثنين من كتلة التمر كثيرة العصارة ، ثم يغمسها فى الزبد ، ويستمر فى الأكل إلى أن يأخذ بغيته من التمر ، ثم ينهض واقفاً بعد ذلك ليغسل يديه .

وهنا تصبح القهوة جاهزة ، ويبدأ سويليم ، دورته ممسكاً بدلة القهوة فى يد ، والصينية والفناجين فى اليد الأخرى ، ويشرب سويليم أول صبة من القهوة ، مراعاة منه لقواعد الإتيكيت ، وذلك من باب التأكيد العلمى أن الدلة "خالية من السم" ؛ ثم يقدم القهوة ، بعد ذلك ، للضيوف ، مبتدئاً بأولئك الذين يجلسون بالقرب من (الوجار) ؛ ويكون المضيف هو آخر من يأخذ القهوة ، ورفض القهوة يعد إهانة لا تغتفر ؛ ولكن يجب على المرء ألا يشرب القهوة دفعة واحدة ، والسبب فى ذلك أن حجم فنجان القهوة لا يزيد على حجم نصف قشرة البيضة فى أفضل الأحوال ، ولا يوضع فيه أكثر من نصفه ، وصب القهوة على هذا النحو مظهر ضرورى من مظاهر التربية السليمة ، واستعمال الكأس يكون معناه عكس المعنى المتعارف عليه فى أوروبا ؛ وأنا لا أعرف لذلك سبباً ، وربما ، باستثناء أن حاملات الفناجين ، "الظروف" (راجع الفصل الخامس من كتاب لين Lane) المعنون المصريون المتحضرون) أشياء نادرة فى الجزيرة العربية ، برغم شيوعها فى مصر وسوريا ، قد تجعل الفنجان المملوء عن آخره ساخناً إلى الحد الذى يصعب معه على الأصابع التى ستتناوله ، أن تفعل ذلك بدون وسيط ، وليكن ما يكون ، وهناك حكمة تشيع ، بين البدو والحضر ، على حد سواء ،

بل إنها تشيع في كل أنحاء شبه الجزيرة العربية تقول : "املأ الفنجان لعدوك" . والقهوة بحد ذاتها ، رائحتها طيبة ومنعشة ، وهي منشط حقيقي ، كما تختلف تماماً عن الطين الأسود الذي يمصه العثمانيون ، وعن القهوة المائية التي يصنعونها في فرنسا من حبوب البن بعد غليها ، والعبد أو الحر عندما يقدم فنجاناً من القهوة ، يسبق ذلك التقديم بكلمة "سم" التي معناها "اذكر اسم الله" ، ويجب ألا تتناول الفنجان إلا بعد أن ترد عليه قائلاً : "باسم الله" .

وبعد أن يسير كل شئ على النحو الذي وصفناه ، يجرى صب القهوة للمرة الثانية ، ولكن بترتيب معكوس ، إذ يشرب المضيف أولاً في هذه المرة ، في حين يشرب الضيوف بعده ، وفي المناسبات الخاصة ، التي من قبيل الاستقبال للمرة الأولى ، على سبيل المثال ، تقدم القهوة ثلاث مرات ؛ لا ، وفي أحيان أخرى يقدم فنجاناً رابعاً . ولكن إذ جمعنا كل ما يقدم خلال هذه المرات الأربع ، نجده لا يساوى ما يشربه الشخص الأوربي في وجبة واحدة ، هي وجبة الإفطار .

كان غافل يتمنى من كل قلبه أن نفتح الدكان والعيادة في منزله هو ، وهذا له ما يبرره ، إذ أن مخزون غافل المنزلي من البن قد أوشك على النفاذ ، كما أسر إلينا ، من خلال شعار الكرم والضيافة ، أنه على استعداد لإبرام صفقة رابحة معنا يبتاع فيها منا كل كمية البن التي أحضرناها معنا ، ولكن من ناحيتي أنا ورفيقي فقد كنا نتحين فرصة نخلو فيها إلى نفسينا سوياً، إذ كان لدينا الكثير الذي يجب أن نتشاور بشأنه ، ونتحدث عنه سوياً ؛ كما كانت طبيعة تلك الأمور تحتم أن تكون بيننا نحن الاثنين ولا تصل إلى مسامع أصدقائنا ، زد على ذلك أنني كان يتحتم عليّ أن أدون يومياتي . ولكني منذ أن غادرت مُعان في اليوم السادس عشر من شهر يونيو وحتى يومنا هذا الموافق اليوم الثلاثين من شهر يونيو ، لم تتهيأ لي بعد فرصة ، أكون فيها بعيداً عن الملاحظة ، أكتب تلك اليوميات وأنجز الأشياء الأخرى التي من ذلك القبيل ، ولم نتمكن أيضاً ، طوال حلولنا ضيوفاً على شخص آخر ، من تهيئة تلك الفرصة التي نخلو فيها لأنفسنا حتى نتمكن من دراسة الأرض وسكانها دراسة صحيحة ، وبناء على كل ذلك رفضنا عرض الرئيس الذي كرره مراراً ، وأصررنا ، منتحلين أعذاراً أخرى كثيرة ، على أننا بحاجة إلى مكان نسكن فيه لوحدنا . وأخيراً رضخ غافل لذلك المطلب ، ووعد بأن ينزلنا في اليوم التالي منزلاً كبيراً ومناسباً ، وقضينا بقية فترة المساء في الراحة ،

وقبيل غروب الشمس دعانا مضيفنا إلى زيارة بساتينه فى المساء مع نسمات المساء الباردة ، وسوف أنتهز الفرصة هنا وأطوف بالقارئ عبر الجوف كله ، نظراً لأن إلقاء نظرة عامة هنا تجعلنا نفهم جيداً ذلك الذى سأرويه فيما بعد ، إضافة إلى أننى أتخيل أن ما سأقدمه سيكون جديداً تماماً على عدد كبير من القراء .

الجوف ما هو إلا واحة من شكل معين ، وهو مُنْخَفَضٌ بيضوى كبير يصل طوله إلى حوالى ستين أو سبعين ميلاً، وعرضه يصل إلى حوالى عشرة أو اثنى عشر ميلاً ، وهو ينحصر بين الصحراء الشمالية التى تفصل هذا المنخفض عن كل من سوريا ونهر الفرات ، وصحراء النفود الصحراء الرملية الكبيرة ، من ناحية الجنوب ، وهو يتوسط المسافة بين النفود وأقرب جبال الهضبة العربية الوسطى ، ثم يبدأ ارتفاعه ناحية جبل شومر ، وعلى كل حال ، فإن قرب الجوف النسبى من جبل شومر ، وطبيعة مناخه ومنتجاته تجعله ينتمى إلى كل من شمالى الجزيرة العربية ووسط الجزيرة العربية أيضاً ، إذ أنه عبارة عن مدخل أو مجاز إلى وسط الجزيرة العربية ، وإذا رسمنا مثلثا متساوى الساقين ، بحيث تمتد قاعدته من دمشق إلى بغداد ، فإن الجوف يشكل رأس هذا المثلث ، لأنه يقع فى منتصف المسافة بين ، الجنوب الشرقى والجنوب الغربى ، قياساً من المنطقتين اللتين أشرنا إليهما ، وإذا ما واصلنا الخط المتقاطع نفسه ، فإنه سوف يعطى المسافة نفسها فى الاتجاه العكسى ، من ناحية المدينة Medinah ومن ناحية زلفة Zulphah، التى تعد المدخل التجارى الكبير لشرقى نجد ، أما جبل شومر ، فيقع ناحية الجنوب ، وهو أقرب بكثير إلى الجوف من المناطق التى أشرنا إليها . واسم الجوف (البطن) Belly مأخوذ من موقعه المتوسط من ناحية ، وشكله المقعر من الناحية الأخرى، وكلمة "أحشاء" المألوفة لدى طلبة أكسفورد، يمكن القياس عليها هنا ، بل يمكن أن تحل محل الكلمة الإنجليزية belly التى تستخدم للدلالة على "الجوف" .

والمدينة الرئيسية ، أو بالأحرى المدينة الوحيدة فى المنطقة ، تحمل اسم المنطقة كلها ، نظراً لأن بقية الضواحى عبارة عن كفور (هجر) وحسب ، ومدينة الجوف تضم ثمانى قرى ، كانت متميزة عن بعضها البعض فى يوم من الأيام ، ولكن مع مرور الزمن تحولت كلها إلى مدينة واحدة ، ثم استبدلت تلك القرى وجودها المستقل واسمها المستقل باسم آخر هو السوق ، أو "الحى" ليطلق على المنطقة كلها ، وسوق عائلة حابوب ، هو أكبر هذه الأسواق ، وهو الذى نقيم فيه حالياً ، ويحتوى هذا السوق على

القلعة المركزية التي أتينا على ذكرها ، ويصل عدد منازله إلى حوالي أربعمائة منزل ، أما الأحياء الأخرى ، وبعضها كبير ، والبعض الآخر صغير فهي تنتشر في أعلى الوادي وأسفله، ولكنها تتصل ببعضها عن طريق الحدائق الواسعة المترامية الأطراف ، ويصل طول المدينة بشكلها الحالي ، وبعد أن نضيف إليها المناطق المنزرعة حولها ، إلى ما لا يقل عن أربعه أميال ، ولكن متوسط عرض المدينة لا يزيد على نصف ميل ، بل يقل عن ذلك في بعض المناطق .

وأحجام المنازل تتباين طبقًا لظروف ساكنيها ، ويرضى الفقراء بالمنازل الضيقة ، برغم أنها تكون دومًا منعزلة عن بعضها ؛ والسبب في ذلك أنني أشك ، أن تقبل أي أسرتين ، من أسر الجزيرة العربية ، مهما كانتا فقيرتين ، أن تعيشا في منزل واحد . وربما ، يعطي منزل غافل الذي وصفناه ، صورة عن النوع الجيد من المنازل : الذي يوجد فيه ، عادة ، فناء خارجي ، تنزل فيه الأحمال عن الجمال والأشياء التي من هذا القبيل ، وفناء داخلي ، وغرفة استقبال كبيرة ، وعدة غرف صغيرة أخرى ، يتم الدخول إليها عن طريق باب خاص ، وتعيش فيها العائلة نفسها .

هناك سمة أخرى مميزة جداً للعمارة السكنيَّة في الجوف ، تنتشر في كل أنحاء الجوف وتتمثل في إضافة برج دائري ، يتراوح ارتفاعه بين ثلاثين وأربعين قدماً ويزيد عرضه على اثنى عشر قدماً أو ما يزيد على ذلك، وله مدخل ضيق تعلوه فتحات للرمي. وفي بعض الأحيان ، يُشَيَّدُ هذا البرج بالقرب من مكان السكني ، وفي أحيان أخرى يقام منعزلاً في حديقة من الحدائق المجاورة يمتلكها صاحب المنزل، كانت تلك الأبراج ، في يوم من الأيام ، تقوم بوظائف التوري Torri التي يعرفها كل من زار المدن الكبيرة في كل من إيطاليا ، بولونيا ، الصين ، روما وأماكن أخرى كثيرة ، والتي تدل على حالة اجتماعية مشابهة لتلك التي كانت سائدة في تلك المدن من قبل ، في هذا المكان ، وفي زمن تزايد الصراعات بين الرؤساء المتنافسين والطوائف ، كان من عادة القادة والمشايعين لهم أن يلجأوا إلى هذا المكان طلبًا للحماية والدفاع ، ويرسلون منه أتباعهم للقيام بعمليات الحرق والتخريب ، وهذه الأبراج ، شأنها شأن بقية المباني في الجوف ، مبنية من الطوب اللَّبن ، وكبر سمك جدران هذه الأبراج وصلابة صنعها ، وتماسك تربتها تماسكًا شديداً ، إضافة إلى المناخ الجاف جداً ، كل هذه الأشياء هي التي تجعل هذه المادة تنافس نظيرها من الحجر ، من حيث الصلابة وقوة التحمل . والواقع

أن تلك الجدران العارية ، إذا ما تركت لحالها بدون سقف أو صيانة سوف تتحدى - ولقد شاهدت ذلك بنفسي - كل تقلبات أمطار الشتاء وعواصف الربيع العاتية على امتداد قرن كامل ، فضلاً عن أن هذه الجدران لا تكشف مطلقًا عن عمرها الحقيقى ، وبعد الاحتلال الأخير الذى قامت به قوات طلال بن الرشيد لهذه المنطقة ، وسوف أتناول هذا الحادث بمزيد من التفصيل فيما بعد ، قام بإتلاف هذه الأبراج ، وبدون استثناء ، وجعلها لا تصلح لاستعمالها فى الأغراض الدفاعية ، كما قام أيضًا بتخريب وتهديم بعض منها ، وهكذا نجد الظواهر التى سادت فى أوربا تعيد نفسها فى الجزيرة العربية .

ومنازل الجوف منعزلة بعضها عن بعض بواسطة البساتين والمزارع ؛ وهذا هو أيضًا حال منازل الرؤساء وعائلاتهم ، وما قلناه هنا عن الأبراج يوضح لنا الأسباب الداعية لانعزال المنازل بعضها عن بعض، غير أن المنازل العامة تكون مجاورة لبعضها، رغم أنها تفتقر إلى التماثل والتناسق ، زد على ذلك ، أن الفراغات التى تتوفر لكل سوق من الأسواق والمخصصة لاجتماعات السكان العامة غير منتظمة الشكل أيضًا ، ولا تشبه تمامًا ، من حيث التخطيط الخارجي ، كلاً من ميدان جرسفنور أو ميدان كافيندش ، أو تشابه صفوف المنازل ، مع منازل كل من شارعي ريجنت وأكسفورد .

وبساتين الجوف هى من أشهر الحدائق فى الجزء الشرقى من الجزيرة العربية ، وهى بحق كذلك ، والحدائق هنا أوفر إنتاجًا وتنوعًا من حدائق جبل شومر أو أعالى نجد ، كما أنها تفوق بكثير جداً حدائق الحجاز والمناطق المجاورة له ، هنا فى الجوف ، ولأول مرة في رحلتنا صوب الجنوب ، وجدنا أن النخيل هدف رئيسى من أهداف الزراعة ؛ وإذا كانت ثمار نخيل الجوف لا ترقى إلى مستوى ثمار النخيل فى كل من نجد والأحساء ، فإنها أجود بكثير، بل بكثير جداً، من تمور كل من مصر وأفريقيا ، وتمور وادى نهر دجلة ، الذى يمتد من بغداد إلى البصرة ، وعلى كل حال ، فالنخلة لها وضع فريد هنا ، وتجود فى هذه البساتين أيضًا أشجار المشمش والخوخ وأشجار التين والعنب ، زد على ذلك أن هذه الثمار تتفوق من حيث الوفرة والنكهة على مثيلاتها فى بساتين دمشق ، أو تلال سوريا وفلسطين ، كما يزرع على نطاق واسع فى المسافات ، التى تفصل الأشجار عن بعضها أو فى الحقول التى تقع إلى الخلف منها ، القمح ، والبقول ، والقرع ، والثمار .. إلخ . وفى الجوف ، أيضًا ، وللمرة الأخيرة ،

يتأكد الرحالة المتجه صوب الجنوب ، أن الرى ، فى الجوف ، هو أساس النمو والزراعة فى ذلك المناخ الجاف ، وذلك بفضل ينابيع المياه الجارية الصافية ، وذلك على العكس من نجد وما جاورها ، إذ يتعين الحصول على المياه ، بعد مشقه ، من الآبار أو من صهاريج يجرى تخزينها فيها .

وموسم نضوج مختلف الثمار هنا ، أو إن شئت فقل الحصاد ، يكون أبكر ، بطبيعة الحال ، عن نظيره فى سوريا ، ناهيك عن أوربا ، ومشمس الجوف يكتمل نضجه بانتهاء شهر مايو ، ويجيئ أفضله فى شهر يوليو ؛ أما الخوخ ، فيتأخر نضجه إلى شهر أغسطس ، وكذلك التمور تنضج فى شهر أغسطس وسبتمبر ، وفى أقصى الجنوب ، فى نجد ، على سبيل المثال ، تزيد هذه المواقيت بمعدل شهر تقريبًا ، وتزيد فى عُمَان ، بمعدل شهرين على أقل تقدير ، ولقد ندمت كثيراً ، وأنا فى هذه الأماكن لأنى لم اصطحب معى جهازًا لقياس الحرارة ، أو أى جهاز آخر مماثل ، أستطيع به التأكد من درجات الحرارة وطبيعة الجو ؛ غير أن اصطحابى عتاداً من هذا القبيل ، يبدو ، فى أعين العرب ، غير متناسق مع الشخصية التى انتحلها ، بمعنى أننى قد أبدو لهم أوربى تمامًا ؛ أضف إلى ذلك ، أنه فيما بين خبب الجمال ، والأخْرَاج المحملة بطريقة غير منتظمة ، إذا ما وضعت أنبوبة زجاجية طويلة ، فإنها يصعب الحفاظ عليها سليمة ، إلى أن نصل الجوف ، ولكنى أستطيع التوصل إلى تقدير تقريبى لمتوسط درجات الحرارة ، مما قلته عن مواعيد نضج الثمار فى هذه المناطق ، ومن بعض الظروف المماثلة الأخرى ؛ ولو قدر لنا أن نقول : إن وضع ترمومتر فى الظل ، فى الجوف ، عند الظهيرة ، فى شهرى يونيو ويوليو ، يمكن أن يسجل درجة حرارة تتردد ما بين ٩٠° و ٩٥° درجة فهرنهيت ، لن يكون أمراً مستغرباً فى ذلك الوادى ، وأثناء الليل ، يكون الهواء، مع قليل جداً من الاستثناءات، بارداً بشكل نسبى على أقل تقدير ، إلى حد أن فارقًا فى درجة الحرارة، يقدر بأكثر من عشرين درجة ، يحدث خلال فترة زمنية قصيرة .

والحدائق التى أتينا على وصفها هنا تحيط بها أسوار عالية مصنوعة من اللَّبِن ، وتتخللها شبكة مجارى مائية صغيرة تربط بين شجرة وأخرى وتنتقل من أخدود إلى الذى يليه ، ويجد المرء نفسه بين ذلك التباين الكبير فى الأنواع المختلفة التى تنتجها هذه الحدائق ، أمام قضية بيع وتصدير هذه المنتجات وبخاصة التمر ؛ ويحصل

سكان الجوف ، من التمر ، على دخل معقول ، لا ، بطبيعة الحال ، من خلال نقله وبيعه في كل أنحاء الجوف ، الذي يحصل كل مواطن فيه على كمية وفيرة منه ، من نخيله الخاص ، وإنما من الأثمان التي يحصلون عليها مقابل بيع هذا التمر في كل من تبوك أو حائل ، دمشق ، وبغداد ، إذ ينقل أهل الجوف التمر إلى هذه الأماكن ، وأنا أكاد لا أصدق حجم الدور الذي يلعبه التمر في حياة العرب ؛ التمر هو الخبز الذي تعطيه الأرض للعرب ، التمر هو مادة الحياة ، وهو العنصر الثابت في التجارة ، بل إن محمداً (ﷺ) ، الذي يعزى نجاحه الفريد إلى قوميته الخالصة والأصيلة وإلى أسباب أخرى سواء أكانت أسباباً طبيعية أو أسباباً خارقة للعادة ، يقال أنه حدّث قومه وأتباعه عن النخلة بأن قال : "اكرموا النخلة ، فهي أمكم"[1] ؛ وهذا القول بحد ذاته امتداد طفيف للوصية الخامسة ، رغم أن هذه الوصايا ، يصعب أن تتفوق على قوى التشريع عند النبي ، ومع ذلك ، فأنا مع كل احترامي وتقديري وإذعاني له (ﷺ) ، ومع كل إذعاني لحجيته وعلمه ، أجدني لا أتفق تماما مع إضفاء هذه الوصية غير المتحفظة على هذه الأم الورقية[2] ، وأنا لا أنكر أن التمر غذاء حلو المذاق ، ولا جدال في ذلك ، عندما يكون رطباً ؛ وعندما يكون تمراً ، يعطي كمية من الحرارة ، تترتب عليها بعض الأخطار، إذا ما تناول الإنسان التمر بكميات هائلة مثلما يفعل الناس هنا، والواقع ، أنني إذا ما سمح لي بالانتقاد فإنني قد أعزو إلتهاب غشاء المعدة المخاطي المزمن ، بل قرحة المعدة المميتة ، التي تنتشر بشكل ملحوظ بين عرب المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية ، إلى استمرار اتخاذهم التمر غذاءً لهم .

والجوف لكونه مجرد مجموعة من المنازل والحدائق مختلطة ببعضها اختلاطاً عشوائياً ، من الطبيعي أن يكون بلا أسوار ؛ وعدد سكان الجوف وشجاعتهم كافيان

(١) هذا القول ليس بحديث ولا تصح نسبته إلى رسول الله (ﷺ) وقد ورد نص رواه السيوطي في الجامع الصغير ، ورواه السخاوي في المقاصد الحسنة وهو "اكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة آدم ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران فأطعموا نساءكم الولّد الرطب فإن لم يكن رطب فتمر" وفي هذا النص ضعف وانقطاع ، ولا يصلح للاحتجاج به – (د. حلمي عبد المنعم).

(٢) إن الاعتراض لا معنى له ما دام النص الذي استشهدت به ضعيفاً ومنقطعاً ولا يصلح للاحتجاج به ، وهذا الخطأ يقع فيه كثير من المستشرقين حينما يبنون أحكاماً ويقيمون إعتراضات مؤسسة على أخبار غير دقيقة أو نصوص غير ثابتة وغير صحيحة ، وكما يقول أهل العلم (إذا كنت ناقلاً فالصحة ، وإذا كنت مدّعياً فالدليل) – (د. حلمي عبد المنعم) .

أن يحرسا هذه المنازل من تحرشات البدو ، ولم يحدث أن كان لسكان الجوف عدو آخر غير البدو على امتداد سنوات طويلة، إلى أن جاء الاستبداد الوهابى فى القرن الماضى، وقوة جبل شومر المتزايدة ، فى فترة لاحقة ، ليتناوبا الهجوم على سكان الجوف وامتصاصهم .

وقلعة الجوف وبرجها الوحيد الذى يطلق عليه اسم المارد من الأشياء التى يجب أن أفرد لكل منها وصفًا مستقلاً ، ولذلك فمن الأفضل أن أرجئ ذلك الوصف إلى ما بعد الزيارة التى سنقوم بها إليهما .

وعلاوة على الجوف نفسها ، أو العاصمة ، هناك أيضًا قرى عديدة تنتمى إلى هذه المنطقة المتجانسة ، وتخضع كل هذه القرى للحاكم المركزى نفسه ، وأكبر هذه القرى هى قرية سكاكه Sekakah؛ وتقع على مسافة حوالى اثنى عشر ميلاً ناحية الشمال الشرقى ، وبرغم أن سكاكه تقل عن العاصمة من حيث الأهمية ، ومن حيث خصوبة التربة ، إلا أنها تتساوى معها فى عدد السكان ، وأنا أقدر عدد سكان الجوف العاصمة وسكاكه ، رجالاً ، ونساء ، وأطفالاً – بثلاثة أو أربع وثلاثين ألفًا تقريبًا ، وقد بنيت تقديرى هذا شأنه شأن التقديرات الأخرى التى رجعت إليها ، وأنا أكتب هذا الكتاب ، بنيته من ناحية ، على مسح تقريبى لعدد المنازل ، وعلى السجلات العسكرية من ناحية ثانية ، وعلى ما سمعته ، أنا بنفسى ، عن هذا الموضوع ، من المواطنين أنفسهم ، والمواطنون هنا ، لا يعرفون أى شئ عن الإحصاء ، فضلاً عن عدم وجود سجلات لقيد المواليد ، أو الزواج ، أو الوفاة ، ومع ذلك ، يمكن بمساعدة قائمة الحرب ، والتى تمثل فى أغلب الأحيان معشارًا من إجمالى عدد السكان تقريبًا، فكرة ، معقولة ، لكن غير كاملة ، عن عدد السكان .

أخيرًا ، وعلى مقربة من هذين المركزين الرئيسيين ، توجد عدة قرى أو كفور (هجر) صغيرة ، يصل عددها إلى حوالى ثمانية أو عشرة ، مثلما قالوا لى ، ويحتوى كل منها على ما يتراوح بين عشرين إلى خمسين أو ستين منزلاً ؛ ولكنى ليس لدى الفرصة أو الوقت الذى أستطيع أن أزور من خلاله كل قرية وكل كفر (هجرة) من هذه الكفور ، على حدة . وقرية جون ، التى أتيت على وصفها فى أواخر الفصل السابق ، واحدة من هذه القرى : وهناك قرية قارا K.ara أيضًا التى تقع فى مواجهة جون ، أو إن شئت فقل ناحية الشرق ؛ وهناك قرية ضرّه D.orrah، القريبة من مدينة الجوف

على الطريق المؤديه إلى سكاكه ، علاوة على قرى وكفور أخرى ، وتتجمع تلك القرى حول بعض العيون المائية المتواضعة ، ولها بعض سمات وخصائص مدينة الجوف العاصمة ، وإجمالى عدد سكان الجوف كله لا يزيد على أربعين أو اثنين وأربعين ألف نسمة ، وهى نوعية من السكان الشجعان .

وليس لدى سكان الجوف ما يقولونه عن المكان الذى جاءوا منه أو تاريخ أول مستقر أقيم فى هذا المكان ، وليس لديهم أيضًا أى نوع من أنواع السجلات القيمة عن هذه الموضوعات ، وكل ما يستطيعون تأكيده هو أنهم كانوا مسيحيين فى يوم من الأيام ، وأن دخولهم فى الإسلام ، جاء عن طريق الاقتناع بالحجة والدليل ، اللذين كانا سيفًا ، فى يد كل من على بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، وفى مرحلة لاحقة ، شأنهم شأن سكان الجزيرة العربية بشكل عام[١] ، ارتدوا عن الإسلام إلى الوثنية من جديد ، وعبادة الجن ، أو إن شئت فقل الجان ، كما يسمونه ، إلى أن أحيا سيف الفاتح الوهابى إسلامهم من جديد ، وهذا هو ما سنقف عليه فيما بعد ، ومن حيث النسب يدعى أهل الجوف أنهم ينحدرون من عشيرة الطائى ، تلك العشيرة الشهيرة فى التاريخ العربى القديم ؛ والواقع ، أن ما أعرفه على وجه اليقين عن مواقع وامتدادات تلك القبيلة فى شمالى الجزيرة العربية ، وعن التشابه فى العادات والتقاليد ، بالقدر الذى تسمح لنا به مقارنة وضع هؤلاء السكان الحالى بما ورد فى سجلات الماضى المتناثرة ، الواقع أن ما أعرفه عن هذا الموضوع ، يؤكد انتمائهم إلى تلك السلالة النسبية ، برغم تلاقحهم مع القبائل المحيطة بهم ، وبخاصة بكر Bekr والعوازم Howazim وكل ما عدا ذلك ، هو مجرد نقد أو كلام غير معقول وربما غير مفيد تمامًا ، ولم التقى فى الجزيرة العربية كلها بسكان يذكرون عبق الماضى ولديهم المشاعر القبلية القديمة غير سكان الجوف .

ولم أسمع من سكان الجوف شيئًا جديرًا بالتسجيل عن الأحداث التى أخضعتهم للملك الوهابى فى أواخر القرن الماضى ، أو بداية القرن الحالى ، غير أنه بعد أن أطاح إبراهيم باشا ، بالإمبراطورية النجدية ، فى العامين ١٩١٧ و ١٩١٨ الميلاديين ،

(١) من سمات البحث العلمى أنه يقوم على التثبت والتحقق ، وليس من باب إصدار الأحكام المطلقة والحكم العام ، وأنا أتعجب من إطلاقات المؤلف فى أحكامه على أن سكان الجزيرة العربية ارتدوا إلى الوثنية وعبادة الجن فهل بنى هذا الحكم على استقرار تام ؟ إن الواقع يكذب ذلك فى الجوف كما عايشناه وخبرنا أهله . (د. حلمى عبد المنعم) .

استعاد الجوف استقلاله ، ولكن ضعف حاله وقلة حيلته لم تمكنه من الحفاظ على ذلك الاستقلال ، وعلاوة على الآثار التى نجمت عن السلب والاستبداد الوهابى ، عانى سكان الجوف كثيراً من الصراعات الدموية المستمرة التى دارت بين أسواق (أحياء) العاصمة ، زد على ذلك ، أن كل رئيس من رؤساء هذه الأحياء حاول توسيع سلطته ، أو بالأحرى ، فرض استبداده على الأحياء الأخرى ، وبذلك دخل سكان الجوف حرباً أهلية معقدة ومدمرة ، إلى حد أن كثيراً من المسنين أكدوا لى ، إنه كان من المعتاد ، بل من الشائع تمامًا ، أيام الحرب الأهلية ، أن يولد الرجل ، ويعيش ، ويموت فى حى من أحياء الجوف دون أن تتوقف المعارك والاشتباكات بالقدر الذى يسمح له بزيارة الحى الآخر .

وبعد ذلك الدمار الذى أصاب الجوف ، نتيجة الغزو الأجنبى والنزاع الداخلى ، بدأ سكان الجوف التعساء يتعرضون لمزيد من الإهانات من البدو المحيطين بهم ، إلى أن استطاعت قبيلة الروالة القوية – التى لاحظت أن مراعيها الصيفية تكون فى سوريا، ويقضون شتاءهم بشكل عام ، فى منطقة الجوف – فرض سيطرتها عليهم ، وأجبرت الجوف على أن يدفع لها جزية سنوية ، يطلقون عليها اسم الخوا ، وذلك من باب الابتزاز الحدودى الذى كان يمارسه أسلافنا السكسونيون .

وفى ذات الوقت ، كان عبد الله بن الرشيد ، والد الملك الحالى طلال بن الرشيد ، مشغولاً بتأسيس وتدعيم مملكته الجديدة فى جبل شومر الذى لا يبعد سوى مسافة قصيرة عن الجوف من ناحية الجنوب ، وقد أعطت الصراعات القائمة بين مختلف الرؤساء ، عبد الله بن الرشيد ذريعة للتدخل فى شئون الجوف ، الذى كان يود وضع يده عليه ، وعندما وجد ، عبد الله بن الرشيد ، أن الفرصة أصبحت مواتية له ، أصدر أوامره إلى أخيه عُبيد ، بأن يقود جيشاً كافياً لإخضاع تلك المنطقة ، ولكن سواء أحس عُبيد بأن قوته لم تكن كافية للحفاظ على هذا الغزو والإبقاء عليه ، أو لأسباب أخرى ، فقد اكتفى بتسوية الخلافات تسوية مؤقتة بين العديد من رؤساء الأسواق[1] ثم عاد عبيد ، إلى شومر بعد أن عيَّن أحد أفراد عائلة حابوب ، نائبًا للحاكم باسم أخيه عبد الله بن الرشيد ، وأجبر عبيد أهل الجوف على إقامة شعائر دين محمد(ﷺ) .

(١) المقصود بالسوق هنا هو الحى أو الضاحية (المترجم) .

وبعد أن توقفت الصراعات ، فترة مؤقتة ، بسبب الخوف الذى أصاب الجميع ، اندلعت مرة أخرى ؛ وبعد وفاة الرئيس الذى عينه عُبيد حاكمًا ، انقسمت أسرة حابوب على نفسها إلى فئتين متعاديتين ، يرأس كل فئة منهما شخص يطالب بالحكم والسلطة ، كان مضيفنا غافل ، واحداً من أنشط أفراد هذه الأسرة في فترة غليانها المشئومة ، وكان عبد الله بن الرشيد ، قد توفي فى تلك الأثناء ، وخلفه على عرش مملكة شومر ابنه الأكبر طلال ، الذى كان محاربًا متحمسًا أكثر من والده ، بل إنه فاق والده فى إدارة الشئون السياسية فى مملكته ، وقد استعان غافل بالأمير طلال ، وطلب مساعدته له هو وفئته ، بعد الهزيمة الأخيرة التى حلت بهم ، حدث كل ذلك فى العام ١٨٥٥ الميلادى . وهنا وجد طلال أن الفرصة قد تهيأت له ليكمل ذلك الذى بدأه والده وعمه ، وبينما راح يمنّى اللاجئين بوعود خادعة ، جمع قوة كبيرة ، تساندها قطعتان كبيرتان من المدفعية ، واصطحب كل ذلك معه واتجه إلى الجوف ، وعلى مقربة من مدينة الجوف ، العاصمة ، نصب معسكره وخيامه ، وراح يتسلى مع سكان الجوف ، عدة أيام ، مرة بتقديم العروض المختلفة ، ومرة أخرى عن طريق المفاوضات ، وراح طول الوقت يكشف عن تردده فى الاحتكام إلى السيف ، وقد أدى سلوك طلال هذا إلى خروج أسرة حابوب ، التى كانت تتمترس خلف أسوار القلعة الحجرية القديمة ، لتكشف عن استهزائها بعدوها أكثر وأكثر ، كما رفضت أيضًا الوصول معه إلى أى اتفاق ، وهنا بدأ طلال الاشتباك الفعلى ، ولكن على نطاق صغير فى البداية ، بأن أرسل بعض المبارزين ، والمخربين ، بقصد الاستثارة والإزعاج وليس الهزيمة ، فى الوقت الذى احتفظ فيه بقوته الرئيسية للحظة الحاسمة ، ونجحت خطة طلال ؛ فقد ازداد أعداؤه شجاعة على شجاعتهم ، ودخلوا معه فى معركة شاملة ، رفض هو الدخول فيها أكثر من مرة ، وأخيراً ، استطاع طلال ذات يوم أن يفيد من الضباب ، تلك الشبورة التى تغطى الأرض الخفيضة فى هذا المناخ الصافى ، فى إخفاء قوته الرئيسية فى منحنيات الوادى القريب ، فى حين راح خيّاله طلال يستثيرون رجال الجوف ويستحثونهم على الخروج لملاقاتهم بأعداد أكبر من المعتاد ، ومع اشتداد وطيس المعركة ، قام أمير شومر بتحريك مدفعية الكبيرين إلى الأمام ، والواقع أنهما كانا مدفعين قديمين عتيقين ، ولكنهما كانا ماكينتين قويتين من ماكينات الحرب من منظور هذه البلاد ، ووجه نيرانهما صوب مبانى القلعة ، التى لا تقوى إطلاقًا على مواجهة صدمة من هذا القبيل ، وبعد أن شاهد رؤساء أسرة حابوب إنذار المدافع

المخيف ، وبعد أن شاهدوا مكونات قوتهم تتهاوى أمام دانات المدفعين اضطربت صفوفهم اضطراباً مخيفًا ، وهذا هو ما ينتظره طلال ؛ وهنا أمر طلال جيشه كله بالتوقف ، وبذلك تكون هزيمة العدو قد اكتملت خلال لحظات قصيرة ، ودخل المطاردون والمطاردين المدينة ، ودارت مذبحة كبيرة ، واستولى طلال على القلعة ، وتم الاستيلاء على الجوف قبل الظهر .

كان أول شئ يفعله طلال بن الرشيد ، بعد الاستيلاء على الجوف ، هو هدم جميع منازل الفئة المعادية لبيت حابوب كما قَطع نخيلهم ، وطرد رؤساء هذه الفئة من المدينة إلى منفى بعيد ، لم يوافق مطلقًا على عودتهم منه ، برغم التوسلات والالتماسات العديدة التى تقدم بها أصدقاؤهم وأقاربهم نيابة عنهم ، كان غافل فى تلك الأثناء ، يتطلع إلى تعيينه حاكماً ؛ غير أن الغازى ، طلال بن الرشيد ، قرر أن تكون الجوف له وحده بكاملها ، وهذا بدوره كان يتطلب حكمًا مختلفًا وأكثر متانة ، وسرعان ما عين طلال أحد أتباعه - اسمه حامود - المخلصين حاكمًا لمنطقة الجوف والعاصمة ، فى حين أنكر ، فى الوقت ذاته ، على الرؤساء المحليين ، ومن بينهم غافل ، أى نفوذ فى السلطة الإدارية ، وعين بدلاً منهم ثلاثة من مشايعيه المخلصين ، من مواطنى عاصمته حائل ، ليكونوا مساعدين أو مجلسا ، لمراقبة الحاكم الجديد ، طبقًا الظروف والأحوال ؛ ثم اختار فى النهاية من بين رجال الجوف نفسها عدداً من الرجال ، شكَّلهم على هيئة حرس خاص لنائبه ، ونبَّه إلى أنهم يجب أن يتسلموا أسلحتهم ورواتبهم من حامود نفسه ، ثم احتفظ بأربع من كبار الأعيان ليكونوا رهائن عنده مقابل سلوك إخوانهم المواطنين سلوكاً حسنًا ، وعند عودته إلى جبل شومر أخذ معه هؤلاء الأعيان الأربعة .

واعتباراً من ذلك التاريخ أصبح الجوف يدار بواسطة حامود ومجلسه الثلاثى باسم طلال بن الرشيد ، ولم يسمح ابن الرشيد بأى شكل من أشكال الاضطرابات الداخلية ، وبدلاً من الخوا والابتزاز لصالح الرواالة وأتباعهم البدو ، فرض طلال بن الرشيد على أهل الجوف ضريبة منتظمة على العقارات وعلى الماشية يدفعونها للحكومة . وفى ظل هذه الترتيبات الجديدة استعادت منطقة الجوف الكثير من عافيتها ورفاهها السابق ، وخطى السكان ، الذين أرهقتهم الصراعات الداخلية وكادت توصلهم إلى مرحلة البداوة ، خطوا خطوات واسعة نحو الحياة المتحضرة ، كما واصلوا مضيهم قدمًا ، نحو زيادة ثرواتهم ، وإعدادهم ونشاطهم التجارى ، زد على ذلك ، أن إدراك

سكان الجوف لهذه المزايا ، أكثر من إدراكهم للرعب الذى توحى به القوة الكبيرة ، هو الذى جعل عدداً كبيراً من هؤلاء السكان ، يصبرون على تحمل نير الحكم الأجنبى ، والحاكم الأجنبى ، إلى يومنا هذا دون أن يظهر عليهم أى عرض من أعراض التمرد ، أو أية محاولة ، مهما كانت صغيرة للعصيان .

أحفاد الطائى هؤلاء ، إن صح القول ، يتميزون بسمات بدنية ، يقال عنها ، إنها لا يحتقرها أحد، إلا من يفتقر إليها ، وأهل الجوف طوال القامة ، أجسامهم متناسقة ، وبشرتهم شقراء ، وشعرهم أسود فاحم متموج ، وملامحهم عادية وتنم عن الذكاء ، ومشيتهم ووقفتهم توحى بالتقدير والاحترام ، وأهل الجوف نماذج طيبة جداً ، لما يطلق عليه اسم العرب الشماليين الخلّص، أو العرب الذين جاءوا من نسل سيدنا إسماعيل ، وهم بكل ما لهم من هذه الصفات ، يقرون بانتصار سكان جبل شومر ، وليس غيرهم ، عليهم ، وقامات أهل الجوف الفارعة وجمال محياهم على النقيض تماماً من قامات البدو القزمية ونظراتهم التى توحى بالشك ، أضف إلى ذلك ، أن سكان الجوف ، أصحاء تماماً ، ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم إلى مرحلة متأخرة من العمر ، وليس من الغريب فى الجوف أن تجد رجلاً فى السبعين من عمره يحمل السلاح وينضم إلى جماعة من الشباب ؛ برغم أن هذه "الشيخوخة الخضراء" ، على سبيل التذكرة ، يمكن أن نخبرها أيضاً فى المناطق الوسطى فى أقصى الجنوب ، ولقد أتيحت لى فرصة مشاهدة ذلك مراراً ، زد على ذلك ، أن المناخ هنا جاف وجيد ، علاوة على الأعمال المعتادة هنا التى تسهم كثيراً فى الحفاظ على الصحة والحيوية .

وفى السلوكيات ، كما هو الحال فى الموقع ، فإن مناقب الجوف تحتل مركزاً وسطاً بين البدو وسكان المناطق الزراعية ، من هنا فإن سكان الجوف يشاركون بدرجة كبيرة فى تحويل البدوى إلى المهن الميكانيكية ، بسبب عدم مبالاته بالمكتسبات الأدبية ، وبسبب تقلبه بلا سبب ، وبسبب أساليبه الغادرة، وبرغم أن سكان الجوف أرقى بكثير ، من حيث الأدب واحترام النفس ، عن عرب الشرارات ومشايعيهم ، فإنهم بعيدون تماماً عن استعراض الكياسة والذوق الرفيع السائد فى شومر وفى نجد ، أو حتى فى الإحساء أو عُمَان ، وعلى الجانب الآخر ، ومن حيث النظافة الشخصية والتصحاح ، ومن حيث المهارة الزراعية ، ومن حيث قدرتهم على الإقناع ، وباعتبارهم شكلاً من أشكال الوطنية المحلية ، ومن حيث قدرتهم على التعامل مع الغرباء ، ومن حيث قدرتهم

على تسيير أمور التجارة ، بل حتى من حيث الرغبة فى التثقيف والتقدم التى تراودهم من حين لآخر ، من حيث كل هذه الأمور ، نجد أن أهل الجوف يشبهون إلى حد كبير بقية سكان الحضر وسكان القرى فى شبه الجزيرة العربية كلها ، الواقع ، أننا لابد أن نحكم على أهل الجوف بمعايير قبيلة الطائى ، التى تعد عرقًا متحضراً بالمعايير العربية القديمة ، علاوة على أن سكان الجوف لا يزال لديهم ميل إيجابى ، فى أن يصبحوا ، من جديد ، عرقًا متحضراً ، برغم حيلولة ظروف الحرب والظروف الفئوية بينهم وبين هذا التحضر ، وكذلك نفوذ القبائل الهمجية المتدهور ، التى كانوا يعيشون فى عزلة عنها بسبب موقعهم الجغرافى ، والواقعة التالية التى لعبنا فيها دوراً بارزاً ، برغم أنه كان دوراً مناسبًا بكل المعايير ، يمكن أن تكون مثالا واضحًا على وضع أهل الجوف بين كل هذه الأهداف المتصارعة .

كنت أوردت فى الفصل السابق ، إننا بينما كنا لا نزال نجتاز سلسلة الجبال الضيقة بالقرب من المدخل الأول للوادى ، طلع علينا عديد من الخيالة شاهدناهم عند الطرف العلوى من المدخل ، وأوردت أيضًا أن واحداً منهم استجوب مرشدنا ، وأنه نادانا ، بعد فترة قصيرة تشاور خلالها مع بقية رفاقه ، وطلب منا أن نواصل مسيرنا ولا نخشى شيئا ، كان اسم ذلك الرجل سلمان بن ظاهير ، شاب مغوار تمامًا وذكى جداً ، نشأت بيننا وبينه علاقة حميمة طوال وجودنا فى الجوف ، بحكم جواره لنا وتردده علينا ، حدث ذات يوم ، بينما كنا نتجاذب حديثًا وديًا ، أن قال سلمان بن ظاهير ، وهو يضحك : "هل تدرون ذلك الذى كنا نتشاور بشأنه ، عندما كنتم عند أسفل المدخل ، يوم وصولكم إلى هنا ؟ كنا نتشاور حول ما إذا كان يتحتم علينا أن نستقبلكم استقبالاً طيباً ، وبذلك نتيح لأنفسنا ميزة أن تقيموا بيننا ، وإن كان يتحتم علينا أن نقتلكم أنتم الثلاثة ، ونأخذ نصيبنا من الغنيمة التى سنجدها فى متاعكم" . ورددت عليه ببرود مماثل قائلاً : "ربما كان ذلك أمراً محرجًا لك ولأصدقائك ، والسبب فى ذلك أن حامود ، حاكمك ربما علم بالأمر ، وربما أخذ منك هذه الغنيمة" ، ورد سلمان قائلاً : "أف ! لا يترك شيئا مطلقًا ؛ كما لو كانت هدية من الغنيمة لم تربط لسان حامود" . وقلت له وأنا أضحك : "أنتم بدو بحق" ورد على سلمان قائلاً : "حقًا إننا كذلك : لقد كنا جميعًا كذلك إلى وقت قريب جداً ، زد على ذلك ، أن النظام الحالى حديث جداً إلى حد انه لم يغيرنا كثيراً" ، ومع ذلك ، اعترف سلمان أنهم بعد أن تشاوروا ، راحوا يهنئون أنفسهم لأنهم لم يفضلوا سفك الدماء على الكرم ، برغم أن ذلك القرار الأفضل ربما كان راجعًا إلى دوافع مصلحيه أكثر منها دوافع أخلاقية .

والتحرر هو أهم سمات سكان الجوف ، والضيف إذا لم يقتل قبل السماح له بدخول الجوف ، يعامله الناس معاملة قل إن تجد لها مثيلاً ، في أي مكان آخر ، من الجزيرة العربية ؛ بل إنهم يدعونه لأن يكون واحداً منهم ، وأهل الجوف ، لا يمكن لأحد أن ينكر عليهم شجاعتهم ، وهم يجودون بأرواحهم وممتلكاتهم ، شأنهم في ذلك شأن جيرانهم ، وموقعهم المتوسط ، الذي شرحناه ، يناسب التجارة ، برغم أن المسافات الطويلة من أو إلى واديهم تحد من هذه التجارة ، مع بعض الاستثناءات القليلة ، في بعض فصول محددة من فصول السنة ، وهي على وجه التحديد الشهور الباردة من فصلي الشتاء والربيع ، ومع ذلك فإن أهل الجوف لم يدركوا بعد مزايا إقامة سوق دورية لمنتجاتهم ، زد على ذلك أن العاصمة لا تحتوي على مجرد دكان واحد فقط ، والبيع والشراء يجريان في المنازل التي يسكنها الناس ، علاوة على أن ورشة الحرفي تكون في منزلة أيضًا ، وقد تأسس هذا النظام ولا يزال معمولاً به لصالح الاحتكار الذي يعمل لصالح الرئيس المحلي في كل أحياء المدينة ، ولكن هناك احتمال أن يتخلى الناس عن هذا النظام ويتبعون نظامًا أفضل ، هذا إن قدر للحكم الحالي أن يستمر عدة سنوات ، على أقل تقدير .

وفيما يتعلق بالدين ، نجد في الجوف جميع المظاهر الشاذة المعتادة في الجزيرة العربية ، حول هذا الموضوع ، بل إنها تزيد على ذلك بعض الأشياء ، وسكان الجوف ، شأنهم شأن معظم إخوانهم ، كانوا قد تخلوا ، في زمن ما ، عن دين محمد (ﷺ) ودخلوا في نوع من الفَتَشِيَّة[1] (البدِّية) ، والعبادة السبئيه ، والصلاة للشمس ، ونحر الذبائح على قبور الموتى ، غير أن الطائفة الدينية الوهابية ألزمت أهل الجوف بقوة السيف ، باتباع الإسلام السليم في أصح صورة التي لا يرقى إليها شك ، ولكن ذلك لم يتفق مع أهوائهم ، ولم يلق لديهم سوى نجاح محدود جداً .

ربما يكون القارئ قد لاحظ فعلاً أن القصص والسرد الذي أورده هنا يشبه الرحلة التي أقوم بها إلى حد ما ، فهو مليئ بالاستطرادات والمقطوعات غير المباشرة ، ولعل القارئ يسمح لي بأن أتوقف قليلاً عند هذا الموضوع المهم ، الجانب الديني عند العرق العربي بشكل عام ؛ إذ لن تسنح لنا الفرصة بذلك أكثر مما هي سانحة الآن .

(١) الفَتَشِيَه ، البُدِّيه : الإيمان بشئ كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته (المترجم) .

والعرب ، بشكل عام ، أمة صاحبة عقيدة أكثر منها أمة متدينة ؛ وليست المرحلة الفكرية التى أوضحناها هنا مجرد شكل من أشكال التناقض الظاهرى ، مثلما يظهر لنا من الوهـلة الأولى ، والذين يضفون عن طـيب خـاطر ، عقيـدة مجردة على كل شئ ، لا يصعب عليهم أن يحلوا بطريقة عملية ، كثيراً من المتنـاقضات التى تدخل نظريتهم بلا مـبررات ، والدين المسيحى ، أو اليهودى ، أو الإسلامى أو حتى العقائد الوثنية والأشكال العقدية الأخرى ، إذا ما تركنا العربى لنفسه ، لا يستطيع أن يتبين الأسباب التى لا تجعل كل هذه الأديان والعقائد سليمة بصورة متساوية ، وذا قيمة متساوية ، فى حين أنه ، لا يفهم ، فى الوقت نفسه ، السبب الجوهرى الذى يجعله يتبع دينا من هذه الأديان أو عقيدة من هذه العقائد دون العقائد الأخرى ؛ وبذلك يجد نفسه يصل إلى نتيجة مريحة تجعله لا يرتبط بأى دين أو عقيدة من هذه العقائد ، وليس معنى ذلك أن العربى يراوده أدنى شك فى الرسالة المقدسة لأى نبى من الأنبياء الستمائة(١) بدءاً من آدم إلى محمد خاتمهم، بل المقنَّع El- Mok.annaa' نفسه ، كما سنرى فى عُمَان ، وإنما هو لا يريد أن يولى أى من هذه الأديان اهتمـامًـا خـاصًـا يسئ به إلى حقـوق الأديان الأخرى ، زد على ذلك ، أن العربى يميل إلى البساطة والراحة ولا يصبر على الكبت ؛ فالصلوات المفروضة تضايقه، والإطالة فى الصلاة تتعبه(٢) ، والوضوء يزعجه ، والصـيام ، فى وجود شـاه سـمينة ، يصبح فى عداد المستـحيل ، إذا لم نطلق على رخصه الطعام المعتاد اسم الصيام الدائم ، وهو شكل قاس من أشكال الصيام .

صـحيح أن انتشار الإسلام بين عدد كبير من الناس ، ترتبت عليه نتائج منطقية كثيرة ، وبخاصة التشككية الكاملة ، وقرار ثابت يقضى بتفضيل المؤكد على المشكوك فيه ، كما يفضل الحاضر على المستقبل .

(١) إن حصر الأنبياء فى ستمائة غير صحيح ، حيث إن عدد الأنبياء والرسل غير معلوم على درجة القطع لأحد والآية الكريمة يقول الله فيها "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" وهى شاهدة على عدم العلم القاطع فى هذه المسألة – (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) هذه الأحكام المطلقة على العرب لا تُسلَّم بعد اعتناقهم الإسلام ونحن نعلم أن الصحابة كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار وأن الرسول (ﷺ) ـ كان يطيل الصلاة فى بعض الأحيان إلى درجة أنه كان يقرأ البقـرة وآل عمران فى صـلاة واحـدة ولم يمـلّ أصحابه أو يشتكوا ، بل كانت راحتهم فى الصلاة – (د. حلمى عبد المنعم) .

« هل أترك ملذات النبيذ الصافي ،

نظير ما يقولونه عن الحليب والعسل فيما بعد ؟

الحياة والموت والبعث قادمون ،

سقط متاع وهراء ، يا خليلتي » !

هذان بيتان من أشعار شاعر عربي شهير ، سمعتهما مراراً يترددان في أحاديث العرب المعتادة دون أن يعترض عليهما أحد من الحاضرين ، وليس معنى ذلك أن العربي يكفر بعقيدته ، وإنما هو عقد عزمه على ألا "يدس أنفه" في الأمر .

وكون الأتراك شعب متدين ، أمر نقره ونعترف به تماماً ، وكون المغول ، سكان بلخ وبخارى ، وسكان حيرات وبلوخستان ، أكثر تديناً على المستوى القومي والفردي ، أمر أعترف به ومقتنع به تماماً ، ولكن أيا كانت الدهشة التي ستصيب القارئ ، الذي تعود على سماع الرأي المعارض عن هذا الموضوع ، فأنا أجدني هنا احتج على حق العرب في أن نطلق عليهم اسم الأمة المتدينة ، فلو أن دين محمد عهد بحمايته إلى العرب وحدهم ، ولو لم يهب الفرس ، أو المغول ، أو الأتراك ، وفي بعض الأحيان النفوذ الأوربي لو لم يهبوا لمساعدة الإسلام لقلت كثيراً جداً أعداد أولئك الذين يقرأون القرآن ويصومون رمضان .

والشعب التوقيري ليس بالضرورة أن يكون شعباً متديناً ، وباستثناء قلة قليلة من الشعوب في كل أنحاء أوربا ، لم تثبت أهمية الدين كسبب مباشر من أسباب العمل إلا مع الشعب الإنجليزي؛ شعب توقيري يماثل الشعب الإنجليزي ، والمواطن الإيطالي ، والأسباني ، وكذلك المواطن اليوناني ، كل منهم يعد ، بشكل أو بآخر ، أكثر تديناً من المواطن الإنجليزي ؛ ومع ذلك ، نجد أن عدم الاحترام بكل صوره ، يشيع في كل من إيطاليا وأسبانيا واليونان أكثر من بريطانيا ، وأنا أورد هذا الكلام هنا كي ألقي الضوء وربما كان ذلك شيئاً جديداً ، ولكني أرى أنه صادق على العقل العربي ، الذي يشبه ، في هذا الأمر ، وفي أمور أخرى كثيرة ، العقل الإنجليزي ، يقول بعض الرحالة إن الفرس هم فرنسيي الشرق ؛ وربما أورد الرحّالة مقولتهم هذه وهم في عجلة من أمرهم ، وأتمنى أن يكون ذلك صحيحاً ؛ والسبب في ذلك أن مقارنة الفرس بالفرنسيين يعد تملقاً سيئاً للأوربيين ، ومع ذلك ، إذا كان لهذه المماثلات ، أو أوجه الشبه غير

الكاملة والغامضة التي من هذا القبيل معنى ، فإنني سوف أقطع بلا أي تردد أن العرب هم إنجليز عالم الشرق .

فالعرب يُكنُّون للحرية الوطنية والحرية الشخصية حبًا دفينًا ، ويقدرانهما حق قدرهما ، وهم يكرهون التدخل السافر ، والقوانين الخاصة ، كما يحترمون السلطة احترامًا كبيرًا طالما أن القائمين عليها يمارسونها بأدب وحرص وعناية ، والبعد بها عن التمييز الطبقى فيما يتعلق بالأسر الحاكمة والأسر المالكة ؛ والعرب لديهم قدر كبير من الأحاسيس العملية الطيبة ، وهم محبون للمشاريع التجارية ، ولديهم أيضًا الاستعداد للقيام برحلات طويلة ، والاغتراب ، عن طيب خاطر ، فى البر أو البحر بحثًا عن الكسب والقوة ؛ ولديهم أيضًا قدرة كبيرة على التحمل ؛ ولديهم أيضًا المثابرة والإصرار على استعمال الوسائل التى توصلهم إلى غاياتهم ، والعرب شجعان فى الحرب ، أقوياء ونشطاء فى السلم ، وأخيرًا يتجلى فى العرب أيضًا تفوق عرقهم ، على كل من يتصلون بهم من جيرانهم الأسيويين أو الأفارقة ، وهذا التفوق يعترف به الآسيويون والأفارقة ويتخذونه قضية مسلم بها ، وكل هذه الخصائص يصعب القول بأنها لا تنطبق على المواطن الإنجليزى أكثر من المواطن العربى ؛ وهذه الخصائص ، إذا ما أخذناها ، بطبيعة الحال ، بمعناها الحسن ، ينكرونها ، وهذه العبارة ، شأنها شأن العبارات الواسعة الأخرى تسمح ، بكثير من الاستثناءات ، وتحتاج إلى الكثير من التوضيح والمزيد من الأدلة والبراهين الساطعة ، وأنا على يقين ، من أن هذا التوضيح وتلك البراهين سوف ترد فى ثنايا هذا السرد ، وستكون متداخلة مع التاريخ ، السياسى أو الأخلاقى للمناطق التى سنزورها ، والأراضى التى سنعبرها ، كما ستحمل لنا تلك البراهين تلك التفاصيل الخاصة التى قد تساعدنا على وضع حد للتناقض الظاهرى أو تصحيح الآراء المغرضة ، وأظن أنه قد آن أوان عودتنا ، بدلاً من هذه الاستطرادات التى دخلنا فيها، إلى أمور تصطبغ بالطابع الشخصى والفردى أكثر من أى شئ آخر.

فى صباح اليوم التالى لوصولنا ، الموافق اليوم الأول من شهر يوليو أمر غافل بوضع منزل صغير ، فى المنطقة المجاورة لنا ، ويملكه واحد من مرؤسيه ، تحت تصرفنا ، وفقا لما طلبناه منه من قبل ، كان مسكننا الجديد مكون من فناء صغير ، على جانبيه غرفتين ، واحدة منهما للمتاع والأخرى للسكنى ، ويحيط بالمنزل من الخارج سور ، كانوا يغلقون بابه بالقفل والمزلاج ، ولم نكن بحاجة إلى مطبخ نظرًا

للدعوات المستمرة التي يوجهها أهل الجوف للغرباء ؛ ومع أن منزلنا لم يكن فسيحاً ف
فيه الكفاية ، إلا أنه كان أقصى ما كنا نتمنى ، على أقل تقدير ، وبخاصة فيما يتعل
بالخلوة والخصوصية اللتين كنا بحاجة إليهما ؛ زد على ذلك ، أن المنزل كان عل
حساب مضيفنا ، فيما يتعلق بالإيجار والتعويضات .

ونقلنا متاعنا وأشياءنا إلى ذلك المنزل، ورتبنا كل شئ ترتيباً جيداً قدر المستطا
وبعد أن استنتجنا من إبداع ومحادثات أولئك الذين كانوا يحيطون بنا ، أن حالتنو
الاجتماعية لا تسمح بأن نقدم لهم الخدمات الطُّبيَّة التي تتطلب ممارستها أن يكو
المريض على قدر معين من الثقافة واللياقة ، اللتين لا تقلان عن المهارة من جانـ
الطبيب ، قررنا أن تكون التجارة شأننا الأساسي في الجوف ، إيماناً منا بأن ذا
سوف يحقق لنا ميزة ثانية ، هي التخفف من بضاعتنا كبيرة الحجم ، التي من قبيـ
البن والقماش ، الذي سبَّب لنا نقله كثيراً من المشاق .

ولم تكن لدينا رغبة أن نبيع لهم أكثر مما يود أن يشتريه رجال ، ونساء ، وأطفا
الجوف ، ومنذ البداية ، تزاحمت الزبائن على فنائنا الصغير ، وسط مشاهد المساوم
العربية المضحكة ، بكل عنفها وبساطتها ، مما أبعدنا أسبوعاً عن موضوع رحلتنا
منديل إثر منديل ، ياردة من القماش إثر أخرى ، خرز النساء ، سكاكين ، أمشاط
مرايا ، وما لا يخطر على بال ؟ (نظراً لأن بضاعتنا كانت متنوعة بدرجة كبيرة)
بعنا كل هذه البضاعة عن آخرها ، بعضها بالنقد ، والبعض الآخر بالأجل ؛ وإنه لـ
العدل أن أعترف هنا إننا حصلنا على الدين كاملاً وبكل أمانة ، لم يكن تجار شار
أكسفورد ، في الأزمان الماضية ، محظوظين دوماً بنفس القدر .

وسنحت لنا في الوقت نفسه فرصة التعرف على جميع طبقات المجتمع وتقييمها
بل كل الأفراد الذين كانوا يعيشون في مدينة الجوف ، وجاء إلينا فلاحون من كل مـ
سكاكه Sakakah وقاره Kara ومن هجر أخرى ، تصديقاً منهم لشائعة ، انتشرت فـ
كل أرجاء الوادي ، تزعم أننا شخصيات مهمة جداً ، وأن لدينا مخزوناً من البضاعـ
أكبر بكثير مما هو معروض . وتزاحم الجميع ، ولم يمض وقت طويل ، حتى أصبح عد
البشر الذين كانوا في الغرفة يفوق عدد البضائع التي نحتفظ بها في غرفة الأمتعة .

ولجأ غافل إلى مئات الحيل ، حتى يمنعنا من بيع البن ، الذي يطمع في أ
يساوم هو عليه بنفسه ، وكلما جاءنا عرض لابتياع البن ، كان غافل يرسل لنا بعضـ

من أقاربه أو أصدقائه ليمنعونا من إتمام الصفقة ؛ ومع أننا أدركنا هدفه وفهمناه ، في مرحلة مبكرة ، وجدنا أن الأفضل أن نغمز له ، رغبة منا في تلبية طلب مضيفنا الأول والرئيسي وإرضائه ، حتى وإن ترتب على ذلك شيئ من الخسارة بالنسبة لنا .

وأنا أقول ، مضيفنا الرئيسي ، لأن كل من قدَّم لنا غداءً أو عشاءً يعد مضيفًا لنا أيضًا في الجوف ، وانهمرت الدعوات علينا من كل جانب ، ولو تركنا الناس نتناول الطعام مرتين في منزل واحد ، لكان ذلك وصمة عار لكرمهم ، بشكل عام ، وتلطيخاً لاسمهم ولسمعتهم، وكنا نزجي وقتنا على النحو التالي : كنا نستيقظ مع طلوع الفجر ، ثم نغلق المنزل ، ونذهب مع هواء الصباح البارد النقي إلى مكان هادئ بين بيارات النخيل المجاورة لنا ، أو نقيس سور إحدى الحدائق ، أو نعبر المدينة ، من خلال الحارات الفرعية ، لنصل إلى منطقة الزراعة في الرمال المجاورة للوادي ؛ الخلاصة أننا كنا نذهب ، إلى أي مكان يمكننا أن نقضي فيه ساعة من الهدوء بعيداً عن المجاملات الاجتماعية العربية ، ونتيح لأنفسنا فرصة وضع خطة لما سنقوم به أثناء النهار ، وكنا نعود إلى منزلنا مع طلوع الشمس ، ونجد في انتظارنا أمام باب المنزل صبي طويل أرسله والده – غالبًا ما يكون واحداً من سكان الحي الأثرياء وأصحاب النفوذ ، الذين لم نقم بزيارتهم بعد – ليوجه لنا الدعوة لتناول طعام الإفطار ، وسوف نرافق الآن صديقنا ميركيوري Mercury إلى منزله ، الذي ينتظرنا فيه استقبال حار ، كما سيكون في استقبالنا أيضًا بعض الجيران الذين دعوا لحضور هذه المناسبة ، أو ابتغاء فنجان من القهوة الجيدة (التي يقفز من أجلها العربي الحقيقي هوة سحيقة كي يحضرها من الجانب الآخر أكثر من الإنجليزي عندما يثب لإحضار اللحم البقري المُحَمَّر) ، وسنقضي في هذا المنزل قرابة الساعة ، وسنقوم ببعض العمل الطبي أو التجاري ، وبطبيعة الحال ، سوف نعرج أثناء الحديث ، على الموضوعات المحلية ، كلما سنحت لنا الفرصة بذلك ، نظراً لأن الحاضرين هنا يودون أن يعطونا صورة أدق ومعرفة أدق وأشمل بالوضع الحقيقي والظروف الحقيقية لهذه المنطقة ، ثم نعود بعد ذلك إلى منزلنا ، حيث نجد في انتظارنا جميع الناس ، ولن يسمحوا لنا بالراحة أو التوقف إلى أن يدخل وقت الظهر ، ثم نمضي فترة قصيرة نأكل خلالها التمر أو اليقطين ، في منزل واحد من الجيران ، ثم نستأنف من جديد ، عملنا التجاري مدة ثلاث أو أربع ساعات ، ثم نتمشى بعد ذلك بين الحدائق ، ويندر أن نكون وحدنا ، ولكننا في معظم الأحيان نكون بصحبة بعض الأصدقاء والمعارف ؛ وفي ذات الوقت ، نكون قد قدمت لنا دعوة لتناول العشاء ، في مكان ما ، وقبلناها بكل ترحاب .

وأهل الجوف شأنهم شأن بقية البشر ، في كل أنحاء المدن العربية تقريبًا ، يتناولون هذه الوجبة المهمة (العشاء) قبل غروب الشمس بوقت قليل ، والطعام الرئيسى ، فى هذه الوجبة ، عند أهل الجوف ، وأهل جبل شومر أيضاً ، هو الجريشة ، وهي عبارة عن قمح مجروش ، يُسْلق بعد جرشه ؛ وقد يضاف إليها الزبد واللحم أحيانًا ، وفى بعض أحيان أخرى قد يضاف إليها الخضار ، أو القرع أو الخيار ، وما إلى ذلك من أنواع الخضار ؛ وقد يدخل فيها أيضًا ، البيض المسلوق من حين لآخر ؛ ولكن فى جميع الأحوال ، ومهما تباينت مكونات الجريشة ، فهي توضع على شكل كومة ، في طبق واحد مدوّر من النحاس الأحمر نصف قطره حوالى قدم ونصف القدم أو قدمان ، وهم يقدمون هذا النوع من الطعام حارًا تمامًا ؛ ولا يأكلونه إلا بالأيدى فقط ؛ وليس لديهم أى اعتراض فلسفى ، أو أخلاقى على استعمال الشوك أو الملاعق ، وذلك على العكس مما قرأته عند أحد المؤلفين – وهو فرنسى ، بطبيعة الحال – ولكن كل ما فى الأمر ، أن الأشياء التى من قبيل الشوك والملاعق لا تتوفر عند أهل الجوف ، إضافة إلى أنها لا تعد من الأشياء الضرورية ، عند قوم يتساوى عندهم ، وبلا جدال ، الحساء مع وصلات اللحم المشوى ، والخبز لا يظهر مطلقًا ، فى وجبة العشاء فى الجوف ، برغم ظهوره بكثرة فى وجبة الإفطار ، والخبز ، له فى الجزيرة العربية ، أشكال وأصناف لا حصر لها ؛ وهو هنا ، فى الجوف ، عبارة عن فطائر كبيرة ، متوسطة السمك ، وغير مخمور ، وفطيرة الخبز أقل سمكًا من فطيرة الماسوث Mossoih عند اليهود ، فى تلك الأيام ، وهم يقدمون التمر مع العشاء من قبيل تزيين طعام العشاء ؛ وهل يغيب التمر عن أى وجبة من وجبات هؤلاء الناس ؟ وهم ، فى هذه المناطق لا يعرفون من المشروبات سوى الماء ، برغم أن بإمكانهم أن يصنعوا النبيذ من التمر بسهولة ، فقد ورد ذكره عند شعراء وكتّاب شمالى الجزيرة العربية ، القدامى ، ولكنه أصبح الآن باطلاً ، ولا يخطر على بالهم .

وبعد تناول العشاء ، ينهض الجميع ، ويغسلون أيديهم ، ثم يخرجون للجلوس فى الهواء الطلق ، ويدخنون غليونا هادئًا ، فى مساء الصيف قبيل الغروب ، حيث لا يوجد ضباب أو بخار أو سحاب ؛ وينهمر ضوء القمر على شكل أبيض فضى يغمر أعالى النخيل ، بينما تكون آخر أشعة النهار واضحة تمامًا كما لو كانت فجرًا ، ويستمر السمر والصحبة مدة ساعة أو ساعتين ، ثم ينصرف الحاضرون ، كل إلى منزله ، وفى تصورى ، أن الغالبية تنام ، نظراً لأن مصابيح (البنسيرو) Penseroso تبلغ من الندرة حداً ، يصعب عنده أن يشاهدها أحد عند منتصف الليل ، كما أن روح أفلاطون

عندى لا تتحمل مخاطر التضحية بدراسة الجوف أثناء الليل ؛ إذ ينصرف أصدقاؤنا ، لحال سبيلهم ، فى حين أجلس أنا لأدون يومياتى ، أو أقارن الملاحظات ، التى دونتها ، بعضها ببعض ، أو أقيِّم الشخصيات .

وفى بعض الأحيان ، كنا نتلقى دعوة ، من أحد كبار ملاك الأراضى ، لقضاء فترة الصباح فى حديقته ، أو بالأحرى فى بستانه ، ونأكل من الأعناب ونمتع أنفسنا بطريقتنا الخاصة ، بأن نجلس تحت كرمات العنب التى يعلوها النخيل ، و ينابيع الماء تجرى من حولنا ، كم كان ذلك جميلاً بحق بعد الصحراء ! وفى بعض الأحيان الأخرى، كان المرضى ، والوصفات الطبية ، والأعمال التى من هذا القبيل تستغرق جزءاً من النهار ؛ وفى أحيان ثالثة ، كانت تستوقفنا مدة ساعتين ، فى حديث جاد وخلاق مع صبى من أولئك الذين ، يرغبون فى معرفة المزيد عن سوريا أو مصر ، اللتين يتطلع إلى زيارتهما طلبًا للملذات Spree، أو تطلعًا للاستزادة من التاريخ وعلوم الأخلاق ؛ وفى جميع الأحوال كنا نستفيد من مثل هذا الحديث .

كان الجميع يعرفون أننا مسيحيّون ورحبوا بنا واستقبلونا على هذا الأساس ؛ ومن النادر تمامًا أن يرتكب عربى ، حماقة "التمييز" بأن يتكلم مع غريب ، بصفة شخصية ، عن الدين ؛ برغم أنه يشيع بين هؤلاء الناس ، أسلوب المناقشة والحديث بشكل عام ، الذى يكون مصحوبًا بشىء من التلميح غير الصريح ، إلى بعض الحاضرين، ولم يستثير طابعنا الطبى أو التجارى شكوك هؤلاء الناس ، وعلى كل حال، فإن بعض الحاقدين أو الذين يتمتعون بفكر ثاقب عن الآخرين ، راودهم شك بعيد عن الحقيقة تمامًا ، كان فى مصلحتنا ، فقد تهامس هؤلاء القوم مع حامود ، بما مؤداه أن هذين السوريين أو المصريين ، هما أصلاً من "المفسدين" ، أى من "المبتدعين" ، أو من الثوريين، الذين يعد إبعادهم عن البلاد ، خدمة كبيرة لها ، غير أن الحاكم كان له ، فى موضوعنا ، رأى مناسب ، إن لم يكن صحيحًا ، وردَّ عليهم قائلاً : إننا لم نر منهم أية إشارة إلى الابتداع أو السلوك الثورى ، وأن مجرد الشك لا يمكن أن يكون ضمانًا كافيًا لاتخاذ إجراء شديد من هذا القبيل ؛ وأردف قائلاً ، إنهم فى طريقهم للقاء طلال ابن الرشيد ، الذى لا يستطيع ، أى مفسد ، مهما كان ، أن يفلت من بعد نظره وسلامة بصيرته ؛ وأنه ، إذا كانا حقًا من المفسدين ، فإنه سوف يكتشف ذلك ، وينزل بنا العقاب الذى نستحقه ، وبهذه الردود ، صرف حامود ، أولئك الوشاة ، الذين ينتمون فعلاً إلى المتشددين أو الطائفة الوهابية .

أمثال هذه الفئة ، موجودة هنا فى الجوف فعلاً ، ولكنها ليست واسعة الانتشار ، وعندما نصل إلى مقر إقامة الملك فى حائل ، سيكون أمامنا متسع نتحدث فيه عن السياسة التى تجعل طلال بن الرشيد يتسامح مع هذه الطائفة فى مملكته ، والتى تجعله يشجعها فى بعض الأحيان، ويقمعها فى أحيان أخرى ، وعن نفوذ هذه الطائفة ، على كل من الحكومة والشعب .

هيا بنا ، نقوم بزيارة رسمية نزور من خلالها الحاكم حامود ، فقد وافق غافل ، أخيراً ، بعد تأخير استمر أربعة أيام من تاريخ وصولنا ، على أن نقوم بهذه الزيارة . وبناء على هذه الموافقة ، اتجهنا من منزل غافل مباشرة ، فى موكب رسمى ، بصحبة البعض من أقارب حامود ، وسرنا قرابة ربع الساعة بين الحارات الضيقة التى تفصل البساتين عن بعضها ، تظللنا أشجار النخيل وتبللنا قطرات المياه التى تتساقط منها ، إلى أن وصلنا إلى مكان واسع فسيح يطل على مطلع تل القلعة ، وعلى أحد الجانبين ، ولكن على مسافة بعيدة ، كان برج "المارد" أو "الثائر" المستدير الأوحد ، يقف شامخاً ، والذى ورد ذكر جدرانه الحجرية الضخمة فى الشعر العربى ، ومع ذلك فإن عمارة ذلك البرج الضخم لا علاقة لها بفن العمارة الإغريقى أو الرومانى ؛ وهو بالكامل ، إبداع عربى كما أن مخططه عربى أيضًا ، ولكونه كذلك فهو لا يحتاج إلى كثير من الدراسة الفنية أو الأثرية، ومع ذلك ، فإن مستأجرى الأرض ، وعجزهم عن إنشاء شىء مماثل ، ينظرون إلى هذا البرج نظرة إعجاب يصعب على الأوربى أن يشاركهم إياها .

ومع ذلك ، وتحاشيًا منا لإصدار حكم ظالم على العمارة العربية والفن العربى ، يتعين علينا ، أن نورد هنا أن هذه المنطقة ، بما فى ذلك تيماء وجبل شومر ، كانت دومًا من مناطق شبه الجزيرة العربية المأهولة بالسكان ، والتى كانت من بين أكثر مناطقها تخلفًا ، عن وسط الجزيرة ، وجنوبها وشرقها ، فى المسيرة الحضارية ، من حيث الزمان والكم ، كما كانت متخلفة عنها أيضًا ليس فقط فى فن البناء ، بل فى كل المكتسبات الأخرى ، وليس من الصعب علينا أن نقف على الأسباب التى أدت إلى ذلك ، فالتربة الخصبة ، تجىء بمثابة الشرط الأول ، بل الإجراء الضرورى ، فيما يتصل بالزمن على أقل تقدير ، لحضارة أى شعب من الشعوب ، وترتيبًا على ذلك ، فإن أشهر المناطق المنتجة المعروفة فى العالم القديم، وبالتحديد مصر ، ووادى الفرات ، ووادى نهر الجانجز، هى بمثابة المهاد الأولى لكل من الفن والعلوم؛ فى حين أن غابات

ألمانيا ومستنقعاتها ، ومنحدرات روسيا ، وهضبة منغوليا ، ظلت لفترة طويلة – ولا تزال هضبة منغوليا كذلك إلى يومنا هذا متخلفة تخلفًا كبيرًا من حيث النمو الزراعي ، ومساكن الهمج ، ومع ذلك فهي قابلة التقدم ، وبناء على ذلك ، فإن هذه المنطقة التي نتحدث عنها هنا ، دونًا عن سائر مناطق الجزيرة العربية كلها ، من حيث التقسيم الجغرافي أو التقسيم السياسي ، والتي تتمثل مراكزها الرئيسية في كل من الجوف ، وشومر ، وتيماء ، هي أقل تلك المناطق خصوبة بشكل عام ؛ وتستثنى الصحراء دومًا من ذلك ، بطبيعة الحال ، وقد تفوقت نجد في الفنون ، بفضل محاباة الطبيعة لها ، على كل هذه المناطق الشمالية ، بل إن نجد نفسها ، فاقتها الأحساء لأنها كانت أكثر خصبًا ، في حين نجد أن عُمان واليمن ، وهما أغنى منطقتين في الجزيرة العربية من حيث الموارد الطبيعية ، أصبحتا في تاريخ مبكر صاحبتا حضارة ومنجزات تفوق حضارة ومنجزات المناطق الأخرى التي كان العرق العربي يقيم فيها ، في تلك الأيام ، وخلاصة القول : أن الإنسان يُكَمِّل ذلك ، الذي يتحتم أن تبدأ به الطبيعة ، وأنا على يقين أن هذه القاعدة ، لها بعض الاستثناءات ، ولكن هذه الاستثناءات يكون لها دومًا أسبابها ومبرراتها .

عند سفح هذه الأرض ، المرتفعة التي بنيت عليها القلعة ، توجد بقايا منازل آل حابوب المذبوحين منهم أو المنفيين ؛ ومن حول هذه البقايا توجد البقية الباقية من جذوع النخيل الذي قُطِّعَ أو أُحْرِق ، فضلاً عن بقايا البساتين التي لا يبلغها ماء الري الآن ، يشهد كل ذلك على الحرب التي دارت مؤخرًا ، وترتفع من أمامنا القلعة نفسها ، التي يتخذ حابوب منها مسكنًا الآن ، والقلعة عبارة عن كتلة كبيرة من المباني البدائية ، كانوا يرممونها ويضيفون إليها ، إلى أن أختفى شكلها المستطيل تمامًا ، والواقع ، أن جانب القلعة الأيمن هو الجانب الوحيد الذي لا يزال يحتفظ بشكله الأساسي دون أن يصيبه التلف ، كما تدل أحجام الأحجار الضخمة وطريقة تسويتها ، في صفوف البناء السفلي ، على تاريخ هذه القلعة القديم ؛ كما توجد أيضًا عدة نوافذ صغيرة ، على ارتفاع يتردد بين عشرة واثنى عشر قدمًا من الأرض ، ويوجد في أعلى كل واحدة من هذه النوافذ، إذا لم تخني ذاكرتي ، قوس سيكلوبي[1] – توجد نماذج لذلك القوس ،

(١) طراز من البناء يتميز باستعمال حجارة ضخام غير متناسقة الأحجام من غير مِلاط (المترجم) .

فيما يطلق عليه اليوم اسم قصر أتريوس palace of Atreus في مدينة ميسيتاى ذلك الطراز الإنشائي العتيق ، الذى يتم بمقتضاه وضع حجرين مسطحين كبيرين عكس بعضهما ، ويوجد بالقرب من مركز القلعة برج مربع ، لا يتناسب عرضه مع ارتفاعه ، إذ لا يزيد ارتفاعه على خمسين قدمًا ، فى حين يصل عرض الجانب الواحد من أجنابه إلى عشرين قدمًا ، أو ما يقرب من ذلك ، ويبدو أن هذا البرج بنى فى فترة لاحقة لبناء الجدار الجنوبى ؛ وتوجد فى جدران البرج مزاغل تستعمل فى أغراض الدفاع . وهناك ساتر شبه دائرى كبير ، يمتد من هذا الواقى إلى أن يلتقى بزاوية المسوَّر الخارجى ، ومن الواضح أن هذا الساتر حديث البناء ، إذا أنه مبنى بطريقة عشوائية ، وبدون أى تنظيم من الدُّبش وكتل الحجر غير المصقول ، فى حين نجد فى بناء البرج شيئًا من الحفاظ على الانتظام والتناسق ، أما بوابة الدخول ، التى تقع فى الزاوية الجنوبية لهذه الكومة المتنافرة، فتبدو كما لو كانت معاصرة للبرج الرئيسى أكثر منها للآثار القديمة ؛ وهذه البوابة عليها قوس، ولذلك فهى تختلف عن الأسلوب أو النمط المستخدم فى نجد ، والذى تكون الأسقف والأسطح فيه مستوية على حد سواء ، ومن فوق البوابة ، توجد شرفة بارزة ، ويحرس نقط الاقتراب من هذه الشرفة الجداران الموجودان على الجانبين الأيمن والأيسر ، اللذين توجد الشرفة بينهما من ناحية الخلف ، ومن الداخل ، يَكْسُون ساحات القلعة وممراتها بأعلام كبيرة غير منتظمة ، متصلة ببعضها ، مثل تلك الأعلام التى نشاهدها فى فلورنسا ؛ يضاف إلى ذلك أن الممرات المؤدية إلى داخل القلعة طويلة ، ومظلمة وبها عقود ، وقد لاحظت ، على إحدى الجدران الجانبية ، صليبين محفورين حفرًا عميقًا ، من المؤكد أنهما من الماضى البعيد ، وهما من نفس نوعية الصلبان الموجودة ضمن البقايا الأثرية فى مدينة حوران السورية ، وهذان الصليبان يعطيان دليلاً إضافيًا على انتشار الدين المسيحى ، فى هذه المنطقة ، فى الزمن القديم .

كانت المداخل ، عند وصولنا ، مملوءة تقريبًا بحراس حامود ، وكلهم مسلحون بالسيوف أو البنادق ، ويرتدون ملابس جيدة ، ولكنهم لا يحملون أية إشارة أو علامة مميزة ، ومررنا من بين الحراس، ونحن نتلقى نظرات المتفرسين، والتحية من المؤدبين ، إلى أن وصلنا إلى ساحة داخلية ، تقع تحت الواقى الذى سبق أن وصفناه ، ويجلس تحته حامود فى القهوة ، أو غرفة الاستقبال ، وهى عبارة عن مبنى كبير كئيب ، يحتوى على مقاعد عالية مصنوعة من الحجر عند الجانبين البعيدين عن الوجار ؛ وكان مكان الوجار ، كالعادة ، فى الزاوية البعيدة عن المدخل .

وفى المكان المفضل من القهوة ، الذى لا يعطيه مطلقًا لأى فرد من أفراد الجوف ، أيا كان نسبه أو ثروته ، ظهر الحاكم ، وهو رجل قوى ، عريض المنكبين ، أسود الجبهة ، أسود العينين ، مرتديًا قميصاً أبيضاً طويلاً ، الزى المعتاد فى البلاد ، ومن فوقه مشلح اسود أنيق ، مطرز بالحرير القرمزى اللون ؛ ويضع على رأسه المهيب شال من الحرير أو قفائيه K.efee'yeh، مثبته بعصابة بيضاء مصنوعة من وبر الجمال ؛ ويمسك فى يده مروحة مصنوعة من العشب ، وعندما اقتربنا منه ، نهض واقفًا ، ومد يده لنا ، وطلب منا أن نجلس بالقرب منه ، واضعًا غافل ، باعتباره معرفة قديمة ، بينه وبيننا ، وذلك على سبيل الاحتياط لأى هجوم مفاجئ أو خيانة من جانبنا ، والسبب فى ذلك ، أن العربى ، أيا كان ، لا يغفل عن الحذر مطلقًا ، فى حضرة الوجوه الجديدة ، أما فيما يتعلق بالأمور الأخرى فقد أولانا كثيراً من الاهتمام والتمنيات الطيبة ، وتساءل مراراً عن حالتنا الصحية ، بعد هذه الرحلة الشاقة ، كما امتدح دمشق والدمشقيين ، وذلك من باب المجاملة ، بطريقة غير مباشرة ، وخصص لنا منزلنا فى القلعة ، غير أن غافل أفاد هنا من الامتيازات المتفق عليها بين العرب فيما يتعلق بأولوية الضيافة ، ورفض دعوة الحاكم ، نيابة عنا ؛ زد على ذلك ، أننا لم نكن نود الإلحاح فى هذا الأمر ، وقد قبل هذا الرجل العظيم ، رطلاً أو ما يقرب من ذلك ، من افخر أنواع البن الذى كان معنا ، قدمناها لفخامته ، شاهدا على الهدف من رحلتنا من ناحية ، ولتأمين نواياه الحسنة ، من الناحية الأخرى ، ولذلك فقد عرض علينا ، بدوره ، تقديم أفضل خدماته لنا ، ورددنا عليه بأننـــا لا نريد شيئًا سوى تمنياتنا له بطول العمر ، لأن هذا هو الرد العربى المعتاد على مثل هذا الكلام الجميل ، ثم تمنينا عليه بعد ذلك ، أن نصل إلى حائل سالمين ، فور انتهاء أعمالنا التجارية فى الجوف ، لأننا كلنا أمل ورغبة فى أن نكون تحت رعاية طلال بن الرشيد ورعايته مباشرة ، ووعد أن يساعدنا فى ذلك ، وفعلاً بر بوعده لنا .

وبطبيعة الحال قدموا لنا القهوة ومعها شيئًا من التمر ، وفى ذات الوقت بدأ الأشخاص الثلاثة الذين يجلسون على منصة حجرية مقابلة للحاكم ، والذين سبق أن قلت عنهم إنهم يمثلون مجلس حامود ، أو إن شئت فقل مجلس المراجعة ، بدأوا ، بعد فترة من الصمت ، يدخلون معنا فى حديث ودى ، كانوا ثلاثتهم مهندمين وفى مقتبل العمر ، ويضع كل واحد منهم على رأسه غتره خفيفة فيها بقع لونية حمراء أو زرقاء ، يلبسها سكان جبل شومر ، زد على ذلك أن مظهرهم الشخصى كان يوحى بدرجة من

الثقافة والذكاء ، مما كان يميزهم تمامًا عن سكان الجوف ، بل عن حامود نفسه ، الذى برغم حصافته ومهارته فى إدارة شئونه ، ما تزال البداوة تؤثر فى سلوكياته وأخلاقه ، وتجعله الأفضل فى عيون محكوميه ، واستطاع ذلك المجلس بكثير من السهولة والارتجال أن يجرنا إلى الحديث ، وأعربوا لنا عن اهتمامهم بما نفعل ، واجمعوا على تشجيعنا على عدم إضاعة الوقت ، وأن نشق طريقنا إلى حائل ، التى أكدوا لنا أننا سنلقى فيها ترحيبًا كبيراً من طلال بن الرشيد ، وكانت تلك ، هى المرة الأولى التى استمعت فيها إلى لغة الداخل العربية الحقيقية ، وأدهشتنا أنا وزميلى سلامة هذه اللغة ورشاقتها ولفظها ؛ إنها بحق لغة القرآن ، لا أكثر ولا أقل بكل صرفياتها الأنيقة ، ونطق جميع الحروف وعدم إهمال أو إسقاط أى منها ، وسعدنا بهم أيضًا ، عندما أعربوا عن رغبتهم ، فى أن يشهدوا بعضًا من أعمالنا الطبية ، كما سعدنا أيضًا بوعدهم إيانا أن فننا الطبى سوف يقدره الناس ، فى جبل شومر ، حق قدرة ، وسيسعون إليه ويطلبونه ، كما قالوا لنا أيضًا : إن طلال هو النصير السخى وبخاصة للأدب والفن ، وأنه لا يقل كفاءة عن حامود ، مثلما لا تقل مدينة حائل عن المدينة شبه البدوية التى نحن فيها الآن .

وبالقرب من أعضاء ذلك المجلس الخاص كان يجلس المطوّع ، أو إن شئت فقل : الكاهن أو رجل الدين ، (والمعنى الحرفى للكلمة العربية هو ، "إنسان يفرض الطاعة" له ، وهذا مفهوم ضمنا ،) – وهذا المطوع متجهم الوجه أوفد إلى هنا ليُعلِّم أهل الجوف أمور دينهم ، وهو ليس محبوبًا من تلاميذه أو رفاقه ؛ وهو لا يحاول البتة تحسين طبعة الحاد المعتاد تحت أى ظرف من الظروف ، وفى إحدى خطب الجمعة ، التى حضرتها ، راح هذا المطوع يعبر عن غضبه الشديد من فتور أهل الجوف المستعصى ، وأنذرهم بعقاب الله لهم عقابًا شديداً ، وغالى فى كلامه إلى حد جعله يخرج عن موضوعة ، ويستثير ضحك المصلين تهكمًا منه عندما بدأ يركز على الخوف والندم ، وعلى العكس مما ينتظره القارئ منى ، لم أر من هذه الشخصية المهمة أى دليل على الخير والإحسان .

وعلى امتداد الأيام الثمانية عشر التى أمضيناها فى الجوف ، كان حامود ومعه كل مجلسه ، يقوم برد زياراتنا بكل أدب واحترام ؛ كما قمنا نحن بدورنا ، بعدة زيارات للقلعة ، وأصبنا من كرمها وسخائها أكثر من مرة ، أو قضاء ساعة من وقت

فراغنا بين المشاهد المهمة والمتنوعة التي تمثلها هذه القلعة ، والسبب في ذلك ، أن حابوب بحكم سلطاته القضائية والتنفيذية كان يعقد اجتماعات عامة كل صباح ، وبعض الجلسات المسائية يستمع فيها إلى أصحاب المظالم الذين يريدون حلاً لها ، أو أولئك الذين لديهم قضايا يريدون عرضها ؛ إذ كان يتعين على الأطراف المتنازعة ، أن تحضر هذه الاجتماعات ويدافع كل طرف بنفسه عن قضيته أمام الحاكم في القهوة ؛ وكان الحاكم نفسه ، يصدر الحكم ، بعد أن يستمع جيداً إلى أقوال جميع الأطراف . وهنا ينبغي أن أضيف أن القضايا التي تتعلق بالحياة والموت ، إضافة إلى الأعمال التشريعية الأساسية ، هي مسئولية رئاسة القضاء في حائل ؛ أما بقية القضايا الأدنى من ذلك ، فهي مسئولية نائب الحاكم ، الذي يتعين عليه القيام بكثير من الأعمال والإجراءات ، مما يجعله يقوم هو شخصياً بهذه الأعمال ، وفرص اللجوء إلى المحامي في الجزيرة العربية ضئيلة جداً ، والسبب في ذلك أن كل واحد ، بما في ذلك البدوي نفسه ، لديه الطلاقة وحدة الذهن اللذان يجعلانه يدافع عن قضيته بنفسه ؛ كما أن فرص المحاكم تكون ضئيلة جداً ، في مثل هذه التجمعات ، برغم أن الرشوة لا تغيب دومًا أو تفشل أحيانًا ، لقد أعجبتني جداً بساطة وتلقائية جميع الأطراف في هذه المحاكم ، والمجلس العسكري به عملية معقدة بالمقارنة مع هذه المحاكم ، ولكن عندما يكون الإدعاء والمدعى عليه من البدو تتحول الجلسة إلى كوميديا كاملة ؛ وفيما يلي مثال على ما أقول :

كنت مع رفيقي ، ذات يوم ، نقوم بزيارة مجاملة للقلعة ، وبعد تقديم واجبات الضيافة ، أعيد من جديد استئناف الأمر المطروح ، الذي كان قد توقف عندما دخلنا القهوة ، كان واحد من بدو قبيلة مُعاذ يعرض قضيته أمام حامود ، متهماً شخصاً آخر بأنه أخذ منه جَمَلَةُ عنوة ، كان الحاكم يجلس في الركن المخصص له ، وعلى وجهه مسحة من الاهتمام ، وهو متكئ على مسند من المساند ، في حين كان البدوي يجلس أمامه ، على الأرض ، متربعاً ، على بعد ستة أقدام من الحاكم ، وفي يده منجل كبير ، يستعملونه هنا في قطع الحشائش ، وراح البدوي يسترعي اهتمام القاضي باستعمال ذلك المنجل ، ويقول : "يا حامود ، هل تسمعني ؟" (وأخذ في الوقت نفسه ، يمد المنجل ناحية الحاكم ، كما لو كان على وشك أن يشق بطنه) ، "لقد أخذَ جملي مني ؛ هل استعذت بالله وذكرته ؟" (وراح يمد سلاحه مرة أخرى ناحية القاضي الذي لم يهتز) ؛ "إن الجمل لي ؛ هل تسمع ما أقول ؟" (وراح البدوي يشير إليه مرة ثالثة باستعمال المنجل)

"بالله ربى وربك ، الجمل جملي، هل تسمعني يا ولد ؟" واستمر الحال على هذا المنوال ، في حين بقي الحاكم ثابتًا لا يحرك ساكنًا ، إلى أن راح أحد المستشارين يطلب من المدّعي أن يلتزم الهدوء بأن قال له : "اذكر الله ، يا ولد ؛ ليس هناك لزوم لكل ذلك ، ستأخذ حقك." واستدعى القاضى (الحاكم) الشهود بعد ذلك، وهم من رجال الجوف ، ليستمع إلى أقوالهم ، وتأييدهم لإدعاء المدعى ، ثم أصدر أمراً لاثنين من محكوميه ، يخولهم البحث عن المتهم وإحضاره ؛ ثم أردف القاضى موجهاً كلامه للبدوى المعاذى : "وهو كذلك ، يا والدى ، سوف تحصل على جملك ؛ اعتمد على الله ." ثم أشار إليه ، فى هدوء ، أن يعود إلى مكانه .

وسوف أتكلم عن الأعْمَال الحقيقى لهذا النوع من الإدارة ، والشكل الذى يكون عليه فى أغلب الأحيان ، ومن ثم يصبح القارئ فى وضع أفضل يمكنه من الحكم على هذا النوع من الإدارة ، سوف أتكلم عن ذلك ، عندما نستبدل الصورة المصغرة بأخرى مكبره ، أو ، إن شئت فقل ، عندما نستبدل حامود بطلال بن الرشيد .

والمسجد (الجامع) يوجد داخل أسوار القلعة ، وقد أنشئ بناء على أوامر من عبيد عندما زار الجوف أول مرة ، وبرغم أن المسجد كبير ، إلا أنه عبارة عن مبنى بسيط خالٍ من أى شكل من أشكال الزينة ، وهو لا يزيد عن كونه رواقًا مُعَمَّدًا ، طوله ثلاثة عشر عموداً وعرضه ثلاثة أعمدة ؛ ولما كانت المسافة بين العمود والذى يليه حوالى أثنى عشر قدمًا ، فإن طول المسجد يصل إلى حوالى مائة وثمانين قدمًا ، وعرضه حوالى أربعين قدماً ، ودعامات المسجد مصنوعة من الخشب ، والجدران من اللَّبن ، أما السقف فهو عبارة عن روافد خشبية ، وأهل الجوف يؤدون صلاة الجمعة فى المسجد ، كما تلقى فيه خطبة الجمعة ، وهى خطبة نمطية موحدة ؛ ويتحتم على الجميع حضور صلاة الجمعة ؛ ولكن حامود لا يصر على فرض ذلك على الناس ؛ وفى حالة عدم وجود مانع مقبول، فإن الأوامر التى تشدد على الحضور يصل صداها الضعيف فى القلوب ، هنا فى الجوف ، إلى الحد الذى ينتج عنه مجتمعًا متسامحًا ، كما ينوه فى خطبة الجمعة ، هنا فى الجوف ، باسم السلطان عبد العزيز خان ، وهذا هو كل ما يجنيه صاحب الجلالة العثمانى ، من تبعيه الجوف له ، أو بمعنى أصح من كل أنحاء مملكة طلال بن الرشيد ، وإذا ما اتجهنا جنوبيًا نجد أن ملك القارتين والبحرين ، كما يطيب له أن يسمى نفسه ، لا يحظى حتى بمجرد ذكر اسمه أو الاعتراف به ، وقد يكون من

قبيل العزاء لصاحب الجلالة العثماني، أن يعرف أن عملته المعدنية، يجرى تداولها هنا ، كما يجرى أيضًا تداول العملات المعدنيه الأوربية ؛ أما المنطقة الشرقية والمنطقة الوسطى فلا تعترفان به ولا بعملته .

ولم يمض علينا عشرة أيام من المقابلات والمحادثات المختلفة قبل أن تتسود نوعية المعلومات التى كنا نتطلع إلى الحصول عليها فى الجوف ، فالجوف عبارة عن حضارة صاعدة ، تتصارع مع الهمجية التى جاءت قبلها والهمجية المحيطة بها ، مجرد تنظيم بسيط حل محل الفوضى المطلقة، مجرد مذهب من مذاهب دين محمد (ﷺ)[1] ، بل ، مجرد مسحه ، من التشدد الوهابى ، تم نشرها هنا وهناك على كل المادية العربية واللامبالاة العربية ، مرد ولع بالتجارة والتقدم ، وامتلاك الأرض ، برغم نثر هذه المسحة نثراً بطيئًا على عادتى السلب والنهب ، ليصبح هناك : مزيداً من الكرم ، وقليلاً من حسن النية ، وأدب جم بدون أخلاق ، كان ذلك حال الجوف فى صيف العام ١٨٦٢ الميلادى ، وهذا هو ما رأيناه وفهمناه ، زد على ذلك ، أن النظرات الخاطفة التى ألقيناها على مواطنى جبل شومر، علاوة على كل ما سمعناه عن بلادهم وعن حاكمهم ، أدخلت فى روعنا أن نوعية المكافأة التى نتطلع إليها لابد وأن تكون هناك ، عند حاكم هذا البلد ، والسبب فى ذلك أننا لا نعرف بعد عن نجد الداخلية أو عُمَان مثلما نعرف عن سوريا، بمعنى أن ما نعرفه حتى الآن عن هاتين المنطقتين قليل جداً، ونتيجة لذلك ، كنا نتطلع إلى مغادرة الجوف والتقدم صوب حائل حفاظًا على الوقت .

أضف إلى ذلك ، أن شعور الناس الطيب نحونا ، وكرمهم لم يعفيانا من كثير من المضايقات وحالات العوز الخطيرة ، سبق أن قلت إن حمى رجعية تملكتنى طوال رحلتنا الصحراوية ؛ ومع أن الراحة النسبية والمناخ الممتاز ، والأعناب الطازجة ، والماء الجارى ، جعلت الحمى ترفع قبضتها عنى ، إلا أن صحتى كانت ، لا تزال ، أو هكذا كنت أتصور، بحاجة إلى شئ أفضل من اللحم غير الناضج ، والجريشة السيئة ، والتمر ، ولو كان من الجوف ، وهنا أجمع الكل على أن المؤن التى تنتظرنا فى حائل ستكون أفضل ومختلفة تماماً عما لدينا حاليًا ؛ وانتعشت آمالنا عندما وصلت مسامعنا شائعة مؤداها أننا سنأكل ، فى حائل خبزاً مخموراً ، يضاف إلى ذلك أن المساومة

(١) الدين الإسلامى لا ينسب إلى سيدنا محمد (ﷺ) وإنما يقال "دين الإسلام" - (د. حلمى عبد المنعم).

المستمرة على أسعار القماش والمرايا ، وكذلك المناورات العديدة من جانب زبائننا الكرام كي يحصلوا على بضائعنا بأرخص الأسعار ، وأخيرًا ، وليس بآخر ، ذرائع غافل المستبد ، التي يتذرع بها ليجعل كل شئ يسير حسب رغبته وهواه ، ولمصلحته الخاصة ، قد تتسبب لنا في المتاعب على المدى الطويل ، وهنا يجب أن أضيف ، ويؤسفني أن أقول ذلك : إننا كنا مضطرين دومًا إلى أن نشاهد ونسمع من دلائل الانحطاط الأخلاقي السافر التي تعد شهودًا على كثير من المؤامرات الداخلية والخارجية ، ومن المحادثات المنحلة ، ومن أعمال الرذيلة ما يخجل الذأم[1] ويثير اشمئزاز المنفّر .

يجب أن نتحمل الصعاب في سبيل الحصول على ما نريد ، دون أن نكشف عن أي قدر من الدهشة أو الاستياء ، يكون محظورًا تحت طائلة المعاقبة ، على انتحال شخصية اثنين من الرحالة العرب المشعوذين أو الباعة الجائلين ، الذين يجب أن يكونوا متمرسين تمامًا على تحمل صعاب مجتمع من هذا القبيل ، وقد حتمت علينا طبيعة هذه الشخصية التي نتقمصها ، أن نحافظ عليها ، بقدر المستطاع ، وأن نحرص على إظهار رغبتنا في تحقيق الربح ، وحرصنا على ألا يتفوق علينا أحد في المساومة على سعر البن أو الطباية ، أو أسعار القماش ، والسبب في ذلك أن هؤلاء البدو كانوا يحاولون التفوق علينا في هذه الأمور ، والأمر هنا لا يعدو أن يكون مصداقًا للعبارة الاسكتلندية التي تقول : "إنه دورصغير" ، ونحن بدورنا كنا نذكر أنفسنا دومًا : "إننا إذا نجحنا في ذلك ، فإن تلك ستكون أحسن ألعوبة".

وأنا هنا ، استأذن القارئ ، أن يسمح لي بطريقة عابرة ، أن استنكر انتقاد القراء ، الذين قد يلومونني على عدم اختصاري تلك الحكايات غير المناسبة التي ذُيِّلَتْ بأحكام أخلاقية ، أو أولئك القراء الذين قد ينتقدونني لأنني لم أُنَوِّر الجوف أو أثقفه بإلقاء موعظة عامة عن الفضيلة والرذيلة ، والأمر هنا لا يحتاج منا لأي شكل من أشكال الدفاع عن أنفسنا ، باستثناء ذلك الدفاع الذي ورد ضمن الأمثال القديمة والذي يقضي بألا نترك الأمور كلها بدون تمييز ظنًا منا إنها بلا قيمة ، أو أن نلقي باللآلئ أمام هـــذا الحيوان أو ذاك ؛ ومن رأيي ، ويجب أن يكـــون واضحًا تمامًا ،

(١) الذام : من يذم الناس (المترجم) .

عند هذه المرحلة من الرحلة ، أننا لو تصرفنا على نحو غير الذى تصرفنا عليه ، لأنقلب علينا المثــل والنتائج المترتبة عليه ، ممــا كان سيكلفنا الكـثير جداً ، ولا يكلف غيرنا شيئاً .

كنا نتصرف بطريقة تلقائية مع عائلتين فقط هما عائلة ضافى الذى كان يرافق غافل عندما استقبلانا أول مرة ؛ وعائله ساليم Salim، رجل محترم كبير السن ، من الجيران القريبين منا ، وتحيط به عائلة كبيرة من الشباب الطوال أقوياء البنى ، رباهم جميعًا بالقدوة الحسنة وعلى مخافة الله وخشيته ، كنا نذهب إلى منزل هذا الرجل عندما يرهقنا غافل وأمثاله ، ونقضى معه ومع أولاده وقتًا طيبًا فى قهوته ، ونستمع إلى الشعر العربى أو نلقيه، كما نتحدث أيضًا عن أحوال البلاد وآمالها المستقبلية المرتقبة ، كما نناقش أيضاً المسائل الأخلاقية ، أو نعلق على أساليب العصر وأحواله ، كنا نحس مع هاتين العائلتين ترحيبًا صادراً من القلب وتشبثًا حقيقيًا ببقائنا ، بل إننا بعد أن بعدنا عنهما فى حائل ، لم تنقطع عنا رسائلهم التى كانا يتمنون فيها أن نبر بوعدنا الذى قطعناه بالعودة إليهم مرة ثانية .

وعلى كل حال ، وللحقيقــة ، فأنا أقول : إن الجميع تقــريبًا كانــوا يحبـوننا ، ولا يريدون لنا سوى الخير ، بل إنهم كانوا يتطلعون إلى أن يرونا مقيمين بينهم ، وانهالت علينا عروض المشاركة فى التجارة ، بل ، عروض الارتباط عن طريق الزواج ، ولكننا ، من جانبنا ، كان يتحتم علينا أن نحمى أنفسنا تماماً ، مثلما حمى عولس Ulysses نفسه من أسحار ورقى نساء جزر الهند الغربية السافرات Colypso ، زد على ذلك ، أن غافل نفسه ، كان مخلصًا لنا إلى حد ما؛ والواقع أن فى العرب ميزة وسمة عامة ، أن الصداقة المميـزة والكرم الحاتمى ، لا دخل لهما بالمساومة أو الاستفادة من الظروف ، وخير شاهد على ذلك هو سلوك هؤلاء الأعيان الذين تعاملنا معهم .

ولكن ، كيف لنا بالذهاب إلى جبل شومر؟ الذى تفصلنا عنه تلك الممرات الرملية التى تبعث الرعب فى النفوس ، والتى يطلقون عليها اسم النفود ، والتى لا يتعجل الرحالة العرب عبورها ، فى أى فصل من فصول العام ، مهما كانت شجاعتهم ، والأدهى من ذلك ، أن عبور النفود فى أواخر شهر يوليو ، يكاد يكون عملية صعبة ، برغم أن عبورها يعد ، من منظور آخر ، كمن يعبر مضيق بهرنج فى شهر يناير ، الواقع أنه خلال الفترة من شهر مايو حتى شهر سبتمبر من كل عام يندر تماماً أولئك

الذين يعرضون أنفسهم أو ماشيتهم لمخاطر هذه الرمال الحارقة ، وترتيبًا على ذلك ، كان كل أولئك الذين ردوا على استفساراتنا حول هذا الموضوع يقولون : "انتظروا إلى أن تنضج الرطب" ، وهذه الرطب لا تنضج قبل سهيل Soheyl أو الوسم Canopous، وهو ما يوافق الأسبوع الأول من شهر سبتمبر، أو بداية العام الجديد بالحساب العام .

"ما العمل ؟" خطرت ببالي ، ذات يوم ، هذه العبارة التي وردت على لسان أحد الفرنسيين ، ثم نقلها الإنجليز نقلاً حرفيًا إلى لغتهم ، لم نكن على معرفة أو علم بما يجب أن نعمل ، في مثل هذه الظروف ، كل ما كنا نعرفه ، هو إننا كنا في غاية الضيق من هذا التأخير ، وفجأة هيأت لنا العناية الإلهية فرصة ثمينة لم نكن نحلم بها ، نستطيع من خلالها تحقيق كل ما نريد .

بدأ طلال بن الرشيد ، بعد استيلائه على الجوف مباشرة ، في استغلال المنطقة ، لتكون أساسًا يبدأ منه توسيع سلطته لتشمل الصحراء المحيطة بها بكاملها هي وسكانها ، إلى أن يصل إلى طريق الحج من ناحية الغرب وسوريا من ناحية الشمال ، كانت تلك المنطقة ، المحصورة بين طريق الحج في الغرب وسوريا في الشمال ، كما سبق أن بينا ، يحتلها بدو الشرارات ، ومن بعد الشرارات كانت هناك ثلاثة قبائل أخرى هي : الحويطات ، والتنياها Tey'yahha والرواله ، كما كانت هناك أيضًا بعض العشائر غير المهمة ، مثل عشيرة بشر وعشيرة مُعَاذ ، على شكل دائرة من حول هذه القبائل ، وقد رأى حاكم جبل شومر الحصيف أن يفيد من عشيرتي بشر ومعاذ في المفاوضات وفي التخويف أيضًا ؛ في حين قام بهجوم صريح ، على بدو الشرارت ، انتهى في نفس العام الذى بدأنا فيه رحلتنا ، أى العام ١٨٦٢ الميلادى ، وبمقتضى هذا الهجوم استسلم بدو العوازم بالذات ، وصلت إلى الجوف مجموعة من رؤساء هذا الفرع تضم اثنى عشر بأن يعلنوا له ولاءهم في عاصمته ، واستقبل حامود هذا الوفد من الرؤساء ، وأسكنهم عنده عدة أيام ، استراحوا خلالها من التعب الذى أصابهم ، واستعدوا خلالها لقطع بقية المسافة إلى العاصمة ، وكان من المقرر أن ينضم ، إلى هذا الوفد ، بعض أهل الجوف ، الذين كانت لهم ، في حائل ، بعض المصالح التي تستدعي حضورهم ، وأرسل حامود لنا رسولاً ، يبلغنا بهذه الرحلة ، وعندما أبلغناه برغبتنا في الاستفادة من هذه الرحلة ، أعطانا قصاصة من الورق ، موجهة إلى طلال بن الرشيد نفسه ، أقر فيها بأننا دفعنا رسوم الدخول ، التي يتم تحصيلها من

الأغراب عندما يدخلون الحدود الواقعة فى نطاق حكم شومر ، كما أبلغه فى الورقة نفسها أيضًا ، أننا أشخاص محترمون ، جديرون بكل المعاملة الطيبة ، ولما كانت الرسوم التى تدفع عند الحدود تصل إلى حوالى أربع شلنات فقط، أو ما يقل عن ذلك ، عن كل فرد ، فنحن لا يمكن لنا أن نقول عنها : إنها رسوم ثقيلة يجبونها فى الجمارك أو يحصِّلونها على الجوازات ، وهم هناك لا يطلبون أو حتى ينتظرون أى شئ غير هذا المبلغ ، وبناء على ما تقدم ، وفى حضور حامود ، أبرمنا صفقة مع أحد أفراد هذه المجموعة ، تعاقدنا فيها على جملين ، كان إيجارهما ، بما فى ذلك خدمات صاحبهما كمرشد ورفيق لنا مدة عشرة أيام ، من شهر يوليو ؛ وقد وصل إجمالى هذه الصفقة إلى حوالى مائة وعشرة قروش ، أى ما يساوى ثمانية عشر أو تسعة عشر شلنًا من النقد الإنجليزى .

أحضرنا المؤن اللازمة للطريق على شكل تمر ودقيق ، وأصلحنا قرب الماء ، واستردينا الديون المتأخرة ، ورحنا ننتظر لحظة البداية ؛ على حين راح أصدقاؤنا فى الجوف ، يحاولون أن يثنوا عزمنا عن القيام برحلتنا فى ذلك الفصل من العام ، ونظرًا لأننا لم نستطع أن نشرح لهم الأسباب الدقيقة للقيام بهذه المغامرة سيئة التوقيت ، فقد بدى لهم إصرارنا على رفض نصيحتهم لنا ، شيئًا غريبًا وغير مقنع ؛ إلى أن انتهوا بأن قالوا : "شَوَامْ" ، أو إن شئت فقل : دمشقيين ؛ إشارة إلى سكان سوريا بصفة عامة ، ومعروف أن أهل العاصمة ، دمشق ، مشهورين بتصلبهم وعنادهم .

وحدثت تعطيلات كثيرة ، وتأخرت الرحلة إلى يوم الثامن عشر من شهر يوليو من العام ١٨٦٢ الميلادى ، بعد أن نضج التين تمامًا – وهذا بحد ذاته ظرف جعل أهل الجوف يتعجبون من إندفاعنا ، بدلاً من انتظارنا ، مثل سائر المخلوقات العاقلة ، حتى نتمتع بخيرات الأرض الطيبة – إلى حد أن قالوا لنا فى النهاية ، "هيا ، ارحل يا ابن حضيرة" ، لم يقل لنا الجراد هذه العبارة ، وإنما قالها لنا دجيديع ، مخلوق غريب ، هو بالتحديد ، دليلنا الجديد ، شئ شاذ ، لا هو بفلاح ولا بدوى ، وإنما هو شئ بين بين ، أحد سكان المناطق الخارجية فى جبل شومر ، علَّم بابنا باللون الأسود ، قبل دخول وقت الظهر ، وطلب إلينا أن ننتهى من حزم أشيائنا ونستعد للرحيل فى اليوم نفسه ، وقبيل دخول وقت العصر ، أى ، ما بين الساعة الثالثة والرابعة بعد منتصف النهار ، ودعنا جيراننا وركبنا جمالنا ، بعد أن تخففنا من أحمالنا، التى خرجنا بها من مُعَان ،

في حين رافقنا كل من ضافي ، وعقيل (أكبر أبناء غافل ، لوجود والده في رحلة صيد خارج الجوف) وبعض معارفنا الآخرين ، رافقونا طبقًا للتقاليد الشرقية إلى مسافة قصيرة ، من بداية الطريق ، وهم يشعرون بالأسى داخلهم لفراقنا ، ويدعون الله أن يعيدنا إليهم في أقرب وقت ، ورددنا عليهم قائلين : "إن شاء الله" ، وهل هناك قول أحسن من هذا ؟

وعندما غابت عنا المنازل والحدائق ، دخل دجيديع إلى طريق يقع على أطراف الحد الجنوبي للوادي ، إلى أن وصلنا قبل غروب الشمس ، إلى نهاية الحد الشرقي للمدينة ، كان هذا هو المكان ، الذي تحدد لنقابل عنده رفقاء رحلتنا ؛ ولكن أحدًا منهم لم يظهر ، لسبب وجيه ، هو أنهم كان من حقهم تناول طعام العشاء في منزل حامود ، وآثروا ألا يضيعوا تلك الفرصة .

وبناء عل ذلك ، توقفنا ، وشببنا النار وحدنا ، ووجه إلينا رئيس هذه الديار التي تبعد عن القلعة حوالي ميلين ، الدعوة لتناول العشاء ، الذي عدنا بعد تناوله لننام بجوار متاعنا ، وقضاء ليل الصيف ، في الهواء الطلق ، على سرير من الرمل الناعم ، لا يعني حرماناً كبيراً في هذه البلاد ، كما أنهم لا يعدون ، من يفعل ذلك ، بطلاً .

ومع مطلع صباح اليوم التالي ، وعندما سطعت فينوس (ربة العشق والجمال) مثل قطرة من الفضة المصهورة على خلفية خفيفة الزرقة ، وصل إلينا ثلاثة من مجموعتنا وأخبرونا أن بقية رفاق الرحلة سيصلون في غضون وقت قصير ، وتشجعنا لهذه الأخبار ، وقررنا المضي قدماً في رحلتنا دون إبطاء ، وقبل شروق الشمس بدأنا نصعد منحدر ضفة الوادي الجنوبية ، التي شاهدنا من فوقها منظر الجوف الرائع ، بقلعته وأبراجه ، وبيارات نخيله وبساتينه ، مع طلوع ضوء النهار ، ومن خلفه الصحراء الشمالية الجرداء التي تمتد على مرمى البصر ، ثم نزلنا ، بعد ذلك ، إلى الجانب الآخر من التل المجاورة للضفة الجنوبية ، وبعدها لم نعد نرى الجوف إلى متى ؟ الله أعلم .

بدأ طريقنا يتجه ناحية الجنوب الغربي ، عبر سهل كبير تتباين فيه التلال الرملية وتغطية شجيرات الغاضة ، التي تناولناها بالوصف من قبل ، وكانت جمالنا تميل أكثر إلى رعي المرعى، وأكل الغاضة أكثر من القيام بواجبها والمضي قدماً في طريق الرحلة، وعند الظهر توقفنا عند أجمة من شجيرات الغاضة ، ارتفاعها لا يقل عن عشرة أقدام ، وأقمنا شيئًا يشبه الكابينة ، مستعملين في ذلك بعض الأغصان التي قطعناها من

النباتات القريبة منا ، ونظمناها على شكل مأوى ، أمضينا فيه ساعات الظهيرة بعيداً عن حرارة الشمس التى لا تطاق ، إلى أن رأينا المجموعة كلها تقترب منا .

كانوا كلهم ، همج ، بل ، رفاق متوحّشون ، مثل غالبية بدو الشرارات سواء أكانوا رؤساء أم أفراداً عاديين ؛ غير أنهم أصابهم الرعب جراء العظمة التى شاهدوها عند حامود ، واعتراهم الخوف أكثر جراء الوصول السريع المرتقب الذى سيمثلون فيه أمام مهابة طلال بن الرشيد المخيفة ؛ والسبب فى ذلك ، ومهما كانت فكرة الأوربيين عنه ، أن هذا الأمير إن جاز لى أن أستعمل هذا التعبير عند البدوى بمثابة الله سبحانه وتعالى . سأل واحد من أصدقائى الرحّالة العرب ، بدوياً من بدو المساليخ ، بالقرب من البصرة "من ربك ؟" فرد عليه البدوى قائلاً : "إنه فادى" ، ذاكراً بذلك اسم أحد الحكام المحليين الأقوياء فى تلك البلاد ، والذى مات مؤخراً ؛ ثم أردف البدوى قائلاً : "ولكن بعد مماته لم أعد أعرف بعد من هو ربى حاليًا" . ولعل القارئ (يعود بذاكرته هنا إلى قول مشابه ، قيل فى شمالى ويلز ، وهو على وجه التحديد ، "عندما يموت الرب ، سيخلفه السير واتكنز") يغفر الكفر الظاهر فى هذه القصة . غير أن هذا البدوى ، المسكين ، لم يكن كافراً فى المعنى ، وإنما مخطئ فى العبارة .

كان وفد الشرارات مسلحًا تسليحًا كافيًا ، وكان أفراد الوفد يرتدون أفضل ملابسهم ، التى كانت مثل ملابس الفزّاعة[1] أو ملابس رجل إيرلندى مهلهل ؛ كما كانت نسبة الرقع فى مشالحهم كبيرة جداً ، بل أخس من ذلك ، إذ كانت ممزقة وتفتح أفواهًا كبيرة بحاجة إلى الترقيع ، ولكنها لم يتم ترقيعها بعد ؛ كما كان كل واحد منهم يحمل غليونًا مكسراً يستعمله فى التدخين ، فضلاً عن أن أحداً منهم لا يلبس سروالاً داخليًا مطلقًا (ومن قبيل التذكرة ، يجب أن يعلم القارئ ، أن العرب الحقيقيين لا يرتدون السراويل الداخلية مطلقًا) ؛ ووجوههم هزيلة يشع منها الجوع ، وبشرتهم سوداء بفعل الأقذار والأوساخ الناتجة عن رداءة الطقس ؛ كان ذلك هو مشهد رؤساء العوازم الأكابر ، وهم فى طريقهم إلى حفل الاستقبال فى مقر صاحب الجلالة ، الملك . وكان فى صحبة هؤلاء الرؤساء اثنان من حيث الملبس ومن حيث الشخصية أيضًا ؛ كما كان معهم أيضًا ثلاثة من رجال الجوف ، الذين كانوا يبدون أعيانًا بين هؤلاء

(١) الفزاعة : كل ما ينصب تخويفا الطير (المترجم) .

الصعاليك ، أما فيما يتعلق برفيقى وبى أنا شخصيًا ، فأنا على يقين من أن القارئ ، لن يراوده أى شك ، فى إننا كنا أفضل وأشيك وأوجه أعضاء هذا الوفد ، ومضينا كلنا فى طريق واحد .

وفى صبيحة اليوم التالى ، وصلنا ، قبل شروق الشمس بقليل ، إلى وادٍ كلسى (جيرى) أبيض ، يحيط به حزام من تلال المَرْل[1] والرمل ، فى هذا المكان كان يوجد بئر شقيق ، الذى تعين علينا أن نملأ منه قرب الماء نظراً لعدم وجود مصدر آخر للماء قبل مسير أربعة أيام بين هذه الممرات ، الرملية وإلى بداية حدود جبل شومر ، وبئر شقيق من الآبار العميقة جداً ، إذ لا يقل عمقه عن ثمانين قدمًا ، وذلك قياساً على الحبل الذى يتدلى فيه لإخراج المياه ؛ وعرض البئر عند فوهته حوالى ثلاثة أقدام ، برغم أنه يتسع مثل الصهريج من الأسفل . ويوجد حول البئر حاجز مرتفع من الحجر ، والبئر مبطن من الداخل ، وقد ورد ذكر هذا البئر عند الكتاب القدماء ، وهم يشهدون على تاريخه القديم ، برغم أن أحداً لا يعرف شيئًا عن ذلك الشقيق الذى أطلق على البئر هذا الاسم ، وإذا ما سألت العرب ، الذين يعيشون فى هذه المنطقة ، عمن حفر هذا البئر نجدهم يقولون : "إنه من عمل النصارى" ؛ وهم يطلقون هذه العبارة ، فى كل أنحاء شمالى الجزيرة العربية ، على كل المنشآت القديمة والحجرية ، أيا كان نوعها . وهم ليسوا مخطئين تماماً عندما يقولون ذلك ، والسبب فى ذلك أن العشائر الرئيسية ، فى هذه المنطقة ، مثل طائى ، وتغلب والتنوخ كانت نصرانية بدرجة أو بأخرى ، فالتنوخ كانت كلها نصرانية، فى حين كان السواد الأعظم من تغلب وطيئ من النصارى أيضاً، ولم تكن تلك القبائل تدين بالنصرانية بشكل عابر ، وإنما استمر اعتناقها النصرانية قروناً طويلة .

هذا وتكشف الأدبيات ، والآثار ، والموروث الشفهى ، الخاصة بعزلة الجزيرة العربية ، تكشف بطريقة قيمة ، عن مثيلاتها ، فى أى مكان آخر ، أن النصرانية ، قبل مجيء دين محمد (ﷺ) ، كانت تنتشر فى كل أنحاء شمالى الجزيرة العربية ، ناهيك عن كل من نجران فى اليمن ، وحضرموت ؛ كما تشهد هذه الأشياء أيضاً ، على أن ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، كان مأهولاً بعدد كبير من السكان ، ويتمتع بدرجة

(١) المَرْل : بفتح الميم وتسكين الراء ، طين غنى بكربونات الكالسيوم يستعمل سماداً (المترجم) .

كبيرة من الازدهار والحضارة عما هو عليه حاليًا ، ولم تغب عن ذهن العرب ، تلك النتيجة الواضحة ، التى مؤادها أن النصرانية ، بصورتها هذه ، إنما ترتبط بشكل أو بآخر بكل من الرفاه الوطنى والتقدم ؛ لم تغب هذه النتيجة عن ذهن الاقتصاديين السياسيين العرب ، الذين يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، فسيتخلص نتيجة عملية يقرها العرب ويعترفون بها ، برغم أن عقبات كثيرة تحول دون تنفيذ هذه النتيجة ، وإذا قدّر لهذه النتيجة أن تنفذ ، فى يوم من الأيام ، فلن اندهش مطلقًا ، بعد كل ما رأيت وسمعت فى أماكن كثيرة ، رغم أن شيئًا مماثلاً ، يمكن تنفيذه عن طريق عمل وطنى على أرض وطنية ، والسبب فى ذلك ، أن التعاطف والاندماج بين الآسيويين والأوربيين قليل جداً ؛ وهذه الحقيقة - تستثنى منها الحدود الغربية فى الوقت الراهن - نجدها تتجسد فى مثال واضح تماماً ، نقرأ عنه فى الحوليات الدموية الخاصة بالتمرد الهندى الذى حدث مؤخراً . زد على ذلك ، أن الغرب لا يفهم الشرق أو سكّانه فهماً جيداً ، كما أن درجة معرفة الغرب بالشرق ، قليلة جداً ، علمًا بأن هذه المعرفة ، هى الخطوة الأساسية ، التى يجب أن يخطوها الغرب استهدافًا للتأثير على الشرق ، من هنا فأنا لا أتوقع حدوث تغير أخلاقى أو دينى كبير فى الجزيرة العربية ، أو فى أى مكان آخر من آسيا ، عن طرق الوكالات الأوربية ، اللهم باستثناء أن يكون مثل هذا التأثير والتغيير إلى الأسوأ . وهنا أجدنى أدخل فى موضوع أعمق من بئر شقيق نفسه ، وربما كان هذا الموضوع أكثر ظلاماً بالنسبة لكثير من القراء ، ولذلك فأنا أفضل العودة فوراً إلى ضوء النهار المعتاد، وإلى أحداث السطح ، مبتعداً عن أحداث العمق .

وبينما رحت أفلسف الأمور على هذا النحو ، كان رفاقنا العرب يصيحون ، ويضحكون ، ويتجاذبون ، ويسحبون من ماء البئر دلواً بعد آخر ، إلى أن ملأوا قرب الماء عن آخرها . وانقضى وقت الظهيرة ونحن فى المكان نفسه ، ولم يعد أمامنا وقت نضيعه ، الواقع ، أن مخزون الماء الذى أصبح فى حوزتنا ، يكاد يكفى الفترة الزمنية المحددة ، وبخاصة فى جو حار من هذا القبيل ، وعليه ركبنا جمالنا ، التى تركناها تخزن قدراً كبيراً من الرطوبة فى أمعائها المعقدة ، وواصلنا المسير ، وفى أقل من نصف ساعة كنا قد تجاوزنا الغور الجيرى ، وبدأنا ندخل النفود ، ولكن أرجو أن يأذن لى الرحالة والقراء ، بأن أتوقف قليلًا قبل أن نواجه أقسى متاعب الرحلة كلها .

الفصل الثالث

النفود وجبل شومر

لتبحر لمياه أفضل

لتدرك مياه أفضل ترفع أشر عنها

سفينة إلهامي التي تترك وراءها بحراً يا لقسوته

دانتي

النفود – فكرة عامة عن الصحراء – وصف النفوذ – سلوك البدو المرافقين لنا – أعلام السعد – أخبار عنيزه – نظرة من بعد على جبل جبه – مجموعة خيألة شومر – جبه ، المنطقة المجاورة لها – الحاكم عُقيل – النفود الثاني – المنخفض الرملي والآبار – جبل شومر – قناة – لقيطة ووُسيطَة – معنى كلمة "نير" – منظر حائل أول مرة – القصر ، مبانيه وساحته الخارجية – الخدم والناس – سيف كبير الياوران – تعارف غير منتظر – ترسانة طلال ؛ قهوته – المسجونين – شخصية طلال وحاشيته – اللقاء الأول – العشاء والأشواق – منزلتنا – عبد المحسن ، تاريخه وشخصيته – تاريخ شومر – السكان القدامي – حال شومر – تحت حكم الخلفاء – الفوضى بعد الخلافة – عبد الله بن الرشيد ، محاولته ومغامراته الأولى – تجنيده لخدمة تركي بن سعود في الرياض – الحملة على الأحساء – عبد الله ومشاري – تأسيس الأسرة المالكة الجديدة في شومر – القضاء على بيت عالي – حكم عبد الله – الأحداث الرئيسية – الحروب والهزائم – الشروع في بناء الحي الجديد والقصر في حائل – طلال يخلف عبد الله – غزواته – السياسة الداخلية والخارجية – موقفه من نجد – الحكومة العثمانية ، مصر ، وبلاد فارس – صفاته الشخصية ، أسرته – عقد اجتماع عام لـ ـ عوازم الشرارات .

إذا قلت بنات الصحراء الكبرى ، مصداقا للعبارة العربية ، فإن "النفود" ، أى الممرات الرملية ، بينها وبين الأم الكبرى الطاردة تشابها كبيراً ، وما قيل عن أصل النفود ، ومداها ، وأوجهها المختلفة ، وعن علاقتها بالدهناء أو ما يسمى بصحراء الجنوب الرملية الرئيسية ، كل ذلك يعفينى من الدخول فى تفاصيل هذه الصحراء الجغرافية ، يكفينى أن أقول هنا إن النفود عبارة عن سلسلة من الجبال أو المداخل ، إن جاز لى أن أقول ذلك ، إلى محيط الرمال الكبير الذى يغطى ثلث شبه الجزيرة العربية ، التى تشكل هذه الممرات الرملية طرقًا داخلية عميقة داخل الهضبة الخصبة فيها ، بل إن هذه الممرات تكاد تتقاطع مع هذه الهضبة ، وشكل النفود العام ، الذى سوف أتناوله فى الصفحات القليلة التالية ، سوف يعطى القارئ فكرة صادقة تنطبق بدورها على الدهناء ، أو إن شئت فقل ، "الصحراء الحمراء" ، والعرب ، بطبيعتهم ، يميلون إلى التخصيص بدلا من التعميم ، وهم يعدون هذه البحار الرملية بالعشرات ، ولكن كل هذه الممرات الرملية يمكن تصنيفها إلى أربع مسارات رئيسية ، وأن كل من يعبر الصحراء يتحتم عليه أن يجتاز اثنين من هذه المسارات ، وربما ثلاث ممرات مثلما فعلنا نحن .

الشكل العام للجزيرة العربية عبارة عن سهل مركزى واسع ، تحيط به حلقة صحراوية ، رملية فى الجنوب ، والغرب ، والشرق ، وصخرية فى الشمال ، هذه الدائرة الصحراوية ، محاطة بدورها ، بسلسلة من الجبال ، منخفضة وجدباء فى معظمها ، ولكنها ترتفع ارتفاعًا كبيرًا فى كل من اليمن وعمان ، كما يزيد أيضًا عرض هذه السلسلة ، وخصوبتها ، فى كل من اليمن وعمَان ؛ وفى المنطقة التى تلى اليمن وعمان ، تظهر حافة ساحلية ضيقة يتاخمها البحر ، ومساحة السهل الأوسط تقل عن نصف مساحة شبه الجزيرة العربية كلها ، يضاف إلى ذلك ، فى أغلب الأحيان ، منحنيات النفود وممراتها ، وإذا ما أضفنا ، الطائف ، وجبل عسير ، واليمن ، وعُمَان ، والأحساء ، أو باختصار ، جميع الأراضى الخصبة التى تدخل ضمن الحلقات الخارجية ، إذا ما أضفنا هذه الأراضى ، إلى ذلك السهل ، نجد أن ثلثى الجزيرة العربية عبارة عن أرض منزرعة ، أو قابله للزراعة ، على أقل تقدير ، أما الثلث المتبقى فهو عبارة عن أرض غير قابلة للزراعة ، وتقع فى جنوب الجزيرة العربية ، ولكن معظم المسافات ، التى فى الاتجاهات الأخرى ، والتى وردت شاغرة ، فى خرائط هذا البلد ، عبارة عن مؤشرات إلى عدم وجود أية معلومات أو سكان فى تلك المناطق ، وعلى كل حال ، فنحن أمامنا الآن ، مجرد شريط من الأرض ، ومن سوء طالعنا أنه مجرد

شريط فقط ، من الأرض الصحراوية المنفرة ؛ تنتظرنا بعده أراض أفضل ؛ ولعل ذلك يكون حافزًا لنا ، مثلما قال الشاعر العربى القديم ، الذى استوحيت منه عنوان هذا الفصل ، على دخول النفود وعبورها .

لقد سمعنا الكثير عن النفود من المواطنين ، إلى حد أن قررنا وعقدنا العزم على القيام بشئ مخيف تمامًا وغير معقول ، غير أن واقع الأمر ، خصوصًا فى أيام الشِّعْرى هذه ، كان أسوأ بكثير مما سمعناه أو تخيلناه .

وبدأنا عبور ذلك المحيط الهائل من الرمال السائبه التى يميل لونها إلى الاحمرار ، ولا تدرك العين مداها ، ومكومة على شكل سلاسل هائلة متوازنة مع بعضها وتتجه من الشمال للجنوب ، موجة أثر أخرى ، ويصل متوسط ارتفاع كل منها إلى مائتى أو ثلاثمائة قدم ، وجوانبها منحدرة ، وقممها مستديرة ومثلمة فى جميع الاتجاهات بسبب العواصف الصحراوية المتقلبة ، والرحالة ، يجد نفسه فى الأعماق ، التى بين هذه التموجات الرملية ، كما لو كان مسجونًا فى حفرة رملية ، تحيط بها جدران مشتعلة من كل جانب ؛ فى حين أنه ، يشاهد ، عندما يحاول صعود المنحدر ، بحرًا هائلاً من النيران ، التى تتوهج بفعل الرياح الموسمية الثقيلة ، وتزعجه لفحه حرارية عمودية ، على شكل موجات صغيرة شديدة الاحمرار ، ولا تجد العين أو الأطراف راحه ولا مأوى وسط هذه السيول الضوئية والحرارية التى تنهال من الأعلى على الوهج الذى يجيبها من الأسفل .

هكذا كان يتكلم بين ألسنة اللهب الأبدية
حيث الرمال تتقد كالسنارة
تحت منبعثة ستضاعف الآلام

دانتى

أضف إلى ذلك إرهاق كدح ليالى الصيف الطويلة المضنية – الأفضل أن أقول إننا كنا نخوض فيه – التى كنا نسير خلالها فى الرمال المفككة المحرقة ، ونمر على حيوانات كئيبة ، لا تنام سوى ساعات قليلة متقطعة أثناء الليل ، ولا تعرف للراحة طعمًا أثناء النهار لعدم وجود مأوى تأوى إليه ، وليس لديها ما تأكله أو تشربه ، فى

(*) الشِّعْرى : الفترة من أوائل يوليو وأوائل سبتمبر وتتميز بجوها القائظ الشديد الرطوبة فى نصف الكرة الشمالى – (المترجم) .

حين بدأ الماء الذى معنا ، يركد ويتغير لونه ، ويتناقص حجمه بسبب البخر وليس بسبب الاستعمال ، وشمس عمودية ، تلك الشمس ، التى تتساقط علينا أشعتها المحرقة إلى أن تفوح من ملابسنا ، ومتاعنا ، والأشياء التى نستعملها فى الإيواء ، رائحة الاحتراق بل يتعذر علينا أن نلمسها بأيدينا ، وتحدثت مع رفيقى قائلاً : "لو قدر لهذا الاحتراق أن يكون أبديا ، لَقُلتُ أنه الجحيم" ، ولكن رفيقى اكتفى بالانحناء على جَمَلِه دون أن يقول : شيئًا ، وسرعان ما تبدد مرح البدو الصارخ ، إذ تبعثروا ، واحد فى المقدمة ، وآخر فى المؤخرة ، وراح كل واحد منهم يسير فى طريقه ويلفه صمت غريب لا يكسره سوى زمجرة غضب الجمال ، ونحن نضربها ، وغالبًا ما كنا نضربها ، مستهدفين بذلك اسراع الخطى .

كنا قد غادرنا بئر الشقيق ، بعد فترة قليلة من دخول ظهر اليوم العشرين من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وواصلنا مسيرتنا بقية نهار ذلك اليوم ، وليله كاملًا ، والسبب فى ذلك أن المسافر عبر النفود ، لا يستريح سوى مرة واحدة كل أربع ساعات ، بما فيها تناول العشاء أيضاً ، لأننا إذا لم نصل إلى الجانب الآخر من النفود قبل أن ينتهى مخزون الماء الذى لدينا ، فذلك يعنى هلاكنا لا محالة ، والواقع ، إننا على امتداد الأربع والعشرين ساعة الماضية التى قضيناها فى تلك المجازات ، إن كان لى أن أسميها باسمها العربى ، لم نتوقف فيها سوى ساعة واحدة ، ويمر علينا اليوم الحادى والعشرون من شهر يوليو من العام ١٨٦٢ الميلادى ، الذى يوافق يوم الاثنين ، مثل اليوم السابق ، بطيئًا ، بل بطيئًا جداً ، ونحن نكابد العناء نفسه ، وسط مشاهد مملة لا تتغير . ومعروف أن الرمال السائبة لا تسمح بنمو أى شكل من أشكال الحياة النباتية ؛ بل إن نبات الغاضة ، شأنه شأن النباتات الأخرى التى تشبه نبات الغريبسون ، والتى لا يحتاج نموها إلى تربه أو رطوبة ، يكاد يكون شحيحاً ؛ ويكاد نموه ينعدم هنا ؛ هذا يعنى أن أى كائن من الكائنات الحية لا يجد فى هذا النفود مأوى أو مرعى ، قد ترى فى بعض الأحيان مدقا ، ولكن فى أغلب الأحيان لا نرى شيئًا على الإطلاق ؛ لأن السطح الرملى المتحرك ، يمحو آثار أولئك الذين عبروا تلك الصحراء (النفود) مؤخراً .

عند هذه المرحلة لاحظنا فى أسلوب رفاقنا من عرب الشرارات ، وبخاصة صغار السن منهم ، لاحظنا فيهم شيئًا من الألفة الوقحة جعلتنا نحتاط لأنفسنا منهم ؛ إذ من عادة البدوى ، عندما ينتوى السلب أو النهب أو الخيانة ، أن يحاول فى البداية ، جس نبض الضحية ، وإذا ما تبين فيها شيئًا من التخوف والاستسلام ، فإنه يعتبر ذلك

إشارة له كي يمضي قدمًا في خطته ، وأفضل الأساليب لمواجهة ذلك ، هي أن يبدو المرء متجهمًا ويلزم الصمت ، مع شيء من التأنيب القاسي ، من حين لآخر ، وذلك من قبيل التخويف ، وهذا بدوره يخيف الهمجي مثلما يتراجع الكلب الذي ينبح ، في مواجهة التحدي ، وتصرفنا على هذا النحو طول الوقت ، وكنا نختلي بنفسينا أوقات كثيرة ، وعندما كنا نقترب من قُطَّاع الطرق ، كنا نقلل من كلامنا ، بل إن ذلك الكلام كان لا يتعدى الحديث الودي ، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ يظهر على الوقحاء الكسوف والخجل ، وتراجعوا عما كانوا يريدون الإقدام عليه ، على حين راح رئيسًا من رؤساء العوازم ، كالح الوجه ، يستحث جملة كي يسير إلى جانب جملي ، متذرعًا بطلب المشورة الطبية ، ولكن مقصده الحقيقي من وراء ذلك ، هو التعبير عن الود والصداقة و الاحترام ، كان من الطبيعي ، أن أقابل عروضه تلك بشيء من التحفظ البارد والتجهم ؛ وهنا بدأ يعتذر عما بدر من "الغشم" ، "الأوغاد قليلي التربية" من جماعته ، وأكد لنا ، أنهم ، مع كل ذلك ، لم يضمروا لنا شيئًا سيئًا ؛ وإن الأمر لا يعدو أن يكون نقصًا في التربية ؛ كما أبلغونا أيضًا أن الجميع أخوة لنا ، خدم لنا – إلخ – الخ . وقبلنا اعتذاره من منطلق أهميتنا ، وتحدثنا عما كان يمكن أن نفعله أو ما كنا سنفعله – وأنا أخشى أن يكون قليلاً جداً ، إذا ما اضطرتنا الأمور إلى ذلك – ثم تطرقنا بعد ذلك إلى حديث ودي ، وبعض المعلومات الفنية ، التي تتعلق بأوجاعه والتي يستوعبها ذكاؤه .

ولكني علمت ، بعد ذلك ، من بدو الشومر ومن رجال الجوف أن وفد الشرارات الموقر ، ظن أننا جمعنا ثروة طائلة تحت رعاية حامود ، ولذلك فكر جديًا في انتهاز فرصة الوحدة في هذه الصحراء ، ويسلب ما معنا ، ثم يتركوننا بلا ماء أو جمال ، نحاول شق طريقنا بنفسنا خارج النفود، وهذا شيء مستحيل، وقد أسروا بهذه الخطة ، إلى بدو الشومر ، على أمل أن يساعدوهم على تنفيذها ، غير أن بدو الشومر ، الذين كانوا على علم تام بقيود الحكم المجاور لهم ، تخوفوا من النتائج التي قد تترتب على ذلك ؛ وكانوا على يقين أيضًا ، أن طلال بن الرشيد ، إذا ما علم بشكل أو بآخر ، بهذه المؤامرة ، فمن المحتمل أن يكون هو بنفسه الموصي له الوحيد ، ومنفذ حكم الإعدام ، وحده ، وأشياء أخرى كثيرة . وبناء عليه ، رفض بدو الشومر الاشتراك في هذه المؤامرة ، في حين سارع المتآمرون ، الذين لاحظوا من تصرفاتنا أننا بدأنا فعلًا نشك في صدق نواياهم ، سارعوا إلى رأب الصدع ، قبل أن نتوصل معهم إلى تسوية مُذِلَّة

لهم عندما نصل إلى حـائل ، وذلك عن طريق شكوى ضـدهم ، بشأن اعتـزامـهم خيانتنا .

إذا كنت تقوم برحلة يصحبك فيها بعض البدو ، وكان عددهم يقل أو يتساوى مع عدد من معك ، فتصرف وفقًا لما تراه - تحدث ، إمرح ، أو الزم الصمت ، فالأمر كله سيان ، ولكن إذا زاد عدد البدو على عدد الرحالة ، فإن المنفذ الوحيد لأمنك وسلامتك هو أن تكون جاداً ، وملتزماً ومتجهماً ، وقبل كل ذلك، إياك أن ترفع الكلفة بينك وبينهم ؛ إذ لابد من تطبيق المثل الذى يقول : يعطى بوصة ويأخذ ذراعاً ، على هؤلاء البدو .

وعند غروب شمس اليوم التالى شاهدنا قمتين هرميتين من أحجار الجرانيت الداكنة ، ترتفعان من بين موجات الرمل ، على طريق سيرنا ، والناس يطلقون على هاتين القمتين اسم "أعلام السعد" لأنهما تشيران إلى أن الرحالة قد قطعوا بالفعل ثلث المسافة ما بين بئر الشقيق وجبل شومر ، وتظهر هـاتان القمتـان مثـل جزيرتان أو بالأحرى تبدوان مثل الصخور التى تبرز من البحر بالقرب من مصب نهر تاجوس ، أو مثل جزر المالديف فى وسط المحيط الهندى العميق ، وجذور هاتين القمتين لابد أن تتمثل فى القاعدة الصخرية التى تنتشر عليها هذه الطبقة الرملية انتشار ماء البحر فى حوضه ؛ وسوف نقابل ، فيما بعد ، ظواهر مماثلة فى مواقع صحراوية أخرى ، من الواضح أن الطبقة التحتية هنا من الجرانيت ، وفى أغلب الأحيان تكون من البازلت ، وفى بعض أحيان أخرى ، قد تكون طبقة كلسية (جيرية) ، أما فيما يتعلق بمتوسط عمق الرمل ، فأنا أقدره بحوالى أربعمائة قدم ، ولكنها قد تكون أكثر من ذلك بكثير ؛ لقد شاهدت أغواراً يصل انحدارها العمودى إلى ستمائة قدم .

واصلنا رحلتنا وأعلام السعد تبدو داكنة اللون أمامنا ، إلى أن اقترب منتصف الليل ، بقدر معرفتى لحساب الزمن عن طريق النجوم ، المقياس الزمنى الوحيد الذى توفر لنا (وهذا المقياس ليس شيئًا فى هذه السماوات الصافية) ، واقتربنا من هاتين الكتلتين الصخريتين الضخمتين ، وكنت قد منيت النفس ، بلا طائل ، بوقفة بهذه المناسبة ، وليتها حدثت ولو لنصف ساعة فقط ، "وواصلنا المسير" ، ولم تصدر أوامر النزول من على الجمال إلا بعد أن ظهر نجم الصباح أسفل الثريا[١] مباشرة ، وسقطنا على الأرض بدلاً من أن ننزل عليها ؛ وقبل شروق الشمس ، كنا قد استأنفنا المسير من جديد .

(*) الثريا : ستة نجوم ساطعة ، وواحدة لا ترى بالعين المجردة ، فى كوكبة الثور (المترجم) .

وسرعان ما وصلنا إلى قمة سلسلة هائلة من التلال الرملية ، ونادانا دجيديع ، وهو يشير إلى الأمام ، "انظرا إلى الأفق" ، وشاهدنا ، عند الأفق ، قمة زرقاء تشبه السحابة ، وأخرى إلى جوارها منخفضة عنها ، وقال دجيديع "هذه هي جبال جبّه ، وهي تعد أقرب الحدود إلى جبل شومر" وعندما خطر ببالي حَالُ قَربِ الماء ، وكيف خَفَّت وبدأت تصطفق بجنب الجمل ، كانت أول فكرة تخطر ببالي : "وكيف سنصل إلى هذه الجبال؟ " : وبدت الجماعة كلها كما لو كانت رجلاً واحداً ، إذ راحوا جميعاً يَجِدُّوا في المسير أكثر من ذي قبل .

وبالقرب من جبال جبه صادفنا مجموعة صغيرة من البدو الرُّحل ، قادمين من الجنوب ؛ ومن خلال كلامنا معهم ، عرفنا أنباء الحرب الدائرة في منطقة القصيم ، بين الملك الوهابي والمشايعين لعنيزه ، الحرب التي سنراها ونسمع كل ما يتعلق بها فيما بعد ، والتي سوف نعرف أيضاً ، نتيجتها المأساوية ، برغم أن ذلك لن يكون قبل العام المقبل ، عندما سنكون على وشك مغادرة الجزيرة العربية .

وتمكنا ، في هذه الأثناء ، من الانزلاق على الرمل ، الذي كان ينحدر انحداراً شديداً من المكان المرتفع الذي كنا فوقه، واختفت فجأة ، عن أنظارنا ، بشكل مؤسف ، قمم جبال جبه ؛ ولم نعد نراها ثانية إلا بعد أن أصبحنا بالقرب من سفحها ، عند حافة النفود .

والغريب أننا كلما مضينا قدما ازدادت الصحراء قفرا ، وازددنا ، نحن ، بدورنا يأساً ونحن نسير في أمواجها الرملية الخالية من الحياة ؛ وعند الظهيرة انقسم الوفد إلى قسمين متباينين ، Sauve quipeut قسم انتهت كل مؤنه ، سواء أكانت جافة أم سائلة ، ومجموعة أخرى أفضل حالاً قليلاً من المجموعة الأولى ؛ وراح كل فرد في المجموعتين يحاول أن يعيش على القليل ، الذي لديه ، أملاً في الوصول إلى أرض الراحة والسلامة ؛ وكان من الطبيعي أن نبقى سوياً ، أنا ورفيقي دجيديع ، وفجأة استرعى انتباهي ، ثلاثة عصافير ، كانت تشقشق ، داخل أجمة على جانب الطريق ، كانت تلك العصافير ، أول طير نراه في تلك الصحراء ، كما كانت تلك العصافير مؤشراً أيضًا إلى اقترابنا من الأراضي الزراعية ومن الحياة ، وهنا خطرت ببالي واحدة من حكايات الطفولة ، التي كنت استمع إليها وأنا جالس مستريح إلى جوار المدفأة ، عن ترحيب بعض البحارة الذين كانوا في عرض البحر ، أظن أن لم تخنى

ذاكرتي ، أنهم كانوا كولومبس ورفاقه ، وبعد أن أمضوا أيامًا وشهورًا في المحيط الموحش ، إذ بطائر ، جاء من شاطئ لم يكتشفوه بعد ، ليحط على سارية الشراع ، وصاح رفيقي من شدة الفرح .

ومع ذلك ، كان الطريق ما يزال طويلاً أمامنا ، وأمضينا فترة المساء كلها لم نتوقف خلالها إلا ساعة واحدة تناولنا خلالها عشاء هزيلاً ، ثم أمضينا الليل أعلى وأسفل المتاهة المتموجة ، كما لو كنا رجالاً وقعوا في أحابيل ساحر ، كُتِبَ عليهم الترحال والتجوال دون أي تقدم إلى الأمام ، وخلال فترة الظلام ، التي تسبق طلوع الفجر ، صادفنا مجموعة تضم حوالي ستين خيالاً ، مسلحة ببنادق الفتيل والحراب ؛ كان هؤلاء الخيالة جزءاً من حملة أرسلت بناء على أوامر من طلال بن الرشيد لكسر شوكه بعض بدو التِّعيًّاها Tey'yahha المتغطرسين في المنطقة المجاورة لـ تيماء Teymah.

وطلع النهار علينا ، وكنا لا نزال نخوض في الرمال ، وفي ضوء النهار كنا نرى رفاقنا ، وهم يخوضون في الرمال ، كما لو كانوا بقعًا سوداء تنتشر هنا وهناك ، إحداها بعيدة على جمل عتيد ، وأخرى في المؤخرة ، تسير خلف الجمل ، وتستحثه على النهوض ، بأن تغرس سكينًا ، لمسافة بوصة ، في فخذ الجمل ، في حين نرى بقعة ثالثة في المؤخرة تمامًا ، كان كل واحد منا يرعى شئون نفسه ، في حين أن الله كان يرعانا جميعًا ؛ وعليه أسرعنا الخطى ، ونحن نتطلع شوقًا إلى رؤية جبال جُبّه ، التي لم تعد بعيدة عنا ، وعند الظهر ، أصبحت جبال جبه في مرمى أبصارنا ، بل قريبة منا على الجانب الأيمن ، صخور وبرية رائعة ، تحيط بكل حواف بحر الرمال ، وسرنا بحذاء هذه الجبال ، إلى أن وصلنا منعطف ظهر عنده سهل جبه بكل مناظره الطبيعية وملأ علينا أبصارنا .

في هذا السهل طالعتنا سلسلة كبيرة من صخور الجرانيت السوداء ، المشوبة باللون الأحمر ، ويصل ارتفاعها إلى حوالي سبعمائة قدم ، من باب التخمين ؛ ويوجد من خلف هذه السلسلة سهل قصير كبير ، يميل لونه إلى اللون الأبيض وتكسوه قشرة من الملح في بعض أجزائه، كما أن هناك بعضًا آخَر مزروعًا ، وتتخلله بيارات النخيل ، التي نستطيع أن نتبين قرية جبه بينها ، التي تشبه قرية الجوف من حيث الترتيب

والشكل العام ، مع استثناء واحد فقط، إنها أصغر من الجوف وليس بها قلعة أو برج ، ومن خلف الوادي ، كان هناك خط ثان من التلال الرملية اللامعة ، ولكن قرية جبه أقل بدائية وأقل قـفـراً عن القرى التي تقع إلى الخلف منا ، في حين تراءت لنا من بعد سلسلة جبال شومر ، سلسلة من الجبال أرجوانية اللون مثلمه القمم وواضحة المعالم ، ولو قدر لنا أن نكون هناك آنئذ ، وصعدنا ، مثلما فعلنا فيما بعد ، قمم تلك الجبال التي في الناحية اليمنى ، لرأينا أيضًا في أقصى الجنوب الغربي بقعة خضراء بالقرب من الأفق ، تتجمع فيها مزارع نخيل تيمه ، ذلك المكان الشهير في التاريخ العربي ، وهناك فرضية تقول : إن ذلك الاسم مأخوذ من اسم تيمان الذي ورد في الأسفار المقدسة .

ولكن الذي كان يستحوذ على فكرنا ، أكثر من التيمانيين أو التيمان أيًا كانوا في اللحظة الراهنة ، هو قطرة الماء العذبة ومأوى من شمس شهر يوليو الحارقة ، ولم يفقد جملي صوابه ، لأنه ليس له صواب ، وإنما تعبت أرجله ، ولم يعد يقوى على التقدم ، في حين وصلت أنا من التعب والإعياء حداً ، لم أتمكن عنده من حث الجمل ، وأمضينا ساعة كاملة في عبور شريط أبيض ضيق من الملح المختلط بالرمل ، الذي كان يتوسط المسافة بيننا وبين القرية .

كانت خيمة مرشدنا النبيل منصوبة خارج أسوار حدائق جبة ، وكانت زوجته وأسرته ينتظرون ، بشوق ، وصول عائلهم ، ووجه دجيديع الدعوة إلينا – إذ لم يكن بوسعه أن يتصرف ، طبقًا لتقاليد جبل شومر ، بأقل من ذلك – للإقامة والعيش معه في منزله ، ولم يكن أمامنا خيار آخر ، غير قبول هذه الدعوة ، وبناء عليه ، تركنا جمالنا تلقى بنفسها على الأرض ، محتضرة أو تحتضر بالقرب من المسكن المؤقت ، ودخلنا خيمة دجيديع لنشرب ماء مخلوطًا باللبن الحامض، ونحتمي من حرارة الشمس، تحت غطاء مهلهل مصنوع من شعر الماعز الأسود .

ومع دخول المساء ، وبعد أن سقى دجيديع جمالنا من بئر الحديقة القريب منا دعانا إلى القيام بزيارة مجاملة إلى عقيل ، الحاكم المحلي للقرية ، أحد مواطني القرية نفسها ، ولكنه يعمل لحساب طلال بن الرشيد ، وسلطته مستمدة منه ، وكان هدف دجيديع ، من القيام بالزيارة في ذلك الوقت بالذات ، هو ضمان وجبه عشاء طيبة ، وهذا شئ لا يستطيع منزله المتواضع توفيره ، وليس من بين السيدات العجوزات المهيبات اللاتي ورد ذكرهن عند توماس يونج ، أو اللاتي ورد ذكرهن في عصرنا

الحاضر من ينطبق عليها الوصف التهكمي التالي ، أكثر من هذه العجوز ، زوجة دجيديع :

لإفطارها الخاص سوف تبتكر حيلة ،

ولا تشرب الشاي بدون خدعة ،

هذا الوصف ينطبق على البدوية في الظروف التي من هذا القبيل ، ولكن مع استبدال كلمة "عشاء" بكلمة "افطار" واستبدال كلمة "الشاي" بكلمة "التمر" .

وقد فرح رفيقي، الذي أوحى له منظر خيمة دجيديع اليائس، بمطبخ بائس أيضًا ، فرح رفيقي ، عندما أصابت مناورات دجيديع ، وهذا هو أقصى ما في وسع بدوي من هذا القبيل ، نجاحًا لدى عقيل ، الحاكم المحلي فقد أتحفنا عقيل بالدعوة المطلوبة ؛ وانتهى النهار بعشاء جيد وأمسية حيه ، أتحف دجيديع ، خلالها ، المجموعة كلها ، برقصة غير مألوفة شاركه فيها العبد الذي يُصلِّح القهوة عند الحاكم المحلي .

وفي اليوم التالي ، بقينا بلا حراك والتزمنا الهدوء ، وكان الجميع سعداء بفترة الراحة التي سبقت رحلة الأيام الثلاثة ، التي نصل بعدها إلى حائل ، كنا في بعض الأحيان نتسلق الأماكن المرتفعة استهدافًا لتوسيع مجال رؤيتنا ، وفي أحيان أخرى كنا نتجول خلال القرية العشوائية ونتكلم مع سكانها ؛ وهنا عثرنا ، في البداية ، على دلائل لا تقبل الشك، عن ذلك الولاء التأليهي العميق ، الذي يحظى به اسم طلال بن الرشيد ، في كل أنحاء جبل شومر ، يضاف إلى ذلك ، أن هدوء الأحوال واستقرارها في جبل شومر ، يعد على النقيض من الفوضى التي شهدناها مؤخرًا في الجوف ، وكذلك الحرب التي دارت فيها . معنى ذلك أن الهدوء والاستقرار كانا سمتين من سمات جبل شومر ، ومع ذلك ، فإن تربة جبة غير خصبة ، وبرغم أن إنتاجها ، هو من نفس إنتاج التربة التي خلفناها وراءنا ، إلا أنه كان يقل كثيرًا عنه من حيث الجودة . والشئ العجيب في هذا الوادي هو اختلاط ينابيع الماء المالح مع ينابيع الماء العذب ؛ أذ لا يفصل هذا عن ذاك سوى يا رادات قليلة ، إضافة إلى انتشار هذه الينابيع بشكل عشوائي في كل أنحاء المستوى الواحد.

والقرية ، عند هذه المرحلة من رحلتنا ، تشبه الجوف ، إلى الحد الذي يعفيني من الدخول في التفاصيل الخاصة بالمنازل، والحدائق وما إليها ، ولكن يمكنني أن أضيف هنا ،

وذلك اعتذاراً منى عن الاختصار والإيجاز فى الوصف ، إننا أثناء مرورنا على مناطق جبل شومر المختلفة ، وأن هذه المواقع كلها تقريباً ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، لها نفس الشكل المتناثر غير المنسق ، وأنها خليط من المنازل والأراضى الزراعية ، فضلاً عن كونها أيضاً مزارع وطرق فرعية ، كما أنها تفتقر أيضاً إلى التحصينات والدفاع ، وهذا هو ما يميز هذه القرى والمواقع ، عن قرى نجد المُؤَمَّنة والمُحَصَّنه تحصيناً جيداً ، وتدل على الحفاظ على الأمن والسلامة بصورة مستمرة ؛ ولكن يضاف إلى ذلك ، يا أسفاه ! إهمال كل ما يعرف فى أوربا باسم التماثل ، الذى لا يعرف عنه العربى الحقيقى الذى يسكن شمالى الجزيرة ، أى شئ سواء أكان ذلك العربى نائماً أو مستيقظاً ، وأنا أشير بالتحديد هنا إلى عرب الشمال ، لأن السكان فى كل من الأحساء وعُمَان ، يعرفون قوانين التناسق المعمارى ويلتزمون بها ، زد على ذلك أيضاً أن قوانين التناسق المعمارى ليست معدومة تماماً فى كل من وسط نجد وجنوبها .

ومع شروق شمس الخامس والعشرين من شهر يوليو من العام ١٨٦٢ الميلادى ، غادرنا قرية الجُبَّه ، وعبرنا الوادى فى اتجاه الجنوب الشرقى ، ودخلنا ، من جديد ، صحراء رملية ؛ ولكن هذه الصحراء ، كما سبق أن قلت ، لها طابع أكثر اعتدالاً وجفاء عن صحراء النفود الموحشة ، التى كنا نخوض خلالها منذ يومين فقط ، والرمل فى هذه الصحراء ، تكثر فيه الأدغال المتناثرة ، كما أنها لا تخلو تماماً من الأعشاب والحشائش ، فى حين أن التموجات السطحية ، التى تمتد ، على حد سواء ، من الشمال إلى الجنوب ، طبقا للقاعدة العامة التى تحكم هذه الظاهرة ، ليست مطروقة تماماً، برغم عدم اختفاء آثار اجتياز هذه الصحراء اختفاءً تاماً، مشينا النهار بكامله ؛ وعند حلول المساء وجدنا أنفسنا على حافة منخفض واسع ، ينحسر الرمل فيه عن جميع الأجناب ، الأمر الذى يكشف عن الطبقات الجيرية الموجودة أسفل هذه الرمال ؛ وهنا وجدنا الأضواء التى تتلألأ بين خيام البدو ، فى أعماق الوادى ، تدعونا إلى أن نجرب حظنا ، فى الحصول على عشاء مبدئى قبل وقفة المساء ، ومع ذلك ، دار بيننا نقاش كبير ، حول الهبوط إلى ذلك الغور ، نظراً لشدة انحدار الرمل فى هذه المنطقة ، فى حين أن شكل هذا المنخفض الدائرى ، وطابعه الحلزونى كان يذكرنى بالرواية التى كتبها إدجاربو Edgar Poe بعنوان "الدوامة العنيفة" ، ليتنى كنت أعرف تلك الراوية

الأصيلة ، هؤلاء العرب ، الذين قصدناهم ، طلبًا لوجبة العشاء كانوا رعاة من أفراد قبيلة شومر كبيرة العدد، التى يستقى كل من المنطقة والسهل والجبل ، أسماءهم منها . ورحب بنا هؤلاء الرعاة لأننا سنشاركهم عشاءهم، الذى كان عبارة عن طبق طيب من الأرز بدلًا من الجريشه أو السمح الذى لا طعم له ولا رائحة وتلك إشارة إلى أننا بدأنا نقترب من الحضارة ، زد على ذلك ، أن الصخرة الجيرية ، التى نصبت الخيام على أطرافها ، توفر لهذه الخيام من خلال الأجزاء المرتفعة فيها ، مصدراً مائيًا غزيراً ، ومن هنا تحول هذا المنخفض إلى ملتجأ للبدو وحيواناتهم ، كما هو الحال فى آبار مَجْوَعْ ، التى أتينا على ذكرها فى فصل سابق .

والمنخفضات التى من هذا القبيل يشيع وجودها وسط الرمال ، وهى توجد بطريقة عفوية تمامًا ، وهى تبدو مستثناه من القوانين العامة التى تحكم الصحراء ؛ وأنا بدورى ، لا أستطيع أن أتجرأ على فرضية من الفرضيات ، واستخدامها فى تفسير الطريقة التى تتكون بها المنخفضات التى من هذا القبيل ، وأحجام هذه المنخفضات الكبيرة ، هى التى تحميها من الامتلاء بالرمال ؛ والمنخفض الذى مررنا به تلك الليلة ، لا يقل اتساعه عن ربع ميل تقريبًا ، من الحافة إلى الحافة ، علاوة على أن عمق ذلك المنخفض لا يقل ، بأى حال من الأحوال ، عن ثمانمائة قدم تقريبًا ، وإذا كان لابد من وضع فرضية ، لتفسير نشأة وتكوين هذه المنخفضات ، فأنا أرى أن التموجات الرملية الهائلة ، التى تتعاقب بشكل واضح تمامًا ، من الغرب إلى الشرق ، والتى لا يتوقف هبوبها على صحراء النفود ، فى الجزيرة العربية ، يرجع السبب الرئيسى فى نشأتها إلى دوران الأرض اليومى وعدم اتصال حركتها السطحية السريعة بالمادة السائبه والمفككة الموجودة على سطح الأرض ، ولكن ذلك لا يعد تفسيراً رئيسيًا للمنخفضات المتقلبة ، التى تحفرها الطبيعة ، من وقت لآخر ، فى تلك الأراضى الخراب ، والتى تتجوف بشكل دائرى يدعو ، بحق إلى الدهشة والاستغراب ، وقد رأيت هذه المنخفضات ، فى كل من النفود والدهناء ، وفى الصحراء الجنوبية والشمالية ، على حد سواء ؛ وهذه الظاهرة ، ترجع فى أساسها ، إلى تراكم الرمال بصورة هائلة ، وليس إلى أى شكل من أشكال الرياح ، أو أى مرحلة من مراحل الظواهر الجوية ، فى هذه المنطقة ، والسبب فى ذلك، أن موجات الصحراء المتوازية ، تكون واحدة فى كل مكان ، شريطة أن يكون عمق الرمال كافيًا لتحقيق هذه الظاهرة .

ومع طلوع النهار استأنفنا مسيرنا ، ومررنا بأعداد كبيرة من رعاة الإبل وقليلاً من الأغنام والماعز ، وقبل حلول وقت الظهر ، كنا قد تجاوزنا المنطقة الرملية ، وبدأنا نسير على أرض زلطية متماسكة . وفي هذه المنطقة تمتعنا بوقفه منتصف النهار ، لمدة ساعة كاملة ، في ظل كهف طبيعي ، حفر داخل صخرة مرتفعة من صخور الجرانيت ، وهذا الكهف ، بحد ذاته ، يعد حرسًا متقدمًا ، للقوة الرئيسة التابعة لجبل شومر . كانت تلك السلسله من الجبال ، ترتفع أمامنًا ، وذلك على العكس تمامًا ، من أي سلسلة من السلاسل الأخرى ، التي شاهدتها من قبل ؛ كتلة ضخمة من الحجر والصخور شديدة الانحدار ، مكوِّمة تكويمًا غريبًا غير منتظم ، وتتخلل هذا التكوين وديان خضراء ، تتوسطها بعض المنازل ، كانت الشمس لم تغرب بعد ، عندما وصلنا قرية قينه K.enah الجميلة ، الواقعة بين بيارات النخيل والماء ، ولكنها ليست ، بأي حال من الأحوال ، مثل عيون الجوف الجارية ، ولكن القرية تستفيد من الري الصناعي من مياه الآبار والدلاء . وعلى بعد مسافة من المنازل ، كانت هناك ، مجموعة من الأشجار ، يتراوح عددها بين ثلاث وأربع شجرات ، وارفه الظلال ، تحظى باحترام الفلاحين لها وتوقيرهم إياها ، مثلما كانت في فلسطين ، كان استقبال السكان لنا وترحيبهم بنا ، عندما نزلنا من على جمالنا أمام منازلهم ، ترحيبًا وديًا ، ومفعم بالكرم ، بل ، أقول : إنه كان ترحيبًا مؤدبًا ومحترمًا ؛ وتناولنا وجبة طيبة ، اتبعناها بصحن من العنب على سبيل التحلية وضعوه أمامنا في شرفه أحد المنازل الصغيرة الجميلة – ذكرني بأكواخ المزارع الإنجليزية ودعانا صاحبه إلى قضاء فترة المساء فيه ، وأعرب كل أهل القرية ، عن رغبتهم في أن يستفيدوا من خبرتنا الطبية ؛ وعندما أجبناهم ، بأننا لا نستطيع أن نفتح محلنا إلا في العاصمة حائل ، قرر عديد منهم زيارتنا في العاصمة ؛ وبرُّوا بوعدهم ، رغم أن ذلك كلفهم رحلة طولها أربع وعشرين ميلًا .

استيقظنا مبكرًا جدًا ، كان طريقنا ممهدًا ومطروقًا ، ويمر بين سلاسل جبلية مكونة من صخور شديدة الانحدار ، ترتفع ارتفاعًا مفاجئًا ، من أرض السهل المستوية التي تكسوها الحشائش ؛ وكان الطريق في بعض أجزائه يمر خلال ممرات عميقة ، وفي بعض أجزائه الأخرى كان يطل على مساحات واسعة ، كنا نرى فيها الأشجار والفلاحين ، في حين كانت أعداد عابري السبيل ، سواء أكانوا زرافات أو وحدانا تتزايد كلما اقتربنا من العاصمة وقبل دخول وقت الظهر بفترة قصيرة ، بدأنا نشاهد قرية كبيرة اسمها لقيطة Lak.eet.ah، والتي عرَّجنا عليها لنأخذ قسطًا من الراحة ،

من حرارة الشمس ، في منزل أحد السكان الأثرياء ، وكان يحيط بكل مزرعة ومنزل من هذه المنازل ، شئ من العصرية والأمن ، يندر أن نراه في أى جزء من أجزاء الجزيرة العربية ، في أيامنا هذه ، اللهم باستثناء عُمَان . وينبغي أن أشير هنا ، إلى كثرة الأشجار الصغيرة وزيادة الأراضي التي ضربت من حولها السياجات (الأسوار)، وهو منظر بهيج حقًا ، يتعزز أكثر وأكثر بعدم وجود الخرائب ، التي يشيع وجودها في شرقي الجزيرة العربية ، وبخاصة في الممتلكات العثمانية ؛ من هنا ، يظهر شومر ، بشكل عام ، عندما نقارنه بالمناطق أو الممالك الأخرى المحيطة به ، قاصيها ودانيها ، يظهر هذا الشكل وكأنه قطعة من النقود ، جرى سكها حديثًا ، تتلألأ بكل نقائها وبريقها ، بين كومة عمله متكررة من العملات المعدنية المشوهة ، جبل شومر ، إبداع حديث ، يكشف عما تكون عليه الجزيرة العربية ، في ظل حكم أفضل مما هو سائد الآن في معظم أجزائها : وقد عزز من هذه النتيجة الحقيقة التي مؤداها أن جبل شومر ربما يكون أقل مناطق وسط الجزيرة العربية حظًا من حيث الخصوبة الطبيعية التي لا يتدخل الإنسان فيها .

يصل عدد منازل قرية لقيطة إلى حوالي أربعين منزلاً ، وبالتالي يصل عدد سكانها إلى حوالي أربعمائة نسمة ، لا أكثر ولا أقل ، وذلك تأسيسًا على العملية الحسابية الشائعة في هذه البلاد ، والتي تقدر عدد سكان كل منزل بما يتراوح بين ستة وسبعة أفراد ، وبعد أن ركبنا جمالنا ، ومضينا في طريقنا ، شاهدنا ، قرية أكبر من قرية لقيطة ، هي قرية وسيطة Woseyt.ah بالقرب من الطريق الرئيسي ، التي كان من المفروض أن يتركنا عندها دجيديع ويذهب لقضاء فترة المساء ، ولكن الواقع اننا بدأنا نشعر بالقلق ، و نتلهف على الوصول إلى نهاية رحلتنا ، ولذلك شددنا على دجيديع ، أننا لن ، نتوقف ، تحت أى ظرف من الظروف ، قبل وصولنا إلى العاصمة ، حائل .

وأصبحنا في هذه المنطقة ، قريبين تمامًا من العمود الفقري في جبل شومر الذي بدأت صخوره التي تميل إلى الاحمرار ، ترتفع في أشكال غريبة عن يميننا وعن شمالنا ، في حين كان هناك صَدْع (شَقّ) ضيق يصل إلى السهل المستوى الموجود في الأسفل ويفتح الطريق إلى العاصمة ، ومن الصعوبة بمكان ، إدخال جيش إلى هذا الشق (الصدع) الضيق ، على غير رغبه السكان ؛ إذ بوسع خمسين من الرجال

الأشداء ، أن يتحكموا ، فعلاً ، في هذا الممر ويقفون في وجه الآلاف ، زد على ذلك ، أن حائل لم يكن لها أي مدخل آخر، من ناحية الشمال ، غير هذا الممر ، ومدينة حائل ، تقع في وسط الجبال ؛ ولذلك ، حجبتها عن أنظارنا تماماً انحناءات الطريق ومروره بين كتل ضخمة من الصخور ، زد على ذلك ، أن السهل من قرية جبة إلى مدينة حائل ، يأخذ في الارتفاع تدريجياً ، ويمر بين سلاسل الجبال مثلمة القمم ، التي يتجه مسارها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، هذا السهل يجتاز ثلثي الجزء العلوي من شبه الجزيرة العربية ، وهو بمثابة التحصينات الخارجية للجزء المرتفع من وسط الجزيرة العربية . ومن هنا جاء الاسم "نجد" الذي معناه الحرفي "الأرض المرتفعة" ، وذلك في تباين واضح مع كل من المناطق الساحلية والمناطق ، قليلة الارتفاع الأخرى ، التي تبعد عن المنطقة الوسطى ، ومن هنا أيضاً ، نجد كلمة "طَلاّع" 'Talaa التي معناها "طلع" تنطبق على أولئك الذين يقومون برحلات من المحيط الداخلي ؛ في حين نجد أيضاً كلمة "انحدر" anhader بمعنى "نزل" تطلق على الرحالة ، الذين يبدأ مسارهم من المركز متجهاً إلى مكة والاحساء ، والجوف .. إلخ .

ويجب أن أورد هنا ، سطراً أو سطرين عن تفسير الاسم "نجد" ذاته ، وهذا الاسم يطلق بصورة عامة على المنطقة المحصورة بين جبل شومر من ناحية الشمال والصحراء الكبرى من ناحية الجنوب ، ومن آخر سلسلة جبل طويق من ناحية الشرق إلى المنطقة الغربية من طريق الحج التركي ، أو ما يطلق عليه اسم درب الحج ، ناحية الغرب ، وعلى كل حال ، فإن السكان يقسمون هذه المنطقة الوسطى ، التي تشكل ، إذا ما نظرنا إلى الخريطة ، متوازي أضلاع ضخم ، يمتد مائلاً عبر منتصف الجزيرة العربية ، من الشمال الشرقي متجهاً ناحية الشرق ، إلى الجنوب الغربي متجهاً ناحية الغرب ، يقسم السكان هذه المنطقة إلى ، نجد الأعلى ، ونجد الأوطى ، وسوف نورد الكثير ، عن هذا التقسيم فيما بعد ، في حين يعد جبل شومر ، بمثابة ملحق لـ ـ نجد ، بدلاً من اعتباره جزءاً من المنطقة نفسها ، ولكن العرب يستبعدون الجوف من كتالوج المناطق المرتفعة ، برغم أن غير العرب ، يُدْخِلون الجوف ، في بعض الأحيان ، ضمن الاسم "نجد" بطريق الخطأ ، والسبب في ذلك ، أن الجوف يعد واحة مستقلة ومدخلاً إلى الأراضي العالية ، أو إن شئت فقل الجزيرة العربية من الداخل ، ولا يعد الجوف جزءاً من المنطقة الداخلية ، من الجزيرة العربية بشكل مباشر .

وأنا على يقين ، أن هذه التفاصيل الطبوغرافية ، وما سيأتي منها فيما بعد ، ربما يساعد إلى حد ما ، في تصحيح التسميات الخاطئة التي زحفت على خرائط المنطقة ؛ وهذا لا يعني التركيز على اسم بعينه ، وإنما الهدف هنا ، أن هذه الأخطاء تساعد ، في بعض الأحيان ، على ظهور بعض الأفكار الخاطئة ، مما يؤدي إلى تشويه صورة الجزيرة العربية كلها ، من كافة الوجوه .

كانت المسافة الزمنية التي تفصل الشمس عن أفق الغروب ، قرابة الساعتين ، عندما دخلنا الشِّعب الضيق المنحني ، إلى أن وصلنا طرفه الآخر ، وهنا وجدنا أنفسنا على حافة سهل كبير ، يصل طوله وعرضه إلى عدة أميال ومحاط من جميع الأجناب، بمتاريس أو استحكامات جبلية عالية، في حين كانت تقع مدينة حائل أمامنا ، على بعد مسيرة ربع ساعة ، وكانت تحيط بهذه المدينة تحصينات يصل ارتفاعها إلى حوالي عشرين قدماً ، وبها بعض أبراج لتمركز الجنود وفيها مساحة كبيرة ، وبوابات كبيرة تفتح وتغلق بطريقة الطي ؛ وأوحت المدينة لنا بشئ من المعاصرة ، بل وبشئ آخر من قبيل الأناقة غير المعتادة ، التي طالعتنا من قبل في القرى التي مررنا عليها ، ولكن الواضح ، أن حائل ، كانت مدينة بمعنى الكلمة ، فضلاً عن أن مساحتها كانت تتسع لحوالي ثلاثمائة ألف نسمة أو ما يزيد على ذلك ، لو أن شوارعها ومنازلها كانت متجاورة وقريبة من بعضها مثل شوارع ومنازل كل من بروكسل وباريس . ومع ذلك ، فإن عدد سكان حائل ، لا يزيد ، في واقع الأمر ، على عشرين أو اثنين وعشرين ألفاً ، وذلك بفضل الحدائق الكبيرة الكثيرة ، والساحات الكبيرة ، وكذلك المزارع ، التي تدخل ضمن الأسوار الخارجية للمدينة ، في حين أن قصر الملك الضخم ، هو وملاعب الترفية الملحقة به ، يشغل حوالي معشار مساحة المدينة كلها ، واسترعى انتباهنا برج كبير ، يصل ارتفاعه إلى حوالي سبعين قدماً ، تم إنشاؤه مؤخراً ، وهو بيضوي الشكل ، يدخل ضمن القصر الملكي ، والسهل من حول المدينة ، تتخلله بعد المنازل والحدائق المنفصلة ، المملوكة للسكان الأثرياء ، أولاعضاء الأسرة المالكة ، كما تظهر على الحدود الخارجية للسهل البيارات التابعة لقرية كفار ، وقرية العودة ، وبعض القرى الأخرى الموجودة عند مخارج الممرات الجبلية المؤدية إلى العاصمة ، وبدت لنا أسوار المدينة ، صفراء اللون ، في ضوء الشمس عند المساء ، وكان الهدف من كل ذلك ، هو الأمن ، والمنظر الجميل ، رغم أن كل هذه الإنشاءات كانت تفتقر إلى الحياة النباتية الوفيرة في وادي الجوف ، وإلى جوار تلك المتاريس ، أقيمت بعض خيام البدو ، كما كان ذلك

العدد الكبير من الخيالة ، والمشاة ، والجمال ، والحمير ، والفلاحين ، والحضر ، والأولاد ، والنساء ، وما إلى ذلك ، وهم يجيئون ويروحون ، تصريفًا لأمورهم ، كل ذلك كان يضفي بهجة وحيوية على المشهد الذي نشاهده .

عبرنا السهل ، ثم اتجهنا إلى بوابة المدينة التي في مواجهة القلعة ؛ وبعد ذلك ، وبصعوبة كبيرة رحنا نلح على جمالنا أن تمشي في الشارع الذي تحفُّه جدران عالية من الجانبين ، وأخيراً وصلنا إلى الساحة الواسعة أمام القصر ، لم يكن يتبقى على غروب الشمس سوى ساعة واحدة ، أو بالأحرى أكثر من ذلك قليلاً ؛ كانت الحركة اليومية قد انتهت في مدينة حائل ، في حين كانت الساحة الخارجية ، التي نقف فيها الآن ، مزدحمة بالمتسكعين على اختلاف أشكالهم وأحجامهم ، وبركنا جمالنا بالقرب من بوابة القصر ، إلى جوار أربعين أو خمسين آخرين ؛ ثم تراجعنا إلى الخلف استهداف لإراحة أطرافنا المرهقة على مقعد من الحجر في مواجهة البوابة ، ورحنا ننتظر ما سيحدث لنا بعد ذلك .

ولكن قبل أن ينطبق علينا المثل العربي الذي يعزو سوء الطالع إلى أحداث المساء ، هيا بنا نلقي نظره على ذلك المشهد الغريب ، والمشهد غريب ، بمعنى الكلمة ، على الشخص الأجنبي ، ولكنه عارٍ تماماً من منظور عبقريه السكان والمكان . أمامنا الآن جدران القصر الطويلة المصنوعة من اللبِّن ، وهي سميكة جداً ويصل ارتفاعها إلى حوالي ثلاثين قدمًا ، مثقبه بالقرب من الأعلى بثقوب ، هي مزاغل في واقع الأمر ، وليست نوافذ ، وتشغل مساحة طولية من جدران القصر ، تتراوح بين أربعمائة وخمسين وخمسمائة قدم ، والبوابة الرئيسية ، موضوعه ، طبقًا للعرف السائد ، على شكل زاوية منحسرة في الجدار ، ويوجد على جانبيها برجان مربعان ؛ وهناك أيضًا نتوءات شبه دائرية تبرز إلى الأمام من فراغ إلى الذي يليه بطول واجهة البوابة . ومن تحت الظل الناتج عن البوابة ، يوجد مقعد طويل مصنوع من اللبِّن والحجر ؛ كما لاحظنا أيضًا في منتصف هذا المقعد ، مقعداً مرتفعًا ، يحتله أو يشغله ، أو يجلس عليه صاحب الجلالة عندما يقابل شعبه ، ويقع قصر الأمير متعب ، الشقيق الثاني ، لـ طلال بن الرشيد ، ضمن مجمع مباني القصر الملكي ، ولكن له مدخل مستقل .

وعلى الجانب الآخر من الساحة المكشوفة ، أي في المكان الذي نجلس فيه الآن ، هناك سلسلة كبيرة من المخازن والمساكن الصغيرة ، لكل منها قفل ومفتاح . ويجرى

فى هذه الأماكن ، تخزين جميع السلع والبضائع الخاصة بالحكومة ؛ وفى هذا المكان أيضًا ، ينزل ، طلال بن الرشيد ، بوصفه حاكمًا عامًا ، ضيوفه ومريديه ؛ والسبب فى ذلك ، أن الغريب ، كائنًا من كان ، لا يسمح له مطلقًا بالنوم داخل جدران القصر . ويوجد فى الاتجاه نفسه ، ولكن فى مكان قصى من الساحة ، وفى مواجهة قصر الأمير متعب ، المسجد الكبير العام ، أو إن شئت فقل الجامع . وعند ناصية الجامع ، تطل الساحة على السوق الجديد ، الذى سنقوم بزيارته غداً ، وعلى الجانب الآخر ، لهذه الفتحة ، ولكن فى صف الجامع نفسه ، يوجد منزل زامل ، وزير الخزانة ورئيس الوزراء أيضًا . وأنا لا أقر أن توحيد كل هذه المناصب ، فى شخصية واحدة ، يعد عملا دستوريًا تمامًا ، ولكن يبدو أن هذا الأمر ناجح هنا تمامًا ، علاوة على أنه يخفف من عبئ المرتبات الحكومية ، وهذه ميزة كبيرة جداً فى الدول العربية الفقيرة ، أخيراً ، هناك بوابة كبيرة عند نهاية الساحة ، وتسمح بالدخول إلى الشارع الكبير العام ، الذى يتقاطع بزاوية قائمة مع الساحة ، ويفضى إلى الأعلى والأسفل بطول المدينة وعرضها .

وعند الطرف المقابل من هذه الساحة الكبيرة ، يدخل شارع كبير آخر يفضى إلى السهل ، ويتصل بالبوابة الثانية التى مررنا منها منذ لحظات . وفى نهاية هذا السور ، وفى مقابل القصر نفسه، توجد منازل اثنان أو ثلاثة من كبار موظفى القصر؛ وأخيراً ، يوجد باب منخفض ، يفضى إلى منزل عبيد ، وحدائقه الواسعة ، وعبيد هو عم الملك الحالى ، وهو شخصية مهمة ، أشرنا إليها بالفعل عندما تحدثنا عن حملة الجوف . ويكفى ما قلناه عن هذا الرجل ؛ إذ سوف ينتهى بنا الأمر أن نكون من معارفه الشخصيين والمقربين .

وبالقرب من البوابة ، يوجد عدد كبير من الموظفين الثانويين بعضهم واقف ، والبعض الآخر جالس على منصة البوابة بالقرب من مدخلها ، رهن الإشارة ، هؤلاء الرجال مهندمون تمامًا ، من جميع الجوانب، وهم يرتدون ثيابًا بيضاء ومشالح سوداء ، تشبه مشلح حامود ، الذى وصفنا ملبسة منذ وقت قصير ؛ ويمسك كل واحد منهم فى يده ، عصا لها طرف من الفضة وهذه العصى ، تشبه تلك العصى التى تستعملها تلك الطائفة المحترمة من الرجال ، الذين يطلق البشر عليهم اسم شمامسة الكنيسه ، وهذه العصا تميز من يحملونها عن أولئك الذين يؤدون الطلبات والخدمات المنزلية ، ولكن يبدو أن الغالبية العظمى من هؤلاء الموظفين ، هى من العسكريين ، إذ يحمل كل واحد

منهم سيفًا له مقبض من الفضة ، والمقاعد الموجودة على جانبى الساحة ، تغص بجمهور كبير من المواطنين المتفتحين ، الذين يفدون من دكاكينهم ومن منازلهم ، ليستمعوا إلى الأخبار ويتناقلوها ، ويستنشقوا نسمات المساء ، وقليل من هؤلاء المواطنين ، باستثناء النبلاء يحملون السلاح ؛ ومع ذلك ، فإن مظهرهم العام مبهج ، البعض منهم ، يرتدون الملابس المعتادة ، ومظهرهم غريب ، ويبدو عليهم التدين ، ولابد أن يكونوا من نجد ؛ ولكن مظهر ، رجل القصيم ، يوحى على العكس من ذلك بشئ طفيف من عدم التقيد بالرسميات ، وفى منتصف الساحة نفسها ، يجلس بين الأعيان عدد كبير من الناس ، تعبيرًا عن الأخوة والمساواة العربية التى تجمع بينهم ، برغم أن ملابسهم الرثة وملامحهم الجامدة توحى بأنهم يمتهنون الميكانيكا ، أو من الفقراء . ويختلط بهؤلاء الناس مجموعة من البدو ، تعرفهم بملابسهم المهلهلة وتملقهم ، وأخس الناس ، على مقياس البدو الموجودين هنا ، هم بدو الشرارات الأفظاظ ، يليهم بدو الصليبة الأكثر غلظة وفظاظة ، فى حين يوجد أهل شومر ، فى أعلى جزء من ذلك المقياس ، بحكم إنهم ، أقرب الناس للحضر من ناحية وحديثهم الراقى إلى حد ما ، بسبب تكرار اختلاطهم بالعالم المتحضر .

وتحدث حركة ضئيلة عندما نظهر أمامهم أول مرة ، ونتبادل التحية المعتادة مع أقرب الموجودين إلينا ، وتتقدم مجموعة من الفضوليين ، لتستطلع ماذا نكون ومن أين جئنا ؟ ثم تتحول هذه المجموعة الفضولية إلى دائرة كثيفة من البشر ، وتنهال علينا الأسئلة ، أولاً ، عن مرشدنا ، دجيديع ، ثم بعد ذلك عن أنفسنا ، وجاءت إجاباتنا عن تلك الأسئلة مقتضبة بشكل معقول ، وفى ذات الوقت ، يقترب منا شخص نحيف ، متوسط الحجم ، تعلو وجهه ابتسامة توحى أنه من رجال الإتيكيت ، وهو ما يناسب عمله فى البلاط الملكى . زد على ذلك أن ملابس ذلك الشخص الأنيقة والبسيطة ، كذلك العصا المحلقة بحلقات من الفضة ، التى يمسكها فى يده ، وأدائه للتحية أداء محترماً وأسلوبه الذى يوحى بالأدب ، كل ذلك يدل على أن ذلك الشخص ، من حاشية القصر . هذا الشخص هو سيف ، كبير ياوران القصر وتتمثل مهمته فى استقبال الأغراب وتقديمهم للأمير (الملك) ، ونقف لتحية سيف الذى يحيينا بطريقة رقيقة قائلاً : "السلام عليكم يا أخوان" وألقى علينا هذه التحية ، ملفوظة لفظًا صحيحًا ، مبينًا فيها مواقع النبر تبيانًا لا يمكن أن يتشكك فيه النحاة . ورددنا عليه التحية بمثلها ، وكان أول سؤال يوجهه سيف إلينا هو : "من أين جئتم حفظكم الله ؟" كنا نعلن عن أنفسنا

على إننا أطباء من سوريا ، بطبيعة الحال ، والسبب في ذلك ، أننا كنا قد تخلصنا ، في الجوف ، من الجزء الأكبر من بضائعنا ، وقررنا ، من الآن ، الاعتماد فقط على مهنة الطب ، ثم أردف سيف متسائلاً : "وما الذي تودونه ، من مدينتا ؟ وفقكم الله !" "نحن نطمع في كرم الله أولاً ، ثم كرم طلال بن الرشيد" ، وقد قصدنا بهذا الرد أن يجيء متسقًا مع أصح وأدق صيغ رد التحية التي بدأنا نستوعبها في هذه البلاد ، وعقب ذلك مباشرة ، يبدأ سيف حلو المعشر ، في تعديد مناقب كرم سيده ، وصفاته الحلوة الأخرى ، ثم يؤكد لنا أننا قد وصلنا فعلًا إلى الديار الصحيحة .

ولكن يا أسفاه ! فبينما كنت أنا ورفيقي نتبادل النظرات الجانبية عن التحية المتبعة مع مثل هذه البدايات الجميلة ، استيقظت نميسس[١] Nemesis فجأة لتطالب بحقها ، وبدأت تخيم على صفاء أفقنا سحابة لم تكن متوقعة ولا مرغوب فيها . ومما لاشك فيه ، أن القارئ يعلم ، أن أهم شئ عندنا وبالنسبة لنا ، هو التنكر الكامل ، وبخاصة إخفاء كل ما يربط بيننا وبين الأصل الأوربي أو الشخصية الأوربية، والواقع ، أننا لو انكشف أمرنا على إننا أوربيين ، لضاعت منا حرية الوصول والاقتراب ، وحميمية الاتصال بأصحاب الأرض ، ولما استطعنا المضي قدمًا في رحلتنا إلى نجد . كانت هذه أهم المنغصات التي كان من الممكن أن تواجهنا لو أننا انكشف أمرنا ؛ يضاف إلى ذلك ، كثير من المنغصات الضارة الأخرى التي يمكن الوقوف عليها ، إلى حد الآن ، لم يحدث بعد ، أي شئ يستثير الشك ، إذ لم يتعرف أحد علينا بعد ، أو تظاهر بأنه يعرفنا . ونحن ، بدورنا ، كنا نظن أن غزه ، ومُعَان ، وربما الجوف ، كانت بمثابة الأماكن التي يخشى منها على ذلك التعرف ، ولكننا عُرِفْنَا من شخص غير مضيفنا ، معنى ذلك ، أن الخطر الأول الحقيقي كان ينتظرنا في حائل ، داخل حدود نجد ، حيث يفصلنا الحزام الصحراوي كله عن معارفنا القدامى .

والسبب في ذلك أنني ، عندما كان سيف يستعرض أولويات تأدبه ، أفزعني أن أرى ، من بين الدائرة البشرية الكثيفة التي كانت تحيط بنا ، شكلاً ، أو أن شئت فقل : "وجهًا عرفته منذ أقل من ستة شهور في دمشق ، بل إنه كان معروفًا من كثير من الآخرين أيضًا ، مرة يعمل بالتجارة ، ومرة أخرى يعمل حرفيًا ، ومرة ثالثة مقاولاً من

(١) نميس Nemesis : ربة الانتقام عند الإغريق القدامى (المترجم) .

الباطن ، وهو ذكي ، مقدام ، ونشيط برغم أنه يناهز الخمسين من العمر ، سني متحمس، تربطه علاقات حميمة بكثير من الأوربين المرموقين تمامًا في سوريا وبغداد ، وخلاصة القول ، أن هذا الرجل متعود على كل أنواع الرجال ، ولا يمكن لأحد أن يستغفله .

وبينما كنت أُحَملِقُ ، خائب الأمل في صديقي ، وأتشكك في كونه هو أم لا ، تلاشت كل الشكوك عندما حياني بتحيته التي تشع فرحًا وسرورًا ، وبنغمة واثقة من صديق قديم ، واتبع ذلك بأسئلة ، تدعو إلى الدهشة والعجب ، عن الريح التي قذفت بي إلى هنا ، وعما أنتوى عمله هنا في حائل .

ولم يكن أمامي إلا أن أحدق في وجهه ، وأنظر إليه نظرة بلا معنى ، أملاً في أن يقبل رد التحية ، ثم نصمت بعد ذلك .

ولكن المصائب لا تأتي فرادى ، فبينما كنت أتخذ ذلك الموقف الدفاعي ، في مواجهة غريم خطير في شخص صديق سهل ومعتاد ، إذ بشخص طويل ، تنم ملامحه عن الشر، يحضر إلينا ، صبي يلبس ملابس أهل القصيم ، ويتدخل في الحديث قائلًا : "وأنا أيضًا رأيته في دمشق"، وراح يحدد في ذات الوقت ، زمان ومكان وتاريخ اللقاء ، محددًا بذلك الظروف التي جمعتنا، والتي تحدد هويتي كأوربي من العظم إلى النخاع ، جسدًا وروحًا .

ترى ، هل قابلني ذلك الرجل مثلما قال فعلاً ؟ أنا لست في حل أن أقول ذلك بدقة؛ فالمكان الذي ذكره ذلك القصيمي ، هو عبارة عن مكان يلجأ إليه في معظم الأحيان أولئك الرجال ، أشباه الجواسيس ، وأشباه الرحالة ، بل كل المتآمرين من المناطق الداخلية ، بل ومن نجد ذاتها ؛ ولما كنت أنا نفسي ، أعلم أنني زرت ذلك المكان أكثر من مرة ، فلا بد أن يكون سائلي واحدًا من أولئك الذين كانوا موجودين في مناسبة من تلك المناسبات ، لدرجة أنني ، إذا كنت لا أعرفه الآن معرفة دقيقة ، فإن احتمال دقته وصدقه المشئوم كبير جداً ، زد على ذلك ، أن مجيئ هذا القصيمي ودعمه لتأكيدات الشاهد الأول ، زاد ورطتي سوءًا وخطرًا .

ولكني قبل أن أتوصل إلى الرد أو القرار المطلوب ، وكيف أتصرف مع هذين الشخصين ؟ جاء شخص ثالث ، وضع خيوط اللعبة في أيدينا ، عندما أخطأ الهدف ، وحيَّاني هو ، بدوره أيضًا ، على أنني صديق قديم ، ثم استدار بعد ذلك إلى من

يحيطون بنا ، ورفع عقيرته بشكل غير عادى ، وبفضول المندهش وهو يقول "وأنا بدورى أعرفه حق المعرفة ، لقد التقيت به مراراً فى القاهرة ، حيث يعيش فى بحبوحة وثراء فى منزل كبير بالقرب من القصر العينى ، إن اسمه عبد الصليب ، وهو متزوج ، وله ابنه جميلة جداً ، تركب حصاناً غالى الثمن" ، إلخ .. إلخ .

ووجدت كلام ذلك الشخص كله مختلق أو إن شئت فقل : اكتشفت خطأ فى كلام ذلك الرجل (لأنى لا أعرف شيئاً عن ذلك الحصان الذى يتحدث عنه) مما أعطانى الفرصة أن أرفض كل ما قاله ، ورددت عليه قائلاً : "أصلحك الله ! أنا لم أعش قط فى القاهرة ، ولم تحصل لى قط بركة ركوب الخيل ، وليس لى ابنه" . ثم نظرت بعد ذلك ، نظرة شذر ، إلى مكتشفى الثانى ، والذى بدأت شكوكى تثور من حوله تماماً وقلت له : "أنا لا أذكر أنى رأيتك مطلقاً فى حياتى ! فكر جيداً فيما تقول ! كثيراً من أمثالى لهم لحى حمراء ، وشاربان بلون القش" ، ومع ذلك لم أكلف نفسى مشقة أن أبدو "حريصاً على الرد عليه فى هذه المسألة" ولكنى رددت عليه كما لو كان يسألنى عن أصل هويتى . ولكن بالنسبة للشخص الأول ، من هذا الثلاثى ، لم أكن أعرف كيف أتصرف معه أو أجيبه على أسئلته ، ولذلك رحت أطيل النظر إليه بشئ من غباء الفضول ، كما لو كنت لا أفهم معنى ما يقول تماماً .

ولكن سيف ، الذى بدى عليه الترنح فى أول الأمر ، على أثر المعرفة الغامرة تأكد مرة ثانية من الارتباك الذى أصاب الشاهد الثالث ، وتوصل إلى قناعة مفادها أن الشاهدين الآخرين لا يعتد بكلامهما أيضاً ، ونادانا سيف ، وهو يقدم نفسه لنا قائلاً "لا عليك منهم ، إنهم كذابون ، كثيرو الكلام ! هيا بنا إلى قهوة القصر ، وأريحا نفسيكما هناك" ، ثم استدار سيف ، بعد ذلك ، إلى صديقى الدمشقى المسكين ، الذى كان ذنبه الوحيد أنه كان على حق ، وعنفه ومن بعده الآخرين ، واقتادنا جميعاً ، ونحن سعداء لأننا نتبعه ، خلال البوابة الضيقة المظلمة إلى داخل القصر الملكى .

وبعد أن مررنا بين صفوف من حملة العصى وحملة السيوف من العرب ومن الزنوج ، دخلنا إلى فناء صغير ، شاهدنا فيه ، مدفعية طلال بن الرشيد المخيفة ، موضوعة تحت مظلة بطريقة منظمة ، وهى تتكون من تسع قطع من المدفعية ، مختلفة العيار ، أربع منها فقط منها مركب على عربة مدفع ، ولا يصلح للعمل من بين هذه القطع الأربع سوى ثلاثة قطع فقط ، ومن بين هذه القطع الأربع الأخيرة ، مدفعى هاون

استعملها طلال بن الرشيد استعمالاً مهمًا فى حصار الجوف ، أما المدفع الثالث ، فكان مدفع ميدان ، مصنوع من النحاس الأصفر ويرجع تاريخ صنعة إلى العام ١٨١٠ الميلادى ، ويحمل رمزًا إنجليزيًا (يستحيل على من هو فى حوزته أن يعرف معناه) . وكانت بقية المدافع ، معطلة، بصورة أو بأخرى ، فضلاً عن كونها غير صالحة للخدمة ، ولكن الغريب فى الأمر ، أن هذا الظرف لم يكن معروفًا للعرب القريبين من هذه الأسلحة ، بل وربما لـ ـ طلال بن الرشيد نفسه ، زد على ذلك ، أن "ربات muses العسكرية كانت تعمل عملها فى التأثير على الناظرين إلى هذه القطع ، وتستثير فى داخلهم الخوف والفزع . ومن المعلوم أن الملك الوهابى ، هو الذى ساهم فى تزويد عبد الله بن الرشيد ، والد طلال بن الرشيد بهذه البطارية[1] المخيفة ، ومعروف أيضًا أن هذه البطارية ، جاءت عن طريق ميناء الكويت البحرى ، على الخليج الفارسى ، وعن طريق عملاء الحاكم الحالى فى الميناء نفسه ؛ وميناء الكويت عبارة عن مدينة صغيرة نشطه ، سوف نتناول ، فيما بعد ، علاقاتها مع الوهابيين فى الجنوب ، ومع طلال بن الرشيد فى الغرب .

تجاوزنا ذلك الفناء، ودخلنا فناءًا آخر ، كانت مساكن السيدات على أحد جانبيه ، ويفصلها عن المعاملات الدنيوية جدار أصم ، فى حين كانت القهوة على الجانب الآخر من ذلك الفناء . كانت القهوة عبارة عن مستطيل طوله حوالى ثمانين قدمًا وعرضه يزيد على أربعين قدمًا ، فى حين كان الارتفاع مناسبًا لهذه الأبعاد ؛ كانت دعائم السقف المسطح (نظرًا لأن العقود غير معروفه هنا) ترتكز على ستة أعمدة كبيرة مستديرة ، على شكل صف واحد رئيسى ، ومن الواضح أن القصر كان حديث الإنشاء ، جيد الإضاءة ، وأنيق ومنظم إلى حد بعيد . كانت أبعاد وجار القهوة تتناسب مع أبعاد الصالة نفسها، وكان يجلس إلى جواره عبد قوى ، نهض واقفًا عندما دخلنا القهوة . كان يجلس ، داخل القهوة ، قليل من الضيوف الذين جاءوا من المناطق المجاورة ، إضافة إلى بعض خدم القصر ، كما كان هناك رجلان ، كانت أرجلهما مقيدة بسلاسل من حديد، أخذ يتنقلان من مكان إلى مكان داخل المقهى، كان الرجلان من المساجين ، وقد أمر صاحب الجلالة باحتجازهما ، ولكنهما كان مسموحًا لهما بالتجول ، فى القهوة ، على سبيل الترفيه ؛ وهذا مثال عجيب بحق ، على الجانب الإنسانى فى

(١) البطارية : مصطلح عسكرى يدل على وحدة عسكرية مكونة من عدة مدافع – المترجم .

الشخصية العربية ، حتى لو كان ذلك تنفيذاً لحكم أو عقاب ، ولك أن تتخيل مقدار الدهشة التي يمكن أن تحدث عندما يدخل ، متمرد أو مدان إلى قصر تيوايركس Tuilerics أو إلى قصر بكنجهام ! كان أحد هذين المقيدين رؤيس من رؤيسات الجوف ، أحضره طلال بن الرشيد ، إلى حائل ، بعد استيلائه على منطقة الجوف ، ولم يتم بعد إطلاق سراحه ، وليس من المحتمل أن يتم ذلك قريباً ، غير أن هذا الرجل هو وصديقه لا يبدو عليهما التعاسة أو الشقاء .

ومكثنا في المقهى إلى أن أُعِدت القهوة وقدمت كما هو متبع ، ويعود إلينا ، سيف بعد أن تركنا برهة قصيرة ، ليبلغنا أن طلال بن الرشيد ، سوف يعود حالاً من رحلته المسائية التي يقوم بها إلى أحدى الحدائق لاستنشاق نسمات المساء ، وأننا إذا ما انتقلنا إلى الفناء الخارجي ، ستتاح لنا فرصة تقديم فرائض الاحترام لجلالته ، وأردف سيف قائلاً : إننا سوف نجد العشاء جاهزاً ، وبعدها سنقضي الليل في منزل طيب ؛ كما أبلغنا أيضاً أن القهوة وما فيها رهن إشارتنا وتحت تصرفنا طوال فترة تشريفنا حائل بإقامتنا فيها .

وتنفيذاً لما قاله سيف ، نهضنا وذهبنا مع سيف إلى الفناء الخارجي . كان الفناء يغص بالمواطنين أكثر من ذي قبل، وكان سبب ذلك ، هو انتظار ظهور صاحب الجلالة. وبعد ذلك ، بدقائق معدودات ، شاهدنا جمعاً كبيراً قادماً من الجانب العلوي للمكان ، أي من الجانب المطل على السوق ، على وجه التحديد ، وعندما اقترب منا أفراد هذا الجمع ، وجدنا أنهم جميعاً مسلحون ، ومعهم أيضاً بعض الشخصيات التي يدل مظهرها على أهميتها ، ولكن الجميع كانوا يمشون سيراً على الأقدام ، ووسط هذه الدائرة ، كانت هناك ثلاثة شخصيات تتقدم ببطئ رغم انعزالها عن المحيطين بها وكانت ثياب وتصرفات هذه الشخصيات ، إضافة إلى مسافة الاحترام التي كان الجميع يلاحظونها ويلتزمون بها ، تقول إنهم من مرتبة أسمى . وهنا قال سيف بنغمة خفيضة : "ها هو ، طلال بن الرشيد ، قادماً" .

كانت الشخصية ، التي في الوسط ، الأمير نفسه ، قصير القامة ، عريض المنكبين ، قوي البنيه ، داكن البشرة تماماً ، له شعر طويل أسود ، عينان سوداوان ثاقبتان ، ووجه ينم عن الصرامه أكثر من الانبساط والوضوح ، ويمكن أن نقدر عمره بما يزيد على أربعين عاماً ، برغم أن عمره لا يزيد على السابعة والثلاثين أو الثامنة

والثلاثين على أكثر تقدير ، كان خطوه محسوبًا ، وسلوكه رزينًا وفيه شئ من التعالى والشموخ ، أما ثيابه فكانت عبارة عن رداء طويل من الكشمير ، كان يغطى القميص العربى الأبيض ، ومن فوق كل ذلك مشلح متقن الصنعة ، مصنوع فى عُمَان ، من وبر الجمال ؛ وهذا المشلح يعد شيئًا نادرًا وذا قيمة كبيرة فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ، وكانت تزين رأسه ، غترة مطرزة ، ولم تستبعد خيوط الحرير أو الذهب من تطريز هذه الغترة ، وعقال على شكل عُصَابة عريضة ، مصنوع من وبر الجمال المجدول مع الحرير الأحمر، ومصنوع فى مدينة مشهد على ، وكان يتدلى ، على جنبه ، سيف مقبضه من الذهب ، أما ثيابه فقد كانت معطرة بطيب المسك ، المعد بطريقه تعجب حاسة الشم العربية اكثر منها الأوربية . أما نظراته فلم تهدأ قط ولو للحظة واحدة ؛ فتراه أحيانًا ينظر إلى القريبين منه ، وأحيانًا أخرى ينظر إلى الجمهور ، وأنا أعترف بأنى لم أر ، فى حياتى "عين نسر" من هذا القبيل ، فى سرعتها وفى ذكائها .

وإلى جوار ، طلال بن الرشيد ، كان يسير شاب طويل نحيف ، يرتدى ثيابًا من قماش أقل سعرًا ، ولكنه كان بهيج الألوان ، وأقل تطريزًا من ثياب الملك ، كما كان وجهه يكشف عن ذكاء وأدب غير معتادين ؛ ومع ذلك ، لم يكن سيفه مزينًا بالذهب ، لأن ذلك كان حكرًا على الأسرة المالكة وحدها ، ولكنه كان مزينًا بالفضة فقط .

كان ذلك هو زامل ، وزير الخزانة ورئيس الوزراء ، بل الوزير الأوحد ، لهذا الحاكم المطلق ، وقد انتشل عبد الله بن الرشيد ، الملك الراحل ، هذا الزامل من الشحاذة والتسول ، بعد أن رأى ، فى هذا الطفل اليتيم المهلهل ، دلائل على قدراته النادرة ، وظل زامل يحظى بفيض معروف راعيه الذى لا ينتهى ، بل إن زامل حتى بعد وفاة عبد الله بن الرشيد ، أصبحت له المنزلة نفسها ، وربما أكثر ، عند طلال بن الرشيد ، الذى رفَّعه من منصب إلى آخر إلى أن أصبح يشغل أعلى منصب فى المملكة بعد الملك ، ولما كان زامل مخلصًا لسيده ، ولما كان أصله العامى يبعده عن دائرة الحسد الأسرى الضار ، فقد أكسبه طبعه المحب المستقيم شهرة واسعة خارج نطاق القصر ، وجعله يحظى بتقدير سيده له ، داخل القصر ، فى حين أن إخلاصه غير العادى ، فى عمله ، إضافة إلى ذهنه المتقد الهادئ ، وكذلك الخدمات التى أداها للدولة بصفته المزدوجة (وزير الخزانة ورئيسًا للوزراء) ، كل ذلك جعل زامل - وهذا هو رأى الجميع - يستفيد من تلك الثروات الشخصية الهائلة ويكشف عنها بطريقة تلقائية وسخية تمامًا .

ولن أقول شيئًا الآن، عن تلك الابتسامة المحتشمة، التي علت شفتي عبد المحسن ، الرفيق الثاني للملك في مسيرته المسائية ؛ وسوف نلتقي عبد المحسن ، بعد فترة قصيرة ، كصديق حميم جداً ودائم .

ووقف الجميع عندما اقترب منهم طلال بن الرشيد ، وأشار لنا سيف بأن نتبعه ، وفسح لنا طريقًا خلال الجماهير ، ثم حيا مليكه بالتحية الرسمية المعتادة قائلًا : "السلام عليكم ، يا طويل العمر !" وهذه التحية أفضل من "حامي الحمي"Protector وأكثر تواضعًا ، وعندئذ نظر إلينا طلال نظرة ثاقبة ، ووجه سؤالًا ، بصوت خفيض ، إلى سيف ، الذى جاءت إجابته عن السؤال بنفس الصوت الخفيض . ثم نظر الأمير ، تجاهنا ، مرة ثانية ، ولكن وجهه ، فى هذه المرة ، كان يفيض وداً . واقتربنا منه ، ولمسنا يده المفتوحة ، وكررنا التحية نفسها التى حيا بها ، سيف ، مليكه ، فلا انحناء ، ولا تقبيل للأيدى ، ولا أية احتفاءات أخرى ، فى مثل هذه المناسبات ، ورد طلال التحية ثم همس لحظة إلى سيف ، دون أن ينبس لنا ببنت شفه ، وراح بعد ذلك يجتاز بوابة القصر .

وأبلغنا سيف قائلًا : "سيلقاكم الأمير لقاءا خاصًا باكر ، وسوف أراعى أن أخطركم بالموعد المحدد فى حينه ، كما أنكم معزومين على العشاء هذه الليلة" وكانت الشمس قد غربت بالفعل عندما دخلنا القصر بعد موكب الأمير ، فى هذه المرة ، وبعد أن تجاوزنا ترسانة الأسلحة ، استدرنا جانبًا لندخل إلى فناء كبير مربع الشكل ، يمتاز عن الفناء السابق ، بأنه تحيط به شرفه واسعة مفروشة بالحصير ، وفى داخل هذا السوُر كانت هناك نعامتان، أهداهما رؤساء قبيلة الصليبة، إلى طلال بن الرشيد ؛ كانت هاتان النعامتان تعدوان ، وتضفيان البهجة والسرور على الصبية العبيد ومساعدى الطهاة . الذين يعملون فى هذا المبنى ، وفى هذا المبنى ، أوصلنا سيف إلى الجانب البعيد من الفناء حيث جلسنا فى الرواق المُعَمَّد بالقرب من الباب .

وسرعان ما أحضر لنا بعض العبيد العشاء فى ذلك المكان؛ كان الطبق الرئيسى ، كالعادة ، صحن هائل من الأرز واللحم المسلوق ، مع بضع كعكات من الخبز غير المخمور ، وبعضاً من التمر ، وبعض حبات البصل الصغيرة المخلوطة بشئ من شرائح القرع ، كان الطهى أفضل من كل أنواع الطهى التى تذوقناها من قبل ، مع إنه لا يفى

بالغرض المطلوب إذا قارناه بالطهي بطريقة فاتل Vatel ، وتناولنا وجبة شهية ، واحتسينا القهوة في المقهى ، ثم عدنا إلى مكاننا لنجلس برهة رحنا خلالها ندخن الغليون في الهواء الطلق ، والأمر لا يحتاج منا هنا إلى التنويه عن جمال أمسيات الصيف ، ونسيمها العليل ، وسمائها الصافية ، في تلك المناطق الجبلية .

أما من ناحية سيف ، فقد قام ، بتجهيز مكان مبيتنا على وجه السرعة ، وبأوامر منه فُتح أحد مخازن الملك (سبقت الإشارة إليها) ، و أفرغه الخدم من محتوياته ، وكنسوه وفرشوه بالحصير استعداداً لاستقبالنا ، ولعل القارئ يكون على علم بالتقاليد والأعراف العربية ، التي تقضي بالا ننتظر وجود الكراسي ، أو المناضد (الطاولات) ، أو الطشوت ، أو أواني غسيل الأيدي ، ودخلنا مكان المبيت ، وأغلقنا بابه الخارجي بالمفتاح والقفل ، ثم دخلت مع زميلي ، بعد ذلك ، في تشاور جاد وحوار له معناه .

ترى ، ما الذي سنقوله لـ طلال في لقاء الغد ؟ وما السلوك الذي يجب أن نسلكه معه ؟ وماذا عن إثارة الشكوك ؟ ورحت أناقش مع رفيقي المسائل التي من هذا القبيل ، وكذلك المسائل الأخرى ، مناقشه واعية ومستفيضة ، زد على ذلك ، أن الاستقبال الطيب ، وكذلك الوعود المستقبلية الجيدة ، كانت كلها دلائل مشجعة لنا ، غير أن لقاءنا المفاجئ مع معارفنا الدمشقيين ، برغم معالجتي له في حينه ، لابد وأن يكون له تأثير سيئ على الرأي العام ، يضاف إلى ذلك ، أن طلال ، إن صدقت شهرته الذائعة، هو أكثر الرجال تمييزاً ، إذ كان شكله يوحي بذلك تماماً ، أليس من الأفضل . بعد أن أخذنا في اعتبارنا الأمور كلها - أن نخبره ، على الفور ، ولكن فيما بيننا وبينه فقط ، بكل ما عندنا ، وبذلك نتحاشى الأخطار التي قد تترتب على انكشاف أمرنا بعد ذلك ، ولكننا هنا ، لم نعرف ولن نستطيع أن نعرف ، حقيقة مشاعره عن الأجانب ، والأوربيين بصفة خاصة ، كل ما نعرفه على وجه اليقين ، هو أن مملكة طلال بن الرشيد ، تأسست أصلاً بفعل النفوذ والمساندة الوهابية ، أما مسألة إن كان مستقلاً أو مجرد تابع من أتباع نجد ، فقد كانت غير واضحة ، في أذهاننا ، وسط الأقوال المتناقضة التي وصلتنا حتى الآن ، ومع كراهية الوهابيين الشديدة للأوربيين أصبحنا على يقين من أن : رأى طلال ، قد يكون مثل رأيهم . وعلى الجانب الآخر ، راودتني بعض الشكوك عن وجود شيئ من المشاعر غير الطيبة ، والحسد الناتج عن التنافس ،

بين طلال بن الرشيد وجيرانه النجديين ، وهذا هو ما اكتشفناه خلال فترة وجيزة ، وعرفنا فعلاً أنه كان حقيقة واقعة ، ولكننا ، في أحسن الأحوال ، لم نتأكد بعد من طبيعة الأرض ، ولربما ثبت أنها وعث[1] ليس إلا .

وكانت المحصلة النهائية التي توصلنا إليها هي أن نكون حذرين تمامًا ، وأن نتمسك تمامًا بالطابع الذي نتنكر فيه ونحافظ عليه ، وأن نعطى طلال تلك الإجابات ، بل أكرر تلك الإجابات المحددة ، التي تجعله يركز أفكاره بعيداً عنا ، حول سوريا ومهنه الطب التي نمارسها . ولو كنا قد اكتشفنا ذلك الذي عرفناه بعد ذلك بأيام ، لتغير قرارنا وأخذ اتجاهًا آخرًا، ولكن فيما يتعلق بظروفنا الراهنة، والمعلومات المتيسرة لنا ، فأنا لا أظن أننا تسرعنا في اتخاذ القرار أو أتينا تصرفًا أحمقًا ، و أنا على يقين أيضًا ، من أن القارئ ربما ينتقد النتيجة الطبيعية التي توصلنا إليها ، والتي تقضي بأن نخلد إلى نوم عميق وفي ساعة مبكرة .

وبينما نحن على هذا الحال ، أو بينما نحن "في أرض الإيماء" إن جاز لي أن أقترض عبارة مادج وايلدفاير Madge wildfire ربما يكون من الأفضل لنا ، بدلًا من الاستسلام لأحلامنا ، أن نشبع فضول أولئك القراء الذين يودون أن يعرفوا إن كنا قد التقينا ، مرة ثانية ، أصدقاءنا غير المرغوب فيهم ، الذين جاءوا من الشمال ، وماذا حدث لنا معهم، وليعلم القارئ العزيز، أن مقاول الباطن ، وهو الأجدر من بين الاثنين ، كان قد احتار تمامًا عندما "قاطعته " متحدياً إياه ، كما احتار أيضاً جراء التعنيف الذي لقيه من كل من سيف والآخرين ، إلى حد أنه راح يتشكك في عينيه ، وتوصل إلى استنتاج مفاده أنه ربما أخطأ في التعرف على هويتنا ، بل وربما حتى في هويته هو نفسه ؛ والسبب في ذلك ، أن مقاول الباطن هذا ، بدى عليه الارتباك ، عندما قابلناه ، في اليوم الثالث ، للمرة الثانية في الشارع ، ودخل معنا في حديث مضطرب يشبه إلى حد كبير ، حديث تلك المرأة العجوز في تلك الأغنية الشعبية التي تقول : "عفواً ، لا تؤاخذني ، فأنا لست أنا" ، كما قدم شديد اعتذاره عما بدر منه من قبل ، لدرجة أنني كنت ميالاً ، بسبب تعاطفي معه ، إلى إراحة باله وأقول له : "لا عليك ، لم يحدث خطأ على الإطلاق ، أيها الصديق القديم ، لقد كنت على حق في كل ما قلت" ، ولكن الحرص

(١) الوعث : بفتح الواو والعين ، هو الرمل اللين تغيب فيه الأقدام – (المترجم) .

والحذر لا يسمحان بهذا القدر المبالغ فيه من العطف والحنان ؛ زد على ذلك ، أن رجوعه ، أمام الملأ ، عما قاله ، كان له أعظم الأثر على الحاضرين ، من هنا ، تركته لآلامه ، وأنا لا أعرف البتة ، إن كان لا يزال يعيش بها إلى يومنا هذا ، ثم غادر ، حائل ، فى صبيحة اليوم التالى ، ولم أره منذ ذلك الحين ، فى أى مكان آخر .

وفيما يتعلق بذلك الرجل ، الذى كان من القصيم ، لم يطل مقامه فى العاصمة بل إنه كان أقصر مما توقعنا ، وشاهدناه فى اليوم التالى ، وهو فى طريقه إلى القصيم ، ولم نقابله مرة ثانية ، ومن هنا ، ضاعت حكايته ، سواء أكانت صادقه أم كاذبة ، لأنها كانت تفتقر إلى التدعيم والتأييد .

وفيما يتعلق بالشاهد الثالث ، الذى أكد أن لى منزلاً وعائلة ، فقد كان من مدينة حائل نفسها ، الأمر الذى جعلنا نلتقى به مراراً طوال الأسابيع التى تلت ذلك ، ولكنه تخلى ، عن قناعة ، عن مزاعمه الباطلة السابقة ، وأعلن للملأ أنه أخطأ فيما قال ، وهكذا انقشعت السحابة العابرة ، وتبدد الخوف من الشك والخطر ، دون حدوث مضاعفات لا تحمد عقباها ، أو المضاعفات ذات النتائج المباشرة ، على أقل تقدير ، ولكن شمس الصباح استيقظت ولا بد أن نستيقظ معها .

كان بابنا لم يفتح بعد ، عندما سمعنا طرقة خفيفة تعلن عن وصول زائر ، ويذهب رفيقى ليفتح المزلاج ويقول الزائر "سم"[١] 'Samm' بمعنى "تفضل بالدخول" ، فى مثل هذه المناسبات .

كان الطارق ، هو عبد المحسن ، الشخص نفسه ، الذى شاهدناه فى الليلة السابقة برفقة طلال بن الرشيد ، ويدخل علينا قائلاً : "آمل ألا أكون أزعجتكم" ، ويبدأ فى تلمس الأعذار لنفسه على زيارته لنا فى تلك الساعة المبكرة ، ثم يسأل عن أحوالنا وصحتنا ، ويتمنى أن نكون قد استرحنا ، بعض الشئ ، من متاعب رحلتنا ؛ وخلاصة القول ، إنه كان مؤدبًا، دون إفراط أو تَصنُّع، وهو بذلك ، لا يقل فى استقباله لضيوفه ، عن استقبال ماركيز فرنسى قديم لضيوفه فى قصره الصغير ، وينتقل عبد المحسن بعد ذلك ،

(١) سَمْ : بمعنى نعم ، أو أوافق ، أو ماذا تقول ؟ أو ماذا تريد ؟ وهذه المعانى قد عرفتها من خلال عشرتى لأهل نجد فى الرياض فى فترة إعارة علمية إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، (د. حلمى عبد المنعم) .

إلى السؤال عن الطريق الذى قطعناه ، وعن الوجبات التى تناولناها ، ويعتذر عن سلوكيات البدو غير المهذبة وسوء التربية ، وجو الصحراء الحار ، ثم يعرب لنا ، بعد ذلك ، عن رغبته فى التدرب على ممارسة الطب ، وأردف قائلاً : إنه ليس جاهلاً تمامًا بفن العلاج ، ثم يوجه الحديث ، بشكل سلس وموجز ، وجهه تجعلنا نشعر بالألفة كما لو كنا فى منازلنا ، ويواصل استفساره عن الغرض الحقيقى من زيارتنا مدينه حائل ، وعن هويتنا الحقيقية .

كان مظهره يدل بالقطع على مخبره ، إذا كان يوحى بالثقة والألفة ، ومن يراه لا يصدق أنه فوق الخمسين، ولكن من الواضح أن سنى عمره كانت تمضى على ما يرام؛ وبشرته تضارع بشرة الإيطاليين من حيث الشُقْرَة ، وعيناه واسعتان وتشعان ذكاءً ، متناسق القسمات ؛ ويبدو أنه كان أنيقًا فى شبابه ، نحيف البنيه منحنيًا قليلاً بفعل تقدم السن ؛ أنيق الملبس ، بلا أى رتوش ، يمسك فى يده العصا المعتادة مما يوحى بأن دوره مسالم وغير مصطبغ بالصبغة العسكرية ؛ وقصارى القول : إنه كان يبدو كما لو كان شخصية من الشخصيات العلمية والأدبية فى الحاشية ، وربما كان مؤلفًا ، والمؤكد أنه رجل كريم المحتد ، وتنطبع على محياة ابتسامة عجيبة ، تختفى إلى حد ما وراء حفاوته البالغة عندما يزور إنسانًا لأول مرة ، وتكشف عن حبه للنكتة ، زد على ذلك ، أن هذه الابتسامة العجيبة تخفف أيضًا من حدة ذلك التأمل المفرط الذى ينعكس على جبهته الكبيرة وعينه الفاحصة .

كان ذلك ، هو عبد المحسن ، الصديق الحميم للأمير والرفيق الذى لا يفارقه مطلقًا ، كان عبد المحسن من أسرة العليان العريقة والنبيلة ، رؤساء مدينة بريده فى القصيم والمناطق التابعة لها ، عاش عبد المحسن ، فى مدينة بريده ، ذات يوم ، وكان يتمتع بثقة إخوانه المواطنين ، وأيضًا بصداقه خورشيد باشا ، حاكم بريده المصرى ، طوال فترة احتلال خورشيد لمدينة بريده ، قبل إعادة تأسيس الأسرة المالكة الوهابية ، وبرغم إنه كان يتحاشى لعب أى دور علنى فى الشئون السياسية ، وبرغم أيضًا إنه كان يكرس نفسه من الناحية المظهرية ، للأدب وللمجتمع ، الا أنه ، كان ، فى واقع الأمر ، أمكر المتآمرين فى المنطقة ، فضلًا عن توجيهه لجميع المحاولات ، التى كان أهله يقومون بها ، استهدافًا لتخليص بلادهم من الاحتلال الأجنبى ، ولكن الطريقة التى تم بها التخلص من هذا الاحتلال، و كذلك الدور الذى لعبه الأمير الوهابى فيصل ، فى

تنفيذ خطة التخلص من ذلك الاحتلال الأجنبي ، أثرنا الحديث عنهما ضمن تاريخ الأسرة المالكة النجدية ، ومن هنا رأينا تأجيل ذلك إلى فصل لاحق من هذا الكتاب ، ولكن عندما اكتشف عبد المحسن ، بعد ذلك بسنوات قلائل ، أن فيصل تقاعس في مسألة تحرير أهل بريده والقصيم من الطغيان المصرى ، على أمل أن يخضعهم لطغيانه هو ، تحول عبد المحسن ، من جديد إلى ممثل نشط ، ولكن سرى ، لعائلته القوية في وقوفها في وجه تقدم السيطرة والحكم الوهابيين . وأخيراً تم القضاء على أسرة العلياني ، وتوج هذا العمل ، بأبشع أعمال الخيانة ، وأشدها اسوداداً في سجلات تاريخ وسط الجزيرة العربية ، وقد تمكن عبد المحسن من الهرب من المذبحة المروعة التى أفنت الغالبية العظمى من أقاربه ، ولكن أدرج بعد ذلك ضمن قانون المحرومين من الحماية القانونية ، الذى صدر عقب المذبحة مباشرة ، مما اضطره إلى الهرب نجاه بحياته ، وبعد أن ظل عبد المحسن ، مختفيًا عدة أشهر ، على حدود المنطقة ، وبعد أن فقد الأمل في العودة إلى بلاده ، طلب اللجوء لدى طلال بن الرشيد ، وهو يعيش منذ عشر سنوات فى قصر أمير شومر ، كضيف في بداية الأمر ، ثم بعد ذلك كصديق ثم كواحد من المقربين للأمير ، يرحب به الأمير ، فى فترات استرخائه ، بسبب روحه المرحة ، ورقته الطبيعية غير المتكلفة ومعرفته الواسعة بالتاريخ العربي والطُّرف العربية ؛ ولكن الأمير يحتفظ له بمنزلة خاصة ، فى الساعات الحرجة ، لنصائحه السليمة ومشورته الحكيمة . وعندما كنا في طريق عودتنا إلى الوطن ، بعد عام ، رحت أنا ورفيقي نتسلى باستعادة ذكرياتنا عن الساعات الطويلة ، التى أمضيناها على ظهور الخيل في سهول الموصل أو على تلال عرفة Orfah، كما استعرضنا أيضاً ، بطريقة عابرة ، أحداث رحلتنا إلى الجزيرة العربية ، وتوصلنا على أثر ذلك ، إلى حقيقة مفادها أننا لم نلتق ، في المسافة من غزه إلى رأس الحض Ras-el-Hadd أى إنسان يتفوق على محسن العليان أو حتى يتساوى معه في مواهبه الفطرية وذهنه الراقي .

وما أن بدأ عبد المحسن حديثه معنا ، حتى ظننا ، بل كنا على صواب في ظننا ، أنه موفد من قبل طلال ، تمهيداً للمقابلة التى حدد الملك موعدها بعد ساعات قلائل فيما بعد . وترتب على ذلك ، أن أخذنا حذرنا ، وركزنا كل حديثنا عن دمشق ، وسوريا ومهنة الطب ، وفيما يتعلق بالموضوعات الأخرى ، التى أثارها عبد المحسن ، عندما كان يحوّم حول الموضوع ، كنا نعطيه ردوداً عامة جداً مفادها أن تلك الأمور لا تعنينا ،

وفى إجابتنا عن الأسئلة القليلة التى طرحها عن مصر ، بل عن أوربا أيضًا ، تظاهرنا بالجهل وعدم الاهتمام .

ثم حان ، بعد ذلك ، دورنا لمعرفة كل شئ عن وضع طلال الحقيقى ، وبخاصة كل ما يخص الأسرة المالكة الوهابية ، وأسلوبه فى الحكم ، وجاءت ردود عبد المحسن ، على الأسئلة التى وجهناها إليه ، فى هذا الصدد ، حذرة ومتحفظة تمامًا ؛ ومع ذلك تمكنا ، فى ذلك الصباح ، من اكتشاف أشياء كثيرة لم تكن نعرفها من قبل ، وقد يظن القارئ ، أن المقام يتسع هنا قبل أن أمضى فى سرد تفاصيل الرحلة ، لإضافة تلك المعلومات السريعة ، التى حصلنا عليها من عبد المحسن ، إلى المعلومات الكاملة التى حصلنا عليها ، خلال الأيام القليلة الماضية ، ثم أخرج من كل ذلك ، برواية مختصرة ، مستقاة من تاريخ جبل شومر ، وعن أصل ومدى الازدهار الذى تشهده تلك المملكة الآن .

وهنا ، أجدنى الجأ إلى الدفاع فى مواجهة أولئك الذين قد يظنون أن هذه النبذة التاريخية الطفيفة ، عن بلد صغير ، لا يُعْرف خارج حدود شبه الجزيرة العربية ، ليس لها ما يبررها ، وبخاصة أن هذا البلد الصغير(شومر) تزيد عزلته قرنًا بعد قرن بسبب الصحراء التى تحيط به ، وأنا لا يسعنى هنا ، وأنا فى موقف الدفاع ، إلا أن أقتبس تلك الفقرة الرائعة ، التى كتبها مؤلف رواية "ويفرلى" Weverley، فى ختام الفصل الخامس ، وأورد الفقرة بنص كلماتها ، اللهم باستثناء بعض الإبدالات التى يتطلبها اختلاف الموضوع ، وعليه أقول "استأذن ، استئذانًا نهائيًا ، أولئك القراء الذين ينظرون إلى أدب الأسفار باعتباره مجرد تسلية ، أو إزعاج لهم بشئون السياسة العربية والتاريخ العربى، والبدو ، والوهابيين وشومر ونجد ، والواقع أننى أقول لهؤلاء : إن رحلتى التى أروى وقائعها هنا ، لن تكون واضحة أو مَفهومة بغير هذه الأشياء . الخطة التى أعددتها لهذه الرحلة تتطلب منى تفسير الدوافع التى أدت إلى هذه الأحداث ، ومن المعروف أن هذه الدوافع لا بد أن تكون قد نشأت عن المشاعر ، والإساءات ، والأطراف التى شاركت ، فى كل ذلك ، فى ذلك الوقت ، وأنا هنا لا أوجه الدعوة إلى القراء الكرام ، الذين يضيقون ذرعًا بهذه الظروف ، إلى أن يركبوا معى عربة طائرة يطير بها الهيبغريف[1] أو تتحرك بفعل السحر ، عربتى عبارة عن عربة

(١) الهيبغريف : حيوان خرافى يشبه الغريفين ولكن له جسد وقائمتين خلفيتين كالتى الحصان - (المترجم) .

أجرة إنجليزية ذات أربع عجلات ، وتسير على طريق صاحب الجلالة ، إن من لا تعجبه هذه العربة ، يحق له النزول في المحطة التالية ، وينتظر وصول سجاد الأمير حسن المزدان بالصور ، أو ينتظر كشسك الحَباك[1] الطائر الذى تحدث عنـه مالك Malek. أما هؤلاء الذين سيبقون معى ، في عربتي ، فسوف يتعرضون ، من حين لآخر ، للكآبة التي تلازم الطرق الثقيلة ، والتلال المنحدرة ، والأخاديد الموحلة ، والمعوقات الأرضية الأخرى ؛ ولكن العربة تجرها جياد أصيلة ويقودها حوذى متحضر ، بشكل يناسب الإعلان عنها ، أنا على وشك الدخول ، بأقصى سرعة ممكنة ، إلى بلد رائع الجمال ورومانسى ، وذلك إذا ما طاق قرائى معى صبراً ، خلال المراحل الأولى من الرحلة" .
وبعد أن استلهمت ربة الإبداع Muse أو بالأحرى ، بعد استلهمت عبقرية أبو تسفورد Abbotsford هيا بنا نواصل بقية رحلتنا .

في زمن قديم، بل ضارب في القدم ، من تاريخ وسط الجزيرة العربية ، جاءت ، من اليمن ، قبيلة الطائى القوية كبيرة العدد ، واحتلت هذه القبيلة المنطقة الواقعة بين سلاسل الجبال المتوازية التي كان يطلق على الطرف الشمالى منها ، في ذلك الوقت ، اسم جبل أجاع 'Aja، والذى يطلق عليه اسم جبل شومر ، في أيامنا هذه ، وكان يطلق على الطرف الجنوبي من سلاسل الجبال المتوازية هذه ، اسم جبل سلمى ، ولا يزال هذا الاسم موجوداً ، إلى يومنا هذا ، واتخذ بعض من هذه العشيرة ، سكنًا له في البلدان والقرى المتناثرة خلال الوديان ، في حين مارس البعض الآخر حياة الترحال والرعى ، وهى الحياة التي تشكل البدوى وتبقى عليه .

وفى حوالى عام ٥٠٠ الميلادى ، حدث الصراع الشهير بين قبائل نجد برئاسة كليب وعيل ، شيخ تغلب ، وجيوش اليمن ، بقيادة شيوخ اللخميط Lakhmite، وانتهى ذلك الصراع بالإطاحة بشيوخ اللخميط ، وتخليص نجد كلها من نير السيطرة القحطانية ، انحازت طيئ Ta'i، في هذه الحرب ، برغم أصلها اليمنى ، إلى جانب عشائر ربيعه النجدية ، وسرعان ما نشبت حرب أهلية بين هذه العشائر نفسها ، عقب وفاة كليب ، الذى اغتاله واحد من أقاربه اسمه جسّاس ، ونتج عن هذه الحرب الأهلية تغييرات مهمة في مواقع قبائل وسط الجزيرة العربية ، وتسوية كبيرة استقر بمقتضاها

(١) الحباك : نوع من الطير (المترجم) .

بنو تغلب ، وبنو عيسى والهوازن داخل حدود جبل شومر ، الذى اتحد فيه السكان الجدد مع السكان القدامى ، بنو الطائى ، وتمخضت هذه الوحدة عن ما يسمى بقبيلة شومر ، وبقيت هذه التسمية إلى يومنا هذا بدون تغيير ، وهذا هو التاريخ الذى يرويه السكان أنفسهم ، ومع أن السرد الخيالى كان يزين ذلك التاريخ بكثير من الأحداث العجيبة ، إلا أن حقائق هذا التاريخ تظل ثابتة ولا يتطرق إليها الشك .

وإذا ما عدنا إلى بدايات الحكم المحمدى ، نجد أن تلك المنطقة كانت لا تزال قوية ومستقلة ، وناجحة فى مقاومة محاولات الخلفاء الأمويين ، الذين لقيت جيوشهم هزيمة مروعة عند مدخل هذه الجبال ، أثناء حكم مروان ، فى أوائل القرن الثامن ، وعقب هذه الهزيمة ، مرت على هذه المنطقة ، فترة زمنية طويلة ، لم يحدث خلالها أى تغيير جوهرى فى تاريخ شومر ، والسبب الرئيسى لهذا السكون ، هو أن سلاسل الجبال هذه ، كانت تقع على بعد مسافة كبيرة من طرق الحج المعتادة ، المؤدية إلى مكة ، زد على ذلك ، أن تلك الجبال كانت بعيدة عن كل من بغداد والقاهرة بشكل جعلها لا تتأثر كثيراً بالخلافة العباسية والفاطمية ، ولا بالأسر المالكة أو الفوضى التى جاءت بعد العباسيين والفاطميين ، إلى أن قام السلاطين العثمانيون بغزو كل من مصر وسوريا فى القرن السادس عشر ، ولهذا السبب ، تركت هذه القبائل ، وبقية قبائل نجد لحال سبيلها ولمواردها الخاصة ، ولم تدفع شيئًا نظير الحال السيئ الذى كانت عليه ، فى حين أدى افتقار هذه القبائل إلى الاتصال الخارجى ، إلى عزلها وإخراجها من المجلد العام لسجلات تاريخ الشرق ، أضف إلى ذلك ، أن جزءاً كبيراً من القبائل التى اتحدت لتكون عشيرة شومر الكبيرة ، كانت تعتنق المسيحية ، فى يوم من الأيام ، ويبدو أن هذه القبائل المسيحية ، بقيت على دينها ، عندما كانت تقاوم غزو القوات الأموية . ومعروف أن عشيرة بدر Bedr التى تنتمى إليها سلالة أجاع Aja' الشرقية ، كانت كلها مسيحية عن بكرة أبيها ، ومن المحتمل أن تكون كل هذه القبائل على وجه التقريب ، قد اعتنقت الإسلام ، ولكن المهم ، أننا وجدنا هذه القبائل ، قد عادت إلى وضعها شبه الهمجى السابق، بأن عادت إلى عبادة الأشكال الوثنية القديمة، وانقسمت على نفسها ، إلى عدة مشايخ متناحرين بعدد القرى الموجودة فى هذه المنطقة ؛ بل الأدهى من ذلك ، أن كل مدينة كانت مقسمة إلى طائفتين أو أكثر من الطوائف المتناحرة ، تشبه تلك الطوائف التى شاهدناها فى الجوف ، الأمر الذى أدى إلى تدمير الحضارة والرخاء والقضاء عليهما ، وهذا يذكرنا بالعصور الوسيطة فى أوربا ، وهكذا نجد أن الجزيرة

العربية ، هي انعكاس خافت ، بشكل أو بآخر ، للعالم الغربي ، وكما يقول تاسيتس Tacitus : "الأحداث لها شكل من أشكال الدائرة" ، بمعنى أن التاريخ يعيد نفسه مثل فصول السنة .

هناك اتجاه ، لا أعرف له سببًا ، يثني على النظام العشائري ، ويزينه بأن يضفي عليه اسم النظام الأبوي[1] ، ولكن "البطارخة" لم يكونوا أمة ، ولا حتى شعبًا ، بل إن العرق اليهودي عندما أصبح شعبًا في النهاية ، فإن ذلك يحتم علينا أن نراجع تاريخهم القومي بدءًا من القضاة إلى المؤرخين ، حتى يمكننا الوقوف على الدليل المؤلم الذي يتمثل في القضاء على مملكة إسرائيل ، والذي يرجع السبب الأكبر فيه ، بصورة عامة ، إلى الروح العشائرية التي حرّضت "مناسيز" Manasses على أفرايم وحرضت أفرايم على مناسيز ، وحرضت هذين الاثنين على يهوذا"[2] ؛ ولكن بغض النظر عما حدث لليهود ، من المؤكد أن هذا الإصرار في التصنيف الوراثي ، والذي يظهر بين العرب بصورة أقوى ، من روابط الحكم ، والوطنية بل حتى الدين ، سيظل هذا الإصرار أساسًا في بقاء المؤسسات الخيرية ، وأساسًا لأي تقدم عام يحققه العرق العربي بكامله . والأفرع طالما أن هناك يدًا قوية تستطيع تجميعها إلى بعضها ، قد تتحد وتشكل ساقًا واحدًا ؛ ولكن إذا ما انسحبت تلك اليد الموحِّدة ، فإن هذه الأفرع تتداعى ، وتواصل انفصالها السابق ، ولنأخذ استعارة أخرى مناسبة ، إذا اختلطت العناصر ببعضها فترة من الوقت ، فذلك يتم بطريقة ميكانيكية ، ولا يمكن أن تكون كيمياوية مطلقًا ، وهذه الملاحظة تنطبق ، بصورة خاصة ، على سكان شمال الجزيرة العربية ووسطها ، ولكن أولئك السكان ، الذين في جنوب الجزيرة العربية ، يختلفون ، في هذا الصدد ، مثلما سنرى فيما بعد ، عن سكان الشمال والوسط ، ويكفي ما أوردناه هنا عن العشائر ؛ ولعلنا نعود الآن ، مرة ثانية ، إلى جبل شومر والمراحل الحديثة من نشأته .

قاسى جبل شومر ، شأنه شأن بقية الجزيرة العربية ، من استبداد وتسلط الإمبراطورية الوهابية ، التي لم تدم طويلاً ، في مطلع هذا القرن ، ومما لاشك فيه أن

(١) النظام الأبوي : نظام اجتماعي يتميز بسلطة الأب المطلقة على العشيرة أو الأسرة وبانتساب الأبناء إليه لا إلى أمهم (المترجم) .

(٢) يهوذا : ابن يعقوب وجد إحدى القبائل اليهودية (المترجم) .

هذا الجزء (جبل شومر) تأثر ، مثل سائر المناطق الأخرى ، في مرحلته الانتقالية ، بالإمبراطورية الوهابية ، وسرعان ما مرت العاصفة ، وخلّفت مسائل الدين والسياسة على ما كانت عليه من قبل ، وفي هذه الفترة ، كان الناس يعتبرون مدينة حائل عاصمة لجبل شومر ، وقد جاء هذا التمييز من ناحية ، نتيجة لكبر موارد وحجم هذه المنطقة ونتيجة أيضًا لموقعها المتوسط ، من ناحية ثانية ، ومع ذلك ، لم يستطع شيوخ جبل شومر ، أن يفرضوا سلطتهم وحكمهم على مسافة كبيرة بعد أسوار المدينة ، ولم يكن ذلك بصورة منتظمة ودائمة ، كان الحكم الأساسي في هذه المدينة ، في أيدي أسرة بيت علي ، السكان الأصليين في المدينة ، الذين كانوا يفهمون تمامًا "حق الملوك المقدس في الحكم الخاطئ" .

في ذلك الوقت ، كان يعيش في مدينة حائل ، شيخ شاب وواعد ، من عائلة الرشيد ، وينتمي إلى قبيلة جعفر ، أنبل فرع ، في قبيلة شومر ، كان الكثير من أقرب أقارب بن الرشيد ، من البدو ، برغم أن أجداده ، كانوا من الحضر منذ زمن طويل ، كان اسمه : عبد الله بن الرشيد ؛ ثري ، بمعايير الثروة في هذا المكان ، من أصل طيب ، وكان على وعي بالمقدرة والحيوية ويدرك أبعادهما ، ولذلك كان يتطلع إلى انتزاع ذروة المقدرة والحيوية من مشايخ قبائل بيت علي ؛ وقدم له أقاربه الكثيرون الأقوياء يد العون في المحاولة التي كان يود القيام بها ، كان سكان حائل منقسمين قسمين ، قسم منهما يساعد هذا الطرف والقسم الآخر يساعد الطرف الآخر ، وكان قسم عبد الله بن الرشيد ، هو الأقوى داخل مدينة حائل نفسها ، غير أن القرية المجاورة ، "قيفار" K.efar، كانت تساند رجلاً من بيت علي ، وكانت قيفار ، في ذلك الوقت ، مساويه لحائل من حيث القوة والسكان ؛ والواقع ، أننا من منطلق الحكم على الأمور ، من خلال الأغاني الشعبية والتقاليد المحلية ، نجد أن قيفار كانت أكثر أرستقراطية ورقيًا من حائل .

وبدأ الصراع الحقيقي بين عبد الله بن الرشيد وبيت علي ، بعد سلسلة طويلة من المشاحنات الأولية ؛ ولكن النتيجة ، جاءت مخيبة لآمال المنافس الشاب على السلطة والسيادة ، وطرده بيت علي ليعيش في المنفى . حدث ذلك في العام ١٨١٨ أو ١٨٢٠ الميلاديين .

سار عبد الله بن الرشيد ، ومعه قليل من أقاربه ، الذين هربوا مثله ، في طريق الجوف ، أملاً في اللجوء والتحالف ؛ غير أنه لم يعثر على أي منهما ، وواصل مسيرة

إلى وادى السرحان ، الذى ظلت أعماقه إلى يومنا هذا ، ملجأ وملاذاً لكل من هو فى مأزق مماثل لمأزق بن الرشيد ، وبينما كان ابن الرشيد يتجول مع اتباعه ، فى متاهات وادى السرحان، هاجمتهم فجأة ، فئة من بدو عنيزه ، الأعداء اللدودين لعشيرة شومر . وأبلى عبد الله ورفاقه بلاء حسنًا ، فى القتال ، ولكن الغلبة كانت للكثرة ، وسقط بنو جعفر ، بلا استثناء ، قتلى فى ميدان المعركة ؛ وجردت عنيزه الظافرة "القتلى من أشيائهم ومتعلقاتهم" ؛ ولم يبق أحد من أتباع عبد الله ، على قيد الحياة ، بل إنه هو نفسه ، تُرِك بين الحياة والموت ، مع جثث القتلى فوق الرمال .

وما أورده فيما يلى ، هو ما سمعته فى جبل شـومر ، بغض النظر عن دقته أو حتى صحته ؛ والواضح أن الخيال العربى ، تلك الخاصية المبدعة ، قد وصل إلى آخر مدى له ، فى الحكاية التى سأرويها ، ومع ذلك ، فهذه الحكاية تستحق التسجيل كنوع من أنواع التوضيح للعقليات التى تروى مثل هذه الحكايات أو التى تصدقها .

والعنزه ، كما هى عادتهم ، "يؤكدون بشدة" أنهم قطعوا أزوار الجرحى فى الأماكن التى سقطوا فيها على الأرض ؛ ومن هذه الناحية ، لم يكن عبد الله بن الرشيد أحسن حالاً من رفاقه ، ولكن وريث العرش لم يكن ليموت قبل الأوان ، فبينما كان عبد الله بن الرشيد يرقد على الأرض فاقداً الوعى ، ودمه ينساب من الجرح الذى أصابه ، تجمع جراد الصحراء من حول الشيخ ، وراح الجراد بأجنحته وأرجله يلقى بالرمل الساخن فى جرح عبد الله بن الرشيد، إلى أن تمكن ذلك الرمل القابض للخلايا الحية ، من أن يعيد نهر الحياة إلى مجراه الطبيعى ، وفى ذات الوقت ، حط سرب من طيور القطا kata، ذلك الطائر الذى يشبه الحبارى ويكثر وجوده من هذه المناطق ، وراح يحوم حول عبد الله بن الرشيد ليحميه من أشعة الشمس الحارقة – وهذه خدمة لن يكون الرحالة غير المجروحين فى قفار الجزيرة العربية ، أقل امتنانًا لها .

وتصادف أن مر بالقرب من مشهد المجزرة والمعجزة هذا ، تاجر من دمشق ، بصحبته قافلة صغيرة ، قادمًا من الجوف وقاصدا سوريا ، وشاهد التاجر الشاب الجريح ، وتدخل القدر العجيب لصالح هذا الشاب ، وبعد أن أذهل ذلك المنظر التاجر ، وبعد أن أيقن أن العناية الإلهية حافظت على حياة هذا الشاب ، توصل إلى أنه لا بد أن يكون له مستقبل غير عادى ، هنا شب التاجر ناراً بالقرب من الجريح ، وربط جراحه ، وأعطاه كل ما ينعش الحياة المعلقة ، فى ضوء ما تجود به الظروف والمكان ، بعد كل ذلك ، وضع التاجر الجريح على أحد الجمال ، وأخذه معه إلى دمشق .

وبسرعة بدأ عبد الله بن الرشيد ، الذى حل ضيفًا على التاجر المحسن ، الذى كان يعامله معاملة الابن تمامًا ، بدأ عبد الله يستعيد قوته وحيويته ، ثم زوده منقذه الكريم بالسلاح والمؤن التى تكفيه مشوار رحلته ، وأعاده إلى الجزيرة العربية مسلحًا ومزودًا تزويدًا جيدًا .

ولم يكن بوسعه أن يعود إلى جبل شومر أميرًا ، مثلما كان ، ولم يكن يرض أن يعيش فى شومر عيشه واحد من الرعايا المعتادين ، وبناء على ذلك ، قطع عبد الله بن الرشيد لنفسه طريقًا طويلاً ، إلى أن وصل إلى قلب نجد ، حيث عرض خدماته الممتازة كقائد للمرتزقة[1] على الأمير تركى بن عبد الله بن سعود ، ذلك الأمير المستبد الذى لقى نهاية مأساوية ، سوف نتعرض لها فيما بعد ، هى ومصير أسرته الملكية ، كان تركى مشغولًا فى ذلك الوقت بإعادة بناء مملكة والده ، التى تحطمت وانهارت بعد الغزو المصرى ، كما كان مشغولاً أيضًا باستعادة المناطق الواحدة تلو الأخرى – التى كانت خاضعة من قبل للسيطرة الوهابية ، وكان طبيعيًا أن يجد عبد الله عبد الرشيد ، ترحيبًا كبيرًا من تركى بن عبد الله بن سعود ، الذى كان لديه الكثير من تلك الأعمال الارتزاقية ، كان عبد الله بن الرشيد ، الأول دومًا ، فى كل شجار وفى كل نزاع ، إلى أن أصبح رئيسًا لفرقه كبيرة من فرق الجيش الوهابى .

وفى العام ١٨٣٠ الميلادى أو ما يقرب من ذلك ، نظرًا لأنى لم استطع ، بسبب إهمال العرب ، الحصول على هذا التاريخ وغيره من التواريخ الدقيقة ، الخاصة ببعض الأحداث الهامة قرر الأمير تركى غزو الأحساء ، واحدة من أثرى ملحقات التاج النجدى القديم وأغناها ، ونظرًا لأن شئون البلاد العامة ، لم تكن تسمح له ، بتغيبه هو شخصيًا عن الرياض ، عاصمة حكمه ، فقد عيَّن أخيه الأكبر فيصل قائدًا للجيوش الملكية ، التى أرسلها لغزو شرقى الجزيرة العربية ، وانضم عبد الله بن الرشيد ، بطبيعة الحال ، إلى تلك الحملة ، وبرغم إنه كان غريبًا ، بحكم مولده ، فقد كان فيصل هو وضباطه يلتزمون بتعليماته ، بل إنه كان قائدًا لهم فى جميع العمليات العسكرية تقريبًا .

(١) قائد المرتزقة : قائد جماعه من العساكر المرتزقة (فى أوربا بين القرنين ١٤ و ١٦) . (المترجم) .

وما أن وصل الجيش الوهابي حدود الأحساء ، وبعد أن اجتاز شعَاب الغوير Ghoweyr التي سنجتازها نحن ؛ أيها القراء الكرام ، أيضًا في الوقت المناسب ، كي يحاصر مدينة الهفوف ، وصلت فيصل بن عبد الله بن سعود ، أنباء تفيد أن شقيقه تركي قد اغتيل ، عن طريق الخيانة ، أثناء تأديته صلاة العشاء في المسجد الكبير ، بأيدي مشاري بن عمه ، وأن الأخير قد احتل العرش الشاغر بالفعل .

وانعقد مجلس الحرب على الفور ، وحضر هذا المجلس "الهوشيس" Hushais وكانوا يمثلون أغلبية المجلس ، ونصحوا فيصل بمواصلة الحرب في الأحساء ، ثم يعود إلى الرياض ، بعد الاستيلاء على هذه المنطقة الغنية ، ومعه غنائمه ، ويستعيد العرش والتاج من قريبه المغتصب ، ولما كان عبد الله بن الرشيد ، محنكًا ، في التفاوض ، فقد أبدى ملاحظة مفادها أن تأخير الهجوم على مشاري ، قد يكون في صالحه ، ويهيئ له الوقت الذي يستطيع فيه ، تجميع القوات ، وتحصين العاصمة ، وبذلك يصبح عدوًا أكثر خطرًا ، إن لم يكن يصعب التغلب عليه وهزيمته ، وتأسيسًا على ذلك ، أصر عبد الله بن الرشيد ، على أن يعود الأمير فيصل فورا إلى الرياض ؛ ومعه كل قواته ، باعتبار ذلك أفضل الطرق لمفاجأة مشاري بالهجوم ، والانتقام منه فورًا لمقتل الأمير تركي ، وتأمين العاصمة والمناطق الوسطى لصالح الوريث الشرعي . أما فيما يتعلق بالأحساء ، فإن مسألة الاستيلاء عليها أصبحت في عرف المؤكد ، ولكنها قد تتأخر بعض الوقت .

ولما كان فيصل أرجح عقلا من أبسالوم Absalom فقد أيد رأى عبد الله بن الرشيد ، مثلما أيدته الأحداث تمامًا ، وعلى الفور ، صدرت الأوامر بإنهاء التعبئة ، وبدأ الجيش كله التحرك عائدًا إلى الرياض ، التى أوصلتهم المسيرات الاضطرارية إلى أسوارها بسرعة ، في الوقت الذي كان مشاري ، لا يزال يتخيل فيه ، أن منافسة لا يزال بعيدًا ، على الجانب الآخر من شعاب غوير ، في سهول الأحساء البعيدة .

وعندما ظهر الأمير الشرعي أول مرة ، التفت من حول لوائه نجد كلها ، وحذت العاصمة حذو بقية نجد ، فقد فتحت أبوابها على مصاريعها ، ودخل فيصل الرياض وسط هتافات التأييد الحماسية ، ودون أن يطلق طلقة واحدة .

ومع ذلك كان مشاري لا يزال يحتل القصر ، الذى تستعصي أسواره العالية وأعماله الخارجية الضخمة ، على الحصار ، وتتحمله فترة طويلة ، من منظور أشكال

الحصار السائدة في الجزيرة العربية ؛ يضاف إلى ذلك ، أن خزانه الدولة ، هي والمدفعية والذخيرة ، علاوة على مخزون طيب من المؤن الأخرى ، كانت مع مشاري ، وتحت تصرفه داخل القلعة ، تحسبًا لفرض الحصار ؛ أخيراً ، كانت هناك حامية قوية مكونة من حاشية مشاري الخاص ، هي التي تتولى حمايته ، وكانت تلك الحامية تتقاضى مرتبات ممتازة ومسلحة تسليحًا جيداً ، وفي ضوء هذه الاستعدادات ، قرر مشاري الصمود للحصار ، والانتظار إلى أن يبتسم له الحظ . وفعلاً ابتسم الحظ ، ولكن لـ فيصل بن عبد الله بن سعود .

وأمر فيصل ، من جانبه، باقتحام القلعة على الفور، وحاول الجنود اقتحام القلعة ، ولكن أسوارها السميكة ، وبواباتها التي لها إطارات من الحديد ، علاوة على شجاعة المدافعين المستميتة أفشلت كل محاولات الاقتحام ؛ واضطرت القوات القائمة بالاقتحام أن تنتظر النتائج البطيئة التي تترتب على الحصار الدائم .

واستمر ذلك الحصار ، طيلة عشرين يومًا ، دون أن يتمخض عن أي فوائد مادية لأي من الطرفين ، وفي الليلة الحادية والعشرين ، كان عبد الله بن الرشيد يريد أن يضع حداً لكل هذه الأمور ، بأي حال من الأحوال ، ومهما كانت التكاليف ، ولذلك اصطحب معه اثنين من رفاقه الأقوياء الشومريين ، كانا لاجئين مثله تمامًا ، وتحت ستر الظلام راح هو ورفيقاه يتجولان حول أسوار القلعة على أمل اكتشاف مكان خال من الحراسة ، وأسفل نافذة ضيقة كانت تقع تحت المزاغل (أشار إليها ذلك الرجل الذي كان يرافقني عندما قصدنا ذلك المكان) شاهد عبد الله بن الرشيد ورفيقاه ضوءاً يتلألأ ، وهنا اقترب عبد الله بن الرشيد من تلك النافذة الضيقة ، وتناول حبة من الحصى ، وألقى بها داخل النافذة ، ونظرت من النافذة رأس ، قالت بصوت مكتوم : "من أنت ؟" وتعرف عبد الله على صاحب الصوت ، إذ كان أحد أفراد حاشية القصر ، كان يعمل في خدمة المرحوم الأمير تركي منذ زمن طويل ، وصديق حميم لـ عبد الله بن الرشيد . ورد عليه عبد الله ذاكراً اسمه ، وسأله العجوز : "ما غرضك ؟" فرد عليه عبد الله بن الرشيد قائلاً : "انزل لنا حبلاً ، وسنتولى نحن تدبير كل شئ بعد ذلك" .

وفي الحال سمع عبد الله ورفيقاه صوت حبل يتدلى على طول الجدار ، وبمساعدة ذلك الحبل تسلق عبد الله هو ورفيقاه الجدار ، واحداً أثر الآخر ، وأصبحوا داخل القصر ، ووجه عبد الله السؤال المشؤوم التالي إلى الخادم : "أين ينام مشاري ؟" .

ودلهم خادم الأمير تركي على مكان نوم مشاري ، وسار عبد الله ورفيقاه ، حفاة الأقدام ، عبر ممرات القصر ، يضمهم صمت الليل ، إلى أن وصل هؤلاء المغامرون الثلاثة ، إلى غرفة نوم مشاري مغتصب الحكم ، و اختبر المغامرون الثلاثة باب غرفة النوم ؛ وكان مغلقًا بالمزلاج من الداخل ، وصاح عبد الله بن الرشيد منادياً باسم الله قائلاً : "بسم الله !" وبدفعه واحدة قوية كسر القفل وانفتح الباب على مصراعيه .

كان مشاري يرقد داخل الغرفة ، ومن تحت مخدته مسدسين محشوين بالرصاص ، وعلى أثر هذه الضوضاء نهض مشاري واقفًا ، ورأى أمامه ثلاثة أشكال غير واضحة . وتناول مشاري المسدسين ، وفتح نيرانهما على التوالي ، وسقط رفيقًا عبد الله بن الرشيد ، مات أحدهما ، وأصيب الآخر إصابة قاتلة ، ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة ، ولكن عبد الله بن الرشيد ، ثبت في مكانه بلا خوف ، واندفع على ضحيته ، وسيفه في يده ، وأمسك مشاري ، قوى البنية ، ضخم الحجم ، أمسك ذراع سيف عبد الله بن الرشيد وراح يتصارع معه ، وسقط الاثنان على الأرض ، ولكن مشاري أحكم قبضته على ذراع سيف عبد الله بن الرشيد ، واحنى نفسه عليه كي يسترد السيف من يده ، وبينما كانا يتدحرجان في هذا الصراع المميت ، استجمع صديق عبد الله بن الرشيد ، الذي كان يحتضر ، كل قواه ، وجرّ نفسه بالقرب منهما ، وأمسك بيده ، معصم مشاري ، بقوة شديدة جعلته لا يحكم قبضته ، خلال لحظة واحدة ، على ذراع السيف ، وخلال هذه اللحظة ، تحرر سيف عبد الله بن الرشيد ، وراح يغرسه مرة بعد أخرى في جسد غريمه ، الذي مات دون مقاومة .

ولم تنطلق صرخة واحدة ، ولا حتى إنذار واحد ، وقطع عبد الله بن الرشيد رأس مشاري ، في المكان الذي كان موجوداً فيه ، وعاد بها إلى الغرفة التي كان فيها خادم الأمير تركي يرتعد خوفًا ، وينتظر نتيجة المحاولة ، وفي ضوء المصباح تأكدا أن الملامح التي تشوهت إنما هي ملامح مشاري المغتصب ، وهنا ، اتجه عبد الله بن الرشيد ، على الفور ، إلى النافذة ، وطل منها ، وصاح بأعلى صوته ليبلغ قوات فيصل بما حدث ، في الوقت الذي كانت مقدمة القوات قد وصلت إلى أسوار القصر ، وسارع العديد من الجنود إلى الوصول إلى سور القصر بالقرب من النافذة ، التي كان يطل منها عبد الله بن الرشيد ، الذي ناداهم قائلاً : "خذوا رأس الكلب" ، ثم ألقى غنيمته المضرجه بالدماء بينهم ، ودوت صرخة النصر في كل أنحاء المدينة ، وفي الوقت ذاته ، اندفع خادم المرحوم الأمير تركي ناحية بوابات القصر الخارجية ، وفتحها على مصاريعها ، معلنًا الأمان ، لكل حاشية مشاري ، الذين كانوا على استعداد للاعتراف

بـ ـ فيصل ملكًا لهم ، وإن هي إلا لحظات قليلة ، حتى وقف فيصل بنفسه داخل أسوار قصر والده ، الذي أصبح قصره الآن .

ولم يواجه فيصل ولا قوته أية مقاومة . وكان تعليق أتباع مشاري الوحيد ، وهم يعلنون ولاءهم القاطع لمليكهم الجديد : "قدَّر الله ما شاء فعل" ، وهنا أصبح فيصل سيداً على نجد كلها لا ينازعه أحد فيها ، يضاف إلى ذلك أن ظروف توليه العرش أمَّنت له المزيد من ولاء رعاياه له .

ولم يكن ولد تركي ناكرًا لجميل ذلك الشخص الذي استطاعت جسارته أن تضع فيصل على عرش والده ، وأعترف فيصل ، على الملأ وهذا تصرف مشرف من جانب أي ملك من الملوك - بالخدمات الجليلة التي أداها عبد الله بن الرشيد ، وقرر أن يتوج ذلك المرتزق الجسور بتاج ، وأنعم عليه بتاج مقابل التاج الذي مكنه ابن الرشيد ، من استعادته ، وتنفيذاً لقرار الملك عُين عبد الله حاكمًا مطلقًا لوطنه ، جبل شومر ، وحق خلافة أبنائه له ، وزوده بالقوات وكل المستلزمات الأخرى التي تمكنه من إقامة ذلك الحكم .

عاد عبد الله بن الرشيد إلى حائل ، ولم يعد منفيًا مثلما كان ، وإنما رئيسًا قويًا مهابًا ، ومعه جيش يأتمر بأمره ، وهنا سرعان ما طرد أسرة بيت علي المنافسة من المدينة ، التي أصبحت سلطته فيها من الآن هي العليا ، وحدد محل سكنه وإقامته في مدينة حائل ، في حين أوكل إلى أخيه الأصغر عبيد ، "الذئب" الاسم الذي يعرفه به الجميع ، والذي اكتسبه بسبب قسوته الشديدة ومراوغته الداهية ، أوكل له عبد الله مسألة الثأر من رؤساء بيت علي ، وعلى أثر ذلك ، قام عبيد ومعه الخيالة بإخراج بيت علي من قيفار ، ولكن بعد قتال مرير ، وطاردهم متعقبًا إياهم من بلد إلى آخر إلى أن دخلوا مدينة القصيم ، وهب سكان القصيم للدفاع عن الهاربين ، وطلب عبيد مزيداً من القوات من نجد ، وواصل اشتباكاته وجعلها رهن أوامر الأمير فيصل ، وبناء على ذلك الشرط ، أرسلت تعزيزات لـ ـ عبيد ، وقاد الذئب "هذه التعزيزات التي حول بها أراضي القصيم الخصبة إلى أرض خراب ، في موجه من الغضب المتوحش ، أصبح اسمه على أثرها ، لعنة في كل أنحاء منطقة القصيم ، مثلما كان اسم كل من كرمويل وكلافيرهوس Claverhouse لعنة ، في كل من أيرلندة واسكتلنده . واجتثت جذور وأفرع بيت علي ؛ ولم ينجو من القتل سوى ، طفل واحد فقط ، اختبأ في قرية صغيرة على حدود القصيم الخارجية ، وعندما اعتلى طلال العرش ، بعد ذلك بسنوات ، أرسل في طلب ذلك الصبي ، الممثل الوحيد، الذي بقي على قيد الحياة ، من أعداء ابن الرشيد ،

وأسبغ عليه ضياعًا وثروات ، وأنزله فى مسكن أنيق داخل العاصمة نفسها ، واستطاع عن طريق هذا الكرم النادر ، الذى يتصف بالدبلوماسية ، أن يتجنب احتمالات وجود طرف منافس له .

وبينما كان عبيد يتذأب فى القصيم ، كان هم عبد الله بن الرشيد الأول ، تدعيم سلطته فى جبل شومر نفسه ، لأنه كان قد تم بالفعل الاستيلاء على قيفار K.efar، ثم بعد ذلك القرى المجاورة لها مثل الوسيطة Woseyt.ah ولقيطه ومقاه Mok.ah وبعض القرى الأخرى ، تداعت كلها تحت حكم عبد الله بن الرشيد ، برغم الكفاح الضارى وسفك الدماء ، وخلال فترة قصيرة ، وجد نفسه ملكًا على المنطقة الجبلية كلها ، ولكن صولجان بن الرشيد لم يتجاوز كل من أجاع 'Aja وسلْمَى Solma، زد على ذلك أن الغزوات التى قام بها شقيقه عبيد ، فى الجنوب ، كان قد سبق إخطار الملك الوهابى ، بها ، من قبل ، وظل عبد الله بن الرشيد طوال حياته يدفع جزيه محددة للأمير فيصل الذى كان ابن الرشيد مجرد نائب له ، كما راح ، فى الوقت نفسه ، يزيد دعمه لجاره القوى ورب نعمته اليقظ الحريص ، وأمر ابن الرشيد أن يكون الدين (المذهب) الوهابى هو الدين (المذهب) الرسمى للدولة الجديدة ، وشجع المطوعين التجديين ، فى تحمسهم للقضاء على كثير من الخرافات المحلية التى كان أهل جبل شومر لا يزالون يمارسونها ، وجاء هذا الإجراء بمثابة عمل غير شعبى تمامًا ، كما أن تبنى عبد الله بن الرشيد ، لهذا الإجراء لم يكن بأى دافع من الدوافع ، ولكن يبدو أن تبنيه ، لمثل هذا الإجراء ، لم يكن من منطلق قناعة دينية حقيقية ، وإنما كان هدفه الرئيسى من ذلك ، هو أن يتحاشى أن تعزلة ، إن أجلًا أو عاجلًا ، عن عرش شومر ، اليد التى أوصلته إلى ذلك العرش ، ومع كل ذلك ، لم يغب عن بال عبد الله بن الرشيد ، أن يعمل على تقوية نفوذه الوطنى ، بل إنه تحقيقًا لهذه الغاية ، كان قد ارتبط ، عن طريق الزواج ، بشيخ قوى من شيوخ عائلة جعفر ، الذى يرتبط معه بقرابة الدم ، وعن طريق مساندة عبد الله بن الرشيد ، لتلك العشيرة الثائرة المتمردة ، التى لم تهتم قيد أنملة بالتعاليم والأعمال الوهابية، التى كان يعلمون تمامًا ، إنها لا يمكن أن تنال منهم على الإطلاق[1] ، استطاع عن طريق مساعدة هذه العشيرة له أن يخضع منافسيه فى المدينة وفى القرى ،

(١) لست أدرى لماذا يحمل الكاتب على الدعوة الوهابية ؟ وكأنها دين جديد ، مع أنها فى حقيقتها إحياء لتعاليم الإسلام الصحيحة ومحاولة جادة للقضاء على البدع والخرافات وتنقية المجتمعات من الانحرافات عن دين الإسلام الصحيح . (د. حلمى عبد المنعم) .

وأن يحقق طموحاته الشخصية وجشع حلفائه البدو ، عن طريق الإجراءات التى اتخذها لسحق أعدائه فى الداخل وتأكيد سيادته ، وحيكت المؤامرات ضد عبد الله بن الرشيد ، وباءت بالفشل ، وحيكت من جديد : وطارده القتلة والسفاحون المُسْتَأْجَرون فى الشوارع ، وأعلن التمرد بشكل صريح فى أنحاء البلاد ، ولكن عبد الله بن الرشيد نجا من جميع الأخطار ، وغلب خصومه وقهرهم ، إلى أن أصبح "نجمه" الأقل تقلباً ولا يقل شهرة عن الكورسيكى Corsican (نابليون) – مضرباً للأمثال ، فى جبل شومر ، عن الحظ السعيد ؛ كان كل ذلك يتمثل فى شجاعته المحسوبة وقراراته الحاسمة ، ومع ذلك ، فإن ذكراه ليست قوية تماماً لدى مواطنى حائل الذين كانوا يتعاطفون قليلاً مع كل من الوهابيين والبدو ؛ زد على ذلك ، أن وطأة الحكم الجديد كانت شديدة – بحكم الضرورة – على خيرة السكان وأنجحهم بشكل عام .

وفى أواخر حكم عبد الله بن الرشيد ، اتخذ إجراءً محسوب العواقب تماماً ، فى ظل الظروف الراهنة ، على أقل تقدير ، ويقضى بتأمين استمرارية أسرته المالكة ، حتى ذلك الحين ، كان عبد الله بن الرشيد يقيم فى حى من أحياء العاصمة ، كان شيوخ وأعيان المدينة قد اختاروه مقراً لهم ، وبذلك أصبح يحيط بالملك الجديد أناس يتساوون معه من حيث الأصل ، بل وأعرق منه فى بعض الأحيان ، مما يُصَعِّبُ عليه عملية التسوُّد والسيطرة عليهم ، ولكنه أضاف حيًا جديداً المدينة ، وضع فيه حجر أساس قصره الملكى الكبير ، الذى سيكون مقراً للملك فيما بعد ، واستعراضًا لكل مظاهر العظمة والفخامة ، فى شوارع وبين نبلاء من صنعه هو . وبدأ ارتفاع جدران القصر الجديد يتزايد عندما وافته المنية ؛ فجأة تماماً ، فى العام ١٨٤٤ أو ١٨٤٥ الميلادى ، تاركًا وراءه ثلاثة أبناء هم : طلال ، متعب ، ومحمد ، وكان أكبرهم لم يتجاوز العشرين عاماً بعد ، علاوة على أخيه عبيد ، الذى كان عمره يقترب تماماً من الخمسين عاماً .

كان طلال ، يتمتع بشعبية كبيرة ، فاقت شعبية والده ، وكشف عن علامات مبكرة تدل على تلك الخصال السامية التى رافقته عند تولية العرش ، واتحدت الأطراف كلها ونادت بطلال وريثًا شرعيًا للمملكة وخليفة قانونيًا للسلطة الملكية، وبذلك أمكن القضاء، منذ البداية ، على مطامع عبيد المنافسة على الحكم ، وبخاصة أن عبيداً كان مكروهاً من الكثيرين ويخشاه الجميع ؛ وبذلك أمكن تحجيم هذه المطامع ، منذ البداية ، دون أدنى صراع من أى شكل كان .

كان الملك الشاب ، فى حقيقة الأمر ، لديه كل احتياجات الأفكار العربية التى تضمن له حكمًا وشعبية دائمة ، ولما كان طلال حلو المعاشرة مع عامة الشعب ، ومتحفظًا ومتعاليًا مع أهل الطبقة الأرستقراطية ، ولما كان شجاعًا وماهرًا فى الحرب ، ومحبًا للتجارة والبناء ، فى وقت السلم ، ولما كان جوادًا إلى حد الإسراف ، ولما كان حريصًا دومًا على الحفاظ على متحصلات الدولة ومداخيلها ، ولما كان معتدلًا وغير متراخ فى أمور الدين ، ولما كان يحيط خططه بإطار من السرية ، ولما كان شهيرًا بأنه لم يحنث فى وعد قطعة على نفسه ، ولما كان لا يخلف العهود والمواثيق التى تعهد بها ؛ ولما كان شديدًا فى إداراته ، ويعارض سفك الدماء ، فقد جاء ملبيًا تمامًا للصورة التى ينبغى أن يكون عليها أى أمير عربى ، وهنا يتحتم علىَّ أن أضيف إلى ذلك ، أننى لم أر مثيلاً لفن الحكم عند طلال بن عبد الله بن الرشيد ، بين جميع الملوك أو الحكام ، الأوربيين أو الآسيويين الذين تشرفت بمعرفتهم .

كان هم طلال الأول ، تزيين العاصمة وتمدينها ، وبناء على أوامره ، وبأشراف شخصى منه تم تشييد القصر الذى بدأه والده . ولكنه أضاف إلى القصر ، شيئًا ، ربما لم يخطر ببال والده، هو سلسلة من المخازن، والملاحق والأراضى التابعة للقصر ؛ كما أمر طلال أيضًا بتشييد سوق يضم حوالى ثمانين دكانًا أو محلاً ، خصصه للتجارة العامة والإتجار ، كما انشأ أيضًا جامعًا كبيرًا لأداء صلاة الجمعة ، وأمر طلال بشق شوارع من حول القصر ، وفى أنحاء كثيرة من مدينة حائل ، كما أمر بحفر الآبار ، وتنسيق الحدائق الواسعة ، علاوة على تقوية الاستحكامات القديمة ، فى كل أنحاء المدينة ، بل أنه زاد عليها أيضًا استحكامات أخرى . وتمكن طلال أيضًا ، فى الوقت نفسه ، من تأمين نفسه من أخطار عمه والاستحواذ على إخلاصه ورضاه بأن أوكل إليه القيام بتلك الحملات العسكرية التى كان يجد فيها إشباعًا لطاقته التى لا تكل ولا تمل ، وقد شن عبيد أولى هذه الحروب ، التى لا أعرف لها سببًا ، على خيبر ، ولما كان طلال يهدف من وراء تلك الحرب ، إلى إخضاع خيبر وليس تدميرها ، فقد أشرك أخيه متعب مع عمه عبيد ، كي يحد الأول من وحشية الأخير ، وبعد أن تم إخضاع خيبر ، أرسل إليها طلال حاكمًا بإسمه ، وهو شاب من رجال حائل ، خفيف ورقيق ، ألتقيته فيما بعد ، أثناء زيارته للعاصمة .

وبعد ذلك بوقت قصير ، تحول سكان القصيم ، الذين ملُّوا الاستبداد الوهابى ، إلى طلال ، الذى كان قد منح حق اللجوء السياسى الأكيد لأعداد كبيرة من الذين نفوا

من منطقة القصيم ، ودارت مفاوضات سرية ، وفي اللحظة المناسبة أعلنت منطقة الأراضي العليا كلها – بطريقة غير مستغربة في الجزيرة العربية – ضم نفسها إلى مملكة شومر عن طريق الموافقة العلنية وبإجماع الآراء ، وقدم طلال الاعتذارات اللازمة لملك نجد ، العاهل الأصلي للمنطقة التي انضمت إلى شومر ؛ وأعرب عن عجزه عن الوقوف أمام رغبة شعبيه ؛ وأن ما حدث فُرض عليه فرضًا إلخ .. إلخ ؛ ولكن غرب أوربا تعرف هذا الشئ تمامًا وليس غريبًا عليها ، واستشعر الأمير فيصل أن الوقت غير مناسب لنشوب نزاع مع تلك القوة التي تتنامى بشكل سريع ، والتي كان هو السبب الرئيسي في إنشائها منذ سنوات قلائل ، وبعد أن عبَّر فيصل عن اشمئزازه مرة أو مرتين كتم أحزانه ، وفي الوقت ذاته ، وإدراكًا من طلال لقيمة السمعة العسكرية المدوية ، في الداخل والخارج ، شارك بنفسه في سلسلة من العمليات العسكرية ضد تيماء والمناطق المحيطة بها ، وانتصر طلال في جميع المعارك التي دخلها ، وقد أكسبه تواضعه واعتداله ، أثناء الانتصار ، ولاء المنهزمين له وتعلقهم به .

وقد سبق أن تحدثت عن حرب الجوف وغزو منطقتها ، كما قاد طلال أيضًا ، حملات فرعية أخرى ، تكللت كلها بالنجاح ؛ في حين يقال "إن عمه عبيد قد خاض ما يزيد على أربعين معركة ، كانت تلك العمليات العسكرية ، التي كانت تنطوي على الاستعراض أكثر من القتل ، موجهه أصلاً ضد البدو ، الذين كانوا يشغلون ، كما توضح الخرائط ، جزءًا كبيرًا من ممتلكات طلال ، الذي جعل هدفه الرئيسي هو إخماد أولئك البدو في كل مكان من بلاده ، ولم يواجه طلال أية صعوبة في إخضاع البدو الرحل الموجودين على الحدود الخارجية لبلاده ؛ ولكنه واجه صعوبة بالغة في إخضاع أهله وجيرانه القريبين ، عرب شومر .

وحتى يتنسى لـ طلال بن الرشيد تنفيذ أفكاره الخاصة بإنعاش بلاده عن طريق التجارة الحرة والمنتظمة ، كان لابد من تأمين الطرق السريعة ووقف عمليات السلب والنهب ، وهنا بدأت تتزايد وقاحة قبيلة جعفر ، أقارب طلال من الدم ، برغم أفضال عبد الله بن الرشيد عليهم ، والذين كانوا الأدوات التي استعملها في إخضاع المدن والقرى الجبلية ، ولما لم يعد طلال بعد ، بحاجة إلى قبيلة جعفر ، راح يلعب لعبه أبيه الماضية ، بأن أخضع بني جعفر بأيدى أولئك السكان أنفسهم ، الذين اشترك بنو جعفر في إخضاعهم من قبل ، والذين كانوا يتحرقون للثأر لأنفسهم من بني جعفر ؛ في حين هيأت المشاجرات الدائمة بين رجال العشائر ، الفرصة مرارًا ،

لـ- طلال بن الرشيد كي يحرض بعضهم على بعض ، إلى أن يضعفوا ويتفرقوا ، وينتهي بهم الأمر جميعًا إلى الخضوع له ، ويبدو أن مبدأ "فَرِّق تسد" معروف للعرب ، كما هو معروف في السياسة الأوربية . وبدءا من ذلك الوقت فصاعدا ، لم يجرؤ أحد من البدو ، في جبل شومر ، أو في كل أنحاء المملكة أن يضايق رحالة أو فلاحًا .

وبعد أن ذلَّل طلال هذه العقبة ، كرَّس كل هَمِّه ونشاطه لتنفيذ المزيد من مشروعات الأمن ، ووجه طلال عروضا سخية إلى تجار من البصرة ، ومن مشهد علي ، ومن الوسيط Wasit، وإلى أصحاب المحلات في كل من المدينة واليمن ، بالحضور إلى حائل ويفتحوا فيها محلات ، وبخاصة في سوق حائل الجديد ، كما أبرم طلال مع بعض التجار عقودًا حكومية مربحة له ولهم ؛ كما منح بعضًا آخر من التجار امتيازات وحصانات ؛ وأعطاهم جميعًا الحماية والتأييد ، كان الكثير من هؤلاء التجار يعتنقون المذهب الشيعي ، الذي يكرهه كل أهل السنة ، ويكرهه الوهابيون كُرْهًا على كره . ولكن طلال لم يعول على تجاوزاتهم الدينية ، وأخرس كل الألسنة عن طريق تقريب أولئك الخوارج منه ، وعن طريق إبراز المزايا التي أصابت المدينة بعد وقت قصير من وجودهم فيها ، زد على ذلك ، أنه بذل جهدًا أيضًا في إقناع بعض اليهود والمسيحيين من الشمال بأن يحضروا إلى عاصمته ويقيمون فيها ، مع وعد منه لهم بحمايتهم وضمان حرية العقيدة الدينية لهم ، غير أن المسافة الطويلة التي كانت تفصل حائل عن كل من المراكز اليهودية أو المسيحية ، هي التي عرقلت تنفيذ هذه الخطة الليبرالية . وتحقق النبض المطلوب للمدينة ؛ فقد أصبحت حائل مركزًا للتجارة والصناعة ، وبدأ الكثير من سكان المدينة يحذون حذو الأجانب الذين استقروا فيما بينهم ، بل وتفوقوا عليهم في الكدِّ وفي الثراء .

وعلى كل حال ، فقد أغضب كل ذلك ، الفئة الوهابية في البلاد ، وكان عبيد ، عم طلال ، المتشدد على رأس هذه الفئة ، بل إن الأمير فيصل ، أيضًا ، الذي ضايقه ، انضمام القصيم إلى شومر ، أرسل من مقره النجدي العتيد احتجاجات مدوية على التراخي الذي بدر من "أخيه" طلال ، زد على ذلك ، ذلك الشئ الفظيع على الفكر والسمع الوهابي ، وهو تردد بعض الشائعات عن انغماس طلال في ملذات التبغ (الدخان) المبتدعة ، ولبس الحرير ، وعدم المداومة على الصلاة في المسجد ، برغم إنه ربما يكون قد أدى الصلاة في بيته ، أخيراً ، وهذا شئ غير طيب من المنظور الوهابي ،

إن طلال كان يميل إلى العفو عن المسجونين والمجرمين بدلاً من قطع رءوسهم ؛ علاوة على أن تشجيعه التجارة ، لم يكن يتمشى مع شخصية المسلم الحقيقى ، الذى ينبغى عليه ألا ينشد الربح أو المتعة إلا من ثلاثة مصادر شرعية فقط هى، الحرب، والصلاة ، والنساء[1] .

ويواصل طلال السير فى طريقه رغم أنف الجميع ، فى حين جعلته حصافته البالغة يسدل فوق هذه الأعمال الفادحة ستاراً طلبًا للوقار ، إن لم يكن لسترها وإخفائها تمامًا ، معنى ذلك ، أن طلال بن الرشيد ، عندما كان يدخن ، كان يفعل ذلك بعيداً عن أعين الناس ، ولا يجاهر بالتدخين ، وأنه كان يدخن من منطلق أن التدخين علاجًا له ، وصفه له الأطباء ، بسبب مرض خفى ، لا علاج له سوى التدخين ، وأنه عندما يشفى من ذلك المرض سوف يقلع عن التدخين ، وإذا كان يأوى الشيعة ، فذلك من منطلق أنهم ، ولمعرفته الشخصية ، أعلنوا أمامه اعتناقهم للمذهب السنِّى ، كما كان يقول أيضًا : إن تجارة حائل ليست تجارته ، وإنما هى عمل أفراد معينين ، وأنه وهذا هو المؤسف حقًا لا يستطيع أن يتدخل فى شئونهم ، وأنا لا أعرف شيئًا عن الأعذار التى التمسها لنفسه فى مسألة عدم التشدد الدينى فى الحروب وفى القضاء ، وأنا لا اشك أن هذا العذر كان مقبولًا من الناحية الظاهرية والشكلية ، أما فيما يتعلق باضطراره إلى عدم الحضور ، فى بعض الأحيان ، إلى المسجد بسبب العمل ، فقد كان دائمًا ينيب عمه أو أحد أفراد أسرته فى الحضور بدلًا منه :

لم يذهب قط إلى الكنيسة ، لأن حياته كلها عمل ؛
ولكنه كان يواظب دومًا على إيفاد أسرته وزوجته .

ولكن بالإضافة إلى الاعتذارات ، كان طلال بن الرشيد يرسل ، من وقت لآخر هدايا مميزة إلى نجد ، كما أوجد طلال أيضًا نوعًا من الارتباط عن طريق الزواج من واحدة من بنات الأمير فيصل العديدات ، كل ذلك طمعًا فى استرضاء الملك الوهابى . وفى مملكته ، أعطى طلال ، للتشدد الدينى امتيازات مناسبة ، فقد منع بيع الدخان

(١) ما هذا الهراء الذى يتفوّه به المؤلف عن الإسلام ؟ وهل شخصية المسلم الحقيقى ترتسم فى الحرب والصلاة والنساء ؟ من قال ذلك ، وأين النصوص الدينية التى تُحجِّم شخصية المسلم فى هذا الإطار ؟ إن هذا الفهم لا أساس له فى دين الإسلام ... (د. حلمى عبد المنعم) .

بطريقة علنية ، وإذا بيع الدخان عن طريق التهريب ، فى بعض الدكاكين الخلفية ، فإن الحكومة لا تكون مسئولة عن ذلك ، وبرغم السماح بارتداء الحرير ، فقد صدرت أوامر تقضى بوجوب خلط هذه المادة المحرمة مع نسبة كبيرة من القطن كيما لا تكون عرضه للانتقاد الشرعى الشديد ، وفى العاصمة ، التى كان يفد إليها الجواسيس النجديين ، فى معظم الأحيان ، صدرت أوامر إلى السكان بالمواظبة على حضور الصلاة ، وامتلأ المسجد بالمصلين ، زد على ذلك ، أن عبيداً كان ورعًا وتقيًا ، وبعيداً عن مكروهات الحرير والدخان ، ومواظباً على قراءة القرآن وذم الكفار ، إلى حد أن مثله الطيب هذا ربما كان يُكَفِّرُ عن ، ويغطى على الفضائح التى كان يأتيها ، طلال ، بن أخيه ، والفضائح الأكثر ، التى كان يأتيها الأمير متعب ، ذلك "الشاب الهمجى" ، الذى صدمت نرجيلته الأبدية ، وثيابه الحريرية أنوف المتدينين وأعينهم ، وشكلت جريمة قال عنها أحد المطوعين ، ذات يوم ، وهو يشير إلى غترة الأمير المرحة : "قد يغفر الله كل الذنوب الأخرى ، أما ذلك فلن يغفره مطلقًا" ، أما عن الأعمال الوهابية فى هذه البلاد ، وعن رد فعل الناس عليها ، فسوف تتهيأ لى ، الفرصة فيما بعد للحديث عنها بصورة مستفيضة ؛ ولذا فأنا أدعو القارئ الكريم أن يعود معى إلى الحديث عن الأمير طلال .

لم تكن تصرفات طلال مع الحكومة العثمانية أقل حنكة ومهارة ، ولم يكن موقفه أقل دقة ولو مثقال ذره ، والسبب فى ذلك ، أنه إذا كان الملك الوهابى على حدوده الجنوبية والشرقية ، فإن حدوده الشمالية تتاخم كلا من بغداد ودمشق ؛ فى الوقت الذى يعد فيه طريق مكه الكبير من الممتلكات العثمانية ، ويُشَكِّل حدوده الغربية فيما وراء كل من تيماء وخيبر ، يضاف إلى ذلك ، أن التجارة المستمرة مع كل من مشهد على ، ومع سوق الشيوق ، ومع البلدان الأخرى القريبة من نهر الفرات ، تجعله على اتصال دائم بالرعايا الأتراك ، بل مع الأتراك أنفسهم ؛ فى حين أن التبادل التجارى النشط أيضًا مع قوافل التجارة القادمة من المدينة ومع قوافل الحج تؤدى إلى النتيجة نفسها على جانبى المملكة المتقابلين ، ومن هنا ، يتعين على طلال ، أن يلجأ إلى الاسترضاء ؛ ويتجنب المشاجرات ، فى الوقت الذى تكون فيه ، كل خطوة يخطوها طلال ، فى هذا الاتجاه ، مهما كانت ضرورية ، هشة ومحفوفة بالمخاطر ، الواقع ، أن كل ما يحدث ، أيا كان ، فى حائل كان يُبَلَّغُ فعلًا ، إن آجلاً أو عاجلاً ، إلى كل من بغداد والمدينة ، بل حتى إلى دمشق ؛ وهذا هو ما يجب أن يفهمه القارئ الكريم منذ الوهلة الأولى لوصولنا إلى هنا ، وينبغى أن أضيف هنا ، أن المعلومات التى يمكن

الحصول عليها ، عما يدور داخل الجزيرة العربية يندر أن تتجاوز الحدود التى تدين بدين محمد ، ولا تهم أحداً سوى أصحاب المناصب والمسئولين عن الحكم ؛ فالباشاوات يعرفون شيئًا ، والجماهير العادية تعرف قدراً أقل مما يعرفه الباشاوات ، أما ما يعرفه الأوربيون فهو أقل مما تعرفه الجماهير العادية ، وقد استقيت ، من هؤلاء الأوربيين ، برغم إقامتهم فى الشرق مدداً طويلة ، بعض العبارات المتعلقة بوسط الجزيرة العربية ، والتى تطابقت بل ولم تتعارض مع ما رأيته على أرض الواقع .

والتزاما بالسياسة التى أتينا على وصفها ، كان اسم السلطان بكل ألقـابه التى لا معنى لها يذكر فى خطبة الجمعة التى كانت تلقى فى الجامع الكبير فى حائل ، وكان يشار فى هذه الخطبة إلى أن طلال نائبًا له ويستمد كل سلطتة منه ، ولم يكن جبل شومر يرسل "بارة"[1] واحدة إلى خزينة القسطنطينية ، ولم يساهم جبل شومر حتى ولو بجندى واحد ، من كل أنحاء مملكة طلال ، فى الكتائب التركية . ولم يكن مسموحاً لأى إنسان أن يذكر السلطان عبد العزيز إلا بالخير ويعرب عن احترامه له ، والذى كان يلقب دائمًا بـ "السلطان" والحاكم ؛ وبرغم أن الوهابيين يسمونه بـ "الكافر" وينعته أهل جبل شومَر بـ "البغل التركى" ، إلا أن هذه الأقـوال المؤذيـة لا يتداولها النـاس إلا سراً ، وإذا ما تصادف ، وقد يحدث هذا فى بعض الأحيان ، أن يكون أحداً الضباط الأتراك عائداً من الحج عن طريق ممرات حائل ، أو عن طريق المدينة (المنورة) ، فإنه يُقابَلُ بكل أدب واحترام ، ولا يسمع أى شئ غير الولاء والإخلاص ، وإذا ما انتقلنا إلى الأمور الحساسة ، نجد أن طلال نفسه عندما يغزو كلا من خيبر وتيماء ، وكلتاهما داخله ضمن الحدود الخيالية للباب العالى ، وعندما يهاجم طلال أيضاً القبائل الغربية من مدائن صالح إلى كيراك ، ضمن ممتلكات السلطان نفسه ، فهو يفعل ذلك ، خدمة لصاحب الجلالة العثمانى أيضاً ، بل ، إن طلال عندما يعين حاكمًا للجوف ، بإشـارة أو بدون إشارة من القسطنطينية، أو عندما يُسَيِّرُ حملات عسكرية إلى حدود بلقاء Belka، بل وإلى أسوار مشهد على ، فإن كل ذلك يكون باسم السلطان عبد العزيز ، ولمصلحة جلالته .

(١) البارة : وحدة نقدية تركية (جزء من أربعة آلاف جزء من الليرة) . (المترجم) .

وعليه، لما كان منافسو طلال وأعداؤه يراقبونه مراقبة لصيقة من جميع الجوانب، ولما كان يبحر بمركبه المنشأة حديثًا بين صخرة سيلة[1] الوهابية والصخرة العثمانية ، فقد حتم عليه ذلك أن يبحث لنفسه عن حلفاء وأصدقاء يستعين بهم ساعة الخطر ، التى لا يمكن له ، برغم حصافته وحنكته ، أن يتحاشاها سنوات كثيرة ، والواقع ، أنه يرفض أى شكل من أشكال الاتصال أو التعاون ، مع الأوربيين ، من أية دولة كانوا ، اللهم من باب الأدب واللياقة فقط ، إذا ما تطلب الأمر ذلك ، اقتناعًا منه نتيجة للأحداث التى وقعت لبعض الدول بل فى بعض البلدان المجاورة ، أن تدخل أى من الدول الأوربية يكون ، فى أغلب الأحيان غير مفيد أو ضار . ولكنه حافظ على اتصالاته الوثيقة بكل من مصر ، ناحية الغرب ، وبلاد فارس ، ناحية الشرق ؛ لأنه يحصل من بلاد فارس على مزايا تجاريه كثيرة ، فضلاً عن المساندة الأدبية من بغداد ، فى حين يمكنه الاعتماد على مصر فى تقديم المساعدة العسكرية والسلاح القوى إذا تطلب الأمر ذلك .

وفيما يتعلق برعاياه ، فإن سلوكه تجاههم يمتاز بأنه يجعلهم يدخلون فى طاعته ويعطونه ولاءهم ، وقليل من المراسيم المطلقة هى التى تصيب نجاحًا هنا ، فهو يفتح أبوابه للشعب مرة أو مرتين كل يوم ، وينصت إلى شكاويهم ، ويتخذ هو ، نفسه القرار المناسب ، الذى يحدد فيه أدق التفاصيل بحنكه كبيرة ، وفيما يتعلق بالبدو ، الذين يشكلون جزءًا لا يستهان به من حكم طلال بن الرشيد ، فهو يعوض القيود التى يفرضها عليهم ، والجزية التى يجمعها منهم ، يعوض كل ذلك بكرمه المسرف وضيافته التى لا تجد لها مثيلاً، فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية بدءًا من العقبة إلى عدن . ولا يقل عدد ضيوفه فى الغداء وفى العشاء عن خمسين أو ستين ضيفًا ، بل إننى عددت الضيوف ، فى إحدى المرات ، ووجدت أن عددهم يقترب من المئتى ضيف ، فى حين أن هداياه لهم من الملابس والأسلحة تكاد لا تنتهى ، بل مستمرة بشكل يومى ، ويصعب على الأوربيين أن يستوعبوا مدى تلك الشعبية التى يحظى بها هذا الأمير الآسيوى ، جراء تصرفه على هذا النحو ، يضاف إلى ذلك أن أهل الحضر وأهل الريف يحبونه للمزايا الأمنية المتينة التى ينعمون بها فى ديارهم ، كما يحبونه أيضًا لعمله على ازدهار التجارة ، وتوسيع ممتلكاته ، وعظمته وبريقه العسكرى .

(١) سيلة : صخرة خطرة فى الجانب الإيطالى من مضيق مسينا .

ويندر جداً أن يحكم هذا الملك المبرز بالإعدام ، وأقصى عقوبة وقّعها منذ أن تولى العرش ، على المجرمين السياسيين هي النفي أو السجن ، بل إنه في حالات القتل أو الاغتيال ، كان يميل إلى تحكيم العرف السائد بين العرب والذي يعطي خياراً بين دفع الدية أو القتل ، وإنه كان يفتدي القاتل ، بأن يدفع من ماله الخاص ، الدية المقررة لأهل القتيل ، وذلك من منطلق دافع إنساني فقط ، وتنفيذ القصاص ، يكون هنا دومًا بقطع الرأس ؛ وليست هناك أية طريقة أخرى ، للقصاص ، في الجزيرة العربية غير هذه الطريقة ، وللحق أقول : إن الهمجية العثمانية والفارسية ، بكل ما فيها من تشويه وحرق ، وما إلى ذلك ، من الأشياء ، المحرمة ممنوعة هنا ، وفي نجد ، سوف نقف ، فيما بعد ، على استثناء واحد فقط من هذه القاعدة العامة ، وعلى كل حال ، فالجلد هنا أمر شائع ، ولكنه يكون على الظهر ، وليس على القدمين ، والجلد يكون عن المخالفات الصغرى التي من قبيل السرقة ، والسب ، أو التشاجر ؛ وفيما يتعلق بالتشاجر ، يتم في أغلب الأحيان جلد الطرفين .

وطلال بن الرشيد يتسامح أكثر من اللازم مع أفراد حاشيته الكثيرين ، فهو يعفو عن الأخطاء الناتجة عن السهو ؛ ولكنه لا يعفو مطلقًا عن الكذب ؛ ومن المعروف عن طلال أن من يكذب عليه مرة واحدة ، أيا كان ، يخسر كل أمله في الصفح عنه مستقبلاً .

وهو في حياته الخاصة يسترخي كثيراً جراء متاعبه في العمل الرسمي ؛ وهو يضحك ، وينكت ، ويدردش ، ويتذوق الشعر والحكايات ، وهو لا يدخن إلا في وجود أصدقائه الحميمين فقط ، وهو متزوج من ثلاث زوجات ، جاء زواجه منهن نتيجة لبعض الدوافع السياسية ، وإحدى زوجاته ، هي كريمة الأمير فيصل ، الملك الوهابي ، والثانية من عائلة ، من أعيان حائل ، أما الثالثة فهي من نساء أهله في قبيلة جعفر ؛ وبذلك يكون طلال قد وفق بين ثلاثة مصالح مختلفة ولكن جمعها كلها في عائلة واحدة .
وطلال له ثلاثة أبناء : أكبرهم اسمه بدر ، وهو صبي ذكي عمره اثنا عشرة عاماً ، أو ما يقرب من ذلك ؛ وثانيهم اسمه بندر ؛ أما ثالثهم فاسمه عبد الله ، وهو طفل ماهر ذكي يتراوح عمره بين خمس وست سنوات ، وطلال له أيضاً كريمات ، ولكني لا أعرف عددهن ، نظراً لأن البنات هنا ، مثلما هو في الشرق ، ينظر إليهن على أنهن عار ، ولذلك لا تذكر أسماؤهن مطلقًا ، ولن يختفي ذلك العمل السيئ الذي ورثه العرب عن الجاهلية ، والذي يحرمه دين محمد ، قبل مرور زمن طويل .

هذه هي صورة طلال ، لقد دام حكمه ، إلى يومنا هذا ، مدة عشرين عامًا ، شهدت خلالها بلاده ازدهاراً حقيقياً لم يتبدل ، وقد قطع طلال شوطاً كبيراً على طريق تمدين الثلث الهمجي غير المتحضر من قارة الجزيرة العربية ، وفرض النظام ونشر الأمن في الأماكن التي لم تشهده على امتداد عصور طويلة ماضية ، وسوف أتناول شخصيته من منظور شخصي وحميمي تماماً .

جلس عبد المحسن معنا فترة من الوقت ، ثم استأذن و تركنا وهو يقول : إن موعد مقابلة الملك للشعب يقترب ، وإنه لابد من حضوره تلك المقابلة ؛ أما فيما يتعلق بنا فسوف نحضر بعد هذا اللقاء، لقاء خاصاً مع الملك، واستنتجنا ، في الوقت نفسه ، أن عبد المحسن انصرف ، ليخبر طلال بما عرفه عنا ، واستنتاجاته فيما يتعلق بهذين المغامرين السوريين .

كانت الشمس قد طلعت وأشرقت تماماً ؛ ولكن نظراً لأن سور القصر الطويل كان يواجه ناحية الغرب ، فإن المقاعد التي كانت إلى جواره وكذلك جزءاً كبيراً من الساحة كان لايزال في الظل ، ومع تقدم النهار امتلأت تلك الساحة بالمواطنين من الريف والحضر والبدو الذين جاء بعضهم في مهام تخصهم وجاء البعض الآخر لمجرد السلام على الملك ، وفي حوالي الساعة التاسعة ، إذا ما صح تقديري للوقت عن طريق ارتفاع الشمس ، ظهر طلال "مرتدياً أبهى ثيابه" ، ويحيط به بعض من الحراس المسلحين ، وإلى جانبه شقيقه الثالث محمد (نظراً لأن شقيقه الثاني ، متعب ، كان خارج حائل ، ولم يعد إليها إلا بعد ذلك بأيام قلائل) ، ظهر وهو يمر في موكب رسمي وهيبة من بوابة القصر ، ويجلس على مقعده المرتفع في الوسط مقابل السور ، في حين وضع كل من عبد المحسن وزامل نفسيهما قريباً منه ، في حين أكمل الطابور ما يزيد على ستين فرداً من الضباط والخدم ، ومن أمام طلال مباشرة ، ظهر رفاقنا من عرب الشرارات، شيوخ العوازم، وفي يد كل واحد منهم عصا الجمّال التي لا تفارقه مطلقاً ، ظهروا جاثمين على الأرض ، في حين كان يقف حولهم ومن خلفهم ، جمهور كبير من الشعب ، نظراً لأن تلك المناسبة ، كانت واحدة من المناسبات المهمة .

ودار في خاطري ، وأنا أتأمل مكانتنا الهادئ الآمن ، وسط هذا الجمع ، السؤال التالي: "كم من هؤلاء الذين أعرفهم، على استعداد أن يدفعوا نصف ما لديهم من مال ، في سبيل أن يشاهدوا مثل هذا المشهد الذي أراه الآن ، والمكان الذي نحن فيه أيضاً؟"

وأنا أسجل هنا للحق والحقيقة ، أن الأوربيين لم يشهدوا سوى القليل جداً من الحكم العربي ومن الحياة العربية ، كما أسجل أيضاً أن الأوربيين لم يُصنِّفوا أو يدوِّنوا سوى القليل جداً من هذه الأمور ، مشاهد شبه رومانسية فاقعة ألوانها ، من البدو غير المتحضرين ، مرسومة على شكل فرسان مطوقين شهماء وعلى شكل ممثلين للحرية غير المقيدة ، أو ربما ، مشاهد الرسميات المتشددة المعمول بها في محيكمه ساحليه أو حدودية صغيرة ، التي يصطبغ أكثر من نصفها بالطابع العثماني ؛ الأساطير المشكوك في صحتها ، شأنها شأن أساطير لامارتين ، والأمور الوجدانية السطحية الحساسة في مدرسته ، – هذا هو كل ما لدينا عن هؤلاء الرعايا ، والذي يتطلب منا أن نشكل منه معياراً خاصاً بنا وتقييماً للجزيرة العربية هي وسكانها ، ولكن المعرفة الحقيقية بالتصرفات والسلوكيات العربية الأصيلة لا يمكن أن نجدها في الصحراء السورية وحدها ، أو على حدود الحجاز ، ولا في شوارع المخا أو في أسواق مشهد علي ، ولا في بغداد أو دمشق ، وإنما يجب أن نبحث عنها في أماكن أخرى غير هذه الأماكن .

الأبحاث التي قام بها بوكو Pococke ، والدقة الفريدة التي تميز بها نيبور Niebuhr، والمعلومات المتنوعة التي أتى بها بركخاردت Burckhardt ، ودقة المعلومات التي وردت في كتابات والين Wallen، وكتابات ولستد Welsted الجريئة ، كلها تستحق منا الثناء والتقدير والثقة الكاملة ، وأنا عندما أتطرق لهذه الأسماء ، لا تحدوني روح المنافسة ، ولا التقليل من شأنها ، ولا استميح لنفسي عذراً في أن أبرز حدود تلك الظروف التي تشكل أسواراً حدودية ، لا يمكن تخطيها ، في الحياة والمشروع البشريين ، والتي أدت إلى أن تكون خبرتهم بالجزيرة العربية محدودة بالشكل التي هي عليه ، هذه الخبرة استقاها أصحابها من مناطق الحدود ومناطق السطح الخارجي : أما عن داخل الجزيرة العربية ، فهم لا يعرفون عنه سوى القليل جداً ، من الناحية الطبيعية أو الأخلاقية ، من هنا ، فإن وصف القدم أو اليد وصفاً مستفيضاً لا يعطي ، في كل الأحوال ، فكرة كاملة عن الجسم أو الرأس ، إذ يظل مفتقراً إلى وصف البيئة التشريحية الداخلية . والحكمة التي تقول "من قدم هرقل" حكمة جيدة ولكنها لا تنطبق على الشعوب الحية أو الطبيعة البشرية .

وبينما كنت مشغولاً بهذه الأفكار والتأملات ، وبينما كان رفيقي مشغولاً بأفكاره وتأملاته ، التي لا أستطيع الإدعاء بأني أعرف عنها شيئاً ، ولكن من المسلم به أن تلك الأفكار والتأملات كانت هي نفس الأفكار والتأملات التي يمكن أن تراود شاب من زحله ،

في مثل هذه الظروف ؛ بينما كنا على هذا الحال تزايد الجمهور ؛ وبدأ شيوخ ، أو إن شئت فقل صعاليك العوازم ، يقدمون ولاءهم البدوي ، كما لو كانوا كلاباً هاربة تتذلل أمام السوأط[1] ، عندما تعاد إلى مربي الكلاب وإلى الضرب بالسوط ، وقبل طلال ذلك الولاء والخضوع ، دون أن يطلعهم على نواياه فيما يتعلق بهم هم وأفراد عشيرتهم ، واحتجزهم عدة أيام دون أن يرد عليهم رداً حاسماً ، مما أعطاهم وقتًا كافيًا يقفون خلاله ، على كرم طلال بن الرشيد وبذخه ، ويستوعبوا استعراضه لسلطته وقوته .

والمثل الذي يقول : "فهم العربي في عينيه" من الأمثال الشائعة التي يعرفها الجميع ، سواء أكانوا بدوًا أم حضراً ، وهذا المثل يعني أن "العربي يحكم على الأشياء كما يراها أمامه، لا بأسبابها ونتائجها": سواء أكانت هذه الأسباب حقيقية أم شكلية . وهذا المثل ، ينطبق تماماً على البدوي ، برغم انطباقه بشكل أو بآخر على باقي العرب ، أيا كانوا ؛ كما يتطبق ذلك المثل أيضًا ، إلى حد ما ، على جميع الأطفال ، بما فيهم الأطفال الأوربيين ، الذين يشبهون "الهمجي الأشيب" بدرجة كبيرة . فالقصر الضخم ، وقطع المدفعية الضخمة قليلة العدد ، والرجال المسلحون الذين يرتدون ثياباً زاهية ، والعشاء الفاخر ، والجمهور الغفير ، كل هذه الدلائل كفيلة بإقناع البدو الرحل بالولاء والخضوع والخوف أيضًا ؛ وهنا أستطيع أن أؤكد أنهم لن يتساءلوا مطلقًا إن كانت تلك المدافع صالحة للعمل أم لا ، أو إن كان الرجال المسلحون مخلصين أم لا ، أو إن كان دخل الخزانة مال وفير صحيح أم لا ، أو إن كان العشاء نفسه قابل للهضم أم لا . هذا الطلال ، يعرف جيداً ما يريد ، وهو في ذلك يتفوق على كثير من أولئك الذين حاولوا فرض نفوذهم ، بصورة كلية أو جزئية ، على العرق العربي .

ويجري بعد ذلك البت في بعض الأمور الصغيرة الأخرى ؛ وينتهي الاجتماع ، وينهض الأمير طلال واقفًا ، ويصحبته كل من زامل ومحمد وسعيد (كبير ضباط الخيالة) ، وواحد من تجار مشهد على اسمه حسن ، واثنين أو ثلاثة آخرين ، ويسيرون ببطئ في اتجاه طرف الساحة البعيد الذي يطل على السوق . ويحضر إلينا سيف ويطلب منا أن نتبعه .

(١) السوأط : مساعد الصياد يجلد كلاب الصيد بسوطه . (المترجم) .

الفصل الرابع

الحياة في حائل

في كل مكان تنشط الثقافة والفنون ،
كل شيء يريد أن يحيا في ألوانه ،
ولكن المكان تنقصه الورود ،
وتأخذ الناس المهندمين معها في دائرتها
أرجع عن هذه الطموحات
لتنظر مرة أخرى إلى المدينة .
جوته

مقابلات طلال الخاصة – ، شكوكه – منزلنا – ملاحظات عن الجنسية – بدء الطبابة – خطة الحياة والعمل – المعرفة الطبية : ماضيها وحاضرها في الجزيرة العربية – تأثير دين محمد ونفوذه – الطب الشعبي والمداوون الشعبيون – صلبية – حياتنا اليومية – جولة خارج المدينة ؛ المناظر المحيطة بحائل – السوق في ساعة مبكرة من النهار – الزوار والمرضى – عجيل وشقيقه – عبد المحسن وأطفال طلال الثلاثة – محمد القاضي – فلاح موجاه mogah – دحيم – الهجرة إلى القصيم – السوق قبل الظهيرة – حائل من الداخل – منزل دحيم وأسرته – حالة حمّى – سياسة القصيم ؛ حال المنطقة تحت حكم طلال – أبناء العليان في بريده – توزعهم – أول حروب عنيزه – تدخل شريف مكة – حرب عنيزه الثانية – زامل ومشايعوه – سير الحرب وطبيعتها – تأملات عن مقدرة العرب على التقدم – جولة داخل المدينة – السراب – صلاة الفجر والخطبة – دقة الإلقاء في لغة حائل – طلال في المسجد – لقاءات طلال ومقابلاته المسائية – الأمير رشيد – منزل ضاحي وأسرته – الاجتماعات الأدبية في البستان – تمضيه المساء في حائل – تغيير مسار الأحداث .

وبعد أن تحرر طلال من الجمهور المختلط ، ينتظر لحظة إلى أن انضممنا إليه . وتبادلنا معه التحية المعتادة بردودها المعتادة أيضًا ، وبعد ذلك ، قدمت له الدليل الوحيد الذى كان معنا ، تلك القصاصة التى كتبها لنا حمود عندما كنا فى الجوف ، وفتح الأمير طلال الرسالة ، ثم ناولها لـ ـ زامل ، الذى يجيد القراءة أفضل من مليكه ، ويتخلى الأمير طلال عن كل جهامته وجديته ، ثم تعلو شفتيه ابتسامة حلوة ، ويمسك بإحدى يدى فى يده اليمنى وبيد رفيقى فى يده اليسرى ، ويواصل مسيره معنا عبر الساحة ، إلى أن تجاوزنا الجامع ، ومنه إلى السوق ، وفى الوقت الذى كان خدمه يشكلون فيه حائطًا متحركًا من خلف الأمير وعن يمينه وشماله .

كان طلال مقتنعًا اقتناعًا عقليًا كاملاً أن مظهرنا يقول بأننا سوريون؛ ولكنه تخيل، ولم يكن مخطئًا فى ذلك ، أن هدفنا الأصلى لم يكن ممارسة الطبابه ، ولكن إذا كان صادقًا فى الكثير ، فإنه لم يكن موفقًا فى التفسير الذى فسَّر به لغزنا ، إذ فسر هدفنا الرئيسى على أنه لابد وأن يكون شراء الخيول لبعض الحكومات ، التى لابد أن نكون عملاء لها ؛ وهذا التكهن يمتاز بالمصداقية ، وفى كل الأحوال ، لم تراود طلال ، فى اعتقادى ، أية شكوك عنا ، ولذلك اتخذ قرارًا بالتعامل معنا بطريقة جيدة فيما يتعلق بتجارة الخيول ، وأن يسمح لنا بإبرام صفقة طبية ، مثلما حدث بعد ذلك بفترة وجيزة .

وتأسيسًا على ما سبق ، وجه الأمير طلال إلينا ، سلسلة من الأسئلة والأسئلة الاستجوابية ولكن بطريقة تتسم بالمرح والفكاهة ، إلى الحد الذى جعلنا نستقى من أسئلته واستفساراته مدى إعزازه لنا وإكباره إيانا ، والتزمنا ، نحن من جانبنا ، القرار الذى سبق أن اتخذناه ، والذى مؤداه أننا نمارس الطبابة ، أسرة فقيرة ، وأمل فى تحقيق نجاح كبير تحت رعاية صاحب الجلالة ، وما إلى ذلك من الأمور ، ولكن الأمير طلال ، لم يكن من النوع الذى يسهل إخفاء الأمور عنه، وثبت على حكمه الأول : أى أننا جئنا لشراء الخيول لحساب بعض الدول ، التى نحن عملاء لها ، وفى الوقت نفسه ، مررنا بطول الشارع ، الذى كانت النظارة تحفه من الجانبين طمعًا فى رؤية الأمير ونحن بصحبته ، ثم وصلنا ، فى النهاية ، الباب الخارجى للمنزل الكبير عند نهاية السوق ؛ كان ذلك البيت ملكًا للتاجر حسن الذى جاء من مدينة مشهد على .

وقام ثلاثة من الحاشية باتخاذ مواقع لهم ، أمام الباب الذى يفتح على الشارع ، لأداء مهام الحراسة، وكان كل واحد منهم شاهرًا سيفه فى يده، ودخلت بقية الحاشية ،

برفقه الأمير ونحن في معيتهم ؛ ثم عبرنا الساحة التي اتخذت فيها بقية الحراس مواقع لها ، في حين واصلنا نحن المسير إلى داخل القهوة ، كانت القهوة صغيرة ولكنها مؤثثة تأثيثًا طيبًا ومفروشة بالسجاد ، وفي القهوة أجلسنا الأمير طلال ، إلى جانبه ، حبا فينا ، ودخل شقيقه محمد ومعه خمسة أو ستة آخرون ، وجلسوا كل في المكان المخصص له ، في حين راح حسن يقوم بعملية الضيافة ، من منطلق إنه هو صاحب المنزل .

ووزعت القهوة وأشعلت الغلايين ، وراح ابن الرشيد ، في ذات الوقت يجدد أسئلته واستفساراته ، بأن راح يبدى ملاحظات جانبية عابرة ، ولكن بطريقة تنم عن المهارة ، عن الحكومة السورية ، ثم عن الحكومة المصرية ، ثم بعد ذلك عن البدو الموجودين ، في شمالى الجوف ، أو عن قبائل الحجاز أو القبائل الموجودة على ضفتى نهر الفرات ، مستهدفًا من كل ذلك الاستضاءة بما يُمكِّنه من معرفة الهدف الرئيسي الذي جئنا من أجله. ثم بدأ بعد ذلك ، يسألنا عن الطب، ليكتشف إن كانت لدينا الخبرة المهنية أم لا ؛ ثم تحول بأسئلته إلى الخيول ، التي أوضحنا له إننا جاهلون جهلًا مطبقًا بهذه التجارة ، وهذا بحد ذاته أمر لا يغفر لأي واحد من الإنجليز ؛ وهذا هو ما سوف اعتذر عنه للقارئ الكريم فيما بعد ، وانقضت كل هذه الأسئلة بلا طائل ؛ وعلى امتداد ساعة كاملة لم يتمكن صاحب الجلالة من شيء ، سوى أن ذكاؤه جعله يبتعد كثيرًا عن المسار الذي استنه لنفسه منذ البداية ، وقد استشعر سموه ذلك ، وترك الأمور ، بعد ذلك ، تسير في مسارها الطبيعي ، انتظارًا لما ستسفر عنه الأيام ، وأنهى سموه كلامه ، بأن أكد لنا ثقته الكاملة فينا وحمايته الكاملة لنا ، وعرض علينا أن يكون لنا منزل في منطقة القصر ، ولكننا اعتذرنا عن هذا العرض لأننا كنا نود دراسة البلاد كما هي في واقع الأمر ، وليس من خلال وسيط في البلاط الملكي ؛ ولذا طلبنا إلى صاحب السمو أن يكون لنا منزل قريبًا ما أمكن من السوق : ووعد سموه بذلك ، برغم أننا نحن الذين رتبنا المنزل بطريقتنا الخاصة .

أحضروا لنا بطيخًا ، ممتازًا مقشرًا ومقطعًا ، ومعه خوخ شبه ناضج ، إذ كنا لا نزال في بداية موسم الخوخ ، وشاركنا جميعًا في تناول هذه الفاكهة ، وكان تناول الفاكهة بمثابة إشارة لإنهاء الاجتماع ؛ وكرر لنا الأمير طلال عروضه بحمايتنا ورعايتنا رعاية كاملة ؛ ثم أوصلنا إلى المنزل المخصص لنا ، واحد من أفراد الحرس الملكي .

وانصرف سيف يبحث لنا عن مسكن دائم ينزلنا فيه ؛ وتوفق سيف ، قبل حلول الظلام ، في العثور على منزل يقع في أحد الشوارع المتعامدة على السوق ، ولا يبعد مسافة كبيرة عن القصر ، كان المنزل مكونًا من غرفتين يفصلهما عن بعضهما فناء مكشوف ، به باب خارجي يؤدي إلى الطريق ، ومن فوق الغرفتين كان هناك سقف أملس مستوٍ يحيط به حاجز مرتفع ، وبذلك يصلح أن يكون مكانًا ممتازًا للنوم في فصل الصيف ، كان أحد أفراد الحاشية ، يقيم في ذلك المنزل ، هو حُصين المصري ، الذي أخلى المنزل بناء على أمر سيف ، كي ننزل فيه ، وانتقل حُصين إلى منزل آخر في المنطقة المجاورة . وتفرجنا على المنزل ووجدنا أنه يناسبنا تمامًا ؛ كان طول الغرفة الواحدة ستة عشر قدمًا وعرضها ثمانية أو تسعة أقدام ، كما يصل ارتفاعها أيضًا إلى ثمانية أو تسعة أقدام ؛ وتصلح إحدى الغرفتين لأن تكون مستودعًا ومطبخًا ، في حين يمكن تأثيث الغرفة الثانية لتكون مسكنًا لنا ، كان الوقت ذروة أيام الشِّعْرَى[1] مما يجعل من غرفة النوم ترفًا لا لزوم له ؛ وكان السطح والهواء الطلق أفضل منها من جميع الجوانب ، ولم نكن نخشى السطو أو التعدي علينا ، نظرًا لأن ارتفاع جدران الفناء يصل إلى ستة عشر قدمًا أو أكثر من ذلك ، كان لكل باب قفله الخاص ؛ والمفاتيح هنا مصنوعة من الحديد ، وتعد حائل ، من هذه الناحية ، أفضل من أية مدينة عربية أخرى تصادف أن قمت بزيارتها ، إذا كانت مفاتيح الأقفال فيها تصنع من الخشب ، وبذلك كانت معرضة للكسر وتصبح غير صالحة للاستعمال ، وقبل حلول الظلام ، كنا قد انتهينا من نقل بضاعتنا وحاجاتنا إلى منزلنا الجديد ، وودعنا سيف ، الذي قال لنا بابتسامة حلوة ، إننا إذا أردنا تناول وجباتنا في القصر ، فسوف نجدها جاهزة تمامًا ، كما أبلغنا أيضًا أن إيجار منزلنا الحالي هو على حساب الملك ، الذي نزلنا ضيوفًا عليه ، وأن ننظر إلى أنفسنا من هذا المنطلق ، مهما طال مقامنا . والتمسنا من سيف ، أن يعبر للأمير طلال ، عن امتناننا ، كما التمسنا إليه أيضًا ، أن يقوم ، فور "وصوله إلى منزله" بقفل باب الشارع ، ويتخذ بعض الترتيبات العديدة التي سوف تتضح نتائجها في الغد ، وشكرنا الله على نجاحنا في تجنب الأخطار ، كما شكرناه أيضًا على البداية الرائعة التي ابتدأنا بها أهم جزء من رحلتنا . عند هذا الحد، نكون قد وصلنا إلى البداية فقط ، لقد أصبحنا إلى حد ما ، في "أرض الميعاد" ، وبدأنا نستشعر أهمية كل خطوة وكل كلمة .

(١) أيام الشِّعْرَى : الفترة بين أوائل يوليو وأوائل سبتمبر وتتميز بجوها القائظ الشديد الرطوبة في نصف الكرة الشمالي . (المترجم)

زد على ذلك ، أننا بوصفنا من البشر المتحضرين ، لا أكثر ولا أقل ، فإن الشكل العام للسلطة ، والنظام ، والكثافة السكانية والازدهار ، والحيوية والحكم ، ومساحة القصر ، والاستحكامات ، أو أن شئت فقل : طاقم العاصمة كله ، إضافة إلى شخصية حاكمها وطبيعته ، كل ذلك لم يفشل في ترك انطباع أكيد لدينا وعلى عقولنا وفي حواسنا ، جعلنا نتعود طوال عدة أشهر مضت على وحدة الصحراء ، وعلى النظام شبه الهجمي في كل من مُعَان والجوف ، بل جعلنا نتعود قبل ذلك أيضًا ، على فوضى الحكم التركي السيئ ، أو غيابه في سوريا ، فقد قال رفيق رحلتي ، فور وصوله إلى حائل ، والذي لم ير في حياته شيئًا أفضل من مشاجرات لبنان والفوضى التي تعم مناطقه ، قال هذا الرفيق عندما وصل إلى حائل : "هذه حكومة جادة بمعنى الكلمة" . وللحق أقول : إن إدارة طلال وحكومته تتفوق تمامًا على الإدارة العثمانية ، ولكنها لا تصل إلى مرتبة الإدارة الإنجليزية أو الروسية .

أولاً وقبل كل شيء ، يجب أن نقر أن القومية (الوطنية) شئ طيب ، وأن الحكم الأجنبي يعد بديلًا هزيلاً عنها ، هنا ، نشاهد حاكمًا عربيًا ، يحكم عربا بطريقتهم العربية الوطنية الخاصة بهم ، وينجح نجاحًا منقطع النظير في نشر الأمن والسلام في ربوع بلاده ، وفي تأمين السعادة لرعاياه ، وتأمين استمرار تطبيق النظام والقانون والعدالة ، والحفاظ على نظام هادئ ومستقر في بلاده ، أكثر مما حققه أو يستطيع تحقيقه أي موفد من القسطنطينية سواء أكان خورشيد باشا ، أم فؤاد باشا ، أم عمر باشا ، في المناطق التي أوفدوا إليها . إن الحاجة لا تفصح عن الأسباب أو المسببات ؛ والعقل المفكر (والسياسة الشرقية بحاجة إلى واحدة من هذا القبيل) يستطيع أن يكمل الباقي . ولو قدِّر للنظام المطبق في حائل ، أن يطبق في كل من سوريا ، وبغداد ، ووادي الموصل ، وأراضي ما بين الرافدين العليا ، لكان ذلك خيراً ومنفعة لهذه المناطق كلها ، وليس من حق المؤلف أن يتكلم عن أوربا ، التي يستطيع فيها البولنديون ، والصرب ، والصقلِّيون وبعض الأعراق الأخرى حل مشكلتهم باتباع هذا النظام نفسه . أما فيما يتعلق بآسيا ، والتي يقع الجزء الأكبر منها بين كاراداغ Kara - Dagh وعدن ، فأنا أجدني هنا أقول وبلا أي تردد ، إن العلاج (وآسيا مريضة جداً في الأماكن التابعة فيها لـ "الرجل المريض")[1] يكمن أولاً وأخيراً في تجديد قوميتها .

(١) المقصود "بالرجل المريض" هنا هو تركيا - (المترجم)

وفى صباح اليوم التالى ، الموافق التاسع والعشرون من شهر يوليو ، من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وبعد ساعة تقريبـاً من شـروق الشمس ، وجد الجائلون فى المدينـة (وهم هنا كثر مثل أولئك الذين يتسكعون على جسر كوفنترى) فينا وفى منزلنا مركزاً جديداً للفضول والجذب ، وهذا هو ما كنا نريده تماماً ؛ وترتيباً على ذلك ، تركنا بابنا الخارجى مفتوحاً عن عمد ، وعرضنا منظر المنزل الداخلى على النظارة المسرورين .

ورتبنا أطراف السجاد ، والأخْرَاج الفارغة وما إلى ذلك ، حول جدران الفناء ، وعلى امتداد الظل الناتج عنها ، بشكل يناسب كل من يأتى لزيارتنا أو لاستشارة الطبيب الكبير، وأنا هنا ، وبصفة نهائية ، استميح كلية الطب عذراً ، أن تسامحنى على انتحال صفة الطبيب التى أنا عليها الآن ، فأنا لم أحصل على أية درجة علمية ، حتى ولو من ابردين Aberdeen ، وخير الكلام ، أن الوضع الذى كنت فيه كان فظيعاً وشائناً ، وخداعاً لا يغتفر، فى جميع الأحوال ، ولكنى لم يكن بوسعى تجنب ما حدث . وأنا على يقين من أن الظروف المحققة والشخصية الطبية المسبقة قد ينقذانى من "المحاكمة طبقاً للقانون"، صحيح إننى انتظمت ، خلال السنوات القليلة الماضية ، وحصلت على فرص للدراسة فى أوربا ، وممارسة الطب الآسيوى ، من منظور فن هواية ممارسة الطب ، وأستطيع القول بحق أننى حصلت على الخبرة المطلوبة للحالات المعتادة . كنا قد فرشنا الغرفة الداخلية ، التى على يسار الفناء ، بالسجاد الجيد ، وجلست فيها متربعاً ، ومن أمامى ميزان ، وهاون من النحاس الأصفر ، وهاون من الزجاج ، وحوالى خمسين أو ستين صندوقاً من الأدوية ، وصفٌ من القوارير ، زد على ذلك ، أن الكتابين العربيين فى علم الطب ، اللذان وضعتهما إلى جانبى كان يجيبان على جميع الأسئلة التى قد تدور حول الشهادة التى أحملها؛ ومن كتب الرفيق الملازم[١] الإنجليزية أو الفرنسية، كان لدى كتابان فقط، خبأتهما خلف المسند الذى وراء ظهرى ، كى أرجع إليهما فى الخفاء ، إذا دعت الضرورة ، أما رفيقى ، الذى حاول ، قدر المستطاع ، أن يظهر بمظهر مساعد الطبيب، فقد جلس خارج الغرفة قريباً من الباب ، وكانت مهمته تتمثل فى سؤال الزائرين عما يريدون ، وأن يدخلهم الواحد تلو الآخر إلى الملتجأ المهنى ، وفى الغرفة المقابلة ، على اليمين ، كانت هناك غلاية ، وكومة من

(١) الرفيق الملازم : vade - mecum المصطلح من أصل لاتينى ، وهو يعنى كتيب يحمله المرء فى جيبه لمراجعته أو الاستعانة به عند الحاجة . (المترجم) .

الخشب ، وبطيختان أو ثلاثة ، وخبز ، وتمر ، إلخ ، وكلها توحي بشيء أفضل من المطهرات والمقيئات الموجودة على الجانب الأيسر - وكنا قد ارتدينا ، بطبيعة الحال ، أفضل ثياب أيام الأحد ، بمعنى أننا كنا نرتدى قمصانا نظيفة ، وغطاء رأس مهذب ، ورداء خارجى ، أو أن شئت فقل : كمباز - وهم يقولون له هنا زابون ، أما فى بريطانيا فقد يقولون له : رداءً مشَّجراً ، كان ذلك ، هو المظهر الذى ظهرنا به فى حائل ، عندما بدأنا عملنا فيها ، ورحنا ننتظر مجيء أول زبون إلينا .

ولم ننتظر وقتًا طويلاً ، وسرعان ما امتلأ فناء المنزل عن آخره بزبائن من القصر وآخرين من المدينة ، من بين الزوار كان هناك واحد ، جاء يطلبنا للذهاب إلى منزله للكشف على أحد أقاربه المرضى ، وزبون آخر كان يعانى من مرض شخصى ، وهذا شخص ثالث جاء بدافع فقط من الأدب أو الفضول ؛ باختصار كان هناك زبائن يعانون من أمراض كثيرة ، ومن مختلف الأعمار ، ولكنهم بشكل عام بسطاء وحميمين ، الأمر الذى مكننا من التعرف على المدينة ومحتوياتها بشكل سريع جداً ، واستهدافا منا ، للحفاظ على وقتنا ، وللحفاظ أيضًا على كرامة وشعبية الوضع الذى نتمتع به ، اتفقت مع رفيقى على نظام محدد ، التزمت به ، فى كل مدينة من المدن ، التى توقفنا فيها طوال الجزء المتبقى من رحلتنا ؛ ونجح هذا النظام نجاحًا منقطع النظير فى تحقيق أهدافنا الحقيقية والظاهرية ؛ من هنا سوف أشرح هذا النظام ، كيما يستفيد منه الأطباء الدجالون ، والمدّعون والرحّالة .

قررنا منذ البداية ، عدم ممارسة مهنة الطب مع السيدات والأطفال الصغار ، وكان ذلك أجراء لابد منه نظراً لمحدودية معرفتنا الطبية ، وتجنبًا منا للفشل ، وأن نوفر الكثير من الوقت لنقضيه فى تمتعنا بما حولنا .

وضعنا خطة ثابتة لأعمالنا اليومية ، ولكن بعد أن لاحظنا حياة الحضر العربية فترة من الوقت ، وسوف أتناول هذه الخطة فيما بعد بشىء من التفصيل .

ثالثًا ، قررنا ألا نرفض أحداً من الرجال الذين فى مرحلة سنية معينة ، منذ الوهلة الأولى ، وأن نرحب بهم ترحيباً طيبًا ، كما قررنا أيضًا ألا نترك أحداً منهم ، يذهب إلى حال سبيله ، إلا بعد أن نسحبه فى الحديث بما يخدم أهدافنا ؛ ومع ذلك ، قررنا ، فى ذات الوقت ، عدم الدخول فى علاج منتظم مع أحد من أولئك الشخصيات ، التى لا نكون قد تعرفنا عليها تعرفًا تامًا من الناحية الاجتماعية وزخم شخصيته بصورة عامة .

وأنا أتصور أن دوافع الحرص الواضحة فى أرض غريبة هى التى تحتم علينا الالتزام بالاحتياطات التى من هذا القبيل ، ومع ذلك ، فقد جاء التزامنا بهذه الاحتياطات نتيجة لسبب خاص ، والمعروف أن العرب ، لا يدفعون مطلقًا ، بل ومن الصعب أن يدفعوا ، للطبيب أتعابه إلا بعد الشفاء ، وطريقتهم فى ذلك أن يشترطوا مع الطبيب ، منذ البداية ، وهو ما يقولون له بلغتهم "على البر" بمعنى "شريطة أن يتم الشفاء" ؛ وهنا يدفعون الأتعاب إذا ما تحقق هذا الشرط ، وعادة ما تكون الأتعاب مبلغًا كبيراً أو صغيراً ، حسب خطورة المرض ، وشدة الحال المرضية وبعض الظروف الأخرى التى تحيط بالمريض ، وإذا لم يحدث الشفاء ، فعلى الطبيب إلا يتوقع الحصول على أى مقابل .

وأنا لا أعرف مدى استساغة أطبائنا مثل هذا النظام ، برغم أن المرضى هم الذين يستفيدون من مثل هذا النظام ، من حين لآخر ، ومع ذلك ، فمن الواضح ، أن نظام العمل هذا ، يقنن كثيراً من الاحتياطات التى يتخذها الطبيب ، وإلا فإن عمله وشهرته سوف يتبددان بسرعة ، وهذا يحتم التأكد من طبيعة قدرة الطرف الثانى على الوفاء بالتزاماته المالية ، ثم يتم بعد ذلك ، استدعاء الشهود ، ثم بعد ذلك تحديد المقصود بكلمة "شفاء" تحسبًا للروغان والمغالطة ، وأخيراً ، يقوم الطبيب (إن كان على أية حال ، من أمثالى ، برغم أنى يؤسفنى أن أقول ذلك) بالتأكد ، قدر المستطاع ، من أعراض المرض ، وإذا ما وجد الطبيب أن المرض ، من الأمراض ، التى سوف يتعذر شفاؤها ، فالأفضل له أن يرفض الحالة ، التى من هذا القبيل .

ولكن ، إذا كان رفض الطبيب ، للحالات التى من هذا القبيل ، سيكون بهذه الصورة السافرة المباشرة ، وهو ما يؤثر على سمعته عند الناس ، فالأفضل له أن يلجأ إلى أساليب متنوعة ، طبقًا للظروف التى أمامه ، وعلى سبيل المثال ، إذا وجد الطبيب أن مرض المريض ، سوف يفضى به إلى الموت ، فلعله يعلن ، مع مثل هذا الموقف ، أن أحكام الله لابد من نفاذها، وأن الله وحده هو الشافى وهو البارئ. وقد ذاعت شهرتى ، وذاع صيت علمى الخارق ، فى أحيان كثيرة ، على أثر تحقيق ، خلال أيام أو ساعات قلائل بعض هذه المقولات ، الخاصة بأعراض الوفاة التى لا تخطئها الأعين الخبيرة المدربة ، والتى غابت عن أعين أهل المريض بحكم جهلهم العلمى ، كم هى سهلة ممارسة الطب هنا !

وفى الحـالات الأقل خطورة ، ولكنهـا أيضـًا تتـأرجح بين هذا وذاك ، وجـدت أن من المناسب تحديد أجر العلاج ، شىء تقريبى ، أى ما يساوى عشرة جنيهات إسترلينية ، على سبيل المثـال ، أو ما يقرب من ذلك ، وكنت على ثقة من أن أحداً من العرب لن يوافق على مـثل هذه الأتعـاب ؛ مما يعطينى فرصـة إرضـاء المريض ببعض الكلمـات الطبية ، مع رفض الحالة .

ومع ذلك ، فقد كنت ، التقى بين الحين والآخر ، بعض الأفراد المرضى العقلانيين تماماً ، الذين كانوا يوافقون على قبول مساعدتى لهم ، ويعرضـون علىَّ مبلغاً محدداً من المال ، يدفعونه بغض النظر عن النتيجة ، وكانوا يوفون بوعودهم بصورة دائمة ، برغم أنى كنت أقول لهم منذ البداية : إن فروع الطب كلها تهدف إلى تخفيف الألم ، وأن هذا التخفيف إذا ما كان مصحوباً بشىء من التحسن ، فإن ذلك يكون بعد وقت طويل ومداومة على العلاج ، غير أن هذه النوعية من البشر كانت بمثابة استثناء من القاعدة العامة .

ويجب أن يكون القارئ قد فهم أن مسألة توزيع الدواء أو تقديم المساعدة الطبية "بدون مقابل" بالطريقة المعتادة فى الجزيرة العربية ، يعد نوعاً من الجنون ؛ وانتهاج خط كهذا قد يفشى سر الغريب ، فى النهاية ، ويسمه بالجاسوسية ، وهذا يحتم ، على الغريب ، أن يكون على العكس من ذلك ، أى يبادر إلى الحرص ، أكثر من المحامى ، على أتعابه ، ويجعل الطرف الآخر يحس ؛ بأن هذه الأتعاب هى الهدف الرئيسى من أسفاره .

وفى جميع الأحوال ، وأيا كانت مهارة الطبيب الحقيقى أو الطبيب المدعى ، فإنه سـوف يجـد عـرب الداخل فى الجـزيرة العـربيـة مـرضى من نوع غـريب . ومع أنهم متحضرين فى نواح أخرى كثيرة ، ولا يفتقرون إلى وضوح الإدراك أو المعرفة المحلية ، فإنهم لا يعدوا أن يكونوا مجرد أطفال فيما يتعلق بالشئون الطبية ، ولا يعرفون شيئاً عن المعطيات أو الأفكار الأولية لهذا العلم ، من هنا فإن معرفتهم الطبية تحتاج إلى الكثير من الصبر والروح المرحة ، بل حتى قليل من الشعوذة البريئة من حين لآخر . والسبب فى ذلك ، أن هؤلاء المرضى قد يعتبرون الأدوية التى يطلبونها أو يبغونها ، أقل من الرُّقى والتعاويذ التى ينتظرون منها أن تحدث، فى الحال ، تغييراً مادياً محسوساً ، دون أى التزام منهم بتناول أطعمة معينة ، أو لبس ثياب معينه ، وما إلى ذلك عن الأمور

الأخرى ، التى يعتمد ثلثا النجاح عليها ، فى أغلب الأحيان ، فى كل من آسيا وكذلك فى أوروبا ، وإذا حدث ولم يشف المريض بعد يوم أو يومين أو يتحسن تحسنًا كبيراً ، فإنهم تجدهم يقولون : "لم يحدث الدواء أى تقدم" ، ويتخلون بعدها عن الطبابة والطبيب ، وبناء على ذلك ، من الأفضل على الطبيب الحقيقى أو المدعى ، كلما استطاع ذلك ، أن يبدأ علاجًا حاسمًا منذ البداية ؛ والسبب فى ذلك أن العلاج الإنسانى أو "الطب المنتظر" لا يصيبان نجاحًا هنا ، ويجب أن أضيف هنا ، أن النسيج العربى الجاف يحتاج ، فى العادة إلى جرعات ، قد تؤدى بحياة الأوربى ، إذا ما تعاطاها ؛ وقد تعلمت ، بالخبرة هنا ، أن أضاعف حجم الجرعات فى الكتيب الذى كنت أصطحبه معى .

ربما يود القارئ أن يعرف على وجه الدقة ، مقدار المعرفة المكتسبة أو مقدار الجهل فى المجال الطبى فى الجزيرة العربية حديثًا : أقول إن معرفة العرب بالطب كبيرة إذ من المشهور عنهم فى أوربا أنهم أن لم يكونوا مؤلفى كتب الطب ، فهم الذين أحيوا فن الشفاء على أقل تقدير .

ولكن هذا خطأ عام وشعبى، والسبب فى ذلك، إن معرفة أطباء الشرق فى بغداد ، أو إخوانهم الغربيين ، فى قرطبة ، فى مجال الطب كانت مستقاة من الترجمات التى قاموا بها لكل من «أبوقراط وجالينوس» ، كما كانت هذه المعرفة مستقاة أيضًا من فيزياء أرسطو والمقالات التى كتبها سيلسوس ، والتى تجسدت فى المؤلفات والنصوص البيزنطية ، وأعمال الإغريق المحدثين ، وقد ترجمت هذه الكتب بشىء من الدقة إلى اللغات العامية ، وعلى أيدى أناس ، لم يكن بينهم وبين العرب من روابط سوى أنهم يكتبون باللغة العربية (كما هو الحال عندما يقوم بروسى من دوسلدورف من حين لآخر ، بنشر مؤلفاته باللغة الفرنسية) ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البشر كانوا يدينون بدين محمد ، وأنهم هم الذين أصبحوا بمثابة الأساس ، وكذلك البنية الفوقية ، أو إن شئت فقل : كل شىء فى علم الطب ، من ألفه إلى يائه ؛ ولكن الذين جاءوا بعدهم لم يضيفوا أى شىء ، اللهم باستثناء بعض القوائم المتناثرة غير الدقيقة لبعض الأعشاب الفارسية ، أو الأفريقية أو المصرية ؛ وقد بقيت مقالاتهم ومؤلفاتهم غير المنظمة وغير العلمية أيضًا ، إلى يومنا هذا ، شاهداً على المعرفة الطبية العربية .

ولكن ومضات العرب الأولى فى مجال الطب والطبابة سرعان ما خبت وأوقفت بسبب جمود الإسلام[1] ، وقوته الخارقة التى ليست فى محلها ، يضاف إلى ذلك ، أن أحاديث محمد (ﷺ) ، سواء أكانت من عنده أم لا ، والتى تؤخذ فى الحسبان ، حتى تجعل للنبى مكانًا بين صفوف أولئك الذين يستطيعون شفاء الجسم ، هذه الأحاديث تم الخلط بينها أو إحلالها محل الوصفات التى وردت عند جالينوس ، ومحل المفاهيم التى وردت عند «أبوقراط» ؛ زد على ذلك ، أن إنكار أو تحاشى النظريات الصحية ، التى أتى بها راعى الغنم المكى ، قد يعرض المرء للاتهام بالكفر والزندقة على أقل تقدير ، الأمر الذى يترتب عليه الكثير من النتائج الوخيمة ، وقد أدى التدخل الإلهى المحتوم فى كل شىء ، كما يقول الإسلام ، إلى الحيلولة دون البحث[2] ، بأن رد كل ظاهرة من الظواهر إلى السبب الكونى العرفى الواحد ، وبذلك نجد أن الإسلام ، فى هذا المجال ، راح يقطع كل عقدة من العقد بدلًا من أن يحاول حلها . أضف إلى ذلك ، أن تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة، وكذلك الدراسات التشريحية، نظر لها الإسلام ، ولا يزال ، نظرة مريعة ، من منطلق إنها انتهاك لحقوق كل من منكر ونكير ، الملكين العظيمين ، فى حين يُعَد الإسلام الإصرار على الخصائص الشفائية أو الضارة ، لهذا الشىء أو ذاك ، بمثابة نقل سافر لأشياء يختص بها الخالق (سبحانه وتعالى) ، إلى المخلوق . وهذا ليس مبالغة منى ؛ فقد سمعت هذه الأفكار خمسين بل مائة مرة من المسلمين المتشددين ومن المسلمين المفكرين أيضًا ، وعلى ذلك ، يكون العرب ، فى غياب معرفتهم للهيكل الإنسانى ، وفى غياب معرفتهم لعلم الأدوية الكيماوى ، وإبعادهم هذا العلم عن العلوم التجريبية ، ورفضهم العلوم النظرية ، قد وصلوا ، منذ البداية تمامًا ، إلى موقف لا حراك منه ، وبقوا منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا ، فى ذلك الموقف المتحجر ، أو إن شئت فقل بقوا راضين عن جهلهم ومرتاحين إليه .

(١) هذا الوصف ليس صحيحًا ، والأصوب أن يقول جمود المسلمين ، أما الإسلام فهو يتلاءم ويتفاعل فى تشريعاته واجتهاداته مع كل الأزمان وسائر الأحوال - (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) هذه مغالطة عن الاسلام ، لان الإسلام أقر قانون السببية ودعا إلى الأخذ فى الأسباب ، وإلى البحث عن علل الأشياء يقول تعالى "قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ..."وفى سنن ابن ماجد : يقول (ﷺ) - (تداوا عباد الله فإن الله سبحانه وتعالى لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهَرَم) ، وفى صحيح مسلم عن جابر عن رسول الله (ﷺ) قال (لكل داءٍ دواء فإذا أصيب دواء الداء بَرَأ بإذن الله عز وجل) صحح مسلم كتاب السلام ٧٦ .

يكفي ما أوردته هنا عنه المدرسة السورية والمدرسة البغدادية والمدرسة الأسبانية بل حتى المدرسة المصرية إلى أيام حكم محمد على ، وعرب الجزيرة العربية أنفسهم ، برغم أنهم كانوا أكثر تحرراً بشكل عام ، من تأثيرات الإسلام الخانقة ، التي رفضها إحساسهم الجيد برغم إقرارهم لها واعترافهم بها من حيث الاسم ومن حيث التفكر والتأمل ، هؤلاء العرب استطاعوا أن يتعلموا من العلوم الطبية ذلك القدر الذى سمح لهم به علماء الطب ومؤلفوه ، من خلال المخطوطات القليلة المهترئة التى يحتمل أن تكون قد تسربت إلى داخل الجزيرة العربية ، والمثل العربي يقول : لا يَفُلّ الحديد إلا الحديد ، والفكر الإنسانى هو الذى يفل الفكر الإنسانى أيضاً ، والاتصال والتواصل هو أهم وأول شرط من شروط التقدم ، غير أن العرب ، فى مجال الاتصال والتواصل ، كانوا معزولين تماماً ، إذ كان يحيط بهم بحر الرمال ، ولذلك بقى العرب معزولين عن الجزء الأكبر من ذلك التقدم الفكرى الذى لا يأتى إلا عن طريق الاتصال الحر مع البلدان الأخرى ، والغرابة ليست فى أن العرب فشلوا فى استيعاب الحضارة الجديدة والمعرفة الجديدة ، ولكن فى محاولتهم الاكتفاء بحضارتهم فقط ؛ الغرابة ليست فى أنهم لم يتقدموا ، وإنما لأنهم تراجعوا عن مركزهم ، لقد استطاعت بعض الظروف غير المواتية أن تدخل أعراقًا كثيرة في غياهب الهمجية والتخلف ، كانت التربة العربية صالحة ومناسبة ، ولكن ؛ فيما يتعلق بالعلـــوم ، التى نحن بصددها هنا ، لم تكن لها بـــذور ولا زرّاع . وأخيراً نجد أن الجو الوهابى الخانق ، والأزوت الإسلامى النقى ، ينتشران على النصف الأفضل من التربة ، ليخنقا تلك الحيوية التى اكتسبتها مؤخراً .

وجاءت النتيجة مطابقة للتوقعات ، وإذا دخلنا فى التفاصيل نجد أن نباتى السنّا والحنظل ، عبارة عن منتجين طبيعيين، وتأثيرهما على الاقتصاد الحيوانى واضح وبيّن، هذان النباتان هما الدواءان اللذان لا يعرف أهل الجزيرة سواهما . يضاف إلى ذلك ، أن الكبريت ، وكبريتات الزئبق ، وكبريتات الزنك تشكل قائمة العلاج الظاهرى . ويشيع بين البدو الذين يصابون بالإمساك ، استعمال جرعة مستخلصة من مملكة زهرة الكاميلية ، وهم يتناولون هذه الجرعة دون أن يخففونها بالماء ، والبدو يعرفون النّزْف ، وبخاصة عن طريق الذراع ، ولكنهم يندر أن يلجأون إليه ، نظراً لأن قلة قليلة منهم هى التى لديها الخبرة أو الأدوات اللازمة لمثل هذه العملية ، ولى صديق ، اسمه حنّوس ، أجرى هذه العملية ذات مرة باستعمال البلْطه ! والأغرب من ذلك ، أنه لم يقطع الذراع ولم ينتج عن ذلك التهاباً فى الوريد ، والعلاج بالكى الفعلى ، هو العلاج الوحيد الذى

يشيع استعماله هنا ، ويتحمله الناس بصبر ، يستثير الدهشة والعجب ، ومهما كان الألم ، وأينما كان موضوعه ، تجدهم يستعملون ميسم الكي بعد تسخينه ؛ وإذا ما تأوه المسكين وجأر بالشكوى من الألم بعد انتهاء الكي ، فمن المؤكد أنه سيكوى مرة ثانية أيضًا .

والجهل يعد مضيعة للوقت ، إذا لم يكن مقرونًا بالمعرفة ، وكل إنسان ، بما في ذلك الزنوج العبيد أنفسهم ، يحفظون عن ظهر قلب ، التقسيم الرباعي للتكوين الإنساني ؛ والأسئلة التي تطرح هي : "هل أنت مصاب باختلال في وظائف الكبد؟" "هل أنت متورد الوجنتين ؟" "هل أنت فاتر الهمة وكسول ؟" "هل أنت حزين ؟" ومن يطرح هذه الأسئلة ، يعلق أهمية كبيرة على الإجابات التي تجيء ردًا عليها ، والنظرية التي لديهم ويستطيع أي إنسان غير مثقف أو متعلم ، أن يعمل بدون هذه النظرية تقوم على الحالة المزاجية الرباعية ، وبناء عليه فإن الطبيب الحقيقي وكذلك الطبيب المدعي ، مهما كانت القيمة الذهنية التي يعلقها على هذا التصنيف العتيق ، لابد أن يأخذ هذا التقسيم الرباعي بعين اعتباره ، وأن يقحمه في القرارات التي يتخذها ، إذا أراد أن يخرج نفسه من دائرة الجهل المطبق في كل من نجد وحائل .

وعلى كل حال ، فإن روح هؤلاء الناس الطيبة ، بالإضافة إلى حصيلتهم الكبيرة من الوعي الفطري فضلًا عن ملاحظتهم الجادة غير المتأنية ، كل ذلك يخفف من المصاعب التي تواجه الطبيب ، من هنا ، لا داعي لليأس ؛ وإذا ما تفشت القسوة في لندن أو بروكسل ، فإن قضاء بضع سنوات يمارس الطبيب خلالها الطبابة في نجد ربما تصلح الأمور .

وأنا قبل أن انهي الحديث عن موضوع الطب ، يتعين على هنا أن أقول شيئًا عن ممارسي الطب المعتادين الذين ينتشرون حاليًا في كل أنحاء الجزيرة العربية ، فمن حدود سوريا ، إلى الوديان الداخلية في نجد ، تنتشر قبيلة عجيبة ولها اسم عجيب أيضًا ، فالاسم واحد في كل مكان والطابع واحد في كل مكان أيضًا ، كما تتميز هذه القبيلة عن جميع العشائر المحيطة بها ، كما يسهل أيضًا تمييز هذه القبيلة عمن هم حولها ، فضلًا عن شهرتها الواسعة لدى كل من لهم صلة بالصحراء وروادها ، وإذا كان القارئ من أولئك المهمتين بالصحراء ، فإنه سوف يفهم على الفور ، أنني أتكلم هنا عن قبيلة الصلبية ، التي يوحي اسمها بأنه مشتق من الصليب ، علاوة على التقاليد

الخارجية والداخلية التى تؤكد الأصل المسيحى لهذه القبيلة ، ولكن هذا يمكن نفيه من جوانب أخرى ، ومن بين الأسباب التى تثبت أصل هذه القبيلة المسيحى : أسلوب حياة هذه القبيلة ، فهى لا تشترك فى حروب ومنازعات القبائل الأخرى ، ولا ترتبط بهذه العشائر عن طريق المصاهرة أو الزواج أو بأية طريقة أخرى ، والمهنة الوحيدة التى تمتهنها هذه القبيلة هى صيد النعام والغزال ، وهم لا نظير لهم فى هذا المجال . ومع أن هذه القبيلة ، فى حدود ما أعرف ، لا تحتفظ سوى بنتف صغيرة ، من السمات الأساسية للمسيحية ، إلا أن لديهم سمة سلبية أساسية من سمات المسيحية ، تتمثل فى كراهية دين محمد كراهية شديدة ، الذى يشتركون ، مع السواد الأعظم من البدو ، فى تجاهله وعدم الالتزام به بصورة علنية ، والواقع أن الصليبة ، غرباء تمامًا على السلالة العربية ، وأنهم ، نقلا عما يقولونه ، ينحدرون من فرع شمالى ، والذى يؤكد ذلك ، هو بشرتهم الشقراء ، وملامحهم الواضحة ، والجميلة فى بعض الأحيان ، يضاف إلى ذلك أن عيونهم الفاتحة تدل على أنهم من أصل سورى وليسوا من أصل عربى ، فى حين أن يتعارض أسلوب المرح الذى يميز حياتهم ، مع سمة التجهم والشك التى تبدو على أولئك البدو الرحل ، الذين يعيشون بينهم . وقد التقيت بهؤلاء الناس مصادفة ، فى أحيان كثيرة ، وسوف آتى على ذكرهم فيما بعد ، فى مرحلة لاحقه من هذا الكتاب .

وسكان شبه الجزيرة العاديين ، يعزون إلى بدو صليبة معرفة بفن العلاج تفوق معرفتهم ؛ وهذا ، له سببه أيضًا ، إذ من المسلم به بين أتباع محمد (ﷺ) أن المسيحيين هم أهل الطبابة وأساس تراثها ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أتباع محمد يعترفون بتأخرهم فى هذا المجال . من هنا ، فإن أتباع محمد (ﷺ) ينظرون إلى مسألة البحث عن الاستطباب بين بدو الصليبة ، على إنها شىء طبيعى جداً ، وقد سمعت قصصًا كثيرة تروى عن الصليبة وعن مهارتهم فى الطب ، وبعض هذه القصص تتسم بالطابع الوحشى ، برغم أنها ليست مستحيلة تمامًا ، ولكن نظراً لأنى لم يسمح لى الحظ قط برؤية أى من هذه الحقائق ، فأنا أفضل ألا استطرد فى حكايتى بأن أضمنها أشياء يدور الشك من حولها ؛ يكفى أن أقول : إن البذل ، واستخراج الحصى ، وهذه العمليات التى تحتاج إلى مهارة من قبيل مهارة أستلى كوبر Astley Cooper أو برودى Brodie، كان جراحو الصليبة يجرونها ، وكان الناس يتحدثون عن تفاصيل هذه العمليات الدقيقة ليضفوا عليها مسحة من الصدق ، إضافة إلى أنهم كانوا

يعالجون كثيراً من الأمراض المعقدة على اختلاف أنواعها ، وكل ذلك يجعلنى أفترض وأسلم بأن نيوع صيت هذه الخاصية الطبيعية الشـاردة لابد وأن يستند إلى شيء من الحقيقة .

زد على ذلك ، أن الأطباء المدعين من المغاربة والبلوخ يتجولون عبر شبة الجزيرة العربية من حين لآخر ، ويدعون انهم يعالجون المرضى ويشفونهم ، ولكنهم لا يصيبون سوى قليل من النجاح مع المرضى ، ولا يصيبون نجاحاً ماليًا لأنفسهم ، ولم يحدث قط أن سمعت أحداً يثنى عليهم ، وأنا بدورى لم أكن أتوقع ذلك أو انتظره من البدو .

إن مـا أوردته لحـد الآن يكفى لإعطاء فكرة عن الخط الذى ينبـغى أن نسلكه فى مـهنتنا المدّعـاة . فقـد حـافظنا طوال المرحلة المتبقيـة من رحلتنا على طابعنا الطبى ، واصبح هذا الطابع هـو كل مـا نعول ونركز عليه عندما نقدم أنفسنا للغير ، ولم نسـمح لأى إنسـان ، كبر أم صـغر ، أن يعرف أى شىء ، غير ذلك ، عنا ، اللهم إلا إذا دعت الضـرورة ، إلى غـير ذلك ، أو فـى الظروف الفـردية الملحـة ، تلك الظروف التى واجـهنا ظرفًا واحداً فيها بعد ذلك ، بأسابيع قلائل .

أدت طبيـعـة العـمل الذى بدأنا القيـام به إلى التزام روتين يومى ، برغم أن هذا الروتين كان يتنوع فـى أحيان كثيرة نتيجة الظروف الطارئة ، ولعل مجرد صفحة واحدة من يومياتى ، التى بدأت أداوم على تدوينها والانتظام فيها ، توضح للقارئ وتضع أمام عينيـه نموذجًا لمجرى حياتنا المعتـادة وطبيعة مـجتمع حائل ، فى حـين أن مثل هذه الصـفـحة ، قد يعطى القارئ ، فى الوقت ذاته ، فكرة أكثر وضوحًا ، عن المدينة وعن أهلها ، أكثر مما قدمـنـاه حتى الآن ، ومن الجميل أيضًا ، أن يتـعقب المرء ، من جديد ذكريات الأيام الحلوة ، وقـد كانت أيامنا حلوة هنا بالفعل ؛ وأنا على ثقة أن القـارئ سوف يشاركنى بعضـًا من هذه المشاعر والذكريات الحلوة .

وسوف أختـار للقارئ الكريم ، مذكراتى عن اليوم العاشر، من شهر أغسطس من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وسـوف أقوم بتجميع الملاحظات التى دونتها ، عن ذلك اليوم ، واسـتكمل النواقص لتكون جـاهزة أمام عينى القارئ ، كان بوسـعى أيضًا أن أخـتـار اليوم التـاسع أو اليـوم الحـادى عـشـر ، وهـما يومـان من الأيام الحلوة أيضـًا ؛ ولكن اختيـارى لليوم العاشر ، جاء من منطلق أن حجيته بالنسبة لى ، تزيد قليلاً عن اليومين الآخرين ؛ يضـاف إلى ذلك ، أن هذا اليوم لا يبدو لى مـجرداً من الهـدوء والواقع برغم

أنه ليست له أهمية كبيرة ، وعلى كل حال ، وعزاء منى لأولئك الذين يجدون متعة فى حكايات المعارك الشرسة ، وحوادث القتل ، وما شابه ذلك ، فأنا أحذرهم بصورة مسبقة من أية واقعة تكون مشبعة بالأحداث المثيرة التى من هذا القبيل، لابد وأن تقدم، بحكم الضرورة ، فى مكانها الصحيح كما لو كانت بقعة قرمزية اللون على أرضية خضراء هادئة .

فى ذلك اليوم ، الموافق العاشر من شهر أغسطس من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وبعد أربعة عشر يوماً من مقامنا فى حائل ، وبعد أن تعودنا على حياتنا الجديدة ، فى المدينة ، نهض كل من سليم أبو محمود العيص ، وبركات الشامى ، – وهذان هما الاسمان اللذان اخترناهما لى ولرفيقى – ليس من سريريهما ، لأنهما لم يكن لديهما أسرَّة ، وإنما من فوق السجاد الذى كان قد فرشاه فوق سطح المنزل ، واستفادا من السكون الذى يسبق مطلع الفجر ، فى الوقت الذى لا تزال النجوم فيه تحرس من السماء ، سكان شومر النائمين ، ويغادرا منزلهما فى رحلة بَرَاد هادئة سيراً على الأقدام قبل أن تشرق الشمس ويبدأ الناس أعمالهم ، ويذهبون إلى أعمالهم . وأغلقنا الباب الخارجى ، وبدأنا السير فى ضوء القمر ، عبر الشارع المقابل لنا ، الذى يؤدى إلى السوق ، وسرنا فيه ، إلى آخره عند الطرف الجنوبى الغربى ، حيث تفصل الشارع عن بقية المدينة بوابات كبيرة ، كانت كلاب المدينة المتنئبة ، التى يجعل نباحها ، وعضها السير فى الشوارع أثناء الليل ، عملية محفوفة بالمخاطر ، تسير متشامخة فى ضوء الغسق، فى حين كنا نشاهد ، هنا أوهناك ، جملًا باركًا ، وحمله من فوق ظهره ، فى حين ينام أصحابه قريبًا منه ، فى انتظار أن يفتح المتجر أبوابه بعد أن أمضوا الليل أمامها . وبرغم أن الوقت كان لا يزال مبكرًا ، إلا أن بوابات السوق كانت مفتوحة بالفعل ، بينما كان الحارس يقف يقظًا فى المكان المخصص له ، وبعد أن غادرنا السوق ، كان لا بد لنا من المرور فى شارع واسع تختلط فيه المنازل بالحدائق بشكل بهيج ، إلى أن وصلنا ســور المدينة الغربى ، أو بالأحرى الحى الجديد الذى أضافه عبد الله بن الرشيد إلى مدينة حائل ، وعنده بدأنا نطل ، من خلال البوابة الكبيرة التى بين البرجين ، على السهل الواسع المفتوح ، الذى هبت عليه فى تلك الساعة من النهار عاصفة خفيفة من الحياة والنسمات البارده ، وإلى ناحية الغرب ، وعلى مسافة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أميال ، ظهرت كتلة جبل شومر المشرشرة ، بقممها البديعة السوداء المتطاولة ، التى يكسوها اللون الأحمر الناتج عن انعكاس أشعة الفجر ، ومن خلفها

السماء بلونها الأزرق الرصاصي ، ومن ناحية الشمال تنحني سلسلة جبال شومر نفسها ، إلى أن تلتقي بالمدينة ، ثم تمتد بعيداً عن مدينة حائل لمسافة مسير مقدارها عشرة أو أثنا عشر يوماً ، ثم يقل ارتفاع هذه السلسلة تدريجياً كلما اقتربت من مشهد على ووادي نهر الفرات . وعن يميننا توجد مجموعة من الصخور ، في حين تظهر عن بعد ، أقصى سلاسل جبل شومر أو ما يسمى جبل أجاع "Aja" ، إذا أردنا أن نسمي هذه الجبال باسمها التاريخي ، وتتوسط هذه السلسلة الممرات الواسعة التي توصل ، في الاتجاه نفسه إلى جبل سلمي ، ومن خلفنا نرى العاصمة ، قصر طلال بشكله البيضوي ، المنازل ، البساتين ، الأسوار ، والأبراج ، كلها تبدو سوداء ، ومن خلفنا أشعة الضوء الشرقية الضاربة إلى الحمرة ، ومن خلف القصر والمنازل ، والبساتين ، نشاهد قمة ضخمة هرمية الشكل تتدلى من فوق المدينة ، وتربطها الصخور المنخفضة بسلسة الجبال الموجودة ناحية الشمال والجنوب ، إنها حقًّا أضلع حجرية تحمي قلب المملكة المركزي ، وفي السهل نفسه، نستطيع أن نميز الآن ، في ضوء الغسق الخافت ، العديد من البقع التي يميل لونها إلى الأسود والتي تنتشر ، بشكل غير منتظم في كل أنحاء السهل ، أو التي نراها كما لو كانت تتكئ على حدها الذي يشبه الجرف شديد الانحدار ؛ تلك هي بساتين ومنازل عبيد وبعض الشيوخ الآخرين ، بالإضافة إلى بعض القرى والكفور ، التي من قبيل قيفار K.efar وعضوه Ad.wah، وبيارات النخيل وأشجار الإثل (تلك الشجرة التي سوف أتناولها بالوصف فيما بعد) ، كل ذلك بدأ يختلط الآن بلون الغسق ، وهذا هو رحَّال وحيد على ظهر جمله ، وتلك مجموعة من ابن آوى تتسلل خلسة إلى كهوفها الصحراوية ، وتلك بعض الخيام البالية التي يسكنها بنو شومر ، كانت تلك آخر تفاصيل المنظر الموجود أمامي على سطح الأرض ، وعلى بعد ، وفوق التلال الجنوبية ، تسطع أشعة سُهيْل[1] Canopus بعظمتها لتعلن عن بداية عام عربي جديد ، في حين يبدو النجم القطبي منخفضاً فوق القمم الجبلية .

ونسير فوق الحصى المبعثر المستوى في اتجاه الجنوب ، إلى أن نخلف وراءنا سور المدينة بأكمله ، ونصل إلى سلسلة صغيرة من الصخور التي أتينا على وصفها من قبل ، ونتسلق هذه السلسلة إلى ما يشبه الفتحة الصغيرة بالقرب من القمة ، ومن

(١) سُهيْل : بضم السين وتسكين الياء ، نجم من نجوم السماء ، (المترجم)

هذا المكان ، الذى يصل ارتفاعه إلى حوالى مائة قدم أو اكثر ، نطل على السهل كله ونروح ننتظر شروق الشمس ، إلا أنه قبل أن تزين الشمس أعلى حواف جبال شومر بأشعتها الأولى ، أو قبل أن تزحف ظلال سلسلة الجبال الشرقية العملاقة لتتجاوز منسوب هذه الجبال ، بدأنا نشاهد مجموعات الفلاحين ، الذين يقودون حميرهم المحملة بالخضروات والفاكهة ، وهم يتوافدون مثل جماعات النمل من ممرات الجبال المحيطة بنا ، ويقتربون ببطء شديد من المدقات المؤدية إلى العاصمة ، ونرى الخيالة يخرجون من المدينة متجهين إلى البساتين ، وهذا هو طابور طويل من الجمال يسير على الطريق الغربى المؤدى إلى المدينة المنورة ، ويتجه صوب حائل ، وبقينا فى المَطَلّ الذى كنا فيه نتمتع بالمنظر إلى أن أشرقت الشمس ، وبدأ براد هواء الليل يسخن بسرعة متحولاً إلى نهار شديد الحرارة والرطوبة ؛ لقد حان موعد عودتنا إلى منزلنا ولذلك غادرنا المَطَلّ ، وهبطنا نازلين إلى السهل ، ونحن نتقى حرارة الشمس بظلال الاستحكامات الغربية إلى أن وصلنا بوابة المدينة ومنها إلى السوق . وبدأت الحياة والحركة تدبان فى السوق ؛ بعض هذه المحلات مليئة بالأرز ، والدقيق (الطحين) ، والتوابل ، أو البن ، وهى عادة ما تخفى داخلها مخزوناً من العشب الأمريكى (الماريوانا) المحرم ، وقد فتحت أبوابها بالفعل ؛ ورحنا نحيى أصحاب تلك المحلات أثناء مرورنا عليهم ، وكانوا يردون علينا التحية بأدب وود واحترام ، وهاهى الجمال تنزل أحمالها فى الشوارع ، وهاهم البدو يقفون إلى جوارها ، ومنظرهم هوهو حتى فى المدينة . وهاهو الخرّاز (صانع الأحذية) والحداد ، الدعامتان الأساسيتان فى الصناعة اليدوية العربية ، يمارس كل واحد منهما عمله ، ويقف من حولهما مجموعة من البشر الذين انهمكوا فى القيل والقال ، وعند الناصية ، وحيث يتقاطع شارعنا مع السوق ، هذه ثلاثة أو أربع من الريفيات ، وأمامهن أكوام من البطيخ ، والقرع ، والباذنجان ، والفواكه ومحاصيل بستانية أخرى ، معروضة للبيع ، ويدخل رفيقى فى مساومة مع واحدة من تلك الحوريات الريفية ، ويخرج من تلك المساومة بشراء دزينة من الباذنجان وبطيختين ، كل واحدة منها أكبر من رأس الإنسان ، ويدفع مقابل كل ذلك ما قيمته بنسين بالعملة الإنجليزية ، ونعود بمشترياتنا إلى منزلنا ، ونغلق الباب الخارجى بالقفل والمفتاح ، ثم نتناول من ، سلة مسطحة ، ما تبقى من خبز حائل الذى يشبه الرقاق المدور- المتبقى من عشاء الليلة السابقة- لنأكله مع واحدة من البطيختين، فى وجبة الإفطار السريعة ، والسبب فى ذلك ، أننا برغم أن شروق الشمس لم يمض

عليه أكثر من نصف ساعة ، إلا أن تكرار الطرق على باب منزلنا ينبهنا إلى وصول المرضى والزائرين : والاستيقاظ مبكراً هنا ، هو القاعدة ، والسبب هو ندرة الإضاءة الصناعية ، ومع ذلك ، لم نعجل بفتح الباب لأصدقائنا ، كما أنهم لم يستاءوا للتأخير ، ويبقون حيث هم أمام الباب ، يتسامرون مع بعضهم إلى أن نسمح لهم بالدخول ؛ وقيمة الوقت قليلة هنا ، ومشروبنا هنا هو الماء ، الذى نحصل عليه عن طريق قربة مصنوعة من جلد الماعز، تملأها لنا ، من البئر المجاورة ، فاطمة ، ابنة حسن المصرى ، صاحب المنزل الذى نعيش فيه ، وكنا نعلق هذه القربة على الجدار فى الركن الظليل من الفناء ، وكنا نفك فوهة القربة ، وهى معلقة على (الجدار) لينساب الماء منها فى كوب بدائى تماماً ، من النحاس الأصفر ، من المصنوعات المحلية فى مدينة حائل ، وكنا نرضى تماماً بهذه الشربة الخالية من المسكرات تماماً ، وأنا نفسى عاجز عن معرفة الأسباب التى حالت بيننا وبين تصليح قهوتنا الخاصة فى مدينة حائل ؛ لقد أصبحنا مديرين للمنزل فى مرحلة من مراحل رحلتنا. وقمنا، بعد ذلك ، بفرد السجاد وتنظيمه ، وبعدها دخلت إلى مكان الطبيب فى الداخل ، وحرصت على أن يكون الميزان والكتاب العربى كدليلين ظاهرين من أمامى ، بينما اتجه بركات الشامى ليفتح باب المنزل .

ويدخل علينا شاب صغير السن حلو المظهر ، يرتدى المشلح الأسود الذى يشيع ارتداؤه بين الطبقتين الوسطى والعليا فى وسط الجزيرة العربية ؛ وفى يده عصا من خشب السدر أو خشب اللوطس ، وسيفه له مقبض من الفضة وقفائيته اللامعة تقول أنه شخص مهم ، فى حين أن عقصات شعره الأسود الطويل ، وتقاطيعه الجميلة ولون بشرته الزيتونى الخفيف ، وقامته الطويلة ومشيته الرشيقة ، تقول : إنه من مواطنى جبل شومر ، ومن حَضَرِ مدينة حائل ! ؛ إنه عُجِيل Ojeyl ، أكبر أبناء واحدة من الأسر الكبيرة ، ووارث المنزل الكبير والبستان اللذان خلفهما له والده الذى توفى منذ فترة قصيرة ، ويقعان فى حى من أحياء مدينة حائل ، الذى يبعد عنها بمسير حوالى عشرين دقيقة ، ويمسك عقيل، فى يده ، أخيه الأصغر، صبى عادى المظهر ، متواضع ، أشقر البشرة ، نحيف ، يكاد لا يبصر ، ويبدو عليه أنه مريض تماماً ، وبعد أن انتهى عجيل من التحية الأولية مع بركات الشامى ، يقترب من المكان الذى أجلس فيه ، ويحيينى ، وهو يقف خارجه ، بوقار شديد . وظننا منى أنه من المعارف المطلوبة ، هممت باستقباله استقبالاً طيباً ، والتمس منى أن أعرف علة أخيه ، وراح يصف لى أوجاع الصبى المختلفة ، بدقة شديدة ، برغم انتقائه لكلماته بعناية فائقة ، وسكان

الحضر يتمتعون بمهارة كبيرة فى هذا الصدد، اللهم إلا إذا تعمدوا الوقاحة عن قصد ، وفحصت الصبى ، ووجدت أن علاجه مستطاع ويدخل فى نطاق إمكاناتى ، ولا يحتاج سوى برنامج علاجى بسيط جداً ، وهنا بدأت أساوم عجيل حول فرص شفاء أخيه ، ووجدت عجيل يوافق على الشروط التى اشترطتها ، ولم يعترض عليها ، وأنهينا كل ما يتعلق بتأخير دفع الأتعاب ، ومن المعروف عن العرب أنهم ممسكون بشكل عام فى المساومة ولكنهم كرماء فى العطاء ، وهم يضيعون نصف يوم فى تخفيض بنس واحد فى حين أنهم يتصدقون بالجنيهات الإسترلينية، على من يطلب منهم ، ومع ذلك ، فقد كان عجيل مثالًا ممتازًا للشخصية الحائلية Ha'yel، كما كان ينتمى إلى قبيلة طيئ Ta'l، التى اشتهرت ، على مر الأزمان ، بسخائها وحسها العالى بالشرف والنبل . ثم بدأت أعطى المريض ، بعد ذلك ، بعضاً من العقاقير التى تستدعيها حالته المرضية ، وأراه يستقبل هذه العقاقير بثقة مطلقة ونفس مطمئنة ، يكشف عنها العرب المتطلعون لأطبائهم ، الذين يحسب العرب أن لديهم قوة مقدسة أو خارقة للطبيعة – وعلى سبيل التذكرة – هذا الإحساس يفيد الطبيب منه أكثر من المريض ، وهو يساعد بدرجة كبيرة ، فى نجاح العلاج .

وظل عجيل ، طوال فترة مقامى فى حائل ، واحداً من أفضل أصدقائى ، بل أكاد أقول من مريدىّ ، وتكررت زياراتنا المتبادلة، وكانت دائمًا تسر الخاطر ومفعمة بالحب ، وقد أدى شفاء أخيه ، الذى استغرق فترة تقل عن أسبوعين ، إلى زيادة ارتباطه بنا ، ولم يكن لدى أى سبب يدعونى إلى الشكوى منه فيما يتعلق بدفع الأتعاب، وقد حصلت، من عجيل ، على أشياء قيمة كثيرة ، وهى على وجه التحديد ، المعلومات الكثيرة عن الحالة الصحية فى جبل شومر فى "الماضى والحاضر" ؛ وسوف أورد هذه المعلومات ضمن إطار هذا السرد ، كلما تطلب الأمر ذلك .

وهنا ، وجدت أن الفناء ، قد امتلأ ، عن آخره بالزائرين ، وها أنذا أرى بالقرب من بابى عبد المحسن الشخصية الذكية صاحبه الوجه المبتسم ، وهو جالس بين صبيين جميلين يرتديان ثيابًا جيده ؛ هذان الصبيان هما طفلى الأمير طلال الكبيرين : بدر وبندر ؛ فى حين يجلس حارسهما ذلك العبد الزنجى الذى يرتدى مشلحًا أنيقًا ويحمل سيفًا فى مكان منخفض ، يبعد مسافة قليلة عنهما . وأرى فى مكان بعيد ، اثنين من الحضر ، أحدهما مسلح والآخر يحمل عصا معلقة على جنبه ، وهذا هو

شاب فظ حلو الطبع أسمر البشرة ، تنم ملابسه الرثة على أنه ميكانيكي ، يتحدث مع شاب آخر يرتدي ثيابًا من قماش مختلف من حيث الشكل ومن حيث المادة أيضًا ، عن القماش المستعمل فى حائل ؛ وهذا الأخير لابد أن يكون فلاحًا من فلاحي القرى الجبلية المجاورة . وهذان بدويان يرتديان أثمالًا وفظان مثل أندادهما ، يتزاحمان وسط بقية الزوار ؛ وهناك شاب طويل أسمر التقاطيع ، سيفه له قبضة مذهّبه ، ويرتدى من الحرير مقدارًا لا يرضى عنه الوهابيون ، يجلس في مواجهة عبد المحسن ، ويحاول جره إلى الدخول معه في الحديث ، ولكن عبد المحسن استأذن بركات الشامى ، فى أن يعطيه أحد الكتابين العربيين ليتصفحه ، ويبدو مشغولًا بقراءة الكتاب تمامًا .

ويستأذن عجيل ، وينصرف لحال سبيله ، وكان من الطبيعي ، أن أعطى الدور لـ عبد المحسن ، ويبلغنى عبد المحسن أن الأمير طلال ، أرسل إليّ ولديه بدر وبندر ، كي أقوم بفحص حالتهما الصحية وأتأكد إن كانا يحتاجان إلى العلاج ، والواقع أن هذا التصرف ، كان بمثابة خبطة سياسية من جانب طلال ، الذى يعرف جيدًا مثلى تمامًا ، أن الصبيين فى حالة صحية ممتازة وليسا بحاجة إلى العلاج مطلقًا ، ولكن ، يبدو أن الأمير طلال ، يود أن يعطينا إشارة على ثقته بنا ، كما كان يهدف ، فى الوقت ذاته ، إلى مساعدتنا على ذيوع سمعتنا الطبية خلال المدينة ؛ وبرغم اقتناعه ، بشتى الطرق، بحقيقة لقبنا الطبى ، إلا أنه يدرك قيمة الحفاظ على المظهر أمام عامة الناس .

حسنًا ، ورحت أفحص الصبيين فحصًا دقيقًا ، من قبيل تلك الفحوص التى تجرى لمرضى القلب أو مرضى الحمى المخية ، فى حين راح بركات الشامى ، بناء على غمزة منى له ، يعد جرعة من شراب القرفة ، المحلى بالسكر ، أسميته دواء بهذه المناسبة ، واستساغة وريثا العرش الملكيين ، ويحافظ على استمرار المهزلة ؛ وراح عبد المحسن ، طول الوقت ، يتحدث مع الواقفين ، شأنه شأن الكورس عند يوريبديز Euripides عن مهارتي العجيبة فى اكتشاف الأوجاع وعلاجها ، وراح الصبيان الصغيران يظنان أن الدواء ، إن كان على هذه الشاكلة ، فإنهما سوف يتمارضان طلبًا له كل يوم .

ويسلم عبد المحسن الصبيين إلى الحارس الزنجي ، الذى كان له ، مع ذلك ، قصة عن ألم شخص رواها لي قبل أن يرافق الصبيين إلى القصر ، ووصفت له الدواء دونما تحديد للأتعاب ، نظرًا لأن هذا الحارس من القصر ، الذى يتعين أن يكون لدينا

فيه أكبر عدد ممكن من الأصدقاء ، حتى ولو كانوا من الخدم ، ويبقى عبد المحسن معنا ، يقرأ ويدردش ، ويقرض الشعر ، ويتكلم فى التاريخ ، وفى آخر الأحداث ، وفى الفلسفة الطبيعية ، وفى الدين ، أو فى الطب ، حسب الأحوال .

هيا ، بنا نفحص بعضًا آخراً من المرضى ، وذلك الشخص الذى يحمل سيفًا مقبضه مذهَّب ، أرى أنه يسترعى اهتمامى ، هذا الصبى هو ولد روشيد Rosheyd ، خال الأمير طلال بن الرشيد ، الذى شيد قصره على الجانب الآخر من الطريق ، يواجه المنزل الذى نعيش فيه ، ولن أقول عن روشيد الكثير حاليًا ، لأننى أنوى القيام بزيارة خاصة له فيما بعد ، وبذلك أكون قد تعرفت على الأسرة بكاملها .

ومن بعد هذا الصبى ، سوف أقوم بفحص هذين الحضريين اللذين يتحــاوران ، أو أن شئت فقل "يتمازحان" برغم أن كلا منهما يرتدى ثيابًا عادية ، وطولهما واحد وملامحها واحدة ، ولكن هناك فروق أخرى كثيرة تميزهما عن بعضهما ؛ أحدهما يبدو عليه أنه من المدنيين ، فى حين يبدو على الآخر ، أنه من العسكريين ، وذلك الذى يحمل العصا لا تقل شخصيته عن شخصية محمد القاضى ، رئيس قضاه حائل ، ومن ثم يعد شخصية مهمة فى المدينة ، ومع ذلك ، فإن مظهره الخارجى ، هو مظهر رجل كهل صغير الحجم ، وبرغم المثل الذى يضفى الجهامة والصرامة على القضاة ، فإن محمد القاضى ، مغرم بالنكتة ، إضافة إلى أنه ممثل مقبول لما يمكن أن نطلق عليه هنا اسم الحزب المعتدل ، إذ أنه لا يشارك فى التشدد الوهابى، ولا يعادى، مثل أغلبية الشيوخ ، دين محمد ؛ وهو يستقى قراراته من اتجاهات المحكمة ، ويحظى بشعبية لدى جميع الأطراف نظراً لأنه لا ينتمى إلى طرف بعينه .

ومحمد القاضى ، بحاجة إلى شىء من العلاج الطبى لنفسه ، وشىء من العلاج الطبى أيضًا لولده، ذلك الصبى المتين الذى تورم ذراعه ، والذى جاء إلينا برفقه والده . وهذه صداقة مفيدة أيضًا ، وفوق مستوى الشبهات ، وفوق مستوى صغائر القول التى تدور فى المدينة ، كما إنه يتمسك بذلك ويعض عليه بالنواجذ ، وتكررت زياراتنا وزياراته لنا ، واكتشفت أن منزله ملىء بالكتب ، بعضها على شكل مخطوطات ، وبعضها مطبوع فى مصر ، وهى ، فى معظمها ، عن القانون والشئون الدينية ، وعلى سبيل المثال ، كان من بين الكتب الدينية ، مجموعة من خطب الجمعة على امتداد العام بأكمله ، وكتب عن حياة الأنبياء ، بدءاً بـ Seth (سيث) ومن جاءوا بعده ، كتبه مؤلفه

متحرياً الدقــة التاريخية والنقد والتدقيــق اللذين يلقيان بقصص بارون مونشــوزن Baron Munchausen أو قصة جاك وعود القمح ، كان محمد القاضي ، متحدثًا بارعًا ، وكان يضفي على الأمور حرية الملاحظة التي تشيع بين الرجال الذين يعملون في سلك القضاء ؛ معنى ذلك أن محمد القاضي ، أصبح بمثابة "نشرة أخبارنا اليومية" عن مكائد البلاط الملكي، والقيل والقال في المدينة ، وما قيل في العلن ، وما فُعِل في السر ، ومن هرب مع من ، إلخ ، ومع ذلك ، وبشكل عام ، فإن الصورة التي رسمها أمامنا محمد القاضي عن حائل وعن سكانها ، سواء أكانوا من الأعيان أم من عامة الناس ، كانت صورة محببة ومطلوبة ، أكثر من مثيلاتها في معظم العواصم الأخرى ، وربما كان ذلك نتيجة لطبيعة تلك القبائل ، التي اتحدت ، طبقًا لما تقوله سجلات التاريخ العربية ، لتكون السكان الحاليين ، وهما آل الطائي وآل ، وعيل ، بكل عشائرهم ، والذين كانوا ، نقلاً عن شهرتهم الذائعة ، ثمرة من ثمار المشروع والكرم العربيين وأكثر القبائل حبًا للسلام ، وأكثرهم جرأة وإقداماً أثناء الحرب ، وأكثر السكان تشريفاً وتكريماً ، على مر الأزمان ، بين سكان نجد وسكان أعالي الجزيرة العربية ، وخلال المراحل الأخيرة ، أدى التَّحضُّر إلى صقل الخصائص الفظة في تلك القبائل ، في حين أن طابع هذه الحضارة نفسها بلغ من البساطة مبلغًا لا يستطيع معه القضاء على هذه الخصائص أو إفسادها .

وكان من عادة محمد القاضي أن يتكلم عن أهل الريف في القرى المحيطة ، مثل موجه Mogah والدلهميله Delhmeeleh، وبقية القرى الأخرى ، بشيء من الإشفاق المصحوب بالازدراء ، شأنه في ذلك شأن المواطن الباريسي عندما يتكلم عن البريتانيون المنحطين ؛ والواقع ، أن الفارق بين هؤلاء الريفيين الأقوياء الأجلاف وبين سكان العاصمة الأكثر تحضراً وتقدماً – من جميع الوجوه – لا يظهر بشكل واضح هنا ، كما هو الحال في أوربا نفسها ، وسوف أترك ، واحداً من هؤلاء الريفيين يتكلم هنا نيابة عن نفسه ، واترك الحكم للقارئ نفسه .

الفلاح الذي سوف يتكلم هنا ، هو شخص قوي البنية من أهل قرية موجه ، يرتدي ثياباً شبيهه بملابس العمل ، والذي كان مشغولاً على امتداد نصف ساعة ، برسم أشكال متنوعة على الأرض ، من أمامه ، مستعملاً في ذلك مشعابه الغليظ الذي جلبه من خشب شجرة الخوخ ، وراح يزجي به وقته إلى أن انتهى من فحص أقرانه من

أهل الحضر ، هاهو يتقدم إلى الأمام ، ويجلس أمام الباب ، ويسترعى انتباهى على النحو التالى : "أقول ، دكتور" ونبهته إلى أن جسده كله ليس مكونًا من الزجاج أو من أية مادة شفافة أخرى ، وأنه بوقوفه على الباب إنما يعترض مسار ذلك الضوء القليل الذى يصل إلى المكان الذى أجلس فيه ، ويعتذر الرجل عما بدر منه ، ويتحرك بوصة أو بوصتين ناحية أحد الأجناب ، وأساله بعد ذلك عن الآلام التى يعانيها ، وبدون انتظار حتى أسمع الإجابة ، وجدت ذلك الهيكل الضخم الذى أمامى يعلن المرض . ويرد علىَّ دعيميس ، أو أيا كان اسمه ، قائلًا : " أنا أقول ، إنى بكاملى مصنوع من الألم" وقد بلغت هذه العبارة مثل كثير من العبارات الأخرى ، من العمومية حدًا يصعب معه أن آخذها بمعناها الحرفى . ولذلك واصلت استجوابى له وسألته : "هل يؤلمك رأسك ؟" فرد علىَّ قائلاً : "بلا" وسألته ثانية : "هل يؤلمك ظهرك ؟" فرد قائلاً : "بلا" وسألته : "هل يؤلمك ذراعاك ؟" فرد قائلاً : "بلا" وسألته : "هل تؤلمك رجلاك ؟" فرد قائلاً : "بلا" وسألته أيضًا : "هل يؤلمك جسمك ؟" فرد قائلاً : "بلا" ولكنى أنهيت أسئلتى إليه قائلاً : "إذا كان رأسك لا يؤلمك ، وجسدك لا يؤلمك ، وظهرك لا يؤلمك ، وذراعاك لا يؤلمانك ، ورجلاك لا تؤلمانك ، فكيف يمكن أن تكون توليفة من الألم ؟" ويجيبنى الرجل قائلاً : "أنا توليفة من الألم يا دكتور" ويعود إلى وضعه الأول ، الواقع أن هذا الرجل فيه شىء من الألم ، غير أنه لا يعرف كيف يحدد مواضع أحاسيسه ، وعليه رحت أواصل استجوابى له وطرح أسئلتى عليه ، إلى أن اتضح لى أنه يعانى من روماتيزم مزمن ؛ ومع مزيد من الفحص ، الذى استفدت فيه بخبرة بركات الشامى ، استطعنا سويا أن نصل إلى تشخيص سليم ، فقد أصيب ذلك الرجل منذ ثلاثة أو أربعة أشهر مضت بنوبة روماتيزمية حادة ، مصحوبة بحمى شديدة ، ترتب عليها أن أصبح ذلك الرجل ، يشعر بأنه لم يعد بعد مثلما كان من قبل .

أظن أن ما أوردته يكفى فيما يتعلق بالتشخيص ، ولكنى أتمنى أن أعرف كيف يستطيع مثل هذا الإنسان التملص من الأسئلة الدقيقه ؛ زد على ذلك ، أن الحضر الجالسين بالقرب منا ، والذين أدركوا النكتة السابقة مثلى تمامًا يتهامسون ويقولون : "افحصه مرة ثانية" وبناء عليه رحت أطرح عليه مزيدًا من الأسئلة على النحو التالى : "ما سبب مرضك الأول ؟" ويرد على المريض قائلاً : "السبب ، يا دكتور ، هو الله" . وأرد عليه قائلاً : "لا شك فيما تقول . لأن الله هو الذى يسبب الأشياء كلها : ولكن قل لى : ماذا كانت الحادثة الخاصة أو المباشرة التى تسببت فى مرضك ؟" "يا دكتور ،

قلت لك أن الله هو السبب ، وثانيًا أنني أكلت لحم الجمل عندما كنت أشعر بالبرد" . وطرحت عليه السؤال الثاني لأنني لم أقبل التفسير الذي قدمه له : "ألم يكن هناك شيء غير لحم الجمل ؟" ويرد عليّ قائلًا : "ثم شربت لبن النياق ، بعد ذلك أيضًا ؛ ولكن كل ذلك ، مثلما قلت لك ، من الله ، يا دكتور" .

حسن ، وبدأت أدرس الحالة ، وأتخذ قرارًا فيما يتعلق بالعلاج ، ثم يأتي بعد ذلك السؤال الضخم الذي يتعلق بالأتعاب ، التي يجب أن نتفق عليها مقدمًا ، وربطها شرطيًا بالشفاء ، كما يعرف القراء ، وسألته عما سيعطيني إياه بعد أن يشفى . ويرد عليّ الفلاح قائلاً : "يا دكتور ، سوف أعطيك ، هل تسمعني ؟ أقول : أنني سوف أعطيك جملاً " . ولكنني رددت عليه قائلاً : إنني لا أريد جملاً ، ويرد عليّ قائلاً : "أقول لك : اذكر الله" . والتي تعني هنا "كن عقلانيًا ومنطقيًا : سوف أعطيك جملاً سمينًا ، كل الناس هنا يعرفون جملي ؛ وإذا وافقت على ذلك ، فسوف أحضر الشهود" . وبينما كنت أصر على رفض الجمل الذي يعرضه علي ، راح يعرض على بدائل من الزبد ، والجريش ، والتمر وما إلى ذلك من هذه الأشياء .

إذن هناك مريض وهناك صراف أيضًا ، ومع كل ذلك ، ينتهي الأمر إلى أن يبدأ ذلك الفلاح التصرف على نحو معقول؛ ويبدأ في تنفيذ الوصفة الطبية بالانقياد المعتاد ، ويتحسن حالة بعد ذلك ، ويعطيني مقابل أتعابي ثمانية عشر بنسًا .

وأقضي على هذا النحو ساعتين أو ثلاثة ، يتناوب خلالها ، الزوار الذين سبق التنويه عنهم ، أدوارهم معي ، ويجيء بعض آخر من الزوار ثم ينصرف ، إلى أن تقترب الشمس من خط الزوال ، واختصارًا للأحداث ، أنتقل مباشرة إلى الميكانيكي ، الذي ، يتقدم ناحيتي ، بعد طول انتظار في الظل ، وصبر عربي حقيقي ، يتقدم ناحيتي وهو تعلو وجهة ابتسامة عريضة تنم عن الطيبة ، ويرجوني أن أصحبه إلى منزله ، حيث يعاني أخوه من الحمى ، وبعد أن تحدثت معه قليلاً ، طلبت من بركات أن يبقى في المنزل إلى أن أعود ، وأحس الميكانيكي بالرضا لأني قبلت رجاءه ودعوته .

قصير القامة ، بشرته تميل إلى الاحمرار ، قوي البنية ، البراعة والحنكة ترتسمان على وجهه ، الذي يشبه تمامًا وجه الصبي الشحاذ الأسباني ، في رواية موريللو ، ذلك هو دحيم (ومعني اسمه الحرفي "الأسمر") ، الذي يمثل عيِّنَةً ممتازة لفئة كبيرة من سكان وسط الجزيرة العربية النجديين ، كانت أسرة دحيم ، قد نزحت ، منذ وقت

قصير ، عن القصيم إلى حائل ، التى أقامت فيها ، لأسباب تتعلق من ناحية ، بسعة الرزق ، وبالتشدد الوهابى من الناحية الأخرى ، ولكنها لا تزال متمسكة بكثير من الخصائص والعادات الفارقة التى تتميز بها منطقة القصيم . وقد شاعت ، مؤخراً ، الهجرة التى من هذا القبيل ، وأسهمت فى زيادة القوة العددية والقوة العسكرية ، فى جبل شومر ، فى حين أنها تزيد أيضاً من ازدهار الصناعة والتجارة فى جبل شومر ، ولعل القارئ يذكر لويس الرابع عشر وإلغائه مرسوم النانتيين Nantes ، ويضيف بذلك وجهاً آخراً من أوجه الشبه بين الجزيرة العربية وأوربا ، والسبب فى ذلك ، أن حضارة القصيم قديمة وعريقة ، علاوة على أن سكان القصيم يتمتعون بخبرة أكبر فى كل من الصناعات اليدوية على اختلاف أنواعها ، وفى التجارة ، تلك الصناعات التى تتفوق تفوقاً كبيراً ، على مثيلاتها الموجودة لدى قبائل الشمال التى تكونت مؤخراً ، يضاف إلى ذلك ، أن ذكريات استقلال القصيم السابق ، والحروب الطويلة التى خاضتها ، والانتصارات التى حققتها ، أضفت على الشخصية القصيمية صفة الثبات والصمود اللذين تتسم بهما كل الأعمال التى يقومون بها ، وذلك على العكس من شجاعة الشمال المتهورة غير المستدامة ، التى تمخضت عنها المعارك القصيرة والصراعات اليدوية ، زد على ذلك ، أن النزعة الاجتماعية الطيبة التى تشيع بين العرب ، بصورة عامة ، قويت بين أهل القصيم ، على مر الزمن ، بحكم حياة التحضر التى كانوا يحيونها فى المدن والبلدان ، إلى أن أصبحت مفعمة بالحيوية ، فى حين أضفت عليهم طابعاً أكثر ثباتاً واستقرار ويسرا وتحضراً ، يتجلى بشكل واضح فى تحدثهم وكلامهم ، وذلك على العكس من شومر والمناطق التابعة لها ، إذن ، فمن الطبيعى جداً ، أن ينجح البشر الذين من هذا القبيل ، فى أغلب الأحيان ، فى الوصول بسرعة وسهولة ويسر إلى أراضى الغربة ، برغم أنهم ينتهزون فرصة العودة إلى بلادهم ، إذا ما تهيأت لهم ، وبخاصة أن القصيم تنعم بخيرات الطبيعة وبالفن أكثر من مناطق حائل الصخرية وسلسلتى جبال سُلمى Sulma أجاع Aja مُثلمة القمم مثل المنشار .

ويتناول دحيم مشلحه الأسود الخفيف ، ويلفة حول نفسه، على نحو يعجب المثَّال ، وننطلق سوياً خارجين من المنزل ، وأثناء مرورنا فى السوق ، كان دحيم يومئ للناس برأسه ويبتسم إلى ما يقرب من خمسين من معارفه ، أو يتوقف لحظات يتبادل خلالها بعض الكلمات مع أبناء بلده ، ويبدأ السوق فى الازدحام من أقصاه إلى أقصاه ؛ حضر ، ريفيون ، بدو ، بعضهم يجلس أمام دكاكينهم يساومون أصحاب الدكاكين فى

الداخل ، بعض آخر ، تجمع على شكل مجموعات عاطلة ، يتبادلون أخبار الساعة ، والسبب في ذلك ، أن اللسان في شومر ، يساوي الصحيفة المطبوعة في أوربا ، وأنا أشك ، فيما إذا كان العربي يمضي في استماعه إلى الأخبار اليومية وتناقلها ، وقتًا أكثر من الذي ينفقه الرجل الإنجليزي ، صباح كل يوم ، في قراءة جريدة "التايمز" ، برغم أن الرجل الإنجليزي يمتاز على العربي ، بأنه يبدو أكثر تأملاً ، وربما أدخل هنا ، في تحري مهم ، يتعلق بمقدار العمل الفردي والعمل الجماعي في كل من الشرق والغرب ، وسوف يتضح لنا من هذا التحري ، عن طريق الاستنتاج ، أن نصف الكرة الغربي يمتاز كثيراً جداً على نصف الكرة الشرقي في العمل الجماعي أكثر من مقدار العمل الفردي ، من هنا إذا أخذنا فرداً عربياً وآخراً إنجليزيا ، أي واحد لواحد ، نجد أن كلًا منهما ينجز نفس القدر من العمل اليومي ، خلال الأربع والعشرين ساعة ، ولكن بفارق واحد ، مفاده أن الفرد العربي يعمل لنفسه وبنفسه ، في حين يعمل الفرد الإنجليزي من أجل المجتمع ، وبمساندة كاملة وتأييد من المجتمع ، شأنهما في ذلك ، شأن من يبني باستعمال الأسمنت والملاط ، وذلك الذي يرص أحجاراً سائبة فوق بعضها . إن لديَّ الكثير جداً عن هذا الموضوع ؛ ولكني ينبغي ألا أفقد القارئ صبره ، وأجعله يقف معي في تراب حائل وشمسها خلال فترة ما قبل الظهيرة ، كي ألقي عليه خطبه من خطب جلادستون Gladstone أو برايت Bright، عن العمل الجماعي المشترك ، حتى وإن كنت مؤهلاً ومستعداً تماماً لمثل هذه الخطب .

هذه مجموعات من الجمال تسد الطريق : بعضها يجري تحميله والبعض الآخر يجري إنزال أحماله ؛ وأنظر ناحية اليمين ثم ناحية اليسار ؛ وأرى داخل الدكاكين واحداً من التجار مشغولاً بتجميع حساباته (وأنا لا أعرف إن كان العرب شطاراً في الحساب أم لا ، ومن المؤكد حالياً أن نسبة من يجيدون عمليات الجمع البسيطة المعتادة تصل تسعة أشخاص من بين كل عشرة) ، وهذا تاجر آخر ، ليس عنده زبائن ، راح يقرأ في مخطوط قديم عن الصلاة ، أو التاريخ الطبيعي ، أو الجغرافيا ، ذلك النوع من الجغرافيا الذي لا يوجد في العالم كله ، باستثناء الجزيرة العربية التي يُرَوِّجُ فيها "أكلة لحوم البشر والرجال الذين تنمو رءوسهم من تحت أكتافهم" ، وتعامل الناس بالقرآن قليل في حائل ، "وأنا أشكر الله على ذلك" ؛ وقد تُصَادِفُ هنا مع الشيعة القادمين من مشهد علي ، رسائل توضيحية صغيرة ، عن مزايا خَيالية لسيدنا / علي أو أي أحد من أسرته ، أو قد تصادف معهم أيضًا روايات ليست لها علاقة بالكتاب

المقدس (الإنجيل) ، أو روايات مناقضة تمامًا لما ورد فى الكتاب المقدس (الإنجيل) عن علاقات (سيدنا) يوسف الغرامية مع زليخه زوجة بوتيفار Potiphar المعتادة ؛ أو عن زلات (سيدنا) داود ، والشيعة يقولون فى رواياتهم عن هذا الموضوع ، أن خطأ الملك ، لا يتمثل – مثلمًا يسلم البعض بطريقة سانجة – فى أخذه زوجه جارة ، وإنما فى التهور والغلو والتبذير فى أن يضيف المرأة المائة إلى التسعة وتسعين اللاتى لديه بالفعل ، ولكن الشيعة يقولون ، إنه حصل عليها بالشرع ، أو يؤيدون ذلك بروايات وحكايا تثقيفية أو تنويرية من هذا القبيل[1] ، والسبب فى ذلك أن تأليه علىٍّ وسلالته ، والانغماس فى الفسوق الذى يشبه مزود الخنزير ، هما الكلمة الأخيرة ونقطة التحول فى التشيع : نظرية وتطبيقًا .

ويختلط مع شعب المدينة السيافون ، والزنوج الذين يلبسون ملابس زاهية ، وذلك أن الزنجى يتأنق بحق إذا ما استطاع أن يدفع ثمن ذلك ، وبطبيعه الحال فهم من الذين يخدمون فى القصر ، كل فى طريقة إلى عمله ، ويبدو عليهم أنهم بعيدون عن المنغصات ، برغم أننا لا نرى أى أثر هنا لنظام الأغوات أو الباشوات الذى يتسم به النظام التركى الاستبدادى ، زد على ذلك ، أن موظفى الحكومة هنا لا يفكرون مطلقًا فى الحصول على أى شىء دون أن يدفعوا ثمنه ، كما أنهم لا يفكرون مطلقًا فى إجبار مرؤسيهم على العمل بدون أجر، كما هو الحال على طريقة العثمانيين ؛ وهذه الأعمال ، يرفضها ، أيضا ، ذلك الفكر الراقى المستقل الذى تتطبع به الطائفة العربية الحقيقية . إذ ترى هنا أعيان البلاد المهندمين يختلطون بعامة الناس وجماهير الشعب اختلاطًا يستثير الكثير من الدهشة والإعجاب، وتراهم أيضًا يمشون متشابكى الأيدى والأذرع ، مع الحرفيين وحراس البوابات ؛ فى حين نجد ضباط البلاط الملكى أنفسهم يلقون درجة من الاحترام ، توضح الإذعان لهم وليس الدونية عنهم ، إنه مشهد بديع عامر بالحركة ؛ وهذا هو هواء الصباح ، لا يزال يحتفظ ، فى الشوارع ، بقدر كاف من بَرَآد الليل ، مما يجعل الناس تطيق أشعة الشمس الساطعة ، وتستشعر الأمن والسلام فى كل مكان ، كما نشاهد هنا أيضًا الازدهار المعروف لدى زوار وسط الجزيرة العربية ،

(١) مقولة (زلات داود) كما عبر المؤلف ، هى من الأقوال الإسرائيلية أى التى لا يقرها الإسلام ، والصحيح الثابت لدى علماء المسلمين أن الأنبياء معصومون من الأخطاء وأن حكاية سطو داود عليه السلام على زوجة جاره هى كذب وتدليس وليس لها أساس من الصحة فى دين الإسلام ، (د. حلمى عبد المنعم) .

والذى يجهله تمامًا الرحالة السوريون أو الذين يجيئـون من الأناضـــول (تركيا) ، وإن قدر لك أن تصغى باهتمام إلى سياق الخطاب الذى يدور من حولك ، فلن تسمع مطلقًا سبًا ، أو لعنًا ، أو تصايحًا ، وستسمع بدلًا من ذلك ، مزيداً من نشاط المال والأعمال ، وحضور البديهة ، والضحك ، ويشق دحيم وأنا معه ، طريقة عبر الجماهير ، وسط تحية الناس له ، على الجانبين ، إلى أن نصل إلى الساحة التى أمام القصر ، والتى ينتهى عندها السوق ؛ ونعبر الساحة لنمر خلال البوابة العالية ، وندخل إلى شريان المدينة الرئيسى .

والطريق هنا واسع ومستوٍ ، وتحفه من الجانب الأيسر أسوار بساتين القصر ، التى تظهر منها هنا ، وهناك أشجار النخيل التى يزيد ارتفاعها على ارتفاع تلك الأسوار ، وهذا النخيل حديث العهد ، شأنه فى ذلك شأن الحكم الحالى ؛ وعلى الجانب الأيمن من الطريق ، توجد سلسلة من المنازل ، التى تتناثر بين بساتين أكثر قدمًا ، وكثيفة النباتات ؛ فالأشجار تتدلى فوق الأسوار ، ونحن سعداء بالاستفادة من ظلها الكثيف ، ويتحفنى دحيم بمزيد من الأوصاف لكل من نجد والقصيم ، ويطنب فى وصف مسقط رأسه ؛ وهو يقول : إنه شاهد أيضًا الملك الوهابى شخصيًا ، برغم أن ذلك لم يكن فى الرياض ، عاصمة حكمه ، وبذلك نكون قد أمضينا قرابة خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام (لقد كان من قبيل التزيُّد ، أن أقول إن الناس هنا لا يسرعون الخطى فى هذه المناطق شبه الاستوائية ، وبخاصة فى شهر أغسطس) ، إلى أن وصلنا أرضا واسعة تقع إلى الخلف من بستان القصر ، ويدل التجويف الكبير العميق الموجود فيها على أن هذا المكان هو المسلخة أو المجزر التابع لقصابى المدينة ، وفى المناخات الأخرى ، تصبح المنشأة التى من هذا القبيل مصدر إزعاج ، لا يطاق ، بالنسبة للسكان الذين يجاورونها ، وبخاصة إذا كانت داخل حدود المدينة ، وفى وسط البساتين والمنازل ، ولكن جفاف الجو هنا هو الذى يقضى على المخلفات ؛ والتعفن أمر منتظر ، بسبب تأثير الهواء التخفيفى ، الذى يجعل رائحة جثة الذبيحة ، غير مؤذية بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، شأنها شأن برميل دباغة الجلود ؛ كما أن المرء يمكن أن يمر على جثة جمل نفق حديثًا ، على جانب الطريق ، ويحسبها مجهزة بالزرنيخ والمواد الأخرى لوضعها فى مشرحة من المشارح .

وعند المسلخة يتجه الشارع صوب وسط العاصمة . وكان الجزء الذى قطعناه سيراً على الأقدام هو الحى الجديد؛ ويرجع تاريخه إلى اعتلاء الأسرة المالكة الحالية للعرش،

ولكننا يتعين علينا الآن الدخول إلى مدينة حائل القديمة، حيث تفوح من كل شيء فيها، رائحة العراقة والقدم ، والمدينة القديمة مكونة من حيين يفصل بينهما طريق طويل ، ضيق وليس مطروقًا مثل الطريق الذى انتهينا منه ، زد على ذلك ، أن ذلك الشارع الطويل ، لم يكن المقصود منه الفصل بين المباني أو السكان ، مثلما كانوا مقسمين من قبل عن طريق الحرب والعداء ، ولكن قبضة ابن الرشيد القوية أنهت كل ذلك ، فى النهاية ، أما الطرق التى تتقاطع مع هذا الشارع من الجانب الأيمن والجانب الأيسر ، فهى تؤدى إلى شوارع جانبية وتقسيمات فرعية قليلة الأهمية ، ونسير فى واحدة من تلك الحارات الضيقة الملتوية والموجودة على الجانب الأيمن ، أصل عن طريقها بصحبه دحيم إلى متاهة من البساتين ، والآبار ، ومنازل قديمة غير منتظمة ، إلى أن نصل إلى مجموعة من المباني ، وممر مغطى ، يوصلنا من خلال ظلامه إلى جانبيه ، برغم وجود سور فناء (حوش) وباب خارجي يتوسط المسافة فيما بين المنازل والشارع نفسه . والعقود هنا غير معروفه علاوة على أن البوابات جميعها تصنع من الخشب المعشق فى الصخر ، فضلًا عن كونها خام وغير مصقولة وصلبة الإنشاء ، ويقف دحيم أمام بوابة من هذه البوابات ويطرق الباب ، ويـــرد عليه من داخـــل المنزل صوت يقـــول : "سم" (تفضل)، ثم يسارع واحد من أهل البيت إلى فتح الباب ، وندخل واحداً من تلك الأفنية (أحواش) ، ونرى فيه فرنين أو ثلاثة من الأفران الصغيرة ، وأواني معدنية قديمة ، ومواعين مختلفة الأحجام ، بعضها كبير الحجم تمامًا – والسبب فى ذلك أن العرب يتباهون هذه الأيام ، مثل أسلافهم منذ حوالى ألفى عام ، بأن لديهم غلايات تتسع الواحدة منها لطهى خروف بكامله – ألواح من النحاس الأحمر ، قضبان من الحديد ، وأشياء أخرى من ذلك القبيل ، مما يوحي بأن المكان عبارة عن ورشة حداده عربية . ويتقدم ناحيتنا ، بعض الشبان مفتولى العضلات ، والذين يغطيهم السناج ، والسخام والأوساخ، ليصافحونا بأيديهم غير المغسولة، وهم يتبادلون النكات النجدية مع دحيم . ويظهر سعِيد So'eyd، شقيق دحيم الأكبر ، الذى خفَّت جهامته قليلًا ، بوصفه كبيراً للعائلة ، بسبب مزاح أقاربه الذين يصغرونه سنًا ، ويعنف الصغار ، ثم يسارع إلى تنظيف وجهه ويديه ، ثم يقتادنى بعد ذلك إلى المنزل من الداخل ، حيث يرقد شقيقه المريض ، فى غرفة مظلمة ، ذلك المريض الذى استدعانى دحيم لفحصه ؛ وهو يعانى من حمى شديدة ، ولا يقوى على الكلام ، برغم أن الأمر – لحسن الحظ – لا يشكل أية خطورة مطلقًا ، وجلست إلى جوار المريض ، ووجهت قليلًا من الأسئلة الأولية إلى

الواقفين ، وضمنتها بعض التشخيصات التى تبعث الأمل فى النفس ، فى حين بدأت أسارير المريض تتهلل ، وتشير إلى أنه كان ينتظر مجيئى لفحصه ، وأنه كان مسروراً وممتنا لذلك ، ومسألة إخراج المريض لسانه دون أن يطلب الطبيب منه ذلك ، ومسألة مد المريض يده كي يفحص الطبيب النبض ، إجراءان معتادان هنا فى حائل ؛ وإذا كنت لا تريد أن يقولوا عنك أنك جهول ، فإن ذلك يحتم عليك أن تفحص الرسغين على التوالى ، إذا أنهم هنا يعتبرون كل رسغ مستقل عن الآخر ، وأن لكُلٍّ قصة خاصة به ؛ وهنا قد يستنتج القارئ أن الدورة الدموية غير معروفة هنا ولا يعرفون اسم هارفي مكتشفها ، وبعد أن انتهيت من عملي ، يأخذنى الأخ الأكبر على جنب ، ويسألنى عن التشخيص والتكهنات ، أو بلغة بسيطة ، يسألني عن حال أخيه ، وما العواقب التى قد تترتب على ذلك ، وعقب إجابتى المتحفظة ، يَعِدُ الأخ الأكبر بأنهم سوف يلتزمون بالعلاج الذى سأحدده مهما كان ، ثم يدعونى بعد ذلك لتناول القهوة قبل الدخول فى ما تبقى من عملية الفحص ، وأعربت عن رغبتى فى أن أنهى كل ما يتعلق بالمريض أولاً ، ولكنى سمعت المريض ، يتكلم بصوت خافت ويشير بيديه أيضاً ، ليعرب عن رغبته فى أننى أولاً وقبل كل شيء ، ينبغى أن تقدم لى فروض الضيافة . لو كان هذا المريض يموت بحق فأنا أشك أن تتخذ الأمور مساراً آخراً فى هذه البلاد . ثم أحضروا لنا التمر ، وأشْعلت الغلايين ، وبدأ دحيم فى إعداد القهوة ، وهنا تمتلئ بالزوار الغرفه ، التى يرقد فيها المريض ، والعزل لا يدخل ضمن العلاج عند العرب ؛ وعلى العكس من ذلك ، فإن زيارة المريض من الدين ، إذ من الواجب على المجتمع الذى يحيط بالمريض ، على اختلاف طوائفه وأعداده ، أن يزوره ويبث فيه الأمل ، زد على ذلك ، أن المريض العربي ، نفسه ، ليست لديه أية فكرة عن العزل ، بل إن كل رغبته هى أن يكون بصحبته أحد من الناس ؛ لم لا ، والشيء نفسه يراعيه الناس فى حالة وفاة أحد أفراد الأسرة ، إذ يقوم أقرب أقارب المتوفى ، سواء أكان الابن أم الزوجة ، أو الزوج ، بفتح داره عدة أيام بعد الوفاة لتلقى العزاء من أكبر عدد من الناس ، معنى ذلك أن وحدة الأحزان وآلامها لا يدافع عنها هنا ، سوى قلة قليلة من الناس .

وأنا لا أشك ، أن القارئ ، على علم بمشاهد ونصائح كل من العهد القديم والعهد الجديد أيضًا ، وأن بوسعه أن يستعيد كثيراً من الحِكَمِ والأمثال التى تنطبق على هذا الحال ، وبخاصة فى سفر أيوب وفى مواضع أخرى .

والجزء الأكبر من الزوار الذين يفدون إلى منزل دحيم ، من أهل القصيم ، أو أعالي نجد، كان من السهل أن أفهم من الملامح وطريقة الكلام أن تقدم سكان القصيم، وأعالي نجد فيما يتعلق بالحضارة والثقافة العامة ، لم يكن يقل عن تقدم أهل جبل شومر على سكان الجوف أو تقدم سكان الجوف على البدو، الواقع، أن القارئ الكريم ، إذا ما رسم خطًا قطريًا على خريطة الجزيرة العربية بدءًا بالشمال الغربي وانتهاء بالجنوب الشرقي ، متتبعًا المسار الفعلي لرحلتي عبر هذا البلد ، ثم يقوم بعد ذلك ، بتمييز مختلف مناطق شبه الجزيرة بظلال لونيه تمثل درجات محددة من التقدم في الفنون ، وفي التجارة ، وفي المنجزات الخاصة بهذه المناطق ، وذلك على مقياس دوبن Dupin، وإذا ما فعل القارئ ذلك سيجد أن أكثر هذه الظلال اللونية دكانة سيكون قريبًا من الشمال ، أو في وادي السرحان ، في حين تقل تلك الدكانة تدريجيًا في كل من الجوف ، وجبل شومر ، ونجد ، والإحساء ، وتوابعها ، إلى أن يصل القارئ الحزام المحيط بـ ـ عُمَان Oman، أقل هذه المناطق دكانة على الإطلاق ، والحق أقول ، إن الظروف التي جعلت الرحالة يقصرون زياراتهم ، إلى الجزيرة العربية ، على الأجزاء الشمالية والغربية منها ، هي التي أدت إلى ذيوع صيت الهمجية العربية أو البدوانية العربية ، في أوربا بشكل عام ؛ لو زار هؤلاء الرحالة وسط الجزيرة ، والمناطق التي تقع إلى الشرق من المنطقة المحصورة بين البحر الأحمر وخليج عُمَان لتغير المعيار تمامًا ، ولكني هنا أستبق الأحداث : واسمحوا لي أن أعود إلى مضيفي وأصدقائه .

أنا هنا مرة أخرى في حائل ، في أتون السياسة والجدل النجدي ، والناس هنا ، يقابلون التعصب والاستبداد الوهابي بكراهية دائمة صادرة من أعماق قلوبهم ، وحصار عنيزه ، وآخر أخبارها ، وتكهناتها ، وكذلك الآمال والمخاوف من استمرار هذا الحصار ونتائجه هي الشغل الشاغل للناس في حديثهم هنا ، الواقع أننا ، سمعنا ، عقب تجاوزنا حدود الجوف ، عن هذا الحادث الجلل من أحداث الجزيرة العربية ، كان موضوع حرب عنيزه ، هو الموضوع الذي يستحوذ على الانتباه ويدور حوله كثير من الأسئلة والتكهنات الحائرة ، بل إنه كان السبب الحقيقي رغم إنكار ذلك للزيارات الكثيرة والمتكررة التي كان شيوخ القصيم يقومون بها لـ ـ طلال بن الرشيد ، واجتماعاتهم التي لا تنتهي في منزل عبد المحسن ، واستهدافًا مني لتوضيح هذه القضية ، ولكي يكون ذلك أيضًا مفتاحًا لكثير من الأحداث التي سوف أشير إليها فيما بعد ، سوف أقوم هنا ، بتلخيص ما يدور في القصيم تلخيصًا سريعًا ، وأحاول ربطه

بالظروف السابقة ، التي أدت إلى الأحداث الجسام التي وقعت ، في وسط الجزيرة العربية ، في العامين ١٨٦٢ و ١٨٦٣ الميلاديين ، تلك الأحداث التي لن ينساها أحد ويأسف لها الجميع .

عندما عاد فيصل ، الملك الوهابي الحاكم ، أو إن شئت فقل فيصل بن سعود ، للمرة الثالثة في العام ١٨٤٣ أو ١٨٤٤ الميلاديين (وأنا هنا لست متأكداً تماماً من التاريخ) إلى وطنه نجد ، ووريثاً للعرش ؛ اكتشف أن منطقة القصيم الثرية كثيفة السكان ، هي العون الأول والأخير له، في تأسيس حكمه وطرد بقايا الاحتلال المصري، وانتهز سكان منطقة القصيم هذه الفرصة لضم أنفسهم إلى الإمبراطورية الوهابية ، وقد كان سبب ذلك الانضمام نابعاً من كراهية أهل القصيم لـ باشوات مصر الأغراب، وليس تعاطفاً مع أهل نجد ، الذين شن عليهم أهل القصيم ، حرباً في الأزمان السابقة . ووافق أهل القصيم ، على أن يزودوا فيصل ، كل عام ، بالمال ، وبالرجال أيضاً ، كلما تطلب الأمر ذلك ، شريطة عدم التدخل في شئون شيوخهم ، أو في إدارتهم المدنية ، أو عاداتهم وتقاليدهم ، واستمر الحال على هذا المنوال طوال سبعة أو ثمانية أعوام ، إلى أن استطاع فيصل إحكام قبضته ليس فقط على المناطق الوسطى ، أعني ، سدير ، والوشم ، والعارض ، واليمامة ، والحريق ، والأفلاج ، والدواسر ، وإنما أخضع أيضاً كلاً من الأحساء والقطيف ، إضافة أيضاً إلى النجاح الكبير الذي حققه في اتجاه كل من البحرين وعُمَان ، هنا ، شعر فيصل بن سعود بأن صولجانه بلغ من القوة حداً يستطيع عنده أن يقمع ما تبقى من حريات القصيم ، ويعيد شيوخها وشعبها إلى تلك الدرجة من العبودية التي تناسب من منظور الوهابيين – كل أولئك الذين ليسو "مسلمين" أو من "أتباع دين محمد" (ﷺ) ، بمعنى كل الناس باستثناء أنفسهم .

كانت أول خطوة يخطوها فيصل بن سعود ، لتحقيق هذا الهدف ، تتمثل في قهر العائلات الكبيرة التي حكمت القصيم ، منذ قديم الأزل ، أو تجريدها ، على أقل تقدير ، من السلطة والقوة . وكانت ، بريده وعنيزه ، في ذلك الوقت ، هما أهم مدينتين في القصيم ، وكان لشيوخ هاتين المدينتين نفوذ لا ينازع ، على ثلث المراكز التجارية الرئيسية ، أعني ، أنهم كان لهم نفوذ على مدينة الرس ، وعلى حوالي خمسين أو ستين مدينة وقرية أخرى تنتشر في كل أنحاء البلاد ، كان أعيان بريده ، الذين منهم صديقي عبد المحسن ، ينتمون إلى أسرة العليان ، أما أعيان عنيزه فكانوا ينتمون إلى

أسرة عطية Atee'yah. ولكن بريده كانت أقل أهمية وعدداً وثروة من شقيقتها عنيزه ؛ ولكنهما كانتا تتساويان من حيث العراقة ، ويقدر سكان عنيزه بحوالى ثلاثين ألف نسمة ، ولكن سكان بريده يقدرون بما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألفا من السكان ، ووجَّه فيصل كل جهوده الأولى ضد مدينة بريـده ظناً منه أنه سيجدها فريسة سهلة .

ودخل فى معركة مع شيوخ العليان ، وداهمهم فترة من الزمن ، عن طريق المعارك المستمرة بقيادة ابنه الأكبر ، عبد الله ، صاحب المواهب ، المتوحش الذى لا يعرف المبادئ ، واستغرقت الهدنة والهجوم المتقطع فترة طويلة من الزمن ، إلى أن تحقق أعيان بريده ، من أن تجارتهم أوشكت على التوقف ، كما اكتشفوا أيضاً أن قوتهم أقل من قوه عبد الله بن فيصل بن سعود ، وبدءوا يتطلعون إلى السلام بأى ثمن ، واستجابة لممثلى أعيان بريده ، أعطاهم فيصل وعداً لا عن طريق ابنه عبد الله ، الذى يضفى وضعه كوريث للعرش ، الصفة الرسمية على كل ما يصدر حاملاً اسمه ، وإنما عن طريق ولده الثالث محمد ، مفاده أنه قد عفى عن عصيانهم وتمردهم ، ودعاهم إلى زيارة الرياض ، حيث يمكن التوصل إلى شروط سليمة ترضى الطرفين ، وأرسل فيصل بن سعود ، هذا الوعد شفاهه ، ولم يكن مكتوباً ، وبدون ضمانات شخصية كافية من محمد بن فيصل بن سعود الذى حمل ذلك الوعد إلى أهل بريده ، ولكن آل العليانى انتظروا أو تمهلوا بعض الوقت ، تشككاً منهم ، وقد كانوا على حق فى ذلك ، فى وجود فخ خبىء ، وعلى كل حال ، أمكن التغلب ، فى النهاية ، على تردد أعيان بريده ، عن طريق التأكيد مراراً على السلوك السوى والمعاملة الطيبة ، ودعما لهذه التأكيدات أرسلت دعوات مكتوبة ، ممهورة من ولى العهد نفسه ، عبد الله بن فيصل ، ومستفتحة باسم الله ، الذى أقسم به عبد الله ، بأن دعوته ودعوة والده ، لا تحملان أى شكل من أشكال المكر أو الخداع ، وبعد ذلك ، وفى ساعة مشئومة ، شد عُليع 'Oley' شيخ بريده رحالة إلى الرياض ، ومعه اثنان من أبنائه وعديد من أقاربه المقربين ، بصحبة محمد بن فيصل بن سعود .

وبريده تبعد عن الرياض عاصمة نجد ، مسيرة عشرة أيام بالمعدل المعتاد . وطوال الرحلة كان أعيان العليان يعاملون معاملة تليق بمكانتهم ، إلى أن وصلوا الرياض ؛ التى لم يجدوا أحداً ، فى استقبالهم خارج أسوارها ، طبقاً للأعراف

والتقاليد العربية ، الأمر الذى أصابهم بالدهشة والحيرة ، واعتذر لهم محمد بن فيصل ابن سعود قائلاً لهم : إن أخاه عبد الله لابد أن يكون مشغولاً بتجهيز مكان مناسب لاستقبالهم ، وأنهم سيجدونه فى انتظارهم عند باب قصره ، وفى كل الأحوال كانت الشكوك التى دارت فى أذهان الضحايا ، عندئذ عديمة النفع ولا طائل من ورائها ؛ لقد فات أوان الهروب كما فات أيضاً أوان التفاوض على الشروط . ووصل آل عليان ، يحيط بهم جمهور من زبانية الرياض المتعصبين ، إلى البوابة الخارجية لأفضل قصر من قصور الأمير عبد الله ، كان الأمير عبد الله ، نفسه يقف أمام البوابة ، راكباً حصانه ، تحيط به حاشية مسلحة ، وبعد أن شاهد عبد الله ، عُليعاً يقترب منه ، سارع بإدارة حصانه ، ودخل من بوابة القصر ، دونما انتظار منه لرد تحية ضيوفه . وتبع الضيوف الأمير عبد الله ؛ ولكنه كان قد أخفى نفسه عنهم فى أحد الأماكن الداخلية ، وبدلاً من الأمير عبد الله ، شاهد آل ـ عليان فناء القصر وقد امتلأ بالرجال المسلحين ورجال آخرين يشهرون سيوفهم ، وأغْلِقت عليهم الأبواب فجأة ، وبدأت المذبحة .

وقَطَّعتْ أجساد كلًّا من علَيع ، وولده الأكبر ، وأقاربه ومرافقيه إربا إربا داخل ذلك المكان ، وسالت دماؤهم على أعتاب مضيفهم الخائن ، ولم يبق على قيد الحياة ، سوى الابن الصغر لـ ـ شيخ بريده ، واتخذوه رهينة ، مقابل أفراد العائلة الذين بقوا فى القصيم .

وعلى الفور توجه عبد الله بن فيصل بن سعود ، وأعوانه القتلة قاصدين القصيم ، التى وصلوها قبل أن تفوح أخبار خيانته ، وهاجم عبد الله مدينة بريده ، على الفور ، وهو مرتبك مما جرى مؤخراً ، ومتورط فى الإمساك بالبقية المتبقية من أسرة العليان كى يلاقوا مصير أقاربهم فى الرياض ، ونجت من القتل قلة قليلة من آل عليان ، كان عبد المحسن من بينها : وحددت أسعار لرؤوسهم . وبعد أن خسر الحضر شيوخهم ورؤسائهم ، استسلموا بعد كفاح لم يدم طويلاً ، وعين واحداً من أهل الرياض ، اسمه مهنا ، حاكماً على بريده ، بصفته نائباً لـ ـ فيصل بن سعود ، الذى خوَّله سلطة كاملة ، وبعد أن انتهت المعارضة ، أصدر عبد الله أوامره بقتل ولد عُليع الوحيد الذى بقى على قيد الحياة ، والذى كان يحتجزه فى السجن منذ تاريخ المذبحة ؛ ثم استفاد بعد ذلك من الخوف والفزع الذى انتشر فى كل أرجاء القصيم ، بأن حاول توجيه ضربة قاضية وحاسمة إلى عنيزه نفسها .

ظلت تلك المدينة الكبيرة ، لعدة قرون ، عاصمة لمنطقة القصيم ، أو بالأحرى لثلث الجزيرة العربية ، وأنا أعني بذلك ، ذلك الجزء الذي نطلق عليه اسم المركز الشمالي الغربي من الجزيرة العربية، وقد جلبت تجارة عنيزه مع كل من المدينة ومكة من ناحية ، ومع نجد ، بل حتى ، مع دمشق وبغداد من الناحية الأخرى ، سلعًا وبضائع لم تكن معروفة في أي مكان آخر داخل الجزيرة العربية ، زد على ذلك ، أن تجارها الأشداء المهرة كانوا يصلون إلى شواطئ البحر الأحمر وشواطئ الخليج الفارسي ، بل أنهم كانوا يصلون، بين الحين والآخر، إلى ضفاف الأنهار البعيدة مثل ضفتي نهر الفرات ، أو بحيرات دمشق ، أضف إلى ذلك ، أن طبيعة سكان عنيزه القتالية المفعمة بالحيوية هي التي حالت دون سيطرة التجارة على هذه الروح القتالية ، بل أن المقاتلين العنزيين شوهدوا مرتين في الآونة الأخيرة ، خلف أسوار باهله Bahholah ، في قلب عُمان ، برغم المسافة الكبيرة، التي تصل إلى سير ثلاثة أشهر التي تفصل عنيزه عن عُمَان . كانت عنيزه نفسها تتباهى باستحكاماتها المزدوجة ، صحيح أن هذه الاستحكامات كانت مصنوعة من اللَّبن ، ولكنها من حيث الارتفاع ومن حيث السمك لا تستعصي على المحاصرين العرب ، شأنها في ذلك شأن دفاعات أنتيورب Antwerp أو باداجوز Badojoz في مواجهة أي جيش من الجيوش الأوربية ، فالسور الدائري الخارجي ، بخندقة وأبراجه يحمي البساتين ، في حين يحمي السور الداخلي المدينة نفسها ويحيط بها . كان في عنيزه رئيس شاب شجاع اسمه زامل ، أو زويمل آل عطيه ، طبقًا للاسم الذي اشتهر به بين الناس ؛ وقد اعجب به إخوانه المواطنون ورعاياه لرقته وكرمه وقت السلم وجرأته وجسارته أيام الحرب، وكان كبير ضباطه أو ملازمه من المولدين اسمه الخيَّاط، لا يقل عنه مهارة أو شجاعة ، وكانت قوة عنيزه القتالية ، هي والقرى التابعة لها ، تقدر بحوالي خمسة آلاف رجل مسلحين ببنادق الفتيل ، وعدد مماثل أيضًا من القوات المرتزقة، التي كانت تجمع من بين البدو بصورة أساسية، من المناطق المحيطة بعنيزه ، وتُنْتَقَى بخاصة من القبائل القوية مثل قبيلة حرب وعتيبة ؛ كانت هذه القوات كلها رهن إشارة زامل هو ومجلس حربه .

وحاول الأمير عبد الله بن فيصل بن سعود، اقتحام عنيزه اقتحامًا مفاجئًا وعنيفًا، ولكنه أخفق في ذلك وأخبر عبد الله والده فيصل بما حدث ، وقام والده على وجه السرعة بتعبئة قوات أعالي نجد كلها ، وقادها هو شخصيًا إلى عنيزه ، على أمل أن ينجح ، هو وقواته وقوات ولده ، في هذه المرحلة الحاسمة ، في اجتياح عنيزه ، قبل أن

تتعاطف معها القصيم، المجندة بالفعل لخدمة العاصمة ، وتهب لنصرتها والدفاع عنها، ولكن زامل ، كان قد أرسل بالفعل إلى شريف مكة ، يخبره بما حدث ، ووضع أمامه الخطر الذى قد يحدق بالمدينة المقدسة نفسها ، جراء تعَدّى الوهابيين عليها ، إذا ما نجح فيصل وولده فى اجتياح عنيزه ، الحاجز الوحيد المتبقى ، الذى يحول بين نجد والمدينة المقدسة ، وأدرك شريف مكة حقيقة الخطر الذى نوه إليه زامل ، فجمع كل ما لديه من قوات ووصل بها إلى مسرح القتال ، وفى عنيزه التقى شريف مكة كلا من الأمير فيصل وولده عبد الله ، وعرض أن يقوم بدور الوسيط بينهما وبين زامل ، وهنا أدرك فيصل ، أن استمراره فى الحرب بعد أن تدخل فيها شريف مكة ، وبدون موافقته عليها ، قد تجر على فيصل نفسه ، وعلى إمبراطوريته نتائج وخيمة ، لا تقل خطراً عن تلك النتائج التى ترتبت على النزاع الذى دار بين جده والسلطات العثمانية ، التى يمثلها حاليًا شريف مكة ، وهنا يتخلى فيصل ، بشىء من التردد ، عن فريسته ، ويوافق على الشروط المتيسرة التى وضعها شريف مكة ، ويعود فيصل بعد ذلك ، مع جيشه إلى جبال نجد ، تاركًا كلا من زامل ومؤيديه لحال سبيلهما ؛ على حين ، عاد عبد المطلب إلى الحجاز ، بعد أن ألزم الوهابى وحصل منه على تأكيدات قوية جداً بعدم القيام بأية محاولة أخرى ينال بها من حرية عنيزه .

وتنقضى ستة أو سبعة أعوام قبل أن يخاطر الوهابى بخرق المعاهدة التى وقعها مع تلك السلطة الكبيرة . ووضع الوهابى خطته الأولى ، نصب عينيه ولم تغب عنهما مطلقًا ، وبمثابرة نجدية حقيقية ، واصل الوهابى اتخاذ سلسلة من الإجراءات المنظمة ، التى تستهدف تسهيل تنفيذ خطته فيما بعد ، إذا ما آن الأوان وسنحت له الفرصة بتنفيذ هذه الخطة، وراح الأمير فيصل، يهاجم القبائل ويسحقها الواحدة بعد الأخرى ، إذ هاجم عتيبة ومن بعدها حرب ، كما هاجم أيضًا كل القبائل التى اشتبه فى أنها تزود جيش عنيزه بالرجال ، أضف إلى ذلك ، أن قوات مهنا فى مدينة بريده المجاورة ، راحت تتوسع شيئًا فشيئًا ، إلى أن أصبحت تسيطر على الجزء الأكبر من القصيم ، فى حين زادت عزله عنيزه وتقطعت سبل الاتصال بينها وبين مصادر قوتها التجارية والحربية على حد سواء ، وفى النهاية ، لم يعد يتبقى بين فيصل وتحقيق هدفه ، سوى المخاطرة باستثارة عداء شريف مكة ، ومن ثم استثارة عداء كل من مصر والقسطنطينية ، ومكنت الأحداث التى وقعت خارج حدود الجزيرة العربية فى العام ١٨٦١ الميلادى ، الأمير فيصل ، من أن يرفع القناع ويبدأ القتال ، وراجت بعض الأنباء التى مفادها أن

التغيير السياسى الذى حدث فى القسطنطينية ، عقب وفاة السلطان عبد المجيد ، واعتلاء أخوه عبد العزيز العرش ، لن يكون فى صالح الشريف عبد المطلب ، وأنه سوف يخلع من منصبه ، ليحل محله شريف آخر مشهور بولائه للمبادئ الوهابية ، أضف إلى ذلك ، أن تفاقم مرض سعيد باشا ، ورحلته غير الموفقة إلى أوربا ، قضت على جميع فرص واحتمالات التدخل المصرى لصالح عنيزه ، وهنا تهيأت الفرصة للأمير فيصل ، ولكنه تردد فى اقتناصها ، وربما شعر الأمير فيصل ، بحكم شيخوخته ووهنه بعدم قدرته على مواجهه النتائج والهموم التى سوف تترتب بالفعل على القيام بمثل هذا العمل ، فى حين أن وخزات الضمير ، التى لم تختف بعد ، حتى بعد ثلاثين عامًا من الحكم ، يقال إنها هى التى منعت الأمير فيصل ، فترة من الزمن ، من أن ينقض وعوده التى قطعها على نفسه أمام زامل ومواطنيه ، ولكن مجلس المطيعية Muddey'yeeyah (المطاوعة) الأقل شكوكًا ووسواسًا (والذى سنتكلم عنه باستفاضه فيما بعد) حثه على الدخول فى القتال ، وفى النهاية وافق الأمير فيصل على الدخول فى الحرب .

وراح الأمير فيصل يبحث عن معركة يفتعلها ، وسرعان ما سنحت له الفرصة بذلك ، عند دفع الجزية المستحقة على عنيزه للحكومة المركزية فى الرياض ، وادعى الأمير فيصل ، أن المبلغ المدفوع أقل مما هو منصوص عليه فى المعاهدة ، وأرسل قوة عسكرية بهدف الحصول على مبلغ أكبر ، ولبى أهل عنيزه هذا المطلب أيضًا ، ولكن ذلك لم يرض الوهابى ، وزعم الوهابى (الأمير فيصل) أن هناك متأخرات حدثت عن طريق الاحتيال ، واتهم زامل بارتكاب هذه الجريمة ، واستدعاه ليدافع عن نفسه ، ويبرئها من هذا الاتهام ، فى الرياض ، وكان من الطبيعى أن يرفض زامل الموافقة على ذلك الاستدعاء ، وهنا أعلن فيصل الحرب ، عليه ، وأرسل أهل عنيزه مبعوثًا إثر مبعوث التماسًا للسلام ، وأعربوا عن استعدادهم للموافقة على أى شروط عليها يمليها الأمير فيصل ، باستثناء الموافقة على استسلام شيخهم (رئيسهم) ، ولكن فيصل كان عنيداً ، واستمر الصراع .

كانت حرب عنيزه ، عندما وصلت حائل ، قد اشتعلت منذ أربعة أو خمسة اشهر دون أن تسفر عن أية نتيجة حاسمة أو أية ميزة ملموسة لأى من الطرفين ، وحاول الأمير فيصل ، من ناحيته ، إضعاف أتباع زامل بأن استمر فى القتال وشن الغارات على نحو أرهق أعداءه ، مستهدفًا من ذلك تجميع كل قواته ليضرب ضربته القاصمة

عندما يتأكد تمامًا من تحقيق نجاح ساحق وحاسم ، وقد تأكد أن هذه الخطة كانت محسوبة تمامًا فيما يتعلق منذ البداية بتجنب الأخطار التى قد تنجم عن حدوث ما لم يدخل فى الحسبان ، وضمان الانتصار الحاسم ، والواقع ، أن ذلك حدث بالفعل .

وتنفيذًا لهذه الخطة أرسل الأمير فيصل ولده الأصغر محمد ومعه مجموعة صغيرة من القوات النجدية التى يجرى تجميعها من حين لآخر ، وألحقه على قوات مهنا ليدعمه فى العمليات التى كان يقوم بها ، فقد كان مهنا يقوم من موقعه المركزى فى بريده بفرض حصار على عنيزه ، يشبه حصار طروادة من حيث الشكل ، ويهدف إلى إطالة مدة الحرب ، وراح زامل ورجاله يثأرون لأنفسهم وينتقمون من أعدائهم عن طريق الهجوم المفاجئ عليهم بصورة متكررة ، وعن طريق الطرق الفرعية من داخل أراضى وبساتين بريده أو عن طريق البلدان الأخرى الخاضعة لـ ـ مهنا ، وكانت نتائج هذه العمليات الجزئية فى صالح زامل وأتباعه بشكل عام .

وتعاطفت القصيم كلها ، باستثناء حزب صغير جدًا ، مع المحاربين العنزيين وكانت تتمنى لهم النجاح ؛ ولكن خوف أهل القصيم من مهنا ، واستمرار وصول المزيد من القوات النجدية ، ورمان الجزيرة العربية ، هو الذى أبعد معظم أهالى القصيم عن المشاركة بطريقة علنية وصريحة ، وأرسل زامل والخياط مزيدًا من البرقيات والرسائل إلى حاكم مكة وإلى طلال بن الرشيد فى حائل ، يتوسلون إليهم أن يساعدوهم أو يقوموا بالتوسط لهم لدى الوهابى ، ولم يستطع أى طرف من هذين الطرفين أن يفعل شيئًا من أجل زامل وأتباعه ، لم يكن طلال بن الرشيد على استعداد لإشعال حرب صريحة وسافرة بينه وبين الوهابى ، الذى كانت جيوشه تزيد على جيوش بن الرشيد بنسبة ثلاثة إلى واحد ، زد على ذلك أن جهوده التى كان يبذلها من أجل إبرام هدنه أو معاهدة باءت بالفشل أو رُفِضَتْ من قبل الرياض ، كما باءت بالفشل أيضًا الجهود التى بذلها الشريف عبد المطلب ، الذى ضعف مركزه ، نتيجة لعدم دعمه من القسطنطينية ، وفيما يتعلق بمصر ، أمل زامل الأخير ، أتضح إنها ، وليست هذه هى المرة الأولى ، أنها اضعف من أن يُعْتَمَدُ عليها ، ولم يكن صعبًا على العين البصيرة ، أن تدرك ، أن النجاح المؤقت ، أيا كان نوعه ، الذى يحتمل أن يصاحب الجهود غير العادية ، التى يبذلها آل – عطية هم وحاشيتهم ، أن المدينه المحاصرة ، برغم تحصينها تحصينًا جيدًا وبرغم قوة حاميتها ، سوف يستحيل عليها ، فى النهاية ،

أن تقاوم ، وحدها ، ثقل نجد كلها وموارد الوهابيين الكبيرة ، ومع ذلك ، استمر أنصار عنيزه يعلقون على الأمل أملًا معاكسًا ، وأصبحت الرغبية ، في هذا الحال ، كما هي في أحوال أخرى كثيرة ، أبا للفكر ، وتملقوا أنفسهم بوعد بنتيجة ، لا تقل طبقًا لمجريات الأحداث الطبيعية ، عن تحرير بولندا ، أو انتصار سيرتوريوس Sertorius على جحافل بومبى .

كان ذلك ، هو حال الأحداث في شهر أغسطس من العام ١٨٦٢ الميلادى ؛ وصادفت بقية مقامي ، في الجزيرة العربية ، استمرار هذه الحرب والكارثة التي نجمت عن تلك الدراما الدامية ، التي جعلتني الظروف شاهداً عليها ، في بعض مراحلها ، من هنا ، فأنا أرى أن هذا التلخيص السريع الذى قدمته ، عن أصل هذه الحرب وسيرها ، ليس سطحيًا أو تافهًا ، برغم انه جاء على حساب شئ من الاستطراد الطويل إلى حد ما .

وتركنا دحيم هو وأصدقاؤه أو أقاربه وهم يتناقشون مناقشة حامية في هذه الموضوعات نفسها ، وعلى كل حال ، فإن قواهم الكلامية لم تكن مقصورة ، بأى حال من الأحوال ، على الحرب والسياسة فقط ، فقد كان الطب والجراحة (نظراً لأن العرب لا يميزون هذا عن ذاك ، من حيث النظرية والممارسة ؛ والواقع أن أفضل علاج أو دواء عام لديهم ، الكيّ الفعلى ، يدخل ضمن الجراحة وليس ضمن الطب) مثاراً للنقاش في أحيان كثيرة ، وقد سعدت جداً عندما وجدت معارفي من أهل القصيم يتكلمون عن هذه الأمور من منظور إدراك جيد لها ، والتماسهم الأعذار اللازمة لذلك ، بل بشيء طفيف من الخبرة والتجربة ، زد على ذلك أن كثيراً من النباتات التي تنمو هنا ، لها بعض المزايا الطبية ، مسكنات ، منشطات ، أو مخدرة ، ويستخدمها من حين لآخر ، السكان أصحاب الخبرة والتجربة ، كما أن استعمال الكمَّادات (التكميد) والأدوية الخارجية الأخرى ، أو الملطِّفات يدخل أيضًا في إطار مهارتهم وخبرتهم ، كما تعوض سرعة البديهة الفطرية ، إلى حد ما ، أوجه القصور الناجمة عن جهلهم بالمعلومات النظرية .

يصور بعض المؤلفين ، الذين تجولوا أو لم يتجولوا في الجزيرة العربية ، عرب وسط الجزيرة ، على أنهم عرق عاجز تماماً عن تحقيق أى إنجاز أو تقدم حقيقى في العلوم التطبيقية والعلوم المادية ، كما يفترض هؤلاء المؤلفون أن ذلك الفرع من المعرفة

يكاد يكون مقصوراً على يافث(*) Japhet، إذا ما استعرنا لحظة ذلك التصنيف الذى يستعمله الكثير من هؤلاء المؤلفين ، فى حين أن حام(*) (١) Shem ومن انحدروا عنه ، الذين تحتل العرب بينهم مكانًا مرموقًا ، لا ناقة لهم ولا جمل فى هذا الفرع ، ومن واقع خبرتى ، إن استطعت أن اسميها خبرة ، أجدنى أصل إلى نتيجة مختلفة تمامًا ؛ بل إننى أميل إلى النظر إلى العرب ، إذا ما نظرنا إليهم ككل أو أفراد ، على اعتبار أنهم أصحاب مقدرة وكفاءة بارزة فى العلوم التطبيقية والعلوم المادية ، وأنهم لا يقلون مقدرة فى "استيعاب الخطوط الحديدية ، والسفينة التجارية" ، أو أى اختراع آخر من مخترعات القرن التاسع عشر ، أو البحوث الطبيعية ، عن مواطنى مدينتى شيفيلد وبرمنجهام نفسيهما ، ولكن كل ما فى الأمر ، أن العرب ينقصهم الاتصال والتواصل مع البلدان الأخرى ، وبخاصة مع تلك الدول ، التى كانت فى أزمان سابقة ، ولا تزال منابع لهذا النشاط بعينه ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الدواء المحمدى ، الذى يصيب بالشلل ذلك الذى لا يقتله ، هو الذى أخَّر العرب فى السباق الذهنى والمعرفى ، وجعل غيرهم يسبقونهم ، لأنهم استفادوا من الظروف المواتية ، وربما لم يستفيدوا من فطرتهم الطبيعية، وعندما يختفى القرآن ومكة من الجزيرة العربية(٢) ، عندئذ ، بل عندئذ فقط ، يمكن أن نتوقع للعرب بحق ، أن نراهم وهم يتبوءون المكان اللائق بهم بين صفوف الحضارة ، التى حرمهم محمد وكتابه - أكثر من أى سبب فردى آخر - عن اللحاق بها .

وأنا لا أعرف على وجه الدقة مدى تطبيق هذه الملاحظات بين الأتراك والفرس ، والأتراك سواء أكانوا وثنيين أم يعتنقون دين محمد ، ظهروا على المسرح العالمى لا لشئ سوى التدمير ، بل يندر أن يعمِّروا ؛ والفنون والأدب لا يدينان بأى شئ للأتراك وإنما أصابهما الانحطاط والانحلال على أيديهم. وفيما يتعلق بالفرس ، فهم فى رأيى ،

(١) (*) حام ، ويافث : أبناء سيدنا نوح عليه السلام - (المترجم) .

(٢) لا يستطيع المؤلف هنا أن يكتم حقده على الإسلام ونبى الإسلام ، فوق تدليسه فى جلّ ما يتعلق بتعاليم هذا الدين . فنراه يرجع تخلف العرب إلى وجود النبى محمد (ﷺ) وإلى تعاليم القرآن الكريم ، مع أن الثابت علمًا أن القرآن هو الذى دعا المسلمين إلى العلم والنهوض والتقدم بل إن النهضة العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية كالكيمياء والفيزياء والفلك وغيرها كانت بداياتها على يد علماء المسلمين أمثال جابر ابن حيان ، والحسن بن الهيثم ، والرازى الطبيب وغيرهم ، وأن أوربا اعتمدت فى نهضتها على المنهج التجريبى لدى المسلمين والذى نقله إلى أوربا روجر بيكون فى القرن ١٦ م . (د. حلمى عبد المنعم) .

ومن حيث طبيعتهم القومية على اقل تقدير ، فاسدون تماماً وبشكل نهائى ، بغض النظر عن دينهم ، أو نظامهم الملكى أو تنظيمهم ، ومما لا شك فيه أن تأثيرهم على الفعل الشرقى كان تأثيراً عظيماً ؛ ولم يكن هذا التأثير الذى جاء مثمراً فقط على شكل إفراط فى التأمل ، وذوق متدن فى الأدب ، وفساد فى الفن ، وفى أحيان كثيرة ، أصابوا الجماهير من حولهم بالقلق والاهتياج ، الذى لا يجد لا يبيح Liebig أى فارق بينه وبين الفساد ؛ ولكن أيام التفوق العربى تعطى سمة مختلفة تماماً ؛ وباستطاعتنا تفسير انهيار وتدهور ذلك التفوق العربى ، بأن نَرُدَّ أسباب ذلك التدهور ، فى بعض أجزائه إلى النفوذ الأجنبى أو القومى أو الفكرى ، لكل من أصفهان والتتار ، وفى البعض الآخر ، إلى رأى الإسلام فى الفناء Decay ، الذى ظهر أول ما ظهر فى منطقة الحجاز .

فى حائل ، وفى أجزاء أخرى من وسط الجزيرة العربية حيث تمثل الوهابية الأقلية أو بالأحرى ، غير معروفة ، لا يشعر الإنسان بالملل أو السأم إزاء العبارات التى من قبيل "لا إله إلا الله" ، "بمشيئة الله" ، "القوى هو الله" ؛ تلك العبارات التى يتشجع بها المسلم على فتور شعوره ، أو التى يسد بها الطريق إلى التحرى والممارسة ، ومن ناحية أخرى ، هناك العبارات التى من قبيل : "لا يمكن إنكار الأسباب الثانوية" ، "وجعلنا لكل شئ سببا" ، هاتان العبارتان يشيع استعمالهما هنا فى الرد على بعض الاعتراضات القدرية التى تصدر عن بعض المسلمين المتحمسين ، هذه هى نوعية النقاش ، التى تدور الآن ، بين أفراد تلك الجماعة المجتمعة الآن فى منزل دحيم ، فهم يشعرون بالضيق والتبرم إزاء الوهابى وتصرفاته ، " يلعنا الله " لقد سمعت هؤلاء الرجال يرددون هذه العبارة مراراً ، عندما يلمح الوهابى المتشدد والوهابى السياسى إلى "الله ، الله" بمناسبة وبغير مناسبة ، ونظراً لأن دين محمد (ﷺ) معروف لدى الوهابيين من خلال الوسيط النجدى ، فإن رد الفعل على مذهب Doctorines محمد بن عبد الوهاب ، لا يكون بعيداً عن توريط نظام System محمد بن عبد الله المكى المعروف للعالمين . وإذا كان القارئ يريد مزيداً من التفصيل لهذه الملاحظة والملاحظات السابقة الأخرى ، فليتبعنى فى رحلتى .

فى السرد أو الحكى الذى يكون من هذا القبيل ، والذى تتداخل فيه المغامرات الشخصية ومرور الأيام والشهور مع الأفكار العامة والتأملات الوطنية أو الريفية ، يحتاج الأمر إلى إيراد كثير من العبارات هنا أو هناك ، التى قد تبدو ، للوهلة الأولى ،

مبالغ فيها ، أو ليست مدعومة ، على اقل تقدير ، بالحجة الدامغة والبرهان القوى ، وإذا ما وجد القارئ شيئًا من هذا القبيل ، فأنا استميحه أن يؤجل حكمة النقدى بصورة مؤقتة ، وأن ينتظر إلى أن أملأ المخططات العامة التى أعددتها على شكل عموميات بالحقائق والمشاهد التى تحتم عليّ أن أحتفظ بها بتواريخ حدوثها ، لمرحلة لاحقة من القصة ، والكتاب الذى أكتبه - أريد له على أقل تقدير ، أن يكون - كُلاً متكاملاً ، بحيث لا يمكن تناوله بغير هذه الطريقة ، تحت عقاب ما يسمى بسوء الفهم ؛ أضف إلى ذلك ، اننى لا أظن ، أننى قد قدمت فى أى صفحة ، من صفحات هذا الكتاب ، شيئًا ليس داخلًا فى سياق شئ آخر ، برغم أننا لم ننته بعد ، سوى من فصول قليلة من الكتاب ، ومع ذلك ، فأنا أضطر ، فى المواقع التى أتعرض فيها لمسألة الأرض أو الأعراق الغريبة على شبه الجزيرة العربية ، إلى الاختصار والاستغناء عن التوثيق الدقيق ، أو التفسير الكامل ، والبحث ، ولو قدر لى هنا أن أشرع فى الدخول إلى هذا البحر الواسع فإن الأمر سوف يتحول إلى موسوعة بدلًا من الرحلة ، والمجال لا يسمح لى هنا إلا بمجلد واحد أروى فيه عن أسفارى فى وسط الجزيرة العربية ، وبعد تقديم هذا الاعتذار ، الذى آمل أن يقبله القارئ ، هيا بنا ، مرة ثانية ، إلى سياق حكايتنا الكشكول .

وتمضى ساعة فى حوار مفيد مفعم بالحيوية . ويعهد إلىّ بالعناية بمزيد من المرضى ، وأرتب مواعيد الزيارات ، إلى ما بعد كتابة الوصفات الطبية للمرضى ، ثم أنصرف بعد ذلك إلى حال سبيلى ، ويعرض علىّ ، شقيق دحيم الأكبر ، أن يصحبنى إلى بعض المنازل المجاورة ، التى يرى أن فيها منفعة متبادلة بين المريض والطبيب .

هذا الحى من المدينة مكون من مجموعات كبيرة من الجزر المنزلية ، منظمة بحيث تكون بين البساتين والآبار : ولكن ليس فى هذا الحى ، سوق أو مسجد ، وهذا مؤشر إضافى إلى افتقار المدينة إلى التنظيم قبل أن تتولى أسرة بن الرشيد حكم البلاد . والشوارع والحارات ، فى هذا الحى ، أنظف مما توقعت ، بل إنها هنا أنظف من شوارع أية قرية من القرى التركية أو الكردية ، ولكن السبب فى ذلك ، يرجع إلى المناخ الجاف ، إلى حد ما . ونروح نتجول سيراً على الأقدام ، هنا وهناك ، بل إننا فى بعض الأحيان ، كنا نقترب من الصخرة العالية المسننة القمة التى تتدلى فوق سور المدينة الشرقى ، وأحيانًا أخرى ، كنا نتجول خلال بيارات النخيل التى تقع على حدود

الخط الداخلي للاستحكامات الجنوبية ، إلى ما بعد الظهر ، ويتعذر المشي بسبب ارتفاع درجة الحرارة ، وهنا يعيدني سُعيد إلى الطريق الرئيسي ، ثم يتركني مع وعد بإرسال دحيم إليّ في المساء يخبرني عن أحوال شقيقه المريض .

أنا أسير الآن وحدي عائداً إلى منزلي ؛ الشوارع والسوق شبه خاليين ، الظلال السوداء الصغيرة تتجمع عند جذوع النخيل أو أسفل الأسوار ، كل شئ هنا نائم في وهج الظهيرة الشديد . ربما بدلًا من الذهاب إلى المنزل مباشرة ، يقودني فضولي ، وكوني لوحدي ، إلى قضاء بضع دقائق عند البوابة الغربية ، التي سأطل منها على السهل الكبير الذي يقع بين حائل والجبل ، هذا السهل الكبير ، يبدو الآن كما لو كان قد تحول إلى بحيرة واحدة واسعة ، تبدو مياهها وكأنها تغمر الحافة الصخرية لجبل شومر ، في حين تتخفى تلك المياه ، بالقرب من المدينة ، في شكل بحيرات خادعة وضحلة ؛ إنه وهم السراب اليومي ، وإذا قدر لنا أن نعود ، خلال تناقص الهاجرة ، سنرى تلك البحيرة الهائلة وقد انكمشت ، إلى بحيرة بعيدة ، وتختفي تماماً قبل حلول المساء (الليل) ، لتبدأ من جديد ، في اليوم التالي ، قبل الهاجرة بساعة أو ساعتين ، أضف إلى ذلك ، أن هذا الشكل الخارجي للمياه "عين المنظر الطبيعي" حسب تسمية العرب غير الملائمة ، هو الذي يجعل المنظر جميلًا تماماً ، إذ بدونه يصبح المنظر قاحلًا تماماً ومنفراً ، ليته كان حقيقة !

وبعد أن متعت ناظري بهذه الظاهرة الجميلة برغم شيوعها ، يممت العودة إلى منزلنا ، ويقوم بركات الشامي وأنا معه بإعداد الغذاء ، ونتحدث عن الزيارات وشئون الغد . أمامنا الآن ساعتان أو نحو ذلك من السكينة والهدوء ، والسبب في ذلك ، أنه يندر أن يحضر إلينا أي إنسان في مثل هذه الساعة من النهار ، فالقيلولة هنا لا تقل عن مثيلتها في كل من إيطاليا وأسبانيا ، وأخيراً يدخل وقت العصر ، وهو تقسيم زمني شهير في الشرق ، ولا يوجد في اللغات الأوربية كلها كلمة لهذا المسمى ؛ وتبدأ فترة العصر اعتباراً من وصول الشمس إلى منتصف مسارها ، وتستمر هذه الفترة إلى ما يقرب من ساعة ونصف أو اقل من ذلك ، قبل غروب الشمس ، ونحن الآن نغادر منزلنا سويا ، متجهين إلى القصر بواسطة طريق مختصر يمر بين منازل بعض أعضاء الحاشية ويمر بزاوية على الجامع ، وسوف نشاهد في الجامع عدداً كبيراً من المصلين الذين جاءوا لأداء صلاة العصر، وبخاصة أن صلاة العصر هي الصلاة الوحيده ، من

بين الصلوات الخمس ، التى يحضرها كل من طلال بن الرشيد وزامل ، تعبيراً للملأ عن تدينهم، برغم إنهم يتخلفون عن هذه الصلاة في كثير من الأحيان، وصلاة العصر ، يعقبها دومًا قراءه فصل أو قسم من كتاب من كتب التراث ، ويعقب هذه القراءة في اغلب الأحيان ، موعظة قصيرة ، أو تعليق على المادة المقروءة ، كان الجميع يعرفون أننا مسيحيان ، ولكن أحداً لم يعترض على السماح لنا بحضور هذه المناسبات ، وقد استفدنا مراراً من هذه الميزة وهذا التسامح ، وليكن ما يكن ، وعرفنا جيداً أن الكلمات والمواعظ كانت مترادفة فى بعض الأحيان .

وفيما يتعلق بطقوس الصلاة نفسها - برغم الاختلاف الطفيف بين الحنابلة والمالكية فى وسط الجزيرة العربية والطقوس الوهابية ، من ناحية ، وعن الطقوس المتبعة بشكل عام بين الشافعية والحنفية الذين يكثر وجودهم فى كل من سوريا أو تركيا ، من الناحية الأخرى ، - لن أضيع وقت القارئ أو أشغله بالتفاصيل المعقدة الخاصة بالسنة والفرض ، والركوع ، والتكبير ، كل هذه التجاوزات التى يندر ملاحظتها لا قيمة ولا معنى لها فى حائل ؛ وأنا ألتمس من القراء الذين يتطلعون إلى الحصول على فكرة صحيحة عن دين محمد فى شكله الصحيح ، أن يرجعوا إلى الكتاب الذى كتبه لين Lane بعنوان "مصر" ، الذى سيجدون فيه جميع التعاليم التى يحتاجونها عن هذه الموضوعات والموضوعات المماثلة الأخرى، وبتفصيل واضح وشيق ، وبدقة منقطعة النظير فى جميع المسائل .

وعندما نصل إلى أعالى نجد ، لابد أن أشير إلى التباينات العديدة من حيث شكل العبادة وطريقتها ، لأن ذلك سوف يساعد على توضيح الاختلاف بين الوهابيين والمسلمين المعتدلين والمسلمين المبتدعين، والسبب فى ذلك ، أن الدين ، فى هذه البلاد ، له مغزى كبير وأهمية كبيرة ، إذ يتداخل الدين فى كل خيط من خيوط الإطار الوطنى ، بل ، فى إطار الفرد نفسه ، ومن ثم تصبح لهذه التفاصيل قيمتها ، فى هذه البلاد ، ليس على حساب أهلها ، وإنما من قبيل توضيح وتكملة الرؤية الأساسية ، وعلى العكس من ذلك ، نجد أن المسلمين ، فى كل من حائل وجبل شومر ، يتأدبون فى مراعاة تلك الطقوس ، من باب التأدب مع جيرانهم فقط ، وليس من باب التعبير الحميم عن فكر وعقيدة وطنية ، من هنا ، فإن طقوس العبادة فى حائل تقتصر كلية على مسجد العاصمة الرسمى الكبير وبعض مساجد أخرى قليلة مماثلة ، مراعاة الطقوس

الوهابية هنا هى مجرد حيلة أكثر منها عقيدة ، أو مجرد شكل من أشكال الحصافة والحرص أكثر منها اقتناع ، ولأنها على هذا النحو فهى لا تشكل أى ثقل هنا اللهم باستثناء خواؤها ، وموقف الناس ، فيما يتعلق بالأمور الدينية ، فى هذه المنطقة ، يتسم بالتقلب وانعدام اليقين ؛ ففى هذه المنطقة كثير من الوثنية ، وفيها شيئ من الإسلام ، وبريق من المسيحية ، وقلق كبير من الطقوس المتشددة والتعاليم المتزمتة .

وبعد أن يقضى الصلاة، وينهض نصف المصلين تقريباً وينصرفون لحال سبيلهم ، ويتجمع أولئك الذين يبقون فى المسجد بالقرب من منتصف المبنى ، ويجلسون على الأرض المفروشة بالحصى حلقة حول أخرى ، ويتكئ بعضهم بظهره على الأعمدة الخشنة المربعة ، التى أفضل أن أُسَمِّيها الركائز ، التى تحمل سقف المسجد ، وبعض آخر يتلاعبون بالمشاعيب التى فى أيديهم ، وفى وسط هذا الجمع ، يجثو على ركبتيه ، شخص معين للقراءة ، لا هو بإمام ولا بخطيب ، يعرف حروف اللغة معرفة جيدة عن الشخص العادى ، وله صوت طيب رنان، يجثو وهو يضع فوق ركبتيه مخطوطاً كبيراً ، قد يستثير الفضول فى برلين أو باريس ؛ ويحتوى هذا المخطوط على أحاديث النبى (ﷺ) ، أو عن حياة الصحابة ، أو قد يكون صحيح البخارى ، أو أى شئ آخر من هذا القبيل ، ويقرأ الرجل فى هذا الكتاب بصوت واضح ولكن بنغمه تثير الملل إلى حد ما ، فهو يشكل كل كلمة تشكيلاً صحيحاً وينبرها نبراً مضبوطاً لا يجيده سوى سيبويه أو قصيبع 'Kosey' ، وقل أن يفعل مثله نحاة سوريا أو القاهرة ، والسبب هنا واضح ، إنها الطبيعة فى حائل والفن فى سوريا والقاهرة ، وتستمر هذه القراءة ما بين عشر دقائق إلى خمس عشرة دقيقة ، والناس ينصتون إليها إنصاتاً مظهرياً ، فى حين يجلس ذوو النزعات والسفور الدينى ، وهم يشكلون ، بطبيعة الحال ، نسبة كبيرة من الذين يحضرون هذه المناسبات ، يجلسون وهم ينظرون إلى الأرض ، أو يثبتون عيونهم على القارئ والمخطوط الذى بين يديه ، بعض آخر ، من ذوى الاهتمام الذهبى القليل ، والمستمعين صغار السن ، يتصرفون كما يحلوا لهم ؛ وتلك مجموعة أخرى ، تتهامس منتقدة جيرانها ، أو يتبادلون نظرات التهكم عند إلقاء مأثرة من المآثر الهائلة الرائعة ، أو الكلام عن رؤيا من الرؤى الخارقة التى لا يصدقها عقل ، والسبب فى ذلك ، هو أن العرب برغم كونهم عرقا سريع التصديق ، إلا أن الكثير مما يقبله الناس ، عن طيب خاطر ، فى كل من مكة وبغداد ، لا يجيزه الناس هنا ، فى حائل ، ويؤسفنى أن أقول : إن طلال نفسه ، عندما كان يُشَرِّفُ تلك الاجتماعات بحضوره ، ضرب مثلاً سيئاً تماماً

على الانتباه ، إذ كرّس جل وقته لدراسة أوجه الحاضرين ، وكشف عن طريق ، تعبير عينيه ، الفاحصتين السريعتين ، أن كل فكره كان مشغولاً بأمور الحياة الحقيقية والسياسية أكثر من أحاديث النبى (ﷺ)، أو المنجزات العظيمة لصحابته ، الرجل ، من أتباع محمد (ﷺ) الخلّص فيما يتعلق بشئون الدولة ، وليس أكثر من هذا .

وعندما يكون الأمير فى المسجد ، فقد جرت العادة أن يُعْطَى القارئ إشارة بعد استماع يدوم عشر دقائق ، بأنه أخذ ما يكفيه ، وهنا يغلق القارئ كتابه ، وينفض الاجتماع دون أى مراسم أو طقوس أخرى ، وفى حالة غياب الأمير ، يحتل مكانة القارئ ، شخص من كبار السن المحترمـــين من بين أنصاف المتعلمين المتدينـــين ، أو أمام المسجد أو الخطيب نفسه، الذى يقدم تفسيراً شفهياً مختصراً للفصل الذى قرأه ، أو قد يلقى عظه موجزه ، وهو جالس ، وبطريقة محببة ، لقد استمعت إلى كثير من الدروس الأخلاقية المفيدة والعملية ، فى كثير من هذه المناسبات فى كل من حائل والقصيم ، وفى المناطق الوهابية ، تأخذ الأمور شكلاً مختلفًا ؛ وسوف أتناول هذا الموضوع فيما بعد .

وعندما يختتم القارئ قراءته ، أو عندما ينتهى من القراءة والموعظة معًا ، يبقى كل واحد من الحاضرين ، فى مكانه صامتًا مدة دقيقة أو نحو ذلك ، كما لو كان يتأمل ، من ناحية ، ذلك الذى استمع إليه ، وأن يعطى ، من الناحية الأخرى ، الشخصيات المهمة الحاضرة ، فرصه الانصراف قبل تزاحم بقية الحاضرين على الانصراف ، ومن الطبيعى ، أن يكون طلال بن الرشيد ، أول من يقف ويهم بالانصراف من المسجد ، ومعه زامل واخوته أو عبد المحسن ، ثم يجلس فى المكان المخصص له على مقعد من الحجر فى الساحة الموجودة خارج المسجد ، ليلتقى برعاياه لقاءً قصيراً بعد صلاة العصر ، وفى المناسبات التى من هذا القبيل ، تجرى مناقشة الأمور الصغيرة ، وكل الأمور الأخرى التى لم تناقش خلال ساعات النهار لقلة أهميتها ؛ وكان من عادة طلال بن الرشيد ، من حين لآخر ، أن يسترخى بابتسامة تنم عن الشعور بالرضا ، عندما يقوم أحد البدو بعرض شكواه الغريبة ، أو عندما يتم احضار اثنين من الحضر ، متهمين بتعيير كل منهما الآخر ، إلى مجلس الأمير . لقد سرتنى هذه المشاهد فى أحيان كثيرة وأنا أشاهدها؛ كان أسلوب طلال بن الرشيد، فى التعامل محدد وتهكمى ، وكان قراره ، فى معظم الأحيان ، عبارة عن جلد كل طرف من الطرفين ، عدة جلدات

تعد على أصابع اليد الواحدة ، وليست قاسية على الإطلاق ؛ فقد كان القاضى الملكى يضع فى اعتباره أن السبَّ يكون دومًا نتيجة من نتائج الاستثارة والتحرش ، وأن الخطأ عندما يكون متساويًا ، فإن العقاب يجب أن يكون متساويًا أيضًا ، ولكن يبقى أن أقول : إن العقاب والحكم كانا معتدلين تمامًا ؛ وربما اعتبر صبى ، من جيلى (١٨٣٨ – ٤٤) ، من تشارترهوس Charterhouse، نفسه حظيظا ، عندما حصل على ثلاث علامات فى الكتاب الأسود ، لم تجر عليه أى شئ آخر ، من ناظر المدرسة ، الذى كان الجميع يخشونه ويخافون منه فى تلك الأيام .

نحن الآن نختلط بالجماهير ؛ فى بعض الأحيان ، يقوم عبد المحسن بتقديمنا للناس ، ويدخل فى نقاش عميق حول الأدب والتاريخ ؛ وفى أحيان أخرى ، يدعونا صديق لنا من الحضر ، وغالبًا ما يكون واحداً من الرؤساء الصغار الذى أصبح زبونًا أو صاحبًا من أصحابنا ، بشكل أو بآخر ، إلى تناول الخوخ والتمر فى منزل والده أو عمه ، مع فنجال من تلك القهوة التى لا تجدها إلا فى الجزيرة العربية وحدها ، أو قد نعود مباشرة إلى منزلنا للوفاء بالزيارات والاستشارات الكثيرة التى تكون فى انتظارنا بالفعل ، وعندما أكون مشغولًا بكتابة الوصفات الطبية أو الفحص ، حسب الأحوال ، يقوم بركات الشامى بإعداد عشائنا المكون من الأرز والقرع ، قطعة من اللحم ، من حين لآخر ، على سبيل الترفيه ، والسبب فى ذلك أننا لم نكن نستفيد كثيراً من دعوة القصر المفتوحة لنا ، كما أننا لم نكن نقبل ، فى أغلب الأحيان ، الدعوات التى كانت توجه إلينا لتناول العشاء فى منازل خاصة ، مستهدفين من ذلك توفير شئ قليل من الوقت لأنفسنا ، وتحاشيا منا للشعبية الزائدة عن الحد ، فى المواضع التى لا تستلزم ذلك ، أو التى ليست فى صالحنا .

وربما أضفت هنا ، أن ذلك القدر من التحفظ ، من جانبنا ، أدى إلى ارتفاع قدرنا فى المدينة ، بل إنه جنبنا أخطار الفضوليين المتطفلين ، والوسطاء من الرجال . وأنا هنا أقول أخطار الفضوليين والمتطفلين ، لأننا كنا مراقبين بالفعل مراقبة لصيقة من الجواسيس الوهابيين ، الذين كانوا على استعداد أن يوقعونا فى شراكهم ، والوصول معنا إلى ما لا نهاية ، وهذا هو موضوع الفصل التالى ، الفضول الوهابى ، خطير أيضًا ، من ناحية أخرى ، لنتائجه الوخيمة على طلال بن الرشيد نفسه ، الذى بلغ من الحصافة والحرص مبلغا يمنعه من تعريض نفسه للفضيحة والخطر ، أو أن

يسمح للآخرين ، بأن يضعونه موضع الشبهات ، وأنه لن يتردد ، لحظة واحدة ، إذا ما غضب منا ، أن يردنا على أعقابنا ، بالتعبير العربى ، وبذلك يحبط كل الأهداف التى حددناها للجزء المتبقى من رحلتنا . ولكن حفاظنا ، فى تعاملنا ، على أسلوب صريح وواضح ، ممزوج بشئ من التحفظ فى بعض المناسبات الأخرى ، أكسبنا مكانة طيبة فى مشاعر الناس ، وقضى على شكوك البعض منهم ، ومنع البقية الباقية منهم من الوقوع فى براثن الشك بدلًا من اليقين .

وعلى كل حال ، فقد كنا نتنازل عن تقشفنا المعتاد ، ونقبل تلك الدعوات الكريمة التى كانت تصلنا من الشخصيات البارزة ، مثل أفراد الأسرة المالكة ، أو المواطنين الأثرياء المحترمين ، مثل : القاضى محمد ، أو عبد المحسن الذى يعمل فى البلاط الملكى ، أو التاجر ضوحى Dohey ، الكهل وافر الثراء ، الذى استفاد منزله من خدماتى الطبية ، وقد تناولت ولائم الغذاء والعشاء ، إذ أن الوجبتين تصلحان لأن تحل كل منهما محل الأخرى ، تناولاً مستفيضاً ، ولست بحاجة هنا إلى تكرار الشئ نفسه ؛ إذ يجب أن نتعلم من الشئ الواحد Ex uno disce Omnes فيما يتعلق ، على الأقل ، بالمأكولات والأطعمة ، فى وسط الجزيرة العربية كلها ، بدءًا من الجوف إلى المناطق المجاورة للرياض . ولم يحدث أن عرفت قط أمه متخلفة فى طهى الطعام ، مثل العرب ، وعلى أى حال ، فإن الأتراك ، والفرس ، والهنود ، يحتلون فى فن الطهى ، مكانه متأخرة تماماً ؛ فهم لا يعرفون من هذا العلم ، سوى ما يجعلهم يدخلون ضمن تعريف الإنسان بأنه "حيوان طاهٍ" ، وكل ما يعرفونه ، من هذا العلم ، هو الأرز ولحم الضأن المسلوق ، مكومان مع بعضهما على طبق كبير ، قليل من الخبز المعتاد ، والتمر وربما بيضه مسلوقة أو بيضتان ، والقرع المفروم ، أو أى شئ من هذا القبيل للتزيين ؛ وملك شومر كلها والجوف وخيبر لا يوضع على مائدته شئ غير ذلك . أغسل يديك ، ثم قل بسم الله (إلا إذا أردت أن يعتبرونك كافراً) ، ثم اجلس إلى الطعام ، وأسرع فى تناول الطعام كما لو كنت تخشى هروب العشاء ، ثم قل "الحمد لله" ، وزد على ذلك الدعاء للمضيف إن أردت المزيد من التأدب ، ثم اغسل يديك مرة ثانية ، بالصابون أو البطاس ، إذ فى بعض الأحيان تجد هذا وذاك ، وهنا ينتهى كل ما يتعلق بالغذاء أو العشاء ، والضيف ، قبل الغذاء ، يدخن غليونًا أو غليونين ويشرب ثلاثة فناجيل من القهوة ، ولكن بعد الانتهاء من الغذاء أو العشاء ، يجوز لك أن تدخن غليونًا واحداً فقط ، وتشرب فنجالاً واحداً من القهوة ، لأن هذا هو ، عرف ما بعد تناول الغذاء ، ثم تحيى أصدقاءك بتحية المساء ، وتنصرف لحال سبيلك .

وقد وجه روشيد ، خال طلال بن الرشيد ، والجار ذى القربى ، كما سبق أن أشرت الدعوة لنا مراراً ، وهو شخص لاذع ، أنيس ، ولكنه شكلي وسطحي تماماً ، يتباهي بمعرفته البلاد الأجنبية ، وانه وصل في أسفاره إلى أبعد مما وصله أي إنسان آخر في حائل كلها . فقد وصل كركوك ، التي تقع شمالي بغداد على مسافة مسير سبعة أيام ولم يكن غريباً على مصر : الصعيد والوجه البحري ، وهو شأنه شأن كثير من الرحالة من العروق أو السلالات الأكثر ثقافة وتحضروا ، كان يحاول رؤية الشكل الخارجي للأشياء دون أن يعرف أي شئ عن دخائلها ، وبإمكانه أن ينسج خيوطاً طويلة من مغامراته المزخرفة ، وفرائده الغريبة جداً . وهو ما يعيد إلى ذهني واحدة من الطرق التي يتحدث الناس بها عن البلدان الأجنبية ، أكثر من بلدهم ، بعد أن يكونوا قد زاروا تلك البلدان الأجنبية دون معرفة سابقة بلغاتها أو تاريخها، أو أعرافها. كما كان يظن أيضاً أن لديه إدراكاً فريداً ، وكان يتخيل أيضاً أنه يستدرجنا ، في حين أنه كان يسقط الأقنعة عن نفسه ويكشف مستوره وخبايا أسرته ، ومع ذلك ، فقد كان قلبه أرق من عقله ، وإذا لم يكن من الحكماء فقد كان ، في اقل الأحوال ، صديقاً طيباً ومنتظماً من أصدقائنا .

كنت أرحب دوماً بدعوات ضوحي ، وأقبلها بصفة خاصة ، والسبب في ذلك مسكنه الذى يسر الخاطر ، والمناقشات المتنوعة المهمة التي كنا ندخل فيها ، وهذا التاجر ، ذلك الرجل الطويل قوى البنية الذى يتراوح عمره بين خمسين وستين عاماً ، والذى تنم ملامحه الدقيقة ، عن ذكاء غير عادى ، هو واحد من رعيل حائل القديم ، الذين كانوا يكرهون الوهابيين كراهية شديدة ، ويتعاطفون مع دين محمد تعاطفاً قليلاً بشكل عام ، ويتطلع إلى مزيد من المعلومات عن السبب والمسبب ، وعن البلدان والحكومات ، ويعتبر التجارة والحياة الاجتماعية الدعامتين الأساسيتين إن لم تكونا الهدفين اللذين يستهدفهما كل من التنظيم المدنى والتنظيم الوطني ، كما أن عمه ، الذى يبلغ من العمر ثمانين عاماً ، وذلك من باب التخمين في بلد لا يفيد من إمساك الدفاتر والسجلات ، قام برحلة إلى الهند ، وكانت له تجارة في بومباى ، والتي لا تزال يحتفل بذكراها عن طريق لبس غطاء رأس هندى وشال من الكشمير ؛ أما بقية أسرة هذا التاجر ، فقد كانت على مستوى الكبار نفسه ، ولم أر في حياتي أطفالاً مطيعين أو أفضل تعليماً من أبناء ذلك التاجر . ومن الطبيعي هنا ، أن يأخذ القارئ التعليم هنا في طوره الأخلاقي وليس في طوره الذهني أو الفكري ، والابن الأكبر ، لهذا التاجر ،

وهو صبى فى مقتبل العمر ، لا يجرؤ على الدخول على والده دون أن يفك إبزيم سيفه ويتركه خارج المجلس ، كما أنه لا يجلس ، تحت أي ظرف ، فى نفس المستوى الذى يجلس فيه والده ، أو حتى إلى جواره في الديوان .

والديوان نفسه ، كان من أجمل الأشياء التى قابلتها فى هذه البلاد ، فهو عبارة عن غرفة كبيرة مربعة ، تطل على بستان المنزل الكبير ، والضوء يدخله عن طريق نوافذ معرشة على الجانبين فى حين يكون حائط الجانب الثالث غير مكتمل البناء ، ومن ثم فإن المساحة الخالية بين هذا الجدار والسقف تكون محمولة على أعمدة ، تتخللها "أشجار العنب المثمرة المزروعة إلى جوار المنزل" وتتجدل فيما بينها لتملأ تلك المساحة بشبكة مرحة من الأوراق الخضراء والمحاليق ، الشفافة مثل الزجاج الملون عندما تسقط عليه أشعة شمس الشرق ، وأرض الديوان ، التى يسقط عليها ذلك الضوء الجميل ، ترتفع حوالى قدمين عن الأرض المحيطة بها ، ومفروشة بالسجاد الفارسى البهيج ، وتكايات من الحرير ، وأفخم الأثاث العربى ، وفى الجزء المنخفض من القهوة ، عند أبعد أركانها ، كان يوجد وجار القهوة ، على مسافة لا تسمح للحرارة المنبعثة عن الموقد ، أن تزعج صاحب الديوان هو وضيوفه ، ويقصد كثير من أعيان المدينة ذلك الديوان ، حيث تجرى مناقشة الموضوعات المهمة ، بل قبل كل شئ ، مناقشة الموضوعات الخاصة بالطوائف والسياسة في الجزيرة العربية ؛ في حين يبدو ضوحى وكأنه مواطن عربى كامل ، كما يبدو أيضاً فى الوقت ذاته ، قاضياً جريئاً ومتمرساً فى شئون الأجانب ، وهاتان صفتان قل أن تجتمعا سويا بشكل ملحوظ ، ومن ثم يحظى ضوحى بترحيب الجميع .

لقد أمضيت ساعات كثيرة حلوة في ذلك المكان الجميل الذى نصفه صوبه نباتية ونصفه الآخر قهوة، بين وجوه تفيض بِشْراً وأحاديث متنوعة، وبينما كنت أعلق باطنياً ، على الموارد الطبيعية لهذا الشعب القوى المملوء حيوية ، وأُسَرِّح طرف النظر فى العواقب ليتبين ، من خلال ستار المستقبل الذى يغطيه الضباب ، المَخْرج الذى يمكن عن طريقه تحويل خيرهم ، غير المثمر حالياً ، بسبب العزلة ، إلى اتصال خصب مع الدول الأخرى الأكثر تقدماً ، استهدافا لصالح كل طرف من الأطراف ، ولصالح الجميع، وقد صرح مصدر كبير منذ البداية: "ليس من المفيد أن يظل الإنسان وحيداً" ، بل الدول أيضاً ، والزمن وحده ، وليست المسافة ، كفيل بحل هذه المشكلة .

وكانت بعض البساتين مسرحًا لنا نقضى فيها وقت فراغنا بعد الظهر بين أشجار الفاكهة والنخيل ، بجوار مجرى مائى، اختبأت المياه القادمة إليه ، عن أعين الناظرين ، بين غطاء نباتى كثيف ، ليس من صنع فنان ، وإنما من صنع الطبيعة الفطرية . كنا ، نسترخى ، فى هذا المكان فى البراد والظل الظليل ، ساعات طوال ، نتدارس خلالها ، مع كل من عبد المحسن وأمثاله من البشر ، فضائل الشعراء والمؤلفين العرب ، من أمثال عمر بن الفارض وأبى العلاء ، فى اجتماعات ذات طابع كلاسيكى صاف ، وزخم عربى يجعلنا نقبل العرب بشخصيتهم السامية المرحة التى تفيض بشراً .

وعندما تظهر النجوم ، كنت أتجول مع عرفات ، بعيداً عن هواء الشوارع والسوق الساخن ، فى السهل الواسع بارد الهواء ، ونقضى فيه لوحدنا ، ساعة أو ساعتين ، أو فى التحدث ، مع أى أحد من المارة ، يكون قد تسلل إلينا ، عند الغسق ، دون أن يلاحظ أحد ، ودون أن يلاحظ هو أحداً ، وكنا نتسلى بسذاجته أن كان من البدو ، أو بحصافته أن كان من الحضر .

هكذا أمضينا حياتنا المعتادة فى حائل ، وقد وقعت لنا أحداث صغيرة كثيرة أدت إلى تنويع هذه الحياة ، وقع لنا كثير من الأفراح والاتراح الصغيرة التى لابد منها فى ظل التواصل البشرى ؛ ففى بعض الأحيان ، كانت زيادة عدد المرضى وضرورة فحصهم ، لا تسمح لنا بشئ من وقت الفراغ باستثناء ذلك الوقت الذى كنا ننفقه فى القيام بواجباتنا المهنية ؛ وفى أحيان أخرى كان يمضى علينا يوم أو يومان دون أن نفعل فيها أى شئ ؛ ولكنى لن أقول شيئًا هنا عن هذه الأحداث ، التى رغم استغلالى لها وقت حدوثها ، استغلالاً فعلياً ومحلياً ، تظل ، رغم المسافة والزمن ، تشكل نبعًا من ينابيع الذكريات الحلوة؛ زد على ذلك، أننى أعطيت القارئ قدراً كافيًا من هذه الأمثلة . وقد أمضينا الفترة من اليوم السابع والعشرين من شهر يوليو من العام ١٨٦٢ الميلادى ، إلى اليوم الثامن من شهر سبتمبر من العام نفسه ، فى ممارسة الطب فى العاصمة أو المناطق المجاورة لها ، ولكنى طوال هذه الفترة نفذت ذلك الذى اعتبره أيبيزود[1] بحد ذاته، ولكنه كان فى واقع الأمر بمثابة العقدة الرئيسية فى الدراما كلها، وبدأت هذه العقدة تتداخل مع ظروفنا ومهنتنا الأخرى ، إلى الحد الذى أصبح قناع

(١) الإيبيزود : ذلك الجزء من تراجيديا إغريقية قديمة ، الواقع بين أغنيتين كورسيتين ، (المترجم) .

الطب الشعبي كافيًا لستر كثير من الأمور المهمة والضرورية ، ولعل القارئ يذكر جيدًا أنني أشرت إلى مكانتنا النسبية عند طلال بن الرشيد ، وعند أسرته وحكومته ، وأننا أصبحنا الآن على اتصال قيمٍ ودائم وضروري مع كل من طلال ، وأسرته وحكومته ، وهنا بدأت سلسلة طويلة من الأحداث، التي سأواصل الحديث عنها طوال بقية الرحلة ، وفي بعض الأحيان كانت تلك الأحداث توافق رغباتنا ، وفي أحيان أخرى كانت على العكس من ذلك – شلة من الخيط المتعدد الألوان ، تمتد خيوطها من حائل إلى الخليج الفارسي ، بل إلى أبعد من ذلك ، ولكني سوف أُفصِّلُ كل ذلك في فصل مستقل .

الفصل الخامس

أحداث البلاط الملكى فى حائل

ولكن برغم أنك تبدو أكثر تأكداً -
فإن ثقتك ليست كافية ، نظراً لأن الأحزان خضراء ،
كما أن أصدقاءك كلهم ، الذين يجب أن تجعلهم أصدقاء لك ،
لدغاتهم ، وأسنانهم إِنْتُزِعَتْ مؤخراً ،
وليكن طريقك إلى العقول المشغولة الطائشة
العامرة بالمشاجرات الأجنبية .
شكسبير

سلوك طلال معنا - شقيقه متعب - قصر متعب ، قهوة متعب وحديثه - عباس باشا وتآمره مع البدو والوهابيين : أسباب فشل الاثنين - لسكارس وفتح الله - مكان القومية العربية - المراسلات بين حائل ومصر - سياسة طلال للحصول على حق حماية القافلة الفارسية - مندوبون من القصيم - زيادة حرج موقفنا - زامل ، شخصيته - ثقتنا به - سلوكه وتصرفاته - المقابلة الثانية مع طلال - نتيجة هذه المقابلة - جواسيس نجديون - عُبيد - تاريخه وشخصيته - طائفة وهابية في شومر - تصرفات عبيد معنا - تحذيرات عبد المحسن - ثورة عبيد - قيادة حملة على قبيلة حرب - تجميع القوات - رسالة عبيد ، بشأننا إلى الأميرعبد الله فى الرياض - المقابلة الثالثة مع طلال؛ نتائج المقابلة- جواز سفر من شومر - أسباب مغادرة حائل - مرشدونا إلى القصيم - زيارات عبد المحسن للتوديع ، زامل ، وآخرون - الآلام المتبادلة - مغادرة حائل .

أوضحنا أن طلال بن الرشيد ، برغم أنه ، بصورة أو بأخرى ، أجّل ما أوحى قلبه له به عن تصرفاتنا ، عند دخولنا عاصمته أول مرة ، وأنه وافق بطريقة أو بأخرى ، أيضًا على تنكرنا الطبى ، ولكنه مع كل ذلك ، لم يتخلَّ تمامًا عن فكرته العامة عنا ، التى مفادها أن زيارتنا لممتلكاته تخفى وراءها شيئًا آخراً غير ما يبدو منها للملاحظ العادى . من هنا ، استمر طلال بن الرشيد فى مراقبتنا مراقبة لصيقة عن طريق عبد المحسن وآخرين من القصر ، زد على ذلك ، أن كثرة الزيارات التى كنا نحظى بها من القصر كانت مشفوعة بفضول من الملك ليعرف كل شئ عنا وليس من باب فرط الاهتمام أو التعطش للعلم من جانب أصدقائنا . وكان لابد لنا أن نحذر كل ذلك ، الأمر الذى جعلنا نلتزم بخطتنـــا الأولى ، ولم نسمح لأى كلمة أو طرفه تخرج من أفـواهنا إلا بعد أن تكون مطابقة مع ما أعلناه منذ البداية .

وبعد أيام قليلة ، وصلتنا دعوة ثانية من دعوات طلال بن الرشيد ، تقترح علينا استبدال منزلنا الحالى بمنزل آخر أوسع وأنسب لنا بالقرب من القصر الملكى ، وأنا أتصور أن صاحب الدعوة كان يرمى من وراء ذلك أن نكون تحت بصره مباشرة ورهن إشارته، ولكن الرفض المهذب من جانبنا، والمشفوع بأعذار مقبولة ، أحبط هذه الرغبة . ويستشعر طلال العنف ، ويبدأ من ذلك الوقت فصاعداً ، رد تحيتنا له فى الاجتماعات الشعبية وفى الاجتماعات المفاجئة بدفئ وحرارة أقل من ذى قبل .

وعاد ، فى ذلك الوقت نفسه ، الأمير المرح المتهور متعب بن الرشيد ، ثانى أفراد العائلة ، شقيق الأمير طلال ، من رحلته إلى منطقة المراعى ، التى كان يستطلع فيها أحوال الإسطبل الملكى ، فى مروج حضر معاد الخضراء ، التى تبعد مسافة كبيرة عن حائل ، وعقصاته الطويلة التى تشبه الكهرمان الأسود ، وملابسه رائعة الجمال وتصرفاته الخالية من التكلف، على النقيض من سلوك ، وملابس مليكه وشقيقه الأكبر ، طلال بن الرشيد ، كان متعب بن الرشيد كثير الأسفار ، زار مشهد على عدة مرات هى والمناطق المجاورة لها ، كما دخل بغداد أكثر من مرة ، وأجرى محادثات مع الباشوات والقناصل ، ولكن إذا كان طيشه ، وتقلبه من حيث المظهر والمخبر ، يجعلانه لا يصلح لأمور الدولة التى تحتاج إلى المزيد من الرزانة والاتزان ، فإن تصرفاته وسلوكياته المستساغه وسرعة إدراكه أكسبته نجاحًا كبيراً فى تلك المؤامرات الوضيعة، التى يمكن أن تمهد الطريق فى الشرق وفى الغرب ، على حد سواء ، أمام الأحداث الجسام ؛ وفى تلك المناورات الأولية كان متعب أداة شهيرة وجاهزة للعمل .

ورجل له مثل هذه الشخصية، لابد من إبلاغه فوراً بوصولنا وبكل ما يعرفونه عنا؛ وبالتالى لم يكن متعب بحاجة إلى مزيد من الحفز كى يتعرف علينا ، ففى اليوم التالى لعودته من الريف ، أى ، اليوم العاشر من تاريخ إقامتنا فى حائل ، شرَّفنا الأمير متعب بزيارة صباحيه ؛ فقد كان يود الإطلاع على أدويتنا ، وكتبنا ، بل على كل شئ ؛ وتكلم بطريقة عابرة عن مصر وسوريا ، ثم استأذن ، بعد ذلك ، فى الانصراف ، ولكن فى نفس اليوم جاءنى فى المساء زنجى أنيق من حاشيته بينما كنت أتمشى فى المنطقة المجاورة للقصر ، وأبلغنى أن الأمير متعب يريدنى أن أشرب معه القهوة فى منزله .

يصل حجم قصر الأمير متعب ، إلى حجم ثلاثة من منازل ميدان بلجريف ، والقصر يجاور قصر الأمير طلال ، ويتصل به برواق طويل مغطى ، به نوافذ تبعد عن بعضها مسافات منتظمة وكان يمكن أن يشبه الدير لو كان مقنطراً وليس سقفه مستوٍ. ودخلت فى هذا الممر الآن ، يصحبنى الزنجى الأسود ، إلى أن اجتزنا الممر كلّه ووصلنا مدخلاً مسقوفًا ، وجدنا عنده مجموعة من السيوف والأحذية ، التى تدل على وجود أصحابها فى الداخل ، ووجدت الأمير متعب جالساً فى مقهى فاخر ، ومن أمامه نرجيلة فارسية ، كان يسحب منها أبخرة طيبة الرائحة ، كان العديد من أفراد الحاشية ومن الحضر يجلسون قريبًا منه ، وكانت هناك سحابة كثيفة من الدخان ، وليست من الطِّيب فى سائر أنحاء القهوة .

وحَظِىَ دخولى بترحيب حار ، ونهض الأمير متعب ليقدم لى يده المفتوحة على الطريقة العربية ، وشبه الإنجليزية ، فى حين دارت القهوة والرسميات المصاحبة لذلك ، وبدأ مضيفنا دردشة حرة تمامًا وسهلة عن بغداد ، وباشواتها ، وعن القنصل الإنجليزى والقنصل الفرنسى ، وعن خيولهم وسياستهم ، وعما شاهد وعما رأى ، على أمل أن يكتشف إن كان سيصطادنى أم لا ، ولكن نظراً لأنى لم أكن قد زرت بغداد حتى ذلك الحين ، فقد كان من السهل علىّ أن أبدو أبلها ، ويظهر علىّ عدم اهتمامى بمثل هذه الأمور ؛ وهنا غيَّر متعب نغمته وتحول إلى مصر .

وهنا تغير الحال ، فقد كنت أود بحق أن أعرف طبيعة الاتصالات التى يحتمل أن تكون قائمة بين جبل شومر ووادى النيل ، وبالتالى اسمح له بأن يفهم بأننى لست غريبًا على القاهرة أو المناطق المحيطة بها ، وانشرح صدر الأمير عندما اكتشف مدخلًا أفضل فى ذلك الاتجاه ، ودخل فى خطاب غزير وعجيب ، رغم أنه مفكك ، عن سعيد

باشا ورحلته إلى أوربا ، وعن عباس باشا ومؤامراته مع الرؤساء العرب ، كما أوضح أيضًا موقف أخيه الحقيقى من النائب الحاكم .

واستطعت فى هذه المقابلة، وفى المقابلات التى جاءت بعد ذلك ، مع الأمير متعب ، الذى أصبحت حميميته تزيد يومًا بعد يوم ، استطعت أن أحصل على فكرة واضحة عن الأشياء والأمور التى كنت قد سمعتها من قبل ، غير أن هذه الفكرة كانت مشوشة ، وأنا أعنى هنا المؤامرات العربية الغربية التى قام بها عباس باشا ، كان عباس باشا قد ابتكر خطة لا يستقل بمقتضاها فحسب عن الباب العالى العثمانى ، وإنما ليصبح ، هو نفسه ، ملكًا على الجزيرة العربية ، عن طريق التحالف المزدوج ، مع البدو فى الشمال ، والوهابى فى الجنوب. واستهدافًا لضمان تعاطف البدو ، عهد بولده الأكبر ، الذى كان لا يزال طفلاً ، إلى فيصل بن شعلان ، شيخ قبيلة الروالة العظيمة ، مستهدفًا من ذلك ، أن يشب ولده كواحد من أبناء هذه العشيرة ، وأن ينشأ على كل عادات وتقاليد هذه القبيلة . وعلاوة على ذلك الإجراء الفردى ، أرسل هبات سخية إلى القبائل الأخرى المجاورة ؛ فى حين كان جميع البدو الذين يجيئون إلى قصره يلقون استقبالاً طيبًا ، وكان يسمح لهم عن طيب خاطر بأن ينهلوا من كرم عباس باشا وسخائه ، إن صح أن اسميه كرما لأنه كان فى واقع الأمر ، تبذيرًا ، بل إن النائب المفتون وصل إلى حد تقليده للبدوى فى شخصيته وفى سلوكياته ، بل أنه كان يلبس ملابس ، مثل ملابس البدو ، ويستسيغ ، أو يتظاهر بأنه يستسيغ طعامهم ، ويعيش معهم على قدم المساواة فى ألفة خادعة ، متخيلاً طول الوقت أنه كان يكسب حبهم وولاءهم لخدمته .

ويجوز لنا أن نقول هنا ، من باب الاعتذار عن تبذير عباس باشا ، أن الآخرين أصحاب المطامح الأكبر ، كانوا مثله من حيث التميز الفكرى ، إذ كانوا يخطئون من حين لآخر ، فى حساباتهم ، فيما يتعلق بأهمية القبائل البدوية ، والمزايا التى يمكن الحصول عليها من التحالف معهم ، ولكن الشئ الذى يجعلنا لا نلتمس للحاكم المصرى أى عذر ، هو أنه كان على النقيض من عمه إبراهيم باشا ، والنجاح الذى حالفه فى خطة السياسى المخالف تمامًا ، إن إهمال الاستفادة من الدروس العائلية والخبرة الموروثة من الآخرين ، أمر لا يغتفر لأى حاكم من الحكام .

قال لى متعب وهو يصف سلوك عباس باشا ، وقوله الحق : "الرجل الذى يعتمد على مساعدة البدو له ، يشبه ذلك الذى يحتم على نفسه أن يبنى له بيتًا على سطح الماء" ، وقد أيد الأمير متعب هذا التأكيد بأسباب جديرة بأن أسجلها هنا ، نظراً لأن هذه الأسباب وردت على لسان واحد من أولئك الذين مكنتهم خبرتهم الطويلة من تقييم الموضوعات تقييمًا سليمًا ، ويستطرد الأمير ، الذى أُوردُ هنا معنى كلماته ، وليست الكلمات نفسها : "البدو ، لا وزن لهم فى المعارك الحربية الخطيرة ، بسبب افتقارهم إلى الأسلحة ، والتجهيزات ، والنظام العسكرى ، علاوة على ضعفهم الكامل فى المعركة المشتركة ، نظراً لأنهم منقسمون إلى فرق وطوائف شتى بسبب صراعاتهم الصبيانية المستمرة التى لا تسمح لهم بالتوحد حول أى هدف من الأهداف الحقيقية حتى ولو لمدة شهر واحد ، البدو ، علاوة على كل ذلك ، هم مخلوقات اللحظة وحسب ، البدو لا يهمهم سوى اللحظة الحالية ، ولكن الأمس والغد عندهم لا شئ ، والبدو ليس لهم هدف أو مبدأ وطنى أو دينى ، وليست بينهم روابط اجتماعية أو شعور وطنى ، كل واحد منهم منعزل على مصالحة الذاتية والخاصة ، الجميع ضد الجميع ، والكل أيضًا بدون هدف أو معنى ، والبدو لا يهتمون بمن هم خارج عشيرتهم ، أو حتى برجال قبيلتهم ، إلا بقدر ما يصيبون منهم من منافع مباشرة ، أو الضرر الذى يصيبهم منهم ، أصدقاء اليوم ، أعداء فى الغد ، ثم أصدقاء من جديد بعد غد ، والآن ، إذا كان ذلك هو حال البدو مع أبناء جلدتهم ، فلابد أن يكون كذلك مع الغرباء عنهم . وسواء أكان سلطانًا ، أو نائبًا ، أو تركيا ، أو مصريًا ، أو إنجليزيًا ، أو فرنسيًا فالكل عندهم واحد ، فهم لا يتعاطفون مع أى من هؤلاء ، وليسوا على استعداد أن يرتبطوا بواحد أو آخر . ومحاباتهم الحقيقية والوحيدة تكون لمن يدفع أكثر ؛ وعندما ، وأنا استعمل هنا التعبير البدوى "يكون طعامه ما يزال فى بطونهم" ، فمن الممكن أن يؤدون عمله ، ولكن أداء العمل هنا يكون مربوطًا باستفادتهم منه ، وإلا يكون خطيراً عليهم ، وفى مثل هذا الحال قد يقر المرء أن البدو يقدمون الجمال ويحضرون الماء ، أو قد يتشجعون ويهاجمون وينهبون القرى المجاورة لهم ، أو القبائل الأضعف منهم ؛ ولكن هذه الخدمات تكون من منظور الاستئجار أو الغنائم ؛ ولا يكون ذلك مطلقًا من قبيل حبهم أو تقديرهم لمستأجرهِم ، كما لا يكون ذلك مطلقًا، بدافع من الوطنية والشعور الوطنى . والتدليل على ذلك ، سيكونون على تمام الاستعداد للانقلاب على حليفهم وصديقهم السابق ويسرقوه وينهبوه ، فى الساعة التى يتأكدون فيها أنه لم يعد قادراً على تقديم المزايا لهم أو عاجزًا عن مقاومتهم" .

هذا هو الأمير متعب لحد الآن ، ولكني كنت أضحك ، في أحيان كثيرة ، وأنا أتفكر في سوء استعمال الجهود التي بذلها كل من لاسكاريس Lascaris ورفيقه فتح الله ، على امتداد السنوات السبع ، التي أمضياها في إسراف سيدهم الإمبراطور مستهدفًا من ذلك إقامة تحالف بدوى ، على أساس من المبادئ الوطنية والخيرية ، وأنا على ثقة ، أن القارئ سوف يغفر لي ضحكي من ذلك الذي سمعته أكثر من مرة أنه كان موضوعًا لتلك الهبات والعطايا السخية التي وضعت في غير محلها : في الروالة ، وفي السباع ، بل إن بدو الحصينة Hasinah يسخرون من أنفسهم ، ومن ذلك سخرية شديدة، وقد صادفت بعض ذكريات ذلك المشروع الفج داخل حدود الصحراء السورية ، وأبعد من ذلك في الداخل ، ناحية حائل ؛ علاوة على أن الأمير متعب ، حصل من الروالة ، خلال الزيارات التي كانوا يقومون بها إلى جبل شومر بين الحين والآخر ، على حقائق هذا المشروع الرئيسة ومدى تقدمه . وليس معنى ذلك أن وقائع أحداث الحروب والمعارك التي وردت في رواية لامارتين Lamartine ، ضمن نصه عن يوميات فتح الله ، ذلك النص الذي زاد حجم المجلد الثاني عن سوريا ، ليس معنى ذلك ، أن هذه الأحداث لها أصول تاريخية حقيقية ، في حدود ما استطعت اكتشافه على أقل تقدير ، بل إن أحداً لم يدّع أنه يتذكر أي شئ ، مهما صغر ، عن معارك الأيام السبعة التي دارت على ضفاف نهر أورونتس Orontes ، أو الحملات التي سُيِّرت إلى قلب كل من فارس وبلوخستان Beloochistan ، الشئ نفسه ، يمكن أن نقوله عن السفارة المدعاة لدى الملك الوهابي في الدرعية ، ومختلف الأحداث الأخرى ، التي ربطها خيال الكاتب الخصب بقصته ، ولكن الكل يذكر تمامًا ويعي جيداً الهدايا التي كانت تقدم وتقبل ، الكل يذكر جيداً الهبات والعطايا الضخمة ، الكل يذكر جيداً القبائل التي اغتنت بفعل الذهب الأوربي ، وخلاصة القول ، إن المسألة برمتها كانت "صيدا" ثمينًا غير متوقع للبدو ، وهكذا كان عباس باشا ومؤامراته بالنسبة لهم .

كان سخاء عباس باشا – الذي نستأنف حديثنا عنه هنا – يذهب، بطبيعة الحال ، إلى الجيوب أو يُؤكل ، ثم توقع المواثيق وتختم ، وتعطى عهود بوعود لم تتحقق قط ، ثم يختفي كل شئ مثل تموجات الماء، وعقب وصول أخبار وفاة عباس باشا ، إلى سوريا ، قام فيصل بن الشعلان بالتخلص من ولد عباس باشا بأن دس له جرعة من السم ، إن صحت التقارير والروايات ، وبذلك ينتهي التحالف المصري البدوي ، دون أن يفيد منه أولئك الذين صنعوه ، شأنهم في ذلك شأن لاسكاريس Lascaris الذي حاول الشئ

نفسه من قبل ، ولم ينجح عباس باشا إلا فى شئ واحد فقط ، أعنى ، نجاحه فى إقناع العرب كلهم بحماقته ؛ وهذه نتيجة مختصرة ، يمكن أن يصل إليها أى إنسان آخر يريد أن يسير فى الطريق نفسه الذى سار فيه عباس باشا ، النائب المصرى .

ولم يكن عباس باشا أكثر حظًا فى تحالفه الوهابى ، برغم أن خطأه هنا يمكن أن نلتمس له الكثير من الأعذار ؛ الواقع ، أن هذا التحالف كان يحتاج من عباس باشا أن يتعرف الظروف السياسية ، فى وسط الجزيرة العربية ، تعرفا كاملاً وألا يتوقع لمثل هذا الإجراء نهاية مفيدة ، كان الوهابيون يمثلون حكومة وسلطة مركزية منظمتين ، تعمل وتسترشد فى عملها بمبادئ دينية ووطنية محددة ، ونقاط أخرى كثيرة ترتكز عليها الرافعة المصرية ؛ زد على ذلك ، أنه سيكون من الظلم الجائر لأهل نجد الثابتين المتشددين مساواتهم بالبدو المتقلبين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم من الناحية الأخلاقية ومن الناحية العسكرية ، وهنا نجد أن عباس باشا قد أساء فهم رجاله مرة أخرى ، كان الوهابيون متمسكين تمامًا بمبادئهم العجيبة التى تنظر إلى المصرى (عباس باشا) من منظور أنه مشرك وكافر ، واحد من أولئك الذين تعد صداقتهم عداء لله ، واحد من أولئك الذين لا تحظى مظاهر استقامتهم الدينية بالثقة بين النجديين ، شأنه فى ذلك شأن إسلام كليبر أو نابليون بونابرت (وأنا لا استشهد هنا بغية التشهير والإساءة للغير وإنما من باب التوضيح)، الذى يشيع بين المصريين أنفسهم ، ولم يُصَدِّق أحد عباس باشا ولم يثق به أحد ؛ وهنا كشف المؤمنون الحقيقيون فى الرياض عن إصرارهم على التراجع عن الوعود المصرية البراقة ، أكثر من تراجع إريميا النبى عن الوعود التى حاول الحصول عليها دون جدوى ، من سكان القدس ، ولأسباب تتشابه ، إلى حد ما ، مع هذه الأسباب ، زد على ذلك ، أن الوهابيين كانوا قد بدءوا يتعافون من الضربات التى كالها لهم كل من محمد على وإبراهيم باشا ، ولم يكونوا ميالين تماماً للاتحاد مع حفيد الأول وابن أخو الثانى ، وفى كل الأحوال ، نجد أن رغبة الوهابيين فى الأرباح المنتظرة هى التى جعلتهم لا يرفضون التحالف المعروض عليهم رفضا باتًا ، أو يوقفوا سيل المبعوثين ، الذين كان كل واحد منهم يجيئ محملاً بهدايا مصر الثمينة ؛ واستمر الوهابيون فى إنعاش آمال اللين والتعاون ، مثل من يستعمل الصنارة لاصطياد أسماك النيل السخيفة ، إلى أن ملأت هدايا عباس باشا صناديق فيصل بن سعود ، على حين كانت بنات الملك النجدى (مثلما شاهدت بعينى

رأسي عندما حللت عليه ضيفا في الرياض ، بعد ذلك بعدة أشهر) ، تتألقن في مجوهرات ومشغولات ذهبية من صنع القاهرة ، وعليه ، فقد كان الملك الوهابي ، شأنه شأن البدو أيضًا ، مع اختلاف في الدوافع ، يضع الهدايا في جيبه ويسخر هو الآخر من مهديها .

كان كل ذلك ينطوي على خطأ واحد مميت وقاتل ، الواقع ، أن عباس باشا لم يستطع تعرف رد الفعل الضخم ، في كل أنحاء شبة الجزيرة العربية ، على استبداد الأسرة المالكة الوهابية ، إضافة إلى مغالاته في تقدير قوة ونفوذ هذه الأسرة بأكثر من حقيقتها، في حين أهمل عباس باشا ، مصدر الحيوية العربية الحقيقي ، وأخطأ الوتر ، الذي لو لمسه بمهارة ، فلربما استجاب له شبه الجزيرة العربية كلها واصالحه ، من شواطئ البحر الأحمر إلى المحيط الهندي ، والأمر يحتاج من هنا إلى شئ من التوضيح . إذا ما أضفنا الوهابيين ، أي ، أولئك الذين يعتنقون الوهابية ، إلى البدو ، فإن عددهم لن يزيد على ربع سكان الجزيرة العربية ، أما الثلاثة أرباع المتبقية فهي مكونة من الحضر والفلاحين الذين ينتشرون في كل أنحاء البلاد ، ومؤيدون متحمسون لرؤسائهم وحكامهم المحليين ، والمحبين الحقيقيين للحرية العربية ، أي الوطنيين ، على سبيل الاختصار ، ولكنهم يكرهون كلا من البدو الغزاة النهابين والقهر الوهابي ، وهؤلاء الحضر والفلاحين يتعلقون بأمجاد قومية وذكريات وطنية ذات جذور تاريخية ابعد من المفاخر الحالية لابن سعود ، بل إن هذه الأمجاد تضارع أو تتفوق من حيث العراقة ، على أمجاد قريش ذاتها ، زد على ذلك ، أن حب هؤلاء الحضر والفلاحين للنظام وللتجارة يجعلهم أيضًا يعادون فوضى البدو المترحلين ، وأخيراً ، فإن هؤلاء الحضر والفلاحين ، يتفوقون على خصومهم مجتمعين من حيث العدد ، ومن حيث الأهمية الوطنية ، كما أن مصير الجزيرة العربية ، معلق عليهم ، إن قدر له أن يكون معلقًا على أحد .

أدرك محمد (ﷺ)، هذا العقل البارع ، كل ذلك في عصره ، ولذلك استطاع ، عن طريق استخدام هذا الجزء من الأمة العربية واستخدام هذه المشاعر لنصره قضيته، أن يهيمن على شبه الجزيرة بكاملة ، والقرآن هو والتراث المعاصر لا يعطيان أي حل آخر غير خطِّه (ﷺ) السلوكي القدير ، والنجاح المذهل الذي برر ذلك السلوك وأيده ، ولو توقف (ﷺ) عند هذا الحد ، لكان أول وأعظم محسن في وطنه .

ولكن النبى شوه ما بدأه السياسى ، كما أن الجبرية[1] المحذرة فى منظومته الدينية ، مخدر العقل البشرى ، أوقفت وإلى الأبد التقدم الذى كان هو نفسه (ﷺ) قد قطع نصف الطريق إليه بأن مزج الجزيرة العربية بسرعة محولًا إياها إلى أمة واحدة ذات هدف واحد ، كما أن ضيق أفق تفكير شريعته (قانونه) اليهودى ومصادماتها الشعائرية سرعان ما حرض عقل مواطنيه التوسعي الذى نفذ صبره على الدخول فى تلك الثورة شبه الكونية التى رافقت بدلًا من أعقبت ، أنباء وفاته (ﷺ) ، و جرى قمع هذه الثورة فترة من الزمن ، ولكنها سرعان ما عاودت الاندلاع من جديد ، ولم تتوقف إلا بعد أن تفككت، فى النهاية وإلى الأبد، الامبراطورية العربية فى الجزيرة العربية[2] .

ونحن هنا نقول : إذا كانت الجزيرة العربية قد ضاقت بتزمت الإسلام العادى ، فإن الوهابية ستكون بالضرورة ، أكثر تزمتًا ، كما أن الناس الذين نفضوا عنهم نير محمد (ﷺ) نفسه ، لم يكن محتملًا أن يشتاقوا لوضع أعناقهم تحت نير بن سعود ، وابن عبد الوهاب ، من هنا ، يكون عباس باشا قد أخطأ فى اختيار نقطة البداية ، يضاف إلى ذلك أن تحيز عباس باشا للرياض وحكامها ساعد على انصراف الأمة عنه على نطاق كبير .

وفى حائل ، ابتعد عبد الله بن الرشيد وأسرته عن دائرة مناورات النائب المصرى (عباس باشا) وراحوا يتحينون فرصًا أحسن ، وقد تهيأت تلك الفرص عندما أدى مقتل عباس باشا إلى وضع سعيد باشا على عرش مصر ، ومن المعروف أنَّ ميل الأمير سعيد إلى إبرام تحالفات مع أوربا كان ظرفًا مواتيًا ، من منظور طلال بن الرشيد ،

(١) الجبرية : هم القائلون بالجبر وإن الإنسان مسيّر وليس مخيراً فى شئ فهو عندهم أشبه بالريشة المعلقة فى الهواء تميل مع الرياح حيث تدفعها ولا حرية لها فى شئ ، وهو مذهب من بين المذاهب الكثيرة فى علم الكلام ، وهذا الاتجاه فى الفكر الإسلامى مخالف لاتجاه أهل السنة والجماعة ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) هذا المقطع من كلام المؤلف عن النبى محمد (ﷺ) ملئ بالأخطاء التاريخية والشرعية فالرسول كان نبيًا ولم يكن قائداً أو ملكًا سياسيًا من ملوك الدنيا وإدعاء المؤلف أن الجبرية خدّرت العقل البشرى وأوقفت المد الحضارى إلى الأبد هو مغالطة كبيرة لأن الإسلام الصحيح الذى بينه النبى (ﷺ) لم يحجر على العقل وأن الرسول دعا إلى الأخذ فى الأسباب وأن مسألة الجبر والاختيار لم تكن فى عهده (ﷺ) وإنما كانت فى تراث المسلمين الفلسفى بعد عصر النبوة كما أن ادعاءه بأن الجزيرة العربية تفككت بعد وفاة الرسول (ﷺ) ولم تقم لها قائمة هذه مغالطة كبيرة لأن أحداث الردة قمعت وعادت الجزيرة إلى التوحد فى عهد الخلفاء الراشدين وانطلقت جيوش الإسلام لتفتح البلدان وتنشر الإسلام فى ربوع الدنيا وكانت القيادة الإسلامية فى منتهى التوحد وجمع شمل كل العرب المسلمين فى الجزيرة العربية ، (د. حلمى عبد المنعم) .

الذى كان يعلم أنه يستطيع أن يحصل من أوربا ، على مغانم كثيرة لكل من الصناعة والتجارة في بلاده ، في حين أنه كان مطمئنا إلى عدم قيام أوربا بمحاربته أو العدوان عليه ، ولما كانت منطقة حائل ، تحيط بها من جميع الجوانب صحراء واسعة خالية من الدروب ، ولما كانت حائل ليس لها موانئ أو خط ساحلى للدفاع عنها فى مواجهة "كلاب البحر" ، مثل الأوربيين ، والإنجليز بصفة خاصة ، الذين ينعتون بهذه الصفة البذيئة فى الشرق ، ولما كانت حائل تقع وسط متاهة من الجبال والصخور شديدة التحدر ، فإنها تصبح بذلك آخر مكان فى العالم ، يخشى غزوا فرنسيًا أو احتلالًا إنجليزيًا ، في حين يستطيع أهل حائل من ناحية أخرى ، أن يحققوا أرباحًا طائلة عن طريق تبادل السلع المادية والذهنية مع دول تقع على قيد باع منهم ، وقد توقفت المفاوضات بشأن هذه الفكرة ، فترة من الوقت ، خلال حكم عباس باشا المشئوم ، ولكنها تجددت واستؤنفت من جديد بعد وفاته ، ولكن طيش الأمير سعيد ظهر جليًا بعد فترة قصيرة من تولية الحكم ، وبينما كان طلال بن الرشيد ، يواصل الحفاظ على استمرار تبادل سلسلة من الرسائل الودية والتهانى بينة وبين الأمير سعيد ، أوقف فجأة ، الآمال التى كان يعلقها على مساعدة وعون فعال من أوربا فى مواجهة تعدى الوهابيين على أراضيه أو مناصبة تركيا له العداء ، وبذلك ، تظل مصر ، فى نطاق الأوضاع المعتادة ، أفضل صديق وحليف لـ طلال بن الرشيد فى حالة الضرورة القصوى ، وهذه الحقيقة نوهنا إليها من قبل .

ذكرت أيضًا ، ولكن بصورة عامة ، أن طلال بن الرشيد ، كان يحرص على مداومة الاتصالات بينة وبين بلاد فارس ، وأظن أنه قد آن أوان تفسير الأسباب الخاصة التى دفعته إلى ذلك ، وأن نفسر أيضًا ذلك الذى كان الأمير يتطلع إلى الحصول عليه من إقطاع طهران التى أصيبت بالعجز جراء شيخوختها ، وحل هذه المشكلة يكمن فى الظروف الجغرافية للأرض ، وأنا هنا استميح القارئ أن يلقى نظرة على الخريطة ، سوف يكتشف القارئ أن جبل شومر يعبر ، بالضبط ، الخط الذى يمتد من المناطق الوسطى والمناطق العليا إلى الحجاز ، وبذلك يصبح جبل شومر على الطريق الذى يسلكه حجاج بلاد فارس ، فى حجهم كل عام ، أو زيارة مقابر المدينة ، حيث يوجد قبر الرسول ومقابر الصحابة ، أو المزارات الشيعية ، هناك مجموعات أخرى ، من المسافرين ، تفيد منها المدن والبلدان التى يمرون بها ، عن طريق مصروفات الطريق ، كما تفيد منهم أيضًا هذه المدن والبلدان ، بالقدوة الحسنة فى

العبادة والطاعة ، كان هدف طلال بن الرشيد الأول ، سحب هذا الجزء سنويًا ، من ثروة الحجاج داخل حدود ممتلكاته ، على أن يمر من خلال بوابات حائل ، وشجع الأمير طلال هذا العمل لأنه لن يضمن له فحسب مزايا العبور دائم الحدوث الذى أشرنا إليه بالفعل ، وإنما سيساعد أيضًا على تشجيع متشيعى كل من مشهد على وبغداد ، بل الإقليم كله ، على الاتجار مع جبل شومر ، بل التجارة التى أوجدها طلال بن الرشيد ، والتى تفيد مملكته كلها فائدة كبيرة ، وتفيد العاصمة بصفة خاصة ، وقد تضافرت ظروف كثيرة لتساند هذا المشروع ، وأول هذه الظروف هو أن الطريق من طهران وبغداد عن طريق جبل شومر ، والذى يعبر عنق قارة الجزيرة العربية الضيق ، ويؤدى بعد ذلك مباشرة إلى المدن المقدسة التى يقصدها الحجاج ، زادت صلاحيته كما زاد أمنه أيضًا ، إضافة إلى أنه كان أقل كلفة من الطرق الدائرية التى كانت القوافل الفارسية تسلكها، فى أغلب الأحيان ، عبر سوريا ، أو تتجه جنوبيًا إلى الخليج العربى ، بطول سواحل عمان ، وحضرموت واليمن لتصل إلى جدة فى النهاية ، يتبقى بعد ذلك ، الطريق عبر وسط الجزيرة العربية مرورًا بنجد ، وهو طريق أقصر نسبيًا وسهـل ، ولكن تسامح الوهابيين المتعصب أغلق هذا الطريق ، فى وجه شيعة (أنصار) على ، نظرًا لأن الوهابيين كانوا يظنون أن أراضيهم ستصاب بالدنس ، إذا ما وطأتها أقدام أولئك الملحدين التعساء ، إلى أى مدى ، يمكن لـ "مراعاة ظروف الآخرين وتقدير مشاعرهم" ، كما يقول ترابويز Trapbois، أن تسود وتخفف من هذه الكراهية ، وهذا هو ما سنقف عليه فيما بعد ، ولكن السُّنة والشيعة ؛ فى ظل حكم طلال ، كانوا عنده سواء ، ولم يكن من طبعه فرض رسوم إضافية ، أو تقديم متطلبات إضافية ، على أى حج من الحجاج ، بسبب آرائه الدينية مهما اختلفت ألوانها .

وبناء على ذلك ، استغل طلال بن الرشيد كل حنكته ومهارته فى التفاوض على رسوم العبور السنوية التى تُفْرَضُ على القوافل العاملة بين بلاد فارس ومكة ، عن طريق حائل ، وجعل هذا الطريق ، أحسن الطرق التى ذكرناها كلها ، بل إن طلال بن الرشيد ، كانت له اتصالات مستمرة بشأن هذا الموضوع ، مع كل من بغداد ومشهد على ، وفى مشهد على ، اكتشف بن الرشيد ، أن السلطات الفارسية كانت تميل إلى الأخذ بآرائه وتنفيذ أفكاره، بل إن الشاه نفسه ، عندما أحيط علمًا بذلك المشروع ، أخطر طلال بموافقته الكاملة على المشروع . ومع ذلك ، لم ينفذ هذا المشروع بحذافيره تنفيذًا كاملًا ، لأسباب لا يمكن أن نقدم على شرحها إلا بعد أن نصل نجد نفسها .

وبرغم كل شئ ، وبغض النظر عن معارضة المشروع كانت تظهر في حائل ، في موسم الحج طائفة كبيرة العدد من أصحاب العمائم المخروطية والثياب المفرّاه ؛ ولقد شهدت بنفسي ، قافلة من هذه القوافل ، التي أعرب كل أفرادها بلغة عربية غير سليمة ، عن امتنانهم للمعاملة الطيبة التي لقوها من طلال ومتعب ، كما عبروا أيضًا عن سعادتهم البالغة بحكومة جبل شومر .

هذه نوعية الموضوعات التي كان يدور الحديث حولها بين الأمير متعب وأصدقاءه، في مقهاه ، ولقد أفضت في تسجيل هذه الموضوعات والمحادثات ، مستهدفًا بذلك شيئًا من التبصر في الجزيرة العربية الواقعية والحية ، ذلك التبصر الذي خلت منه كثير من الرحلات ، التي لم يركز الكثير منها إلا على سطح الجزيرة العربية الجغرافي ، مسالة تحديد مواقع الجبال ، ومجاري الأنهار ، والتدرج المفاجئ ، وطبيعة الصخور الجيولوجية ، وكل ما يتعلق بالطبيعة الحيوية والطبيعية المادية ، كل هذه المسائل لها أهمية كبيرة وخطيرة ، وأنا ، بدوري هنا ، حاولت أن أبذل قصارى جهدي ، برغم النتائج غير الكاملة ، بسبب افتقارها إلى التحضير والإعداد من ناحية وعدم تهيئة الفرصة اللازمة للملاحظة العلمية من الناحية الأخرى ، ويؤسفني أنني أعي كل ذلك وأدركه . ولكني أجد كل ذلك الموقف موجزًا في تلك العبارة المبتذلة التي تقول : "الدراسة الحقيقية للجنس البشري هي الإنسان" ؛ وأنا أعتقد أنني ربما أديت خدمة جليلة للعلم في أوربا عندما حاولت كشف القناع الكثيف بعض الشئ عن الجزيرة العربية بشريًا ، طوائفها ، وسياستها أو عقلها وحركتها ، وهنا أجدني أعود من جديد إلى سياق قصتي .

مر علينا في حائل حوالي عشرون يومًا ، بدأنا بعدها نفكر تفكيرًا جادًا في الطريقة التي يمكن أن نخبر بها الأمير طلال ، عن الهدف الحقيقي من رحلتنا ، وعند هذه المرحلة كنا قد تاكدنا تمامًا من مركزه ، وآرائه ونظامه ، ومشروعاته ، كما عرفنا أيضًا صلاته الحقيقية بكل من الوهابيين والأتراك ، وإلى أي مدى يعد حليفا لهم ، وإلى أي مدى يمكن اعتباره عدوًا لهم . كما أصبحنا على علم تمامًا بالإحساس العام ، وميول حكومته وشعبه ، بينما بدا وصول المبعوثين يوميًا من كل من القصيم وعنيزه يوضح لنا الطبيعة الحقيقية للسياسة والدين في جبل شومر ، كان هؤلاء المبعوثون ينتظرون بالساعات معنا في فنائنا ، ويناقشون معنا وأمامنا وسائل وأهداف طلال بن

الرشيد ، ودرجات التحالف التى تربطه برؤساء القصيم ، من ناحية ، ويعدوُّهم ملك نجد من الناحية الأخرى ، وأنا هنا أرى أن المعلومات التى حصلت عليها عن طريق هؤلاء المبعوثين ، موثوق بها إلى حد ما اكثر من تلك التى حصلت عليها من رعايا طلال وتابعيه .

ولم يعد من اللائق إن نحجب قصدنا الحقيقي عن شخص رحّب بنا ترحيباً حاراً، وعاملنا معاملة طيبة ، ونحن لحد الآن ، كنا نقابل صراحته وانفتاحه بالتحفظ ، كما قابلنا قربة منا بما يشبه البرود ، واستئمان الأمير طلال على سر كان هو نفسه يود كشفه ، ولم نعد نستشعر أى خطر من إفشائه لهذا السر ، ربما ينظر إليه الأمير على إنه مجرد شكل من أشكال العدالة والإنصاف منا تجاه مضيفنا الملكى .

زد على ذلك ، انه برغم أن مشاعر الأمير طلال، تجاهنا ، كانت طيبة بشكل عام ، إلا أنه كان ينظر إلينا بشئ من الشك، مهما قل ، وأصبح من المستحيل علينا تماماً ، مواصلة رحلتنا داخل الأراضى الوهابية إلا بموافقة من الأمير طلال ؛ وأن يكون ذلك من منطلق نيته الحسنة تجاهنا ، ولابد لكل من يريـد القيـام برحلة فى هذا الاتجاه ، أو حتى لمجرد عبور الحدود أن يحصل على جواز سفر موقع عليه من الملك ؛ إذ بدون الحصول على هذه الوثيقة سوف يستحيل على أى أحد أن يخاطر بإرشادنا ؛ زد على ذلك ، أن سيرنا فى الطريق وحيدين وبلا مرشد لنا يدخل فى عداد مخاطرات المجانين؛ ولكن احتمالية أن يزودنا الأمير طلال بجواز السفر اللازم ، وهو لا يزال متشككاً بعض الشئ فينا وفى نوايانا ، كانت فى حكم الخيال ؛ أما إذا أخبرناه بالهدف الرئيسى من تجوالنا ، والطريق الذى نود أن نسلكه ، فإن ذلك سيكون أقصر الطرق وأقربها إلى الحصول على موافقته ، التى قد يؤدى شك الأمير طلال فينا وانعدام ثقته بنا إلى حجبها عنا بكل تأكيد .

كان ذلك هو موقفنا ، وأية خطة قد نتخذها ، ستكون محفوفة بالمصاعب الشديدة المحيطة به ، ولكننا بعد نقاش طويل تقرر من خلال مجلسنا المُصَغَّر ، المكون منى ومن رفيقى ، أن نطلب مقابلة خاصة مع الأمير طلال ، نطلعه فيها وخلالها على كل شئ . وعلى كل حال ، واستهدافًا منا للتحرك وفقًا للمراسم الملكية ، كان لا بد لنا فى البداية من تأمين وسيط يُحِبُّنا ، سرعان ما عثرنا عليه متمثلًا فى شخص زامل وزير الخزانة .

وقد ثبت أن هذا الرجل، صاحب المنزلة العالية لدى الأمير طلال ، يحظى برضاه ، كما ثبت أيضاً أنه ذكي ويقف منا موقفاً ودياً وطيباً ، إضافة إلى ، أن الخدمات الطبية والدعوات الودية أكسبتني حق الاتصال المباشر به وبأسرته؛ بينما قام هو ، من جانبه ، برغم مشاغله الكثيرة التى لا تسمح له بأى قدر من وقت الفراغ، بزيارتنا ، فى منزلنا ، عدة مرات ، برغم أن زياراته كانت من النوع السريع ، ولما كان زامل يشارك الأمير طلال مشاركة تامة فى آرائه ، ويسهم بقدر كبير فى معظم قرارات الأمير الإدارية ، فمن الطبيعي أن تكون شخصيته أذكى وأكثر انفتاحاً من شخصية سيده ، ويسهل الاتصال به والدخول عليه ، ويضرب بنفسه مثالاً فريداً على رجل نهض من أدنى صفوف المجتمع ليصل إلى أعلى درجات الثراء والنفوذ (أقصد فى حائل) ، دون أن يلجأ إلى سلوكيات الغطرسة الخسيسة التى تشيع بين محدثى النعمة . أخيراً ، زامل يتمتع بعقل صافٍ رحب ، حصافة عربية ، ذوق واعتدال كبيرين ، فضلاً عن حسن طبعه . والخطأ الوحيد الذى تنسبه إليه الشائعات الشعبية، والذى تؤكده ، إلى حد ما ، أناقة ملبسة باهظة الثمن ، وكل ما يتعلق بأناقة شخصيته ، هو التباهى والأبهة ، وحبه للمتعة الذى يتجاوز حدود أخلاقيات الشخصية العربية المعتادة ؛ وأنا أضيف هنا ، أن سيده طلال لم يكن مبرئاً من ذلك الخطأ ، ومع ذلك ، لم تقف نقطة الضعف هذه ، فى طريق المهمة التى كنا نريده أن يقوم بها ؛ فقد كنا نثق بقدراته الطيبة ومركزه المؤثر ، فضلاً عن إننا لم يكن لدينا ما يجعلنا نفقد هذه الثقة أو نندم عليها .

وبناء على ما تقدم ، انتهزنا إحدى الفرص المواتية ، وأخبرنا زامل أننا نريد مقابلة سرية مع الأمير طلال بشأن أمور مهمة ، والتمسنا منه أن يهئ لنا هذه المقابلة ، وتلى ذلك ، أن وصلنا مع زامل ، إلى أبعد من ذلك ، وشرحنا لسفيرنا المسألة كلها ، وأخبرناه بكل ما نريد وضعه أمام جلالة الملك .

وكان من الطبيعي أن يأخذ زامل الوقت الكافى لتحرى الأمور ، وبعد أن طلب موافقتنا وأعطيناه إياها ، أبلغ الأمير طلال بأسباب طلب المقابلة . وحضر زامل إلى منزلنا على امتداد يومين ، ومعه تحذير لنا ، باختيار الساعات التى تقل فيها المراقبة إلى أدنى حد ممكن ، وناقش معنا بدقة نقاط المقابلة المقترحة كلها ، ثم أبلغنا فى النهاية أن فى صباح يوم كذا الموافق كذا (كان اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس من العام ١٨٦٢ الميلادى) سيكون موعد المقابلة .

وينبغي أن أقرر هنا في البلاط العربي والبلاط الأوربي ، على حد سواء، تعد المقابلات الملكية الخاصة نوعًا من التكريم ، كما أن طلب هذه المقابلات ليس أمرًا سهلاً فضلًا عن أن الموافقة عليها لا تكون هينة أيضًا ، وللإتيكيت (فن التعامل) دخل في هذا الموضوع ، وللسياسة دخل اكبر : ويرجع ذلك أيضًا للخوف من الخيانة ، وهناك أكثر من مثال على ذلك ، سُجِّل في المضابط التاريخية لهذه البلاد عن متوسلين طلبوا مقابلات خاصة ، أجيبوا إليها ، ثم ثبت إنهم من القتلة والسفاحين ، وفيما يتعلق بالاجتماعات الشعبية والرسمية التي يكون "جلالته ساطعًا فيها مثل الشمس" محفوفًا بكل عظمته ، ومؤمَّنًا أيضًا من خناجر أعدائه ، ومن الرفقة السوقية الرخيصة ، فإن طلال متحرر منها تمامًا ، بل إنه أكثر تحررًا ، في هذا المجال ، من ملك نجد وملك عُمَان .

وفي اليوم المحدد ، وقبل شروق الشمس بقليل ، قصدنا أنا ورفيقي منزل زامل ، عن طريق الحوارى الجانبية الملتوية والممرات الفرعية ، حيث جلسنا في القهوة الخالية ، نظرًا لأن أحدًا لم يستيقظ بعد ، علاوة على أن الوقت كان لا يزال مبكرًا على نحو لا يسمح باستقبال الضيوف ، كان زامل قد ذهب فعلًا إلى الأمير طلال ، ليرتب معه ، بلا أدنى شك ، طريقة استقبالنا ، وبعد فترة قصيرة ، دخل علينا القهوة عبد من العاملين في القصر ، وأعطانا إشارة بأن نتبعه ، ودخلنا القصر الملكي من باب خاص ، يغلق دومًا ، وبعد أن تجاوزنا العديد من المساكن الصغيرة ، نزلنا سلمًا أنشئ داخل البرج البيضوي الرئيسي ، وعند منتصف ارتفاع هذا البرج ، كان الجزء الأكبر منه عبارة عن غرفة كبيرة مؤثثة تأثيثًا جيدًا ، وكان الأمير طلال ، وبجانبه زامل وحده يجلسان في هذه الغرفة . كان العبيد والحرس المسلح ينتظرون في غرفة مجاورة ، ولكنهم كانوا على مسافة لا تسمح لهم باستراق السمع على حديثنا ، وبعد إفشاء السلام بالطريقة البسيطة المعتادة قال الملك : "ما الذي تريدون التحدث عنه ؟" وعندما ، لاحظ الملك ترددي في الإجابة لحظة ، أردف قائلًا وهو ينظر إلى زامل : "لا عليكم من حضوره ، اعتبراه مثلي" .

وبعد هذا التشجيع ، بدأت الحديث ، وقدمت فكرة موجزه ولكن واضحة عن ظروف رحلتنا والهدف منها ، من أين وإلى أين ؟ وماذا نريد ؟ وماذا نتوقع ؟ واستمر الحديث حوالي ساعة ؛ وكان الحديث عبارة عن استفهام من جانب الأمير طلال ،

وإجابات وتوضيحات من جانبنا ، كانت استفهامات الملك تصيب المحز دومًا ، كما كانت ملاحظاته دقيقة ولكن قارسه بشكل محدد ، وتصل إلى أعماق الأمور ، ووافق الملك على كثير مما قلته قبل أن ينتهى الحديث ، وفى الأمور الأخرى نوه عن بعض الصعوبات أو اقترح بعض التعديلات ، وحرص الأمير طلال على ألا يقطع على نفسه التزامًا محدداً ، وحرصنا نحن من جانبنا ، بنفس القدر من التردد ، على عدم إبداء أى شئ يدفع جلالته إلى التحرك إلى أبعد أو أسرع مما يراه جلالته ، ولكن جلالته أصر على الحفاظ على السِّرية الكاملة ، قائلاً : "لو قدر لهذا الذى يدور الآن بينى وبينكم ، أن يُعْرف على نطاق واسع ، فإنه ربما يساوى حياتكما ، وربما حياتى أنا أيضاً" .

وخلال هذه المقابلة انتهزت الفرصة ، ونوهت عن بعض التقارير الغامضة والخطيرة التى انتشرت بشأننا بين بعض طبقات الشعب ، وتعجب الأمير طلال ، وصوته يحمل نبرات الاحتقار : "هل هذا هو حديث المدينة ؟ " ؛ ثم أردف ، وهو يضع يده على صدره ، بحركة ونغمة ربما حسدنا عليها لويس الرابع عشر وهو فى مجلسه ، وقال : "أنا المدينة !" وأضاف : "لا تخافا ؛ ولن تسمعا بعد ذلك ، شيئًا من هذا القبيل ، من أى من رعاياى ، ولكن ، " ثم يواصل كلامه "هناك آخرون أيضًا لا يمكن أن أرد نيابة عنهم ."

أخيراً ، وبعد مناقشة الأمور مناقشة مستفيضة ، أعرب عن رغبته فى أن نمحص هذه الأمور مع زامل ، ووعد بالاجتماع إلينا مرة ثانية ، يعطينا فيها رداً محدداً ؛ ثم قال : "رغم أن ذلك لن يكون فى عجالة" ، ثم استدعى جلالته خادمًا كان يقف منتظراً خلف الباب ، وسيفه فى يده ، وأطل العبد برأسه فى الغرفة ، ثم غاب لحظة ، عاد بعدها بالقهوة جاهزة . وبعد أن شربنا القهوة ، أحضر خادمان آخران طبقًا كبيراً مستديراً ، محملاً بخوخ ممتاز ، أكل منه طلال ، إشارة منه إلى ثقته بنا وإعرابًا عن حسن نيته . وبعد أن انتهينا من كل شئ ، وقف زامل ، وعلى وجهه تعبير يدل على الرضا (لأنه كان طول الوقت مشاركًا متحمسًا لنا فى آرائنا) ، واصطحبنا ونحن ننزل الدرج إلى أن خرجنا من القصر ووصلنا معه إلى منزله ، ومرت عدة أيام ، التقينا به خلالها عدة مرات ؛ ولكن طلال واصل تأخير إنذاره ، ولم نكن نحن ، من جانبنا ميالين للحصول على ذلك الإنذار فى غير أوانه .

في غضون ذلك، كان "الآخرون" الذين ألح إليهم صديقنا الملك، يمارسون عملهم ؛ والواقع ، أننا كنا على علم بوجودهم منذ فترة طويلة ، ففي أحيان كثيرة ، كان يجيئ إلينا نجدي يرتدي ثياب المطوع المصنوعة من القطن وتصرفاته المرائية التي تدّعي التقوى والصلاح ، ووجهه الكريه ليطل برأسه في حوشنا (فنائنا) . كان هؤلاء الناس جواسيس في خدمة حكومة الرياض ، أوفدتهم على عجل ليتبينوا ذلك الذي كان يجري في حائل ؛ كنا نلتقي بهم دومًا في الشوارع ، وفي السوق ، وهم يراقبون كل شيئ ، ويتجنبهم الجميع ، ومع ذلك يعاملهم الجميع بشيئ من الاحترام الحذر ، ولا يمكن للغرباء أو المسيحيين أمثالنا ، أن يهربوا من ملاحظة هؤلاء المطوعين لهم ، والواقع أننا أصابنا قدر كبير من هذه المراقبة ، إضافة إلى أن الكراهية الفطرية التي لا تعبر عنها كلماتهم لم تكن غائبة عنا ، "القلوب عند بعضها" ، مثل عربي شائع ومعبر ، والعدو سرعان ما يمكن اكتشافه ، مهما كانت اللغة التي يتخفى بها والخصال التي يكون عليها ، زد على ذلك ، أن العرب ليسوا بارعين تمامًا في إخفاء مشاعرهم ، وهنا ينبغي أن أقول العكس تمامًا ، وانفعالاتهم تكون في معظمها طائشة ومتهورة إلى حد أنها تخذلهم في رواية المغامرات وفي التعبير ؛ ومن المؤكد ، أننا إذا ما نظرنا إلى العرب ككل أو بشكل عام نجد أن الأتراك والهنود يتفوقون عليهم في علم الخداع والتظاهر ؛ بل تتفوق عليهم أيضًا ، في ذلك العلم ، بعض أفرع الأسرة الأوربية الكبيرة ، وعلى كل حال ، فإن النجديين ، الذين هم أشد العرب هدوءًا ، هم الأعمق من بين سكان بلادهم .

ومع ذلك كان هناك درس مهم آخر يجب أن نتعلمه ، كان عبيد الذئب ، طبقًا لكنيته الشعبية التي ذاع صيته بها ، والذي سبق أن تحدثت عنه بأنه شقيق الأمير المتوفى عبد الله بن الرشيد ، وعم الأمير الحالي طلال بن الرشيد ، والذي تَغَيَّبَ عن حائل طوال الأسابيع الثلاثة الأولى تقريبًا، من مقامنا فيها ، عاد عبيد إلى حائل الآن ، وجعل الأجنبيين اللذين وصلا إلى عاصمة ابن أخيه ، شغله الشاغل .

ومسألة حتمية وجود فئة وهابية ضمن حكومة تأسست أول ما تأسست بفعل النفوذ الوهابي ، ومراقبة هذه الحكومة مراقبة لصيقة من قبل الجسد الوهابي ، وكون هذه الحكومة نفسها تابعًا من توابع نجد ؛ ومسألة أن تضم هذه الفئة الوهابية بين صفوفها رجال من كرام المحتد وأصحاب النفوذ ، من الأسرة المالكة ومن القريبين من

العرش ، هذه المسائل لا يمكن أن تكون مثار عجب أو دهشة ؛ وإنما العجب والدهشة أن يكون الأمر عكس ذلك ، الواقع أن هذه الفئة ، في الوقت الحالي ، صغيرة العدد ، ولكن لها سطوة شديدة تتجلى من خلال وحدة هدفها ، والمساندة القوية التي تلقاها من الحدود الجنوبية ، أو إن شئت فقل الحدود الوهابية ، والجزء الأكبر من كبار المشايعين لهذه الفئة والمؤيدين لها ، يتجمعون حول حائل ، ولكن عدداً كبيراً من هذه الفئة ينتشرون في كل أنحاء المنطقة ، ورأس هذه الفئة ومركز ارتكازها هو عبيد الذئب .

وقد رأينا بالفعل شقيقه الأكبر عبد الله بن الرشيد متطوعًا موثوقًا به ، وله وزنه في الجيوش التركية ، ولعب دوراً متميزاً ومهمًا في الأحداث المشئومة التي نزلت بالأسرة المالكة في نجد خلال أحرج المراحل التي مرت بحياة هذه الأسرة . ولكن عبد الله ، برغم صلاته الحميمة ، سواء كجندي أو أمير ، مع الحكومة الوهابية ، يكاد لا يتعاطف أو يميل مطلقًا إلى مبادئ ذلك المذهب المتزمتة ، لقد كان عبد الله بن الرشيد حليفًا سياسيًا، ولم يكن تابعًا على الإطلاق، ولكن شقيقه عبيد المتكبر والمتشدد لم يكن كذلك . فقد وجد عقله أنه متوافق مع التشدد النجدي نصًا وروحًا ، ولذلك أنغمس في ذلك التزمت قلبًا وقالبًا ، إلى حد الشك في أن الرياض نفسها لم يكن فيها وهابي أكثر إخلاصًا من عبيد بن الرشيد الموجود في حائل .

ولما كان عبيد محاربًا ممتازًا ، وصاحب خبره وشجاعة فريدتين ، ويستشهد به في كل مصادر الخداع والعنف ، ولما كان مشهوراً بسفك الدماء والحنث باليمين ، فقد أهله كل ذلك ليكون رائدًا للمذهب الوهابي في كل من شومر والمناطق التابعة لها ، وإذا ما صحت التقارير ، فإن هذا الرجل يكون ، قد قتل بيديه هو شخصيًا ، مالا يقل عن ثمانمائة فرد "في ميادين القتال" (أي أعداء) ، ناهيك عن الآلاف التي قتلها اتباعه ، واقتلع الكثير من النخيل ، وسوى بالأرض كثيراً من القبور التي ظلت ، لعدة قرون ، مزارات وتذبح لها الأضاحي ، عملًا بالمقولة الوهابية الموجزة التي تقول : "خير القبور الدوارس" ، ولعل القارئ يذكر كيف تصرف الوهابيون في قبر نبيهم محمد (ﷺ) في المدينة ، ويستطيع القارئ أن يتخيل أيضًا المصير الذي يمكن أن يحيق بمثل هذه الآثار ، على يدي عبيد وأتباعه .

وطوال حكم عبد الله بن الرشيد ، أوكل الجزء الأكبر من الإدارة الخارجية ، في مملكته ، إلى شقيقه الذئب ، الذي قام بإخضاع القرى ، والمدن ، والأقاليم على نحو

يؤهله أن يطلق عليه ذلك الاسم (الذئب) ؛ بل أن ثلاثين عامًا لم تكف لإعادة تأهيل المناطق التى خربها بالسكان ، وقد استفاد شقيقه عبد الله من الأراضى التى تم ضمها بهذه الطريقة ، ورضى لنفسه ، فى حائل ، بأعمال التنظيم الهادئة التى تتسم بالهدوء وبالطابع الإنسانى ، ولكن بعد وفاة عبد الله بن الرشيد ، بدأت تتزايد مطامح عبيد، الذى لم ترضه بعد انتصاراته فى حملاته الدموية، وراح يتطلع إلى التاج الملكى ، إضافة إلى أن صبا طلال ، الذى لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين من عمره ، ترك أمام عبيد المجال مفتوحًا، ولكن طلال بن الرشيد برغم صغر سنه، كان واسع الخبرة ، واستطاع أن يضم إلى جانبه كلًّا من أعيان المدينة والرؤساء المحليين الآخرين الذين كانوا لا يميلون كثيراً إلى أحياء القرآن ، الذى بدأ عبيد يتخلى عنه من بين مزاعمه وحججه .

واعتباراً من ذلك الوقت فصاعدا ، بدأ طلال يستفيد من عمه كما لو كان درواسا[1] يحتفظ به مالك ثرى فى مزرعته ، حيث تكون مهمته النباح أو العض ، بل التجول ، فى بعض الأحيان ، لإزعاج الآخرين ، وعهد الملك الشاب ، إلى عبيد القيام بالغزو فى مناطق بعيدة ، تحتاج إلى مزيد من القتل بدلاً من الاحتلال الدائم ، وبخاصة تلك المعارك التى خاضها طلال ضد القبائل البدوية أو المنطق الجبلية الوعرة ، على أمل أن يُخَلِّد عمه ، أمجاده الأرضية ، هذه بالاستشهاد فى واحدة من هذه الحملات . ولكن المثل السائد فى كل من الجزيرة العربية وإنجلترا يقول : "لن يموت الشيطان قبل وقت طويل" ، يتجسد فى شخص هذا الرجل السفاح المخادع طويل العمر .

أدى ذلك التماثل فى الشخصية وفى الآراء الدينية إلى حميمية متأصلة بين كل من عبيد بن الرشيد وعبد الله ، ولد الأمير فيصل ، فى الرياض ، وقد دارت بين هذين الصديقين المتماثلين ، مراسلات ودية ، كانت كلها لصالح الفئة الوهابية ، ولم تكن فى صالح طلال تمامًا ، الذى ذكره عبيد على أنه مجرد متحرر ، أى أفضل قليلاً من كافر مستتر ، إنسان يفضل الرفاه الحسى والمادى لكل من مملكته ورعاياه على وحدة الإيمان الحقيقى وانتصار حركة التوحيد الوهابية . وعلى النقيض من طلال تمامًا ، يصبح عبيد المحرك الرئيسى للطائفة الوهابية فى شومر ، ويتحول قصره إلى ملاذ

(١) الدرواس : كلب ضخم من كلاب الحراسة ، (المترجم) .

يومى للمتزمتين والمطوعين النجديين ، كان كل أولئك الذين جمعت بينهم الرغبة فى السلب والنهب والاستبداد والحكم المطلق ، يجتمعون ويهاجمون التراخى والتساهل والمبغضات السائدة في البلاد ؛ كما كانوا ينددون بالتجارة ، والدخان والشرك ، وراح عبيد ، الذى لم يتخلف مرة واحدة عن الصلاة في المسجد ، يتقدم المصلين ، وهو ما تخلى عنه ابن أخيه تمامًا ، بل إن عبيد كان يقوم ، فى كثير من الأحيان ، بواجبات الإمام والخطيب أيضًا ، بحماس يرقى إلى التقليد أكثر من النجاح فى أداء المهمة . وأخيرًا ، وإثباتًا منه لاستقامته الكاملة ، أنشأ لنفسه قصرًا ريفيًا للحريم خارج مدينة حائل ، وأصبح عدد زوجاته وما ملكت يداه تليق بمسلم حقيقى "متعته" (وأنا هنا أقتبس كلام محمد (ﷺ) عن نفسه) "قضى الله أن تكون في النساء"[1] ، والواقع ، أن عبيد وهو فى السبعين ، أو أكثر ، من العمر ، وبينما كنا فى حائل ، أضاف زوجة جديدة إلى قائمة الحريم التى كانت لديه بالفعل .

هكذا كان عبيد ، الذى عاد الآن إلى العاصمة من غزو أثبت فيه كل حيوية ووحشية الشباب، ليجد الطبيبين المسيحيين مستقرين داخل أحياء المدينة ، ولو قدر لـ عبيد أن يكون حاكمًا مطلقًا وسيدًا لهذه البلاد لما طال مقامنا فى حائل أكثر من ذلك . ولكن عندما وقف عبيد على الحظوة التى كنا نتمتع بها لدى البلاط وأهل الحضر ، سيطر على نفسه وكبح جماحها ؛ وفى الأماكن التى لم يصل إليها جلد الذئب كان يحتال عليها بجلد الثعلب ، وذلك بناء على النصائح التى كانت تصله من فيليب المقدونى .

وفى اليوم التالى لوصوله ، وقبيل الظهر ، جاء إلى باب دارنا راكبًا حصانه ، وبرفقته عشر من حاشيته ، وكانت تحيته لنا ، تحمل في ظاهرها أكبر قدر من الود ؛

(١) نص الحديث (حُبِّبَ إلىّ من الدنيا النساء والطيِّب ، وجعل قُرَّة عينى فى الصلاة) والحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند فى كتاب اللباس والزينة باب الطيب والكحل ، وقال عنه الحافظ العراقى إسناده جيد وقال ابن حجر إسناده حسن وقال المناوى فى شرح فيض القدير قال الحاكم صحيح على شرط مسلم .

وما ذكره المؤلف ليس بحديث ، والحديث الوارد فى هذا المعنى ـ كما ذكره ـ ليس فى معناه ما ذكره المؤلف على سبيل اللمز برسول الله (ﷺ) لأن نص الحديث (حُبِّبَ) أى أن الإكثار من النساء لم يكن يتعلق بمتعة وإعجاب شخصى ، وإنما كان لحكم تشريعية حيث ينقلن ما بطن من الشريعة مما يُستحيا من ذكره للرجال كما كان فى المصاهرة الكثيرة دافعًا لدخول القبائل فى الإسلام ، فكان التعدد وكثرة الزوجات لحكم تشريعيه وليس لمتعة شخصية ـ كما توهم المؤلف ـ أو كما غمز إلى ذلك .

ومد يده ليصافحنا وهو راكب حصانه ، وأعرب عن سعادته لأننا كنا ضيوفًا على ابن أخيه ، ومن ثم ، ضيوفًا عليه أيضًا .

كنا لم نزل بعد لا نعرف شخصيته معرفة كاملة ، ومعروف عن العرب ، حتى عندما يكونون في قمة صراحتهم وتواصلهم ، أنهم لا ينسون قوانين الحرص عندما يتعرضون لذكر طرف ثالث ، وهم لا يحبذون الخوض في حق الغائب ، وبخاصة إذا كانوا يتوقعون وصوله بعد قليل من الوقت ، وكان من نتيجة ذلك ، أننا ، حتى هذا التاريخ ، لم نكن نسمع عن عبيد سوى عبارات عامة ونكات وطرف لا تحمل معنى معينًا . ومن أول وهلة ، قال لنا طوله الفارع ، الذي لم تحنيه السنين ، وسماته وقسماته الواضحة تمامًا ، وأسلوبه السهل الذي يشبه أسلوب العسكريين ، الكثير والكثير عن هذا الرجل ، ولكني لن أنسى مطلقًا ذلك الأثر الذي أحدثته فيّ تلك النظرة التي حدقتني بها عيناه الرماديتان الواسعتان ؛ فقد بدت لي تلك النظرة وكأنها تنتمي إلى وجه آخر ، إذ كانت على العكس تمامًا من التعبير الذي ارتسم على بقية محياه .

وليس هناك أحرج ولا أبهى من نغمته في الحديث ، وأبدى رغبته الشديدة في أن يعرف كل شئ عنا ، حتى يتسنى له مساعدتنا بطريقته الخاصة . وأصبح يزور منزلنا بشكل يومي تقريبًا ، والتمس إلينا مقابل ذلك ، أن نكثر من زياراتنا له في بيته ، كان قصر عبيد ، في المدينة ، مقابلًا لقصر الأمير طلال ؛ وكانت لقصره حديقة كبيرة ، حديثة المزروعات ومنسقة تنسيقًا جيدًا ، والسبب في ذلك ، أنه كان يمد نشاطه الحماسي إلى جميع الأشياء والأمور التي تخصه ؛ وكانت حيويته في حفر بئر أو حفر مجرى مائي لا تقل عن حيويته في إحراق القرى أو تقطيعه للكفار إربًا إربًا ، كان عبيد يأمر ، بفرش السجاد ، كل مساء ، تحت الأشجار بالقرب من جدار القصر ، حيث كان يمضي الساعات الأولى من الليل بصحبة أصدقاء كان يختارهم طبقًا لأهدافه وبما يناسب ذوقه ، وكان عبيد يدعونا دومًا إلى حفلات المساء (سواريه) هذه ، وكان من عادته ، عند مجئ الشفق ، أن يدخل في خطاب الدين أو السياسة ، بطريقة تصلح تمامًا لأن يستخلص من ردودنا أفكارنا الشخصية ونوايانا ، وفي النهاية ، ومن خلال الأسئلة المباشرة ، والمراقبة الدقيقة ، استطاع أن يكوّن فكرة سليمة ، إلى حد ما ، عن ماهيتنا والأسباب التي جاءت بنا إلى حائل ، وقد حدث كل ذلك ، بعد فترة وجيزة من مقابلاتنا الودية مع كل من زامل والأمير طلال .

وقد أدى تظاهر عبيد بصداقتنا ، في ظل الظروف التي كنا نمر بها ، إلى أن نكون على حذر منه منذ البداية ، زد على ذلك أن التلميحات التي كنا نلاحظها ، بين الحين والآخر ، من أولئك الذين كانوا يلاحظون تزايد ألفة عبيد معنا وصداقته لنا ، جعلتنا نستريب فيه ، ولكننا استطعنا خلال وقت قصير أن نعرف صديقنا الخطير حق المعرفة .

ولم نشرك عبد المحسن في هذا السر ، فقد قررنا ألا نتكلم معه بخصوص هذا الموضوع على أقل تقدير، ولكنه ربما يكون قد سمع من الأمير طلال ، شيئًا عما يدور ، أو ربما تكون حنكته الوطنية وخبرته قد أوصلته إلى تحذيرات ليست بعيدة عن الحقيقة، وأيا كان ما يدور في ذهنه ، فقد بلغ من الأدب حداً يمنعه من أن يفاتحنا بطريقة مباشرة ، أنه استطاع أن يعرف من خلال شخص مستتر باسم مستعار ، ذلك الذى رأينا أن زامل ليس من حقه الإطلاع عليه ، ولكن زامل عندما أصبح على علم باهتمامات عبيد بنا ، والاجتماعات المتكررة بيننا وبينه ، دفعته صداقته لنا أو حرصه علينا أن يحذرنا من عبيد. وهنا راح زامل يحيطنا علمًا بتاريخ رئيسه ووضعه الحقيقي، واختتم كلامه بأن وصفه بأنه ممثل حكومة الظل أو إن شئت فقل المعارضة في شومر . والعجيب أن ما قاله عبد المحسن ، أيده عبيد نفسه بعد فترة قصيرة ، بطريقة عجيبة ، عندما نسى قِنَاعَهُ لحظة ، مثل معظم أولئك الذين يلعبون أدواراً محددة ، وسمح لنا أن نلقى نظرة خَاطفة على وجهه الحقيقي ، لقد كانت تلك النظرة خاطفة ولكنها كانت كافية تمامًا .

وذات صباح أرسل عبيد في طلبي لأفحص رجلاً من أهل بيته كان بحاجة إلى العلاج الطبي ، وذهبت إلى بيته وبرفقتي مساعدى بركات الشامي ، وعندما دخلنا قصر عبيد ، دخلنا معه في حديث حول الأحداث الدائرة في الباشاويات المجاورة في كل من سوريا وبغداد ، وعن النفوذ المسيحي ورد الفعل الاسلامي . وحجب عبيد عنا ، بصورة مؤقتة ، أسلوبه المتحيز الذى كان يستعرضه دومًا أمامنا ، وبدأ يعرب عن ارتياحه للتقدم المرتقب والتحسن الذى أوشك أن يبدأ في الشرق ، وفجأة حدثت صدمة كهربية من مشاعره الحقيقية تغلبت على أثرها على سلوكه الظاهرى ؛ وتحولت نغمته المهادنة وعباراته الناعمة إلى لغة مملوءة بالحقد والكراهية والتحدى الصريح ، راح على أثرها يذم المبتدعين ذمًا عنيفًا ، هم والمسيحيين ، والإمعات ، وكل أولئك الذين لم

يتمسكوا بنقاء الإسلام القديم وشموليته ، إلى أن قال لنا بتعبير فظيع وموجة غضب شديدة : "ولكن أنتما ، أيما كنتما ، يجب أن تعلما ، أنه لو قدر لابن أخي ولشعبه وللجزيرة العربية كلها أن يرتدوا عن الإسلام ، ولن يبقى في الدنيا كلها سوى مسلم واحد، فإنني سأكون ذلك المسلم"، وبعد أن شعر بأنه تجاوز حدوده ، توقف على الفور ، وعاد فجأة دونما انتقال أو تدرج ، شأنه شأن تغيير منظر من المناظر في مسرحية من المسرحيات ، إلى ابتسامته العريضة ، وحديثه الودي ، كما لو كان لم يعرف الشك أو الغضب ؛ ولكننا عند هذا الحد نكون قد عرفنا عنه الكثير ، وانتهت اعتباراً من تلك الساعة زياراتنا له وحديثنا معه .

وبعد ذلك مباشرة حمل زامل إلينا خبر بحث عبيد عن طلال ، الذي كان يبتعد عن طريق عمه بقدر المستطاع ، وأبلغنا أنهما دار بينهما حديث سري طويل ، عن ذلك الذي يسهل علينا أن نعرفه عن طريق التحرير ، وهذا الحديث يفسر الأسباب التي جعلت الملك يؤخر رده علينا ، ويؤجل اجتماعه الثاني بنا ، من يوم إلى يوم ، فقد كان يعترض طريق الملك ، شخص آخر يتساوى معه تقريباً من حيث المولد ومن حيث القوة والسلطة ، واحد من أقرب الأقارب بل ومن أقرب الأعداء أيضاً ، والذي كان بوسعه بل فعل ذلك بحق أن يوشي بكل كلمة يقولها طلال وكل خطوة يخطوها إلى الوهابي المستبد ، وأنه بوسعه أيضاً أن يخلق لـ ـ طلال مشكلات كثيرة وخطيرة ، وإحقاقاً للحق أقول : إن الموقف لم يكن طيباً مطلقاً ، ولكن ذلك لم يربك طلال أو يحيره ؛ فقد تمعن الأمر واتخذ قراراته .

كان طريق الحج الذي يمر بالقرب من المدينة المنورة مبتلى بالجماعات البدوية الغازية من قبيلتي حرب وبنو عطية الذين وعد طلال بن الرشيد بمعاقبتهم ، وعندئذ اقنع طلال عمه عبيد ، الذي كان مستعداً دوما للعمل العسكري ، بأن يتولى قيادة حمله على هؤلاء اللصوص ، مستهدفاً من ذلك تأمين غيابه عن حائل بضعة أيام ، وصدرت الأوامر بتجميع عدد من القوات . قدمت حائل وحدها منهم حوالي مائة مقاتل ، وقدمت فيفار عدداً مساوياً ، وصدرت الأوامر للقرى المجاورة بالمساهمة إلى أن تم تجميع حوالي أربعمائة رجل مسلح كانوا على استعداد الدخول في القتال ، وتم الاتفاق على أن يكون تجمع القوات في حائل ، أمام البوابة الشمالية ، إذ جرت العادة أن يكون تجميع القوات على مسافة أميال قليلة في الاتجاه المعاكس للاتجاه المقصود ، وهو

الجنوب الغربى ، وبذلك تتضارب الشائعات فى أغلب الأحيان ، مما يجعل العدو يفترض أن الهجوم موجه إلى طرف آخر غيره ، وللسبب نفسه أيضًا ، كان يجرى الحفاظ على سرية الهدف النهائى بعيداً عن الجنود أنفسهم ، الذين لم يكونوا يعرفون سوى أنهم سيسيرون إلى مكان ويحاربون شخصاً ما ، وعندما حان موعد البداية (كان يوافق اليوم الرابع من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى) ، أصدر عبيد أوامر بنصب خيمته فى السهل الموجود خلف الأسوار الشمالية ؛ وراح يستقبل قواته فى تلك المنطقة ، كان ثلث قواته تقريباً من الخيالة ، أما بقية القوات فكانت تركب جمالًا خفيفة وسريعة ؛ كان الجنود جميعهم مسلحين بالرماح وبنادق الفتيل ، التى زاد الجنود عليها السيوف ؛ وبينما اتجهت القوات هنا وهناك فى مناورات خادعة على أرض استعراض القوات ، كان شكل القوات العام رائعًا وعسكريًا تمامًا ، وهنا فرد عبيد بيرقه العجيب ، الذى يرمز فيه اللون الأخضر ، الذى يحيط بأطراف البيرق الأبيض ، إلى الإسلام ، فى حين كانت أرضية البيرق البيضاء من نفس لون البيرق النجدى العريق ، الذى ذكره منذ أربعة عشر قرنًا مضت ، عمرو بن كلثوم ، شاعر تغلب ، هو وشعراء آخرون ، ووقفت مع بركات الشامى بين المتفرجين ، ورآنا عبيد ، وكان آخر لقاء لنا معه قد مضت عليه عدة أيام ، وأشار إلينا ، بدون أى تردد ، وأتجه نحونا ، وبينما مديده لنا ليصافحنا مصافحة الوداع ، قال لنا : "بلغنى أنكما تنويان السفر إلى الرياض ؛ وفى الرياض سوف تلتقون عبد الله بن فيصل بن سعود ، وهو صديق لى بصفة خاصة ؛ وأتمنى أن أراكما ترفلان فى أفضاله ، ولذلك فقد كتبت له رسالة بهذا المعنى لصالحكم ، وسوف تحملاها أنتما نفسيكما إليه ؛ ستجدون هذه الرسالة فى منزلى ، فقد تركتها لكم مع واحد من الخدم ." ثم أكد لنا بعد ذلك ، أنه إذا وجدنا فى الرياض عند عودته ، فإنه سوف يواصل صداقته الودية معنا ، من جميع النواحى ؛ ولكن إذا ما واصلنا رحلتنا صوب نجد ، فسوف نجد صديقًا حميمًا فى عبد الله بن فيصل بن سعود ، وبخاصة إذا ما سلمناه الرسالة التى نحملها له من عبيد .

ثم استأذن منا بطريقة تنم عن الود والحب ، جعلت الواقفين يندهشون ؛ وبذلك يكون قد أيد ذلك المظهر الخادع الذى انتحله للحظة واحدة ، وسلم لنا رئيس خدمه ، فى الليلة نفسها ، الرسالة ، وبخاصة أن عبيداً ، كان قد خلف رئيس الخدم وراءه ليقوم على أمر رعاية المنزل والحديقة طوال فترة غيابه ، ومما لا شك فيه ، أن القارئ ، يود أن يعرف نوعية تلك التوصية التى زودنا بها عبيد ، كانت التوصية مكتوبة على

قصاصه من الورق المقوى ، طول ضلعها أربعة بوصات ، طواها بعناية وختمها بخاتمة ثلاث مرات ، وعلى كل حال فقد "أنستنا مخاوفنا الأخلاق" ، وأيدنا هاملت فى رأية عندما أراد أن يستفيد من ذلك التكليف العظيم قبل أن يصل إلى محطة الوصول . وعليه فضضنا الأختام بحرص يسمح لنا بإعادة إغلاق الرسالة مرة ثانية مثلما كانت فى البداية ، وقرأنا المكر والخداع الملكى ، وأنا أورد محتويات تلك الرسالة هنا كلمة بكلمه وبحذافيرها : تقول الرسالة : " بسم الله الرحمن الرحيم ، نحن عبيد بن رشيد ، نحييكم ، يا عبد الله يا ابن فيصل بن سعود ، السلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته" . وهذه هى بداية الرسائل الوهابية ، التى لا تعترف بصيغ التحية السائدة والمستعملة من قبل الشرقيين الآخرين .) ثم تستطرد الرسالة "وبعد" "نبلغكم أن حاملى هذه الرسالة هما سليم العيص ، ورفيقه بركات الشامى اللذان يقدمان نفسيهما على أن لديهما شئ من المعرفة فى............" ووردت فى الرسالة هنا ، كلمة مساوية لكلمة "الطب" أو "السحر" ، ولكنها تستعمل فى نجد فى معنى الكلمة الأخيرة ، وهو ما يعد فى الرياض جريمة يعاقب عليها بالإعدام "والآن ، حفظك الله من كل مكروه" ، ونحن تحيى والدك فيصل أيضًا ، واشقائك ، وكل أسرتك ؛ ونحن فى انتظار أخبارك فى الرد ، والسلام عليكم ورحمة الله" . وختمت الرسالة بعد ذلك .

إنها توصية طريفة جداً ، وبخاصة فى ظل الظروف الراهنة ، ومع ذلك ، لم يكتف عبيد بذلك ، فأوجد وسيلة أرسل عن طريقها مزيداً من المعلومات عنا ، وكلها تحمل المعنى نفسه ، إلى الرياض ، مثلما اكتشفنا بعد ذلك ، وفيما يتعلق برسالته ، فأنا لست بحاجة إلى القول إنها لم تخرج من حوزتنا قط إذ لا تزال باقية معنا كمخطوطة أصلية مهمة ، ولم تصل إلى حوزه عبد الله بن فيصل بن سعود ؛ لأنها كانت ستثبت له الشئ الوحيد المتبقى ، مثلما سنرى فيما بعد ، مما يجعلنا نضحى بحياتنا فى الشرك الإنسانى النجدى ، وفى الوقت نفسه ، ساعدتنا تلك الرسالة بأن أعطتنا مفتاحًا إلى السلوك الذى يتعين علينا أن نسلكه فى البلاط الوهابى .

وقد ابلغنا زامل ، دون أن نطلعه على الرسالة ، بمحتوياتها ، عندما قلنا له بطريقة عابرة أن عبيد كتب لنا تقديماً لولد فيصل ، ورجانا زامل ، خوفًا من احتمال عدم فهمنا لنوايا عبيد الحقيقية ، بألا نكون نحن حاملى تلك الرسالة ؛ التى يعرف محتواها عن طريق التحذير ، ووعدنا أن نكون حريصين ، ولم نقل له شيئًا أكثر من ذلك ، واكتفينا بالدليل الإضافى الذى قدمه على إخلاصه لنا .

أصبح عبيد بعيداً عن حائل الآن، وهنا بدأ طلال يشعر بأنه حر في التعامل معنا؛ وبناء عليه أصدر أوامر في السادس من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادي ، بأن نحضر معه مقابلة خاصة في قهوة زامل بعد صلاة الظهر بساعة تقريبًا ، وذهبنا إلى القهوة ، ووجدنا هناك عبداً يقف عند الباب الخارجي ليمنع حدوث أي إزعاج لنا من الزوار المفاجئين ، وبعد عشر دقائق من وصولنا إلى قهوة زامل ، حضر طلال بن الرشيد ويصحبته سيافين تركهما خارج القهوة ، كان طلال يلبس ثيابه المعتادة ، وكانت نظراته توحي بالصرامة أكثر من المعتاد ، وبعد أن جلس ظل صامتًا فترة من الوقت لم نقطع عليه صمته خلالها ، وأخيراً رفع طلال عينيه ، وأمعن في النظر إليّ ، ثم قال : "قد يكون من الحماقة أن تطلبا مني ، أن أعطيكما رداً رسميًا ومعتمداً على أمور من هذا القبيل ، في ظل الظروف الراهنة ، ولكني أنا ، طلال ، أزيد على ذلك : عليكما أن تتأكدا من الآن ودوما من نيتي الحسنة ومقاصدي الطيبة ؛ ويجب عليكما أن تواصلا رحلتكما؛ ولكن عودا بأي شكل تريانه ، وأتمني ألا يكون ذلك بعد فترة طويلة . إن كلامكما سوف يسري مسري القانون ، وسوف ننفذ لكما كل ما تريدانه طبقًا لإمكانيات حكومتي . فهل هذا يرضيكما ؟" ورددت عليه ، بأن ذلك كان أقصى ما أتمني ؛ وتصافحنا على وعد متبادل قطعناه على أنفسنا فيما بيننا .

ثم أعلن بعد ذلك أنه لا يمانع زيارتنا للعاصمة الوهابية ، ولكنه أوصانا بالحرص والحذر ، وأوجز قائلًا : إنه كلما قل الكلام هنا سهل الإصلاح ؛ كما أوصانا أيضًا بأننا لن نجد في الرياض أحداً ، كبر أم صغر ، يستحق أن نوليه ثقتنا . وأردف قائلاً : إن عبيداً قد يعود بعد فترة قصيرة ، وأنه من الأفضل لنا ، عندئذ ، أن نعجل بالرحيل ، وأنه أصدر أوامره لوفد من مسافري القصيم ، كان قاصداً بريده ، أن يأخذونا معهم ، كما أبلغنا أيضًا أن الوفد في انتظارنا .

ومن الواضح أن الأمير طلال كان يشعر بالقلق إزاء النتائج التي تترتب على رحلتنا ، سواء من جانبه أم من جانبنا ، وكان من رأيه أن بقية رحلتنا قد تكون أشق وأصعب وأخطر مما كنا نعتقد ، والواقع أن مخاوف الأمير طلال لم تكن مبالغ فيها ، نظراً لما اكتشفناه عندما أصبحنا داخل أراضي نجد .

وسألته ، من قبيل الاختبار ليس إلا ، إن كان سيعطينا خطاب تقديم ممهور باسمه ، للملك الوهابي ، ورد عليّ قائلاً : "لن تكون لذلك فائدة ، كما أن أية توصية

مني يصعب أن تجعله يظن فيكم ظنًا حسنًا ، وبدلاً من الرسالة أملى طلال على زامل ، لأن طلال لم يكن يجيد الكتابة ، جواز سفر أو خطابًا عامًا بحق السير والسلوك ، يضمن لنا معاملة طيبة داخل حدود حكمه ، وفيما وراءها ، وأنا أرفق ترجمة هذا الجواز هنا كي تستفيد منه وزارة الخارجية ، وكل من لهم علاقة بهذا الأمر .

"بسم الله الرحمن الرحيم ، نحن ، طلال بن عبد الرشيد ، إلى كل التابعين لـ شومر ، الذين سيطلعون على هذا الخطاب ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، نبلغكم أن حاملي هذه الورقة هما سليم العيص أبو محمود ورفيقه بركات ، وهما طبيبان ، يبحثان عن لقمة العيش من خلال ممارسة الطبابة ، وبإرادة الله ، ويقومان برحلة تحت حمايتنا لهما ، وعليه يجب ألا يعترضهما أحد أو يزعجهما ، والسلام عليكم ورحمة الله .." ثم كتب التاريخ عقب ذلك .

وبعد الانتهاء من هذا الخطاب العام ، وضع طلال عليه خاتمه ، ووقف ليتركنا وحدنا مع زامل ، بعد أن صافحنا وربت على أيدينا ، وتمنى لنا رحلة موفقة وناجحة وعوداً سريعًا ، وقد خطرت لنا ، أيضًا ، في ذلك الوقت فكرة المرور مرة ثانية على حائل ، ونحن في طريق عودتنا ، ولكن بعد أن زجت الظروف بنا في مسار مختلف ولكنه أكثر تثقيفًا ، برغم طوله ، ولم يتبق أمامنا فعل أي شئ ، سوى التجهيز للرحيل ؛ فقد اكتسبنا معرفة كبيرة عن عاصمة شومر ومواطنيها ، في حين كان لا يزال أمامنا الجزء الأكبر من رحلتنا ، بينما أوشكنا على بداية فصل الخريف ، زد على ذلك ، أن إطالة بقائنا في حائل أكثر من اللازم قد تكون خطراً علينا وعلى طلال بن الرشيد ؛ فقد كان جواسيس عبيد وفيصل يراقباننا ، كما كانوا يراقبون الملك أيضًا . يضاف إلى ذلك ، أن تجار بغداد ، أيضًا ، الذين كانوا يُكَوِّنُون في المدينة ، هيئة كثيرة العدد قليلة النفوذ ، كانوا يكرهوننا ، ظنًا منهم أننا في واقع الأمر من الدمشقيين ، الذين يُكِنُّ الشيعة لهم كراهية فطرية خاصة ، زادت ولم تنقص برغم مرور اثني عشر قرنًا عليها ، وبناء على ما تقدم ، وبرغم أن الشيعة يختلفون من نواحي كثيرة عن اتباع المذهب الوهابي ، فقد التزموا جانب الوهابيين الآن في أمر واحد فقط ، ألا وهو النظر إلينا شزراً ، وأن يلحقوا بنا كل الضرر الذي يخطر على بالهم ، كلما سنحت الفرصة لهم بذلك ، فيما بينهم هم أنفسهم ومن وراء ظهرينا ، أضف إلى ذلك ، أن مخزوني من الدواء كان محدوداً ، فقد خشيت أن يؤدي إسرافنا في الدواء في مكان واحد ،

أن يمنعنا من ممارسة الطب التى تنتظرنا ، على امتداد الجزء المتبقى من رحلتنا الطويلة ، وأخيراً ، لست بحاجة إلى القول إن توصية طلال لنا بالرحيل ، كانت من وجهة نظرنا ، فى حكم الأوامر تماماً ، إلا أننى ، وبرغم كل دوافع الرحيل هذه ، كنت أشعر بالتردد وأنا أغادر تلك المدينة الجميلة ، التى أصبح لنا فيها أصدقاء مخلصون ، ومحبين ، إلى بلدان لا يمكن لنا أن نتوقع فيها هذا الحب وهذا الأمن ، الواقع ، أن كل ما سمعناه عن نجد الوهابية كان ينذر بالشؤم والسوء ، لقد بدأ المنظر الطبيعى للأرض يَسْوَدُّ من أمامنا ، كلما اقتربنا من المدينة ، مما جعلنى أندم على قرارى بمواصلة الرحلة ، بل كان يغلب علىّ أن أقول : "يكفينى ما وصلت إليه ، ولن أتحرك أبعد من ذلك" .

وكما يقول المثل : "أحمد مثل الحاج أحمد" أو كما يقول المثل الإيطالى"Tro Beatrice e te é questo muro" رحت أتشجع وأتمالك نفسى ، زد على ذلك ، أننا كنا قد قطعنا بالفعل مرحلة، يعد التراجع عنها وعن ذلك الذى يتحتم علينا أن نعبره ، كائناً ما كان ، يمكن أن يكون مؤشراً لا يغتفر من مؤشرات الخوف والجبن ، وبعد أن غادر طلال القهوة ، طلبنا من زامل أن يخبرنا بالمكان الذى من المفروض أن نلتقى عنده أولئك الذين سيرافقوننا على الطريق ، وأبلغنا زامل أن طلال أصدر أوامره لهم كى يجيئوا إلينا ، وأنهم لابد من وصولهم إلى منزلنا فى اليوم نفسه .

وقبيل حلول المساء ، طرق ثلاثة من الرجال باب دارنا ؛ كان الرجال الثلاثة مرشدينا المنتظرين . كان أكبرهم سنا اسمه مبارك ، واحد من أبناء بريده ، وكانوا ثلاثتهم من منبت قصيمى حقيقى ، تميل بشرتهم إلى السمرة ، قصار القامة عن سكان حائل ، بهيى الطلعة ، سلوكهم وتصرفاتهم محببة إلى النفس ، وأبلغنا مبارك أن مغادرتهم حائل كانت قد تحددت صباح اليوم نفسه ، أو صباح اليوم السابع من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، ولكن نظراً لبعض التأخير من جانب بقية المرافقين لهم ، بسبب كبر الوفد المسافر ، فقد تأجل موعد المغادرة إلى اليوم الثامن أو اليوم التالى له ، والتأجيلات التى من هذا القبيل دائمة الحدوث فى الشرق ، والسبب فى ذلك أن طريقة السفر نفسها تجعل هذه التأجيلات شراً لابد منه ، وأن يكون الإنسان جاهزاً لها ويأخذها على علاتها ، تحت طائلة العقاب بأن يضع الإنسان نفسه موضع السخرية والاستهزاء جراء نفاذ صبره الذى لا طائل منه ، وأبرمنا اتفاقاً مع مبارك ،

استأجرنا منه بمقتضاه جملين يحملانا نحن وأشياءنا ؛ وكان إيجار هذين الجملين هزيلًا إلى حد بعيد ، حتى بعد أن أخذنا بعين اعتبارنا أيضًا القيمة العالية التى للنقود فى هذه المناطق ؛ كما سعدنا أيضًا لأن سلوكيات مرشدينا الودية والتى تتسم بالدماسة والأدب أوحت لنا برحلة طيبة .

كنا قد انتهينا فعلًا من عمل الترتيبات اللازمة لرحيلنا ، وحصلّنا بعض الديون القليلة المستحقة لنا ، وحزمنا أدويتنا ، ولم يعد يتبقى أمامنا من شئ سوى آلام الوداع المحببة إلى النفس ، كانت هذه الآلام كثيرة ومتبادلة ، كان الأمير متعب قد ودعنا قبل سفرنا بأيام قليلة ، عندما غادر حائل ، بعد توديعنا ، للمرة الثانية قاصداً مراعى وإسطبلات خيول الأسرة المالكة ؛ وكنا قد ودعنا بالفعل الأمير طلال ، ولم يكن يتبقى لنا سوى وداع أخيه الأصغر الأمير محمد ، وسمع برحيلنا كثيرون وجاءوا لتوديعنا ويعبروا عن أسفهم لفراقنا ويتمنون أن يلتقوا بنا مستقبلًا : حضر إلينا القسم الأكبر من معارفنا ومرضانا ، وضحيع التاجر ، ومحمد القاضى ، ودحيم وأسرته ، كما حضر إلينا أيضًا سيف كبير الياوران ، وسعيد رئيس الخيالة ، وأفراد آخرون من البلاط الملكى ، حضر إلينا أحرار وعبيد ، بيض وسود ، (لأن العبيد هنا على دين أسيادهم ، ويعدون جاحدين إذا ما عوملوا معاملة طيبة وبقوا على وضعهم الذين هم عليه) ، كما حضر إلينا أيضًا أناس آخرون لو مرّوا على هومر لدوّن أسماءهم ، أما أنا فأحفظ أسماءهم ، أما من ناحيتى فقد شعرت فى تلك اللحظة أننى سأكون سعيداً جداً لو قدر لتلك الآمال أن تتحقق فى يوم من الأيام ؛ ياه .. كم يبدو ذلك غير محتمل !

وحضر عبد المحسن ، أيضًا ، وبصحبته ، بدر أصغر أبناء الأمير طلال ، قبل حلول المساء بوقت قصير، ليودعنا ويتمنى لنا سفراً سعيداً ، كان عبد المحسن ، دومًا ، وعلى طول الخط ، صديقًا لنا ، كنا نستقبله ونرحب به كل يوم ، يضاف إلى ذلك ، أن عقله المثقف والمنظم، العامر بالبلاغة، قد أسهم كثيراً فى جعل مقامنا طيبًا فى حائل ، وأبعد عنا الوحدة التى تكون ثقيلة الوطء على نفس الغريب حتى ولو كان وسط مجموعة فى أرض غريبة ، والابن ، بدر نفسه ، كان فيه من خصال أبيه الكثير وهو فى هذه السن ؛ فقد ساعدنا على شفائه من حمى لا يشيع انتشارها ، فى مثل هذه السن ، وفى المقابل راح مريضنا الصغير يعبر عن امتنانه وحبه لنا ، بشكل أكثر مما هو مألوف بين الأطفال ، وبخاصة الأطفال كريمى المحتد ، فى حين كانت سلوكياته تنم

عن تلقيه تعليماً أوربياً ملكياً ، وأكد لنا عبد المحسن ، باسم الأمير طلال وباسمه ، أننا نحمل معنا وداد البلاط الملكي كله ، وبقى الرجل معنا إلى غروب الشمس ، يدفع عنا وعنه حتمية الافتراق عن طريق أسئلة وإجابات لا معنى لها ، ومع كل ذلك لم نستطع إبعاد شبح الافتراق عن أذهاننا .

ولكن مع حلول الليل ، ليلتنا الأخيرة في حائل ، كان لابد لنا من استقبال زيارة مهمة ، فمع ضوء الشفق حضر إلينا زامل ، وبعد أن ترك عبده سونيليم Soneylim عند الباب الرئيسى ، ليمنع عنا الزائرين العابرين ، أمضى معنا وقتًا طويلاً فى حديث ودى عامر بالحب ، متعهداً لنا ، بمساندتنا مساندة تامة ، وتعاونه معنا فى جميع الإجراءات التى قد تسفر الأيام عنها فيما بعد ، وجدد توصياته لنا بمراعاة الحرص البالغ ونحن بين الوهابيين ، موضحًا لنا الأخطار التى يحتمل أن تواجهنا أو تعترض طريقنا ، ووسائل التغلب على هذه الأخطار ، أو التقليل منها على أقل تقدير ، ثم رجانا بعد ذلك أن نرسل له رسالة قصيرة بعد وصولنا إلى الرياض ، نخبره هو وسيده فيها ، بعبارات ذات مضمون طبى ، بسلامة وصولنا ، وعن أحوالنا وأعمالنا فى العاصمة ، ومن جانبنا ، رجوناه أن يؤكد للأمير طلال ثقتنا الكاملة بصدق نيته وبشرفه ، وأن يُقرِّعينا بشأننا فى أقوالنا وأفعالنا ، واحتضننا الرجل ، ثم رحل عنا فى ضوء النجوم .

وفى صباح اليوم التالى ، وقبل طلوع النهار ، وصل مبارك ومعه شخص آخر من أبناء بلده ، اسمه دهيش ، إلى باب دارنا ومعهم الجملين ، كما حضر إلى دارنا أيضاً بعض أصدقائنا من المدينة ، فى هذه الساعة من الصباح ، ليرافقوننا إلى بوابات المدينة ، وركبنا الجمال ، وعندما بدأت أشعة الشمس تستوى فوق السهل ، كنا نجتاز البوابة الجنوبية الغربية التى خلف السوق ، وكان اليوم يوافق الثامن من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وفيه رحلنا عن مدينة حائل .

الفصل السادس

الرحلة من حائل إلى بريده

لا ترى سوى مزيد من الأرض الجرداء ، وفى النهاية تنحسر التلال ،
ثم ، تمتد بعد ذلك الوديان الأكثر نعومة والأقل أبهة ؛
يلى ذلك سهول يحيط بها الأفق ،
على مرمى البصر ، وبلا نهاية .
بيْرون

مرحلة جديدة من رحلتنا - إغفال البدو نسبيًا فى وسط الجزيرة العربية - رفاقنا فى السفر - شخصيات المسافرين - تجارة الخيول بين شومر والكويت - حدود جبل أجا ع - العين الشجَّاجة - الوادى بين جبل أجا ع وجبل سلّمى - هجوم بدو حرب - جبل سلّمى - قبر حاتم الطائى - تاريخه - طرفه - فيض - حاكمها ومحكمة العدل فيها - وصف القرية - مخيم صليبه - القصيم العليا - خصائص الأرض فى القصيم العليا - الشعر العربى - نجد - الحياة النباتية - ينابيع الماء - مستجمع مياه شمالى الجزيرة العربية - الأماكن القريبة - وسائل معرفة نقط الارتفاع الأرضية - الحياة الحيوانية - قيفاء ، شكلها الخارجى - قصيبة - كواره ، موقعها ، كلابها - الحدود الوهابية - القصيم السفلى - نظرة عامة على الجزيرة العربية - انقساماتها وتوحداتها قبل محمد ، وفى حياته ، وبعد مماته - فترة حكم الخلفاء الراشدين - التنافس بين نجد والحجاز - استقلال شومر ووسط الجزيرة العربية جزئيًا - رفع الخلافة عن بغداد - نتائجها - ثورة القرامطة ، وانفصال الجزيرة العربية نهائيًا عن الخلافة - ابن داريم ، ثورته ، غزواته ، وقوته - أسرته المالكة فى القصيم - طبيعة

الوثنية العربية – دائرة عينون الصخرية – الخصائص الطبوغرافيه للقصيم السفلى – ثقافة القصيم السفلى – بيارات النخيل ، القطن ، والنبات المخدر العجيب – طبيعة السكان – اتصالهم بالحجاز – الآثار التى ترتبت على هذا الاتصال – دراويش كابول – تنكر بعض الرحالة فى زى الدراويش – النتائج التى ترتبت على ذلك التنكر – الحادث المأساوى– موقف العرب من المسيحيين بصفة عامة والأوربيين بصفة خاصة– عينون – عشاء فوليح Foleyh – الطريق إلى بريده – الغاط – إنذار زائف – منظر بريده من بعد – حى الدويد – كوخ مبارك – حياته العائلية .

هذه مرحلة أخرى من مراحل رحلتنا ، من غزه إلى مُعَان، ومن مُعان إلى الجوف ، ومن الجوف إلى حائل ، هذه المراحل الثلاثة التى أمضيناها من رحلتنا ، لم تنته بدون عناء أو تعب ، ولكن بشئ قليل نسبيًا من المخاطرة الشخصية ، وباستثناء المخاطرات الطبيعية نفسها ، التى حدثت لنا فى بعض الأحيان ، والسبب فى ذلك ، أن عبور صحراء الحدود الشمالية الصخرية ، أو عبور النفود الرملية فى ذروة فصل الصيف ، لا يمكن التسليم بأنه يكون خاليًا من الأخطار ، إذ أن العطش فى هذه الأرض الجرداء الخالية من الماء ، كفيل وحده ، وهذا هو ما يحدث فى أغلب الأحيان ، بإفناء وإخفاء أشد الرحالة حبًا للمغامرة ، بل ، إفناء الكثير من البدو ، إذ لا يقل تأثيره عن طعنة بالرمح أو طلقة من بندقية ، ومع ذلك ، إذا كانت الطبيعة حتى الآن ، قاسية على الإنسان ، فنحن ليس لدينا الكثير الذى يجعلنا نشتكى الطبيعة ، فالبدو الذين كانوا على طريق دربنا ، مهما كانوا غلاظًا وغير متحضرين فى حياتهم ، كانوا – مع استثناء واحد فقط – يعاملوننا معاملة طيبة ، إضافة إلى أن الحضر أثبتوا لنا ودَّهم وأكدوا لنا ترحابهم على العكس مما كنا نتوقعه منهم ، وطالما كنا داخل الحدود الرسمية لحكومة بن الرشيد ، وبين رعاياه ، كنا ننعم بنصيبنا من الأمن العام المكفول لعابرى السبيل والسكان وتأمينهم على حياتهم وممتلكاتهم ، وبذلك نكون قد تحررنا من القلق الدائم الذى يدور فى داخل الرحالة السوريين ، الذين لا يستطيعون التخلص منه حتى عندما يكونون على الطريق الرئيسى الذى يربط دمشق بحلب ؛ ولكننا حالفنا النجاح ، بفضل الله ، حتى الآن ، فى دخولنا وخروجنا ، وفى تنكرنا فى زى أطباء ، وفى الأبحاث والموضوعات الخاصة برحلتنا ، والمثل العربى يقول : "الخطاب يُعْرفُ من عنوانه" ؛ وبرغم أن هذا المثل ، شأنه شأن الأمثال كلها ، لا يصدق دائمًا ، سواء فيما يتعلق بسطوع الشمس أو السحاب ، إلا أنه له قيمته فى بعض الأحيان ، وعليه ، مهما كانت توقعات أصدقائنا إلى الأسوأ ، ومهما كانت هواجسهم سوداء فيما يتعلق بنجد

ومواطنيها من الداخل ، فنحن على ثقة أن ماضينا الناجح يبشر إلى حد ما بأمور أفضل في المستقبل .

ونحن لم نعد نخاف بعد أو نخشى المصاعب الطبيعية والمادية التي من قبيل تلك المصاعب التي واجهناها من قبل ، يضاف إلى ذلك ، أن ذروة حرارة الصيف كانت قد مرت ، ودخل فصل جديد من فصول العام الأربعة ؛ علاوة على أن طريق سيرنا أصبح يمر الآن خلال هضبة وسط الجزيرة المرتفعة ، التي صعدنا حافتها الشمالية بالفعل عندما دخلنا جبل شومر ، زد على ذلك ، أننا لم يعد أمامنا ، في المسافة ما بين حائل والرياض ، طريقًا واحداً جرداً ورمليًا ، يمكن أن نقارنه بالنفود في الجوف ؛ وعلى العكس من ذلك ، كان يجب علينا أن نتوقع مراعي ، وزراعة ، وقرى ومنازل ، وهواء جبلي بارد ، وماء كافيًا إن لم يكن وفيراً ، كما أن رفاقنا الآن ليسوا من البدو أو من الأجلاف ، وإنما هم رجال من الحضر والريف ، أعضاء في مجتمعات منظمة ، ومن ثم فهم بشر متحضرون لم يكن برنامج التوقعات هذا ، الذي جمعت جزءاً منه من التقارير والجزء الآخر من التحذير المنطقي المعقول ، مشجعًا فحسب وإنما كان مغريًا ومقنعًا لعقلينا . فقد أوكلنا أمرنا لله ، الذي أوصلنا إلى هنا سالمين ، فيما يتعلق بالمصاعب التي قد تصيبنا من الحكومة الوهابية ومن ضيق الأفق المتزمت ، ودعوناه أن يرعانا وينجينا حتى النهاية ، وعرفنا في الوقت نفسه ، أن طريقنا سوف يستمر مدة خمسة أو ستة أيام داخل حدود الأمير طلال ، وأننا طوال هذه المدة يجب أن نثق بأننا في مأمن من الأخطار ، ورحنا نتأمل العبارة التي تقول : "شرور النهار تكفيه" ، وتركنا الغد يفكر في أشيائه ، وواصلنا رحلتنا وكلنا أمل وانشراح .

وبعد أن انتهت بيننا وبين أصدقائنا في حائل كلمات التوديع ، والنظر إلى الخلف والتلويح بالأيدي وكل التمنيات الطيبة المعتادة ، في مثل هذه المناسبة ، واصلنا مسيرنا عن طريق السهل الذي أشرت إليه من قبل بأنه كان مسرحًا لجولاتنا الصباحية المتكررة ؛ ولكن بدلاً من أن نيمم المسير في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو قيفار K.efar، التي ترتفع بيارات نخيلها وقمم أسطحها على شكل كتلة متمازجة ، يممناه ناحية الشرق ، ودرنا ، رغم طول المسافة ، حول سور حائل الخارجي مدة نصف ساعة ، إلى أن بدأنا مسيرنا في طريق يتجه صوب الجنوب الشرقي ، خلال أرض صخرية ، تتخللها الآبار هنا وهناك ، ومن حول كل بئر مجموعة من البساتين وقليل من المنازل بالقرب من تلك البساتين ، وأخيراً وصلنا إلى ممر ضيق بين صخور لنلقي نظرة من

بعد على ذلك الذى كان داراً لنا ، أو إن شئت فقل شبيهًا مماثلًا للدار ، على امتداد عدة أسابيع .

كان مبارك ودهَيش فقط مرافقينا حتى هذه اللحظة ، كنا قد سبقنا بقية الوفد ، الذين كانت أمتعتهم وأشياءهم تتطلب المزيد من الترتيب ، وعلى كل حال، لن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا ؛ وبناء على ذلك ، وبعد ساعات من اللف والدوران ، ونحن نسير فى طريقنا الملتوى عبر سلاسل الجبال ، توقفنا عند الظهر ، فى سهل صغير ، به بعض الشجيرات ، وجدت فيه جمالنا مرعى ووجدنا نحن فيه ظلاً ، وجلسنا ننتظر زملاء السفر الذين تأخروا .

ويظهر الطاقم ، بعد وقت قصير ، أنه طاقم مؤلف من عناصر متعددة الألوان ، يضم عشرة من أهل القصيم ؛ وبعضًا من مدينة بريده نفسها ، وآخرين من المدن المجاورة لبريده مثل عيون ، والرس والشبيبية ؛ وكان من بين الطاقم رجلان ، قدما نفسيهما ، وأقسما أنهما من أبناء مدينة مكة نفسها ؛ وكان من ضمن طاقم السفر أيضًا ثلاثة من البدو ، اثنان منهما من عشيرة شومر ، والثالث من شمال عنيزه ؛ وكان فى الطاقم أيضًا عبد هارب ، يقتاد ثلاثة من الخيول ، كان مقرراً له أن يعبر عرض الجزيرة العربية كلها ، ثم يشحن هذه الخيول في إحدى السفن من الكويت على الخليج الفارسى ، لبيعها فى الهند ؛ كان ضمن الوفد أيضًا تاجران ، أحدهما من مدينة زلفة فى منطقة سدير والثانى من مدينة الزبير بالقرب من البصرة ؛ وكانت هناك امرأتان ضمن الوفد ، كانتا زوجتين لشخص من أفراد القافلة ، وبعض الأطفال الصغار ؛ وبذلك يصل إجمالى عدد القافلة ، بما فيهم نحن ، حوالى سبعة وعشرون أو ثمانية وعشرون فرداً ، أغلبيتهم يركبون الجمال ، وقليل منهم يركبون خيولاً ، وبصحبتهم بعض الدواب التى تحمل أثقالهم هكذا كان شكل قافلة الحجيج كما لو كانت متجهة إلى كانتربرى Canterbury.

يقول المثل : "البحر يحب الزيادة" ، كان الأمر كذلك بالنسبة لغالبية القافلة ، وذلك باستثناء اثنين فقط يتمثلان فى الشخصين المكيين الرسميين ، محمد وإبراهيم ، حادى الطبع ، دائمى الشكوى ، دائمى التصايح ، ويغتابان بعضهما ، وقالا عن نفسيهما إنهما تاجرا غلال (حبوب) ، أفلسا أيام الغرق الكبير ، الذى اجتاح أو أصاب ثلث المدينة المقدسة فى خريف العام ١٨٦١ الميلادى؛ واعتباراً من ذلك التاريخ ، بدأ هذان التاجران يرتحلان، حسبما قالا، من مكان إلى آخر ، ومن رئيس إلى رئيس ، طلبًا لكرم المؤمنين ، حتى يتمكنا من سداد ديونهما عندما يعودا إلى بلدهما ،

ولكن كلامهما كان مليئًا بكثير من الأشياء غير المحتملة ، ولكن عندما وُجها بذلك ، مثلما يحدث في بعض الأحيان ، بدءا يقصان علينا قصة مختلفة تمامًا ، وربما أكذب من سابقتها ، عن عداء وقتل ، وخلاصة القول إنهما كان شحاذين ودجالين ، وأنهما لا يستحقان ، في ضوء ما عرفناه عنهما ، أن نتكلم عنهما بالتفصيل ، فواحد منهما اسمه محمد ، كان يعمل طباخًا ، وهو من القاهرة ، وإبراهيم راعيًا وكان مفلساً وهو من أبناء غزه أو المنطقة المحيطة بها ، ومع ذلك ، فقد كانا يعرفان مكة معرفة جيدة ، مما جعلهما يتكلمان كثيراً عن هذه المدينة ، وقد تعلمت منهما كثيراً من تفاصيل الحج الغريبة والشعائر المصاحبة له ، هذان الاثنان الفاضلان ، كنا نتسلى بهما ليس فحسب بطول الطريق إلى بريده وإنما إلى أن وصلنا الرياض نفسها ، وأنا استميح القراء أن يأذنوا لي باستباق الأحداث ، حيث انفرد إبراهيم بسرقة أحد أخْرَاجنا ، عند ما رحل عنَّا ، وفي الوقت نفسه ، كانا يزعمان احترام الجميع لهما من منطلق أنهما من العاصمة المحمدية ؛ ولما لم يحصلا على ما يريداه من نجد بكاملها ، بدءًا يعبران عن ضيقهما وتبرمهما ، في شكل شكاوى مريرة ، ولكن دون طائل .

كان البدوى العنزى واسمه غاشى ، شخصية أنيسة ومختلفة عن المكيين ، وبرغم صغر سنه ، فقد تجول في المنطقة كلها ما بين الأناضول واليمن ، وزار مدنًا كثيرة ، وتعرف إلى عديد من الرؤساء والقبائل ، التي كان من بينها - وهذا هو ما أدهشني - بعض القبائل التي كانت تربطني بها علاقات وثيقة أيام أن كنت في سوريا ، وإنه لمن حسن الحظ فعلًا ، أنني لم ألتق مع غاشي قط في خيمة فارس بن هُديب أو هايل بن جندل بين السباع أو السَّعالمه Soa'limah ، وإلا نتج عن ذلك موقفًا حرجًا ، مثل ذلك الموقف الذي حدث مع صديقنا الدمشقي في حائل .

كان تاجر الزبير هو ورفيقه مؤدبين ونكيين ومتكلمين إلى حد ما ، قالا لنا أشياء جديرة بالاعتبار ؛ آراء وحقائق يجب أن ادخلها ، في المواقع المناسبة ، ضمن نسيج هذه القصة .

ومن بين مواطني القصيم نفسها ، كان هناك شخص ، اسمه فُليح Foleyh ، وهو من سكان قرية عيون الكبيرة ، يرتدي ملابس توحي بالثراء ويركب حصانًا ، يعرفه الجميع بأنه أهم شخصيات القافلة ، وهو واحد من أعيان واحدة من الأسر العريقة في المنطقة ، وكان من كبار ملاك الأرض رغم ثرائه المعتاد ، وسوف ننزل ضيوفًا ، على العشاء ، على قرية العيون .

أما بقية القافلة فلم يكن بينهم من يسترعى الانتباه ، أو يستحق التنويه عنه ، إذ كانت غالبيتهم تبدو عليهم ملامح رجال المال والأعمال ، كانوا مشغولين بأعمالهم الزراعية والتجارية الصغيرة ، أو بأحداث رحلة السفر نفسها أى أنهم من الشخصيات اليومية ، التى سرعان ما نعرفها وسرعان ما ننساها أيضاً ، وهنا لابد لى أن استثنى العبد غره Ghorra، مهما كانت الأسباب ، من كل هؤلاء : فهو إفريقى صرف ، شبه منهار ، هارب من سيده فى المدينة ، واستطاع أن يحصل على حماية طلال بن الرشيد له فى حائل ، وأنه أصبح الآن ، لا أعرف إن كان ذلك شرعًا أم لا - مالكًا لحريته ، فقد عهد إليه ، أحد حرفيى شومر الأثرياء ، بأربعة من أحسن الخيول ، ولما كان غره ، سعيداً بحريته الجديدة وشعوره بأنه رجل حر ، وخيّال ، فقد راح يرقص ، ويبتسم ابتسامة عريضة ، ويغنى ، بل وصل إلى أبعد من ذلك ، بأن راح يتحايل على الناس ويروى لهم أكاذيب غاية فى الغرابة لا يصدقها عقل ، الأمر الذى كان يستفز بقية العرب ويستثير غضبهم عليه ، وافترقنا عنه فى بريده ولكننا التقينا مرة ثانية فى الرياض ، التى كان قد سبقنا إليها بعدة أيام قلائل ؛ ولكنه استغل تلك الأيام القلائل استغلالاً طيبًا ، إلى حد أنه أكسب نفسه سمعه الكذاب الأشر فى العاصمة النجدية كلها ، وبلا منازع .

قد يثير هذا الحادث فضول القارئ إلى سماع شئ عن تجارة الخيول التى تدور بين الهند والجزيرة العربية، وأنا أظن أن الفرصة سوف تسنح لى بذلك، بدلاً من الآن ، عندما نصل إلى ساحل البحر الشرقى ؛ ولكنى قد أقول ، من طريق الإيجاز ، أن أكثر من نصف صادرات الجزيرة العربية من الخيول العربية ، إلى بومباى تأتى عن طريق ميناء الكويت البحرى ، وبخاصة بعد ازدياد أهمية تلك المدينة الصغيرة فى السنوات الأخيرة ، والخيول ذاتها تأتى من شمالى الجزيرة العربية ، أو من الصحراء السورية ، وهى خيول عربية أصيلة ، برغم إنها ليست من سلالات نجدية ، ترى ، ما الفرق بين الجواد العربى المعتاد والجواد النجدى ، وإلى أى مدى يتفوق الجواد النجدى على الجواد العربى ، وأين يوجد هذان النوعان من الخيول ؟ وماذا عنهما حاليًا ؟ كل هذه النقاط سوف احتفظ بها إلى أن نصل إلى هذه المخلوقات الأصيلة فى قلب نجد. ولكن الحصان العربى ، الذى موطنه شومر أو عنيزه ، من سلاله راقية ، وكامل الأوصاف ، وكان الجوادان اللذان يقتادهما غُرَّه إلى ميناء الكويت من هذه السلالة .

واصلت هذه القافلة مسيرها ، بين صخور الجرانيت حينا ، وعبر الوديان الخضراء حينا آخر ، إلى ما قبل غروب الشمس ، حيث توقفنا أسفل صخرة عالية عند أقصى الحافة الجنوبية لجبل أجا ع ، أو باللغة الحديثة ، جبل شومر ، كان الجبل فى هذه المنطقة يمتد إلى مسافات بعيدة ناحية اليمين وناحية الشمال ؛ ولكن كان أمامنا وادٍ واسع عرضه حوالي عشرون ميلا ، ينبسط أمامنا ، إلى أن تحيط به من ناحية الجنوب سلسلة جبال سلّمى الطويلة التى يميل لونها إلى الزرقة ، تلك السلسة التى تمتد على شكل خط موازٍ للمرتفعات التى سنرحل عنها الآن ، كما تنتمى التكوين الجيولوجى نفسه ، والكتلة الصخرية التى يطلق عليها اسما شاملًا هو جبال الطائى أو جبال شومر ، وعلى كل حال ، فإن جبل سلّمى ، لا يتساوى مع جبل أجا ع من حيث الطول والارتفاع ، والسبب فى ذلك ، أنه إذا كانت سلسلة جبل أجا ع تعبر ثلثى الجزيرة العربية على شكل خط مستمر، ويصل ارتفاع هذا الخط ، فى بعض الأحيان ، إلى ١٤٠٠ قدم أو ما يقرب من ذلك ، فوق مستوى سطح السهل ، فإن سلسلة جبال سلّمى ليس فيها قمم يزيد ارتفاعها على سبعمائة أو ثمانمائة قدم على أكثر تقدير ؛ زد على ذلك ، أن سلسلة جبال سلّمى تتوقف عند منتصف مسارها ، كى يجتاز الطريق الذى نسير فيه والذى يمكن اعتباره قطرًا أو قطاعًا نصفيًا فى منطقة شومر مرتفعات جبل سلمى فى المنطقة التى تنتهى عندها هذه المرتفعات على الجانب الأيسر ، وبذلك يحيط هذا الطريق بالحواف الشرقية لهذه المرتفعات ، ويؤدى إلى الأراضى التى خلفناها وراءنا ، فى حين نكون نحن قد عبرنا جبل أجا ع من منتصفه .

هنا – بمعنى ، فى هذه المنطقة التى توقفنا فيها لإعداد وجبة المساء ، عند سفح جبل أجا ع – يوجد مصدر للمياه الرائعة ، والذى يطلق عليه السكان بحق اسم العين الثجاجة ، وأحيانًا يسمونها أيضًا النّباجة ، وطلع القمر بدرًا من ناحية الشرق على السهل الكبير مثل بحر واسع ؛ وأشعلنا النار وجهزنا عشاءنا ، كان العشاء بسيطًا للغاية – خبز غير مخمور ، قهوة نُبَلِّله بها – وكانت الزيادات الإضافية عبارة عن بلح مجفف اشتريناه من حائل ؛ إذ لم تكن هناك أية مؤن أخرى تتحمل حرارة النهار أثناء السفر فى ذلك المناخ ، كان الوقت شهر سبتمبر ، ولكن سبتمبر فى الجزيرة العربية ليس هو سبتمبر إنجلترا أو ألمانيا ، برغم أن درجة الحرارة فى هذه الأراضى المرتفعة كانت أبرد من مثيلتها فى الجنوب .

وعقب تناول العشاء والانتهاء من تدخين الغليون مباشرة ركبنا جمالنا وواصلنا المسير ببطئ في ضوء القمر البهيج الذى امتزج بخيوط الفجر ، كان خط سيرنا يعبر الوادى بزاوية قائمة مع طوله ، وبينما كنا نواصل المسير فى ضوء القمر الخادع ، ضاعت منا رؤية الجبال من أمامنا ومن خلفنا ، وصرنا كما لو كنا وسط بحيرة واسعة يميل لونها إلى الابيضاض ، فى حين كانت هناك بقع من اللون الأخضر الداكن ، تكونت بفعل نبات الوزّال والشجيرات الشبيهة ، كما لو كانت جزرا فى الماء ، والتربة هنا خفيفة مختلطة بالرمل ، وهكذا حال التربة فى كل أنحاء القصيم العليا ؛ والتربه هنا خصبه ، ولكنها لا تحتاج إلى الماء الكثير ؛ ولذلك فهى توفر المرعى لكثير من قطعان المواشى والأغنام ، ولكن الرى الموجود لا يفى باحتياجات القرى ، وفى النهاية ، وبعد أن هدّنا التعب ، وغلبنا النعاس ، بنص العبارة العربية ، بدأنا نترنح من فوق جمالنا إلى الأرض ، ورحنا فى ثبات عميق خلال الساعات المنعشة الأخيرة من الليل ومطلع صباح اليوم التالى .

وأمضينا الجزء الأكبر من نهار اليوم التالى فى عبور الجزء المتبقى من ذلك السهل الكبير ، وفى هذا الجزء من السهل ، صادفت خطراً لم يخطر ببالى أو ببال رفيقى ، ولكن رجال القصيم كانوا على أهبة الاستعداد له بحكم خبرتهم واستعدادهم ؛ الواقع ، أن ذلك الخطر كان يتمثل فى تحسبهم لبعض الأحداث التى جعلتهم يواصلون المسير أثناء الليل ويسرعون الخطى فى نهار اليوم التالى .

هذا الوادى ، المساحة التى تفصل جبل سلْمى عن جبل آجا ع ، يبلغ طوله أكثر من عرضه ، ويتجه ناحية الغرب إلى المدينة (المنورة) ، وبذلك يؤدى إلى ممرات الحجاز وإلى طريق الحج العظيم الذى يمر بالقرب من المدينة التى يوجد فيها قبر محمد (ﷺ) ، هذا الجزء من طريق الحج ، الممتد بطول هذه الفتحة ، موبوء ، بل موبوء دومًا أكثر من أى جزء آخر من الطريق ، بالبدو السلاّبين النهّابين ، الذين ينتمون إلى قبيلة حرب بصفة أساسية ، وكانوا يستوقفون قوافل الحج كلها ، فى تحد سافر للحرس التركى الذى كان يرافق تلك القوافل ، والذين عجزت الحكومة العثمانية عن إخمادهم وكسر شوكتهم ؛ زد على ذلك ، أن شعاب الحجاز التى تشكل ملاذاً لهؤلاء اللصوص هى التى تجعلهم فى مأمن من الحكومات العربية المركزية ، التى كان البدو يخشونها ويعملون لها ألف حساب وحساب أكثر من طعنات القسطنطينية .

هؤلاء السلابين والنهابين من قبيلة حرب ، لم يكتفوا بالغنائم والسرقات التى كانوا يستولون عليها فى الحجاز ، وراحوا يهاجمون القوافل ، فى هذا الوادى الذى نعبره الآن ، وهذا يتطلب من الأمير طلال كل اليقظة والحرص ، كى يمنعهم من السيطرة على الطرق الداخلية ، بصورة دائمة ، مما يؤدى إلى عدم انتظام الاتصالات بين مملكته ونجد .

وراحت قافلتنا ، التى كانت تخشى الاصطدام بواحدة من تلك العصابات ، تسرع الخطى ، وقد ثبت أن تحفظهم كان على حق ، ففى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، شاهدنا ناحية الغرب واحدة من تلك العصابات البدوية قادمة من ناحية المدينة ، وبينما كانت تلك العصابة على مسافة بعيدة ، وتتخفى بين شجيرات الوادى وأشجار السنط ، لم نستطع تحديد عددها الحقيقى ؛ ولكن يبدو أن العدد كان كافياً لأن يجعلنا نتمنى ، مثل أورلاندو Orlando ، "ليتنا كنا غرباء" ، كنا فى جانبنا ، معنا خمسة عشرة بندقية من بنادق الفتيل ، بالإضافة إلى القليل من الرماح والسيوف ، وبدأ البدو يلاحظوننا بالفعل ، وواصلوا الاقتراب منا ، برغم أسلوبهم المفكك وغير المباشر الذى يلجأون إليه عندما يكونون فى شك من أمر قوة الخصم ؛ وهاهم يقتربون منا أكثر فأكثر مما يؤلمنا ويضايقنا .

إن أربعة عشر من الحضر يغلبوا ضعفهم من البدو ، ولا يتبقى أمامنا سوى أن نتشجع ونمضى فيما نحن مقبلين عليه ، وهنا قام فليح ، رئيس قرية العيون ، هو واثنان من مواطنيه ، ومعهم غاشى يحشو بنادقهم بالبارود ، وانطلقوا بأقصى سرعة ممكنة ، لمهاجمة العدو الذى يتقدم ناحيتنا ، رافعين بنادقهم فوق رءوسهم ، وتبدو عليهم الشراسة والوحشية ، وتحت غطاء هذه المناورة ، قام بقية أعضاء القافلة بتجهيز أسلحتهم ، وتلى ذلك مشهد بهيج ، فهذا واحد ضاع منه فتيلة ، وهاهو يبحث عنه بين حاجياته ، وذاك واحد آخر وضع الطلقة فى منتصف المسافة بدلاً من أن يضعها فى المكان المخصص ، وترتب على ذلك أن انحشرت الطلقة فى ماسورة البندقية وترتب على ذلك ، عدم قدرته على سحبها للخلف أو دفعها للإمام ؛ وذاك ترباس بندقية شخص ثالث ، يعلوه الصدأ وبالتالى لا يؤدى وظيفته ؛ وبدأت النساء تنتحبن ألمًا ؛ وحاول المكيّان ، اللذان كان يركبان جملاً واحداً ، من باب الاقتصاد ، الأمر الذى تسبب فى كثير من الشجار فيما بينهما ، حاولا أن يهربا بجملهما ، ويتركان بقية القافلة تلقى

مصيرها ، ولكن الدابة التى كانت أشجع منهما ، عافت أسباب جبنهما ، وقررت البقاء مع بقية القافلة لتشاركها مصيرها ، الواقع أن كل شئ كان عربيًا تمامًا ، كلام كثير وفعل قليل ، ولو قدر للخدعة التهديدية ، التى قام بها الرجال الأربعة لحماية مؤخرتنا ، أن تفشل ، فلربما وقعنا فى ورطة سيئة تمامًا ، وقد سيطر هذا الشعور على الجميع وجعلهم ينظرون إلى الخلف نظرة متحفظة ، ولكن العناية الإلهية كلأتنا برعايتها وحفظها ، إذا أخافت شجاعة كل من فليح Foleyh ورفاقه ، العصابة ، فتبعثرت وبدأت معركة انسحابية ، تم فيها تبادل إطلاق بعض الأعيرة النارية التى لم تصب أحداً من الجانبين ، إلى أن اختفى مهاجمونا تمامًا فى الوادى البعيد .

ويعود أبطالنا الشجعان بعد أن طاردوا العدو ، فخورين بانتصارهم ، وواصلنا مسيرنا ، بمحاذاة آخر نتوء صخرى فى جبل سلْمى ، بالقرب من المكان الذى – يقال – دفن فيه حاتم الطائى ، النموذج الشهير ، الأسطورى والتاريخى ، للضيافة والكرم العربى المبالغ فيه ، والقارئ ربما يعرف الجزء الأكبر من الطُّرف التى تروى عن ذلك الرئيس العربى الشهير ، ولذلك سوف أحذف كل هذه الطرف باستثناء طرفه واحدة ، مهما كانت غرابتها ، تحاشيًا لتكرار الشئ مرتين ، ذاع صيت حاتم الطائى وشهرته حوالى مائة عام تقريبًا أو ما يقل عن ذلك قليلاً ، قبل البعثة المحمدية ، وإذا صحت الأشعار التى تعزى إليه ، فذلك يعنى أنه قد اكتسب فضائل الشعر إلى جانب فضائل كرمه وجوده ، ومسألة إن كان حاتم الطائى من الفرع المسيحى من تلك القبيلة العظيمة التى أخذ منها اسم العائلة ، مسألة غير مؤكدة ، برغم أن سجلات معاملاته الودية مع حكام سورية الإغريق أو أشباه الإغريق ربما تنطوى على تماثل فى الدين بين حاتم الطائى وبين هؤلاء الحكام ، ومؤرخوا البعثة المحمدية الذين نأخذ عنهم وحدهم تاريخ حاتم الطائى ، يطلقون ، فى معظم الأحيان ، اسم "الجُهَّال" على كل سكان الجزيرة العربية الذين عاشوا فيها قبل بعثة محمد (ﷺ) بغض النظر عن عقيدتهم : وهم يميزون ، فى بعض الأحيان ، بين المسيحيين والوثنيين ، ولكن ذلك ليس أمراً شائعًا ، اللهم باستثناء أن كان هناك سبب لذلك ، وينبغى أن أضيف هنا ، أن مسيحية الجزيرة العربية ، فى تلك الأيام ، ربما كانت أقل تميزاً فى مظاهرها الخارجية والرمزية عن تلك المسيحية التى كانت سائدة فى كل من اليونان أو روما ، وميل العرب إلى الاستخفاف أو إلغاء كل ما يدخل تحت عنوان الاحتفال والتسميات لا يقل عن ميلهم إلى معارضتهم للأعراق الغربية فى الإكثار من دقائق الشكليات ، وإفراطهم فى

الاهتمام بهذه الشكليات ، وترتيبًا على ذلك ، فإن الوهابيين العرب أنفسهم ، وبرغم تحمسهم للإسلام فى مجالات أخرى ، ودونا عن سائر المسلمين الآخرين ، هم أكثر الناس إغفالا للدقة المطلوبة فى طرق الأعمال الدينية ؛ وأنا ، بنفسى ، شاهدت أشياء كثيرة من هذا القبيل بين المسيحيين الذين من أصل عربى ، الذين يعيشون فى المناطق التى تقع إلى الشرق من كل من دمشق والأردن ، برغم أن كلا من دمشق والأردن ، قد يكونا متأثرين بالنزعة الشائعة بين كل الملل المضطهدة فى الليفانت Levant – الأنصاريين ، اليزيديين ، الإسماعيليين وأخوانهم ، والتى ترمى إلى جعل شكل حياتها الخارجى يتوافق مع الإسلام السائد فى هذه المنطقة ، لتدرأ عن نفسها التلصص والمراقبة الوخيمة ، مثلما يُضَلِّلُ كلب البحر الأبيض ermine وسط الثلوج . ويترتب على ذلك ، أن من ينظر إلى هؤلاء المسيحيين نظرة خاطفة أو سطحية ، يفشل فى معظم الأحيان ، فى تمييز أولئك المسيحيين عن أتباع محمد (المسلمين) الذين يعيشون معهم فى المنطقة نفسها ؛ كما أن تحوطاتهم ، لا تؤخذ عليهم فى الأوضاع الراهنة فى هذه البلاد . ولكن يكفينا أننا لسنا هنا موضوعًا من الموضوعات المتشعبة ، التى لا تحتاج دراستها المتأنية إلى مجرد فقرة ، أو فصل من كتاب وإنما مجلدًا كاملاً ، وهيا بنا الآن ، نعود إلى طريقنا عبر جبل سَلْمى وإلى قبر حاتم الطائى .

كنت أتمنى هنا أن أطبق التجربة التى أجراها عكرمة ، رئيس اليمن منذ زمن بعيد ، والسبب فى ذلك ، أن هذا الرئيس ، إن صحت أقوال المؤرخين العرب ، الذين يصدقون فى بعض الأحيان ، ولا يصدقون فى البعض الآخر ، زار المنطقة التى نحن فيها الآن متخذًا نفس المسار وسالكا الطريق نفسه ، الذى نسلكه الآن ؛ ولكنه كان قادمًا من الاتجاه العكسى ، أعنى قادمًا من اليمن فى اتجاه الشمال ، وذلك بعد سنوات قليلة من وفاة حاتم الطائى ، وعندما مر عكرمة بركام الصخر الذى يعين قبر حاتم (لم يتبق شيئًا من هذا الركام الآن) ، قال لمرافقيه مازحًا : "يروى الناس عن حاتم، عندما كان على قيد الحياة ، أنه لم يرد سائلًا قط ، وهانحن الآن ، بجوار قبره ، وقد انتهت مؤننا ، وليست هناك أية قرية قريبة منا ؛ دعونا ، ننتظر إن كان سيفعل لنا شيئًا بعد مماته" ، ثم توقف عكرمة بعد ذلك، وصاح صيحة ساخرة مناديًا : "يا حاتم ، هانحن نقف على بابك ، أنا عكرمة ، رئيس اليمن ، ومعى أتباعى ، وكلنا جوعانين ومرهقين ، فهل لك أن تفعل لنا شيئًا" ، ثم استدار عكرمة إلى رجاله وقال : "أخشى أن

يكون حاتم قد تحول ، إلى بخيل ، في العالم الآخر ، ولذلك يتعين علينا أن ندبر أمورنا بأنفسنا" . وبعد ذلك ، نزلت القافلة ، عن دوابها بالقرب من ركام قبر حاتم وعسكرت بلا عشاء في مساء ذلك اليوم ، ولكن مع حلول ساعات الليل الأولى ، نهض عكرمة من نومه مذعوراً ، وأيقظ أقرب المرافقين له قائلاً : "أشهر سيفك وتعال معي ، لأني أحس أن شيئًا ما يجري هنا ، لقد ظهر حاتم الطائي لي ثلاث مرات ، في الحلم ، وبيده سيف مشهور يقطر دماً ، ثم قال لي : "يا عكرمة اليمن ، ستكون أنت ورجالك ضيوفًا عليَّ ، هذه الليلة ، هيا ، أسرع ، وتفقد ناقتك ، فقد أصبتها في مقتل ، ثم اختفى بعد ذلك . هيا معي ، لنرى ماذا حدث"؟

ذهب عكرمة وخادمه إلى مسافة قريبة ، حيث تبرك الجمال ، وراحوا يتفقدون أفضل ما فيها ، وهي بالطبع الناقة التي كان يركبها عكرمة ، ووجدوها تعاني سكرات الموت ، وأراحوها (ذبحوها) من آلامها بأن قطع زورها ، ولما أصبح لديهم ما يكفي ويزيد على حاجتهم من اللحم ، ولكن من غير الطريق الذي كانوا يريدونه ، أيقظا بقية القافلة ، وشبوا نارهم ، وأمضوا بقية الليل في إعداد وليمة طيبة من لحم الجمل ، وهذه عادة من عادات العرب .

وفي صباح اليوم التالي ، ونظراً لعدم وجود دابة يركبها عكرمة ، واضطراره إلى أن يركب دابة أحد أفراد حاشيته ، الذي أركبه وراءه على المِذْيله ، وبعد أن همت القافلة إلى التحرك رويداً رويداً في اتجاه الشمال قال عكرمة : "إنه لعمل مؤسف ؛ كان من الأفضل أن نترك حاتم لحاله، وهل يأتي من نجد شئ مطلقًا سوى الشر ؟" ، وهنا ، ظهرت فجأة قافلة صغيرة، تتحرك بسرعة في اتجاههم ، من داخل الوادي ، لمقابلتهم ، وكان من بين هذه القافلة رجل تدل ثيابه على أنه رئيس هذه القافلة الصغيرة ، ويركب جواد جميلًا ، ويقتاد إلى جواره ناقة جميلة جداً ، أجمل بكثير من تلك التي اضطر عكرمة إلى ذبحها في الليلة السابقة ، وعندما التقت القافلتان ، بعد السلام المعتاد ، قال الخيَّال الصغير : "هل تعلم ، أنني ولد حاتم الطائي ووريثه الشرعي ، الذي توقفت عند قبره الليلة الماضية ، في الليلة الماضية ، وأثناء نومي ، زارني والدي في الحلم ، وقال : "يا ولدي ، لقد وصل عكرمة رئيس اليمن ومعه حاشيته إلى داري ، وطمعوا في كرمي، ولكن لم يكن لدي شيئاً من الطعام الدنيوي لأقدمه لهم ، ولذلك أجبرت عكرمة ،

على ذبح ناقته الخاصة ، وأن يتخذ من لحمها عشاء لقافلته ، بدلاً من ذلك الذى كان ينبغى أن أقدمه لهم ، ولو كانت لدى الوسيلة آنئذ مثلما لدى الإرادة ، فهل ، تقوم بناء على ذلك ؟ وعلى وجه السرعة ، بأن تأخذ أفضل ناقة لديك ، وتركب جوادك ، الذى كان جوادى فى يوم من الأيام ، وتذهب للقاء قافلة اليمن ؛ وتعطى عكرمة الناقة بدلاً ، من الناقة التى ذبحها ، خشية أن يكون قد تكلف ثمن عشائه ، وأن تضيف إلى الهدية الجواد التى تركبه ، خشية أن يظن أن حاتماً كان أقل كرمًا فى مماته عن حياته" .
وبعد أن قص ولد حاتم الطائى هذه الرواية على عكرمة ، نفذ وصايا والده ، وأركب عكرمة على الجواد ، وسار أمامه ، ممسكًا بسرع الجواد إلى أن وصلوا جبل شومر ، الذى أصر على بقائهم فيه عدة أيام ضيوفًا فى دار والده .

ربما كنا أقل حظًا من عكرمة ، وبرغم أن كل أفراد القافلة يعرفون هذه الحكاية التى تتكرر مراراً، لم يحاول أحد منهم أن يختبر كرم حاتم الطائى وضيافته بعد مماته، وعليه ، تجاوزنا التلال الخفيضة ، دون توقف ، تلك التلال ، التى تشكل ، فى هذه المنطقة ، امتداداً لجبل سلّمى ، وتحد الوادى من الخارج ؛ وهنا اكتست أمام ناظرينا ، بلون الذهب ، آخر أشعة شمس الغروب ، فى قاع الوادى الرملى ، الذى يبعد مسافة قصيرة عن بيارات النخيل فى قرية فيض Feyd .

هذه القرية أو المَدِينة العريقة ، التى ورد ذكرها عند الحريرى فى القرن السادس الهجرى ، الموافق للقرن الثانى عشر الميلادى ، تقع على واحد من الطرق المؤدية من الكوفة أو مشهد على إلى المدينة (المنورة) مباشرة ، وهى الآن خاضعة لحكم الأمير طلال بن الرشيد ، ويجرى اختيار رئيسها المحلى من بين مواطنيها ، لأن الاختيار بهذه الطريقة مبدأ عام فى حكم الأمير طلال ، إذ يندر ولأسباب خاصة جداً ، أن يعين الأمير طلال أحداً من العاصمة أو المنطقة المركزية ويطلق له حرية التصرف فى المدن أو القرى البعيدة ، وهنا تختلف خطة الأمير طلال عن خطة الأمير الوهابى ، الذى وقفنا على شئ من ميوله المركزية ، التى تتجلى بصفة رئيسية ، فى تعيين مرؤسيه وممثليه ، فى تاريخ القصيم ، بل إننا سنعرف الكثير عن ذلك فيما بعد ، ولكن الأمير طلال ، يشجع الإقليمية على حساب المركزية ، فى الأماكن التى يستطيع أن يفعل فيها ذلك وهو آمن ؛ وهذه هى أفضل الطرق لدى جميع الأطراف ، سواء أكانت حاكمة أم محكومة ، هذا برغم أن كثيراً من الحكومات ، فى الشرق ، تنتهج أسلوبًا مناقضــاً

لهـذا الأسلوب تمامًـا ، وبذلك يمكن القـول أننا نجـد من يقلدون الأوربيـين فى بـعض الأحيـان .

وبرغم كل ذلك ، فإن كل قاعدة لها شـواذ واسـتـثناءات ، بمعنى أن الرجوع إلى السلطة المركزية يصبح ، فى بعض الأحيان، أمرًا لا محيص عنه ، وتأسيسًا على ذلك ، فإن الجزيرة العربية تعرف مـا يسمى بالمفوضين فـوق العادة ، وقد صـادفنا بـالفعل واحدًا من هؤلاء المفوضين ، فقد وقعت بعض المصـادمات بين الأهالى فى قرية فيض ، وعجـز حاكمـها المحلى عن اسـتعـادة السلام والنظام فى القرية ، وترتب على ذلك أن أُرْسِلَ أحد الموظفين الملكيين ليتولى الأمر برمتـه ، ومن ثم ، ففى لحظة دخولنا قرية فيض ، وكان ذلك بعد غروب الشمس بقليل ، شـاهدنا مـجموعة من السكان تقف فى مكان واسع بالقرب من جدران المسـاكن ، مما يدل على وجـود مُفَوَّض الأمـير طلال ، الذى كان يعقد محكمته فى ذلك المكان .

وفى البلد التى يكون من حق المواطن أن يدافع هو بنفـسـه ، عن نفـسـه أمـام القضـاء ، والتى يكون تشكيل هيئة المحكمة فيها بسيطًا وغير معقد وأقل عددًا من مثيلتها فى المحاكم الإنجليزية، يصبح الحكم فى القضايا الجنائية أمرًا سريعًا وعاجلاً. ورئيس المحكمـة هنا ، هو قـاضى القرية ، وهـو شـخـصـيـة توجـد أيضًـا فى أصـغـر المجتمعات العربية ، ومعه اثنان أو ثلاثة من أعيان المواطنين أو كبارهم ، يقومون بدور المحلفين ، برغم أن أحكامهم هى أحكام أخلاقية فى المقام الأول وليست أحكامًا قانونية بحتة . ومنصب محـامى الملك ، يمثله القـاضى ، ويتمثل الدفـاع فى المتـهم ، وعلى كل حال ، فقد يقوم المدعى ، بتقديم الدعوى هو بنفسه ، وذلك عندمـا يكون الإدعاء مميزًا من السلطة العليـا نفسـهـا ، ويتمـثل ذلك فى قـضـايا القـتل الخـاص ومـا فى حكمـها . وينبغى أن أضيف هنا أن لقب "قاض" فى الجزيرة العربية لا يتساوى مطلقًا مع نظيره عند الإنجليز ، وأن لقب "قاضـى" العربى يتضمن مركزًا استشاريًا أكثر منه قضائيًا ، برغم أن العكس هـو القـاعدة فى بلاد الشـرق الأخـرى كلهـا ، وقـد اغـتنمنا فـرصـة حضـورنا ، لنشاهد ونسمع الحكم الذى صدر ضد واحد من المتهمين المجرمين فى قرية فيض ، كما شـاهدنا تنفيذ الحكم عقب صدوره مباشرة ؛ كان الحكم مساويًا تمامًـا ، لذلك العقاب الذى ينزله ناظر المدرسـة ، فى جزيرتنا المحافظة ، بأى تلميذ من التلاميذ

الذين يخرجون عن حدود النظام ؛ بل إن المتهم كان يصرخ بصوت أعلى بكثير من الطريقة الهيِّنة اللَّيِّنة التى كان الحكم ينفذ بها .

ومن العدل أن أقرر هنا أن العدل العربى فى القضايا الكبرى ، بل فى المسائل الخطيرة كلها ، له سطوته وصرامته ، والشهود يجرى استدعاؤهم وتحليفهم اليمين ، وقد تستمر المحاكمة عدة أيام ، كما أن حق الاستئناف مكفول ، للمتهم ، لمن يطلبه ، بدءاً من المحاكم الجزئية إلى أعلى المحاكم بل إلى الملك نفسه ، بل أن تنفيذ الحكم ، بعد صدور الحكم النهائى ، يؤجل مدة أربع وعشرين ساعة ، بل قد يؤجل أحياناً أسابيع وشهور إلى أن تصل الأمور إلى حد العفو الكامل ، أو تخفيف العقوبة ولا يستطيع معظم الحكام المطلقين فى الجزيرة العربية الخروج ، بحكم الحصانة ، على القيود التى تقيد بحكم الإحساس بالمسئولية وبدافع إنسانى ، المحاكمات المتسرعة ، أو التى تخاطر بالحكم بالإعدام على متهم فى وقت السلم ، لمجرد أن ذلك إنما يكون على مسئولية المحكمة ، أو المحاكمات التى تجرى بدون اتباع الإجراءات القانونية المنصوص عليها ، وهنا تجدر الإشارة إلى التشابه الكبير بين العدالة العربية والعدالة الأوربية فى نزاهتهما ونقائهما .

وقفنا بالقرب من بوابة القرية ، ولكن كان من رأى مبارك ، وكان محقًا ومنطقيًا فيما قال ، أننا وسط أناس تستحوذ الصراعات والمحاكمات على كل تفكيرهم ، قد نحصل على عشاء هزيل ومتواضع ، إن ابتغيناه فى أكواخ قرية فيض نفسها . وتصادف أن بعضًا من بدو الصليبة كانوا يضربون خيامهم على مسافة بضع دقائق قليلة من قرية فيض ، ووجهنا إبلنا ناحيتهم ، وشببنا النار ، وبعد مقدمة موجزه ، شاهدنا عموداً باهتًا من الدخان يتصاعد من وراء الخيمة وهذه الإشارة فى أرض من هذا القبيل تدل بكل تأكيد على الانشغال فى عمليات طهى الطعام .

وقرية فيض يمكن اعتبارها مثالاً جيداً للقرى التى مررنا بها فى الشمال أو فى القصيم العليا ، والسبب فى ذلك أن هذه القرى كلها تتشابه فى خصائصها الرئيسية ، برغم اختلافها من حيث الحجم ، تخيل تله رملية صغيرة يصل ارتفاعها إلى حوالى ستين أو سبعين قدمًا وسط واد واسع مُغْبر ؛ وأن جزءًا من هذه الربوه وسفح الوادى المجاور لها تغطية المنازل المنخفضة المصنوعة من اللبن ، والمتمازجة مع مجموعات من أشجار الأثل التى تشبه ريش الطيور ، والأرض المجاورة لهذه المنازل مقسمة بأسوار من الحجر إلى حدائق خضراء ، ينمو فيها القرع ، والبطيخ ، والنباتات البقلية ،

كما ينمو الذرة أيضًا إلى جانب هذه النباتات ، بفضل الرى الصناعى من الآبار الموجودة بين هذه الحدائق الخضراء ؛ والنخل وفير فى هذه القرى ، وقد كان محملًا بثمار لونها أحمر قانٍ ؛ وتكتمل السمات المميزة لهذه القرى بوجود بعض أشجار الخوخ أو المشمش . والجدران الخارجية منخفضة ، وتستخدم لحماية الحدائق أكثر منها للسكنى ؛ وفى هذه القرى لا توجد أبراج أو خنادق ، كما أن كثيراً من الأماكن لا يوجد فيها قلعة رئيسية أو مبنى مميزًا لسكنى الرئيس ، ومسكن الرئيس مثل مسكن المجاوريين له ، عبارة عن منزل من طابق واحد ، مع استثناء واحد فقط ، هو أنه أكبر قليلاً من المنازل المجاورة له ، وبعض هذه المدينات حديثة العهد تماماً ، ويرجع تاريخها إلى تَوَحُّد الشومر ، الذى أعطى هذه المنطقة درجة من الهدوء والازدهار لم تشهدها فى ظل الحكام الوهابيين السابقين .

لم يكن عشاؤنا من النوع الفاخر ، نظراً لأن الصليبة بدو فقراء ، ولكن الكمية كانت كافية ووفيرة ، ولذلك جاءت مناسبة لنا ، بعد مسير طويل دام يومين وليلة واحدة لم نتوقف أو نرتاح خلاله ، وانتهزت الفرصة بسعادة بالغة وحاولت أن اكتشف شيئًا من مفاهيم مضيفينا وممارساتهم الحقيقية ، هؤلاء البدو المترحلين غير المختتنين ، هم بمثابة السجل الأخير الذى يشهد على المسيحية السورية أو المسيحية العربية ، ولكن هؤلاء البدو بلغوا من التحفظ حداً لم يعطونى معه أى دليل آخر غير الإشارات السلبية إلى عاداتهم وتقاليدهم وطريقة تفكيرهم ، يضاف إلى ذلك أننى كنت قد بلغت من التعب والنعاس حداً يصعب على عندهما أن أواصل عملية البحث والتقصى .

وفى صباح اليوم التالى ، الموافق اليوم العاشر من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، استيقظنا جميعاً والقمر لا يزال فى السماء ، أى قبل طلوع الفجر بساعتين أو ثلاثة ، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الجنوب الشرقى ، كانت طبيعية كل الأماكن التى سوف نمر بها طوال الأيام الأربعة القادمة واحدة ، بشكل يعفينى من الإسهاب فى وصفها ، ويجعلنى أصف منظر الأرض الطبيعى ببضع كلمات ، فى هذه المرحلة من رحلتنا .

القصيم الأعلى عبارة عن هضبة مرتفعة أو إن شئت فقل سهبًا[١] وهو يشكل جزءًا من حزام أرضى مرتفع ، يعبر الجزء الشمالى من شبه الجزيرة العربية على

(١) السهب : سهل واسع خال من الأشجار ، (المترجم) .

شكل خط مائل ؛ ويصل أحد طرفى هذا الخط المائل إلى المنطقة المجاورة لكل من الزبير وشط (العرب) ، فى حين يصل الطرف الآخر إلى الأسفل ليصل إلى المنطقة المجاورة المدينة المنورة ، وسطح القصيم الأعلى ، بشكل عام ، تكسوه الأعشاب فى فصلى الربيع والصيف ، وتوجد فيه الشجيرات ، وأشجار الأراك على مدار العام ، وبذلك يشكل مرعى ممتاز للأغنام والإبل ، وتهب على القصيم الأعلى الرياح الشرقية المنعشة ، التى تشتهر فى الشعر العربى باسم "صبا نجد" أو "نسيم نجد" (تهب هذه الريح من الركن المواجه للريح الغربية التى تهب على كل من بلاد الإغريق وروما) ، والشعراء المتأملون يناشدون ذلك النسيم أن يأتيهم بأخبار الحبيبات الخياليات أو الذكريات المفرحة ، ولا عجب أن يكون معظم هؤلاء الشعراء أنفسهم من أبناء أرض الحجاز الجرداء، أو من أبناء تهامة ذات الحرارة الحارقة، بل من أبناء مصر وسوريا ، لا يعرفون إلا القليل عن وسط الجزيرة العربية ، وباستثناء ما شاهدوه على طريق الحج الموحش المؤدى إلى مكة ، من الطبيعى أن يتذكروا ويسجلوا ويشتاقوا إلى تلك الومضات السريعة التى سنحت لهم الفرصة بها فى الأراضى العالية الخصبة ذات النسيم العليل ، فى وسط الجزيرة العربية ، والتى يطلق عليها السكان ، بشكل عام ، اسم نجد ، وبمناخها المنعش ، الذى يبعث فى السكان النشاط والحيوية ، وبأهلها الكرماء المضيافين وبناتها الجميلات .

ولكن عندما وما أكثر ذلك – تختلط روائح النباتات العطرة مثل : الرند والخزامة ، والطهجام وكثير من النباتات العطرية الأخرى ، بنسيم الصباح العليل وتزيد من تأثيره المنعش ، هنا فقط يلتمس الإنسان الأعذار لاهتياج أوفيد العرب أو ثيوكريتس Theocritus العرب ، ويستطعم – مثلما أفعل أنا فى معظم الأحيان حنين أولئك الشعراء إلى نجد ، وكل الثناء والمرح الذى يغدقونه عليها :

« وهنا قلت لرفيقى ، بينما تُسْرِعُ الإبل الخطى
لتحملنا عبر الطريق بين منيفه ودماى[1]
"تمتع قدر ما استطعت بنسيم مروج نجد :
فلن تلقى مثل هذه المروج وهذا الجمال بعد هذا المساء
آه ، بارك الله نسيم نجد المعطر

(١) منيفه ودماى : تلان على حدود القصيم فى اتجاه المدينة .

وبارك الله خضراتها وبياراتها التى تتلألأ بفعل أمطار الربيع ،
وأصدقاءك الأعزاء ، عندما ساقك قدرك إلى نجد
قليل ذلك الذى تشكو منه ، والذى سببته لك الأيام ؛
وانصرمت الشهور ، انصرمت دون أن نلاحظها ،
لا عندما تكون أقمارها أهلّة ، ولا عندما تكون محاقًا » .

هذا شاعر يندم على الرحيل ، وذاك شاعرًا آخر ، ملتاع بسبب بعده عن الأحبة يقول :

آه ! يا صبا نجد ، عندما تهب عليلاً من نجد ،
هفهفاتك تزيدنى حبًا على حب ، وأسفا على أسف ،
وعندما تنوح اليمامة فى الصباح المشرق الوضّاء
من عشها الورقى فوق حشائش الزعتر المتشابكة ،
بكيت بكاء طفل ، ولم أعد أتحمل البكاء أكثر من ذلك ،
وكشف قلبى لقلبى سره الدفين .
ومع ذلك ، فهم يقولون ان الحبيبة عندما تقترب
فإن الحب يُتخَم ، وأن البعد ، أيضًا ، يجلب النسيان .
خبرت البعد والقرب ، ولم استفد منهما شيئًا ،
إلا إذا كانت ديار الحبيبة قريبة ، وليست بعيدة ؛
إلا إذا كانت ديار الحبيبة تعطينى شيئًا من العزاء
إلا إذا كانت الحبيبة تبادلنى حبًا بحب » .

ولكنى ، أظن ، أن هذه الأبيات كافية لأن تستثير فى القارئ شيئًا من المشاعر والأحاسيس ، التى دارت بخاطرى أنا واثنين أو ثلاثة آخرين من القافلة يتمتعون بالحس الذهنى المرهف عن سائر بقية أفراد القافلة ، عندما "حَزِنَّا حزن الليل توقا إلى المتعة"، ونحن نتغنى بأبيات الشعر العربى ، بينما كان صبا نجد يهب على نجد العليا ، وهيا بنا نتطرق إلى خصائص هذه المنطقة .

وفي بعض المواقع ، ينخفض السهل مسافة عدة أميال متحولاً بذلك إلى حوض غير منتظم ، تصب فيه المجارى المائية ويتجمع فيه الماء خلال موسم الأمطار ، الذى يخلف وراءه بركًا لا تكون جافة تمامًا حتى فى فصل الخريف ، وهنا تحمل التربة الطميية محصولاً طيبًا من الأدغال ، التى تتخللها بعض الأشجار من حين لآخر ، وبخاصة أشجار الطلح والنبأ ، وكذلك شجر السِّدر ، فى بعض الأحيان ، وشجرة النَّبأ مثل الطلح عبارة عن شجرة كبيرة مستديرة مجموعها الخضرى الورقى قليل ، وثمرتها صغيرة جافة من فصيلة التوت ، وأغصانها واسعة الانتشار وتنتشر فيها الأشواك ؛ والشجرة الثانية ، النَّبأ ، هى من قبيل الشجيرات ، من حيث النمو ، برغم أن سيقانها قد تصل إلى ارتفاع لا بأس به ، وورقة السدر صغيرة جداً ، بيضوية الشكل ، ولونها أخضر فاقع ، أما شجرة السِّدر فهى عبارة عن شجرة جميلة من فصيلة السَّنط . وهذه الأشجار توجد أيضًا ، ولكن بصورة نادرة ، فى الأراضى المرتفعة ، وبخاصة شجرة الطلح . ولكن أشجار الإثل ، وهى من الفصيلة الصنوبرية ، تكثر فى الجزيرة العربية ، برغم أنها لا تنمو فى أى مكان آخر ، حسب اعتقادى ، وأشجار الغاطة تجود فى المنحدرات والمنخفضات الرملية .

وتمر بطول هذه الهضبة ، من أقصاها إلى أقصاها ، وديان طويلة واسعة تربتها خليط من التربة الخفيفة ، والجيرية والرملية ، تشطر هذه الهضبة بزاوية حادة ، والماء موجود ، بصفة دائمة ، فى هذه الخنادق الطبيعية ، وليس بالضرورة أن يكون عند السطح ، ولكنه يمكن الحصول عليه ، من خلال حفر الآبار ، فى أى مكان من هذه المنطقة ، بجوار أى من التلال المخروطية ، التى تبدو كأنها مؤشرات تدل الرَّحَّال على مواقع الحفر بحثًا عن مصدر الخصوبة والنماء .

هذا التقابل بين التلال الصغيرة المستديرة وينابيع الماء يتكرر على نحو كبير يصعب معه اعتبار هذا الأمر مسألة عشوائية ، ومع ذلك فأنا لا أفهم الأسباب الحقيقية لذلك ، والتلال الصغيرة التى أتكلم عنها هنا ، تبلغ من الصغر حداً يصعب عنده اعتبار هذه التلال مستودعات للرطوبة نظراً لأن مصادر الرطوبة القريبة منها ، منخفضة إلى الحد الذى لا تصلح عنده أن تكون ، مثل الجبال ، فى جذب السحب والضباب إليها ، إن هذه التلال مجرد دلائل على وجود الماء ، ليس إلا ، ومن المؤكد أن هذه التلال ليست من صنع الفن ؛ وبرغم أن الإنسان قد شاهد ، وهذا أمر نادر بطبيعة الحال ، بئراً دون

أن يكون جانبها تل من هذه التلال أو شكلًا من هذه الأشكال ، فأنا لا أذكر مطلقًا أنني صادفت تلاً من هذه التلال المنعزلة، دون أن يكون عند سفحه مصدر من مصادر المياه، زد على ذلك ، أن ذلك الاستثناء القريب ، من الاستثناءات الطبيعية ، لا يقتصر على وسط الجزيرة العربية ؛ إذ نصادف شيئًا من هذا القبيل ، في كثير من الأحيان ، في أحد السهول الموجودة بين سوريا ولبنان ، كما نجده أيضاً في بلاد أخرى غير لبنان ، كما نصادفه بكثرة أيضاً في الأراضي الصحراوية أو الأراضي المتصحرة التي تقع في شرقي دمشق وشمالها ، وبخاصة أن هناك نوعًا من التشابه الطبوغرافي بين هذه المنطقة والمنطقة المماثلة في الجزيرة العربية نفسها ، والجيولوجيون ، ربما يكونوا أقدر الناس على تفسير هذه الحقيقة ، أو النظرية على أقل تقدير .

وقرى القصيم الأعلى تنشأ بجانب آبار الماء ؛ ويصل عدد قرى القصيم الأعلى ، وإن صح ما بلغني عنها ، إلى حوالي أربعين قرية ؛ ويتراوح عدد سكان كل قرية من هذه القرى ، بين خمسمائة نسمة وثلاثة آلاف نسمة ؛ ويقدر إجمالي عدد سكان هذه القرى بما يتردد بين خمس وعشرين وثلاثين ألف نسمة ، وهذا عدد قليل نسبيًا قياساً على مساحة المنطقة ، ومررنا بثمانية من القرى ونحن في الطريق إلى بريده ، وتوقفنا في أربع منها ؛ وكانت قرية قيفاء Kefa من بين القرى التي توقفنا فيها ، ويقال إن هذه القرية هي أكبر قرى المنطقة ، ويحيط بكل (هجرة) hamlet عدد كبير من بيارات النخيل ، والبساتين ، والحقول ، التي تمتد إلى مسافات بعيدة داخل الوادي ، على شكل شريط أخضر طويل على بساط أصفر ، بطول سلسلة من الآبار ، التي تحدد اتجاه جزء من مسار المياه الجوفية. وقد أخبروني أن بئراً جديدة حفرت ناحية الشرق ، سوف تؤدي إلى تقليل كمية المياه في الناحية الغربية ، هذه الحقيقة قد تعني انحدار القارة كلها ناحية الأسفل في اتجاه الشرق .

وأنا أرى ، وذلك من منطلق ملاحظاتي الخاصة ، أن مستجمع المياه ، أو إن شئت فقل أعلى جزء من الحزام الأرضي الذي ينحصر بين الجوف في الشمال والمنحدر الذي عبرناه كله الآن ، ينبغي أن نبحث عنه على مسافة حوالي ستين ميلاً ناحية الشرق من حائل ، وهذا هو خط طول أكثر أجزاء جبل طويق ارتفاعاً ، ذلك الجبل الذي تشكل مرتفعاته هضبة نجد الوسطى الكبيرة من ناحية الجنوب ، إن صح ما أقول ، وأنا لا يخامرني أي شك في هذا الأمر ، لأسباب سوف أوردها فيما بعد ، فذلك يعني

أن العمود الفقرى أو سلسلة الجبال الرئيسية فى الجزيرة العربية تنحصر بين خطى طول ٤٥ْ و ٤٦ْ ، وبين ٢٩ْ و ٢٤ْ شمالاً ؛ وأقصى ارتفاع لهذه الهضبة يكون خلف جلاجل فى منطقة سدير ، التي يبدأ فى الانحدار منها إلى أن ينوب ذلك الانحدار فى الصحراء الرملية الموجودة فى الجنوب .

وعلى كل جانب من جانبى هذه السلسلة من الجبال ، ومن ناحية الجنوب أيضاً ، تنحدر الجزيرة العربية فى اتجاه الساحل ، نحو الخليج الفارسى ، والبحر الأحمر ، والمحيط الهندى ، برغم وجود بعض المرتفعات المحلية العارضة فى سلاسل الجبال الجانبية مثل جبل أجاع ، وجبل سلّمى ، وجبل طويق وجبل الدواسر ، علاوة على بعض السلاسل الشاذة ، التى توجد من حين لآخر ، على شواطئ البحار ، وسلسلة الجروف شديدة الانحدار ، التى تصل إلى ارتفاعات كبيرة فى شمالى الحجاز ، وجبل عسير ، كما توجد هذه الجبال العارضة أيضاً فى بعض أجزاء اليمن ، وحضر موت ، بل حتى فى عمان .

هذا التكوين العام فى شبة الجزيرة العربية يؤيده ما شاهدت بنفسى فى الزيارات التى قمت بها إلى كل من جبل طويق بكامله ، وجزء كبير من جبل شومر . أضف إلى ذلك اننى أعرف ثلثى ساحل الخليج معرفه جيدة ، ولذلك أستطيع أن أتكلم بدرجة عالية من اليقين ، عن هذه المنطقة ، ولكن نظراً لأنى لم تتح لى فرصة الترحال عبر الركن الشمالى الشرقى من الجزيرة العربية ، أعنى ، المثلث الذى يقع إلى الشرق من الجوف وجبل شومر وجنوب سدير فى اتجاه الجزء العلوى من كل من الخليج الفارسى وشط (العرب) ، فإننى سوف اعتمد على موثوقية المعلومات التى حصلت عليها من سكان هذه المنطقة ، ومن المواطنين بصورة عامة ، ومن التجار ، أو من المسافرين ، أى من أولئك الناس الذين تعطى معرفتهم للأرض التى يسافرون خلالها ، هى والحقائق التى من قبيل الحقائق التى أوردتها هنا عن تيارات المياه ، مصداقية عالية لما يقولونه عن مثل هذه الأمور ، وقد زودنى التاجران : الزبيرى والبصرى ، وهما من رفاقنا فى القافلة ، ببعض المعطيات عن الشمال – الشرقى ، ويغلب على كل هذه المعطيات أن تؤيد وترجح ما أقول به ، فقد أبلغانى أن المجارى المائية المتجهة من القصيم إلى البصرة توجد فوق سطح الأرض ، فى الجزء الأكبر من الطريق ؛ وأبلغانى أيضاً أن البلاد تزداد قحولة وتصحراً إلى ما قبل شط العرب بمسير ثلاثة أو أربعة أيام ، حيث

تبدأ المراعي في الظهور من جديد ، وأخيراً تعود الزراعة إلى الظهور مرة ثانية ؛ كما أبلغاني أيضاً ، أن الماء يشح كلما اتجهنا شمالاً ، وهذا دليل كبير على ارتفاع الأرض في تلك الأماكن ، وأن هذا الحال يستمر إلى مسافة ثمانين ميلاً مقاسه من شط العرب؛ كما أبلغاني أيضاً أن الهواء كان بارداً وأشياء أخرى من هذا القبيل ، وأنا ، بنفسي ، سواء أكنت في المنطقة المجاورة لحائل ، أم هنا ، أستطيع ، عندما أنظر ناحية الشرق ، أن أميز بالعين المجردة ارتفاعًا ملحوظًا وحافة منحدرة ناحية الأفق ، في حين أن المنظر من ناحية الغرب، في المناطق التي لا تعترضها سلسلة جبال شومر، يبدو مستويًا عند منحنى أقصر يتجه نحو الأسفل ، وأخيراً ، فإن أعلى قمم جبال شومر تقع – وهذا أمر يستطيع المرء تمييزه بسهولة كبيرة عندما يقترب من حائل – إلى الشرق قليلاً من مدينة حائل نفسها وإلى الشمال من جبال الطويق من حيث أصولها البعيدة ؛ ومن المعروف حاليًا أن ارتفاع أية سلسلة من الجبال يتناسب تناسباً طردياً ، بشكل عام ، مع ارتفاع السهل الذي يكون مجاوراً لهذه السلسلة ، ومن هنا نخلص إلى أن أقصى ارتفاع لسلسة الجبال هذه ، يكون في المنطقة التي نحن فيها حاليًا .

وأنا أتطلع بصدق ، أن يقوم الرحالة المؤهلون ، مستقبلاً ، أن يجتهدوا ويملأوا مخطط الأرض ، الذي حاولت تتبعه هنا ، برغم عدم مقدرتي على إكماله ، ولكني أرجو القارئ ان يسمح لي بالاعتذار عن فرضية ، في ادعائي بأني سمعتها عن هذا الموضوع الصعب ، صعب لأنه ليس في حدود ملاحظتي ؛ وعلى كل حال ، فإن سنوات الترحال الكثيرة ، وهذا هو قدري ، تضطر العين ، بل الحواس كلها ، إلى قياس كل من الارتفاع والمسافة ، والاتجاه والمستوى ، بدقة معقولة ، حتى عندما يفتقر الإنسان إلى المعدات والأدوات الحديثة التي تساعد على تصحيح حساباتنا التقديرية ، وهذه الأدوات تصبح ضرورية عندما يتعارض الزعم مع كل من الدقة والتفاصيل الرياضية . وأنا لا أعترض على الدقة أو التفاصيل الرياضية أو الأدوات المستخدمة لذلك ، والسبب في ذلك ، والقارئ على علم به فعلًا – هو الظروف المحيطة بي التي جعلتني أحدد أمتعتي وأبسِّط محتوياتها ، مما جعلني استبعد كثيراً من الأشياء النافعة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، ومع ذلك ، فأنا على ثقة ، أن العبارات التي أوردتها بهذا الخصوص صحيحة ، بل ويمكن الاعتماد عليها كأساس وخطوة أولى لتحري صدق خريطة الجزيرة العربية وإعادة رسمها ، وبخاصة فيما يتعلق بوسط الجزيرة العربية .

كنا نسير في اليوم الواحد ما بين اثنى عشرة ساعة أو أربعة عشر ساعة ، بمعدل ثمانية أميال في الساعة الواحدة ، أو أزيد من ذلك قليلاً ، وهذه هي السرعة المعتاد لجمل يحمل راكبًا ، ولم يعد أمامنا بعد ما نخشاه من البدو ، كما أن البقية الباقية منهم ، والتي سوف نلتقي بها من الآن فصاعداً ، تنتمي إلى القبائل الخاضعة لحكم الأمير طلال ، وتعيش داخل حدود مملكته ، وأنا أضيف هنا أيضًا ، أنه في أواخر العام ١٨٦٢ الميلادي ، قاد الأمير طلال ، بنفسه ، حملة ناجحة ضد البدو النهابين السلابين من عشيرة حرب، وهي العشيرة التي التقينا بها في وادي سلّمي ، واجبرها على الخضوع له تمامًا ، الأمر الذي أدى ، بعد ذلك ، إلى حماية بلاده من الغزو بكل أشكاله .

كان القمر قد مضى عليه بضع ليالي قليلة من النصف الثاني من الشهر ، وكنا نستفيد من ضوء القمر بأن نبدأ مسيرنا في ساعة مبكرة ، كنا نسير في طريقنا ، الذي كان يمر ، في بعض الأحيان خلال الأراضي والمراعي المرتفعة ، وأحيانًا أخرى خلال وادٍ رملي يشبه النهر ، إلى أن يطلع النهار ، وتظهر الشمس في السماء ، وتسطع من ناحية اليسار إلى أن يدخل وقت الظهيرة ، ونحن لازلنا نواصل مسيرنا ، مبعثرين على الخطوط غير المنتظمة التي تشكل طريقنا ، أو على شكل جماعات مكونة من فردين أو ثلاثة ، أو كلنا جميعًا ، بينما راح رجال القصيم يثرثرون ويدردشون ويضحكون ، في حين راح التاجران يتسامران ، والمكيان يتشاجران ، أما البدو ، الذين لا يتعاطفون مع الحضر ، ولا مع بعضهم بعضًا ، فقد كان كل واحد منهم على دابته وبعيداً عن زميله ؛ على حين راح الزنجي يجري وراء خيله ، التي كانت تشرد دومًا ، وتروح ترعى الحشائش، أو تخرج عن مجال سيطرته؛ وكانت المرأتان ملفوفتين ، من قمة رأسيهما إلى أخمص أقدامهما ، في ثياب داكنة الزرقة ، وتشبهان حزمتين من الجماد جاهزتين لنقلهما إلى السوق في مكان ما ؛ ولم يكن أحد يتكلم إليهما ، ولم تكونا ، بطبيعة الحال ، تتكلمان إلى أحد .

كنا نتوقف مع مطلع كل صباح لشرب القهوة ؛ فقد كان الحطب وفيرًا ، ولم نكن في عجله أو نخشى ضياع الوقت ، وتحررنا من إعداد أي صنف من أصناف الطعام ، والسبب في ذلك ، أن وقفاتنا في المساء وأثناء الليل كانت في القرى ، التي كنا نلقى فيها دوماً ، كرم الضيافة وطيب الاستقبال ؛ وكنا إذا فشلنا في ذلك ، نشتري ما نتناوله في وجبتنا المسائية .

كان المنظر الطبيعي مترامي الأطراف، ولكنه ممل ، كان المنظر خاليًا من الجبال ، والأنهار ، والبحيرات ، والمجاري المائية ؛ ولكنه عبارة عن تكرار مستمر لسمات منظر سطح الأرض التي سبق وصفها ، ولم نكن نتبين ، في أقصى الشرق ، سوى قليل من القمم الزرقاء الباهتة ، التي هي انعكاسات جبل طويق البعيد ، الذي كنا نقترب منه ، الآن ، ببطئ . وكان السهل عن شمالنا ، وعن يميننا ومن ناحية الشرق ومن ناحية الغرب أيضًا . ولكن النسيم كان عليلًا ومنعشًا ، والشمس مشرقة ، والطيور تشقشق وتغرد بين أغصان الأشجار ، والسحالي والجرابيع تقفز بخفة في جميع الاتجاهات ، وهذه مجموعة من الحباري الخائفة (فقد كنا في شهر سبتمبر) أفزعها وصولنا فطارت ، وذاك طابور من الغزال راح يقفز من أمامنا ، كانت إبلنا بحالة جيدة ، ومعظم أفراد القافلة في حالة معنوية مرتفعة .

جاءت وقفتنا المسائية الأولى بعد وقفتنا في فيض في قرية قيفاء K.efa ، ومنازل قرية قيفاء مبعثرة ، وهي تقع في منخفض رملي ، والماء فيها وفير ، والقرية شأنها شأن القرى الأخرى في هذه المنطقة ، عبارة عن مكان أخذ في التوسع والازدهار ؛ والواقع ، أننا شاهدنا السكان وهم يحفرون بئرًا ويبطنونها بالصخور ؛ كان السكان قد وصلوا بالفعل إلى بداية التربة الرطبة على عمق أثنى عشر قدمًا تقريبًا ، والتربة هنا جيرية ، وهذه هي طبيعة التربة ، بصورة عامة ، في وسط شبه جزيرة العرب ؛ بل إن جبل طويق ، من التكوين نفسه ، وذلك على العكس من جبل شومر الذي يتكون من الصخور السوداء وصخور الجرانيت الضاربة إلى الاحمرار، وأنا لا أذكر أنى شاهدت هنا أي شئ من البقايا العضوية التي يجرى العثور عليها، في أغلب الأحيان ، في كل من الطباشير والحجر الجيرى ؛ وربما كنت متعجلاً في دراساتي وأبحاثي .

وأمضينا في قيفاء K.efa يومًا كاملاً ، وبالقرب من القرية كان هناك مخيم كبير من بدو الشمر ، الذين ينتمون إلى فرع عيض Eyd ، من العشيرة، وهم أقل ، من حيث كرم المحتد ، من الفرع الجعفري ؛ وكانت تختلط بخيام عيض Eyd بعض من خيام قبيلة طامير T.amir ، التي يوجد مستقرها المعتاد في جنوب جبل سلّمى ، في حين يوجد مستقر بدو الشمر ناحية الشمال والشرق . وقمنا بزيارة هذه الديار السوداء مثل ستائر سليمان ، واستقبلنا أهلها استقبالاً وديًا وأكرموا وفادتنا؛ وَحَضَرُ قيفاء K.efa، كانوا مهذبين أيضًا ، برغم أن سلوكهم كان أقل تهذيبًا ، وثيابهم أقل جمالاً من ثياب

أهل حائل ، وفي قرية قيفاء K.efa يوجد حاكم وقاض ؛ وعدد سكان القرية لا يقل كثيراً عن ثلاثة آلاف نسمة .

وأمضينا مساء الليلة الثالثة في قرية كواره Kowarah ، وهذه القرية الكبيرة التي يمكن اعتبارها بلدة كبيرة ، تقع في منخفض ملئ بالأشجار ويكثر فيه الماء ، في حين تشكل بيارات النخيل التي في هذه القرية خلفية جميلة للأرض المكسرة والأدغال الموجودة أمام القرية ، ومن حول القرية ، يدخل السهل في تجاويف الصخور على ارتفاع يتراوح بين عشرين وستين قدماً ، وتخترق الوادي بعض المجاري المائية ، وتزداد فيه كثافة أشجار الأراك والأعشاب الطويلة . هذه هي آخر محطة من محطات مملكة الأمير طلال بن الرشيد ؛ وهنا أيضًا الرئيس يُخْتَارُ من بين أبناء المنطقة ، كما هو الحال في كل أجزاء مملكة بن الرشيد ، كما أن النظام والأمن هنا ، هما رمزان من رموز الحكومة المركزية، معنى ذلك أن النظام والأمن هما من الحيوانات ذوات القدمين؛ أما فيما يتعلق بكلاب القرية السمان الأكثر من اللازم والتي لا تحصى ولا تعد ، فقد كانت أسوأ ما صادفت في قرية كواره Kowarah . فهي تجوس طول الليل في كل أنحاء القرية ، ولا يجرؤ أحد أن يتحرك خطوة واحدة دون أن تتبع عليه تلك الكلاب وتتعقبه وهي تكاد تعض قدميه ، كما كانت هذه الكلاب تهجم على مؤن المسافرين وتنزل بها أضراراً كثيرة ، وبعد أن حذرني رفاق السفر من هذه الكلاب ، وضعت كيساً من جلد الضان نصفه مملوء بالتمر الممتاز الذي أحضرته من حائل ، والذي يعد غذاؤنا الوحيد عندما نشعر بإرهاق الطريق ، تحت رأسي ، على شكل مخده ، على أمل أن أحميه من تلك الوحوش الضارية ، زد على ذلك ، من الذي يخطر على باله أو يتصور أن الكلاب يمكن أن تأكل التمر أو الجلد القديم ؟ تحذيرات بلا جدوى : وآمال خادعة ! فقد استيقظت عند منتصف الليل ، على أثر زمجرة شديدة بالقرب من أذني ، ووجدت رأسي يرتكز على الرمل ، في حين رأيت الكيس هو ومحتوياته بعيداً عني ، كان في الوسط بين مجموعة من الكلاب ، ليثبتو لي أن هذا النوع من الكلاب يأكل طعاماً نباتياً ولا يقل في ذلك عن الماشية أو الخيول ، وبرغم أن نفسي عافت أن تستعيد ما تبقى من الكلاب ، إلا أنني أصريت على ذلك ، كنوع من الانتقام لنفسي من هذه المخلوقات ؛ وعندما تذكرت كلمة السر التي ابتكرها مارستون مور Marston Morr والتي تقول : "اضرب في الأقدام" ، تناولت عصا غليظة ، وهويت بها ، مسترشداً بمبادئ كرمويل في الرماية ، على أرجل هذه اللصوص ذوات الأربع ، وشعرت بالرضا

والارتياح عندما شاهدت كلبًا أسودًا ضخمًا راح يعرج ويعوى كما لو كان مجنونًا وهو يرفع ، فى الهواء ، إحدى رجليه الأماميتين . وهنا تبعته بقية الكلاب وتركت المسرح خاليًا ؛ ثم عادت الكلاب بعد ذلك ، وحملت غنيمتها إلى مسافة أبعد ، وأنهت عليها تمامًا .

كان ذلك فى اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وكنا قد غادرنا كواره Kowarah ، وواصلنا المسير حتى وقت الظهيرة على وجه التقريب ، وفجأة صادفنا ، بعد أن تجاوزنا عددًا قليلًا من التلال المنخفضة ، انحدارًا مفاجئًا فى سطح الأرض ، ظهر لنا بعده جزء من جنوب القصيم .

هنا ، ولأول مرة أمكننا الوقوف إلى حد ما ، على مدى قوى الوهابى فى تسوده هذه الأرض ، كان هناك سهل واسع يمتد حتى الأفق ، وتتخلله مدن وقرى وأبراج وبيارات ، كلها غارقة فى حرارة الظهيرة ، وتعلن عن وجود الحياة فى كل مكان ، كما تعلن أيضًا عن الثراء والوفرة والنشاط . ويصل متوسط عرض المنطقة كثيفة السكان إلى حوالى ستين ميلاً ، وطولها ضعف عرضها ، أو يزيد على ذلك ؛ وتنخفض هذه المنطقة ، من جنوب القصيم ، عن مستوى القصيم العليا ، بحوالى مائتى قدم . والقصيم العليا ، فى هذه المنطقة ، تنوب هنا لتصبح مثل الجدار ، وتسمح لأراضى القصيم السفلى ، أن تمتد ، بلا أية معوقات إلى سلسلة جبال طويق ، التى تحد أراضى القصيم السفلى من ناحية الجنوب ، وتفصلها عن الطريق الرئيسى الذى يصل بين نجد ومكة المكرمة ؛ ويقع الجزء الأكبر من القصيم إلى الشمال من جبل طويق فى اتجاه المدينة المنورة ، والمركزين التجارى والزراعى فى هذه المنطقة مكونان من حوالى خمسين قرية أو أكثر من القرى ذوات الأحجام المناسبة وأربعة أو خمس مدن كبيرة ، كما تنتشر فى هذه المنطقة أيضًا الهجر Hamlets الصغيرة ، بشكل كثيف ، كما تنتشر فيها أيضًا الآبار والبساتين المنعزلة ، وتخدمها شبكة من المدقات (الطرق) فى جميع الاتجاهات ، وفى جنوب القصيم ، تبدأ سلسلة أبراج المراقبة العالية امتدادها ناحية جبل طويق ، وهذه الأبراج تهيئ للمواطنين ، وذلك على العكس من المناطق الأخرى بسبب استواء سطحها ، فرصة اكتشاف العدو ومراقبته من مسافات بعيدة ، مما يمكنهم من الاستعداد لمقاومته ، وإذا كانت منطقة القصيم ، هى المنطقة الوحيدة ، فى وسط الجزيرة العربية ، التى لها اسم راسخ فى الحضارة والثروة ، فهى أيضًا نقطة

بداية ومسرح لكثير من الحروب ، أو إن شئت فقل ، إنها هي الوحيدة التي شهدت حشوداً عسكرية للجيوش بأعداد كبيرة ، في هذه المنطقة ، من جنوب القصيم ، حدد لي رفاقي في القافلة ، الأماكن الشهيرة التي كان يمارس فيها كُلِيبْ وعيل هواية الصيد (القنص) ، غابة الجديدة New Forest ، التي أدت إلى نشوب حرب البسوس ، التي قضت على أعداد كبيرة من عشيرتي تغلب وبكر Bikr ، وهذه المنطقة أيضاً ، حكمها في فترة لاحقة داريم Darim الحاكم الطاغية المستبد ، الذي حولته الروايات المبالغ فيها إلى مارد ثم سوأت سمعته وحولته إلى ساحر ، ولكنه في واقع حاله ، كان رئيساً متغطرساً وقوياً ، استطاع ، أثناء تدهور أحوال الخلافة في بغداد ، أن ينفض عنه آخر الروابط الإسلامية الضعيفة والروابط التي تربطه بالعباسيين ، ويعيد تأكيد استقلال القصيم من جديد .

ومع ذلك ، فإن دراسة الأحداث لوحدها ، لا يمكن أن يكون لها مغزاها إلا إذا كانت لدى الدارس فكرة صحيحة عن الظروف التي كانت سائدة ، بشكل عام ، في الجزيرة العربية ، في الفترة التي تنحصر بين ظهور الإسلام وقيام الحركة الوهابية ، وهذه الفترة تقدر بحوالي اثني عشر قرناً من الزمان ، مر هذا البلد خلالها بتغييرات وثورات عظيمة ، برغم أني لا أنكر أنني قرأت رواية واضحة ، أو تفسيراً مقنعاً لهذه التغيرات والثورات ، في كتب التاريخ التي كتبها الأوربيون عن الشرق ، الواقع ، إننا لدينا كتباً تاريخية كثيرة وكاملة تتناول كل ما حدث في تلك الفروع المهمة لما يسمى بالإمبراطورية العربية ، في كل من مصر ، وسوريا ، وأفريقيا ، وأسبانيا ، وبغداد ، وصقلية ، ولكننا ليس لدينا سوى القليل ، بل لا شئ على الإطلاق ، عن الجزيرة العربية وسكانها ، التي كانت أصلاً وأساساً لذلك الطوفان القوي الذي اجتاحت تياراته المقسمة جزءاً كبيراً من العالم ، وبالتالي فإن القارئ ، لن يشعر بالتبرم أو الضيق ، إذا ما توقفت برهة ، عن سرد بقية أحداث رحلتي ، لكي أحاول ملئ هذا الفراغ التاريخي بقدر ما يسعني جهدي المتواضع . وقد سبق لي ، في بداية هذا المجلد ، أن أشرت إلى المصادر التي استقيت منها معطياتي ، والمؤلفين الذين اعتمدت عليهم ، وسوف أزود القارئ بقائمة المؤلفين العرب الذين أتيحت لي فرصة الرجوع إليهم ، والإطلاع على ما كتبوه عن هذه الموضوعات وكثير من الموضوعات الأخرى المماثلة .

عندما خطط محمد (ﷺ) وأصحابه في الحجاز لغزو شبه الجزيرة العربية كلها ، وتوحيدها تحت لواء شريعة واحدة ، ودين واحد ، وأرض واحدة ، كانت الجزيرة

العربية مقسمة بين أربع حكومات ، تختلف اختلافًا كبيرًا من حيث القوة والاتجاهات . في الشمال الغربي كانت الامبراطورية البيزنطية قد وصل صولجانها عن طريق الغساسنة وحلفائهم ، إلى منطقة كبيرة من البلاد ، وكان جنود الامبراطورية يحتلون مواقعهم على مسافة قريبة من المدينة (المنورة) . وكان ملوك الحيرة في الشمال الشرقي ، الذين امتد حكمهم من شواطئ الجزء الأسفل من نهر الفرات والشط الكبير إلى الخليج الفارسي ، وإلى الداخل حتى حدود نجد نفسها ، وفي ناحية الجنوب كانت هناك الأسرة الملكية اليمنية التي أعادها سيف بن ذي يزن ، ولكن هذه الأسرة ، شأنها شأن الحيرة ، كانت تابعة للامبراطورية الفارسية ؛ وكانت الأسرة الملكية اليمنية تسيطر على منطقة شاسعة من الأراضي المهمة ، التي كانت عُمَان بمثابة ملحقًا بل ويحكمها حاكم يعد نائبًا للأسرة الملكية اليمنية ، وفي وسط الجزيرة العربية ، كانت عشائر نجد المضطربة متجمعة حول مسيلمة الكذاب (لأن هذا هو الاسم الذي أطلقه عليه منافسه محمد (ﷺ) ، وكانت القصيم جزءًا من ذلك التجمع (التحالف) . وإلى جانب هذه التجمعات الأربعة ، كان هناك أيضًا العديد من الطوائف اليهودية الصغيرة والقوية والتي كانت تكثر في غرب شبة جزيرة العرب بصفة خاصة ، وكانت لهذه الطوائف معاقل قوية وقلاع ، من بينها قلعة خيبر وأبلاق تيماء اللتين ذاعت شهرتهما ، يضاف إلى ذلك ، أن القبائل البدوية التي تحررت بفعل الثورة المجيدة[1] التي كانت قد حررت ، قبل مائة عام ، وسط الجزيرة العربية وشمالها من السيطرة اليمنية أصبح لها أهمية كبيرة في كل مكان ، ورافقتها الفوضى التي ترتبت على هذا التحرر ، فضلًا عن عمليات السلب والنهب التي كانت ، هذه القبائل ، تمارسها ، كل ذلك أدى إلى تفاقم الفوضى والاضطراب اللذين كانا سائدين في ذلك الوقت .

كيف انهزم الإغريق؟ وكيف انتهى نفوذهم في الجزيرة العربية إلى غير رجعه؟ كيف اندمج سكان اليمن في إمبراطورية الحجاز دون ضربة واحدة ؟ كيف ذاب ملوك الحيرة وذابت قوتهم نوبان الجليد أمام تشدد المسلمين الأوائل الحارق ؟ كيف فقد اليهود قلاعهم الواحدة تلو الأخرى ، إلى أن انمحت ، مع بعض الاستثناءات القليلة ؟

(١) أتحفظ على هذا التعبير لأن الإسلام ليس ثورة وإنما هو دين رباني يغيّر الناس بفضل تعاليمه وتوجيهاته وتشريعاته التي تتلاءم مع الفطرة والعقل السليم ، بينما مصطلح الثورة غالبًا ما يعتمد في تحقيقه على الانقلاب العسكري وإراقة الدماء ، (د. حلمي عبد المنعم) .

قوميتهم أو طردوا إلى خارج الحدود ، كل هذه الأمور تحدث عنها المؤرخون وكتاب السيرة ، رغم أن كتاباتهم جاءت متناقضة ومرتبكة إلى حد ما ، ولا تميز بين الأسباب والنتائج، ولكن أعمال الغزو والهزيمة ، في وسط الجزيرة العربية ، كانت بطيئة ودموية ، يضاف إلى ذلك ، أن اندماج المنهزم كان مؤقتًا وغير حاسم .

كانت القصيم ، الجار القريب من الحجاز ، والتي كانت تربطها به المصالح التجارية ، أول منطقة تفصل نفسها عن قضية نجد كلها ؛ وانضمت قوات القصيم إلى خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول ، عندما قام ذلك المحارب الشجاع بحشد كل قوات الإسلام[1] للدخول في معركة حاسمة ضد مسيلمه الكذاب ، وبعد المذبحة المروعة ، التي لا زالت آثارها باقية في وادي حنيفة ، وموت النبيّ المدعي (مسيلمه) ، وتشتيت مذهبه والقضاء عليه ، وبعد إخضاع أراضي ووديان جبل طويق العليا ، لم يعد هناك أي عدو ينازع الإسلام سيادته على الجزيرة العربية ، وغدا شبه الجزيرة العربية كلها بدءًا من شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي إلى سواحل البحر الأحمر الطويلة موحدة في إمبراطورية واحدة وتدين بدين واحد، ومع ذلك ، فقد كانت العين الفاحصة ، قادرة على تبين قصر عمر هذه الوحدة الظاهرية وتحللها .

فالمواطنون النجديون وأهل الحجاز بينهما عداء شديد منذ قديم الأزل ، وهذا العداء هو القاسم المشترك بين الشعر والنثر لدى كل جانب من الجانبين ؛ ويرجع أصل هذا العداء ، في الأساس ، إلى اختلاف طبيعة الفرقتين المتنافسين اختلافًا تامًا . فالنجدي ، صبور ، بارد ، وبطئ في تجهيز وسائل عمله ، وأكثر تشبثًا ، من كلاب الصيد ، بحقوقه عندما يحصل عليها ، وهو متمسك بأعمال أسلافه ، وتربطه بأرضه وطنية يندر وجودها في أي مكان آخر في الشرق ، وهو لا يطيق الحكم الأجنبي ، وهو صبور أيضًا إلى حد التقشف في أسلوب معيشته ، وهو يكره ويمقت ترف وتباهي الشعوب الأجنبية ، بل الغرباء أيضًا ، بسبب رذائلهم ، وهو يتعاطف تعاطفًا شكليًا

(١) هذه معلومة غير دقيقة حيث أرسل أبو بكر أحد عشر جيشًا شملت أنحاء الجزيرة لقتال المرتدين ومانعي الزكاة وكان قد أرسل عكرمة بن أبي جهل على رأس جيش إلى بني حنيفة لقتال مسيلمة الكذاب ولما أنهزم عكرمة أمده أبو بكر بخالد بن الوليد وكتب الله النصر للمسلمين على يد خالد وقتل مسيلمة ولم تكن القوة العسكرية التي التقت مع مسيلمة هي كل جنود المسلمين كما يقول المؤلف وإنما كانت فرقتين فقط واحدة لعكرمة وواحدة لخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين ، (د. حلمي عبد المنعم) .

مع الحجازيين سريعي الاستثارة ، المستهترين ، الذين يبدأون بداية قوية ، ولكنهم سرعان ما يتعبون وينصرفون عما بدأوه ، والحجازى محب للزينة والعظمة والفخامة ، وينخرط فى العادات والتقاليد عن طيب خاطر، وهو على استعداد لتقبل انحلال جيرانه، والحجازى متفاخر ، وكثير الكلام ، ولا يراعى حقوق الآخرين أو مشاعرهم ، الواقع أن هاتين الشخصيتين تتعارضان تماماً مثل تعارض الشخصية الألمانية مع الشخصية فى الغرب ، والشعر العربى يصف العداء بين نجد والحجاز والتاريخ العربى أيضاً يؤيد ذلك العداء ؛ ولكن ملاحظتى الشخصية ، بعيداً عن الكتب ومحتوياتها ، هى التى جعلتنى ارسم هاتين الصورتين ، اللتين أوجزتا فى الأشعار الشهيرة ذائعة الصيت ، التى كتبها شاعر وطنى ويقول فيها : "نجد هى أرض الأرواح العظيمة ، وما عداها أقزام إذا ما قارناهم بها ؛ أما فيما يتعلق بأهل الحجاز فهم طِوَلٌ[1] قصير .

يضاف إلى ذلك ، أن الأحداث السياسية ، التى تعتبر نتيجة وسبباً من أسباب الشخصية الوطنية National ، أسهمت فى تعميق الخط الفاصل بين النجديين والحجازيين ، كما زادت من حدة الكراهية والعداء ليخرج من السر إلى العلانية . ففى الحرب الطاحنة التى دارت فى الفترة من عام ٥٠٠ إلى ٥٢٠ ميلادية ، والتى كانت نجد فيها تحت قيادة كليب وعيل ، خرجت نجد منها لتجد نفسها سيدة الجزيرة العربية بلا منازع ، وانعقدت هذه السيادة لنجد طوال قرن من الزمان ، وبعد ذلك القرن ، انتزع الحجاز ، منافسها القديم ، هذه السيادة ، ودخلت مع الحجاز فى صراع دائم جعل وديانها تفيض بالدماء ، وغطت تلالها جثث القتلى ، وقد أجج هذا الدَّيْنُ الثأرى العداء السابق؛ وراح النجديون ينتظرون اللحظة التى تضعف فيها القوة التى قهرتهم ، ليطيحوا بنيرها عن أعناقهم .

وفى الوقت نفسه ، فإن عُمَان والمناطق الأخرى الواقعة على الخليج الفارسى لم تكن تميل إلى الحفاظ على هذه الوحدة ، سواء أكانت سياسية أم دينية ، مع مكة وأطفالها ، ولم يكن العربى القحطانى – كيف ، هذا ما سوف أشرحه بالتفصيل فيما بعد ؟ – يرتبط بأية روابط مشتركة ، اللهم باستثناء اللغة ، مع الفرع الإسماعيلى (العدنانى) من هذه الأسرة العريقة ؛ فقد انهارت شخصيته وتداعت مؤسساته

(١) الطِّوَل : بتشديد الطاء وكسرها وفتح الواو هو : حبل يشد إلى وتد ويطوَّل للدابة فترعى مقيده به . (المترجم) .

وتنظيماته ؛ أضف إلى ذلك، أن العبادة السيئة ، التى لم تخل من صيغة فارسية قوية ، كانت قد ضربت جذورها العميقة فى تلك المناطق الشرقية بشكل يصعب معه استئصالها بمجرد قول "لا إله إلا الله" ، وخضوع وإذعان عابر ، ومزيد من الحصافة بدلاً من الإقناع ، فى رسالة النبى المكى التى تثار من حولها الشكوك . وهنا نَجِدُ أيضًا ، وبرغم الظروف المختلفة تماماً عن تلك الظروف التى سادت نجد ، وعلى محور آخر من محاور العمل ، أن كل سكان هذه المنطقة كانوا مؤهلين لفك الوحدة ومناصبة العدنانين العداء .

كان ذلك هو حال وسط الجزيرة العربية وشرقها ؛ أما بقية الجزيرة العربية ، مع بعض الاستثناءات غير المهمة التى تعد على أصابع اليد الواحدة ، فكانت قد تعلمت كيف تنظر إلى الإسلام باعتباره دينًا قوميًا ، وتنظر إلى مكة باعتبارها مركزًا سياسيًا شهيرًا ، وأنا عندما أقول ذلك ، لا أعنى ، بأى حال من الأحوال ، البدو الذين لم يستفد منهم محمد (ﷺ) ، طبقًا لما ورد فى القرآن ، فى أى شئ ، والذين بقوا على حالهم التى كانوا عليها ، فى كل أنحاء الجزيرة العربية سواء أكان ذلك قبل غزوات النبى أم خلالها ، والبدو مخلوقات غير مستقرة مثل الماء ، شأنها شأن أى عنصر لا يكون له تأثير دائم نظراً لعدم استقرارهم .

وخلال حكم كل من أبى بكر الصديق وعمر ، أدت القوة الجديدة للامبراطورية الجديدة ، وكذلك أمجاد النصر ، أديا إلى ستر بذور ذلك الشقاق وإخفاء جراثيم ذلك الانفصال . ولكن ضعف (سيدنا) عثمان والصراعات الدموية التى زلزلت خلافه (سيدنا) علىٍّ عجلت بظهور الاستياء والانفصال .

وما أن بدأ ، حكام الإسلام ، فى واقع الأمر ، يشهرون سيوفهم ، فى وجه بعضهم البعض ، حتى انفصلت عُمَان والمناطق المجاورة لها ، إلى غير رجعه ، عن سيادة هؤلاء الحكام وعن سلطانهم ، وهبت نجد ، شاهرة سيوفها ، لتقف إلى جانب رجل من رجال الكوفة وإلى جانب (سيدنا) على ، وثأر أهل نجد لأنفسهم من أهل الحجاز عدوهم القديم ، الذى كان ، فى ذلك الوقت ، تحت رئاسة معاوية ومشايعية ، ولكن فترة الفوضى هذه ، برغم عنفها ، لم تدم طويلاً ، وتلاها مباشرة انتصار بنى أمية ، وتأسيس الخلافة فى دمشق ، وقد تميزت السنوات الأولى من هذه الخلافة ، بالقوة ، كما أدى الاتصال الوثيق بين كل سوريا والجزيرة العربية ، إلى إجبار نجد ،

ومعها بقية وسط الجزيرة ، وغربها ، وشمالها على الاعتراف مرة أخرى بسيادة الحكام المخلصين ، ومع ذلك ، وبعد عشرين عامًا تمامًا ، من وفاة معاوية ، كشف جبل شومر والعشائر المتحالفة معه ، عن تمردهم الصريح والعلنى ، ولم يجرؤ الحجاج ، الذى كان الجميع يخشونه ، على قيادة قواته للهجوم على تلك الجبال كثيفة السكان ، التى قامت قوات ملازمة أمية ، حفيد (سيدنا) عثمان ، فى الآونة الأخيرة ، بتغطية أرض ممراتها الضيقة بجثث القتلى ، وعلى كل حال ، واقتناعًا من سكان جبل شومر بانتصارهم الأول ، وتحاشيًا منهم لنشوب حرب قد تسفر عن استئصال شأفتهم والقضاء عليهم، أعلنوا ، عن طيب خاطر ، خضوعهم الإسمى لـ عبد الملك بن مروان ، الذى كان يشغل منصب الخليفة فى دمشق ، وهنا هدأت الجزيرة العربية مرة ثانية وتوحدت ، أو بدت هكذا على أقل تقدير ، على امتداد ثلثى مساحتها على أقل تقدير ، ولكن عُمان هى والجنوب الشرقى ، كانت قد انفصلت تمامًا عن الخلافة الأموية ، ولم تلعب أى دور فى ذلك الاندماج .

ويقى الحال على ما هو عليه تقريبًا طوال خمسين عامًا أو يزيد على ذلك ، إلى أن سقطت الأسرة المالكة فى دمشق وانتقلت الخلافة أولاً إلى شواطئ نهر الفرات فى العام ٧٥٠ الميلادى ، ثم إلى بغداد على شواطئ نهر دجلة فى العام ٧٧٠ الميلادى ، مما مهّد الطريق فى النهاية إلى انفصال الجزيرة العربية ، انفصالًا لا رجعه فيه ، عن مراكز الحكم المحمدية (الإسلامية) الكبيرة .

أضف إلى ذلك أيضًا ، أن البعد الطبوغرافى ، فى أرض لا تعرف طرق العربات ولا السكك الحديدية أيضًا له تأثيره فى عملية الانفصال ، ولكن سرعان ما أضيفت لهذا العامل عوامل معنوية أخرى ، صحيح، أنه طوال القرن الأول من الحكم العباسى ، وقضاء العرب على الخلفاء الراشدين ، وعلى التزامهم بالعادات والتقاليد وأساليب الحياة العربية ، وعلى منظومة الحكم الشعبية واسعة الأفق ، وعلى كرمهم وسهولة التعامل معهم والوصول إليهم ، ظل يشد إلى صولجان حكمهم ، السواد الأعظم من إخوانهم المواطنين ، ومن المعروف أن الحكومات بدءًا من حكومة عبد الله السفّاح ، وحكومة جعفر ، وحكومة المهدى ، وباقى الحكومات وصولًا إلى حكم هارون الرشيد ومن جاءوا بعده ، كانت حكومات عربيه فى المقام الأول ، وبالتالى نجد مضابط التاريخ خالية من الإشارة إلى أى شكل من أشكال التمرد فى المناطق العديدة التى كانت تابعة لتلك الحكومات فى الجزيرة العربية ، خلال هذه الفترة .

ولكن بعد مجيء هارون الرشيد إلى الحكم بدأ تغيير عدّل من طبيعة الخلافة في بغداد وساعد على تدهورها ونفّر منها رعاياها العرب ، فقد بدأت العادات والتقاليد والسلوكيات الفارسية تتسلل إلى بلاط الخليفة ، وراحت تنتشر انتشار الوباء في كل فرع من أفرع الحكومة ، فقد تحول سخاء وتسامح الخلفاء الأوائل ومعاشرتهم الحلوة إلى عزله مظهريه ، وتعاليا عن الرعايا ، وتخليًا مؤلمًا عن القصور المعتادة ، بل أن العربي الذي كان يأتي إلى بغداد ، أصبح يجد نفسه أجنبيا عنها ، يحتقره أهلها ويدوسونه أكثر مما كان يحدث في الأزمان القديمة ، في كل من شيراز أو إصبهان ، وقد غلب على التقلبات الدينية والمذهبية الغريبه التي حملت كلا من بغداد والخلفاء على اتخاذ مواقف متعارضة ومتطرفة بعضها مع البعض الآخر ، القضاء على آخر الروابط السلفية التي كانت تربط الأمة العربية بكل من أسرة بني هاشم والشريعة الإسلامية[١] . وبذلك يكون قد بدأ الانفصال الكبير ، الذي يتعذر تغييره .

وجاءت أول ثورة انفصالية ، وصدرت أيضا أول إشارة إلى بقية المناطق بالانفصال ، عن أبي طاهر ، رئيس القرامطة ، الذي زرت قلعته الضخمة ، وقصره المنيف في مدينة القطيف على الخليج الفارسي ، وإذا كان الآخرون قد كتبوا تاريخ القرامطة وتحدثوا عن مفاهيم هذه الحركة ، وقيامها وازدهارها ، فأنا عندي أيضًا ، ما أضيفه إلى هذه الكتابات ، عندما أصل إلى الأرض التي نشأت عليها هذه الحركة ، ويكفيني أن أقول هنا : إن القرامطة قبل أن يصبح أبو طاهر رئيسًا لهم ، كانوا قد نشأوا من المناطق الداخلية من الساحل الشرقي للجزيرة العربية ، بل إنهم وصلوا أيضًا إلى وديان اليمن ، في الوقت الذي كانت الأحساء وعُمان والمناطق المجاورة لهما كلها في أيديهم وتحت تصرفهم ، وقد وجدوا في أبي طاهر رئيسًا جريئًا وناجحًا على حد سواء ، وقد اجتاحت جيوش أبي طاهر الجزيرة العربية بدءا من ساحل الأحساء إلى البحر الأحمر ، ونشرت القتل والتشريد والخراب والدمار في كل مكان ، وبعد انحسار غضب القرامطة بعد ثلاثين عامًا من سفك الدماء ، وبعد أن عادت المياه إلى مجاريها الطبيعية ، لم تترك هذه الحركة أي أثر في الأماكن التي امتدت إليها سلطة الخلفاء الراشدين في كل من شمالي الجزيرة العربية ووسطها .

(١) يريد المؤلف أن يربط بين الخلافات السياسية وبين الإسلام ، وكأن الخلل في المواقف السياسية يعني عنده التخلي عن الدين ، وهذا غير صحيح فالدين باق في الشعوب وباق عند جميع سكان الجزيرة العربية ، ولم ينفصل المسلمون عن دينهم منذ أن دخلوا فيه . (د. حلمي عبد المنعم) .

وانفصلت إلى غير رجعه ، عن حكام الشمال الضعفاء ، مناطق الخليج الفارسى ، ونجد بكاملها هى والمناطق التابعة لها فى شومر ، والقصيم ، وتيماء ، والجوف ، والأراضى المحيطة بها ، ووسط هذه الفوضى الشديدة ، راحت كل منطقة تلتف حول رؤسائها وأعيانها ، وتمضى عليها فى ذلك الحال قرون من الصراع والتناحر ، فى ظل حكم جائر ، تخللته فترات قصيرة من القوة والازدهار ، وقد تكلمنا بصفة خاصة عن حال كل من الجوف وشومر في تلك الفترة ، وسوف أقوم فى الصفحات القليلة التالية بإلقاء الضوء على حال كل من نجد والقصيم فى تلك الفترة أيضًا ، وقد تعاطفت المناطق الداخلية فى كل من اليمن ، ونجران وخولان ، إضافة إلى عسير ، مع القرامطة وشاركت فى إنجاح حركتهم ، إذ تحولت هذه المناطق إلى ملاذات لآلاف من أنصار هذه الطائفة الدينية ، وإلى معاقل قويه استعصت قرونًا طويله على الهجمات الأجنبيه ، وعاد ساحل اليمن الشرقى ، أيضا ، هو وصنعاء إلى استقلالهما الوطنى من جديد ، ولكن طبيعة سكان هذين المكانين المسالمة جعلتهم يحافظون على شئ من الولاء الأسمى الظاهر فترة من الزمن ، مرة لخليفة مصر ومرة أخرى لخليفة بغداد ، والسبب فى ذلك ، إن إخلاص سكان هاتين المنطقتين اليمنيتين لدين محمد (ﷺ) وولائهم له ، جعلهم يعتبرون الانفصال عن المراكز الإسلامية السياسية الدينية الكبيرة شكلًا من أشكال الشر والخطيئة ، ولكن عُمان ، على العكس من ذلك ، ومعها جزء كبير من حضرموت فى الجنوب ، وكذلك قطر والبحرين فى الشمال ، انتهزت فرصة التحالف مع القرامطة واستفادت منها فى تأمين نفسها من أخطار الحرب ، من ناحية والحفاظ على استقلالها من الناحية الأخرى .

والشيء الوحيد الذى تبقى للخلفاء ، هو موسم الحج السنوى الذى أصبح مجرد ظل للسلطة التى يتنازعها كل من الحجاز ومنطقة مكة المكرمة ، فضلاً عن التدخل من حين لآخر فى شئون كل من رؤساء اليمن وخيبر ، عندما كان هؤلاء الرؤساء يحاولون اخضاع دعاواهم المتنافسه للتحكيم الأجنبى .

وتمضى السنون وتنصرم القرون ، وراح آخر الخلفاء فى بغداد يدوس الجميع ويتعالى عليهم ، وأسس الأتراك والتركمان والأكراد ، والمماليك لأنفسهم ممالك سريعة الزوال ، وأُسَرًا مالكه لها أسماء طنانة ، تأسست عن طريق سفك الدماء ، وتغذت بالدماء ، وانتهت أيضًا بسفك الدماء ، وجاء الصليبيون من الغرب ، وجاء التتار من

الشرق وقتلوا وقُتِّلوا على شواطئ سوريا أو على ضفاف النيل ونهر الفرات ، ولم تشارك الجزيرة العربية في أى شئ من ذلك ، ولم يصبها أى أذى منه ، إذ لم تعبر أية موجه من موجات هذه التيارات المضادة ذلك السد الذى تمثل فى مدخل الجزيرة العربية الصحراوى ، الذى يستحيل اجتيازه ، وفى النهاية وصلت الجيوش العثمانية إلى حدود الجزيرة العربية ، وتحولت كل من سوريا ومصر إلى باشاويات تابعة للقسطنطينية ، ومع ذلك فإن الشئ الوحيد ، الذى تبقى للأتراك ، على أرض الجزيرة العربية، هو طريق الحج الذى يربط بين مُعَان ومكة ، وبعض المواقع والموانئ الحدودية ، التى كانت تدار باسم السلطان اعتباراً من حكم السلطان سليم فى بداية القرن السادس عشر إلى حكم السلطان عبد العزيز الحالى .

يضاف إلى ذلك ، أن المناطق المجاورة لمصر ، والتى يفصلها شريط بحرى ضيق عن ساحل الجزيرة العربية ، قد شهدت النفوذ أو الغزو الأجنبى مراراً ، ولكن ذلك النفوذ والغزو كان ، فى معظمه ، سطحياً وغير مؤثر ، ولم يدم إلا فترة قصيرة من الزمن ، وعلى ذلك ، كان المماليك من حين لآخر ، "يزيدون من حدة النزاع " بين الرؤساء الغربيين والرؤساء العرب ، وفى مرحلة متأخرة ، أصبحت لمصر ، ولفترة قصيرة ، سيادة على نجد نفسها ، و أصبحت هى التى تعين حكام البلدان التى على شاطئ الخليج الفارسى ، ولكن ذلك أيضاً انحسر وزال بسرعة ، وبقيت الصخرة صلدة وراسخة فى مكانها لم تجرفها مياه المد العالية ، أو تترك فيها أى اثر من آثار المياه .

ولكن ترك الجزيرة العربية ، لحال سبيلها ، وهى تتفكك إلى كتلة من الكيانات الصغيرة والمصالح المحلية المرتبكة والمتضاربة ، جعل الجزيرة العربية تحتفظ لنفسها بنفس الحدود الفاصلة التى كانت سائدة فيها قبل ظهور الإسلام ، بل أن هذه الحدود الفاصلة لم يعتريها أى تغير جوهرى من أى نوع كان ، ولما كانت هذه الخطوط والحدود الفاصلة قد تأسست على التنوع العرقى وتربت على اختلاف التطور الاجتماعى ، فإنها لا يتعذر محوها بحكم طبيعتها ولكن من المحتمل لها تماماً أن تصبح أكثر وضوحاً إذا ما تركناها تعمل عملها الطبيعى دون تدخل منا لإزالة الضغوط الخارجية ، من ذلك مثلاً ان الخطوط الحدودية لملكة عُمان ، ومملكة نجد ، واليمن ، وشومر وكذلك الحجاز ، المحددة على الخارطة التى أوردتها فى صدر هذا المجلد ، هى حدود سياسية اقل منها حدود عرقية ، ولكون هذه الخطوط كذلك ،

فلابد من بقائها من حيث الهدف على أقل تقدير وفى أغلب الأحيان من حيث الواقع ، مع شئ من التعديل الطفيف ، ومن المؤكد أن يكون هناك بعض الحالات الشـاذة التى لا تخضع لهذا القياس ، من ذلك على سبيل المثال ، نجد أن الإحساء والقصيم ، اللتان تتحالفان عن طريق العرق ، إذ نجد أن الاحساء تتحالف مع عمان تحالفًا عرقيًا ، فى حين تتحالف القصيم مع الشومر ، أكثر من تحالف أى منهما مع نجد ، هاتان المنطقتان ، الإحساء والقصيم امتزجتا منذ سنوات مضت مع نجد ، والسبب فى ذلك تفوق نجد عليهما من حيث القوة وبفعل أحداث الحرب ، وهناك مثال آخر على هذا الانفصال ، يتمثل فى الانفصال الكامل بين اليمن وعمان برغم انحدار سكانهما من سلالة نسبية واحدة . ولكنى بعد أن فسرت هذه الاستثناءات الثلاثة أشك فى أن أجد استثناءًا رابعًا ، فى كل أنحاء شبة الجزيرة العربية ، يمكن أن نضيفه إلى هذه الاستثناءات الثلاثة ، فى الوقت الراهن .

وفى الوقت نفسه ، فإن الحياة والحركة ، المصاحبان الأكيدان للحياة ، إن لم يكونا جوهرها ، استمرتا ، ولم تكن الطاقة العربية ، برغم محدودية مداها ، أقل قوة عن غيرها من القوى ، فى جميع الأماكن التى وجدت لنفسها مخرجًا عندها . فقد حققت التجارة الدولية ، وكل ما يتعلق بها الفن ، الأناقة ، والثروة نجاحًا كبيرًا فى أجزاء مختلفة من البلاد ، وبخاصة فى وسط الجزيرة العربية وفى المنطقة الشرقية ، فى حين ، ظهر فى تلك الفترات الزمنية ، أولئك الرجال القادرون على فرض الرأى وفرض الحكم على الدول المجاورة بل وعلى الدول المنافسة أيضًا ، إلى أن تحولت المنطقة التى كانت مسقطًا لرأسهم إلى منطقة رئيسية ثم تحولت بعد ذلك إلى امبراطورية ، ومن هؤلاء الرجال طلال بن الرشيد ، الذى تتبعنا تاريخه ، ومنهم أيضًا محمد عبد الوهاب ، مؤسس المذهب الوهابى ومعاونه العسكرى سعود بن سعود ، اللذان سوف نتحدث عنهما بالتفصيل فيما بعد ؛ وهناك رجال آخرون ، نحتفظ لكل منهم بالحديث عنه فى الموضع المناسب ، ولكن الذى يهمنا هنا فى هذه المنطقة ، وفى هذه المرحلة من رحلتنا ، هو داريم بطل القصيم الأوسط .

يبدو أن داريم – وأنا استعمل هذه العبارات بسبب عدم دقة وعدم توثيق أحداث التاريخ العربى – انتعش خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أى فى حوالى القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد ولد داريم فى (مدينة) الرَّس ، فى أسرة عريقة من

أعيان البلاد ، انقرضت الآن عن آخرها، وقد أصبح داريم ، عندما كان لايزال شاباً ، حاكماً مطلقاً على بلاده (الرس) ، ولم يستغرق منه ضم بقية القصيم إلى تركه أجداده المحدودة ، وقتاً طويلاً ، كانت حكومة داريم مستبدة ، بطبيعة الحال ، ولكنها كانت تحظى بشعبية كبيرة . وتشهد تحصينات عنيزه واستحكاماتها ، التي يعزوها إليه المؤرخون ، إنه كانت لديه رغبة قوية في تقوية مسقط رأسه ، ولكن ذلك لم يعوقه أو يمنعه من توجيه إهتمامه إلى أمن وسلامة ورفاه بلاده ، بشكل عام ، والتي يقال إنها وصلت ، في عهده، ذروه الازدهار التجاري ، الذي احتفظت به فترة طويلة من الزمن ، ومع ذلك ، كانت القصيم لا تتسع لكل مطامح داريم ، فقد ضم إليها نجد ، وأخضع الجزء الأكبر منها لصولجانه ، ثم تحول بعد ذلك إلى اليمن ومد إليها ذراعيه ، وأنزل الهزيمة برؤسائها في وادي نجران وجعل كلا من وادي السليل وقلعة بيشة بمثابة الحدود الجنوبية لإمبراطوريته ، وقد ترك داريم ، هذه الإمبراطورية لأولاده من بعده ، الذين حافظوا عليها طوال عدة أجيال ، دامت إلى ما يقرب من ـ محسوبه من التواريخ التي تيسرت لي ـ ثلاثمائة عام ، ومن المؤكد أن السيادة على الجزيرة العربية ، في تلك الفترة ، كانت في يد القصيم ، ولم أجد في أية مصادر أو مراجع أخرى غير ذلك ، وأن السيادة كانت معقودة لأبناء داريم بدءاً بالأب وانتهاء بالأبناء ، شأنهم في ذلك شأن أبناء الرشيد وأبناء سعود الذين جاءوا في تاريخ لاحق ، وفي النهاية استطاعت قوة رؤساء العارض المتنامية إخراج حكام القصيم من كل أنحاء جبل طويق ، وتناقصت قوة حكام القصيم ، تدريجياً إلى أن أصبحت قوة إقليمية ، ثم بعد ذلك مجرد قوة محلية إلى أن اجتاحهم الإعصار الوهابي في النهاية وإلى الأبد .

وتلازم مع حكم داريم وسلالته ، ظهور الأشكال الخرافية العربية القديمة في القصيم وبخاصة عبادة النجوم ، ولم يعد الإسلام إلى القصيم إلا خلال فترة الحكم الوهابي ، وأنا أشير هنا إلى الأشكال الخرافية العربية القديمة ، من منطلق أن عبادة الأوثان ، بشكل عام ، لم تكن تمارس على نطاق واسع في كل أنحاء الجزيرة العربية ، بل إن عبادة الأوثان ، في الجزيرة العربية ، لم تصل إلى شكلها البشع التي كانت عليه بين الأغريق والرومان ، بل حتى الشكل الذي تتخذه هذه العبادة بين الشعوب التي تسكن القارة الهندية ، كانت عبادة الأوثان العربية ، عبادة متواضعة ، وساذجة تماما في شعاراتها ، وقد اقتصرت تلك العبادة في الجزيرة العربية ، على المناطق الغربية منها ، بل أن هذه العبادة لم تكن معروفة في وسط الجزيرة العربية أو حتى فيما وراء

الحجاز واليمن؛ فى الوقت الذى كانت فيه الطقوس الدينية فى الداخل ، برغم كل تخبطها ، خالية من التمثيل الرمزى والتصوير النحتى .

البراهين السلبية تؤدى إلى حقائق سلبية أيضًا ، ومن هذه الحقائق السلبية حول هذه النقطة ، لدينا واحدة فى القرآن (الكريم) نفسه ، هذا الكتاب الذى لا يحصى فحسب كل أنواع الخرافات الشعبية أو الكفر إنما يسهب فى مجادلتها جدلاً شديداً لا يتطرق تمامًا إلى ذكر الأصنام أو عبدتها بالمعنى الصحيح لهذا المصطلح ، باستثناء ما ورد عنها فى العصور السالفة وعند الأجناس الأسطورية أو الخرافية ، ولهذا فإن محمدًا (ﷺ) يتهم من عاصروه ، بأنهم كانوا " يشركون " مع الحاكم الأعلى (الله) Supreme Ruler قوى أخرى ، ولكن هذا الشرك " له عند مُنزل القرآن معنى أوسع من أن نقصره على الوثنية أو عبادة الأصنام بالمعنى المحدد لهذا المصطلح ، زد على ذلك ، أن اللات ، والعزّى ومناة أنصاف الآلهة التى عبدتها قريش بل الأحجار التى كانت تحمل هذه الأسماء ، كانت مختلفة تمامًا فى ذاتها وفى القرابين التى تقدم إليها ، عن كل من بالاسفى[1] البارثنيون[2] أو المناقش عند أهل مدور . وكذلك الحال بالنسبة "للأنصاب " و " الأزلام " ، التى يستنكرها النبى بشدة ، على أنها أصنام لأنها كانت مجرد رموز وأدوات لها أصل خرافى ، شأنها فى ذلك شأن ، الطقوس الدينية الكهنوتية أو الثالوث عند أهل مدينة زلفى[3] ولو وجدت عبادة الصورة الواقعة ، لما استطاعت ان تمر دون أن يلاحظها أحد فى ظل الاحكام العنيفة والقاسية على هذه الذنوب الصارخة .

وقد سادت الجزيرة العربية منذ قديم الأزل ، عقيدة واحدة ، فى خالق واحد ، مصدر كل الأحكام ، وحاكم الجميع ، ويقول بعض المؤلفين . إن العرب أخذوا هذه العقيدة من مصادر أجنبية ، يهودية أو غيرها ، ولكن هذا ، فى رأيى ، خطأ ، كما أن الحجج التى يتركز عليها هذا الرأى تبلغ من الوهن والمحدودية حدًا لا تستطيع عنده الصمود أمام نظريه أخرى تنطبق على ثلثى شبة الجزيرة العربية على أقل تقدير ، فالوثائق التى لا يرقى الشك إلى أصالتها ومصداقيتها ، وهى الوثائق الوحيدة المتوفرة

(١) بالاس pallas : إلاهة الحكمه عند الإغريق وتدعى أيضا بالاس اثينا Athena – (المترجم).
(٢) البارثنيون : هيكل الإلاهة اثينا فى مدينة اثينا – (المترجم) .
(٣) زلفى : مدينه يونانيه قديمه او موحى ابولو فيها – (المترجم) .

لدينا وفى حوزتنا ، تشير إلى أن عقيدة التوحيد كانت هى دين العرب ، منذ الأزل ، وأن هذا الدين انتصر على كل التحدّيات التى لازمته وكانت تستهدف الحط من قدره ، ولكن هذه العقيدة العظيمة خبت إلى حد ما ، وكان الناس يتغاضون عنها من حين لآخر بسبب اتجاهين رئيسيين ، أولهما التركيز على قوى الكواكب والنجوم ، وهذه خرافة قديمة جداً ذاعت وانتشرت فى الشرق على نطاق واسع ، وثانى هذين الاتجاهين ، هو الفتشية[1] [2] التى كانت سائدة بين السواد الأعظم من الطبقات الدنيا غير المثقفة . ويشهد على الاتجاه الأول فى الجزيرة العربية اسم "عبد الشمس" ، وهو الاسم الذى كان يحمله رابع ملوك اليمن ، كما يشهد على ذلك أيضًا مظاهر التكريم الذى أولاها العرب لكوكب الزهراء ، نجمه الصباح ، بل أن القرآن نفسه خير شاهد على ذلك ، أما الاتجاه الثانى فيتمثل فى الممارسات التراثية التى ماتزال سائدة فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، وبشكل سرى فى المناطق الوهابية ، وبشكل علنى فى الأماكن الأخرى ، ناهيك عن الوثائق المكتوبة حول هذا الموضوع ، وكذلك العادات والتقاليد المحلية منذ قديم الأزل .

هذان الاتجاهان المغشوشان للعقيدة النقية الأصلية كانا موجودين فى القصيم ، ولكن استعادة عبادة الكواكب والنجوم أو العبادة البيئية يعزى فى الأصل إلى داريم ، وهناك حقيقة قوية أيضًا مفادها أن حكم داريم هو الذى قرر بل شهد تحرر منطقة القصيم بالكامل من الحكم الإسلامى ، ومن حسن حظنا أننا فى هذه المرحلة الحالية من رحلتنا ، أتيحت لنا الفرصة أن نشاهد تذكاراً فريداً وقديماً لهذا الشكل من أشكال الشعور الدينى ، وإن شئت فقل الضلال والانحراف .

(١) fetichism : الفتش: شيئ كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحريه على حماية صاحبه أو مساعدته – (المترجم) .

(٢) إن الكاتب يرجع انحسار الإسلام إلى انتشار عبادة الكواكب والسحر والتنجيم ، وهذه مبالغة ، لأن تعاليم الإسلام قد نهت عن تعلم السحر والانشغال به وعن التعلق بالنجوم ، فقال (ﷺ) من قال مطرنا نبوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمد" وقال أيضاً " من أتى ساحراً أو كاهنًا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد" وبعد الإسلام ومحاربته لعادات الجاهلية قلت هذه الأشياء فى المجتمع إن لم تكن إنعدمت فهى لم تعد تمثل ظاهرة تسببت له انحسار الإسلام كما يدعى المؤلف – (د. حلمى عبد المنعم) .

كنا قد توقفنا لحظة على حافة القصيم الأعلى كي نتمتع بالمنظر الرائع من أمامنا، ورأينا من تحتنا السهل الواسع ، وعلى بعد أميال قليلة شاهدنا بيارات النخيل الكثيفة في قرية عيون ، كما شاهدنا ، من خلال النخيل الكثيف ، نتفا من أبراجها وقلعتها، كما شاهدنا أيضاً ، على مسافة بعيدة ناحية اليمين ، أي ناحية الغرب ، بقعة سوداء كبيرة ، كانت تمثل الأرض المحروثة والمزارع التي تحيط بمدينة الرس ، كانت هناك قرى وهجرا (كفورا) أخرى تنتشر بصورة مركزه في كل أنحاء المكان ، كما كانت تنتشر على طول سلسلة الجبال التي وقفنا عليها ونراها على مسافات مختلفة من تحتنا، أبراج المراقبة القصيمية الدائرية العالية ، ولكننا شاهدنا أمامنا مباشرة أثرًا من الآثار المهمة ، استرعى اهتمام رفاقنا العرب في القافلة وأثار دهشتهم .

وما أن نزلنا من خلال الممر الضيق الذي كان يتفرع من حيد إلى حيد ، ووصلنا إلى سفح الجبل حتى شاهدنا أمامنا عدة أحجار ضخمة ، تشبه الجلاميد الهائلة ، موضوعه عن نهاية الطريق بحيث تكون متعامدة على التربة ، في حين أن بعضاً آخر من تلك الأحجار الضخمة كان يحمل كتلا مماثلة موضوعه بطريقة مستعرضة فوق قممها ، كانت هذه الأحجار مرتبة على شكل وتر ، ربما كان جزء ، من دائرة كبيرة ، في حين كانت هناك بقايا أخرى من الصخر ، كانت قد تدحرجت على الأرض مسافة قصيرة ، وكان عدد تلك الصخور الموجودة حوالي ثمان أو تسع إذا لم تخنى الذاكرة . منها اثنتان تبعد كل منهما عن الأخرى حوالي عشرة أو أثنتى عشرة قدما ، وتشبهان عمودين كبيرين من أعمدة البوابات ، ولكنهما كانتا تحملان أسكفتيهما اللتان كانت عبارة عن كتلتين طويلتين ، مستعرضتين ، وعدد قليل جداً من تلك الصخور لم تكن له اسكفات[1] وكانت بقية هذه الصخور كل واحدة منها تحمل رأسها تحديًا للزمن ، وتحديًا لجهود الإنسان المدمرة ، وقد شاهدت واحداً من تلك القضبان الصخرية المستعرضة ، يبدو كما لو كان صخرة هزازة ، ووجهت جملي تجاه ذلك القضيب ووقفت تحته مباشرة ، ورفعت عصا القيادة على أمل أن ألمس هذا القضيب وأحركه ولكنه لم يتحرك قيد أنملة يضاف إلى ذلك أن ارتفاع الجمل ، والراكب من فوقه مضافًا إليهما ارتفاع عصا القيادة يجعلنى أُقَدِّر إرتفاع ذلك الحجر عن الأرض ، بحوالى خمسة عشر قدماً .

(١) الأسكفه : هي عتبه الباب (أو النافذه) العليا – (المترجم) .

ويبدو أن هذه الصخور ، من حيث نوعيتها ، اقتطعت من الصخور الجيرية المجاورة ، وشكلت تشكيلاً غير مصقول ، ولكنها لا علاقة لها بالفن وليس بها أية أخاديد أو تجاويف تحمل أى مغزى قرابيني ، كما أنها لا تعبر عن أى شكل من الأشكال الزِّينية ، ويعزو أهل المنطقة تشييد هذه الصخور إلى داريم ، وأنه هو الذى أقامها بيديه ، أيضًا لأنه كان عملاقًا ، وربما يعزون ذلك أيضًا ، إلى قوة سحرية ، نظرًا لأن داريم نفسه كان ساحرًا ، وأكد رفاقنا فى القافلة ، وهم يشيرون إلى مدينة الرس ، أن هناك دائرة صخرية مشابهة لهذه الدائرة ، وأن أبعاد تلك الدائرة عملاقة أيضًا ، ثم ذكروا دائرة ثالثة ، فى اتجاه الجنوب الغربى ، أى فى اتجاه الحناكية على حدود الحجاز .

وأنا أجد صعوبة كبيرة فى تصديق المقولة التى مفادها أن الهدف من هذه المنشآت الغريبة كان هدفًا دينيًا ، وإذا كان التحذير العلمى فيما يتعلق باكتشاف رمزية نجومية Planetary فى كل من ستونهنج Stonehenge والكرنك Carnc يقوم على أساس حقيقى وواقعى ، فإن آثار الجزيرة العربية التى أمامنا هنا ، والتى أنشئت فى أرض وقَّر سكانها الأجرام السماوية وعبدوها ، لابد أن تكون هى الأخرى قائمة على أساس حقيقى وواقعى أيضًا زد على ذلك ، أن الفارق طفيف جدًا بين عجائب القصيم الحجرية وعجائب سومر ستشاير Somersetshire ، وهو أن الأولى موجودة فى الجزيرة العربية والثانية فى إنجلترا .

وهنا دخل وقت الظهيرة ، وتوقفت فى ظل تلك الأنصاب التذكارية الضخمة لنأخذ قسطًا من الراحة بعد عناء مسيرة طويلة ، ولنروى حكايات داريم ومنجزاته الخرافية ، فى حين قدم فوليح Foleyh دعوة رقيقة للقافلة بأكملها كبيرها وصغيرها ، لتناول العشاء فى منزله فى البلدة المجاورة لقرية عيون ، ولا حاجة بى إلى القول : إننا قبلنا الدعوة بكل سرور ، وأنطلق مضيفنا ومعه رفيقيه ، قاصداً بلدته التى تبعد ، مسافة مسير ساعتين ، ليسبق بقية القافلة ، ويجهز لاستقبالها ، فى حين تحركنا قليلًا ، كى نستظل ونرتاح فترة من الوقت ، فى بيارة نخيل مثمر ، تقع بالقرب من أحد الآبار ، كى نشرب ماءًا عذبا ، وننتظر إلى ما بعد انتهاء حرارة الظهيرة ثم نستأنف المسير إلى قرية عيون ، وطالما نحن ننتظر هنا ، ونقطف بعد أن أذن لنا صاحب البستان ، رطبا جنيا ، التى تتدلى قريبة من حافة قناة الماء ، أظن أنه من المناسب أن نقول شيئًا

يسيرا عن التاريخ الطبيعي وعن الطابع العام المحيط بنا ، لأن ذلك سيكون بمثابة مقدمة لأرض جديدة على القارئ ، مثلما كانت جديدة علىّ.

الكلمة العربية "القصيم" تعنى الأرض الرملية المثمرة ، وهذه هى الفكرة الرئيسية فى هذه المنطقة ، وتربة القصيم سواء أكانت حمراء أم صفراء ، تبدو منذ الوهلة الأولى غير ذى قيمة ، ومع ، ذلك فمخبر هذه الأرض أفضل من مظهرها ، وفى الأماكن التى يصلها الرى ، تعطى الأرض محصولاً نباتيًا وفيرًا مختلفًا ألوانه ، ومن حسن الحظ ، أن الماء هنا فى كل مكان ، وعلى أعماق قليلة تحت سطح الأرض ، وكان أقصى عمق للحفر ، الذى شاهدته بنفسى ، لا يزيد على ستة أقدام ، مقاسه من الأحجار الموجودة على حافة الطريق إلى خط الماء ، بل إنها فى أحيان كثيرة تقل عن ستة أقدام ، كانت هذه الخبرة التى حصلت عليها ، فى فصل الخريف ، الذى ينخفض خلاله ، معدل الرطوبة إلى أدنى حد ممكن ، ولكن الناس أخبرونى أن الآبار تفيض ، خلال فصل الشتاء ، وتنشأ عن ذلك بحيرات صغيرة ، وأن بعضًا من هذه البحيرات ، تدوم ، برغم تناقص أبعادها، إلى ما بعد فصل الصيف ، كما أنها تُوقَّع على بعض الخرائط أيضًا ، برغم أن الأمر لا يتطلب ذلك ، وطابع الأرض هنا مستو بشكل عام ، ولكنه متقلب ، وتنتشر فى هذه المنطقة التلال الرملية والمنحدرات التى يتردد ارتفاعها بين خمسين وستين قدما ، ويكسو هذه المنحدرات ، فى معظم أجزائها ، أيك من نباتات الإثل والغاطة الصغيرة المتسلقة ، كما تكثر فى الأراضى الخفيفة نباتات الخرطة Khurta عريضة الأوراق ، التى يستعملونها فى دبغ الجلود ، ونباتات القطاد K.at.ad، الذى تحبه الجمال ، وهو نوع من التيعون Tey'oon كما يسميه أهل هذه البلاد ، وهو يشبه نبات رَعْىُ الحمام[1] من حيث الشكل والرائحة .

وزراعة النخيل هنا ، هى الأساس ، كما هو الحال فى الجزء الأكبر من الجزيرة العربية ، والنخيل هنا أنواع كثيرة ، ويحق للقصيم أن تفخر بأن فيها أفضل أنواع النخيل ، ولكن يستثنى من ذلك نخيل الخلاص ، فى الإحساء – الذى سوف نتكلم عنه باستفاضة فيما بعد – وموسم نضوج الرطب هنا يصادف النصف الثانى من شهر أغسطس وأوائل شهر سبتمبر ، ولذلك فقد تهيأت لنا فرصة اختبار ذلك المحصول .

(١) نبات زهرة مختلف الألوان – (المترجم) .

وهؤلاء ، مثل السواد الأعظم من الأوربيين في بلادهم ، الذين لا يعرفون التمر إلا من خلال فترينات العرض في المحلات ، لا يمكن أن تخطر ببالهم لذة تناول التمر عندما يكون رُطَبًا ، في وسط الجزيرة العربية ، ولا يتصورون مذاقه عندما يجني رطبا تحاشيًا لعيوب حفظه ، وهم لا يتصورون أيضًا مدى غنى التمر بالعناصر الغذائية ، فضلًا عن أنه مُشبع أيضًا : وخلاصة القول إن التمر مادة غذائية لذيذة وصحية على حد سواء ، ورخص ثمن التمر في بلده قد يدهش المواطن اللندني ، إذ استطعت أنا وبركات ان نشتري بثلاث بنسات منديلًا مربعًا يصل طول ضلعه إلى خمسة عشر بوصة ، مليئ تمامًا بأفضل تمور بساتين القصيم ، ثم علقنا ذلك المنديل في دعامه سقف الحجرة كي نبعده عن النمل ، وظل دبس التمر يتساقط منه على شكل بقعة سكرية أسفل المنديل ، طيلة ثلاثة أيام ، قبل أن نأتي على محتويات المنديل ، برغم أننا كنا نأكل منه في وجبة الغذاء والعشاء طوال تلك الفترة .

وتأسيسًا على ذلك يعد النخيل مصدرًا أساسيًا للثروة التي يجنيها العرب من الأرض ، كما أن مساحة صغيرة من الأرض المزروعة بالنخيل تمثل كل ما يعيش عليه الحضري أو القروي الفقير ، والحضري أو القروي يستعمل التمر غذاء له ولأسرته ، وهو يقوم بدور الخبز في كل من فرنسا أو ألمانيا ، والذي يتبقى بعد ذلك ، وهي كميات كبيرة جداً في أغلب الأحيان ، تصدر إلى اليمن وإلى الحجاز ، اللتين لم تحبهما الطبيعة بهذه الميزة . وتقطيع نخيل العدو ، يعد اضراراً كبيراً في زمن الحرب ، كما أن زراعة النخيل في منطقة من المناطق تشير إلى زيادة الرخاء والازدهار في هذه المنطقة. والمسلمون يؤكدون دومًا ويعتقدون أن النخلة ، لا توجد إلا في البلاد التي تعتنق الإسلام دينا ، بمعنى أن النخلة بركة ، وخلاصة القول ، هم يعتقدون أن النخلة لا تعوز المؤمنين " ، وإنما هي مقصورة عليهم وحدهم ، وإذا كان هذا هو الحال ، فذلك يعني أن كثيراً من مزارع النخيل الجيد في كل من الأحساء ، وعُمَان ، ناهيك عن مناطق شومر ، سوف يكون مآلها إلى الذبول والفناء ، ولكن الله الذي يجعل شمسه تشرق على الصالح والطالح " ، على حد سواء ، لا يبدو أنه قصر النخلة على ذلك المستفيد العام ، كما أنه ، من ناحية أخرى ، لم ينبت بيارات النخيل بشكل وفير تحت جدران القسطنطينية ، نظراً لأن الإسلام تأسس فيها لأول مرة ، في عهد السلطان محمد الثاني .

كل هذه أفكار صبيانية ، ولكن تجدر الإشارة إليها نظراً للتشابه الذى بينها وبين الظنون المماثلة التي تحدث ، في أماكن أخرى ، بمناسبة الأعوام الطيبة والأعوام الخبيثة ، أو الزلازل أو الحريق ، أو التطعيم وما إلى ذلك .

ونحن هنا ، في هذه المنطقة ، نشاهد هنا أشجاراً مثمرة مختلف أنواعها ، كما أن حقول القمح والذرة ، والدخن ، والسَّيفيه[1] وما إليها تحيط بالقرى وتدر على أصحابها محصولًا وفيراً ، هذا بالإضافة إلى البطيخ وأعشاب الزينة ، ولكن توسع الزراعة والاشتغال بفلاحه الأرض تحتاج إلى الرى الاصطناعى .

وهناك محصول أخر من محاصيل القصيم ، هو القطن الذى كان صديقًا لى منذ سنوات كثيرة غبت خلالها عن الهند ، وهو يشبه النوع المزروع في الهند ، وسكان القصيم على علم باستعمالات القطن ، ولكن الكمية المزروعة منه لا تكفى للتصدير الخارجي ، ويمكن للقطن ، في ظل هذه الظروف المواتية والأفضل أن يكون مصدراً للثروة فى هذه البلاد ، والسبب في ذلك أن المناخ والتربة يصلحان لإضفاء المزيد من القمية والحيوية على نبات القطن ، أضف إلى ذلك أن وفرة المحصول هنا لا تقل عن الهند ، كما أن نوعيته أيضاً لا تقل عن نوعية القطن الذى يزرع في الهند .

وصادفت في القصيم، ولأول مرة ، نباتًا مخدراً تشيع زراعته في أقصى الجنوب ، وله خصائص عجيبة ، وبذور هذه النبات ، التى يبدو أن المادة المؤذية موجودة فيها ، عندما يتم طحنها وتعاطيها على شكل جرعات صغيرة ، تحدث تأثيرات مماثلة لتأثيرات غاز الإضحاك الذى اكتشفه السير همفرى ريفى ، والمريض عندما يتعاطى هذا الغاز ، يغنى ويرقص ، ويقوم بحركات هستيرية ، على امتداد ساعة كاملة من الهياج يتسلى بها أولئك الذين يتفرجون عليه ، يدخل بعدها في ثبات عميق ، وعندما يصحو من النوم يكون قد نسى كل ما فعله وما قاله عندما كان تحت تأثير المخدر ، ومسألة وضع قليل من هذا المسحوق في القهوة ، لشخص من الأشخاص ، على سبيل المزاح أمر شائع ، ولم أسمع قط عن نتائج خطيرة ترتبت على تعاطى هذه المادة ، برغم أن الإكثار منها له أخطاره بالفعل ، وأنا بنفسى جربت تأثير هذه المادة على اثنين من البشر ، ولكن بنسب محددة ، وهى إن لم تكن خطيرة تمامًا على الإنسان ، فالأحوط أن يلتزم

(١) نبات من نبات العلف - (المترجم) .

الإنسان جانب السلامة والتحوط ، كما شاهدت بنفسي أيضًا تأثير هذه المادة أثناء عملها فهي تثير الكثير من الضحك ولكنها غير ضارة ، والنبات الذي يحمل هذه القرون لا يزيد طوله في أرض القصيم ، على ست بوصات فوق سطح الأرض ، ولكني رأيت في عُمَان ، أشجاراً من هذا النبات يصل طولها إلى ثلاثة أو أربعة أقدام ، فضلاً عن إنه واسع الإنتشار ويزرع على نطاق كبير ، وجذوع هذا النبات خشبية وعندما يخدشها أحد يخرج منها سائل أصفر ، ولون أوراق هذا النبات أخضر داكن ، والورقة ريشيه الشكل ، ويوجد حوالى عشرين وريقة على جانبي الورقة الواحدة ، وسيقانه ناعمة وفاقع لونها ، وزهوره صفراء اللون ، وتنمو على شكل عناقيد ، وأجزاؤه الحاملة لحبوب اللقاح كثيرة ، وثمرة النبات عبارة عن كبسولة لها بطانة خضراء ، بداخلها بذرتان أو ثلاثة سوداء اللون وتشبه من حيث الحجم والشكل بذور البازلاء الفرنسية ، وطعم هذه البذور حلو المذاق ، ولكن لها مذاق يشبه مذاق الأفيون ، ورائحة هذه البذور نفاذه وتثير الغثيان ، وفي منطقة صوحار Sohar من عُمَان ، حيث يكثر هذا النبات ، جمعت بعضاً من هذا النبات للتعرف عليه ودراسته في بريطانيا ، ولكن هذه النباتات ضاعت مع بعض الأشياء الأخرى في حادث تحطم قارب وقع بعد ذلك ، ولم يراودني ذلك الفضول مرة أخرى طوال المرحلة المتبقية من رحلتنا ، التي كانت قد أشرفت على نهايتها .

ويشيع هنا نبات الداتورا السام ، أو تفاحة الشوك ، وخصائص هذا النبات معروفة للجميع ، لا في مجال الطب ، وإنما كمصدر للسم كما يستعمل في الدجل والشعوذة ، ولكني لم أعثر على نبات القنب الهندي أو الحشيش ، كما لم أعثر على أحد يعرف ذلك النبات أو استعمالاته ، مما أصابني بالدهشة والحيرة ، والبن لا ينمو في هذه المنطقة ، وهو يستورد من اليمن ، أما عن طريق وادي نجران مباشرة في بعض الأحيان ، أو عن طريق مكة في أغلب الأحيان ، والسلع المصرية الصنع وكذلك السلع الأوربية الصنع يجري جلبها إلى منطقة القصيم عن طريق مكة أو عن طريق جدة ، كما شاهدت في هذه المنطقة أيضًا و بخاصة في دكاكين بريده وعنيزة صناديق الصوفان المخلوط بالفسفور ، التي كانت تجلب من فينا ، ويجري تمريرها من خلال المدن المقدسة في الجزيرة العربية إلى أن تصل القصيم ، وكانت للقصيم علاقات تجارية مهمة مع دمشق ، ولكن هذه التجارة توقفت في ظل الحكم الوهابي ولم يعد لها وجود .

والطريق القادم من القصيم ومتجه شمالًا إلى سوريا لا يمر بجبل شومر ، ولكنه يسير في خط مستقيم مارًا بخيبر ، ثم منها إلى طريق الحج المعتاد .

ويوسع القارئ أن يحصل مما أوردته هنا ، على قدر كبير من المعلومات عن طبيعة السكان ؛ وسكان القصيم من حيث خصائصهم البدنية ومن حيث طول القامة لا يمكن مساواتهم برجال شومر ، كما لا يمكن مساواتهم أيضًا بسكان نجد العليا من بعض الجوانب الأخرى ، غير أن سكان القصيم يتفوقون على كل من سكان جبل شومر وسكان نجد العليا ، في مواهبهم التجارية والصناعية ، وسكان القصيم فيهم الكثير من مرح وبشر سكان جبل شومر ، وفيهم الكثير أيضًا من عناد سكان نجد العليا وتعصبهم القبلي ، ولكن سكان القصيم يزيدون على هذه الخصائص مكر وقلق جيرانهم ، أهل الحجاز ، الذين يتفقون معهم اتفاقًا طفيفًا من حيث المظهر الخارجي ، كما أن سكان القصيم فيهم الكثير – رغم أن ذلك لا يمكن ملاحظته منذ الوهلة الأولى – من أنانية أهل مكة وأهل المدينة المفرطة ، والتي تزيد بكثير جدً عما وصفه الشاعر الإنجليزي الفريد تينسون " دوده بدوده " وبرغم كل هذه الخصائص السيئة فإن سكان جبل شومر ينتشرون بشكل كبير في القصيم ، كما توجد أيضًا بين السكان ، عناصر جيدة يمكن توظيفها في كثير جداً من الأعمال الجيدة ، اكثر مما يخطر على البال وبخاصة في ظل الحكم الحالي .

ومن حيث الدين ، اكتسب سكان القصيم ، بحكم إتصالهم المستمر بمكة سمة إسلامية حديثة ، لم تكتسبها أية منطقة أخرى من المناطق الوسطى ، وقد بدأت مسألة فهم أهل القصيم للدين ، قبل الحكم الوهابي ، وربما يرجع تاريخها إلى انهيار حكم آل داريم ، وانفصال القصيم عن نجد ، أي منذ حوالي قرنين من الزمان . ويبدو أن مكة ، والمناطق التابعة لها ، في تلك الفترة كانت قد استردت شيئًا من سيطرتها ونفوذها القديم ، وجمعت ثروة حملها ابن سعود ، على إبله غنيمة له ، بعد مائة عام ، وتأسيساً على ذلك ، فنحن نشاهد في القصيم ، وحدها دون غيرها ، مساجد يرجع تاريخها إلى ما قبل نهاية القرن الماضي ، أو بداية القرن الحالي ، مزينة بالمآذن ، وذلك على العكس مما يفعله الوهابيون ، في حين تشيع في كلام وسلوكيات ، ناهيك عن الوعظ والإرشاد ،الطبقات المتعلمه والطبقات المهتمة بالدين ، مسحه عجيبة من المعتقدات الدينية والموروثات القرآنية التي لا تخفى على أحد ، وهذا يرجع إلى العلاقات البرية

والتجارية الحميمة التى كانت تربط القصيم بمراكز العمل الإسلامى الرئيسة . وبوسعنا أيضًا أن نعزو تمامًا إلى هذا القرب المكانى نفسه ، سواء أكان محليًا أم تأثيريًا ، ذلك المستوى الأخلاقى المنحط تمامًا فى كل أنحاء منطقة القصيم ، بل الأكثر انحطاطًا عن سائر وسط الجزيرة العربية ، نظرًا لأن الرذيلة الكبرى تشيع فى منطقة القصيم أكثر من جبل شومر، كما أنها لا تحاط بالسرية التى تحاط بها فى كل من سدير والعارض. وخلاعه أهل مكة ، سواء أكانوا صغارًا أم كبارًا ، (وأنا أتكلم هنا من منطلق معرفة مؤكدة) تكفى فى حقيقة الأمر ، لإفساد جيرانهم أصحاب المبادئ الراسخة أكثر من رجال القصيم ، كما أن كثيرًا من زوار الكعبة، يطلقون على أنفسهم بحق ، ما قاله أوفيد Ovid العرب ، عمر بن أبى ربيعه عند عودته من مكة :

« قصدتها تخففا من حمل خطاياى ،

وعدت أحمل حِمْلاً جديداً من الخطايا » .

غير أن هذا الموضوع يحتاج منى إلى مزيد من التفصيل والتأنى ، ولذلك فأنا أؤجل مناقشة هذا الأمر مناقشة مستفيضة إلى الشهر الذى سنقضيه فى العاصمة الوهابية .

كانت الشمس قد بدأت تغرب عندما غادرنا بيارة النخيل فى طريقنا إلى الطريق المؤدى إلى قرية عيون فى الوقت الذى كان فيه فوليح Foleyh يذبح طليانة ويطبخ أرزه استعداداً لاستقبالنا، ومن باب الإنصاف لهذا الرجل ، أقول إننا لم نعطه الفسحة الكافية ، من الوقت ، لإعداد الطعام ، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا حقيقة إنه سوف يطعم ما يقرب من ثلاثين ضيفًا كلهم جوعانين، زد على ذلك ، أن عددنا زاد أيضًا حوالى أربعة أفراد من نوعية جديدة تمامًا . كان هؤلاء الأربعة من الدراويش الرحالة ، اثنان منهما من مدينة كابول ، والثالث من بخارى أما الرابع فكان من البلوش ، وكانوا قد سلكوا طريق وسط الجزيرة العربية عند عودتهم من مكة إلى بلدانهم فى الشرق ، ومن هنا اعترض طريقهم طريقنا فترة من الوقت ، كان أحدهم ، وهو "البلوشى" رجلاً كهلاً ، يتراوح عمره بين خمسين وستين عامًا ، وقد عرفت عمره من لحيته البيضاء وتجاعيد وجهه ، وكان نحيفًا وطويلاً ولا يعرف كلمة عربية واحدة ، أما رفاقه الثلاثة فقد كانوا أمتن منه وأصغر سنًا ، وظهرت على وجوههم علامات

الإرهاق الشديد والصعوبات التي كابدوها طوال هذه الرحلة التي قطعوها سيراً على الأقدام ، في وسط هذا المناخ ، وعبر هذه الطرق ، وقد قال لنا الكابولي والبخاري إنهما يتمنيان أن يكون حجهما قد استغرق عــامين قبل أن يعــودا إلى ديارهما ، وألا يقل عن ذلك ، طبقًا لطريقتهما في السير والترحال ، كان الاثنان يرتديان زيهما الخاص بهما وببلادهما قلنسوة الرأس المصنوعة من الصوف ، وقميص خارجي كبير ، سروال فضفاض ، وتلفيحة تلف على الكتفين .

قال لنا الرجلان : وأنا أثق فيما قالاه ، أنهما سنيان، برغم أن هذه النقطة لم تحظ عندي باليقين التام ، نظر لأن كثيراً من الشيعة في تلك المناطق ينتحلون مظهر السنة ، كي يضمنوا لأنفسهم استقبالاً طيبًا طوال رحلتهم خلال الأراضي الأخرى التي يسود فيها المذهب السني ، وبخاصة في مكة ، وقالا إن مذهبهما ، سواء أكان حقيقيًا أم منتحلاً ، هو مذهب أبو حنيفة ، الذي ينتشر في كابول ، وبلخ ، وبخارى ، وبلو خستان ، كان هذان الدرويشان يعيشان على الصدقات التي كان الناس يتصدقون بها عليهما على طول طريقهما ، وكان مظهرهما بسيطا ويدل على التقوى والورع .

ومع ذلك ، فإن قلة قليلة من قافلتنا هي التي رحبت بمقدم هؤلاء الأربعة أو كانت تشعر بالقلق ، على أقل تقدير ، من مسألة السماح لهم بالانضمام إلينا ، والدرويش في وسط الجزيرة العربية ، يشبه من جميع الوجوه ، سمكه عندما تكون خارج الماء ، والوهابيون يكرهون هؤلاء الدراويش ، بل أن بقية العرب لا تنظر إليهم نظرة أفضل من نظرة الوهابيين إليهم ، وذلك من منظور أن الدراويش يجسدون ، بأسلوب حياتهم ، وطريقة معيشتهم مذهبًا دينيًا يتسم باللامبالاة بشكل عام ، وبالكراهية في معظم الأحيان ، وحيا أفراد القافلة القادمين الجدد بكثير من الملاحظات التي تنطوي على التهكم والسخرية منهم ، فضلاً عن التعليقات غير اللائقة ، إلى أن عاد الطبع العربي الأصيل إلى اصله في النهاية ، وسمح العرب للدراويش الأربعة أن يشاركونا المزايا والمعونة المتبادلة بين الرحالة على الطريق .

ومسألة تنكر المستكشفين الأوربيين، أثناء تجوالهم في الشرق، في زي الدراويش ، مسألة غير مناسبة لأكثر من سبب أول هذه الأسباب ، أن الأمر لا يستدعي أن أسهب في وصف الجانب الأخلاقي الذي سوف يستحوذ على العقول غير المتحضرة ، والسبب في ذلك إن مسألة تظاهر المغامر بدين غير دينه الحقيقي ، ومسألة أداء الطقوس

الدينية بطريقة تثير الشكوك ، وبخاصة تلك الطقوس التى لها منازل عالية ومقدسة ، ومسألة القيام ببعض الممارسات التى يستهجنها هو من داخله ، والتى ينوى عند عودته إلى بلده أن يشهرها كي يسخر منها الآخرون ، ومسألة ان يقلب خلال عدة أسابيع وعدة أشهر، مشاعر الإنسان المخلصة تجاه خالقه ، إلى تمثيلية سخيفة مرائية ولاذعة ، ناهيك عن المسائل والملمسات الأخرى الأكثر اسودادا ، كل هذه المسائل لا يمكن أن تناسب طبيعة الشخص الأوربى الماجد ، ناهيك عن المسيحى وأنا عندما أقول ذلك ، لابد أن استنكر استنكاراً واضحًا جميع الأفكار التى تشير إلى قضايا أو حالات محددة ، لا أكون ملمًا بكل ظروفها وأحوالها ، إن ما أقول به هنا هو مجرد وجهه نظر مجردة لا أكثر ولا أقل ، دون أن أشير إلى الأخطار التى تتطلب الإقبال على سلوك من هذا القبيل ، أو الدوافع التى تضمنه وتؤيده ، ولكن التخلى عن هذه الأرضية النظرية ، والتزام الحقيقة ، وهذه أيضًا عقبه كبيرة أمام التنكر فى زى درويش لا تساعد على تحقيق الأهداف المبتغاة ، وبذلك يمكن أن يكون عقبه حقيقية C'est pis. ou'un ctime, c'est une betisse والأمر يحتاج منى هنا إلى شئ من التوضيح .

المتصوفة فى الشرق لا يعملون كشخصيات متفردة بأى حال من الأحوال ، لأنهم ينتمون إلى اتحادات واسعة الانتشار وتربط بينها روابط قوية ، وكل هذه الاتحادات مصنفة وتندرج ضمن مدرسة أو نظرية أو استعمال موثوق به – مثل الرفاعية ، والقادرية ، والبكرية ، والشاذلية ، وما إلى ذلك ، وتعرف هذه المدارس بأسماء مؤسسيها . أما عن مبادئ هذه المدارس ، والفروق التى بينها وبين بعضها البعض ، فأنا لا علاقة لى بها هنا لأن هذا موضوع طويل عالجه المستشرقون والمؤرخون المستشرقون من بعض جوانبه ، برغم أن لدى الكثير الذى يمكن ان أضيفه حول هذا الموضوع – ويكفينى هنا أن أقول : إن كل مدرسة ، وكل إخوانيه ، لها تعاليمها الواضحة وفنياتها الواضحة ، ولها أيضًا طقوس ومرعيات خاصة بها ، ولها مشايخها ولها أيضًا علماؤها doctors ، ولها رجالها العظام ومؤسسوها العظام أيضًا . والراهب الفرنسيسكانى ، أو الراهب الدوميناكتى أو الراهب البنديكى لا ينتمون إلى هيئات منظمة تنظيماً دقيقًا مثل تلك التى ينتمى إليها المتصوفه ، كما أن الهيئات التى ينتمى إليها هؤلاء الرهبان ليست مميزة عن بعضها تمييزاً دقيقًا ، فضلاً عن اتباع كل مشيخة ، ما يتميزون به أيضًا عن اتباع المشايخ الأخرى ، ضمن هذا الشكل المسوخ من أشكال الرهبنة المسيحية الشرقية ، والآن ، دعونا نتصور أن واحداً من الرحالة

البروتستانت من مدينة أدينبره Edinburgh أو ستوكهلم Stockholm يريد ، لأى سبب من الأسباب ، أن يعبر إيطاليا أو اسبانيا متنكراً فى زى راهب بندیكی أو فرانسيسكانى ، مستهدفاً بذلك أن لا يتعرفه أحد فى البلدان الكاثوليكية ، ستكون نتيجة ذلك ، أن يوقع هذا الراهب نفسه فى كثير من المصاعب الشكلية ، مما يترتب عليه زيادة احتمال اكتشافه بدرجة كبيرة جداً ، ولنا أن نتخيله الآن وهو ينتحل هذا وذاك ، ماذا يمكن أن يحدث لمثل هذا الراهب إذا ما فشل فى حبك الشخصيات التى يتنكر فى زيها ؟ أولًا وقبل كل شئ ، إذا ما شك راهب أو أخ فى جمعية دينية ، فى حقيقة هذا الشخص المتنكر ، فإنه سوف يحتال عليه بتوجيه بعض الأسئلة العائلية والعبارات التى تمكنه من معرفة حقيقة الملة التى ينتمى إليها ! وهنا ربما كان من الأفضل لذلك الشمالى المتنكر أن يترحل مثل سائر الناس ، ويختلط بهم فى حياتهم اليومية وهذا أسلم وآمن له بحكم بساطه تصرفاته وتلقائيتها .

فى الحقيقة ، أنا لا أصدق أن أحداً من أولئك الذين شاع عنهم أنهم اتبعوا هذه الخطة فى البلدان المحمدية (الإسلامية) ، لم يكتشف أمره ، إذ تحمل المضابط بين صفحاتها بعض الحالات التى جرى اكتشافها ، وبعضاً آخر جرى اكتشافه وترتبت على ذلك الاكتشاف نتائج وخيمة ، بعضاً ثالث ، أكثر حظاً ، عادوا إلى بلدانهم وهم يتفاخرون بأنهم أفلتوا من العقوبة التى راحوا على أثرها يسخرون من الدين فى الشرق ، ثم ينشرون بعد ذلك نجاحهم الخيالى ، ولكن لدى أسباباً قوية تجعلنى لا أصدق أن النتيجة فى أية حالة من تلك الحالات ، كانت مطابقة لما تخيله صاحبها ، وقد سمعت عن واحد أو اثنين من أولئك المتصوفة المتنكرين ، الكثير من أهل البلاد التى شهدت تنكرهم المتخيل ، وتأكد لى أن الناس كانوا يكتشفونهم فى كل مكان ، وأنهم كان يجرى التقاطهم من وسط الناس فى معظم الأحيان ، وأن الذى كان ينقذهم من سوء المصير الذى كان ينتظرهم ، هو أدب وحسن تصرف أولئك الذين وقع هؤلاء المتصوفة فى قبضتهم ، ومع ذلك ، فقد وصفت تلك النوعية من المتصوفة بأنها مجهولة الهوية ، وأنها تعرف الشرق منذ زمن طويل ، وأنا لا أعرف أحداً غير هؤلاء ، كان أسعد حظاً .

قد يظن القارئ ، أن من الغريب أن يحدث هذا الاكتشاف ، دون أن تعقبه أية فضيحة أو ما هو أكثر ، ولكن هذا هو الواقع فى أغلب الأحيان ، والسبب فى ذلك يرجع إلى خاصية عجيبة فى الشخصية الشرقية وفى الذهن الإسلامى بصفة خاصة .

(والمسلم) المحمدى الآسيوى ، حتى عندما تتوفر لدية أسباب قوية لإعمال الشك ، لا يتشكك فى أى إنسان آخر يعتنق عقيدة الإسلام، حتى وإن كان ذلك الاعتناق ظاهرياً ، وهو بذلك يعمل بمقتضى نص قوى من نصوص القرآن . "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام ، لست مؤمنًا " و "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم" وحديث الرسول (ﷺ) الذى يقول : " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما " يعطى نفس المعنى ، من هنا ، فمن المسلم به بين أتباع محمد (ﷺ) أو بين جميع المسلمين ، أن أى إنسان مختّن ويقول : " لا آله إلا الله " هو مسلم شرعًا وحقيقة ، وله الحق كل الحق فى أن يكون كذلك وأن يعامل باللين والإحترام . كما أن إيمان هذا الرجل أو عدم إيمانه الداخلى لا يؤثر فى هذه المسألة ، وليس من حق أى إنسان أن يعرف أى شئ عن أفكار مثل هذا الرجل ، والسبب فى ذلك أن هناك حكمًا إسلاميًا يقره الجميع مفاده " الباطن لله " وتأسيسًا على ذلك فإن المسيحيين الصابئين والمتصوفة الخياليين ، حتى وإن كانوا مجرد مؤدين ظاهريين ، يكون من حقهم أن يستفيدوا من التوافق الظاهرى ، ويدخلون فى عداد المنافقين أو المبتدعين ، وبالتالى لا يعاملون معاملة المجرمين .

هذه الملاحظات الأخيرة تطبق فى مكة بصفة خاصة ، وعلى طريق الحج أو فى المناطق الأخرى من ساحل البحر الأحمر والمناطق المجاورة لها ، ولكن الأمور داخل الجزيرة العربية قد تتخذ منحى آخر غير هذا المنحى ، والسبب فى ذلك أن العفو والصفح الذى يمتد أثره إلى المدعين لا يشمل الجواسيس ، وفى الجزيرة العربية ، يمكن اعتبار ممثلنا المزعوم جاسوساً ، وبالتالى يعامل على هذا الأساس . وهناك مثال حزين على ذلك ، إذ ترقد عظام أحد الرحالة الأوربيين ، منذ سبع سنوات ، تحت شمس ومطر إحدى المناطق المجاورة للدرعية ، لتكون شاهداً على هذه الحقيقة.

هذا الرجل التعيس ، الذى يبدو، أننى كنت أول من أتى بأخباره المشئومة إلى أصدقائه فى أوربا ، كان قد تغلغل داخل نجد ، سالكا الطريق الذى يؤدى من ساحل البحر الشرقى إلى الداخل ، على أمل الوصول إلى المناطق الوهابية وعبورها ، وإلى هنا يكون كل شئ على ما يرام ، سوف أوضح فى المجلد الثانى من هذا الكتاب ، خط سير تلك الرحلة ، بمضمون معكوس ، بمعنى أن خط سير تلك الرحلة كان هو الأسهل

والأقـــرب ، ولكن فى لحظة من لحظات الســـوء ، فكر فى أن يرتدى ثيــاب درويش (متصوف) ، وأبحر هذا الرحالة ، وهو يرتدى تلك الثياب ، وهذا هو ما قالوه لى من جزر البحرين إلى ساحل الإحساء المجاور لها ، ومن الإحساء وصل إلى الهفوف ، التى كان محـمـد السديرى يحكمها باسم وسلطة الملك فيصل الوهابى ، وبينما كان هذا الرحالة فى الهفوف ، خانه سلوكه ، وبخاصة قدرته على الإنفاق التى لا تتفق مع شخصية المتسول التى هو عليها ، وجرَّت عليه المراقبة ، وفى النهاية أثارت من حوله الشكوك وخلال أيام قلائل أُرْسِلَ مكتوباً من محـمد السديرى إلى الرياض ، يبلغ فيه الملك فيصل بوصول ذئب يرتدى ثياب شاه ، أو بمعنى أدق ، رجل مسكين ! مثل شاه تلبس ثياب ذئب ، داخل أسوار الحظيرة الوهابية ، وأرسل الملك فيصل أوامر تقضى بالتزام الحذر وعدم إزعاج أو إحباط ما يفعله ذلك الدرويش ، وأن يراعوا ألا يثيروا شكوكه ، وأن يشجعوه على المضى قدمًا فى رحلته إلى العاصمة .

وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع غادر ، الرحالة الذى لم يكن يعرف أن العيون تراقبه الهفوف ، واجتاز وادى فاروق ، ثم الدهناء إلى أن وصل إلى حافة جبل طويق ، ثم دخل وادى سليع Soley ثم وصل أخيرًا فى أمن خادع ومراوغ إلى الرياض ، التى قدم نفسه فيها ، عند بوابة قصر الملك فيصل ، على أنه شبه ضيف وشبه متسول .

واستقبله عبد العزيز ، كبير الياوران ، طبقًا للعرف المتبع ، وسأله عن أسمه والهدف الذى جاء من أجله . وقال له الرحالة : إنه درويش جائل ، يقصد أداء فريضة الحج فى مكة ، وعزموه على القهوة وكل مظاهر الكرم الشرقى الأخرى فى حين ذهب عبد العزيز ليبلغ العنكبوت العجوز داخل القصر ، أن الذبابة موجودة حاليًا فى وسط عش العنكبوت .

كان الرحالة التعيس يتمتع براحته فى فترة المساء ، على أمل أن يقضى عدة أيام دون إزعاج ومكرمًا فى عاصمة نجد ، عندما وصله أمر من الملك يقول : نحن الوهابيين لسنا بحاجة إلى الدراويش فى أراضينا ، وعليه اتركوا الغريب يتجه صباح باكر قاصداً مكة ، حيث سيشعر هناك بالراحة أكثر من هنا " وكان بصحبة هذا الأمر مبلغًا من المال ، يساوى حوالى تسع شلنات ، وهى عبارة عن صدقة معتادة تعطى للسائلين عند بوابة القصر ، فى مثل هذه الظروف ، كما أعطوه جملًا يركبه ، ووعدوه بمرشد يوصله إلى المحطة التالية .

كانت مقاومة ذلك الأمر لا طائل من ورائها ، وكان التأخير على نفس الشاكلة ، وفي الساعة المحددة ، اتجه اثنان من خدم القصر ومعهما " القتيل " ناحية الغرب ، وكانت الأوامر الصادرة ، تقضي بالمرور به خلال الطريق الذى يخترق خرائب الدرعيه ، التي يسكنها أشرس أتباع المذهب الوهابي ، وعندما أصبح الرحالة ومعه مرشديه من أهل الرياض ، قام المرشدان بتحذير القرويين ، وأبلغوهم أن شكل الدرويش الظاهري هذا يخفي وراءه جاسوسًا أوربيًا ، وإن هي إلا دقائق معدودات حتى أردى الرحالة بعدها قتيلًا تحت أشجار نخيل الدرعية ، وقد اخترقت جسمه عدة طلقات فتحوها عليه من بنادق القتيل ، وقد أبلغوني بتلك الأنباء ، في منطقتها ، يضاف إلى ذلك ، أن سبع سنوات ، حسبما علمت عندما عدت إلى أوربا ، من الصمت ، لم يتخللها وصول أنباء أو خطابات من ذلك المستكشف التعيس ، جعلتني أتخوف نظرًا لأن هذه الحكاية ، من حيث المبدأ ، كانت أكثر من صادقة " ، على أقل تقدير .

وسوف أتكلم فيما بعد ، عن نمط سلوكي ، شائع للأسف ، إزاء أولئك الذين تدور من حولهم الشكوك في المناطق الوهابية Etquorum pars magna ولكن الحكاية التي أوردتها عن ذلك الرحالة التعيس ، تكشف عن عائق ثالث خطير يتصل ، في هذه المناطق ، بحكاية المتصوف " المحيرة " حتى وإن مرت هذه الحادثة دون أن يكتشفها أحد ، ومن المعروف أن الدرويش الحقيقي ومن يظنونه كذلك في البلدان المحمدية (الإسلامية) المعتادة ، يلقى دوما قدرًا معلومًا من الاحترام ، وأحيانًا التوقير والتقدير ، حتى عندما يجر عليه ، مظهر ثيابه ، أو طريقة تصرفه ، من حين لآخر ، شيئًا من السخرية والاستهزاء ، وبذلك يصبح موقفه مثل موقف راهب يتسول في إحدى البلدان الكاثوليكية ، عندما يكرموه ، برغم الابتسامات أو التعليقات الساخرة التي يلقاها من الناس ، غير أن موقف المتصوف بين الوهابيين مختلف تمامًا ، لأن المتصوف ، سواء أكان سنيًا أم شيعيًا ، مكروه بين هؤلاء الناس ، ولا يعدونه مجرد مهرطق ومبتدع وإنما هو أصل الابتداع ومحط الكراهية ، وبذلك يتساوى موقف المتصوف هنا مع موقف الراهب المتسول الذى يرتدي زي الرهبنة ، ويمسك في يده مسبحه ويقف وسط مجموعة من الحضر المتحمسين الذين لا يعترفون بالبابا ، رئيس الكنيسة الكاثوليكية . والمثل التاميلي ، الذى يمكن أن يضرب هنا يقول : " ذهب الأحمق إلى خزان الماء كي يغسل قدميه ولكنه لطخهما بالطين " .

في مـذكـرة عن آثار نقب الحـجـارة Ruins of Nekeb - el hejar أرسلهـا النقـيب ولستد Welsted ، منذ حوالى ثلاثين عامًا ، إلى الجمعية الجـغرافية فى لندن ، اقترح هذا الضـابط الباسل وسيلة للتنكر أفضل ، وآمن واكرم من التنكر فى زى متصوف . وقال إن التنكر فى زى تاجر أو طبيب، تحمي الرحالة من الشك ، كما تعطى صاحبها ، في الوقت نفسـه ، عذراً ظاهريًا مقبولًا ومحترماً للقيام بالأبحاث العلمية ، وبذلك يتمكن من الوصول إلى نتائج مفيدة دون أن يتعرض لأمور ، تحتم وضعه فى موضع المساءلة، وأنا عندمـا قمت برحلتى لم أكن أطلعت على مـا نشـره ذلك الضـابط الشـجـاع . ولكنى بعد ، عدة أشـهر ، من عودتى إلى وطنى ، وقعت هذه المذكرة بين يدى ، وسـاعدنى أن أرى الخطة نفسها التى هدتنى إليـها تجربتـى وتعليمى ، وقد وافق عليها وأقرها ضابط كبير مثل النقيب ولستد Welsted .

ولكن قبل أن أعود إلى مجرى قصتى ، الذى أقاطعه بين الحين والآخر ، دعونى استكمل الملاحظات التى بدأتها ، التى لا أشك أنها تفيد الرحـالة الشرقيين ، بأن أورد هنا حـقـيـقـة غـريبـة ولكنهـا مـؤكـدة ، ومـن المسلم به عند الأوربيـيـن أن بعض العـرب يضمرون للمسيحيين كراهية شديدة ، بوصفهم مسيحيين ، ولذلك تنتج عن ذلك الشعور الأخطار أو الصعاب الرئيسية التى تحف طريق الرحـالة الذى يتنقَّلُ فى بلاد العرب . وأنا أرى أن هذا الحكم خاطئ وليس صحيحًا ، وظهور المسيحى فى الجزيرة العربية (باسـتـثنـاء مكة وملحـقـاتهـا ، إلى حد مـا ، وفى ظل ظروف مـحـددة) ، لا يتـرتب عليـه أخطار أو مصـاعب أو عوائق ، إذن أين يوجد الخطر ؟ الخطر نفسـه يكمن فـى القيام برحله خلال الجـزيرة العربية ، ويكمن هـذا الخطر فى احتمـال انفضـاح أمـر الرحـالة على أنه أوربى ، أو عميل للأوربيين ، وهذا الانفضـاح ، فى حد ذاته ، كاف للقضاء على حيـاة صـاحبه ، وفى أفضل الأحوال قد يؤدى ذلك الانفضاح إلى وقف اسـتكشـافات الرحالة وإجباره على العودة إلى الحدود ، تحت مراقبة لصيقة أثناء عودته إليـها ، ومـع أن صـفتى المسيحية والأوربية قد تجـتمعـان فى شخصـية الرحـالة ، إلا أنهما توجدان متلازمتـان فى الذهن العربى مع أن الخطر المشـار إليه مـرتبط بالصـفة الاوربيه وليس بالصـفة المسيحية ، مـن هـنـا ، إذا مـا اسـتطـاع الرحالة المرور بإعتبار أنه من آسـيا ، فـإن مسـيـحـيـتـه لن تسـبب له أى نوع من الخطر ، وهنا يمكن أن يكون حـاله على مـا يرام ، وبخاصة فى المناطق المتزمتة ، فى بعض أجزاء الامبراطورية الوهابية على سبيل المثـال ، شـريطه ألا يسـتـعـرض دينه أمـام أناس يكرهونه بـلا مـحـالة ، وإلاَّ يهـاجم

الممارسات والأفكار العامة ، وأن يكون ممدوح السمعة ، وهذه مسألة سابقة لأوانها ، وليحتفظ الرحالة بدينه لنفسه دون أن يحاول نقله إلى الغير ، وأن يمضى فى رحلته بهدوء دون جلبة واثقا أن أحداً ، مهما كان ، لن يسأله عن عقيدته أو ملته ، إذ يسود بين العرب الذين يحترمون أنفسهم وأصحاب العلم قول مأثور مفاده " الدين لله " ولكن إذا ما واجه الرحالة، أحدا من أصحاب الفضول ، الذين يتساءلون عن مثل هذا الأمر ، فما على الرحالة إلا أن يرد عليه قائلًا : "كل له مذهب" ، وسوف يكتشف أن الحاضرين سيحيونه بالإجماع على حسن رده ، ويفرضون الصمت على مسائله .

لا أحد مجبر على "حمل قلبه على كفه كي ينقره المغفلون" ، لا بل لا ملته أيضاً . الواقع أن هناك مناسبات تصبح المجاهرة الفعلية بالعقيدة فيها واجبًا ، وفى أوقات الحروب يتعين على الجندى ألا يتخلى عن زيّه ولكن هذه الحالات لا علاقة لها بالحياة اليومية المعتادة ، ويندر أن تحدث للتاجر أو الطبيب الذى يتجول بين البشر غير مبال بعقيدته ، ولذلك يجب أن تكون ملابسه جيده وعقاقيرة مؤثرة وفاعلة ، أضف إلى ذلك أن أحداً ليس من حقه أن يسب من هم حوله بكلمات أو بأعمال يعلم أنها تؤذيهم وكلما كثر ذلك قل الخير المنتظر من وراء ذلك . صحيح ، أن الانحناء فى منزل ريمون Rimmon كان بإذن استثنائى ، أُعْطِىَ ظروف دقيقة جداً ، ولم يقصد به أن يحاكيه عامة الناس ، ولكن فى معظم الأحيان يندر أن تكون هناك لياقة أو ميزة فى سَبِّ ريمون ولعنه فى بيته ، والمخاطرة الواضحة بإلقاء عبادة فى هرج ومرج خطير وغير مفيد ، ومع أن الوهابى لا يحق له أن يضرب أو يقتل غريبًا لمجرد أنه مسيحى ، إلا أنه من المحتمل تماماً ، إن لم يكن من المؤكد ، أن يفعل الاثنين ، الأولى (الضرب) والثانية (القتل) إذا ما تخيل أن ذلك الغريب مبشرا ، وأن هذه الفكره قد تستحوذ على عقل الوهابى إذا ما لاحظ أن ذلك القادم الجديد بدأ يناصب الناس علنًا ، العداء فى عقيدتهم أو بدأ يستعرض هو عقيدته وخلاصة القول ، أن المسيحى الإنجليزى يستطيع أن يعبر الجزيرة العربية بل نجد نفسها ، دون أن يضطر إلى المساومة على دينه أو شرفه ؛ ولكن ذلك ، يتطلب منه معرفة واسعة بالعادات والتقاليد الشرقية ، وأن يجيد من لغات الشرق لغة واحدة ، على أقل تقدير ، مع قدر كبير من الحذر والتحوط فى أقواله وأفعاله ، وأن يكون هدفه جاداً ، وقلبه جسوراً وضميره نقياً ويترك الباقى لمالك السماوات والأرض .

وأنا لا أعني ، قبل كل شئ ، أنه لن تكون هناك أخطار أو عقبات قد تعترض طريق الرحالة ، فقد تتلبد السماء الصافية فجأة بالغيوم ، وقد تكون هناك ساعة ، غير مواتية ، من بين الأربع والعشرين ساعة التي يتخللها الليل والنهار ، ولكن إذا ما أخذ الرحالة كل شئ بعين اعتباره ـ ولن أتردد في أن أقول الخطة التي وضعتها هي الخطة نفسها التي اتبعتها ـ فمن المؤكد أن هذه الخطة ، بل ربما تكون هي الخطة الوحيدة ، التي ستتيح له المزيد من الفرص الناجحة عن أية خطة أخرى .

وفي ختام هذا الموضوع أود أن أورد هنا ملاحظة محددة ، قلت في سياق كلامي إن دين أي غريب من الغرباء في هذه البلاد ، برغم أنه قد يكون الدين المسيحي ، لن يجعل صاحبه يساوم على سلامته الشخصية أو حجم رحلته ؟ زد على ذلك ، أن عدداً قليلاً جداً من أهل وسط الجزيرة العربية هم الذين يعرفون ما هي المسيحية : بل أن من بين السكان من يرى المسيحيين على أنهم مجرد أتباع مذهب من المذاهب الإسلامية ، وبعض آخر ينظر إلى المسيحيين باعتبارهم كفاراً ؛ وبعض ثالث ينظر إليهم باعتبارهم إخواناً وبعض رابع يعتبرهم كفرة مارقين ، ولكن إحساس الناس العام تجاههم إحساس طيب باستثناء عندما يكونوا وسط السكان الوهابيين ، وحتى عندما يكون المسيحيون بين الوهابيين فإن نظرتهم إليهم تختلف عن نظرتهم إلى اليهود ، ذوي السمعة السيئة في كل أنحاء الجزيرة العربية ، وفي أحيان كثيرة ، تجد بين رجال العلم والمعرفة الوهابيين ، في حدود العلم والمعرفة الموجودين هنا ،أناس يجهلون تماماً العالم من حولهم ، ويعتقدون اعتقادا جازمًا ، أن الكون بكامله ، بكل ما فيه من إنس وجن ، يعتنق الدين الإسلامي ، وبالتالي فهم ينظرون إلى المسيحية نظرة كراهية وحقد تاريخيين شأنهم في ذلك شأن عالم اللاهوت وموقفه من علم اللاهوت عند الآشوريين والإغريق بل أنهم لا يحلمون حتى بوجود المسيحيين كي يصبوا عليهم حقدهم وكراهيتهم .

ووسط هذا الإرتباك العرقي والديني ، أرجو ألا يندهش القارئ عندما يعرف أن أهل هذه البلاد كانوا يعتبروننا مسلمين في كثير من الأحيان ، برغم أن تغافلنا عن الصلاة وعن الوضوء كان يعلنان عن تراخينا ، بل إن الرأي العام كان يصنفنا على أننا من الأتراك ، أو الأكراد أو الألبان الذين أدى تراخيهم ، في هذه الأمور إلى أن يتحاشاهم الناس في وسط الجزيرة العربية ، وذهب أصدقائي النجديين إلى أبعد من

ذلك ، إذ اعتبروني بحكم عيناي الزرقاوين وشعري الكستنائي ، واحداً من الضباط العثمانيين ، هرب بعد أن ارتكب جناية عسكرية ، وراح يبحث عن ملاذ لنفسه في الأراضي العربية تخوفًا من العقوبة العسكرية ، بعض آخر ، من الذين سمعوا عن المدارس الطبية في مصر ، والذين لم يكونوا يعرفون سواها ، ظنوا أنني من أصل مصري ، بعض ثالث اعتبرني من مراكش ، في الغرب ، ومن ثم فهم ينظرون إلى أهل هذا البلد باعتبارهم من السحرة والمشعوذين ، وبذلك أكون قد تحولت إلى ساحر ومشعوذ رغماً عني ، وفي ظل كل هذه الفرضيات كانوا يعتبروني مسلمًا ، وتأتي بعد ذلك المسائل المتعلقة بالتأدب عند مخاطبة الغرباء ، أعني ، عندما يسألوني من أين جئت ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟ ولماذا جئت إلى هنا وما هي مهنتي ؟ وكنا نجيبهم بأننا جئنا من سوريا ، وكنا متجهين صوب الشرق ، ويظن بعض من سكان وسط الجزيرة العربية ، أن سوريا ، بالإضافة إلى بقية أرجاء الدنيا ، لا يسكنها سوى المسلمون فقط ولذلك بدءوا يحسنون معاملتنا من هذا المنطلق ، وتطرق بعض رابع وسيطرت عليهم فكرة مؤداها أن كل مسلمي سوريا قضى المسيحيون عليهم قضاء مبرما وهنا نجد العربة أمام الحصان بالنسبة لمذابح العام ١٨٦٠ الميلادي ، ولكن هذه المقولة شائعة في نجد ، وهنا نكون قد تحولنا إلى مسيحيين مرة أخرى ، يضاف إلى ذلك ، أن التراث العربي يسلم بأن فن الطبابة مقصور على الأمم المسيحية ، ورثة الإغريق ، وقد سبق أن أشرت إلى هذه الفكرة و أوضحتها ، ومن هذا المنطلق صنفونا أيضاً على أننا من أتباع ابن مريم أخيراً ، فإن عدداً كبيراً من ، بل في المناطق الوهابية نفسها ، لم يشغلوا أنفسهم بهذا الموضوع أو يهتموا به ، واكتفوا بأننا من مخلوقات هذا العالم ، وأن مكاننا فيه لا يسترعي انتباههم ، ولم يحدث ، سوى مرة واحدة ، أن أصبح لقبنا المسيحي مدعاة للاتهام ومصدراً للخطر ، أما كيف حدث ذلك ؟ وكيف أنجتنا العناية الإلهية من الخطر ؟ فهو ما سأتناوله في الصفحات التالية ، يضاف إلى ذلك ، أن كثيراً من الأمور التي صاحبت ترحالنا في كل من نجد والإحساء ، وعمان سوف تساعد على توضيح هذا الموضوع الغامض والمعقد ، ولا يجب علينا أن نتأخر ، اكثر من ذلك ، عن العشاء والدعوات الكريمة التي وجهها إلينا فوليح Foleyh ، الذي يقف عند بوابة القرية في انتظار ضيوفه الجوعانين كثيري العدد وبخاصة بعد أن أضيف إليهم المتصوفة الأربعة ، الذين كانوا سبباً في هذا الاستطراد الطويل .

وصلنا الآن إلى خارج أسوار قرية عيون ، التى يصل عدد سكانها إلى حوالى عشرة آلاف نسمة طبقًا لحساباتى . وموقع قرية عيون المتوسط ، فهى تقع عند ملتقى خطوط المواصلات القادمة من الشمال ومن الغرب ، يضفى عليها أهمية ، وهى لهذا السبب محصنة تحصينا جيداً ، يناسب تحصينات الريف ، وفيها أبراج للمراقبة ، تشبه مداخن المصانع من حيث الحجم والشكل ، كما أن فيها قلعة كبيرة وضخمة ، وقفنا بالقرب من البوابة الشمالية ، وعندها وضعنا أشياءنا ومتاعنا ، وتركنا عنده اثنان من رجال القافلة يحرسانه أثناء غيابنا ، فى حين رافقت بقيــة القــافلة فوليح إلى منزله .

ومررنا بخزان كبير مملوء إلى أكثر من منتصفه بالماء الراكد ، بالقرب من وسط البلدة ويمتد بمحاذاة سور القلعة فى بعض أجزائه ، ويبدو إن إنشاء هذه القلعة يعود إلى تاريخ قديم ، ثم نصل أخيراً إلى باب جانبى فى الشارع ، دخلنا من خلاله إلى حديقة كبيرة جيدة التنسيق ، مملوءة بأشجار النخيل التى لم أرى لها شبيها فى حياتى ، وتوجد فى هذا البستان تعريشه ، تتسع لحوالى أربعين رجلًا ، أقيمت بين ظلال النخيل ، وكانت تلك التعريشه مفروشة بالحصير والسجاد ، الذى كان الضيوف يجلسون عليه طبقًا لمرتبتهم وأحوالهم ، وفى الوقت نفسه كان فوليح ، قد بدّل ملابسه الملوثة بالتراب بملابس أخرى نظيفة (وقد جرت العادة هنا أن يضاعف الرجل هذه الملابس بأن يلبس ثوبا ثانيًا فوق ثوبه الأول وثوبًا ثالثًا فوق الثوب الثانى) ، وثوبًا خارجيًا ، قرمزى اللون ، بدى فيه رجلاً " أنيقًا " ، وهو يقف عند مدخل بيته يستقبل الضيوف ويشرف على توزيع القهوة من قبل صغار العائلة ، وفى الوقت المناسب ، يصل العشاء الذى كان عبارة عن كومتين هائلتين من الأرز ولحم الضأن ، مع شئ من الخضار المسلوق ، والتوابل ، وما إلى ذلك ، بالإضافة إلى طبق مستقل من التمر . ولم أر قط أطباقًا بمثل هذا الحجم ، يأتى الضيوف على ما فيها بمثل هذه السرعة ثم تتعالى أصوات الضيوف، بعد ذلك ، بالدعاء للطباخ ولسيده ، كانت الشمس قد غربت ، ونظراً لأننا كان يتحتم علينا استئناف مسيرنا أثناء الليل ، فقد كان من المستحيل علينا أن نبقى داخل المدينة أكثر من ذلك ، وبخاصة أن بواباتها تغلق تماماً بعد حلول الظلام ، ولذلك أمطرنا فوليح شكراً ودعاءًا ، ثم عدنا بعد ذلك إلى متاعنا ، فى حين سارع الاثنان ، اللذان كانا يحرسان المتاع ، إلى منزل فوليح لتناول العشاء مما تبقى من إخوانهما . ولابد أن ما تبقى كان يكفيهما بالكاد .

وفيما بين أسوار القرية والتلال الرملية القريبة منها ، كان هناك مكان محمياً أمضينا فيه أربع ساعات نياماً ، إلى أن بدأ يطلع علينا ضوء القمر الضعيف . وهنا دبت الحركة ، في كل شئ ، من جديد ، هذه هي الجمال تنبح Gnarl ، والرجال يُحَمِّلون المتاع ، وها هو الطبيب وتلميذه يركبان دوابهما ، والكل قاصد بريده ، ولكن تلك المدينة بعيدة ، وعندما طلع النهار كان لا يزال بيننا وبينها مسافة كبيرة . وهذه المسافة تمر بين جبال ووديان غنية بالنباتات التي سبق أن تناولتها بالوصف ، وبعد شروق الشمس أمضينا ساعة كاملة في اجتياز بساتين وحقول الغاط ، تلك القرية التي تنتشر منازلها في غير نظام ، والتي فيها اثنى عشر بئراً تروى القرية منها ريا غزيراً . وعلى التلال المجاورة – وأنا أسميها تلالاً لأني لا يصح أن اسميها مرتفعات – كان هناك امتداد لسلسة أبراج المراقبة ، المماثلة لتلك الأبراج التي نراها من بعد حول القرى الداخلة في المنظر الطبيعي ، وقد سمعت أسماء هذه القرى ، ولكني سرعان ما نسيتها ، وقد تضايقت لأنني لم أتمكن من تسجيل كثير من التفاصيل الدقيقة التي من هذا القبيل ، ولكن منظر القلم الرصاص والمفكرة ربما بدا غير مألوف بل وغير مناسب أيضاً ، مما جعلني اعتمد على الذاكرة في كثير من الأحيان ، والتي خانتني في هذه المرة وفي مرات أخرى ، زد على ذلك ، أن مذكراتي ، التي كنت أدونها كلما سنحت لي الفرصة والظروف بذلك ، ضاع جزء منها عندما تحطم المركب بنا في بركة Barka ، كما اختفى أيضاً بعض من تلك المذكرات التي كنت قد دونتها على أوراق مستقلة ، ولا أعرف كيف اختفت ، عندما كنت أعاني من حمى التيفوس ، عندما كنت في أبو شهر والبصرة ، ومن المؤكد أن القارئ لابد وأن يكون من النوع المتشدد إذا لم يقتنع بهذه السلسلة من الأحداث السيئة التي سقتها إليه من باب الاعتذار عن عدم الترابط الذى أصاب القصة التي أرويها .

وبدأنا نقترب الآن ، من مسرح الصراع الكبير ، الذى سوف يتحدد عليه مصير كل من عنيزه والقصيم بشكل نهائي ، وشاع بين أفراد القافلة شئ من التخوف من الوقوع في قبضة أي من الطرفين المتصارعين ، والواقع أننا بدءاً من هذا المكان ، الغاط ، لم يعد أمامنا ما نخافه أو نخشاه من البدو ، إذ بدأ عددهم يقل وتضعف قوتهم، ولكن قد تستفيد فرقة من فرق، أي جانب من الجانبين من الرخصة العسكرية ، في الإضرار بمتاعنا أو أرواحنا ، كنا قد تجاوزنا آخر مزارع الغاط ، واستحوذ الخوف والأمل على تفكيرنا ، عندما انتهز غُرُّه ، تاجر الخيول الزنجي ، الفرصة ليحكي

لنا نكته عملية يصعب علينا أن نتجاهلها هنا أو لا نشير إليها ، وبناءً على ذلك ، وبعد أن غاب غره عنا بضع دقائق ، طلع مذعوراً فجأة على أفراد القافلة وأبلغهم أنه شاهد فرقة كبيرة من حمله الرماح والبنادق تتجه نحوهم ، وبدت على ذلك الكذاب الأشر ، علامات الارتباك ، والخوف ، والقلق والتحسب ، مما أدى إلى إشاعة الاضطراب في صفوف الحاضرين ، فالمكيان كادا أن يغمى عليهما ، وراحت المرأتان تنتحبان ، ولكن عاد إلينا في النهاية ، أولئك الشجعان الذين ، كانوا قد انطلقوا لاستطلاع الأمر ، ليقولوا لنا إن ذلك كله كان من صنع خيال ذلك العبد الزنجي ، تاجر الخيول ، وهنا حل الغضب محل الجبن والخوف ، مما اضطر غُرَّه أن يهرب خشية أن ينال جزاء كذبته التي لا تغتفر .

كنا قد تعبنا جراء سيرنا مدة اثنى عشرة ساعة ، في جو خانق تمامًا ، وهذه ظاهرة عامة في القصيم ، حيث يكون مناخ المنطقة المحصورة بين الأرض الرملية الخفيفة ودائرة العرض الجنوبية ، أكثر حرارة ونسبة الرطوبة أعلى من جبـــل شومر أو جبال الطويق ، ولذلك شعرنا بالسعاده والفرح عندما تبينا من خلال منخفض طفيف طلائع مدينة بريده التي كنا نتحرق شوقًا للوصول إليها ، والتي بدأت تحصيناتها بيضوية الشكل تطالعنا من خلال واد زراعي واسع ، كان المنظر من إبداع خرّاط[1] فهذا برج مراقبة هائل ، يصل ارتفاعه إلى حوالي مائة قدم ، وله مئذنة غير متناسقة ، وهذه كتله من الجدر العسكرية ، لم أرها من قبل في كل أنحاء الجزيرة العربية ، وهذه مجموعة من البيارات الخضراء وأدغال الإثل ، كل ذلك أراه في وهج الظهيرة ، ويشكل منظراً فريداً ، يفوق كل التوقعات ويوحي بكثافة السكان وزيادة الثروة ، كنا نتطلع إلى الدخول من تلك البوابات والسير في تلك الشوارع ، ولكن كان لابد من الانتظار لبعض الوقت ، وعلى مسافة ميل من البلدة ، خرج بنا مرشدنا مبارك عن الطريق الرئيسي ، واتجه بنا يمينًا لنعبر بعد ذلك سلسلة من التلال الرملية المنخفضة، والمنحدرات الحارة، إلى ما بعد الساعة الثانية ظهراً ، بعد أن شوتنا الشمس ، لنصل في النهاية إلى بوابة حديقة مبارك ، الذي لم يبدو عليه التعب مثلنا .

في هذا البيت الريفي جيد البناء ، الذي يشبه إلى حد كبير من حيث حجمه

(١) خرّاط : بتشديد الراء وفتح الخاء ، شخص يعمل في تشكيل الخشب باستعمال مخرطة ، (المترجم) .

وإنشائه كثيراً من بيوت الفلاحين في جنوبي إيطاليا ، كان يعيش مبارك ، مع أسرته ، وأشقائه ، وبعض أقاربه ، وكانت تحيط بهذا المنزل حديقة جميلة ، فيها خزان مركزي مملوء بالماء الرائق الذي يجلب من البئر المجاورة ، وتحيط بهذا الخزان من كل جانب نباتات القطن ، والذرة ، والحشائش المزهرة ، ونخيل البلح على مسافات متباعدة ، وبالقرب من الخزان توجد تعريشة من التعريشات الشَّعْرية ، ولكن أغصان الكروم تحمي سقفها من أشعة الشمس ، وهذا هو المكان الذي يتمناه المترحلون كي يرتاحوا فيه من عناء السفر ، ويتمتعون فيه ببحيرة الماء القريبة منهم ، وهنا بادر مضيفنا ، دون أن يقلد دروز لبنان في عادتهم السيئة (الذين يبدءون بسؤال الضيف عما يحب ، بدلاً من ان يشاركوه تواضعه) ، وأحضر لنا على الفور حصيراً ومخاد من الطراز الريفي ، وبعد أن التقطنا أنفاسنا ، ونحن في ظلال التعريشة ، وضع أمامنا طبقًا كبيراً من الرطب ، التي ينتجها بستانه ، وخلال فترة قصيرة ، ظهر أفراد العائلة ، كبيرهم وصغيرهم ، الذين تصادف وجودهم في المنزل ليرحبوا بمقدمنا ، باستثناء النساء ، اللائي ستخرقن الأعراف المتفق عليها ، إن هن خرجن الترحيب بمقدمنا . وبالرغم من العزلة المطلقة – من المعروف في البلدان الإسلامية المتشددة ، أنها تعزل الجنس اللطيف بدنيًا وأخلاقيًا – التي يندر أن تراعي ، أن لم تراعي مطلقًا في الجزيرة العربية ، حيث تقوم النسوة بدور كبير في الحياة الفعلية وفي الأعمال المنزلية ، وتجارة الدكاكين ، والشراء والبيع ، بل إنهن تشاركن في الحرب ، في بعض الأحيان ، ولكن الاختلاط الاجتماعي ليس سهلًا أو مباشراً كما هو الحال في أوربا ، ومع ذلك ، فإن دور المرأة في الأسرة ، ليس في الظلام تمامًا ، وإنما يستره ظل من نوع معين . من هنا ، فإن النساء الصغيرات والكبيرات (وأنا أعني أيضًا ، المسنات) لا تجلسن لتناول الطعام مع رجال العائلة ، بل يندر أن تشاركن في سهرات السمر ، ومن ثم فهن لا يتقدمن للترحيب بالضيوف أو الغرباء والحديث معهم ، ومع ذلك إذا ما بقى إنسان فترة طويلة تجعله واحداً من أفراد الأسرة ، فإن الأمر ينتهي إلى أن تألفه السيدات اجتماعيًا، ويشترك في الحديث بين حين وآخر، ويهتم بما يدور داخل العائلة . ومن الطبيعي ، في بيوت الفقراء ، أن يعيش الرجال والنساء سويًا في مكان واحد ، وهنا يكون الانعزال قليلاً ، فالمنزل الضيق يجعل الساكنين يعيشون في مستوى واحد ولكن في منازل الأثرياء والرؤساء ، من المفروض أن تحتل النساء جناحًا مستقلًا ، الذي يشدهن منه فضولهن إلى الأجنحة التي ينزل فيها الجنس الخشن ، زد على ذلك ،

أن الحجاب ، رغم أن كل النسوة يرتدينه ، لا يعد التزامًا مشددًا كما هو الحال فى سوريا ومصر ، وأنه مسألة تقليد وعرف، يمكن التخلص منها عندما يتطلب الأمر ذلك ، بل ويندر استعمال الحجاب ، فى بعض أجزاء الجزيرة العربية ، كما هو الحال فى عُمَان ، على سبيل المثال ، يضاف إلى ذلك أن النساء البدويات لسن على استعداد أن يضعن على وجوههن المسخّمه والذابلة قناعًا قد يكون ، فى مصلحتهن ، بشكل عام ، والحجاب والحريم ، عند الوهابيين المتشددين وحدهم ، يطبقان بدقة ، وهنا ترضخ الحرية العربية ، طواعية واختياراً لتطبيق مبادئ الإسلام .

وقضينا فترة العصر والمساء في فرح وانشراح مع أفراد وعائلة مبارك ، كبارهم وصغارهم ، وأمضينا الليل تحت التعريشة - نظراً لأن المناخ فى ذلك الوقت من العام لا يتطلب اللجوء إلى اسطح المنازل - مما ساعد على رفع معنوياتنا ومواصلة السفر إلى مدينة بريده ، ويقع حى الدويره الصغير ، الذى نحن فيه الآن ، على مسافة ميـــل أو ما يقل قليلًا ، من مدينة بريده ، ولكننا لا نستطيع ، من حى الدويرة ، أن نرى أى شئ من مدينة بريده ، والسبب فى ذلك هو كثافة أدغال الإثل الموجودة على التلال الرملية التى تتوسط المسافة بين حى الدويره ومدينة بريده ، وكنا قد عقدنا العزم ألا يطول مقامنا فى بريده ، وأن نغادرها فى أسرع وقت ممكن ، متجهين نحو الداخل ، إلى عاصمة نجد ، وهو ما يتطلب منا القيام برحلة طويلة ، ولكن العبد فى تفكير والرب فى تدبير، وكان لابد لنا أن نتعلم من تجاربنا ، وأن نعرف أن الدخول إلى المعقل الوهابى ، برغم اتخاذنا جميع الاحتيـــاطات التى تخطر على البال ، لم يكــن أمراً سهل المنـــال أو يمكن الحصول عليه من المرة الأولى .

الفصل السابع

بريده

« أنا لا أحب ، أيها السيد المهاب ، كهفك الملك ؛
لأنى أرى ، من كل المسارات المحيطة به ،
كثيراً من الوحوش تدخل ، ولكن أحداً منها لا يخرج »
الكسندر بوب

منظر غريب شاهدناه على الطريق إلى بريده – مخيمات الحج الهندية الفارسية – موقف فيصل من الحجاج – أبو بطين – ابتزازاته وهربه – القافلة فى بريده – مهنّا – ابتزازاته – منزلنا الجديد – صعوبة التقدم – زيارة مهنّا – قلعته – عمارة القلعة – خوَا مهنا – نجد والوهابيون – الشعور بالحرج – مقابلة أبو عيسى – أسرته ، تاريخه ومغامرته – مركزه لدى حكومة الرياض – شخصيته – استعداده لإرشادنا إلى الرياض – يوم فى بريده – زيارة المعسكر الفارسى – الفرس والأتراك – السوق – الميدان الرئيسى – المسجد – خلو المساجد من النقوش – الملح – طبيعة المدينة والسكان – المنازل – الكلام فى بريده – التنزه فى البساتين – الماكينات الهيدروليكية العربية – العمليات – المعسكر النجدى – مبارزه كلامية مع رجال عنيزه – الدور الذى تحمله حضر بريده– المساء– الأصوات العربية والأصوات الفارسية– القراءة العربية – اللغة المنطوقة فى القصيم – أصل النحو العربى – الليل والصباح – القرى المجاورة – تأثير الحكومة الوهابية على التجارة ، والزراعة ، وتربية الماشية – رد الفعل العام – التغيير الذى أحدثته الأسرة المالكة السعودية فى وسط الجزيرة العربية – مقارنة الوهابيين بالعثمانيين – زيارة أحياء عنيزه – محمد على الشيرازى – مراسلاته مع فيصل – دوافعه وراء القيام برحلة للرياض – موافقته على رأى أبو عيسى – تاريخه وشخصيته – هبّاش وهاون القهوة – مغادرة بريده .

كان الصباح مشرقًا ، ولكنه كان باردًا ، عندما خرجنا من متاهة الأثل والمنحدرات الرملية ، وبدأنا ندخل الحارات التي تمر خلال دائرة البساتين المحيطة بالمدينة ، في هدوء تام وأمن تام أيضًا ، ولكن وصولنا إلى بريده كان مفروضًا أن يفاجئنا بمفاجأة لم تكن في حسباننا ، ولم نكن نتوقعها ، برغم أنها كانت ، في واقع ، الأمر أقل إدهاشا من تلك المفاجأة التي لخبطت كل حساباتنا ، عندما وصلنا حائل أول مرة . كنا قد تجاوزنا بئرًا بالقرب من سور إحدى البساتين ، وفجأة شاهدنا رجلاً، تدل ملابسه ومظهره، على الفور ، على أنه واحد من مربي البغال من المنطقة الشمالية ، كان يسقي بغلين من البركة المجاورة ، وأطلت النظر فيه أنا وبركات ، وقد أصابتنا الدهشة ، ولم نكن نصدق أعيننا ، والسبب في ذلك أننا منذ أن غادرنا الشجاعية ، في غزه ، في اتجاه الصحراء الجنوبية الشرقية ، لم نر ثيابًا أو حيوانات من هذا القبيل ؛ ولكن كيف جاء هذا الرجل وهذان البغلان إلى هنا ؟ ولم يراودنا أي شك في الرجل أو الدابتين ، وعندما رفع راعي البغال رأسه لينظر إلى المارة ، اندهش هو ، بدوره عندما رآنا ، ومن الواضح أنه تعرف على شئ مباغت فينا أيضًا ، ولكن سرعان ما انحل اللغز . وبعد بضع خطوات قليلة ، بدأ طريقنا يمر خلال السهل الواسع الذي يقع أسفل أسوار المدينة مباشرة ناحية الشمال ، كان ذلك المكان الواسع مغطى بالخيام ويعج بالرجال الذين يرتدون ملابس أجنبية وملامحهم أجنبية أيضًا ، يختلطون بحضر من العرب وبدو عرب أيضًا ، ونساء ، وأطفال ، يتكلمون ويتصايحون ، ويتشاجرون ، يشترون ويبيعون ، يجيئون ويروحون ؛ سلال مليئة بالتمر والخضروات ، أطباق محملة بالبيض والزبد ، حليب ومصل لبن ، لحم معلق على أعمدة ، حزم من الحطب ، الخ ، إلخ ، كل ذلك مرتب على شكل صفوف ، كان بعض الخيالة والجمَّالة يركبون دوابهم ويتجولون بها بين مجموعات من البشر تجلس من حول النار، أو يتكئون على أمتعتهم ؛ ووسط كل هذا الخليط ، كانت هناك كرة مطلية بالذهب موضوعة فوق خيمة كبيرة ، من صنع ، لم أره منذ أن غادرت الهند آخر مرة ، أي قبل أحد عشر عامًا مضت ؛ وكانت تحيط بهذه الخيمة مجموعة من الخيام الصغيرة المصنوعة من القماش المقلم ، وليست عربية الأصل أو الصنع أو الطراز ؛ إنه منظر حي ، وبخاصة عندما يكون الصباح مشرقًا ، ولكن الأمر يحتاج مني إلى شئ من التفسير ، من منظور طابع هذا المخيم الأجنبي وغير العربي .

كانت تلك خيام قافلة الحج الفارسية الكبيرة ، وهي في طريق عودتها من المدينة المنورة إلى مشهد علي عن طريق القصيم ، ومن هنا كان كل ذلك الضجيج والحركة الدائمة ، كانت تاج جيهان دولة ، أرملة عساف دولة ، ذلك الاسم الذي يعرفه القارئ البنغالي الإنجليزي ، هي الشخصية الرئيسة في تلك القافلة ، وكانت خيمتها هي تلك الخيمة التي كانت فوقها كرة مطلية بالذهب ، وكان من ضمن هذه القافلة ، عديد من الهنود ، من سكان لاكنو وسكان دلهي ، الذين كانوا من أقاربها أو خدمًا لها ، كما كان البغلان وراعيهما اللذان أدهشانا ينتميان إلى تلك القافلة ، أما بقية القافلة فكانت مكونة ، في بعض أجزائها ، من الفرس ، مواطني شيراز ، وأصبهان ، وبعض البلدان الإيرانية الأخرى ، وفي البعض الآخر ، ولكن بنسبة أكبر ، من العرق الخلاسي الذي يمثل السكان الشيعة من كل من مشهد علي ، وكربلاء وبغداد . والواقع أن أفراد القافلة ، كانوا ينتمون إلى المذهب الشيعي ، برغم اختلاف أصولهم الوطنية ، وكان من بين هؤلاء الناس ، شخصية أقل أهمية من شخصية البجوم نفسها ، تنتمي إلى المواطنين الإيرانيين الخلص أو مواطني الدرجة الأولى ، هي شخصية محمد علي الشيرازي ، كان مكلفًا ، بأوامر من طهران ، بالقيام بدور المدير أو الرئيس المسئول عن كل ما يدور في بعثة الحج ، وسوف نتعرف ، بعد قليل ، على هذا الرجل والحاشية المرافقة له. وكان إجمالي عدد القافلة يصل إلى حوالي مائتي فرد أو ما يزيد على ذلك .

تجمع كل هؤلاء ، في الرياض ، عاصمة نجد ، جاء بعضهم من الملتقى الشمالي في مشهد علي ، وجاء بعض آخر من أبو شهر (التي يكتبونها بوشهر بطريق الخطأ على الخرائط) ، التي منها يعبرون الخليج الفارسي إلى ميناء العجير ، حيث يواصلون سيرهم إلى الهفوف ومنها إلى الرياض ، هنا ، وبعد تحصيل الرسوم الباهظة ، التي حددها الأمير فيصل ، والتي يتقاضاها الوهابيون المتشددون ، من أتباع المذهب الشيعي ، نظير السماح لهم بزيارة المدينة المقدسة وقبر النبي (ﷺ) ، يكون الحجاج الإيرانيون أصبحوا في عهدة مرشدهم وقائدهم ، عبد العزيز أبو بطين ، وهو واحد من أهل نجد ، مكلف بإرشاد هؤلاء الحجاج وسلبهم ونهبهم باسم الله وباسم العقيدة الصحيحة[1] وهم ، في طريقهم إلى مكة وأثناء عودتهم منها .

(١) عبارة فيها إيحاء ولمز للعقيدة الإسلامية وهذا غير صحيح ، فعقيدة الإسلام ترعى الذمم ، وتحفظ العهد وتحمي الضعيف وتحفظ حقوق الآخرين وما يفعله أحد المسلمين من نهب وسلب لا يمت لتعاليم الإسلام بشيء بل هو سلوك فردي يحاسب عليه صاحبه ويعاقبه الإسلام عليه ، (د. حلمي عبد المنعم) .

وقد تعرضت في فصل سابق للمفاوضات التي أجراها الأمير طلال بن الرشيد مع الحكومة الإيرانية السماح لقافلة الحجاج الإيرانيين، كل عام، بالمرور خلال مملكته ، وأشرت أيضًا إلى نجاحه في ذلك ، إلى حد ما ، كما أشرت أيضًا إلى سلوكه الكريم مع تلك القلة القليلة ، التي أسعدها حظها بالسفر بالطريق الشمالي مرورًا بحائل . ولكن الطريق الذي يمر من وسط نجد أقصر ، ولذلك يفضله الإيرانيون ، شريطه أن يكون مؤمنًا ضد الأخطار والسلب والنهب ، وبناء على ذلك ، فإن الإيرانيين توفيرًا منهم للنفقات والمتاعب التي تترتب على السفر بالطريق الطويل ، برغم أن الطريق الطـــويل لا يزيد على الطريق القصير بأكثر من ستة أيام ، يرضخون للرســـوم المحددة من قبل الوهابي المستبد ؛ معتمدين على وعده إياهم بسلامة المرور وتقديم المساعدات الضرورية لهم .

أحس الأمير فيصل بالرضا تمامًا ، عندما أضاف ذلك المنجم الفضي إلى مطحنته ، وبذلك الغى كل دوافع التعصب ، والكراهية الوطنية ، التي جعلت أسلافه ، يرفضون ، أكثر من مرة ، العروض السخية التي كان الشيعة يتقدمون بها ، الواقع أنه "في سبيل تحقيق غرض ما" كان على استعداد أن يزود الشيطان نفسه بجواز سفر ، وجمل ، ومرشد ، ومع ذلك ظل ضميره يؤنبه لإجباره الشيعة على دفع رسوم مقابل المعاملة السلبية التي وافق على تقديمها لهم ، واتخاذه الإجراءات اللازمة لتحقيق ذلك .

وقد تحددت رسوم الخزانة الوهابية بمعدل أربعين ثمان ذهبي على كل حاج إيراني نظير مروره عبر نجد ، وأربعين ثمان أخرى لضمان سلامته خلال بقية الإمبراطورية ؛ وبذلك تكون الرسوم الإجمالية عن الحاج الواحد ، قد وصلت إلى ثمانين ثمانًا ، ومن جانبه ، كان الأمير فيصل ، يزود الحجاج ، بواحد من بين رجاله ، ويزوده بكل الصلاحيات اللازمة ، ليقوم بإرشاد الحجاج ، وهنا يمكن لنا أن نقول : إن موظف الملك لا يمكن إلا أن يحاكي سيده ، ويحذو حذوه ، في سلب الشيعة ونهبهم إلى أقصى حد ممكن ، بل إن كل حاكم محلي ، على طريق ذهاب أو عودة هؤلاء الحجاج ، كان ينتهز هذه الفرصة ، ولا يترك "أعداء الله" (إذ كانت هذه هي الكنية الوحيدة التي يطلقونها على غير الوهابيين) يمرون دون أن يسلبهم أشياءهم أو ينهب أموالهم بشكل أو بآخر ، ولذلك ، فقد وجدت عندما حسبت إجمالي الرسوم الرسمية والضرورية على ، كل حاج من الحجاج الشيعيين الإيرانيين ، طوال فترة عبوره وسط الجزيرة العربية ،

وتحت إرشاد وحماية وهابية ، أنها كانت تصل إلى حوالى مائة وخمسين ثمان ذهبيًا ، وهو ما يعادل ستون جنيهًا إسترلينيًا إنجليزيًا ، وهذه بحد ذاتها نفقات باهظة بالنسبة للحاج الإيرانى ، ومكسب خسيس للعربى .

زد على ذلك ، الخسائر الظاهرية ، التى كانت تحدث ، لتساعد على جز الصوف أكثر وأكثر ، بل وأخذ الجلد بأكمله فى بعض الأحيان ، كان ذلك هو حال الإيرانيين التعساء عندما التقينا بهم ، كان مرشدهم ، أبو بطين ، قد أخذ منهم كل ما تيسر له على شكل دفعه مقدمة ، وتقاضى من تاج جيهان الأرملة ، رسومًا تتناسب مع ثروتها ، فاقت جميع التصورات والرسوم السابقة ، ولكن أبو بطين ذهب إلى أبعد من ذلك ، وعن طريق التهديد والابتزاز بكل صوره ، بما فى ذلك الضربات ، التى كانت تكال ، بناء على أوامره ، للمفوض الإيرانى ، محمد على الشيرازى نفسه ، وداخل خيمته ، استطاع أن يجمع رسومًا إضافية لا تحصى ولا تعد ، جمعها من أولئك الذين عُهد إليه بإرشادهم ، إلى أن ملأ خرج حصانه عن آخره بالثمان الذهبية ، وحَملَ جَمَاله بالمسلوبات والمنهوبات ، ولكن على أثر عودة أبو بطين مع محمييه الذين أصابهم الأذى على يديه ، من المدينة المنورة التى كان قد صحبهم إليها لإكمال مناسكهم ، وليستفيد هو نفسه منهم ، بدأ يتخوف من أن يتقدم الحجاج الإيرانيون بشكوى ضده ، فى مدينة بريده ، التى كانت على طريق عودتهم ؛ ورجح أبو بطين أن يفعل الحجاج الإيرانيون ذلك ، وبخاصة أن الأمير محمد ، ولد الأمير فيصل ، كان موجودًا فى بريده ، فى ذلك الوقت ، وكان أبو بطين يخشى أن يجبره الأمير محمد ، فى النهاية على أن يرد الثروة التى حصل عليها بطريق غير شرعى ، لا إلى أصحابها الشيعيين بطبيعة الحال ، لأن الشيعة لم يكن لهم وزن فى ظل التحكيم الوهابى ، وإنما لخزينة الرياض ؛ وبذلك يكون أبو بطين قد وضع نفسه فى موضع حرج ، إذ استحل لنفسه ذلك الذى يجب أن يكون ملكًا "للمؤمنين" ، ربما كانت أسباب أبو بطين لها ما يبررها ؛ ولكن فى أسوأ الأحوال فإن قليلاً من الهدايا ، التى ترسل فى الوقت المناسب إلى مهنا – حاكم بريده – ومنه إلى محمد بن فيصل ومن ثم إلى والده، "يمكن أن تصلح الأحوال من جديد" بكل تأكيد. ولكن بخل أبو بطين جعله لا يوافق على هذه التضحية ، واستقراء منه لتبعاتها ، اتخذ قرارًا بالهرب تحاشيًا لاستجوابه والتحقيق معه ، وعليه عندما وصل الحجاج الشيعة الإيرانيون إلى قرية عيون ، وهى القرية نفسها التى تناولنا فيها العشاء فى منزل فوليح قبل يومين ، حمل أبو بطين معه المال وكل المسلوبات والمنهوبات ، ولجأ إلى مدينة عنيزه

الثائرة تاركًا وراءه كلاً من تاج - جيهان ، ومحمد على الشيرازى ، وبقية القافلة ، يشقون طريقهم بأنفسهم خارج الجزيرة العربية .

"وعلى سبيل التعويض" قام أهل عيون الطيبين بإرشاد الحجاج التائهين إلى أن وصلوا بريده ، ولكن "المصائب لا تأتى فرادى" ؛ وكان على الإيرانيين أن يتمثلوا مثلاً مشئوماً يتعلق بوعاء التحمير والنار ، وفى بريده وقع الحجاج الإيرانيون فى قبضة وهابى متشدد ، وأصبحوا تحت رحمة أقسى الحكام النجديين ، مهنا العنزى ، الذى لا يعرف قلبه الرحمة .

هذا هو نفس المهنا الذى كان الأمير عبد الله ، ولد الأمير فيصل قد عينه منذ سنوات قلائل نائبًا للحاكم فى كل من بريده والقصيم ، بعد المذبحة التى حدثت فى أسرة العليان ، وجاء المهنا ملبيًا لكل رغبات سيده من جميع النواحى ، بل سار على نهجه ، وقد استعمل ذلك الرجل القاسى كل الوسائل التى يمكن أن تخطر على البال ، فى سبيل إذلال القصيم ، واستنزاف مواردها ، وإطفاء آخر شرر الحرية ، وراح مهنا يفرض بالقوة جميع القيود الوهابية الخاصة باستعمال الحرير ، والتبغ (الدخان) وأدوات الزينة، وكل ما إلى ذلك من أشياء أخرى ، الأمر الذى أدى إلى تدمير التجارة ، فى حين أصدر أوامره باقتياد التجار الأثرياء والحرفيين الناجحين - بناء على نظام سوف نرى له مثالًا صارخًا فى الإحساء - من منازلهم ، على وجه السرعة ، ليحمل كل واحد منهم بندقية فتيل على كتفيه الرافضين ، أو يعلق فى وسطه سيفًا نسى تمامًا كيف يستخدمه، أو ليشارك يومًا فى الحملات الوهابية التى كانت تشن على أعداء الله، بمعنى أن هذه الحملات ، كانت تشن فى معظم الأحوال ، على أهالى بريده والقصيم المستقلين ، وبذلك ضاعت على كل واحد منهم تجارته أو حرفته ، بل أن الكثيرين منهم ماتوا فى تلك الحملات ، يضاف إلى ذلك ، أن مهنا أشبع نزعته الشخصية إلى الطمع والجشع والسلب والنهب ، والتى كانت اقوى وأمقت من مشاعر فيصل ، وذلك عن طريق فرض الغرامات ، والرسوم ، وجمع التبرعات القسرية ، لأى سبب من الأسباب وفى جميع المناسبات ؛ وثقة من مهنا بأن قليلًا من الاختلاس يمكن أن يغتفر لخادم مخلص للحكومة ، من هذا القبيل ، راح يكدس لنفسه ولصالحة الخاصة ثروة لم تشهد القصيم مثيلًا لها فى يد أحد من المخلوقات ، مهما كان استبداده ، ولكن حرصًا من مهنا ، على عدم تعريض نفسه لخطر ضياع منافعه الشخصية ، فقد امتنع تمامًا عن المشاركة

فى الحملات التى كان يخاطر فيها بأرواح الآخرين من أهل القصيم "المشركين" – لأن هذه هى الصفة التى لا يزال الغزاة يطلقونها على أهل القصيم – وآثر البقاء فى البلاد ليحتضن حقائب ماله ويرعاها ، فى حين راح الآخرون يجمعون له المال من مناطق الخطر .

وقد وجد الحجاج الشيعة أنفسهم تحت رحمة هذا المخلوق ، بلا قيد أو شرط ، إنهم لا يمكن أن يتصوروا أن ينالوا أى خير على يدى هذا المؤمن الحقيقى ، وإذا راودهم أى شك فى ذلك ، فإن هناك سابقة حدثت منذ ست سنوات مضت ، توضح لهم المعاملة التى يحتفظ بها مهنا للحجاج الإيرانيين .

يبدو أن الحقائق وصلت إلى حد من السوء يصعب معه تصديقها ، ومع ذلك تظل حقائق وصادقه كما هى ، فى العام ١٨٥٦ الميلادى ، توقفت فى مدينة بريده قافلة إيرانية كبيرة ، وهى فى طريقها إلى مكة وكانت تحمل ثروة كبيرة ، وتحت رعاية مباشرة من الرياض ، وفى حماية مهنا نفسه ، وأثار منظر المتاع الكبير جشع الحاكم وحبه للمال ، وجعله يظن أن الحجاج لابد أن يكون معهم مقدار مماثل من النقود السائلة فى جيوبهم ، هنا ، وجه مهنا دعوة إلى الحجاج الإيرانيين ، أن ينزلوا عليه ضيوفًا ، بضعة أيام ، يرتاحون خلالها من متاعب الطريق ، ثم بدأ يرسم لهم صورة مخيفة عن قطَّاع الطرق والبدو ، الذين سوف يتعرضون لمتاعهم وأموالهم إذا ما أصروا على أن يحملوها معهم إلى الحجاز ، وتبديداً لتلك الأخطار والمخاوف عرض عليهم أن يتركوا أشياءهم الثمينة مهما كان نوعها ، فى رعايته وحمايته ، ووعدهم ألا يمس شيئًا من هذا المتاع أو تلك الأشياء الثمينة إلى أن يعودوا من الحج ، فى حين أن ابنه سوف يرافقهم كمرشد لهم إلى مكة ، وذلك من قبيل البر بوعد أبيه وتأكيداً لحسن نواياه ومقاصده الكريمة .

وافق الحجاج الإيرانيون المنخدعون على ما اقترحه عليهم مهنا حاكم بريده . ووجدت أمتعتهم التى لن يكونوا بحاجة ماسة إليها طوال الرحلة ، سبيلها إلى مخازن مهنا ، كما عرفت نقودهم الزائدة عن حاجتهم طريقها هى الأخرى إلى خزينته . واستأنف الحجاج الإيرانيون رحلتهم ، تحت إرشاد أكبر أبناء مهنا ، الذى نسيت اسمه برغم أننى سمعته مراراً ، وكان الابن من سلالة أبيه ، وبدلاً من أن يسافر مع هؤلاء المنخدعين ، فى الطريق المعتاد الآمن ، قادهم إلى طريق النفود الصحراوى

والأراضى الجرداء الخالية من الماء ، التى تقع على يسار الطريق ، بالقرب من الامتداد الغربى لـ جبل طويق ، وترتب على ذلك ، أن أدت المسيرات الاضطرارية ، والشمس الحارقة ، وندرة المياه وضروريات الحياة الأخرى ، إلى استنفاذ كل قواهم ، وبينما كانوا يخيمون وهم مرهقون ويائسون ، وسط هذه المتاهة الرملية ، غافلهم ولد مهنا ، ومعه كل الأعراب الذين كانوا يخدمونه ، وهربوا أثناء الليل ، عن طريق المدقات المعروفة لهم ، وتركوا الحجاج يواجهون الموت بلا مرشد أو ماء .

وكاد الحجاج أن يموتوا عن بكرة أبيهم ، ولم يتبق منهم ، على قيد الحياة ، سوى عدد قليل جداً ، استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى خارج هذه المتاهة الصحراوية ، وعادوا يحكون للناس ، فى بريده ، حكايتهم الحزينة ، ولكن مهنا ، رفض الاستماع إلى شكواهم ، وأنكر كل ممتلكاتهم ومتعلقاتهم التى إئتمنوه عليها ، كما أنكر مسئوليته عن رفاقهم الذين وافتهم المنية ، وتركهم بلا عون يتسولون على طرق عودتهم إلى مشهد على ، وعلى امتداد عامين بعد ذلك ، لم تطأ أقدام الحجاج الإيرانيين أرض وسط الجزيرة العربية ، وفى النهاية استطاعت وعود واعتذارات الأمير فيصل أن تقنع سلطات طهران والكوفة بأن تعيدا إرسال حجاجهما للحج عن طريق نجد ، ولكن الملك الوهابى لم يحقق فى الجريمة التى ارتكبها حاكم بريده ، الذى راح ينعم بمزايا خيانته الجماعية بلا أية منغصات .

وهنا ، تصبح تاج جيهان ، الأرملة ، هى وبقية الحجاج الإيرانيين تحت رحمة أوامر ذلك الرجل ، فقد احتجزهم قبل وصولنا مدة أربعة عشر يوماً ، خارج أسوار بريده ، ومارس ضدهم كل أنواع الابتزاز ، وكان ينتظر أن يصله مزيد من المعلومات من الأمير فيصل بشأن ما يمكن عمله مع هؤلاء الناس "أعداء الله" .

وقد علمنا الكثير عن هذا الموضوع فيما بعد ، ولكننا ، منذ البداية ، كانت تراودنا رغبة التعرف إلى أولئك الحجاج ، فى الوقت الذى كنا نخشى فيه ، أن نصادف من بينهم ، بعض الوجوه التى نعرفها، أو بعض رجال الشمال الفضوليين أكثر من اللازم ؛ وقد بدأنا نتحرر من مخاوفنا من قدرات العرب على الملاحظة ، مهما عظمت هذه القوة داخل دوائرهم الوطنية ، وذلك من منطلق خبرتنا السابقة بجهل السكان العرب القطريين المطبق فيما يتعلق بالتغييرات الإقليمية التى طرأت على أراضيهم ، ولكن المواطن البغدادى ، أو الدمشقى أو التركى أو الأرناوطى ، يستطيع أن يقترب من هذا الظن ،

وعلى كل حال ، لم يحن بعد الوقت المناسب لتحقيق رغبتنا ، ومن ثم غادرنا المخيم المزدحم على أحد الجانبين واتجهنا للدخول من خلال بوابات المدينة .

هنا في مدينة بريده، كما هو الحال في المدن العربية الكبيرة ذات التاريخ القديم ، نجد أن الاستحكامات تحيط بالمنازل فقط ، أما البساتين والحدائق فتقع خارج هذه الاستحكامات ، وقد تكون تلك الحدائق والبساتين محصنة أيضًا ، في بعض الأحيان وعنيزه واحدة من تلك الأمثلة - بحزام آخر من الأسوار والأبراج - ولكن في بعض الأحيان الأخرى ، كما هو الحال في بريده ، تخلو هذه المدن من الحماية الجدارية ، والمدينة بكاملها مؤلفة من شوارع ، ومنازل ، وأسواق ، ويبدو منظرها مألوفًا ومعتادًا عن الترتيبات الحديثة والمظاهر الضرورية في كل من الجوف وحائل ، واجتزنا بعض الشوارع القليلة ، الكبيرة المتعرجة ، ثم بَركنا جمالنا في ميدان عام صغير ، انتظرت فيه جالسًا إلى جوار متاعنا ، وفي يدي مشعابي ، شأني في ذلك شأن أي رحَّالة عربي في حين راح بركات ومعه مبارك يبحثان لنا عن منزل نقيم فيه .

وقد بدى لي نصف الساعة الذي أمضيته في حراسة المتاع ، وفي انتظار عودة بركات ومبارك ، طويلاً جدًا ؛ كانت الشوارع ممتلئة بالناس ، وكان يتجمع من حولي ومن حول الجمال ، طول الوقت ، جمع منفر من السكان المنحطين ، وفي عيونهم الفضول الذي نراه في أعين العاطلين والمشردين في كل مكان ، ولم يكن من السهل عليَّ دومًا ، في ظل هذا "الهجوم الدائري والجنِّي" الذي لم أره من قبل ، أن أحافظ على هدوء الطبع والتحفظ الرزين اللازمين لاستقبال العرب المتحضرين ، في مثل هذه المناسبات ، وأخيرًا عاد رفيقـــاي وأبلغاني أنهما عثرا على ما يريدان ؛ وبعد ركلة أو أثنتين نهضت الجمال واقفة ، وانصرفنا إلى حيث يوجد المنزل الجديد .

كان منزلنا الجديد لا يبعد أكثر من خمس دقائق عن البوابة الشمالية ، ويبعد نفس المسافة عن السوق تقريبًا على الجانب الآخر ، ومن هنا كان موقع المنزل جيدًا . فقد كان يتكون من غرفتين كبيرتين في الطابق الأول ، وثلاث غرف صغيرة ، وحوش واسع تحيط به جدران عالية ، كما كان للمنزل سلم متعرج غير منتظم الدرج ، سيئ الإضاءة ، شأنه شأن بقية السلالم الأخرى في نجد ، يؤدي إلى سقف مستوٍ ، محاط بساتر ارتفاعه ستة أقدام ، ومقسم إلى جزئين عن طريق جدار متعرض ، وبذلك يهيئ لنا مكانًا نستطيع استغلاله صباحًا ومساءً ، في الساعات التي تُسْقِطُ خلالها الحوائط

الجانبية ظلًا يكفى لحماية أولئك الذين يستظلون بها ، إضافة إلى النوم فى ذلك المكان أثناء الليل ، كان المنزل قديماً ، يزيد عمره على مائتى عام أو أكثر ، ومتين ، وفيه شئ من التماثل بين أجزائه ؛ وكانت أبواب المنزل من النوع الضخم المصنوع من خشب الإثل المحفور ، كما كانت هناك مدفأة فى إحدى الغرف مما يوحى بأنها كانت مطبخًا ، وكانت هناك غرفة أخرى بيضوية الشكل تقوم مقام القهوة أو البهو ؛ كانت سيدات المنزل تقمن فى الغرف الصغيرة ، ولكنهن انتقلن الآن ، مع بقية أفراد الأسرة إلى منزلهم المجاور لهذا المنزل .

وصل صاحب المنزل الآن لتحيتنا ، وفى يده مفاتيح المنزل ، اسمه أحمد ، حسن الطبع ، ويغلب عليه مساومة الغرباء مساومة شديدة ، وعلى كل حال ، ونظراً لأن شريكى كانا حريصين مثله تمامًا ، فقد استطاعا أن ينزلا معه بإيجار المنزل إلى الحدود المعقولة ، ومن رأيى أن المواطن اللندنى لن ينظر إلى ثمانية عشر بنس شهرياً ، إيجاراً للمنزل ، باعتبارها شيئًا كبيراً جداً ، وبخاصة إذا كان المنزل من النوع المريح بالشكل الذى وصفته ، أضف إلى ذلك ، أن كل ما يتعلق بالصيانة ، والتنسيق ، إذا ما تطلب الأمر ذلك ، سيكون على نفقة مالك المنزل ، الذى تعهد أيضًا بإحضار الماء المطلوب ، برغم أننا كنا نكافئ الحورية ، التى كانت تجلب لنا الماء يوميًا من البئر .

ورتبنا أنفسنا وأشياءنا داخل هذا المنزل ، وبعد أن تناولنا الإفطار سوياً مع مالك المنزل ومبارك رمزاً للصداقة ، استأذن مبارك ليعود إلى منزله فى الدويره .

قلت إننا كانت لدينا رغبة فى البقاء فى بريده ، فترة قصيرة . وبناء على ذلك ، اتفقنا على ألا نحرج أنفسنا مع المرضى وفحصهم ، كما اتفقنا أيضًا على الإبقاء على أدويتنا محزومة كما هى ، وأن نؤجل المرضى الذين يتقدمون لنا طلبًا لتوقيع الكشف عليهم ، من منطلق أن مقامنا فى مدينة بريده ، لن يسمح لنا بممارسة الطبابة ، وعلى كل حال ، فقد كان ذلك خطأ من جانبنا ، إذ كان من الممكن طوال انتظارنا الممل الذى دام عشرين يومًا تقريبًا ، أن نقضى على ذلك الملل ، إلى حد ما ، ونزجى وقت فراغنا ، بممارسة الطبابة التى كانت ستتيح لنا وسائل أكثر للتعارف وجمع المعلومات .

كان مبارك قد تركنا على أمل أن يوفر لنا دابتين ، وأن يرافقنا إلى الرياض ، ولكن الواقع أنه لم يكن يريد ذلك فى قرارة نفسه ، ومسألة الأمل هنا ، كانت مجرد روغان من مبارك ، حتى لا يقطع على نفسه عهداً أمامنا ، ومظهر عدم الاستعداد هذا

بين العرب ، يعد مصدراً متكرراً من مصادر الخداع البرئ ، إذا كان الخداع من ذلك النوع الذى نطلق عليه "ليس فى المنزل" أما العبارة التى نستعملها نحن فى بلادنا عندما فهى العبارة : "أنا لا أرفض ذلك رفضًا تامًا" ؛ إن كل من يتحتم عليه أن يتعامل مع الشرقيين ، يجب أن يكون مستعداً لهم وأن يعاملهم بنية حسنة ، ونحن لم نعد بعد جدداً على هذه المدينة ، واستطعنا أن نستخلص أن مبارك لم يكن على استعداد لتنفيذ ما قاله لنا ، وبناء على ذلك ، بدأنا نجس نبض أفراد آخرين ، وبمجرد أن بدأنا نستقر فى منزلنا الجديد بدأنا نبحث عن أشخاص آخرين ، كما بدأنا أيضًا نتخلى عن فكرة الاستغناء عنهم ، ولكن أحداً لم يعرض علينا نفسه أو جَمَلَه ، فى حين رحنا نحن ، من جانبنا ، نبحث عن أسباب ذلك التردد . وأخيراً قررنا أن نتقدم بذلك الطلب إلى مهنا نفسه ، الذى لم نكن قد تعرفنا شخصيته تعرفًا كاملاً ، والسبب فى ذلك أن جيراننا الحريصين لم يكونوا قد عهدوا بعد إلى آذاننا ، التى لم يخبروها بعد ، بكل التفاصيل التى يعرفها القارئ حاليًا ، عن ذلك الرجل ؛ فقد علمنا بكل هذه التفاصيل بمرور الوقت ، ومن خلال قنوات متنوعة .

وبعد أن بيتنا هذه النية ، بدأنا نتحرى الوقت المناسب الذى نقوم خلاله بزيارة مهنا ، حاكم بريده ، ولكن وصلتنا أنباء مفادها أن مهنا ، على العكس من كوريولانوس Coriolanus ، يستقبل زواره قبل تناول وجبه الإفطار ، أو مع شروق الشمس ، أو بعد شروقها مباشرة ، على وجه التحديد ، وتأسيسًا على ذلك ، ذهبنا فى صبيحة اليوم الثالث لوصولنا ، إلى قصر مهنا ، وفى نيتنا أن نطلب إليه ، من منطلق الود ، أن يساعدنا فى الحصول على مرشدين ورفاق لنا فى رحلتنا إلى العارض ، كان مهنا يعيش فى القلعة القديمة ، التى تقع فى الركن الشمالى الشرقى من المدينة ، والتى تبعد قليلاً عن أسوارها ؛ والقلعة تشغل مساحة كبيرة ، لا تتساوى تمامًا مع ارتفاعها ، ويبدو أنها عبارة عن مجموعة من المنازل الخارجية أكثر منها قصراً وتفتقر إلى التنظيم . بعض أجزاء هذه القلعة كان قديمًا ، بمعنى أن عمرها كان يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة عام ، من باب التقدير الجزافى ؛ والسبب فى ذلك أن المهندسين المعماريين العرب ، على العكس من المهندسين المعماريين الرومان أو القوط ، لا يسجلون مضى القرون باستعمال الخطوط والمنحنيات . كانت القلعة تبدو هائلة الحجم ، ومهيبة ، وتفتقر إلى الحرفية والبراعة ، ويضاف إلى ذلك أيضًا أن عناصر الجمال وعناصر المنظور الرئيسية ، التى من قبيل ، العقود ، وتيجان الأعمدة ، والسطح

الجملونى ، والإفريز ، والحلية المعمارية ، إما غير موجودة تماماً أو إن وجدت فهى فى أشد أشكالها البدائية أو المتخلفة ، التى لم تتطور إلى أشكال متعاقبة لتصل فى النهاية إلى أشكال كاملة وراقيه ، والمواد التى شيدت منها القلعة تشهد على قدمها النسبى ، فالأحجار قديمة ومنها المشكّل ومنها الخام ؛ والأحجار هنا مختلطة بالطين ، مثلما حدث هنا ، فى فترات لاحقة ؛ واللِّبن هو الذى يستعمل فى الدوائر الوهابية فقط ؛ هذه هى الدلائل والعلامات الرئيسية التى توضح القرن الذى بنيت فيه مثل هذه القلاع ، وقلعة الجوف هى وبرج المارد تنتميان إلى القلاع التى كانت تبنى باستعمال الأحجار المشكلة والأحجار الخام ؛ أما النوع الثانى فقد كان ينتمى إليه الكثير من مبانى القصيم ، وقرية عيون ، ومدينة بريده ؛ أما النوع الثالث ، فقد كانت تنتمى إليه قلاع كل من الدرعية والرياض ، ويمكن القول أن الفترة التى بدأت منذ العصور السابقة للعصور الوسيطة واستمرت إلى الهجرة ، كانت القلاع والاستحكامات خلالها تنشأ طبقًا للنوع الأول ، وأن الفترة التى بدأت بالهجرة واستمرت إلى ما بعدها بحوالى مائتى عام شهدت بناء القلاع والاستحكامات طبقا للنوع الثانى ، ولكننا نجد فى شرقى الرياض وجنوبها عناصر معمارية جديدة ، وتصميمات معمارية جديدة ، وتقدماً جديداً ، وهذا يحتاج منا إلى تفسير هذه المسائل فى مكانها ، ونحن نشاهد ، فى قلعة مهنا ، التى هى أمامنا الآن ، جزءاً ينتمى إلى تاريخ متأخر ومتنوع ، ولكن يبدو أن هذه الأجزاء وضعت بطريقة عشوائية وليس طبقًا لتصميم بعينة ، فبعض الجدران مبنية من الحجر ، وبعض آخر مبنى من اللبْن ، وبعض ثالث مطلى بالحصى ، والبعض الآخر بدون طلاء ، والمبنى الرئيسى فى القلعة قوى ، ويستطيع أن يصمد للحصار العربى ويقاومه ، ولكن ارتفاعه لا يزيد على خمسة وثلاثين قدماً ، ولا يوجد به برج ؛ ومدخنة المراقبة ، إن قدر لى أن أستعمل الوصف الذى يليق بها ، معزولة عن القلعة ، وتقع على بعد مسافة قصيرة بالقرب من سور المدينة ، وهناك بوابة خارجية عالية تؤدى إلى المسوَّر الأول ، الذى هو عبارة عن حوش مربع الشكل عبارة عن مخازن ومساكن للجمَّالة ، وخدم القصر ؛ وهناك مدخل صغير يؤدى إلى القسم الذى يعيش فيه حاكم بريده شخصياً .

عندما وصلنا قصر مهنا ، كان هو خارج القصر : ذهب مع طلوع النهار لحضور اجتماع فى مخيم الحجاج الإيرانيين ، فى مهمة يحصل بمقتضاها على مبلغ من المال يساوى ستمائة جنيه إسترلينى إنجليزى على وجه التقريب، من الأرملة تاج - جيهان ،

علاوة على ألف جنيه أخرى، كان قد اعتصرها منها ومن الحجاج المرافقين لها بالفعل . وقد استحوذت هذه المفاوضات تمامًا على كل أفكاره بل وكل وقته ، وفيما يتعلق بالحرب ، فكان قد أوكل كل ما يتعلق بها إلى محمد الابن الأكبر للأمير فيصل ، الذى لم نزر معسكره بعد . وعلى كل حال ، وبعد شئ من الانتظار ، شاهدنا النجدى العظيم قادمًا ، وهو يتحدث مع رعاياه وتابعيه ، ويرد مهنا ، التحية ردًا خفيفًا ويتجه إلى القهوة ، التى تبعناه إلى داخلها مع بقية الناس .

ولم تستغرق قضيتنا مع مهنا [illegible] أسئلة وإجابات قصيرة ، فقد كانت تدور فى ذهنه أشياء أخرى ، يضاف إلى ذلك أن ثيابنا البسيطة لم توح بالثراء أو الاحترام الذى يجعل منا أصدقاء أو غنيمة له ، ودارت القهوة على الجميع ، بالطريقة المعتادة ، ونهض الحاكم بعد تناولها مباشرة ، سعيًا إلى "الفرصة الرئيسة" وبحثًا عنها ، تاركًا إيانا مع الضيوف الآخرين ، نتناقش فى طبيعة أعماله ، والأخبار اليومية . وبدأنا نشعر بالضيق من شخص ، كنا نتطلع إلى مساعدته لنا ، ولكنه لم يلق لنا بالاً ، ولكن ذلك كان عملاً إلاهيا لصالحنا ، ولو كان مهنا قد استعمل مكره ودهاءه معنا ، وهذا هو ما كان سيفعله فى الظروف المعتادة لأصبح احتمال وصولنا إلى الرياض أمرًا مستحيلًا . ولم يكن أمامنا ، عندئذ ، ما نفعله سوى أن نعود إلى منزلنا ، الذى صَحِبنَا إليه مجموعة من الحضر المحترمين ، وقد استخلصنا من نبرة حديثهم أننا قد أصبنا الخير كله عندما تناسانا أو تجاهلنا .

ومع كل ذلك ، بقيت المشكلة الرئيسة بدون حل ، وباءت بالفشل كل جهودنا من أجل العثور على رفاق لنا أثناء سفرنا إلى نجد ، وظللنا طوال ثلاثة أيام نسأل الناس ويسألوننا ، ونتحدث إلى الكبار والصغار ، ونتجول فى الشوارع وعند البوابات ، ونقدم أنفسنا للحضر والبدو ، ولكن دون طائل ، وأخيراً بدأنا نفهم حقيقة الأمور ، وطبيعة العقبات التى كانت تعترض طريقنا .

إن مناطق وسط نجد ، الموطن الحقيقى للوهابيين ، هى بمثابة عرين الأسد ، عند بقية الجزيرة العربية ، ذلك العرين الذى لا يجرؤ على الاقتراب منه سوى عدد قليل ، ولا يعود منه سوى أقل من ذلك العدد ، وقد قال لنا رجل مسن ، كنا نطلب منه بعض المعلومات : "هذه نجد ؛ من دخلها فما خرج" ؛ وهذا هو واقع الحال تمامًا ، وجبال نجد التى كانت ، فى يوم من الأيام ، معاقل اللصوص ، والقتلة ، هى فى وقتنا الحاضر

أيضاً ، وربما أقوى من ذى قبل، معقل للمتشددين ، الذين يعتبرون الآخرين ، غيرهم ، كفاراً أو مهرطقين ، وينظرون إلى ذبح الكافر أو المهرطق على أنه واجب ، أو ميزه على أقل تقدير ، وعلاوة على القضية العامة ، التى تجعلنا نتوقع ما هو أسوأ من استقبالنا استقبالاً فاتراً فى نجد ، نجد أن الحروب ، وسفك الدماء ، والعدوان والاستبداد ، قد زادت من عداء السكان المحيطين بنا ، وحولته إلى شكل محدد من أشكال الغضب والاستياء ، من الأخطاء التى يواجهونها ، أو التى ينزلها الغير بهم ، الأمر الذى حول نجد كلها إلى مصدر كريه وخطير على الجميع ، باستثناء أبنائها ، من هنا ، وناهيك عن الحديث عن الأجانب ، فإن العرب أنفسهم ، من مختلف الأعراق والمشارب ، أو من أتباع محمد أو غيرهم ، من سكان جبل شومر أو من حضر مكة ، من الجوف أو من اليمن ، لا يجرؤ أى أحد من هـؤلاء على المخاطرة بالاقتراب من هضاب جبل طـويق أو الدخـول إلى وادى حنيفـة ، دون أن يكون لـديه سـبب قـوى ، وفى ظل ظروف مناسبة أو ملحة .

ولكن فى هذا الوقت بالذات حدث مزيد من المصاعب التى عقَّدت المسألة ، وجعلت أيحاثنا أكثر عقماً . فالحرب دائرة الآن ، والحصار بكل ما يصاحبه من سلب ونهب ، رغم أنه كان من الناحية الاسمية موجهاً إلى عنيزه وحدها ، إلا أنه ، فى واقع الأمر ، كان يستهدف المنطقة بكاملها ، التى كانت ، عن بكره أبيها ، تتعاطف سراً أو علانية مع قضية المدينة المصابة . بل أن مسألة منع بريده نفسها من الثورة والتمرد كانت فى عرف المستحيل ، برغم وجود مهنا وزبانيته بها ، وبرغم وجود قوة وهابية تعسكر خلف أسوارها . كان كل قلب بل وكل لسان يكافح ضد فيصل ويساند الزامل ، ويفرحون لانتصاراته ، ويحزنـون لانتكاسـاته ، ولم يكن كل ذلك خافياً على الحاكم النجـدى أو معاونيه ، بل أنهم كانوا على علم أيضاً بالمندوبين الذين كانوا يوفدون ، ليس فحسب من قبل الزامل وحاميه عنيزه ، وإنما أيضاً من قبل الرس ، والحناكيه بل ومن بريده نفسها ، إلى مكة حينا وإلى جبل شومر حينا آخر ، بحثاً عن العون والمساعدة ، ومن ثم فإن مواطنى القصيم ، الذين لم يندرجوا قط من حيث الطهارة ، ضمن الوهابيين النجديين ، أصبحوا الآن ، إن جاز لى أن اقترض أحد التعبيرات التى وردت فى الإنجيل ، "سيئى السمعة بين سكان البلاد" ، ووُصِفُوا بأنهم أبشـع أنـواع الكفار ، بل أنهم هـم الذين يحرضون الكفار ، هؤلاء الناس كانوا يتحرقون شوقاً إلى عبور حدود بريده من الناحية الشرقية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ومن منطلق أفضل التفسيرات التي يمكن أن تنطبق علينا وعلى تصرفاتنا ، فقد كنا في حكم الأغراب ، ومن بلد يسمه الوهابيون بأنه موطن الوثنية ، والكفر ، وأيضًا رعايا حكومة كافرة معادية ، وإذا ما اعتبرونا هنا جواسيس للعثمانيين ، فذلك أفضل ، لنا ، بكثير عما لو اعتبرونا جواسيس لحساب الحكومات المسيحية أو الأوربية ؛ وإذا كنا نستطيع تخليص أنفسنا من التهمة الثانية ، فإننا قد نقع في براثن التهمة الأولى ، وخلاصة القول ، أن السماح بدخول أشخاص مكروهين من هذا القبيل ، إلى أراضي القديسين كان محفوفًا بالمخاطر بالنسبة لمرشدينا أكثر منا ؛ شأننا في ذلك ، شأن الطاووس ، الذي فتح ، طبقًا لما ورد في الأثر الإسلامي[1]، بُوَيِّبَ الجنة ليدخل منه الشيطان، وطاله نصيب كبير من عقاب الشيطان .

خلاصة القول ، أننا أصبحنا الآن في "مأزق" حرج ، ولم نتبين أي مخرج لنا . ولما كانت الحواجز قد وضعت ، من حولنا ، على جميع الجوانب ، نتيجة أسباب كنا قد تعلمنا كيف نقوّم طبيعتها وقوتها ، فقد أصبحنا عاجزين عن معرفة الاتجاه الذي يمكن أن نتحرك فيه ، وظللنا طوال خمسة أيام ، أمضيناها في بحث دائب في المدينة وفي المخيمات ، عن مرشد لنا أثناء سفرنا إلى الرياض ، اقتنعنا في النهاية أننا ، كما يقول المثل العربي "نبحث عن بيضة العنقاء" ، وبرغم كل ذلك ، لم تفتر عزيمتنا وازددنا تصميمًا على رفض الهزيمة ، وسعدنا في النهاية عندما لاحظنا بعد كل بحثنا هنا وهناك ، أن أحداً لا يشك أو يرتاب فينا ، أو يركز اهتمامه علينا – مما كان سببا من أسباب ارتياحنا – مثلما حدث عندما استأجرنا المنزل وبدأنا نقيم فيه ، كانت الحرب تستحوذ على عقول الجميع ، يضاف إلى ذلك أننا لم نجذب الأنظار إلينا ، لأننا لم نمارس الطبابة ، والواقع أن خاتم جايجز Gyges كان أقْيَمْ لأهدافنا في بريده عن سائر قوارير أبو قراط ، وهذا هو ما كنت أتمناه .

وفي النهاية فتح الله لنا بابًا ، وهذا هو ما يحدث في معظم الأحيان ، في اتجاه لم نكن نتوقعه تمامًا ، وبذلك هيأ لنا الوسيلة التي مكنتنا لا من زيارة نجد وحدها ،

(١) هذا التعبير غير سليم لأن الأثر يطلق على ما روى عن الصحابة أو التابعين ولم يرفعوه إلى النبي (ﷺ) ، ولم أقف على هذا الأثر عن أحد من الصحابة أو التابعين ، ولذلك كان الخطأ من المؤلف مزدوجًا فهو أخطأ أولاً حينما سماه أثرًا وهو أخطأ ثانياً حينما أثبت أنه أثر إسلاميٌ لأنه لا وجود له بين الآثار المدونة عن الصحابة والتابعين ، (د. حلمي عبد المنعم) .

وإنما أيضًا زيارة الأماكن الأبعد فى أقصى شرقى الجزيرة العربية ، والواقع، أن ذلك ، كان بمثابة نقطة تحول فى رحلتنا كلها ، وهكذا تكون ، مجرد مقابلة عابرة ، قد سهلت وعدلت وزادت مسار رحلتنا من بريده إلى نجد ، ومن نجد إلى عمان ، ثم من عُمان إلى بغداد مرة ثانية .

كنا قد مضى على وصولنا إلى بريده ، ستة أيام ، وكان ذلك يوافق اليوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ؛ وكنت أجلس وحدى حزينًا ، فى القهوة أحاول تزجيه وقت فراغى بقراءة ديوان ابن الفارض الفريد ، رفيقى المفضل أثناء السفر ، وكان بركات ، بناء على رغبتى ، قد خرج من المنزل ، وآماله فى النجاح أقل من "الذهوب والمجئ على الأرض والصعود عليها والنزول منها !" ولم أكن أتوقع له أن يعود وهو فى حال أحسن من الذى خرج عليه ، ولكن عجبًا ! لقد عاد إلىَّ بعد ساعتين ، غابهما عنى ، ووجهه يتهلل بشراً ، ويحمل أخباراً طيبة .

الواقع أن الأخبار كانت طيبة ، ولم يكن هناك أحسن منها . قال حامل هذه الأخبار ، إنه بعد أن تجول فترة من الوقت خلال الشوارع وفى السوق ، خطرت بباله فكرة القيام بزيارة إلى مخيم الحجاج الإيرانيين ، وفى المخيم ، وبينما كان يتجول بين الخيام "مثل كلب الغسال" كما يقول الهندوس ، لاحظ على مقربه من بقية الحجاج ، مجموعة صغيرة منعزلة تجلس بالقرب من متاعها على الرمل ، فى حين أوضحت له خيوط الدخان المتصاعدة وجود نار مشتعلة فى ذلك المكان ، والتى تشير ، فى هذا الوقت من النهار ، إلى إعداد القهوة . ومع أن بركات كان متحضراً ، بلا أدنى شك ، إلا أنه كان عربيًا دمًا ولحمًا ومشاعراً ، أما مسألة أن يرى العربى ، القهوة أثناء تصليحها ، ولا يجعل نفسه يصيب منها شيئًا ، فإن ذلك يعنى شكلًا من أشكال التحفظ الذى لم يسمع عنه العرب قط ؛ ولذلك اقترب بركات من تلك الجماعة الصغيرة ، وبطبيعة الحال وجهوا إليه الدعوة للجلوس وتناول القهوة معهم .

هذه الطريقة من طرق التعارف السهل المباشر قد لا تتفق تمامًا مع رسميات المجتمع الأوربى ، كما أنه ليس من الحكمة أو الحصافة عند اللندنى كريم المحتد ، أنه يدعو كل من يمر بنافذة بهوه ، إلى الدخول ويجلس إلى جواره ليتناول معه طعام الإفطار أو الغداء ، ولكن من المعروف أن المغالاة تندرج ضمن الأخطاء ، كما أن مسألة "إلقاء القبض بواسطة شرطى على الشخص الذى يكون من هذا القبيل" أو "مقاضاه

من ينتهكون حرمات الغير عن طريق القانون" ، وما إلى ذلك من العبارات التى تقول : "كلب من أنت ؟" التى تواجه بها أولئك الذين يريدون أن يتجاوزوا مجرد الأخذ والعطاء، كل هذه الأمور ، التى تسود بين الأوربيين ، تخلق لدى العربى إحساساً يتسم بعدم الحكمة ، يفتقر إلى الجانب الإنسانى وإلى الأُنْس ، وذلك على العكس من الإحساس العربى الذى يدفع صاحبه إلى دعوة كل من يقترب من بابه أو كل من يصادفه ويتجاذب معه أطراف الحديث ، ونحن الآن فى الجزيرة العربية . كانت الجماعة الصغيرة التى شاركها بركات شرب القهوة مكونة من اثنين من الإيرانيين الأثرياء ، ومعهما ثلاثة أو أربعة من تلك الطبقة من الرجال الذين يقومون بدور الخدم ودور الصحاب فى آن واحد ، والذين يسيرون دوماً فى ركاب المسافرين من بغداد أو المناطق المجاورة لها ، إضافة مُوَلَّد من أصل زنجى – عربى ومعه سيده ، وكان من الواضح أن ذلك السيد هو زعيم الجماعة ، وهو الذى يقوم بتوزيع القهوة طيبة النكهة .

وبدأ بركات يركز اهتمامه على هذه الشخصية ، وجه أنيق بشكل ملحوظ ، من نوعية من الواضح أنها لا تنتمى إلى شبة الجزيرة العربية ، وشعر طويل متموج يصل إلى ما دون الكتفين ، وثوب خارجى من الحرير الفخم ، مُغَبّر إلى حد ما بسبب الأسفار ، وغترة زاهية الألوان مصنوعة فى سوريا ، يضعها فوق رأسه ، وسلوك وملامح تنم عن درجة من التعليم يفوق أقرانه المعتادين ، من الطبقة نفسها ، والذين يمتهنون المهنة نفسها أيضاً ، جمالٍ ، هذه السمات نفسها كانت كافية ، بحد ذاتها ، لجذب الانتباه وإثارة الظنون ، ولكن عندما تلاشت تلك الظنون فى ظلال الترحيب والتحية على الطريقة الدمشقية أو الطيبة ، وفى ظلال الأدب المفرط الجم الذى يشتهر به الرعايا السوريون فى الامبراطورية التركية ، أدرك بركات أنه يقف أمام واحد من المواطنين السوريين المرموقين .

هذا هو ما حدث بالضبط ، كان أبو عيسى ، إن جاز لى أن اسميه بهذا الاسم الذى اشتهر به فى هذه البلاد ، رغم أنه له اسم وكنية أخرى فى بلاده ، مواطناً من حلب ، وابن واحد من المشهورين فى تلك المدينة ، وبفضل تعليمه والظروف التى أحاطت به فى مطلع شبابه ، يستطيع أبو عيسى حالياً أن يتعامل مع المضر والرعاة ، ومع سكان المدن والبدو ، ومع العرب والأوربيين ، وهو بدوى بحكم سلالته النسبية ، نظراً لأن جده كان ينتمى إلى المجادمة Mejadimah ، الذين هم فخذ من بنى خالد .

وقبيلة بنى خالد ، التى عاشت فى الإحساء والساحل العربى للخليج الفارسى ، والذين سنزورهم خلال رحلتنا ، هاجر منها جزء فى اتجاه سوريا منذ زمن بعيد ، فى حوالى القرن الرابع أو الخامس الميلاديين ، وفى سوريا احتفظت بعض العائلات من هؤلاء العرب الرحل ، باسم العشيرة الأم ، ولا يزالون يعرفون باسم بنى خالد ، فى المنطقة الواقعة إلى الشمال من كل من حمص وحماه ؛ بعض آخر من هذه القبيلة غَيَّر مُسَمَّاة إلى المجادمة ، ولكن أبو عيسى ، برغم أصله البدوى ، كان بحكم عاداته ، وأفكاره وسلوكياته ابنًا أصيلا من أبناء حلب، التى أمضى فيها الجزء الأكبر من صباه وشبابه، وعندما بلغ أبو عيسى من العمر خمسًا وعشرين عامًا تقريبًا ، تورط ، عن قصد أو غير قصد ، فى التآمر الكبير على الحكومة التركية ، الذى حدث أثناء تمرد حلب فى العام ١٨٥٢ الميلادى ، واضطر أبو عيسى ، شأنه شأن الكثيرين إلى أن يتحاشى النتائج السيئة ، عن طريق الهرب ليعيش فى مكان بعيد عن جدران مدينته البيضاء ، وبعد عام أو نحو ذلك من التجوال والمغامرة ، خاطر أبو عيسى من جديد ، وظهر بين أهله من الحضر ، ولكن بضاعته وبضاعة أسرته كانت قد سُلبت أو نُهبت أو صودرت ، وبذلك أصبح رجلاً لا حول له ولا قوة ، كما توفى والده أيضًا بعد التمرد بفترة قصيرة .

وقد تمكن أبو عيسى ، بفضل التجارة ، من تعويض بعض خسائره ، كما هب لمساعدته صديق إسرائيلى ثرى ، بدأ أبو عيسى أعماله التجارية كوسيط جوال بين حلب وبغداد ، بالإضافة إلى ممارسة بعض الأعمال التجارية الخاصة به هو ، وفى بعض الأحيان كانت رحلاته وشئونه تصل إلى مدينة البصرة ، وبعد أن جمع مالًا وفيرًا ، قرر أن يجرب حظه فى تجارة الخيول الهندية فى منطقة الخليج الفارسى . ولم تكن هذه الفكرة مجرد نتيجة من نتائج التطلع إلى الكسب؛ وإنما كانت نابعة عن رغبة، طبيعية لدى المجادمة ، فى زيارة مهده العرقى فى مدينة الأحساء من ناحية ، ومن عاطفة شديدة ، من الناحية الأخرى ، تجاه الخيل ، تلك العاطفة القوية التى تلازم الإنسان بقية حياته ، عندما يكون قد تعود ركوب الخيل فى صباه ، وتحقيقًا لطامحه وآماله ، انتقل أبو عيسى ومعه كل متعلقاته إلى مدينة البصرة ، التى أبحر منها إلى الكويت ، التى سافر منها ، عن طريق البر ، إلى الأحساء . وفى الاحساء جمع أبو عيسى عددًا كبيرًا من الخيول للسوق الهندية ، وأبحر بهذه الخيول من البحرين ، على إحدى السفن المتجه إلى بومباى .

ولكن آمال أبو عيسى فى الثروة والنماء تحطمت فى مهدها بسبب الكوارث التى غالبًا ما تصيب هذا النوع من التجارة ، وقد سمعت رجلًا حصيفًا من نورفولك Norfolk وهو يقول ذات مرة ، عندما طلبوا إليه أن يشارك فى عمل مشابه ، وبلغة معناها أفصح من نحوها : "الخيول تموت ، والخيول تأكل ، وأنا لن تكون لى علاقة بالأشياء التى تأكل وتموت" . وقد ماتت خيول أبو عيسى بسبب وباء انتشر بين الحيوانات التى كانت على ظهر المركب ، وقبل أن تطأ أقدام أبو عيسى أرض أبولو (الصحيح بلوار) بندر ، كان قد ألقى أكثر من نصف قطيعة من الخيل فى ماء البحر الهندى لتصبح طعامًا لأسماك القرش ، ونزلت بقية الخيول إلى البر ، وهى فى حال يرثى له ، واحتفظ بها فى إسطبل فى مدينة فورت Fort ، ولكن الخيول كانت قد وصلت فى وقت غير مناسب ، وكان نبات الحمص شحيحًا ، والأسعار متدنية ، وانتهى الأمر بخسارة فادحة ، وعاد أبو عيسى إلى البحرين بلا خيول أو مال ، وشعر بالخجل والخوف من أن يعود إلى بغداد وحلب وهو فى هذا الحال ، ووجد أن من الحكمة أن يبقى فى الأحساء ، تنفيذًا لمبدأ الإقامة الدولية الذى يتبعه ، من حين لآخر ، الرجال الأماجد الذين تزيد مصروفاتهم على مداخيلهم .

وفى الأحساء لقى أبو عيسى ترحيبًا حارًا وعونًا من الأصدقاء ، ولم يكن ذلك بمستغرب إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا صفاته الشخصية الطيبة ، وذوقه الراقى ، وحديثه العذب ، ورأسه المفكر اللهم باستثناء ما يتعلق بالمال ، وقلبه الكبير – إذ لم أعرف قلبًا مثل قلب هذا الرجل ، وقبل أن تمضى على أبو عيسى عدة أشهر فى الهفوف ، استطاع أن يجمع مبلغًا من المال اشترى به عددًا لا بأس به من العباءات ، التى تمثل التجارة الأساسية ، فى مدينة الهفوف ، وبدأ يجرب حظه مرة أخرى فى تجارة العباءات . ومع ذلك ، كانت خيبة الأمل تنتظره هنا مرة أخرى . وكان واحد من أبناء أخيه قد تبعه إلى مدينة الأحساء ، وهنا عهد أبو عيسى إلى ابن أخيه بهذه البضاعة ليبيعها فى البصرة ، ولكن عندما اكتشف ذلك الوسيط ، أنه أصبح فى حوزته مبلغًا كبيرًا من المال ، ثمن البضاعة التى استأمنه عليها أبو عيسى ، فكر فى أن يستقل ويعمل لحسابه الخاص ، ومن هنا أبحر بما معه من مال ، لينفق ثروته التى جمعها من حرام ، فى مدينتى كراتشى وبومباى ، اللتان لم يعد منهما قط .

وأفلس بطلنا تعيس الحظ للمرة الثالثة ، التي وصل على أثرها إلى مرحلة الفقر والعوز ، وظل فترة من الوقت ، يعاني من كثير من الشدائد . ثم استطاع ، في النهاية ، أن يجمع مبلغًا من المال ، استثمره في شراء سيف وبضع سجادات من السجاد الإيراني ، التي حملها معه وانطلق بها إلى الرياض ، وعندما وصل إلى الرياض قدم جزءا من ذلك السجاد على شكل هدية إلى محبوب ، رئيس وزراء الأمير فيصل ، والجزء الآخر إلى الأمير فيصل نفسه ، وبعد هذه الخطوة التمهيدية ، التمس أبو عيسى من الملك براءة ، يستطيع بمقتضاها أن يشغل وظيفة فرعية في نطاق العمل كمرشد خلال تنقلات الحجاج الإيرانيين ، كل عام ، في منطقة نجد ، وحقق الملك له هذا الطلب ، وبدأ يعيش الآن حياة جديدة فيها كثير من الأنس .

عندما التقينا أبا عيسى كان قد مضى عليه ثلاثة أعوام في مزاولة هذا العمل ، وقد أكسبه أدبه ، وحسن خلقه ، واستقامته سمعة طيبة بين الحجاج ، الذين كانوا قد اعتادوا على جشع المرشدين الوهابيين ونزعتهم إلى السلب والنهب وسوء المعاملة . ولكن أبو عيسى كانت لديه ميزه قيمة خاصة لدى صحابه الشيعيين ، فقد كان أبو عيسى يرى أن المذاهب الدينية كلها ، هي والطوائف والآراء على اختلافها ، تتساوى عنده من حيث القدر والتكريم ، في الوقت الذى كان هو ، نفسه ، لا يتبع فيه مذهبًا دينيًا بعينه ، ولم يكن أيضًا يقيد نفسه بأية طقوس محددة أو مميزة . وهو عندما كان صبيًا في مدينة حلب ، كانت بينه وبين اليهود والمسيحيين ألفه ومودة أكثر من تلك التي كانت بينه وبين المسلمين في المدينة ، وأن فكره هداه ألا يفضل يهوديًا أو مسيحيًا على المسلمين تفضيلًا قاطعًا ، وكان أبو عيسى لا يفرق بين سني وشيعي ؛ "إذ أن كلاهما على صواب ؛ وكلاهما أيضًا على خطأ" ، وعلى كل حال ، فإن هذه النزعة تشيع بين العرب . بل إن أبا عيسى وصل بتسامحه إلى نتيجة ثانية يندر أن نصادفها ، ولم يعد يعبأ بالاختلافات القومية أكثر من الخلافات الدينية ، فالإيراني والعربي ، والشرقي والأوربي ، كلهم عنده سواء ؛ فقد كان يرحب بالخصال الطيبة في كل منهم ، دون تمييز أو تفرقة ، إذا ما ابتعد الشيعي الذى يرافق أبو عيسى عن النزاع المتعصب الذى يمس مسألة تولي الخلافة ومزايا كل من عثمان وعلى ، فإن ذلك يعطيه الحق في أن يجاهر، أمام أبو عيسى ، بمآثر اصفهان وطهران التي لا تثير الشكوك والمهاترات ، وأن يتغنى أيضًا بأمجاد حكامهما ، ولما كان أبو عيسى مؤهلاً تأهيلاً جيدًا للعمل الذى يقوم به ، فقد جمع خلفه طائفة كبيرة من الحجاج ، وجمع من المال ما يزيد بكثير على

ما كان لديه عندما وصل الهفوف أول مرة ، يضاف إلى ذلك ، أن رحلاته المتكررة جيئة ذهابًا عبر قلب الجزيرة العربية مكنه من زيادة أصدقائه ومعارفه لدى الرؤساء المحليين ، ولدى الحضر ، أو البدو على حد سواء ، لأنه كان يغدق عليهم من كرمه وسخائه ، كان موقد قهوة أبي عيسى لا ينطفئ أبداً ، كما كان كيس التبغ مفتوحًا بصورة دائمة ، وعشاؤه مرهون بإشارة أي جار من جيرانه ، والواقع ، أنه كان يود - وأنا أتكلم عن ذلك من واقع تجربة شخصية - أن ينفق كل ما يجمعه على أصدقائه ، ولم يكن ما يجمعه بالشيء القليل .

كان منزل أبي عيسى المعتاد ، في مدنية الهفوف ، عندما لا يكون قائمًا برحلة أو يرشد مجموعة من الحجاج ؛ والهفوف هي عاصمة الأحساء ؛ كان منزل أبي عيسى يختلف كثيراً عن منازل الوهابيين الذين كان يكره تزمتهم الزائد عن الحد ويستهزئ به، في حين أنهم كانوا يغتابونه كلما تكرر ذكره أمامهم لأنه كان يدخن التبغ ، ويتساهل في ارتداء الحرير ، والواقع أن رؤساء الجماعة المتزمتة العليا في الرياض نبّهوا الملك فيصل أكثر من مرة إلى خطأ تعيين شخص لا يفرق كثيراً عن كونه كافراً ، في وظيفة حكومية وتحت حماية ملكية ، كان أبو عيسى يعلم كل ذلك ، ولكنه كان يتحاشى الإثارة التي لا مبرر لها ، عن طريق التقليل ما أمكن من ظهوره في عاصمة نجد ، وأنه عندما كان يضطر إلى ذلك ، كان يحمل بين يديه هدية قيمة ، لتذليل الصعوبات وطلب الرضا والتسامح . وقد استطاع أبو عيسى ، بسلوكه هذا ، وبرغم المؤامرات المعادية الكثيرة ، أن يحافظ على وظيفته هذه طوال ثلاث سنوات ، ومع أنه كان يبحر قريبًا جداً من الشاطئ ، إلا أنه لم يصطدم مباشرة بالصخور .

وعلى كل حال ، فإن سلوكه المعتاد البسيط غير المنَفِّر ، طوال رحلته التي عاد منها الآن ، تسبب له في كثير من المصاعب الخطيرة التي لم يعهدها من قبل . كنت قد قلت إن القافلة كانت بقيادة أبو بطين ، وهو وهابي متزمت ، وليس من أصدقاء بطلنا (أبي عيسى) ، وأفلح أبو عيسى ، في أن ينجح إلى حد بعيد ، مع جماعة الحجاج التي رافقها من الخليج الفارسي إلى مكة ، وتألق نجمه في الكعبة وسط الحجاج الذين رافقوه ووسط الخدم والعبيد الذين كانوا يخدمونهم ، ولكنه بعد أن غادر المدينة المقدسة مع الإيرانيين في طريقهم إلى المذنب ، أصابه مرض خطير ، لزم على أثره فراش المرض ، لا يقوى على الحركة ، وتخلى عنه كل أطباء المدينة ، ووجد أبو بطين الفرصة

سانحة كي يطعن منافسة ، وعن طريق واحد من الخدم ، استطاع أبو بطين أن يدخل منزل أبو عيسى المريض ويسلب وينهب ما فيه ؛ وترتب على ذلك ، أن رحل أبو بطين ، ومعه أشياء أبو عيسى ومتعلقاته ، قبل أن يتمكن الأخير من مغادرة فراش المرض .

وتخلف المريض الذي كان يتماثل للشفاء ومعه ست من الإبل ومبلغًا صغيراً من المال ، وكان اثنان من الإيرانيين قد تأخرا أيضًا بسبب المرض ، وهذا أمر شائع تمامًا ، في فصل الصيف ، بين زوار الأراضي الحجازية المنخفضة ، وهنا باع أبو عيسى جملين وبقي معه أربع ، واحد له وواحد لخادمه ، واثنان للحاجين المتخلفين ، ووصل على حاله هذا إلى مدينة بريده التي كانت القافلة تتجمع فيها الآن ، وبدءا من بريده ، كان لابد لكل منهما أن يسلك طريقًا مختلفًا عن الآخر ، معنى ذلك أن الإيرانيين إذا كانوا سيتجهون إلى المنطقة المجاورة لمشهد علي من خلال الطريق الشمالي الشرقي ، فإن أبا عيسى سوف يتجه إلى الهفوف ، التي تنتظره فيها زوجته الحبشية ، وابنه وهذا يحتم على أبي عيسى أن يسلك الطريق الجنوبي الشرقي ، عبر نجد مباشرة ، ومن المنطقة نفسها التي نود أن نسير خلالها ؛ وهذا الظرف هو الذي سهَّل على أبي عيسى مسألة الموافقة على إرشادنا عندما طلبنا منه ذلك .

هناك أيضًا بعض الظروف الأخرى التي جعلته يأخذنا معه ، فما أن وقعت عينا أبي عيسى على بركات ، حتى تبادل الاثنان تعرفهما ، فيما يتعلق بالموطن ، ولما كان أبو عيسى معتاداً على جميع طبقات السوريين وأوصافهم في المنطقة ما بين غزه وحلب، فقد أدرك على الفور أن هذه المعرفة الجديدة كانت أهم وأفضل عما قاله هو عن نفسه . وبناء عليه ، استقبل أبو عيسى بركات استقبالاً يتسم بالأدب الجم ، وعرف منا المكان الذي جئنا منه والمكان الذي ننوي الذهاب إليه ، وفرح بركات فرحًا بالغًا عندما بدأت الأزمة في الانفراج بعد المصاعب الكثيرة التي كانت ستحول بيننا وبين مضينا قدمًا في رحلتنا ، ولم يُضِعْ بركات الوقت ، وسأل أبا عيسى إن كان سيقوم بإرشادنا في رحلتنا إلى الرياض ، وهنا أبلغنا أبو عيسى أنه على وشك أن يفترق عن أصدقائه الإيرانيين ، الذين سيؤدي رحيلهما إلى وضع المزيد من الإبل تحت تصرفه ، وأنه لا يمانع في إرشادنا من حيث المبدأ ، أما فيما يتعلق بالوهابيين ورفضهم السماح للغرباء بالدخول إلى أراضيهم، فقد أبلغنا أنه معروف تمامًا لدى الوهابيين، وأننا في صحبته ، يجب ألا نخشى شيئًا من انتقاداتهم الملوءة شكًا وريبة ، وطلب منه بركات أن يحدد

القيمة الايجارية للجملين ، وهنا حدد أبو عيسى مبلغًا صغيراً جداً ، يصل إلى نصف ما دفعناه في رحلتنا من حائل إلى القصيم ، برغم أن المسافة من بريده إلى الرياض تزيد بمعدل الثلث على المسافة من حائل إلى القصيم ، مما يشير إلى أنه كان يود الحفاظ على صحبتنا مثلما كنا نود أن نكون بصحبته ، وأبلغنا أنه سيكون جاهزاً للقيام بالرحلة في غضون ثلاثة أيام على أكثر تقدير .

وجدَت أخبار سارة لا يمكن أن تخطر على البال ، وسارع بركات يحملها إليّ ؛ ولكن قبل أن يترك أبا عيسى ، المعرفة الجديدة ، قام على مسئوليته الخاصة بتوجيه الدعوة إليه لتناول العشاء معنا ، في الليلة نفسها ، مستهدفًا بذلك تأكيد الاتفاق ، ويفسح الطريق أمام زيادة المعلومات لدى الطرفين .

وبدأنا نستعد العشاء ، واشترينا وهذا شئ نادر بالنسبة لنا ، شيئًا من اللحم الطرى ، طهاه بركات بطريقة سورية أكثر منها عربية ، ولم يغب عن المائدة طبق التمر ومعه شيء من الزبد ، ولما كانت السيدات في بريده قد تعلمن ، من الفرس ، صناعه الخبز المخمور ، فقد ظهر ذلك الصنف الفاخر على مائدتنا أيضاً ، وأستطيع أن أقول : بشكل عام أن الوجبة كانت من النوع الممتاز قياساً على معايير القصيم . وبطبيعة الحال ، كان لابد من توجيه الدعوة أيضاً إلى الحاجين الإيرانيين ، والسبب في ذلك أن دعوة واحد من أفراد الجماعة وترك الباقي يعد عملاً خسيساً هنا ؛ واضطر أحمد ، صاحب المنزل أن يحضر لنا أواني الطبخ والأطباق ، وكان لابد من توجيه الدعوة إليه مقابل ذلك ، وأخيراً ، دعونا اثنين من الحضر ، كانا يشرفانا دائمًا بزياراتهما لنا ، وبذلك نكون قد أكملنا دائرة المرح . كانت قهوتنا تتسع لكل هذا العدد ، كما كنا نشعر بالرضا والارتياح .

ويصل إلينا أبو عيسى قبيل المساء ، ويدخل بيتنا على طريقة السادة الماجدين ، ثم يشترك معنا في الحديث دون الشعور بأى حرج ، فقد أحارنى فك لغز أبى عيسى ؛ زد على ذلك أن طريقته في التعامل لم تكن حضريه أو بدوية ، ولا مسيحية أو محمدية (إسلامية) ؛ كانت طريقته خليط من كل ذلك ، ولا يميل إلى شئ بعينه ؛ كان وجهه ينم عن الرجولة والشهامة ، ولكنه كان يكشف عن رقة شبة أنثوية في التعبير ، مثل تلك التي نراها في الصور التي رسمها كل من نيلسون ، وروبنى ، وبعض كبار الفنانين في القرن الثامن عشر ؛ وكلام الرجل يوحي بالذكاء ، ولكنه كان يكشف عن جهل كبير

بكثير من جوانب التعليم المدرسي ؛ تهاون في الملبس والمظهر ؛ ولهجه ذكرتني ، في لحظة ما بسوريا ، وفي لحظة أخرى بنجد ، وفي أحيان ثالثة بالصحراء ؛ زد على ذلك أن كلامه كان خاليًا تمامًا من تلك العبارات النمطية التي تملأ الفراغات الشاغرة في أحاديث صغار المتدينين المسلمين ، كل ذلك أحارني وأنا أحاول تحديد أصل مرشدنا المنتظر وطابعه الحقيقي ، والقارئ الذي أبلغته من قبل ، بذلك الذي تعلمته أنا فيما بعد وبالتدريج ، يستطيع أن يفهم بسهولة ويسر من تاريخ أبي عيسى متعدد الألوان ، التفسير الحقيقي والأسباب التي تقف وراء هذه السمات والخصائص المعقدة ، زد على ذلك ، أن كثيراً من تصرفات الرجل كانت ترجع لشخصه هو ، ولميل طبيعي داخله ومن صنع الظروف المحيطة به أيضًا ، رغم أنها كانت على العكس منها ، والواقع أن حياة التجوال ليست مدرسة جيدة لتعليم أمانة التعامل ، كما إنها لا تعلم أصحابها الأخلاق الحميدة في السلوك الشخصي ، ومع ذلك فإن أبا عيسى كانت عنده هاتان الصفتان : أمانة التعامل والأخلاق الحميدة اللتان أكسبتاه إعجاب الكثيرين به ، وسخرية البعض منه ، وانتباه الجميع إليه ، ولم يسمع مخلوق قط من شفتي أبي عيسى ، طرفه واحدة من الطرف المؤذية غير المهذبة ، أو الكلام مزدوج المعنى الذي يشيع استعماله بين العرب في ساعات السمر ، كما أن حياة الرجل كانت مستقيمة مثل لغته تمامًا ، ولم تدر حول هذا الرجل شكوك الخلاعة أو الفسق في داره أو في رحلاته ، فقد كان ولا يزال (رغم تراثه) زوجًا مخلصًا أحادي الزواج ، يضاف إلى ذلك ، أن هذا الرجل يتمتع بسمعة طيبة في المعاملات المالية ، إذ لم يعارض أو يتأخر في سداد أي دين من ديونه ، ويشهد كل أولئك الذين دخلوا معه في معاملات تجارية ، بأمانته التي لا تشوبها شائبة ، هذه المصداقية العالية جعلته يثق دومًا بأولئك الذين كان يعهد إليهم بشئونه أو يستأمنهم على أمواله ، يضاف إلى ذلك أن خبرة الماضي لم تفتح عينيه على الحرص في تعاملاته المستقبلية إلا بعد فوات الأوان ، كما أن خيانة صديق له ، لم تفقده ثقته بصديق آخر ، قد يكون من الشاكلة نفسها ، وهذه المعرفة الحميمة التي استمرت عدة أشهر وكانت عامرة بالأحداث ، هي التي هيأت لنا فرصة ملاحظة هذه الخصائص الغريبة في شخص أبي عيسى وفي شخصيته ، وأنا هنا ، أرجو أن يلتمس القارئ ، لي العذر ، في وصفي مظهر ومخبر هذا الرجل بهذه الدقة وبمثل هذه التفاصيل ، إذا أنه اعتباراً من الآن فصاعداً سيكون شخصية مهمة في رحلتنا .

وتوصلت مع بركات إلى نتيجة مفادها أن هذا الرجل الفريد لابد وأن يكون واحداً من مواطني حمص أو حماه ، وأنه تلقى تعليماً مسيحياً ، رغم أننا لم نستطع تبين الظروف التي دفعت به إلى هذه البلاد ، وعليه أجمعنا على أن ثورة حلب ربما كانت السبب الرئيسي وراء هجرته ، وقد كنا على حق في ذلك ، برغم أن ظنوننا ذهبت مذاهب شتى في أشياء أخرى .

ومن جانبه ، كانت لأبي عيسى بعض الظنون والملاحظات ، ونظراً لأنه عاش مطلع حياته في مدينة حلب ، فقد جعله ذلك ملماً تماماً بأساليب الأوربيين وتصرفاتهم ، ومن حسن الحظ ، ولندرة مثل هذه المعرفة في الجزيرة العربية ، فقد استطاع أبو عيسى أن يتوصل إلى الحقيقة التي كنا نحجبها عن الآخرين ؛ وخلاصة القول ، أن أبا عيسى استطاع ، على الفور ، أن يحددني على أنى متفرج أوربي متنكر ، ولكنه لم يستطع تحديد البلد الذي انتمي إليه ، وفي حدود هذه الفكرة بدأ الرجل يستطلع الأرض ، وبعد أن تحدث حديثاً عاماً عن كل من مصر وسوريا ، بدأ يلمح بشكل محدد إلى باريس ولندن ، ويتساءل عن سياسة الشمال ونفوذ الغرب ، ولكني في إجاباتي عن هذه الأسئلة كنت أفضل بل وأتعمد الاختصار ، ولم تكن نبرات صوتي تكشف عن أي قدر من الاهتمام ، ثم تحول بعد ذلك إلى الطب ، والكتب والأدوية ، التي اكتشف إننا نعرف عنها الكثير ، بل الكثير جداً ، ولكن هذه المناورة ، لم تنجح نجاحاً كلياً مع الأمير طلال . ومع ذلك ، فقد كان أبو عيسى أطيب قلباً من أمير شومر ، وبدون شك أو تردد تخلى عن فكرته الصحيحة الأولى ، وراح يؤمن إيماناً جازماً من أعماق قلبه ، أننا لسنا حكماء ، وإنما أطباء متعلمين ، بل وتلاميذ ، إن لم نكن منافسين لـ أبو قراط نفسه .

وفي ظل هذا الانطباع ، رسم أبو عيسى خطة ، بدأ في تنفيذها على الفور ، في حين لم يكن لدينا أي دافع لمعارضتها قبل أن نعرف محتواها ، كانت خطته ترمي إلى إقناعنا بالاستقرار إلى جانبه في مدينة الهفوف ، التي كنا فيها ، وأن ننشئ عملاً طبياً مربحاً ، في حين يستقيل هو من وظيفة مرشد حجاج وينضم إلينا في مهنة الطب. ومن هذا المنظور بدأ يتطلع إلى معاملتنا كرفاق على الطريق ، وأن يحاول كسب صداقتنا الحميمة وثقتنا ، وبصراحته المعهودة اطلعنا على نواياه ، وعبرنا له عن شكرنا العظيم ، وأكدنا من جديد على الترتيبات التي سبق أن اتخذها هو وبركات ، واتفقنا على الرحيل في أقرب وقت ممكن .

وجلسنا جميعًا لتناول عشاءً مرحًا ، لم يفتر الحديث خلاله قط ، وقبل حلول الظلام استأذن أبو عيسى ومعه الإيرانيان ، ليعودوا إلى ابلهم ومتاعهم ، فى حين راح أهل بريده يهنئوننا على العثور على ذلك المرشد الجيد الفريد ؛ الكل يعرف أبا عيسى ، والكل بلا استثناء يشهدون بنزاهته ومقدرته ، برغم أنهم جميعًا كانوا لا يتكلمون ، إلا فى الخفاء ، عن أصله الحقيقى أو عن حياته ومشاغله قبل أن يظهر فى الجزيرة العربية .

ومن هنا ، وفيما يتعلق بموضوع رحلتنا الأساسى ، كنت أقوم مع بركات ، خلال وقت فراغنا ، بدراسة المدينة وتدوين الملاحظات عما هو داخل الأسوار والموجود خارجها ، ولعل القارئ لا يظن أننا نضيع وقته سدى ، إذا ما طلبنا منه أن يرافقنا ، فى زيارة صباحيه ، إلى المخيم والسوق ، وإلى بساتين القرية وآبارها ؛ والزيارات التى من هذا القبيل ، والتى قمنا بها مرارًا إلى كثير من الأماكن ، لا تخلو من الأهمية أو المتعة .

وبرغم دفئ القصيم ، فإن إصباحاتها ، وبخاصة فى هذا الوقت من العام (النصف الثانى من شهر سبتمبر) ، كانت تسر الخاطر ، والشمس هنا ، تشرق فى سماء صافية خاليه من الضباب ، ونسيم الصباح الباكر ما يزال باردًا ويبعث على النشاط والحيوية ، وهذه ميزه تتمتع بها الجزيرة العربية كلها وبلا استثناء ، فى حين يفتقر إليها شرقى الهند وغرب مصر ، فى أغلب الأحيان ، وفى هذه الساعة من الصباح كنا نسير خلال الشوارع التى دخلنا المدينة منها أول مرة ، لنصل إلى معسكر الإيرانيين ، حيث نجد كل شئ عامر بالحياة والحركة ، ونشاهد هنا سلالاً مصفوفة على الرمل مملوءة بالبيض والتمر ، وبجانبها أكوام من الخبز وكعكات صغيرة مستديرة من الزبد الأبيض ، وحزم من الحطب ، على شكل أكوام ، وأوانٍ مملوءة بحليب الماعز أو حليب النياق ، ووسط كل هذه الأشياء تجلس الريفيات على شكل صفوف ، وهن تتساومن مع الإيرانيين الطوال أو مع خدم تاج جيهان ، الذين يحاولون ، بلغة عربية مكسرة تخفيض الأسعار ، وينتهون إلى أن يدفعوا ضعف المبلغ الذى كان مفترضًا أن يدفعوه . هاهم الجمَّالة البغداديين ، ذوى الوجوه العريضة ، وهاهم شباب مَشْهد علِى الذين يشبهون الخطاطيف ، ويشيع بينهم الاسمان حسين وعلى نظرًا لضيق التسمية عند الشيعة ، يتسكعون هنا وهناك ، يتفوهون بكلام بذئ ، ويسبون أولئك الذين لا يخافونهم ، ويتذللون إلى أسيادهم مثل العبيد . وهاهم السادة الأماجد الإيرانيين ،

أيضاً ، بأنوفهم الكبيرة المعقوفة ، وعمائمهم الكبيرة ، وثيابهم الأنيقة مختلفة الأنماط ، يتجولون في كل مكان يناقشون مظالمهم ، أو يتشاجرون مع بعضهم البعض لتمضية الوقت . والسبب في ذلك ، أن الإيراني ، على العكس من العربي ، يكشف فوراً عن حقيقة مشاعره ، ولا يجد غضاضة مطلقًا في التعبير عن ذلك في وجود أي إنسان كائنًا من كان ، وهو ليس كالعربي الذي يعتبر الصبر فضيلة من فضائل الأدب والكرامة . وأنا أرى هنا عدداً كبيراً من حضر بريده ، يدردشون ، ويقايضون ، ويساومون ، وهاهم بعض البدو الذين يحمل كل واحد منهم مشعابة في يده ، وإذا ما سألت ، مصادفة ، واحداً من أولئك البدو ، عن سبب مجيئه إلى هنا ، تأكد أولًا وقبل كل شئ ، أن الكلمة "جمل" في أي صورة من صورها ، سوف تجد طريقها إلى الإجابة التي سيعطيك إياها . والسبب في ذلك ، أن البدو لديهم مالا يقل عن خمس وعشرين كلمة مختلفة كلها تدل على الجمل ، طبقًا لعمره ، وجنسيته ، وظروف أخرى ، وذلك بغض النظر عن التسميات الباليه ، التي لا تحصى ولا تعد وكذلك أيضًا التسميات الرباعية، الموجودة بشكل كبير ووفير على صفحات فريتاج **Freytag** وجوليوس **Golius**. ومع ذلك تتبقى هناك ، الأسماء الثلاثية المستخدمة يوميًا ، يضاف إلى ذلك أن الجمل والبدوي لا ينفصلان عن بعضهما ، شأنهما في ذلك شأن الإنسان والحصان ، في أي قَنْطُور[1] من القناطير المرسومة على اللوحات الرخامية ، لدرجة أن الكلام عن أي منهما يجر حتماً إلى الكلام عن الآخر . وهاهم الباعة الجائلون ينادون على بضاعتهم ويقطعون المخيم جيئة وذهاباً، وهم يحملون مستلزمات الثياب الإيرانية، وأواني الطبخ ، وأدوات زينة من مختلف الأصناف ، أو يحملونها معهم إلى المدينة طمعًا في أسعار مرتفعة ، والسبب في ذلك ، أنه ما بين ابتزاز مهنا للحجاج الإيرانيين ، وزيادة قائمة إنفاقهم اليومي الذي يتزايد يومًا بعد آخر ، طوال إقامتهم المؤقتة في بريده ، أوشكت موارد الحجاج المالية على النضوب ، بل إنهم كانوا قد بدءوا فعلًا يبيعون كل ما اضطرتهم الضرورة للتخلي عنه حتى يتسنى لهم أن يشتروا بثمنه طبقًا من الحليب أو حزمة من الحطب ، من هنا كان مظهر الحجاج الإيرانيين خليطًا مضحكًا من المرح والحزن ، ومن الإفلاس والثراء والحاجة والعوز الموجعين ؛ معنى ذلك ، أن هؤلاء الحجاج ، كانوا سادة أماجد أخضعتهم الظروف لإرادتها ، فوصل بهم الحال إلى ما هم عليه الآن .

(١) القنطور : بفتح القاف وتسكين النون ، كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس ، (المترجم)

ومع أن هذا المشهد يثير الاهتمام ، فقد رأى بركات وأنا ألا نبقى فى وسطه فترة طويلة ، وذلك تحاشياً منا للأسئلة الحرجة والظهور المفاجئ لمعارف أو أصدقاء فى وقت غير مناسب. فأهل بغداد وأهل الكوفة، بل الشيعة بشكل عام ، أكثر فضولاً وعجلة - إن جاز لى أن استعمل عبارة محلية - من العرب ، وليس لديهم أى شئ من التحفظ المؤدب الذى يشيع بين العرب، عندما يستجوبون الأجانب ، وقد التقينا هنا ، مصادفة ، أكثر من مرة ، أشخاصاً من النوع الفضولى تماماً ،الذين يريدون أن يعرفوا كل شئ ، ويتظاهرون بأنهم يعرفون الكثير جداً عما قالوه ، ولم يكن من السهل أيضاً التخلص من هذه الشخصيات ، عن طريق التصريح لا التلميح . كان من بين أفراد هذه القافلة تركى ماكر ، اعتاد أن يطيل النظر إلينا ، ويسأل ، بطريقة مهذبة ، أسئلة من النوع الذى يسهل طرحه وتصعب الإجابة عليه ، الواقع أننى كنت على يقين أن ذلك الوغد استطاع أن يستجلى منا الكثير ، ولو قدر له أن يكون فى مكان آخر أو من طبقة أخرى ، لأصبح واحداً من الزبائن الذين يصعب التعامل معهم. والعثمانى، بشكل عام ، هو أكثر الرجال حصافة فى مسألة الظن ، ويستطيع أن يتبين ، عند منعطف من المنعطفات كثيراً من الأشياء التى لا يراها الآخرون ؛ ولكن العثمانى ، فى الجزيرة العربية ، يبدو صغيراً ، وهذا التركى لديه الكثير الذى يُمَكِّنه من تخليص سربه من الشرك كى يتفرغ لإيقاعنا نحن فيه .

لقد تعجبت مراراً من الاتحاد الغريب الذى يصنعه الأتراك من الاستخبارات الجادة والتنفيذ غير السليم . والأتراك عندما نتحدث معهم ، نقتنع بأنهم أفضل البشر فى فهم ما يدور من حولهم ، أو أنهم أفضل الناس للقيام على أمر الحكم ؛ ولكن عند الممارسة الفعلية ، تجد أنهم لا يصلحون للسلطة ؛ فالجميع عندهم أخساء وغشاشون ، مدمرون وخونة . والتركى أثناء العمل (وهذه هى خبرتى الخاصة) لا يتركز عقله أو قلبه إلا فى ملذاته الذاتية وفى السلب والنهب ؛ هذا التركى نفسه من حيث النظرية السياسية هو ميترنغ Metternich وهو ولبرفورس Wilberforce فى الإحسان لابد أن تكون هذه العبارة Video meliora probaque; Deferiora sequor شعاراً يوضع على العلم التركى : فهى توجز كل تاريخهم ، وفى الوقت نفسه ، فإن هذا الربط العجيب والدائم بين الرأس الجيد والقلب السيئ ، بين الفهم الواضح والأخلاقيات المهلهلة ، هذا الربط قد يفسر أسباب نجاح العثمانيين دوماً فى ترك انطباع جيد لدى أولئك الذين يلتقونه من خلال وسيط الجو الدبلوماسى ، وسط دوائر المهندمين الذين

يجيدون الكلام ، أو في مكاتب وصالونات القسطنطينية ، أو عندما يمثل دور السيد الماجد المتحضر والناعم في كل من باريس ولندن ، إن أولئك الذين تبادلوا الحديث مع الحاكم التركي وهم يحتسون خمرة الكلاديث ، في فندق من الفنادق ، أو أولئك الذين عقدوا معه اجتماعًا في كشك صغير على ضفاف البسفور ، هؤلاء وهؤلاء لا يمكن أن يتخيلوا أن يكون حرق القرى ، واغتصاب نساء دمشق ، وتخريب القرى ، وإذلال الفلاحين في كل من سنجار والنصيرية ، من صنع حكومة على رأسها رجال بهذا القدر من الذكاء ، وبهذا القدر من الحب ، بل قبل كل ذلك ، بهذا القدر من الأدب . ومع ذلك ، فلن تصدق أية فتاة من الفتيات ، إن ذلك الرجل اللطيف الذي تأبطت ذراعه وهي في طريقها لتناول العشاء ، أو ذلك الرجل اللطيف ، الذي قلّب برفق صفحات نوتتها الموسيقية وهي تعزف على البيانو ، هو نفس الرجل الذي يمثل رجل الحصان في سباق الخيل أو هو الرجل نفسه الذي يفتح النار على رأس "زنجي" . الواقع أن هذا هو ما يحدث في بعض الأحيان ، ومن المؤكد أنه يحدث على أيدي العثماني . ولكن إذا كان الدبلوماسيون الأتراك يدركون تمامًا موهبتهم غير العادية في الدجل والخداع ، فإن لديهم بعد نظر وتبصر في مواطن الضعف عند من يتعاملون معهم ، يضاف إلى ذلك أن الديبلوماسيين الأتراك يعرفون أيضًا أين ومتى يلجئون إلى التملق أو المصالح ؟ كما يعرفون أيضا أين ومتى يسرفون في الوعود والكلام المعسول ، وأين ومتى يطعمون السنارة الإنجليزية بطعم التجارة ؟ والسنارة النمساوية بالسياسة ، والسنارة الفرنسية بالكلام المنمق ، والكل يبتلع هذا الطعم في المرة المئة مثلما ابتلعه في المرة الأولى ، لأن الطُّعْم يكون موضوعًا باتقان والمتلقي مشتاق إليه . وأفيون الرجل المريض يجني على أطبائه وعليه هو نفسه . ولكن نحن هنا ، في الجزيرة العربية ، وأصداء الكلام التركي المعسول والحكم السيئ لا تصل إلى هنا إلا خافتة تمامًا وبين الحين والحين ، يكفي ما قلته هنا ، وهيا بنا نعود مرة أخرى إلى بريده ، التي فيها حكومة سيئة أيضًا ، ولكن من نوعية مختلفة .

كنت قد ذهبت مع بركات إلى السوق لتقضيه مشترياتنا الصباحية ، وكان قد مضى على شروق الشمس أكثر من ساعة من الزمن ، وهنا وجدنا من المناسب أن نزور سوق المدينة ، الذي سوف يفتح أبوابه بعد قليل ، ودخلنا مرة ثانية من بوابة المدينة ، ومررنا بباب دارنا ، لنترك فيها حزمة المأكولات التي اشتريناها ، ثم نعود بعد ذلك إلى شارع بريده الرئيسي ، ونصل بعد قليل من الوقت إلى عقد مرتفع فوق الطريق ؛

وهذه البوابة تفصل السوق عن بقية الحى ، وندخل السوق : وأول ما شاهدناه كان عبارة عن صف طويل من دكاكين الجزارة على جانبى الطريق ، التى تغص بلحوم الضأن والجمل ، ومنظمة بطريقة قذرة ، ولولا نقاء الهواء ولولا المناخ الصحى لانتشر الطاعون وتوطن فى هذا المكان ؛ ولكن شيئًا من هذا لن يحدث فى الجزيرة العربية . ونسرع الخطى ، ونمر على سلسة من محلات بيع الأقمشة والبياضات ، مكدسة بالمصنوعات المحلية ، ولكن الجزء الأكبر من هذه المصنوعات مستورد من الخارج ، فهذه عباءات بغدادية وعقالات ، على سبيل المثال ، وهذه شراشف سورية ، وتلك أحذية مصرية ، هنا ، فى بريده ، تلتزم الأسواق بالنظام السائد فى الشرق ، والذى يقضى بأن تكون الدكاكين التى تبيع سلعة واحدة ، فى مكان واحد ، وهذا النظام مزاياه أكثر من عيوبه ، وبخاصة بالنسبة للمدن الصغيرة التى من قبيل مدينة بريده ، ولكن فى المدن الكبيرة ، وفى العواصم الأوربية ، فإن الامتداد العمرانى يتطلب تنظيمًا مختلفًا ؛ فقد يتضايق سكان هايدبارك ، إذا تعذر عليهم أن يجدو صانعًا للقبعات (قُبَّعى) إلا فى منطقة البرج Tower. ولكن هيهات أن نقارن بريده أو دمشق بلندن أو برلين ، أو بمرسيليا أو حتى بمانشستر ؟ وعلى كل حال ، فإن بريده وسط هذه المجموعة لا تقترب من أى منها ؟ فالشوارع فى مثل هذه الساعة من النهار تغص بالناس ، ومما يزيد الطين بلة ، أن جملًا ضخمًا ذو قدم مسحاء يظهر بين الحين والآخر ، ثم ينتقل من جانب إلى آخر مثل قارب ضخم ، وعلى ظهره دعامة طويلة تهدد رءوس أولئك الذين يعترضون طريقة ، أو جمل آخر يحمل حملين كبيرين من الحطب ، حجم كل منهما مثل حجم الجمل نفسه ، يخليان الطريق من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، فى حين يعتلى الجمّال سنام الجمل ، غير مبال بهذه الأمور ، طالما أن الجمل يشق طريقه . وفى أحيان أخرى قد تشاهد رتلا من هذه الدواب ، وقد ربطت حكمةُ الجمل فى مزيلة الجمل السابق له ، والأرتال التى من هذا القبيل تسبب الكثير من المضايقات عند المنعطفات الضيقة .

ونشق طريقنا خلال هذه العقبات ، لنصل الآن إلى دكاكين الجلد والغرّازين ، ثم إلى دكاكين النحّاسين والحدادين ، الذين توقظ طرقاتهم الموحدة ، الموتى أو تقتل الأحياء ، إلى أن تصل فى النهاية إلى الساحة الرئيسة فى المدينة ، وهى ساحة جيدة أيضًا ، ومنتظمة ، إلى حد ما ، إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا أنها موجودة فى القصيم . والمسجد الكبير يشغل نصف ضلع من أضلاع هذه الساحة ، ويبلغ عمر هذا المسجد

حوالى مائتى عام ، وذلك بالنظر إلى طرازه وشكله العام ، ولا يوجد فى أى جزء من أجزاء هذا المسجد نقش أو تاريخ من أى نوع ، ومن واقع خبرتى ، فإن مسألة خلو المساجد من النقوش أو التواريخ ، هى قاعدة عامة تحكم إنشاءات وسط الجزيرة العربية وشرقها ؛ إذا لا توجد نقوش كوفية ، أو حميريه أو كتابات عربية على الأسكفه أو العمود ، وقد أحزننى هذا العيب الإنشائى ، ولا أعرف سببًا لغياب هذه النقوش التذكارية ، وبخاصة إذا قارناها بالنقوش الوفيرة فى كل من حوران ، والصفا ، وبالميرا وبابل ، الواقع أن الكتابة الملونة موجودة على الجدران وفوق البوابات ، غير أن أعمار هذه النقوش لا يتجاوز بضع سنوات ، ولم تكن ندره النقش على الحجر راجعة إلى نقص فى المهارة ، نظرًا لأن النقوش المعمارية متوفرة فى نجد ، رغم إنها بدائية ، فى حين نجد هذه النقوش ، هى والفنون الزِّينية الأخرى ، فى كل أنحاء عمان .

ومئذنة ذلك المسجد سامقه جدًا دليل ، من بين أدلة أخرى كثيرة ، على أن تاريخها يرجع إلى ما قبل السيطرة الوهابية الأولى ، نظرًا لأن المذهب السائد فى نجد لا يقر المآذن العالية ، وهو ما يؤكد أن هذه المآذن الطويلة لم تكن موجودة فى عهد محمد (ﷺ) (محافظون متشددون !) ، ولذلك يكتفى الوهابيون ببريج صغير يزيد ارتفاعه قليلًا على ارتفاع سطح المسجد ، ويوجد فى ذلك البُريج شق فى أحد أجنابه يقف شاهدًا على حدوث زلزال يقال أنه وقع فى تلك المنطقة منذ ثلاثين عامًا مضت ، وربما كان ذلك الزلزال هو الزلزال نفسه الذى شاهدنا آثاره فى الأحساء ؛ ولكنى هنا أترك مناقشة هذا الموضوع مناقشة مستفيضة هو وبعض الأعراض البركانية الأرضية الأخرى إلى أن أصل إلى آخر المناطق التى تكثر فيها هذه الأعراض ، والعقود والسراديب غير معروفة فى بريده ؛ ولذلك نجد الدعامات التى تحمل سقف المسجد قريبة من بعضها وكثيرة العدد . وهذه الدعامات مصنوعة من الحجر .

والجانب الآخر من الساحة عبارة عن بهو مُعَمَّد ، يذكرنا بالأبهاء التى من هذا القبيل فى بولونيا ، وهاهى مجموعة من المواطنين تجلس فى ظل هذا البهو يتبادلون الأخبار ويتناقشون فى أخبار المال والأعمال ، ووسط الساحة مليء بالجمال وبالات البضائع مختلفة الأنواع ، يشكل من بينها البن اليمنى ، والحناء ، والزعفران ، الجزء الأكبر ، وعلى كل حال ، فقد كانت التجارة ، عندما وصلنا بريده ، كاسدة تمامًا بسبب الحرب ، التى كانت أعمالها تشغل السواد الأعظم من السكان ، فى حين كانت أعمال

الحرب ، تنزل الخطر بكثير من الطرق والمسافرين ، وقد دفع ذلك ، إضافة إلى أسباب أخرى كثيرة ، أهل الحضر إلى أن يلعنوا الوهابي ويسبونه ، ويلومون أنفسهم على حماقتهم عندما فتحوا له الباب أول مرة كي ينتشر بينهم .

وتتفرع من هذه الساحة عدة شوارع كل منها له سوق مستقلة تبيع هذا الصنف من البضاعة أو ذاك ، وينتهي كل شارع من هذه الشوارع ببوابة تفصله عن المنازل ، وسوق الخضار والفاكهة كبيرة ، ولا يعمل فيها سوى النساء على وجه التقريب ؛ وهذا ينطبق أيضاً على سوق البقالة والتوابل ، والجنس اللطيف في بريده لا يقل مهارة ، في التجارة والاتجار ، عن الجنس الخشن ، والشاعرالعربي يقول : "إمساك المرأة ، لا يقل عن كرم الرجل" ، ذلك القول الذي يصادف ما قاله لا نس الفيروني Lance of Verona عندما كان يعلق على قائمة "ظروف" زوجته المستقبلية .

وملح الصخور عالي الجودة ، شديد البياض ، الذي يجلب من غرب القصيم يعد من السلع الشائعة في بريده ، وأنا أرى كتلاً كبيرة منه ببلوراتها الجميلة ، موضوعة على شكل أكوام ، أمام الدكاكين ، وفي بعض الأحيان ، تشاهد إيرانياً واقفاً أمام أحد هذه الدكاكين ، يجرب حظه ومهارته في الابتياع أو المقايضة ، ولكن هؤلاء الحجاج الشيعة ، بشكل عام ، يخجلون من دخول المدينة ، لأنهم لا يحظون فيها بسمعة طيبة ، زد على ذلك ، أن تواجد البدو في شوارع بريده أقل منه في حائل ؛ والواقع ، أننا من الآن فصاعداً ، لن نصادف هؤلاء البدو إلا بين الحين والآخر ، إن لم يكن نادراً ، ولكن يكثر هنا أهل الحضر الذين يرتدون الثياب الجيدة ويبدو عليهم التجهم ؛ ويمسك كل واحد منهم عصا صفراء مصنوعة من خشب السدر أو اللوتس ، إضافة إلى أن غترهم تهفهف على رءوسهم ، ولكن بدون العقال ، المصنوع من وبر الجمال الأبيض أو الأسود ، الذي يتميز به أهل الشمال . هذا العقال يبدأ في التلاشي كلما اقتربنا من وسط الجزيرة العربية ، بل أنه يختفي في شرقي الجزيرة العربية تماماً .

والمدينة كلها يبدو عليها أنها كانت تنعم بازدهار كبير بدأ ينحسر عنها ، فالمنازل الجديدة قليلة ، ولكن الكثير من منازل البلدة تتداعى وتنهار . وجوه معظم من قابلناهم متجهمة ، ونبرات أصواتهم مخنوقة ، والثياب الحريرية محرمة من قبل الطائفة المسيطرة ، والدخان لا "يشرب" إلا داخل المنازل ، وخلسة ، والدعاة الوهابيون المتشددون ، من الرياض ، يقومون بزيارات إصلاحية دورية يعظون خلالها العصاة ،

ومن لا يتبع طقوس المذهب النجـدى يقبض ويعـاقب على ذلك عقـاباً شديداً فى أغلب الأحيان .

ونحن لا ندخل بيتاً إلا إذا دعانا صاحبه، وهنا نجد أن الترتيب الداخلى يختلف ، إلى حد ما ، عن الترتيب الداخلى ، فى جبل شومر ، ومنازل القصيم متلاصقة ، وهنا تكون الفراغات بين الجدران لها قيمتها ؛ ومن هنا نجد أن الأحواش أصغر والغرف أضيق ؛ والطابق الثانى يشيع هنا فى بريده ، أما فى حائل فهو يعد من قبيل الاستثناء النادر ، ووفرة الحطب فى هذه المنطقة تقلل من قيمة فحم الخشب ، كما تختفى هنا أيضاً مواقد الجوف وشومر الصغيرة ، لتحل محلها المواقد الكبيرة المحفورة فى الأرض ، ولها حافة مرتفعة من الحجر ، وشبكة من السلك ، تشبه تلك الشبكة التى نستعملها فى بريطانيا ، قبل أن يحتم علينا الفحم الحجرى ودخان الفحم الحجرى استعمال المداخن ، وكل الأشياء الحديثة الخاصة بالمدافئ والمواقد ، وهم هنا يكومون خشب الغاضة وخشب المرخ فوق شبكة الحديد ، والقهوة فى بريده ، أكثر من ممتازة ، والسبب فى ذلك أن أجود أنواع بن اليمن يأتى إلى القصيم ، ويجرى تسويتها على لهب هادئ .

ومعظم الحديث ، هنا ، ينصب على الحرب واحتمالاتها ، ونحن عند هذا الحد نكون قد أصبحنا على معرفة تامة بنظام الحكم الوهابى فى مناطق الإمبراطورية التابعة له، كما أصبحنا على علم تام أيضاً بردود الفعل القوية الموجودة فى كل مكان ، وسبق أن أوردت شيئاً عن هذه المسائل ، وسوف أعاود الحديث ، بعد قليل ، عن هذه المسائل نفسها ، حتى تكتمل الصورة .

وأنا أورد المزيد هنا عن مدينة بريده ، شوارعها ضيقة ، وحارّه ، ومتربه ؛ والنهار فيها طويل ؛ ولكن البساتين باردة ووارفة الظلال وعليه قمنا بمغامرة خلال متاهة من الطرق الفرعية والطرق المستعرضة ، إلى أن وجدنا أنفسنا فى الشارع الواسع مثل الجَاذّه[1] فى فرنسا الذى يمضى متواصلاً ولكن داخل الجدران .

هاهى بوابة جانبية ، ولكنها شبه مهدمة ، لها أبواب ضخمة متحركة ، ولكن ليس بجوارها أحد يفتحها أو يغلقها . وعلى كل حال ، هناك جدار مكسور ، من جدران

(١) الجاذه : بتشديد الذال وفتحها ، شارع عريض تكتنفه الأشجار . (المترجم) .

واحد من الأبراج المجاورة للبوابة ، ونأمل أن نجد مخرجًا ، عبر هذا الجدار المكسور ، نصل منه إلى البساتين الموجودة خارج هذا الأسوار ، ونتسلق هذا الجدار ، وبعد أن نتجاوز كومه من الزبالة ، كانت بمثابة بداية درج ملتوٍ ، وجدنا أمامنا نافذة تطل مباشرة على البساتين ؛ ومن حسن الحظ أننا لم نكن أول من جرب هذا الطريق المختصر ، نظرًا لأن صبيه المدينة ، قاموا بتكبير هذه الفتحة ، وكوّموا الحجارة ، على الأرض ، من أمامها كي يسهلوا المرور من خلالها : وحنونا حنو هؤلاء الصغار ، وخلال دقيقة واحدة كنا نقف ، في الهواء الطلق ، على الجانب الآخر من الجدار . النسيم عليل هنا ، وسوف يظل على ما هو عليه إلى أن يدخل وقت الظهيرة ، أمامنا نخل عالٍ وظلال كثيفة ، الأرض مثل القطيفة الخضراء ، وتنمو فيها نباتات البيقية والذرة التي تزرع في فصل الخريف، وتتخللها سلسلة من المجاري المائية المستعرضة ، بعضها جاف ، والبعض الآخر ينساب فيه الماء ؛ نظرًا لأن الآبار يجري تشغيلها .

هذه الآبار تكاد تكون واحدة في كل أنحاء الجزيرة العربية ، والفارق الوحيد بينها يتمثل في الحجم والعمق ، غير أن الآلية الهيدروليكية فيها واحدة في كل مكان ، إذ توجد أعلى البئر دعامة مستعرضة محمولة إلى الأعلى على دعامتين من الخشب أو الحجر واحدة منها على كل جانب ، ويوجد على هذه الدعامة ما يتراوح بين ثلاث وست عجلات (دواليب) صغيرة تمر من فوقها الحبال المركب في طرف كل منها دلو كبير مصنوع من الجلد ، ويحمل من الماء كمية تساوي ضعف الكمية الإنجليزية المعتادة . ويقوم الناس بإنزال هذه الدلاء إلى عمق البئر ، ثم يسحبونها إلى الأعلا بواسطة الجمال أو الحمير ، التي تسير ببطئ جيئة وذهابا على المستوى المائل الذي يمتد من حافة البئر إلى حفرة طولية، والدلاء عندما ترتفع إلى حافة البئر تنقلب رأسًا على عقب، وتصب ما بها من ماء ، عن طريق مجرى واسع ، في خزان قريب ، تتفرع منه المجاري المائية التي تروي البستان ، وكمية الماء التي يجري الحصول عليها بهذه الطريقة لابد وأن تكون متقطعة وغير مستمرة ، وأقل بكثير جدًا ، من الكمية التي يجري إنتاجها في كل من مصر وسوريا باستعمال آلية تنطوي على قليل من المهارة ؛ في حين أن تشكيل هذه الدلاء التي تكون مهلهلة في معظم الأحيان يتسبب في ضياع نصف كمية الماء التي بداخلها ، قبل أن تصل إلى حافة البئر ، والفريد ، الصوت الذي ينتج عن العجلات (الدواليب) ، واندفاع الماء عندما تصل الدلاء إلى نقطة التحول ، والرذاذ الناتج عن انسيابها عائدة إلى عمق البئر ، كل هذه الأشياء تشكل رسالة من

رسائل الحياة والرطوبة التى يرحب الناس بهما فى هذه المنطقة الجافة الساكنة ، ويستطيع المسافر والرحالة سماعها من مسافات بعيدة وهم وسط التلال الرملية ، لتكون إشارة لهم على اقترابهم من مكان بارد ينالون فيه قسطًا من الراحة .

وبدأنا نتجول فى الظل الكثيف ، ونختفى خلف أعواد الذرة العالية كى نقوم بتدخين غليون من التبغ فى غياب الأعين النجدية التى تتلصص علينا ، ثم نواصل المسير بعد ذلك إلى أن نصل إلى سلسلة من التلال الرملية التى تغطيها أشجار الأثل التى تقع على حواف البستان ومجارى الماء فى هذا الاتجاه . ويدفعنا فضولنا إلى تسلق هذه السلسلة من التلال الرملية ، برغم شدة انحدارها ، ومن على قمة هذه التلال الرملية ، بدأنا ننظر فى اتجاه الجنوب الغربى ، ناحية عنيزه ، ولاحظنا أن المنطقة الريفية فيما بين هذه التلال الرملية وعنيزه ، تتخللها جزر زراعية وسط الرمال ، كما لاحظنا عن بعد أيضًا خطوطًا من الظل الكثيف ، الذى يحدد لنا موقع عنيزه بالضبط ، كما أبصرنا فى جميع الاتجاهات ، حميرًا ، وإبلاً ، وخياله يحملون رماحهم على أكتافهم ، ومسافرين ضمن قوافل صغيرة بطيئة الحركة ؛ وإن تصادف مرور أحد منهم بالقرب منا ، فإنه كان يتوقف لحظات قليلة يتجاذب معنا ، خلالها ، أطراف الحديث ، وربما يدخن غليونًا .

ولكن وقت الظهيرة يدخل علينا ، والحرارة تشتد ؛ وكان من الخطأ أن نظل واقفين فى حرارة شمس الظهيرة ، ولذلك توجهنا مرة ثانية إلى الأسوار ، وغامرنا بالسير بحذاء خندق المدينة إلى أن ظهرت أمامنا بوابة ، دخلنا منها لنعود إلى منزلنا من جديد .

كان محمد وإبراهيم المكّيّان رفيقانا فى القافلة يسكنان فى الشارع الذى كنا نقيم فيه ، وعلى مقربة من منزلنا ، كانا يزورانا دومًا ، وكان لابد لنا من تحمل مداهناتهم وتزلفهم الممل ، حتى يمكن أن يستفيدا من صحبتنا ويسخراها لأهدافهما الاستجدائية ، وكانا فى الوقت نفسه يغتابانا ، من وراء ظهرينا ، ويقولا عنا أننا كفار ، وأننا من الشخصيات الخطيرة جداً التى تثور الشكوك من حولها ، ولكن كلامهما هذا كان يذهب هباءًا والسبب فى ذلك ، أن أهل القصيم أنفسهم ، لو دارت فى أذهانهم فكرة أننا نعادى نظام الحكم القائم ، لجاءت هذه الفكرة فى مصلحتنا أكثر من مصلحة البلاد .

زد على ذلك ، أن ترتيبات السفر التي أعددناها مع أبي عيسى ، ذاعت وأصبحت معروفة للجميع ، وأسفرت عن زيارات متعددة جاءتنا من المعسكر الإيراني ، وكان من المهم أن نسمع هؤلاء الأجانب وهم ينتقدون أرض العرب ، ويثنون على أرضهم ، التي حاولوا أن يعطونا عنها فكرة براقة ، بعض هؤلاء السادة الأماجد ، لأنهم كانوا كذلك على مقياس المجتمع الشرقي ، كانوا يجيدون العربية إلى حد ما ، بفضل ترددهم على بغداد وضواحيها بصورة متكررة ، كما كانوا يهتمون أيضاً بأبحاث الأدب والتاريخ .

وقد أتاحت العمليات العسكرية ، إن جاز لي أن أسميها بهذا الاسم ، الموجهة ضد عنيزه ، لضابط سابق في الجيش الهندي ، موضوعاً آخراً ، من الموضوعات التي يبحثها ويلاحظها ويتقصاها ، واستهدافاً مني للتعرف على هذه الإجراءات التي كان الجزء الأكبر من المدينة يشارك فيها ، قمت بعدة زيارات إلى المعسكر النجدي ، المقام عندئذ إلى الجنوب من أسوار المدينة على الطريق المؤدي إلى عنيزه ، في هذه المنطقة شاهدت مجموعة غير منتظمة من الخيام السوداء الصغيرة ، التي كانت في الأغلب الأعم عبارة عن خرق وأسمال باليه ، منصوبة ، طلباً للظل ، على عمودين أو ثلاثة ، على الطريقة الغجرية ؛ ولكن الفراغ المتاح داخل هذه الخيام ومن حولها كان يعج بالرماح ويشغي بجموع النجديين السُّمْر ؛ الذين كوَّموا بنادقهم الفتيليه ، على شكل أهرامات ، من أمامهم ، وبنفس الطريقة التي نتبعها في تشوين أسلحتنا ، أمام الخطوط وفيما بينها . كانت كل عشيرة ، وكل منطقة ، في مخيم مستقل ، وسرعان ما استطعنا عن طريق الملاحظة ، أن نميز مخيم رجال الأفلاج ، ومخيم رجال سدير ، ومخيم رجال الوشم ؛ وكانت البنادق هي السمة الغالبة في تسليح رجال الوشم ؛ أما السمة الغالبة عند أهل الأفلاج فكانت السيوف والخناجر ، ولكن رجال سدير كانوا مسلحين بالرماح ، التي كانت تمثل السمة الغالبة في تسليحهم عن كل من رجال الوشم والأفلاج، في هذا المعسكر كان يحتشد جزء كبير ، من قوة وسط نجد **Central Nejed** ، في حين كان الجزء الأكبر من تلك القوة لم يأت بعد ، يضاف إلى ذلك ، أن كلًا من قوة الجنوب وقوة الشرق لم تصلا بعد ، ناهيك عن قوات العارض الشاصة ، والمدفعية ، والسبب في ذلك أن الأمير فيصل ، كان يوجل الضربة الحاسمة ، ولذلك كان يحاول إرهاق العدو عن طريق حرب الأنصار ، ولم أجد من سكان بريده من يجرؤ على الاقتراب من تلك الخيام أو التجول بينها بعد غروب الشمس ، بل إن أهل القصيم ، كانوا يبتعدون عن تلك الخيام أثناء النهار تحاشياً منهم لعداء النجديين الوطني والديني ،

الذين يشنون حربًا على الدخان ، لا تقل عن حربهم التى يشنونها على عنيزه ، إضافة إلى أن النجديين كانوا أعداء ألِدَّاء لكل من يلبسون الحرير من أمثال الزامل Zamil نفسه وملازمة الخياط Khey'yat ، وعندما مررنا بهذه الطوابير كانت تحية الجنود قصيرة وعبوس ، ولا يعقبها أى شكل من أشكال الدعوات الودية ؛ إذ لم نكن نجديين ، وإنما كنا كفره ، يضاف إلى ذلك ، أن الجوع ، كان بمثابة السبب الرئيسى وراء سرعة غضب هؤلاء الرفاق المساكين ، كما أن الجوع هو الذى يجعلنا نلتمس لهم الأعذار أيضًا ؛ فقد جاءوا إلى هذه المعركة ، وليس معهم سوى مؤن هزيلة ، وليس معهم من المال ما يمكنهم من شراء ما يحتاجون إليه ، علاوة على إنهم لم يكونوا يعيشون هنا فى أحياء طليقة ، فضلاً عن أن سكان بريده لم يكونوا ميالين ، بحال من الأحوال ، إلى معاملتهم معاملة طيبة ، كان النجديون قد أدخلوا فى حسابهم مسألة العيش على التمر وسلب أشياء عنيزه ونهبها ، ولم يدخلوا فى حسابهم مضيفهم ، وبالتالى لم يستولوا على أى شئ من النفايات والحثالة ؛ والسبب فى ذلك أن قوات الزامل ظلت تحتفظ بالسيادة والتفوق فى ميدان القتال ، وكان وضع المحاصرين والمحاصرون النسبى ، قد انعكس تقريباً ، عند هذه المرحلة من القتال .

وفى إحدى الأمسيات تناهت إلى أسماعنا صيحة إنذار انطلقت من برج المراقبة العالى فى المدينة ، وتردد صداها فى السهل الواسع من المواقع الخارجية ؛ كان الإنذار يحذر من مجموعة من الخيَّالة ، جاءت من عنيزه ، واجترأت على الاقتراب من مدينة بريده ، وراحت تسلب الضواحى وتنهبها ، وخرج مُهَنَّاً من مكتب المحاسبة الخاص به ، وراح يحث بقية السكان على الاشتراك فى القتال إلى جانب الطرف المنتصر ؛ عندئذ ، ويا للعجب ! وخلال لحظات ، خلت الشوارع والسوق من الناس ، وهرول أهل المدينة، لا إلى ميدان الشهرة ، وإنما إلى داخل منازلهم ، وأغلقوا أبوابهم ، مفضلين "الدفع بالغيبة" على كارثة العصيان العلنى والصريح ، إذا ما رفضوا حمل السلاح ، أو تلبية النداء ، وبذلك يضطروا إلى محاربة أولئك الذين يعلقون آمالهم الكبيرة على انتصارهم ونجاحهم . وعلى كل حال ، فقد أرسل مهنا أتباعه وزبانيته يتجولون فى المدينة ، فى الوقت المناسب ، ليجمعوا أربعين رجلاً ، من هؤلاء المقاتلين المترددين ، الذين وافقوا بمجرد إلقاء القبض عليهم ، وأخذوا معهم رماحهم وبنادقهم الفتيليه ، ومضوا وكلهم عزم وتصميم على ألا يحاربوا العدو ، وانضمت إلى هذه المجموعة مجموعة أخرى كبيرة من الجنود النجديين، الذين توافدوا ، بقيادة رؤسائهم ،

من خيامـهم ، وفى داخلهم نوايا مـختلفة ؛ وكان الكثـيرون منهم ، يحملون إلى جانب الأسلحة التى ذكرناها ، خناجر اليمامة القصيرة ، التى كانت تتدلى من أحزمتهم ، كما كانوا يحملون أيضًا السيوف ، التى لم تكن حامية دوما -الثقيلة وفى أيدى خبيرة ، وتسلقت مع بركات تله رملية خارج نطاق الاستحكامات ، شاهدنا منها السهل بكامله والمبارزة التى دارت بالسيوف .

كان كل أنصار عنيزه ، الذين كان عددهم حوالى نصف عدد رجال العدو ، يركبون خيولاً ، وقد وزعوا أنفسهم هنا وهناك بين المنازل والبساتين فى الضواحى ، دون أن يتسببوا فى أذى أهل القرى ، ولكنهم كانوا مشغولين بجمع الغنائم الخفيفة التى كانت تصل إليها أيديهم ، وعندما أقترب المهاجمون ، تجمع أنصار عنيزه أمام المزارع ، ودفعوا عشرين منهم إلى المقدمة لبدء المعركة التصادمية ، وقام النجديون من جانبهم بالتريث قليلاً ، ووحدوا صفهم . وتكتيك القتال العربى غاية فى البساطة ، ولكنه لا يخلو من المهارة ، والخيالة تتقدم للأمام ، وتبادئ بالاشتباك ؛ فى حين يبقى الجمّالة والجمّالون ، والذين يشكلون القوة الرئيسية ، ينتظرون فى الخلف ، وعندما يزداد وطيس القتال ، وبخاصة عندما تسيل الدماء لدى أى جانب من الجانبين ، يقوم الجمّالون بتبريك جمالهم ، بحيث يصبح كل جمل بمثابة تحصين ميدانى يستفيد منه اثنان من الجمّالة المسلحين بالبنادق ، على شكل غطاء لهم ، وهنا يفتح الخيالة النار ، وهنا يبدأ تبادل إطلاق النيران الفعلى ، إلى أن تتمكن الميمنة أو الميسرة من الهجوم ، أو ينجح أحد الجانبين فى التغلب على الجانب الآخر ، عن طريق الهجوم الشامل ؛ وبعض المقاتلين يحاربون سيراً على الأقدام ، والبعض الآخر يقاتل راكبًا ، ويستمر العراك إلى أن يستسلم جانب من الجانبين ، والنجديون يتميزون على بقية سكان الجزيرة العربية بأنهم يفضلون القتل على جمع الغنائم ، وهم لا يتطلعون إلى كسب الأرض أو احتلالها ، وطالما توفرت الرجال أمامهم فهم يفضلون القتل على جمع الغنائم ، من هنا ، إذا كان النجديون هم الذين يتولون قيادة المعركة ، فإن وطيس القتال سوف يشتد ، ومع أن سقوط ستمائة أو سبعمائة قتيل على أرض المعركة قد يبدو أمراً تافهاً جداً عند الأوربيين الذين اعتادوا أن يروا آلاف القتلى مثلما حدث فى بلاكلافا Balaclava أو عشرات الآلاف كما حدث فى سلفرينو Selferino ، إلا أن هذا الرقم ، عند العرب ، يعد رقمًا كبيراً جداً ، والواقع أنه لم يتحقق إلا فى العمليات الحربية النجدية وحدها ، وفى الأماكن الأخرى لا يزيد عدد القتلى على اثنين وعدد

الجرحى عن ثلاثة ، وهنا ينتهي القتال ، والحال هنا شبيه بالمعارك التي كانت تدور بين البلديات الإيطالية في العصور الوسيطة ، ولا يختلف كثيراً عن بعض المعارك التي كان يشنها ملك بريطانيا والكمنولث خلال السنوات الأولى من الحرب الأهلية التي جرت في القرن السابع عشر ، إن التقدم الشامل الذي طرأ على عصرنا ، امتد ، من بين الأشياء الأخرى ، إلى فن القتل ، وهكذا بدأنا نحتقر تماماً العمليات الجزئية التي كان أسلافنا يقومون بها ، ومع ذلك ، فإن العرب في بساطتهم المختلفة لا يزالون يثمنون الدم البشري تثميناً غالياً وذلك على العكس مما هو سائد في أوربا الآن ، وأعود مرة ثانية إلى وصف المعركة التي نشاهدها وتدور أحداثها أمام أعيننا .

ويردُّ خَيَّالة بريده على تحدي العدو لهم بأن ينطلقوا إلى الأمام بعضهم في اتجاه والبعض الآخر في اتجاه ثانٍ ، ولكنهم لا يتجهون صوب عدوهم مباشرة ؛ في حين يتحتم على النجديين أن ينتظروا ويتريثوا ، نظراً لأن الغالبية العظمى من دواب القتال عندهم تكون من الإبل ، ونحن نشاهد بين النجديين ثلاثة أو أربعة من الخيالة وهم بطبيعة الحال ، سيتولون قيادة المعركة، أو إن شئت فقل هم الذين سيبدأون الإشتباك . ونشاهد بعد ذلك عرضاً جميلاً لمهارات الفروسية ، مصحوب بنيران متقطعة من بنادق الفتيل ؛ ولكن يبدو أن رجال القصيم ، سواء أكانوا من عنيزه أم بريده يفهمون بعضهم بعضاً ، وعقدوا العزم قبل كل شئ على ألا تصيب طلقة أو رمح ، من طلقاتهم أو رماحهم ، أحداً من إخوانهم المواطنين ، ولذلك تراهم يحومون هنا وهناك ، مثل الخطاطيف عندما تحوم فوق بحيرة من البحيرات ، إلى أن يفقدوا النجديين صبرهم ، ويتقدم طابورهم بالكامل إلى الأمام . وهنا يكتشف مقاتلوا عنيزه أن الأمور بدأت تدخل منعطفاً خطيراً ، وأن من المحتمل أن يتفوق العدو عليهم من ناحية العدد ، فيختفون واحد إثر الآخر بين بيارات النخيل عند المؤخرة ، محافظين بذلك على استعراض طيب حتى آخر لحظة ، ويجعلون الأشجار تحول بينهم وبين عدوهم قبل أن تصل إليهم طلقة من طلقات البنادق العتيقة التي يستعملها العدو. وهنا تنتهي المعركة ، لعدم وجود العدو ، وبذلك يتسلى أبطال بريده ، وهم في طريقهم إلى المدينة بذكريات هذه المعركة الخادعة ، وهتافها وكرها وفرها ، التي يدخلونها بعد غياب عنها دام أربع ساعات ، دون "أن يخسروا لحسن الحظ نفساً واحدة" ، وهذا هو ما تقوله الصحف الصباحية ، في صباح اليوم التالي ، هذا إن قدر أن تكون في هذه البلاد صحفاً صباحية ، وبعد عودة الفرسان ، يظهر أهل المدينة فجأة ، وتدب الحياة في الشوارع من جديد .

كنا نمضي أمسياتنا ، في العادة ، بطريقة طيبة ؛ فبعد العشاء ، وموعده هنا ، بعد غروب الشمس ، كما هو الحال في سائر أنحاء الجزيرة العربية ، كنا نصعد إلى سطح المنزل المستوى ، مع أبي عيسى ، وبعض المعارف الأخرى من أهل البلد أومن مخيم الحجاج الإيرانيين ، ندخن سوياً ونتسامر ساعات طويلة ، أو نستمع إلى أذان العشاء الذي كان ينبعث من مخيم الحجاج الإيرانيين ، وهو ينساب عذباً ورخيماً من بين الأصوات العربية المزعجة ، وأنا لا أعرف إن كان القارئ واقعاً أو غير واقع تحت تأثير الوهم الذي يقول : "إن الجزيرة العربية هي أرض الغناء ؛ إذ ليست هناك في العالم دولة لديها توافق لحني أقل من ذلك ، سوى الصين ؛ ولكنني لم تسنح لي الفرصة مطلقاً بالاستماع إلى مؤذٍ صيني ، إن كل ما في الأمر أنهم ، لا يحسبون للموسيقى حساباً ، وعلى كل حال ، لقد استمعت إلى الأتراك ، والفرس ، والهنود على اختلاف مشاربهم ، كما استمعت أيضاً إلى أغاني الزنوج ، ناهيك عن السوريين ، والأرمنيين ، والإغريق (اليونان القدامى) ، وما إلى ذلك من الغناء ؛ وأنا أشهد بأنهم جميعاً يتفوقون في ذلك ، على أبناء قحطان أو أبناء إسماعيل في هذا المجال ، من حيث الصوت والاستماع ، كما أشهد أيضاً أنهم يتفوقون عليهم أيضاً في الموسيقى الآلية والموسيقى الوترية، وأصدقائي العرب لا يشاركوني هذا الرأي؛ وهم على العكس مني ، يعتبرون أنفسهم الخلفاء الحقيقيين لـ ـ أورفيوس Orpheus ، وهم في أغلب الأحيان يصمون آذان المستمع المهذب بصراخ لا يصلح إلا لآلات النفخ ، ويؤذونه بنغمات أنفية يزعمون أنها ذات طابع لحني harmony . وأفظع هؤلاء الناس هم البدو ؛ بل أن الرحالة الفرنسي المحب للشرق والمتحمس له ، قد يشعر بالسأم والملل عندما يستمع إلى بدوى وهو يعوى ، على مسمع منه ، بأنشودة "أبو زيد" ، الشهيرة في يوم قائظ ، وفيما يتعلق بأهل المدن ، فهم أحسن قليلاً ، في هذه الصدد ، من البدو ، وفي جميع الأحوال فإن أفضل ما يمكن أن يجود به المغني العربي ، على المستمع ، هو السكوت .

وعلى الجانب الآخر ، نجد أن الإيرانيين يتمتعون بأصوات طيبة بشكل عام ، ولديهم إحساس حقيقي بالتوافق اللحني ، وموسيقى الفرس ، إن لم تتساو مع الموسيقى الأوربية ، فهي موسيقى بهيجة على أقل تقدير ، برغم إنها يغلب عليها الحزن ، مثل معظم الموسيقى الآسيوية ، وجيران الفرس ، في كل من بغداد ، بل ربما سكان وادى نهر دجله بكامله ، بدءاً من البصرة إلى ديار بكر ، يشبهونهم من حيث الصوت والاستماع ، زد على ذلك أن المغني البغدادى يستطيع أن يجمع ثروة كبيرة في

المدن البعيدة . وهناك دفعة موسيقية أيضًا فى سوريا ، وبخاصة بين الدمشقيين ، ويجيئ من بعدهم سكان شاطئ البحر فى كل من صيدا ، وعكا وبقية المدن ، والأتراك أيضًا مغنون معقولون ، ولكن ألحانهم أخف وأكثر حيوية ، وتقترب من الألحان الأوربية .

وعلى سبيل التعويض ، إذا كان الصوت العربى لا يصلح ، وهو كذلك بكل تأكيد ، للغناء ، فإنه يصلح تمامًا للحديث العام بكل نغماته ، ويصلح أيضًا للقراءة الجاهرة ، كما يصلح أيضًا لكل أنواع الحوار والأحاديث والفصاحة والبلاغة ، والصوت العربى واضح ورخيم ورنان ، وهو صوت قوى رغم أنه ليس عذبا ، ومن يمتلكون ذلك الصوت يعرفون كيف يستفيدون منه ويوظفونه أحسن توظيف ، يضاف إلى ذلك أن الصوت العربى له ميزه فريدة، لا تتوفر لغيره من الأصوات ، وأنا أعنى هنا على وجه التحديد ، أن الصوت العربى متوحد توحداً تاماً مع نطق اللغة ، التى تعتبر من أغزر ، إن لم تكن هى أغزر لغات الدنيا من حيث النطق ، والكلام المعتاد سواء أكان فى الحجاز ، أم اليمن ، أم فى مصر أو سوريا أو فى الموصل وبغداد ، غير صحيح ، ومعيب ، ومشوه ، ومحرّف ، فى القصد Desinence والنبر ، وفى طريقة الإلقاء وفى الأسلوب Phrasiology . وهذا الكلام المعتاد ليس لهجة وإنما هو مجرد شكل من أشكال التفسخ النحوى والأصواتى ، زد على ذلك ، أن أولئك الذين تمكنوا بفضل الدراسة والتعليم من تحاشى المحلية المتدنية والأخطاء المباشرة ، يظهر فى كلامهم العام وحديثهم الخاص ذلك الوهن والضعف والارتباك الذى يصاحب كل ما هو اصطناعى ، وهنا يصبح الاستماع أو الإنصات لهم مملاً ، ولكننا نجد عكس ذلك تماماً ، فى كل من جبل شومر ونجد العليا ونجد الوسطى ، إذ نجد فى هذه الأماكن أصغر الأطفال ، وأشعثهم الذى يتسكع فى الطرقات والشوارع يتكلم العربية الفصيحة Book - Arabic (عربية الكتاب) (إن جاز لى أن استعمل هذه التسمية غير الصحيحة) ، تلك العربية التى درسها دى ساكى De Sacy ، أو التى كان ينطقها سيبويه ، والسؤال الذى يطرح فى بعض الأحيان هو : "هل عربية القرآن وعصر الأدب العربى الذهبى بشكل عام مجرد لغة منطوقة ، أم إنها كانت دومًا على هذا النحو ؟" . والإجابة على هذا السؤال هى بالإثبات : فمن المؤكد أن هذه اللغة كانت لغة منطوقة ؛ لأنها ما زالت على هذا الوضع فى الأماكن التى سبقت الإشارة إليها؛ وهى ليست مجرد لغة منطوقة، وإنما هى أيضاً

لغة شعبية ، بل حتى مبتذلة ، من منظور المعنى الأتيمولوجى[1] وأفضل مثال على الإلقاء فى اللغة العربية ، يتمثل فى تلاوة القرآن على الملأ ، والوهابيون يتفوقون على غيرهم فى هذا المجال ، والإخلاص والدقة الدينيين ، اللذين يحيطان بحبر من أحبار اليهود ، وهو يقرأ يوم السبت ، ما تيسر له من أسفار موسى الخمسة[2] هما اللذان يبعثان القوة فى الصوامت ، ويضفيان قوة على الصوائت ، ودقة على كل من مواقع النبر والتصريفات ، إلى أن يُسلِّم المستمع ، عن طيب خاطر ، حتى وإن كان "كافراً" من أعماقه ، بالتأثير الذى تحدثه هذه التلاوة فى المؤمن العربى ، والسبب فى ذلك أن ميزة القرآن تكمن فى فصاحته وبلاغته وبيانه بالغ الصفاء والنقاء ؛ والحس فى القرآن قليل ، وليس فيه استنتاجات منطقية ، من هنا ، فإن محاولة ترجمة القرآن ، مهما بلغت من المهارة والحذق ، تصبح أمراً لا طاقة لامرئ به ، وأنا أجزم هنا ، أن قلة قليلة ، هى التى استطاعت أن تتجه إلى ترجمة القرآن ، وذلك خلال ترجمة سيل Sale التى حذوا حذوها من البداية للنهاية ، ولكن التكرار بحد ذاته ، والتراكيب المملة والانتقالات المفاجئة، التى تثير اليأس لدى كل من الفرنسى والإنجليزى اللذان يقرآن القرآن، هى ، فى اللغة العربية ، التى تخلق التوكيد الإيقاعى فى النص ، من ثم فإن مستمعى القرآن فى الشرق هم الذين يستشعرون جمالها وطلاوتها وحلاوتها .

ولندخل الآن فى التفاصيل : المناطق التى تُنْطَقُ اللُّغَةُ العربية فيها ، فى أيامنا هذه ، مثلما كانت تُنْطَقُ تماماً أيام محمد (ﷺ) ، أو حتى قبل بعثته ، وكل ما يقدمه النحو والنطق ليزيدا هذه الدقة نشاطاً واكتمالاً، هذه المناطق هى : جبل شومر ، والقصيم ، وسدير ، والوشم والنصف الشمالى من العارض ، وفى اتجاه الجنوب من هذه المناطق يسود شكل مختلف آخر من اللغة العربية ، وأنا أعنى هنا الشكل القحطانى من اللغة العربية ، الذى يزداد قرباً ، عن طريق التدرج المنتظم ، من الشكل الأكثر فصاحة ، أو إن شئت فقل لسان المنطقة الوسطى ، إلى أن يحل محله تماماً فى عُمان حيث نجد شكلاً معدلاً من اللغة العربية يتمثل فى قصائد ما قبل الإسلام ، فى جنوب الجزيرة العربية ، وهذا الشكل ، الذى هو الآن ، وربما كان دوماً لغة الفرع العربى اليمنى ، ولكن الفكر الحالى يستبعد اليمن ، أو سواحلها على الأقل من هذه

(١) الأيتمولوجيا : بسط أو تعليل لأصل لفظة ما وتاريخها ، (المترجم) .

(٢) أسفار موسى الخمسة هى الأسفار الخمسة الأولى من "العهد القديم" ، (المترجم) .

المقولة ، وأثار هذا اللغة ما تزال موجودة فى بعض مناطق اليمن ، مثل وادى نجران على سبيل المثال ، وربما فى حضرموت ، ولكن هذه الآثار توجد مختلطة ضمن تعبيرات أهل الحجاز ، وتعبيرات أهل ساحل البحر ، ولكنى سوف أحاول هنا توضيح الطريقة التى حدث بها كل ذلك .

ومع ذلك ، لن يتسنى لى العودة إلى سياق قصتى ، دون أن أورد هنا تعليقًا على ذلك الخطأ الغريب الذى وقع فيه بعض كبار المستشرقين ، الذين تخيلوا أن تفاصيل النحو العربى الدقيقة هى مجرد اختراعات ابتدعها علماء فقه اللغة المحدثين تمامًا ، وبالتالى فإن هذه التفاصيل لا أساس لها فى اللغة نفسها ، وبداية دعونى أقول : إن القواعد لا تخلق الحقائق ، ولكنها تفسر هذه الحقائق وتؤطرها ؛ وأن المنظومات ، ليست أسبابًا ، وإنما هى تعليقات على أشياء موجودة بالفعل ، وعلى كل حال ، وإضافة إلى هذه الحجج العامة ، فإن هناك سببين ، ليس فيهما شك على الإطلاق ، يؤيدان أن "التنوين" كان مستخدمًا قبل خالد بوقت طويل ، والنصب كان مستخدمًا قبل الزمخشرى . وأول هذين السببين ، هو أن عروض وقافية كثير من القصائد العربية ، التى هى بمثابة الأدب الأصلى فى الجزيرة العربية ، والتى تعود إلى تواريخ موغلة فى القدم أو إلى تواريخ أسطورية ، هذه القصائد ، تعتمد اعتمادًا كليًا ، على التطبيق الصحيح لهذه القواعد ، التى لم تكن قواعد فى ذلك الحين ، وإنما استعمالات ، هؤلاء الذين سيحاولون أن يقرأوا جهرًا قصائد الشنفرا ع 'Shanfara أو أمرؤ القيس دون أن يأخذوا فى حسبانهم مسائل الرفع ، والجزم ، والوصل ، والهمزة سوف يفشلون فى اكتشاف أى شئ من الوزن أو الإيقاع فى هذه القصائد ، ويكون شأنهم فى ذلك ، شأن من راح يترجم أشعار الكسندر بوب أو هوراس إلى اللغة الألمانية ، ثم يروح بعد ذلك يبحث عن مواطن الجمال عند الأول أو التقطيع العروضى الخماسى العنبقى والقافية الثنائية عند الآخر[1] ونحن على يقين الآن ، ولدينا الكثير جداً من الأدلة ، على أن العرب كانوا يتكلمون مثلما كانوا يقولون ، ولدينا الكثير جداً من الأدلة ، على أن العرب كانوا يتكلمون مثلما كانوا يقولون الشعر ، وأن لغة الشعر ولغتهم المعتادة كانا

(١) للمزيد عن التقطيع العروضى فى الشعر الإنجليزى ، راجع كتاب "الشاعر والشكل" ترجمة د/ صبرى محمد حسن وعبد الرحمن القعود ، ومن منشورات دار المريخ فى الرياض بالمملكة العربية السعودية ، (المترجم) .

وجهين لعملة واحدة ؛ وخلاصة القول : إن الفارق بين القافية وبين الكلام المعتاد كان يتمثل في ترتيب الكلمات ، وليس في الكلمات نفسها ، هذه القواعد ، أو بالأحرى الحقائق التي تحددها هذه القواعد ، قديمة قدم المقاطع الشعرية التي تجسدها - معنى ذلك ، أن هذه القواعد كانت موجودة قبل نحاة كل من الكوفة والبصرة بزمن طويل . وهناك دليل قاطع ثان على أسبقية النحو المنطوق على النحو المكتوب ، وهو وجود هذا النحو وجوداً فعليًا وحياتيًا بين الكبار والصغار ، بين المتعلمين والجهال ، بين سكان ينتشرون على رقع واسعة من الأرض ، وفي مناطق نائية لم نسمع فيها قط عن أسماء علماء فقه اللغة الشمالية ، والتي يتحدث فيها الفلاحون والجمّالون بهذه الطريقة وعلى ذلك النحو ، لسبب بسيط جداً هو أن آباءهم كانوا يتكلمون هكذا من قبلهم ، في حين تعلم آباؤهم بدورهم أيضًا من آبائهم ، وهكذا دواليك إلى أن نصل إلى أصل الأمة وأصل لغتها ، وقد أدى انعزال هذه المناطق إلى الحفاظ عليها من مفاسد العبارات والكلمات الأجنبية ؛ ولكن ذلك يستبعد أيضًا جميع فرضيات التعليم اللاحق ، وفرضيات التعليم من كتب مستورده ، وعلى النقيض من ذلك ، فإن هذه اللغة نفسها عندما انتشرت إلى أراضي في اتجاه الشمال، وفي اتجاه الشرق ، وفي اتجاه الغرب ، حيث يوجد الأقباط أو السوريون أو الفرس ، أو الأكراد ، أو الأتراك أو البربر ، فقدت في تلك الأفواه غير المتجانسة روحًا أو طبعًا ، دقتها وكمالها الأصليين وامتزجت بالمفردات الإيرانية ، وتشوهت بفعل التشابه الأرميني الجزئي، عندئذ، بل عندئذ فقط ، نشأت ضرورة الحاجة إلى الدراسة ، وإلى القواعد، التي تأتي بها المدارس والباحثون ، لتحديد النمط الفصيح لهذه اللغة وإنقاذه من براثن النسيان الكامل ، وهكذا نجد أن ما كان طبيعة في البداية أصبح فنًا ، وبذلك يتبلور الكلام الفصيح متحولاً إلى كتب ونحو .

وقد ناقشنا ، أثناء وجودنا في بريده ، وفي بعض المناطق الأخرى ، موضوعات أخرى مماثلة مع رفاق السفر في القافلة ، ولم تكن هذه الموضوعات أو الموضوعات الأخرى المماثلة فوق مستوى فهم أصدقائنا من أهل الحضر ، بل أنهم استفادوا منها أيضًا ، وإذا كان هذا الكتاب يقدم أفكاراً جديدة ، أو آراء شديدة الشبه والتوافق واحتمالية الصدق فيها عالية جداً وذلك على العكس من الآراء التي وردت ، قبل ذلك ، عن الجزيرة العربية ، فإن من العدل والإنصاف أن أقول هنا ، إن السواد الأعظم من هذه الآراء الموفقة ، إن قدر لها أن تكون كذلك ، مصدره جبل شومر ، ونجد ، والأحساء ، وعُمَان ، التي عَثَرْت فيها على هذه الآراء وسمعتها ؛ وأن كل ما فعلته في معظم الأحيان هو أنني "رحت أحكي الحكاية نفسها من جديد ، مثلما سمعتها من قبل" .

ولكن ليالينا في بريده لم تكن كلها نحو ، بل إننا كنا نناقش كثيراً من النقاط الأخرى ذات الاهتمام الواسع في نطاق دائرتنا الهادئة عندما كنا نجلس تحت "السماء فوق سماء" ليلة عربية ، ونحن نسترق السمع على الأصوات المنبعثة من المدينة ، أو صوت المؤذن الإيراني الجميل الذي كنا نسمعه من بُعْدٍ ، وكنا نمر مر الكرام على ذكر الحكومة والدين ، والطب والتجارة ، والخطط والمشاريع ، التي تحقق بعضها بالفعل ، والتي أصيب بعضها بالإحباط الأزلي ، إلى ساعة متأخرة من الليل ، كان يعود أصدقاؤنا عندها إلى منازلهم طلبًا للنوم ، في حين نبقى نحن لنمضي ليلنا على سطح المنزل .

والضوء البروجي[1] الذي يمكن تمييزه دومًا في هذه السماء الصافية ، والذي هو في قمة اعتداله[2] يظهر هنا ناحية الغرب على شكل مخروط ويستمر ثلاث ساعات بعد غروب الشمس، هذا الضوء البروجي واضح تمامًا من حيث اللون، والشكل ، والاتجاه ، عن الوميض النهاري الأفقي ؛ هذا الضوء البروجي يعاود الظهور في الشرق ، قبل طلوع الصبح بفترة طويلة ، يمكن الخلط بينه وبين مطلع الفجر بسبب نقص الخبرة والتجربة ، والشهب والنيازك تنزلق هنا على قبة السماء ، ولكنها هنا ليست بالكثرة التي هي عليها في أوربا ، يضاف إلى ذلك أن السحب والضباب في مناخ المناطق الشمالية ، هما اللذان يهيئان الفرصة لرؤية هذه الشهب والنيازك ، وتسمع طول الليل أصوات الحراس في الأبراج وهم يتبادلون ، على فترات زمنية متساوية ، عبارة "الله اكبر" ، التي هي كلمة السر في منطقتهم ، كل ذلك والمدينة تغط في نوم عميق وبياراتها ورمالها الساكنة تحيط بها ، وهنا بدت لي ذكريات الهند وسوريا ، وأوربا والوطن ، كما لو كانت تنتمي إلى كوكب آخر ، أو أن شئت فقل وهمًا غامضًا من أوهام الأحلام ؛ في حين أرى الجزيرة العربية هي والقصيم رؤية مادية واضحة ، الآن ، أوجه الشبه معكوسة ؛ ومع ذلك ، فأنا عندما أتأمل الصحراء القاحلة الفاصلة ، والبحار التي يتعين عليَّ عبورها يَصْعُب علي أن أتوقع عودة الأمور إلى ما كانت عليه . (نقلاً عن قصيدة الذكريات In Memorium) .

(١) الضوء البروجي : وهج منتشر في السماء يرى في الغرب بعد المغيب ويرى في الشرق قبل الشروق ، (المترجم) .

(٢) الاعتدال هنا ، يعني اعتدال الليل والنهار من الناحية الفلكية ، (المترجم) .

وفى الصباح الباكر كان دوى الهاونات وأياديها، الذى كان ينبعث من المنازل المجاورة ، التى كان أصحابها مشغولين بتجهيز قهوة الصباح ، كان هذا الدوى يوقظنا من نومنا لنرى أبو عيسى وقد استيقظ من قبل ، ومشغول بطحن البن فى الحوش السفلى ، بينما اختلط وميض نار الخشب بضوء الفجر الرمادى ، وليس من بين العرب ، أحد ، مهما كانت حالته ، يستطيع أن يضع نفسه فوق مستوى عمل القهوة ؛ هذا يعنى أن من الخصال المكملة للسادة الأماجد أن يتقنوا إعداد القهوة بدلاً من أن يتركوا هذا العمل لمن هو أدنى منهم أو لعبد من العبيد .

وطوال تأخيرنا الذى طال فى مدينة بريده ، كنا نغادر المدينة ، من حين لآخر ، لزيارة القرى المجاورة مثل عسقه ، والمذنب ، وبعض القرى الأخرى ، لأن تلك كانت أفضل الطرق لدراسة الحياة الريفية فى القصيم . كنت قد وصفت بالتفصيل منزلاً ريفيًا ، فيما أوردته عن فترة الراحة التى أمضيناها فى ضاحية الدوير ، تحت تعريشه مبارك ، ولذلك فأنا لست بحاجة هنا ، إلى الدخول فى المزيد من التفاصيل عن منازل الفلاحين ، إذ أن هذه المنازل ، كلها لها نمط واحد ، ولا تختلف عن بعضها إلا فى الحجم فقط . والقرى بحد ذاتها ، نظيفة وتسر الخاطر ، وهى لا تختلف عن قرى الفلاحين فى جافينبتام Jafinapatam وسيلان ؛ وكل ما يقع بين الظل والماء ، بارد تمامًا إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا دوائر العرض التى تمر بالمنطقة، وسكان هذه القرى، بشكل عام ، على الحال نفسها التى كان الحكيم العجوز يريدها لنفسه عندما قال : "لا تعطنى فقرًا أو غنى" وقلة من الناس هم الأغنياء ولكن غالبية السكان ليست فى فقر أو عوز . والأرض فى هذه القرى مملوكة لزراعها ، وليست للحكومة ، كما هو الحال فى تركيا ؛ والأرض هنا أيضًا ليست فى أيدى كبار الملاك مثل آل ـ زمندار فى الهند ، والفلاحين الأكثر ثراء فى إنجلترا ، من ناحية أخرى ، فإن الضرائب الوهابية المبالغ فيها ، إن لم تعق التوسع الزراعى تمامًا ، فإنها لا تشجعه على أقل تقدير ، فالحكومة تأخذ العشر من إنتاج التمور ، والقمح ، والذرة ، وما فى حكمها ، وذلك على شكل ضرائب منتظمة[1] ، فى حين أن هناك بعض المكوث والضرائب الأخرى ، التى تصل إلى حوالى ثلثى المحصول ، يجرى فرضها بصورة منتظمة ، على كل شئ وذلك فى حالة إعلان "الجهاد" أو "الحرب المقدسة" ، معنى ذلك أن هذه الضريبة تفرض فى حالة

(١) المأخوذ هنا زكاة وليس ضريبة ـ كما يظن المؤلف – (المترجم) .

أى حرب ، نظراً لأن الوهابيين أمة مقدسة (متدينة) ، ولأنهم يمثلون "الرغبة الإسلامية الحقيقة" "التى يهاجمها الناس فى كل مكان" ، ولأنهم أيضًا المؤمنون المخلصون الحقيقيون ، من غير شك ؛ من هنا تصبح حروبهم مقدسة أيضًا ، إلى حد أن من يرفض المساهمة فى حملاتهم الدينية ، يدخل فى عداد المارقين أو الكفرة ، أولئك الذين يودون أن ينظر إليهم هذه النظرة ، ومن ثم يعاملون بهذه المعاملة .

الماشية ، مثل الإبل والأغنام ، تجرى تربيتها هنا ، فى أغلب الأحوال ، كما يجرى رعيها هنا أيضًا ، ولكن على نطاق أصغر من جبل شومر ، نظرًا لزيادة حجم الأراضى المنزرعة على حجم الأراضى غير المنزرعة ، ومع ذلك ، فإن الماشية تشكل قسماً كبيراً من ثروة البلاد ، وهى لا تغطى الاستهلاك المحلى فقط ، وإنما يتبقى منها فائض للتصدير أيضاً، برغم أن المشترين الأجانب يقللون من قيمة هذه الإبل والأغنام ، من منظور أن قيمتها أقل من قيمة السلالات التى تربى فى جبال طويق . كما يجرى فى قرى بريده تربية الخيول وتصديرها شرقًا وشمالاً ؛ والخيول هنا تشبه الخيول التى تربى فى جبل شومر ، ولكنها لا تجاز على إنها خيول نجدية أصيلة ، أما الأبقار والثيران ، فلا يوجد منها أى شئ هنا ، والجاموس ما يزال قليلاً هنا ، ورعاة الماشية ورعاة الأغنام هم عادة من القرويين وأحيانًا من البدو ؛ ولكن الرعاة القرويين زادت أعدادهم وأهميتهم عن الرعاة البدو .

والضريبة (الزكاة) التى تجبيها الحكومة ، على ماشية الرعى تصل إلى حوالى واحد على عشرين من قيمة هذه الماشية ؛ من هنا يصبح راعى الماشية وراعى الغنم أحسن حالًا من الفلاحين أو أصحاب الحدائق والبساتين ، ولكن الضريبة الخاصة ، التى تفرض على اللحوم تزيد من عبئ الضريبة المفروضة على هذه الماشية لتصبح تمامًا مثل الضريبة التى تجبى على الزروع والثمار ، وتحصل الحكومة أيضًا ضريبة (زكاة) على المال بواقع واحد على أربعين من قيمة المال[1] ؛ ونظراً لأن محصل الضريبة ، يصعب عليه الإطلاع على حقيقة هذه الأموال ومعاينتها ، فإنها تحسب على أساس متوسط دخل كل تاجر من التجار ، وكل حرفى من الحرفيين ، تجرى محاسبته بمقتضاه ، يضاف إلى ذلك ، أن أفراد طبقه التجار سواء أكانوا رعايا أم أجانب ،

(١) وهو ما يعبر عنه بربع العشر فى عروض التجارة ، (د. حلمى عبد المنعم) .

يتعين عليهم أن يدفعوا رسماً على بضائعهم التى يستوردونها من الخارج ، عند إدخال هذه البضائع إلى البلاد ؛ ويجرى تحصيل هذه الرسوم بمعدل أربعة شلنات عن كل حمولة ، وهذا مبلغ كبير نظراً لأن هذه الرسوم تفرض على البضاعة التى تزيد أحجامها على تكلفتها ، ومن هنا لا تكون رسوم التجارة أفضل حالاً من مثيلتها المفروضة على الزروع أو تربية الماشية ، ويجب أن نضيف إلى كل هذا الامتصاص الحكومى ، بنود الهدايا التى تقدم من حين لآخر ، والرشاوى ، والابتزاز المحلى ، والقهر السافر ؛ وأترك القارئ بعد ذلك ، يحكم ، بنفسه ، إن كانت مزايا هذا النقاء العقدى السامى تساوى الثمن المدفوع فيها من قيمة البضاعة الحقيقية فى هذا العالم المتدنى ، وأخشى أن يجيب العرب ، غير الوهابيين على هذا التساؤل بالنفى ، أخيراً ، فإن كثرة الحروب ، وإجبار الناس لا على المشاركة فحسب فى تكاليفها ، وإنما على تحمل جزء رئيسى منها ، هو الذى يعجل باضمحلال المنطقة .

ومع ذلك ، فقد أثبتت التجارب أن هذه المساوئ أو معظمها يمكن تحملها لو كانت مفروضة من قبل الرؤساء المحليين ومن قبل حكومة أهلية ، إن لقب الأجانب ، وبخاصة الأجانب الذين يتبعون نظاماً يهدف دوماً إلى الإستحواذ على المناصب كلها ، والسلطة كلها ، والنفوذ كله ، وعلى الثروة كلها فى النهاية ، هو الذى يستثير حقد وكراهية الناس للوهابى فى بريده وفى المناطق الأخرى الخاضعة له ، إن كثيراً من البشر سوف يعانون الكثير لأن أيديهم اليمنى سوف تقطع أيديهم اليسرى ، وبخاصة أن هؤلاء البشر لا يطيقون أن تَخِزَ الإنسان يده الأخرى بدبوس . و أخيرا فإن فرض ، نظام مستبد ، والاتباع الذليل للقيود الطقوسيه ، الذى قد يتفق العرب فيها مع القديس جيمس فى أورشليم ، عندما يقول : "لا طاقة لنا أو آبائنا بذلك"، يمكن أن يؤدى إلى تفاقم الظلم المالى والظلم السياسى عن طريق التدخل المستمر الذى لا مبرر له . والمعروف أن دعابات لود Laud الكنسية هى التى فعلت الكثير فى قيام الثورة الكبرى ، أكثر من ضريبة السفن التى كانت تجبى فى مدينة ستراتفورد ؛ يضاف إلى ذلك ، أن المِدْرعة[1] والصلاة القصيرة ربما كانت تستثير حقد وكراهية الاسكتلنديين أكثر من توسيع ، الامتيازات الملكية ، أو القضاء على الحصانات البرلمانية ، فى هذا النظام المستبد تزدهر سلالة المطاوعة على المساهمات الإجبارية من شعب يكرههم ، وعلى

(١) المِدْرعه : بكسر الميم وتسكين الدال ، رداء الكهنوت ، (المترجم) .

الضرائب الكريهة ، التي تزداد كراهة عندما تجرى جبايتها باسم الدين وباسم الله[1] .
إن مسألة " إثقال كاهل أولئك الذين لا يأكلون اللحم بتلك المؤسسة التي تبالغ في أكله" تعد مسألة خاصة ، ولهذا السبب وحده ، ناهيك عن الأسباب الأخرى ، تعد إجراءً غير حكيم ، حتى وإن كان ذلك مفروضاً من قبل سلطة فيصل بن سعود العليا ، سواء أكان ذلك في نجد أم في الأماكن القريبة منها .

وبرغم كل ذلك ، يجب ألا يقطع القارئ بأن الحكومة الوهابية كلها أخطاء ، أو أنها لا تعمل صالحًا يوازن أو يبرر جزئيًا عيوبها الكثيرة ، صحيح أن الحكومة الوهابية سيئة بكل تأكيد ، ولكن الذي جاء قبلها ، كان أسوأ منها في كثير من المناطق – الفوضى التي لا تعرف حدوداً ، الصراع بين الرؤساء المحليين ، الحروب الأهلية بين الحضر ، وغطرسة البدو التي لا تقف عند حد ، صحيح أن حاكم نجد لص ونهّاب ، إلا أنه بمقتضى خاصية الاسترداد هذه ، يحتفظ لنفسه بكل السلب والنهب ، ويكْره أي إنسان آخر ، سواء أكان بدويًا أم حضريًا على تحمل العقوبة ، إن هو فتح حساباً خاصًا من تركته Score. وكان العُجْمان ، والعتبان ، والمُطير ، وبنو خالد ، والعشائر البدوية الأخرى ، إلى أواخر القرن الماضي ، ينشرون الخوف والفزع والدمار في هذه المناطق ، مثل العنزه ، الذين كانوا ينشرون الخوف والفزع أيضًا في سوريا وفي الصحراء الشمالية ، مما أدى إلى جعل السفر والتنقل في كل أنحاء نجد ، عملية محفوفة بالمخاطر ، شأنها في ذلك شأن السفر حاليًا بين حمص وتدمر أو الساكنة ، ولكن في ظل الحكم الوهابي، لم يعد عابر السبيل أو المسافر الذي ينتقل خلال القصيم، وسدير ، والوشم ، وفي كل أنحاء المناطق الثمانية التابعة للإمبراطورية الوسطى ، لم يعد هذا المسافر يصادف سوى قلة قليلة من البدو ، بل إنه حتى لم يعد يخشى هذه القلة أو يخاف منها ؛ وأصبح التجار ، والقرويون ، وأهل الحضر وكذلك الغرباء في مأمن من السلب والنهب الذي كانوا يتعرضون له على الطريق ، ومن جانبي الطريق ، كما أدى كسر شوكة هؤلاء القراصنة وإخضاعهم إلى تخليص استمرار التجارة والزراعة من شرورهم . يضاف إلى ذلك ، إن أحداً من الرؤساء المحليين ، لم يكن يجرؤ

(١) إن هذه التعبيرات فيها تحامل من المؤلف على نظام الزكاة في الإسلام وهو نظام عادل ويخرجه المسلم عن طيب خاطر لأنه يحتسب ذلك عند الله ويؤمن بالعوض والبركة في ماله حين يزكيه ، ونظام الزكاة في الإسلام خير وأعدل ألف مرة من النظم الوضعية في فرض الضرائب المعروفة . (د. حلمي عبد المنعم) .

على التعدى على حقوق أى أحد من المواطنين ، اللهم إلا إذا كان ذلك الرئيس المحلى من الرؤساء النجديين ، ولم تعد أية قرية تجرؤ على سلب أو نهب بساتين أية هجرة من الهجر المجاورة لها أو تقطع أشجارها المثمرة ، وأصبحت الحكومة هى المسئول الوحيد عن القهر ، العام والخاص ، ولا أحد غيرها ؛ إنه حق احتكارى مقدس ، لا يمكن لأحد أن يتعدى على حصانته ، وترتيبًا على ذلك ، فإن سكان الرياض عندما هنأوا ، فى حضورى ، النائب الإيرانى ، محمد على ، على سلامة الوصول إليهم فى العاصمة ، وقارنوا له أخطار السفر الماضية فى نجد ، بالأمن والسلامة التى يشهدها العصر الحاضر ، استدار الشيرازى العجوز ناحيتى وغمز لى غمزه تنم عن الفهم ، وقال لى ، ولكن باللغة الهندوستانية وبصوت منخفض : "فى الماضى كان هناك خمسون لصًا فى هذه المنطقة ، ولكن الآن لا يوجد سوى لص واحد ؛ ولكن ذلك الواحد يساوى الخمسين مجتمعين؛" وقد أعادت هذه الملاحظة إلى ذهنى المقولة التى وردت عند أحد الحوليين[1]. الرومان وتقول "إنهم يَصْنَعُونَ الوحدة للمدينة ويدعونها سلامًا **Ubi solitudinem faciunt, pacem apellant** .

وأنا عندما أقارن الحكم الوهابى بالحكم التركى (وأعتقد بالحكم الفارسى أيضًا ، وذلك بغض النظر عن تباهى محمد على الشيرازى) ، أجد أن المقارنة ، بلا أدنى شك ، فى صالح الحكم الوهابى ، من منظور أن هذه الحكومة إذا كانت قاسية على رعاياها ومحطمة لهم ، فإنها لا تسمح لأحد غيرها بأن يفعل ذلك ، وهذا أفضل من الحكومة التى تعطى الفرصة ، وهى تُضَيِّع شعبها وتتخلى عنه ، لكل من تسول له نفسه ، الاشتراك فى هذه التضييع وذلك التخلى ، بل أنها تدعوه إلى ذلك وتحرضه عليه . ويجب ألا يغيب عنا ، أن الإخلاص يتطلب الاحترام أيضًا ، وإذا كان التشدد سيئًا عندما يكون سائدًا ، فإنه يكون أسوأ عندما يصبح أداة أو وسيلة ؛ والتشدد هو السائد عند الوهابيين ، وهو وسيلة وأداة عند الأتراك ، ونحن عندما نقارن العثمانى بالنجدى أو نقابل بينهما ، نجد أن النجدى لا يحتاج إلى أى شئ من التمويه ، بمعنى أن النجدى أعدل بكثير من العثمانى. ومن ثم نستطيع الوصول إلى كثير من الاستنتاجات؛ ولكنى أترك ذلك لذكاء القارئ وفطنته .

(١) الحولى : مؤرخ يسجل الأحداث عامًا فعامًا . (المترجم) .

كنا فى إحدى المرات نقوم برحلة إلى ضواحى مدينة بريده ، ويممنا المسير شطر عنيزه ، ولكننا اكتشفنا أن الاقتراب حتى من أسوارها أمر مستحيل تمامًا ؛ ولذلك اكتفينا بإلقاء نظرة خارجية ومن بعد على هذه المدينة الكبيرة كثيفة السكان ؛ وإلقاء نظرة أيضًا على عدد منازلها ، وأحجامها ، مستفيدين فى ذلك من القمم العالية التى كانت تميز المسكن الذى يعيش فيه الزامل وأسرته ، واكتشفنا أن هذه المنازل تتفوق بكثير على كل منازل بريده فالتحصينات والاستحكامات الخارجية سميكة بشكل فظيع ، وحزام النخيل الذى يقع فيما بين هذه التحصينات والمدينة نفسها ، يهئ المزيد من الدفاع الإضافى عن المدينة ، وبالرغم من كل ما أراه ، فإن هذه الإنشاءات ليس بها سوى القليل من الأعمال الحجرية ، فهى تكاد تكون كلها من اللَّبِن ؛ ومع ذلك ، فهى استحكامات قوية قياسًا على استحكامات الجزيرة العربية ، وقد خربت الحرب المناطق الريفية التى تحيط بعنيزه وكل مناطق الشمال الشرقى فى اتجاه بريده ؛ وقد أنَّبنَا أصدقاؤنا على تهورنا ومخاطرتنا بالذهاب إلى هذا الحد ؛ وأنه لمن قبيل المصادفة البحتة ألا نقابل أحدًا من المتبارزين أو السلاب والنهابين ؛ ولو حدث ذلك ، فإن نظام القصيم العسكرى لا يحمى أو يضمن سلامة الطرف الثالث المجرد من السلاح .

مضى علينا فى هذا الحال أسبوعان كاملان ، ودخل علينا الأسبوع الثالث ، ولكن أبو عيسى لم يكن جاهزًا بعد لنبدأ رحلتنا إلى الرياض ، ولم تكن الأسباب التى ساقها أبو عيسى ، تبريرًا لذلك التأخير ، خافية علينا أيضًا ، وأخيرًا أميط اللثام عن السبب الرئيسى لهذا التأخير، وكان لابد من قبول ذلك السبب بدون نقاش أو التماس الأعذار .

كان محمد على الشيرازى الممثل الإيرانى فى مشهد على ، والذى عهد إليه برئاسة بعثه الحج الوطنية ، قد كتب "بالعربية والفارسية" كتابًا إلى الرياض ، يبلغ المسئولين فيها بهروب أبو بطين ، وتصرفات مهنا ، حاكم القصيم ، ويقترح على المسئولين فى الرياض ، أن يحضر هو شخصيًا فى زيارة للعاصمة ، يقدم فيها شكوى شفهية بالأضرار الكثيرة والخطيرة التى يصعب التعبير عنها باستعمال الأقلام والأوراق ، كان بوسع الأمير فيصل أن يتخلص من هذه الزيارة أو يلغيها ، ولكنه كان يخشى أن ينتهز الإيرانى هذه الفرصة ويتسبب فى قطع العلاقات بين البلدين ، مما يترتب عليه حرمان نجد من متحصلاتها السنوية التى تجنيها من وراء عبور الحجاج الإيرانيين . وبناء على ذلك ، أرسل الأمير فيصل إلى مهنا كتابًا يطلب فيه توفير مرافق

لـ ـ محمد على الشيرازى ، أثناء قيامه برحلته إلى الرياض ، وأن يتخذ الترتيبات اللازمة لعودة الإيرانيين الآخرين إلى ديارهم سالمين .

وطوال فترة تبادل الرسائل مع الرياض ، كان حاكم بريده قد ابتز الضيوف الشيعة وجمع منهم طبقًا لأضعف التقديرات حوالى ١٦٠٠ جنيه إسترلينى ، بل أنه ربما كان يتطلع إلى المزيد من الإعانات ، وبذلك لم يكن ميالًا إلى احتجازهم أو تعطيلهم أكثر من ذلك ؛ فى حين أن مسألة تزويد هؤلاء الحجاج بمرشد ، كانت لا تزال بمثابة تكئه للحصول على مزيد من المكاسب الإضافية ، على شكل أجر نظير توفير مثل هذه الخدمة ، ولكن مهنا ، لم يكن ميالًا تمامًا لإرضاء النائب (لأن هذا هو اللقب الرسمى الذى سوف نطلقه عليه – من باب الاختصار – من الآن فصاعداً) عن طريق توفير مرافق له ودواب لحمله ، لأن هذه الأشياء لا يمكن لـ ـ مهنا تقديمها إلا بالمجان . ولذلك لزم مهنا الصمت إزاء هذا الأمر من بين الأوامر الأخرى ، وقرر بينه وبين نفسه ، أن يجبر المسئول الإيرانى الكبير على تدبير انتقاله بنفسه .

كان النائب يعانى من نفس الورطة، التى كنا نعانى نحن منها على وجه التقريب ، إذ كان يبحث عن رفاق ولكنه لم يجد أحداً ؛ والسبب فى ذلك أن ضمانات الدعوة الملكية لم تكن كافية لإزالة الشكوك التى تدور من حول نوعية الاستقبال الذى ينتظره فى الرياض ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أهل القصيم ، من الرجال ، لم يكونوا يتطلعون إلى زيارة العاصمة الوهابية ، وأخيراً لجأ النائب إلى أبى عيسى يستشيره فى ذلك ويطلب أن يعينه على ذلك ، وبخاصة أن النائب كانت بينه وبين أبى عيسى علاقة ودية تمامًا طوال الرحلة السابقة ، كان أبو عيسى على استعداد أن يتولى مسئولية رفيق السفر مع النائب ، ولكنه لم تكن لدية الدواب الكافية لمثل هذه المناسبة ، كان لدى النائب جمله الخاص ، ولكنه كان بصحبته خادمان هما : على وحسن ، وكلاهما من مشهد على ، إضافة إلى الحاج حسين ، وهو واحد من كلاَّفى البغال من المنطقة المجاورة لبغداد . كل هؤلاء كانوا راجلين ويحتاجون إلى إبل أو جمال ؛ ولم يكن لدى أبى عيسى سوى أربع من الجمال ، خصص منها أثنين لى أنا وبركات ، زد على ذلك ، أنه تردد فى أن يترك هذه الفرصة تفلت من يده ، لأنه كان يريد أن يزيد من عدد قافلته ، ومن هنا بدأ أبو عيسى يبتكر الوسيلة التى تمكنه من العثور على دواب إضافية ؛ ولكن موارده لم تكن تسمح بذلك ، ولذلك اضطر إلى الاقتراض ، ودامت هذه العملية عدة أيام .

وفى الوقت نفسه ، وهذا شئ طبيعى ، قدم النائب نفسه لنا ، كان النائب إيرانياً خالصاً ، ولا يقل عمره عن ستين عاماً ، بل يزيد عن ذلك ، ولكنه كان فى منتهى الحيوية ، ولو لم يكن مدمناً تعاطى الأفيون ، لكان عقله فى منتهى الحيوية أيضاً ؛ كانت لحيته وشاربه مصبوغين بالحناء واللون الأسود ، مما كان يجعله يبدو ، من مسافة قريبة، وكأن عمره لا يتجاوز الأربعين عاماً ، كان يتكلم العربية على نحو سيئ ، ويتكلم التركية أفضل من العربية، ويجيد التحدث باللغة الهندوستانية والسبب فى ذلك ، انه كان منتدباً للحكومة الوراثية فى حيدر أباد عدة سنوات ؛ وكان من النوع المرح جداً ، محباً للنكته اللفظية أو العملية ، لمّاح بحكم تعامله مع الأمور المختلفة منذ زمن طويل ، برغم انه ، شأنه شأن بقية معارفى من الإيرانيين ، يسهل خداعه ؛ وهو كثير الكلام ومرح ، ولكنه تنتابه من حين لآخر نوبات الانتقال الشديد والعنيف ؛ وهو شيعى متعصب ومن المتيمين بـ على والمهدى ، اللذين شاهدته يخر على الأرض راكعاً عندما يرد ذكر اسميهما ؛ وخلاصة القول : إن هذا النائب كان "شخصية" خاصة ، وأن ظروف الرحلة هى التى سلطت عليه الأضواء كما سلطت عليه الآراء أيضاً ، ولم يكن اتباعه وخدمة يتميزون عنه فى شئ سوى مظهرهم المهلهل ، وتشددهم الشيعى المقلق ، وخطبهم غير المحسوبة ضد كل من العرب والوهابيين ، وكل هذه الخطب باللهجة العامية الوقحة التى يتحدثها أهل بغداد ومشهد على ، تلك اللهجة التى تتناقض تناقضاً شديداً مع اللغة السليمة والدقيقة التى يتكلمها من يحيطون بهم ويتعاملون معهم ، وهنا نكون ، قد أصبحنا على معرفة تامة بهؤلاء البشر ، رفاق سفرنا ، الذين قدر لهم ، أن يكونوا بصحبتنا أثناء رحلتنا إلى الرياض ، والذين كانوا يقطنون فى المنزل المجاور لنا عندما وصلنا إليها؛ وكانت زياراتهم لنا تساعدنا على تمضية الوقت ، الذى كان يمكن ، بغير ذلك ، أن يكون مملاً بسبب الإحباط .

وينتهى شهر سبتمبر ، ثم يختار مهنا مرشداً ، يقوم بإرشاد تاج – جيهان ومرافقيها فى بعثة الحج إلى ضفاف نهر الفرات ، ويدفع الإيرانيون ثمن خلاصهم ، ويغادرون بريده ، فى اتجاه الشمال الغربى ، فى مسيرة تستمر حوالى خمسة وعشرين يوماً ، وليس معهم من المؤن سوى القليل جداً ، ومع ذلك ، فقد سعدت جداً ، أثناء مقامى فى بغداد فى فصل الربيع ، عندما علمت أنهم وصلوها سالمين .

وأخيراً استطاع أبو عيسى ، برغم التأخير الذى نجم عن الاقتراض ، أن يعثر على الجمال المطلوبة ، وهنا أعددنا أنفسنا استعداداً للطريق ، ولكن وقع ، قبل أن نبدأ الرحلة ، حادث مؤسف ، كشف لنا عن نقطة الضعف في مرشدنا الواثق بنفسه أكثر من اللازم ، ففى إحدى الليالى التى كان أبو عيسى هو وأصدقاؤه الإيرانيون ، يتناولون فيها العشاء معنا ، فى منزلنا ، قام هبّاش ، ذلك الخادم المولّد ، الذى ضمه أبو عيسى إليه ، من باب العطف وليس من باب أى شئ آخر ، عندما كان يغادر المدينة المنورة ، انتهز هذا الهباش ، غياب سيده عن المعسكر وهرب منه ، وأخذ معه أفضل مشلح من مشالح أبى عيسى ، وبعضاً من المال ، وأخيراً وليس بآخر ، سرق هاون القهوة الكبير المصنوع من النحاس الأصفر ، كان ذلك الهاون من الأنواع الممتازة ، ومن معدن ممتاز أيضاً ، وكان ينبعث عنه ، أثناء استعماله ، رنين يشبه رنين الجرس ، ولذلك كان صاحبه متيم به تماماً ، وبالتالى لم يكن يتركه خالياً فى معظم الأحيان . يضاف إلى ذلك ، أن مسألة العثور على هاون مماثل ، فى بريده ، لم يكن أمراً ممكناً ؛ ومما زاد الأمر سوءاً أن السرقة حدثت ونحن على وشك أن نبدأ رحلة مسير طولها عشرة أيام ، نكون خلالها بحاجة إلى ملطف طيب النكهة أكثر من ذى قبل ؛ يضاف إلى ذلك ، أن النائب لم يكن ، من بين أمتعته شيئ ، من هذا القبيل ، وذلك لكونه ، مثل سائر أمته ، شارباً للشاى وليس شارباً للقهوة . كان فقدان ذلك الهاون "أقسى أنواع الجراح" ، وأقسم أبو عيسى أنه لابد أن يستعيد هذا الهاون ويسترده مهما كان الثمن وتأسيساً على ذلك ، أطلق اثنان أو ثلاثة من أصدقائه يبحثون عن هباش الهارب ، وعن غنيمته ، بل أنه ، بنفسه ، هو الذى بدأ المطاردة بعد ذلك ، ولكن بعد يومين من البحث وصلت أنباء تقول : إن اللص شوهد على طريق المدينة المنورة ، فى اتجاه الحناكية ، وبالتالى ليس هناك أمل فى الإمساك به أو فى استعادة الهاون ، ومن حسن الحظ أننى كان فى أمتعتى إناء نحاسى صغير ، كنت استعمله فى "طحن السموم" ، التى كنت استعملها فى علاج المرضى ؛ وغسلنا هذا الإناء غسلاً جيداً ، وبدأنا نستعمله فى الاستعمالات الاجتماعية طوال الرحلة إلى العاصمة ، التى عثر فيها أبو عيسى على بديل ، إن لم يكن مماثل لذلك الهاون الذى ضاع منه .

وعندما أصبح كل شئ جاهزاً للرحيل الذى طال انتظاره ، والذى تحدد له اليوم الثالث من شهر أكتوبر ، الذى كان يوافق يوم الجمعة ، بعد دخول الليل ، ومنذ لقائنا الأول مع مهنا ، لم يظهر بركات ولا أنا أمامه مرة ثانية ، إلا عن طريق المصادفة ،

وكان يتم خلالها تبادل التحية من بعد ، في الشوارع أو السوق ؛ وقد رأينا أن من الحكمة إلا نزوره لوداعه . والواقع أننا بعد أن عرفنا ماهية هذا الرجل ، وعمله الحقيقي ، كنا نبذل قصارى جهدنا ، حتى لا نجذب أنظاره إلينا ، وبذلك استطعنا أن نتحاشى المزيد من المتاعب وفرض رسوم إضافية علينا ، فضلاً عن أن أحداً لم يأت على ذكرنا أمامه . ومع طلوع النجوم ، ودّعنا أحمد ، صاحب منزلنا ، وتركنا بريده ومعنا أبو عيسى مرشداً لنا .

الفصل الثامن

من بريده إلى الرياض

« الجزء من هذا العالم الذي ، حالياً ،
احتله لأملأ به الموعظة الحالية ،
هو جزء لا يوجد له وصف حتى الآن
أمام أسباب ذلك فمن السهل تحديدها »

بايرون

طريقان من بريده إلى الرياض – سلكنا الطريق الأطول – الجمال والذلول ، السفر أثناء الليل – رويضه – كرم الريف – الأراضي العليا – الطريق عبر النفود – الوُسَيِّط – سكان الوُسَيِّط – وادى زلفه – الليل فى زلفه – الغزال – فتاة الصليبه والنائب – جبل طويق ، مداه ، خصائصه ، اتجاه مجاريه المائية ، مناخه – قرية الغاط – الإيتمولوجيا العربية – كرم سدير ، المحادثة ، النغمة العامة للمجتمع – العقبة – هضبة طويق – عاصفة – المجمعة – تاريخ أسرة السديرى – عبد المحسن وقلعته – التبغ (الدخان) – الطريق على الهضبة – مجرى مائى عذب – جلاجل والروضة – بنو المطير وبنو قحطان – التقويم – المدينة ، طبيعتها وسكانها – الحشرات والزواحف فى وسط الجزيرة العربية – حارب – ثمير – مغامرة داخل القرية – الفتى الصليبى – بستان – طريق ثنيات عطا الله– صادق– الريف المعشوشب – الأرانب البرية الحوله – المزايا المحلية للحكم الوهابى – حريملاء – قلعة حريملاء – إبراهيم باشا – تاريخ محمد بن عبد الوهاب– منظومته– مدى اتفاق هذه المنظومة مع عقيدة محمد والقرآن – حياة محمد بن عبد الوهاب فى دمشق والعيينة – مواعظه الأولى – تدخل ابن مقلق –

هروب محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية – ابن سعود ومحمد بن عبد الوهاب – الحروب الأولى ، والنجاح– سقوط العيينة– وآل معمر – غزو اليمامة – هزيمته عرار – تاريخ محمد بن عبد الوهاب الشخصي – أسرته – من حريملاء إلى سدوس – حدود العارض – الأراضي العليا – وادى حنيفة – أطلال العيينة – الروضة – تاريخ مسيلمة وسجاح – معركة الروضة . وفاة مسيلمه – الاستيلاء على الرياض – تصرفات سجاح – تابع وادى حنيفة – ملقى – أطلال الدرعية – بستان عبد الرحمن – الطريق إلى الرياض .

تجمعت قافلتنا بجوار سور البوابة الشرقية، إلى الشمال قليلاً من أبراج المراقبة ، وعلى مسافة ليست بعيدة عن خيام الأمير محمد ولد الأمير فيصل، ثم يصل ، بعد ذلك، النائب ويصحبته رفاقه الثلاثة ؛ وانضممنا نحن الثلاثة : بركات وأبو عيسى ، وأنا إلى القافلة ؛ أما حسن البصرى ، ذلك التاجر الشاب المرح ، فقد جاء من المدينة التى يحمل اسمها ، المكيان اللذان ، سئما حظهما السيئ فى بريده ، وقررا أن يجربا كرم الأمير فيصل غير الأكيد ، كل هؤلاء أوصلوا عدد أفراد القافلة إلى عشرة أفراد يضاف إلى ذلك ، أنه تحسبا لاحتمال أن نلاقى ، بطريق المصادفة ، عصابات عنيزه ، فقد زود مهنا ، بعد كثير من التردد النائب بحرس خاص مكون من ثلاثة أفراد من حملة بنادق الفتيل ، ليرافقوه إلى خارج حدود القصيم .

كان أمامنا طريقان ، الطريق القصير ، وبالتالى أكثرهما استعمالاً ، ويتجه ناحية الجنوب الشرقى ثم ناحية الشرق عبر الوشم وعاصمتها شقراء ، ثم من شقراء إلى وادى حنيفة ثم إلى الرياض ، غير أن هذا الطريق ، يمر بمنطقة ، تتردد عليها ، فى الوقت الحالى ، قوات عنيزه وحلفائها ، فى معظم الأحيان ، كان أصدقاؤنا ، الذين لم يكونوا على قدر كبير من الشجاعة ، يخشون السير فيه ، والطريق الطويل ، بعيد عن مسرح العمليات العسكرية ، ويتجه ناحية الشمال الشرقى صوب زلفه ، ومنها إلى منطقة سدير ، الذى يعبرها فى الاتجاه الجنوبى الشرقى أو فى اتجاه الجنوب ، ثم بعد ذلك إلى العارض ، وقرر مجلس حربنا ، اتباع المسار الثانى من هذا الطريق ، ونحن ، من جانبنا ، لم نندم على السير فى ذلك الطريق الطويل ، الذى اتاح لنا فرصة مشاهدة الكثير من الأماكن التى لا يمكن أن نشاهدها بغير هذه المنطقة ، وركبت أنا وبركات أثنين من أجود إبل أبو عيسى ؛ وكان النائب يركب ناقة جميلة رمادية اللون ، عليها سرج أنيق من اللونين القرمزى والذهبى . فى حين كان المكيان يتقاسمان فيما بينهما دابة سوداء طويلة الظهر ؛ أما بقية القافلة فكانت تركب جمالاً أيضاً ، نظراً لأن الطريق الذى نسير فيه لا يصلح لسير الخيول ، بأى حال من الأحوال ، خلال هذا الفصل من السنة .

وهنا يجب أن أصحح بصفة نهائية المقولة التى تسرى مسرى الحقيقة هنا ، عن الجمل Camel وعن الجمل ذى السنامين Dromedary ، (وأنا بدورى نسيت أيهما له سنامان) ، فالجمل والجمل ذى السنامين ، فى الجزيرة العربية لهما اسم واحد ومن جنس واحد ، باستثناء أن الجمل ذى السنامين من سلالة أرقى ، وأن الجمل من سلالة أدنى ، وهذا هو نفس الفارق الموجود بين حصان السباق والحصان المعتاد ؛ وهذا حصان وذاك حصان أيضًا ، ولكن الأول من سلالة أما الثانى فليس من سلالة ، والجمل ذى السنامين هو حصان السباق فى نوعه ، وهو نحيف ، رشيق (أو كذلك نسبيًا) ، ووبره ناعم ، صغير الخفين ، سيره سهل ، ويتحمل العطش اكثر من الجمل غزير الوبر ، المتين ، ضخم الأقدام ، صعب المراس ، والنُّخَّاع ، ولكن كلاهما له سنام واحد ، يوجد خلف الكتف مباشرة ، ويستعمل فى تثبيت سرج الجمل أو الحمل الموضوع فوقه ، ووجه الشبه هذا ، هو الذى يجعل الناس يخلطون هذا بذاك عندما يطلقون اسم "بعير" أو "بعارير" أو "نوق" ، برغم أن الجمل ذا السنامين له اسمه الخاص به وهو "الهجين" أو "الذلول" ، وفيما يتعلق بالجمل ذى السنامين ، هو موجود بالفعل فى الجزيرة العربية ، ولكنه لا يدخل ضمن الجمال العادية أو الذلول ؛ وهو ينتمى إلى سلالة فارسية ، يطلق العرب عليها اسم "النجترانى" ، وربما يوجد نوع منه فى حدائق الحيوان ، ولذلك ، على من يريد المزيد عن هذا الحيوان ، أن يذهب إلى حدائق الحيوان ويلقى عليه نظرة هناك ، شريطه ألا يطلق اسم "الذلول" أو "الهجين" Dromedary ، على هذا الجمل الفارسى خشن الوبر، كئيب المنظر ، ومن يريد أن يرى "الهجين" أو "الذلول" الحقيقية عليه أن يحضر إلى الجزيرة العربية ، نظرًا لأن هذه الدواب لا يمكن أن تتوفر فى أى مكان آخر ، بما فى ذلك سوريا ؛ وأن كل من يود أن يدرس هذه السلالة من الإبل ، بكل جمالها ، عليه أن يطيل رحلته لتشمل عُمان ، التى تقع فى أقصى أطراف شبه الجزيرة العربية ، والتى تشتهر بالذلول مثلما تشتهر نجد بالخيول ، وكشمير بالأغنام ، والتبت ، كما أظن ، بكلاب البُلْدَغ[1] .

ويرخى الليل سدوله ، ولكن القمر الآن فى تربيعه الثانى ، يسطع نوره علينا ، بسبع أو ثمانى ساعات من نوره . وهذا سُهيل[2] Canopus يتلألأ بكل عظمته ناحية

(١) البُلْدُغ : كلب قوى جرئ ضخم الرأس قصير الشعر ، (المترجم) .

(٢) سهيل : نجم من النجوم ، (المترجم) .

الجنوب ، كما أن أوريون Orion سوف يطلع بعد قليل ، ومضينا فى طريقنا ، بخطى سريعة ، وعدونا على التلال الرملية التى تحيط بمدينة بريده ، إلى الأعلى حينًا ، وإلى الأسفل أحيانًا ، ومضينا على هذا الحال، فى ضوء القمر، بين الشجيرات والحشائش ، عبر التلال والسهول ، وكنا نشاهد أمامنا ، فى بعض الأحيان ، كتلة من أوراق النباتات داكنة الألوان ، الأمر الذى كان يشير إلى وجود قرية من القرى ، ولكننا لم نتوقف فى واحدة منها ، وسرعان ما برد نسيم الليل وتحول إلى بَرّاد ؛ وفى البداية لم تكن صحبتنا سعيدة جداً ، فقد افترق النائب عن مهنا وهو غاضب ، وهذا هو حال الإيرانيين الذين يتعاطون الأفيون عن طريق الفم ؛ وكان رفاقه غضبانين أيضاً مشاركة منهم لسيدهم ؛ والمكيان لم يحددا بعد من الذى يركب ومن الذى يمشى ، وراحا يذكرانى بتناوبهما هذا بالفلاح وولده عندما كان ذاهبين بحمارهما إلى السوق ، باستثناء أنهما لم يكونا هادئى الطبع ؛ وكان أبو عيسى يبذل قصارى جهده ، ليبعث الحيوية والنشاط فى أفراد القافلة ، برغم أنه هو نفسه ، كان لم يفق بعد ، من المضايقات التى ترتبت على اختفاء خادمة ومعه هاون القهوة ، وابتعد ، النجديون عن الجماعة ، وراحوا ينظرون إلينا ، كما لو كنا مجموعة من الفاسدين الأشرار الخارجين من زمرة الأبرار ، الذين من المستحسن سلبهم ونهبهم بدلًا من مرافقتهم ، أخيراً ، كان بركات وأنا أيضاً لدينا ما يكدر صفونا ، وبخاصة عندما نفكر فيما ينتظرنا فى الرياض ، فقد كرهنا تلك الحكايات المخيفة التى حكاها لنا الناس فى القصيم عن العاصمة الوهابية ، وعن حكامها وشعبها . قلنا إننا لم نكن راضين تمامًا عن المكيين المغتابين اللذين ضمن قافلتنا .

وسواء أكنا سعداء أم تعساء ، فقد بدأنا رحلتنا بالفعل ، ومضينا فيها بسرعة وفى صمت ، وأخيراً بدأ القمر مغيبة ، واحمراره ، ثم اختفى تمامًا بعد ذلك ، وهنا بدأنا نتطلع إلى الراحة وإلى النوم الذى كنا جميعاً ، بحاجة إليه . وعلى كل حال ، راح أبو عيسى ، الذى كان يفضل أن نرتاح وننام بالقرب من المنازل ، على أن نفعل ذلك فى الصحراء ، يعترض على مجادلاتنا ومسلماتنا ، وحثنا ، برغم إرهاقنا ، على مواصلة المسير ، إلى ما قبل طلوع الفجر بساعة واحدة ، أى فى الساعة التى تشتد فيها حلكة الظلام ، لنجد أنفسنا فجأة على حافة مجارى قنوات مائية عميقة ، وأعواد الذرة ، التى كانت تظهر من خلفها أسوار عالية ، كانت تلك ، هى رويضة ، تلك القرية الصغيرة ، جيدة الرى ، وكانت البساتين التى أمامنا هى بساتين مهنا الخاصة ، التى

زرعها ونسقها أثناء تولية منصب الرئاسة في المنطقة ، وتوقفنا عند هذه القرية ، لننعم بما سيجود به سكانها علينا .

هذا يسير في اتجاه ، وذاك في اتجاه آخر ، لأننا بين النعاس والظلام كنا نتصرف مثل المحمومين ، وبعد كثير من الصياح ، والخوض في المياه ، خرجنا من تلك المتاهة المائية ، لنصل إلى بوابة هذه القرية المرتفعة . ودخلنا من هذه البوابة ، لنكتشف شيئًا يشبه القلعة ، على أحد الجانبين ، وفضاء واسعًا على الجانب الآخر ، وفي ذلك الفضاء الواسع ألقينا بأنفسنا على الأرض وبلا كلمة واحدة ، لنروح في نوم عميق ، على أمل أن يقوم أبو عيسى بحراسة أمتعتنا ، لأننا لن نفعل ذلك بكل تأكيد .

ساعتان من نوم الصباح ، بعد سفر استمر ليلة كاملة ، تساويان ست ساعات من النوم في أي وقت آخر ، فقد أيقظتنا الشمس بعد أن أشرقت ، وبدأنا نحك أعيننا ونحدد مكاننا . فقد كنا ننام إلى جانب خزان صغير ؛ الذي كان ، يوجد بالقرب منه بيوت منخفضة، وأسوار حوش من الأحواش؛ وعلى الجانب الآخر ، كانت توجد القلعة ، التي اتضح أنها مقر الرئيس ، أو بمعنى أصح منزل كبير الفلاحين ، ولكن المنزل واسع وفسيح ويصلح لأن يقيم فيه بارون من بارونات عصور الإقطاع . وغسلنا أيدينا ، ووجوهنا ، وأرجلنا ، (نظراً لأن قائمة ثيابنا وملبوساتنا ، وهذا شيئ مسلم به ، لم تشتمل ، من ضمن محتوياتها ، على ذلك الذي يسميه الأوربيون الجوارب) واتجهنا مباشرة إلى قهوة صاحب هذا المنزل الأميري ، يقينًا منا أننا سوف نجد قهوة الصباح وهي في مرحلة الإعداد ، وجلس النائب بالقرب من المكان الذي يجلس فيه صاحب المنزل ، بينما جلسنا ، نحن جميعًا ، الذين طغت علينا عظمة السفير الإيراني الذي كان في طريقه للقاء الأمير فيصل ، جلسنا في أماكن منخفضة ، وحضر كثير من القرويين ليحملقوا في الأغراب ، ويشاركوا هم أيضًا في تناول القهوة . وانتهى الاجتماع إلى توجيه الدعوة للجميع لتناول الإفطار في البستان المملوك لـ – مهنا ، نظراً لأن كبير الفلاحين هنا كان مساعداً تنفيذيًا ريفيًا لـ – حاكم بريده .

كان بستانًا جميلاً جداً تنمو فيه أشجار التين ، وأشجار البرتقال ، والرمان ، والخوخ ، ومجارية المائية مبطنة بالحجر ، وكذلك خزاناته ، أما ممراته فيما بين الأشجار والشجيرات فقد كانت منظمة بذوق رفيع وتماثل جميل يختلف عما يعرفه العرب في فلاحة البساتين ، وكانت البسط قد فرشت في ظلال بعض النخيل ، وبينما

كان الجميع مشغولين بإعداد الوجبة الأكثر جفافًا ، كانت أمامنا كومة من البطيخ من مختلف الأشكال والأحجام بمثابة فاتح للشهيه ، وأحضر النائب دورًا من الشاى بكل مستلزماته ، لا يختلف كثيراً عن الشاى الذى يقدم فى غرف الاستقبال الإنجليزية ، هذا بالإضافة إلى غليون أو نرجيلة فارسية جميلة مطلية بالفضة وعليها نقوش جميلة . وكان صاحب هذه النرجيلة قد استعاد طبعه الهادئ ، هو وخدامه ، ولم يكن اعتلال مزاج هؤلاء الخدام مرتبطًا باعتلال مزاج سيدهم ، لأنهم كانوا فى أغلب الأحيان عابسين ، وفى حالة نفسية سيئة لدوافع تتعلق بهم شخصيًا ، ومع ذلك فقد كانوا مصدرًا للقلق والبذاءة ، فى بعض الأحيان ، ولذلك كانت تنشب بينهم وبين النائب ، فى بعض الأحيان ، مشاحنات كثيرة ، وكانت مشاهد هذه المشاحنات تشد المشاهدين إليها ، وتخفف عنا ملل الطريق ، ولكن ، يبدو أن الإفطار الجميل المنتظر ، قد أثر على عقولهم تأثيراً عجيبًا ، وكانوا مقبولين من الجميع إلى أبعد حد ممكن ، ولم يكن ذلك بالشئ الغريب على أبى عيسى ، الذى كان قد تعود على مثل هذه الشخصيات ، وتباين ظروف السفر من قافلة لأخرى ، إلى الحد الذى لا يجعلها تؤثر فيه أو تقلقه أو حتى تصيبه بالاكتئاب ، ولذلك ظل أبو عيسى محتفظًا بطبعه الحلو ، الذى كان ينعكس على وجهه ، وعلى تصرفاته ، برغم انه فيما بينه وبين نفسه ، كان يطلق لنفسه العنان فى أن تتهكم من هذه التنشئة الإيرانية السيئة .

ولكن أبا عيسى ، كان عليه أن يواصل القيام بمؤامرة ، استحوذت على كثير من محادثاته الجانبية مع النائب ، وبددت كل احتمالات الفشل ، نحن نعرف أن أبا بطين ، دليل الحجاج ، المعين من قبل الأمير فيصل ، لم يكن على وفاق مع أبى عيسى ، بل إنه تسبب فى أذاه فعلاً ، وقد أدى هروب أبو بطين إلى عنيزه ، إلى ترك مكانه شاغراً ، كانت هذه الوظيفة براقة وتناسب ، قدرات صديقنا ، كما تتفق أيضًا مع وفاقه الطويل مع الشيعة . يضاف إلى ذلك ، أن الشيعة كانوا قد خبروا سماحته وأمانته ، وكانت له عندهم منزلة طيبة . وكان النائب ، من ناحيته ، يتطلع إلى تسوية المشاكل الماضية مع الرياض ، ويحصل منها أيضًا ، على ضمان بأمور طيبة فى المستقبل ، ومع ذلك ، فقد كان غريبًا تمامًا فى البلاط الوهابى ، وأبرم النائب اتفاقًا بينه وبين أبى عيسى ؛ يقضى بأن يقوم أبو عيسى بدور التقديم ، وتسهيل مهمة وصول النائب إلى الأمير فيصل (إذ أن ذلك ليس بالأمر السهل) ؛ وأن يؤمن للنائب مساعدة ومؤازرة الوزراء والشخصيات الأخرى له ؛ فى حين يقوم النائب بالحصول على شرط لابد منه ،

من الأمير فيصل ، ينص على مزيد من التفاهم فيما بعد ، وأن يصبح أبو عيسى ، من الآن فصاعدا ، المرشد الوحيد ، بل والمرشد المفوض ، للحجاج الإيرانيين فى كل أنحاء نجد ، تلك كانت الخطة ، التى استغرقت مناقشتها وقتًا طويلًا ، إلى أن تمت الموافقة عليها فى النهاية ، ثم الاتفاق بعد ذلك على الخطوات اللازمة للتنفيذ ، ومناقشتها مناقشة دقيقة وأقرارها ، وسوف نشاهد النتائج التى ترتبت على هذه الخطة قبل أن نغادر الرياض .

كان وقت الظهيرة ، قد دخل ، قبل أن ننتهى من ذبح ، وسلخ ، وسلق الشاه ، وتقديمها مع الأرز ، والبيض ، والكماليات الأخرى المتوفرة فى ذلك الفصل من العام ، وتناولنا وجبة شهية ، وبعد فترة قصيرة من الراحة، حزمنا أمتعتنا ، وشكرنا مضيفنا ، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الشمال الشرقى .

ما زلنا نسير داخل حدود منطقة القصيم ، التى بدأنا ندخل أراضيها العليا مرة ثانية ، وسرنا خلالها إلى غروب الشمس ، كان المنظر جميلًا من حيث المسافة وتنوع مرتفعاته ومنخفضاته ، خلال تلال واسعة معشوشبه ؛ وكانت هناك مجموعات صغيرة من الأشجار تقف متناثرة من حولنا ؛ ولو كان المنظر يحتوى على نهر تلك الرغبة والأمنية العزيزة فى الجزيرة العربية لتخيل الرائى نفسه فى البلاد الواقعة على ضفاف الراين بطول جزء من مجراه ؛ وقد يخطر ببال القراء أن الخضرة هنا أقل من المقابل الأوربى ؛ ولكن مقارنتى تنصب هنا على المنظر بشكل عام ، ولا يوجد أى نهر بالقرب من القصيم ، سوى الشط (المقصود شط العرب) ، الذى يبعد عن القصيم مائة ميل ؛ يضاف إلى ذلك أن أعيننا ، كانت قد تعودت منذ زمن طويل على وصف بحيرات السراب ، والربط بينها وبين الأفكار التى تتعلق بالجفاف والحرارة .

وواصلنا المسير إلى ان أرخى الليل سدوله ، ووصلنا سلسلة من التلال الرملية التى تختلف طبيعتها عن الأرض الصلبة التى كنا نسير عليها من قبل . وهنا تبدأ صحراء النفود التى يتجه مسارها الجنوبى الغربى إلى الشمال الشرقى ، ثم بعد ذلك ناحية الشمال ، بين كل من القصيم ، والوشم ، وسدير ، وقد سبق أن أوردت شيئًا عن تلك المرات (المجازات) الرملية ، وذلك عندما كنت أصف تلك المرات التى اجتزناها منذ ثلاثة أشهر مضت ، بين الجوف وشومر ، كانت النفود ، فى هذه المنطقة ، ومن حسن حظنا ، أضيق من النفود التى عرفناها من قبل ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كانت

شبيهه بها أو أسوأ منها ، وعلى كل حال ، فإن شهر أكتوبر لا يمكن أن يكون ، في الجزيرة العربية ، مثل شهر يوليو ، يضاف إلى ذلك ، أن مرشدنا هذه المرة ، كان أفضل من دجيديع البدوى مرشدنا في المرة السابقة .

يبدأ هذا المجرى الرملي من اللسان العربى للصحراء الجنوبية ، أو إن شئت فقل الدهناء ، تلك الصحراء التى تمتد إلى ما بعد اليمن ووادى نجران ، ثم تعبر بعد ذلك طرف وادى الدواسر الطويل فوق قلعة بيشه ، ثم تتجه بعد ذلك شمالاً ، تاركة كلا من جبل عسير ، ومنطقة مكة ، والحجاز على يسارها ، ثم نَجْدٍ على يمينها ، وتتشعب من صحراء الدهناء ، بزوايا قائمة مجموعة من الشعاب الجانبية ، التى يعد الشُّعْب الذى نحن فيه الآن ، أطول هذه الشِّعاب ، رغم أنها ليست أوسعها ، ثم تمر هذه الصحراء بحذاء سلسلة جبل طويق الجنوبية الغربية بكاملها ، ثم تحصر بعد ذلك طريق الحُجَّاج النجدى بينها وبين جبل طويق ، لتطوق بعد ذلك جنوب القصيم ، إلى أن تصل إلى طرف منطقة القصيم ، لتدخل الوشم ، وتعبر ركنًا من أركانه ، ثم تتجه بعد ذلك شمالًا ، لتفصل بقية منطقة الوشم عن منطقة سدير ؛ وهذه أشياء من السهل تفسيرها والوقوف عليها من الخريطة ، وتنتهى آخر الكثبان الرملية فى صحراء الدهناء ، مختفية فى السهل الصخرى الكبير الذى يشكل الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وتربطها بكل من منطقة الزبير ، والبصرة ، والشط .

توقفنا قليلًا عند حافة هذا الشريط الصحراوى ، لتناول عشاءً سريعًا ، ونشرب القهوة العربية والشاى الفارسى ، ولكن السير فى هذه الرمال ، أثناء حرارة النهار ، يقتل كلًا من الإنسان والحيوان ، ولذلك اتخذ أبو عيسى قراراً مؤداه أننا يجب أن نعبر الجزء الأكبر من هذه الصحراء أثناء ساعات الليل البارد ، وتنفيذا لهذه الفكرة ، ركبنا دوابنا من جديد ومضينا فى طريقنا قبل أن يختفى هرم الضوء البروجى فى الناحية الغربية .

وأمضينا الليلة كلها ، ويا لها من ليلة مرهقة ، ونحن نخوض موجات الرمال صعوداً أو هبوطًا ، تلك الرمال التى كانت أقدام الجمال تغوص فيها إلى ركبها ، والتى كانت تضطر الراكبين إلى النزول عنها لتخفيف الحمل عنها ومساعدتها على المضى قدمًا ، لم تكن هناك أية إشارات أو علامات ، أو مدقات تهدينا إلى الطريق الصحيح ؛ ولم يكن أمامنا سوى النجوم التى اتخذنا منها بوصلة نهتدى بها إلى معرفة طريقنا ؛

ولكن أبا عيسى كان قد عبر صحراء النفود هذه أكثر من مرة ، وكان يحفظ خط السير عن ظهر قلب، وعندما بزغت خيوط ضوء الفجر الأولى عن يميننا ، كنا قد اقتربنا من قمة جبل من الجبال الرملية، وزادت كثافة الهواء عما كنت أتوقعه في الجزيرة العربية . وتوقفنا وجمعنا بعض عيدان الغاطة والأعشاب الأخرى لنصنع منها كومة أشعلنا فيها النار ، التي جلس البعض حولها يأكلون ، والبعض الآخر يسترخون وينامون ، وكنت أنا واحداً من هؤلاء ، إلى أن بدأت أشعة الشمس تلامس المناطق المرتفعة التي تحيط بنا ، وهنا بدأنا نستأنف مسيرنا مرة أخرى .

وفي ضوء النهار اكتملت أمامنا طبيعة هذا الإقليم ، الذي كنا نعبره ؛ كانت طبيعة هذا الإقليم تشبه شمالي النفود من ناحية جبل شومر ، ولكن التموجات هنا كانت أعلى وأعمق ، إضافة إلى أن الرمال نفسها كانت أخف وأقل ثباتاً ، ففي معظم الأماكن لم تكن الشجيرات أو الحشائش تستطيع تثبيت جذورها في هذه الرمال ، وفي بعض الأماكن الأخرى كانت الحياة النباتية الهزيلة تصارع البقاء وسط هذه الرمال ، ولم يكن للإنسان أثر في هذه الأماكن ، وواصلت الإبل خوضها في تلك الرمال ، وكانت حالة الإيرانيين النفسية متدنية لأنهم لم يتعودوا رؤية هذه المشاهد ، ولذلك لزموا الصمت ؛ كنا جميعًا متعبين ، ولا عجب في ذلك ، أخيراً ، وقبل حلول الظهيرة بوقت قليل ، وعندما أصبحنا لا نطيق حرارة الشمس ، كنا قد وصلنا حافة منخفض هائل يشبه فوهة البركان، ومن المؤكد أن محيط هذا المنخفض كان يتراوح بين ثلاثة وأربعة أميال ، انحسرت حوله موجات الرمل على الأجناب ، وتركت في الوسط حفرة عمقها يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة قدم ، استطعنا أن نميز عند قاعدتها وميض صخرة بيضاء من صخور الحجر الجيري، ومجموعة صغيرة من المنازل، والأشجار والحدائق ، منعزلة على هذا النحو وسط الصحراء .

كانت تلك ، قرية أو واحة الوُسَيِّط ، وقد سميت هذه القرية ، بهذا الاسم نظراً لأنها تتوسط المسافة بين كل من القصيم ، وسدير ، والوشم ولا تتبع أيًا منها ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه القرية لا يزورها الرحالة أو عابري السبيل ، وذلك نقلًا عما قاله لنا السكان ، وهم أناس بسطـاء شبه بدائيين ، نظراً لقلة اتصالهم بالعالم الخارجي ، ولا يعرفون شيئًا عن عموميات الصلاة عند المسلمين، برغم أنهم يسكنون وسط الممتلكات ، أو الأراضي الوهابية، وسألنا أهل هذه القرية عن أخبار عنيزه، وعن الأحداث الجارية ،

على طريقة الفلاح الإنجليزى ، من مقاطعة "لنكون شاير" ، عندما يسأل عن أخبار حرب المكسيك أو حملة الهند – الصينية Cochin - China . أخبرنا أبو عيسى ، أنه من خلال تجواله ، شاهد جزراً نباتية وبشرية من هذا القبيل ، ولكنها أكثر انعزالاً عن الانفعالات الاجتماعية ، وتنسى العالم من حولها ، وينساها العالم أيضاً ، وأخيراً ، هناك أيضاً بعض الواحات لا يسكنها سوى الطيور ، والغزال ، وبخاصة فى بيداء الجنوب .

وعن طريق منحدر طويل وملتو نزلنا إلى قاع ذلك الوادى ، وعقب وصولنا خرج الرجال والأولاد يحملقون فى الإيرانيين ويطيلون النظر إليهم ، وضاعفوا سعر الفاكهة وحليب النياق ، ليثبتوا لنا أنهم ليسوا حمقى كما يظهر عليهم . واعتبرونا ، عرباً ، وأكرمونا – ولابد أن يكون كرماً محدوداً للغاية – بلا مقابل ؛ الأمر الذى أغاظ النائب ، وجعله ينتقد العرب بعنف ، ويقول عنهم إنهم "كفار" لأنهم لم يكرموا حجاجاً مثلهم عائدين "من بيت الله الحرام" ، الواقع أن الكلام فى هذا الموضوع كان محور اهتمامه طوال الطريق ، وكان يظن أن لفظ "حاج" وحده ، بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى ، ينبغى أن يسترعى انتباه الناس إليه فى كل مكان ، وأن يكون "على الرأس والعين" ، على حد قول التعبير العربى ؛ وأن يقدموا له الحليب ، والبيض وما إلى ذلك بلا مقابل وعلى سبيل التكريم ، وأكد لنا أن الحجاج يلقون هذه المعاملة فى إيران ؛ كما أن ذلك ليس من قبيل المستحيل ، فى سبيل تكريم الأماكن المقدسة ومن يزورونها ، وأن ذلك الكرم لابد وأن يزداد زيادة مضطرده كلما بعدت المسافة . لقد أبدى صاحبنا الشيرازى كثيراً من الملاحظات فيما يتعلق بأتباع محمد من الهنود ومن الإيرانيين من ناحية ، والعرب ، وبخاصة النجديين منهم ، من الناحية الأخرى ، وانحازت هذه الملاحظات إلى الهنود والإيرانيين ، يضاف إلى ذلك أن هذه الملاحظات كانت لصالح الطرف الأول وتثير المرارة فى نفوس الطرف الآخر ، لو أنه فهمها ووقف على حقيقتها ؛ نظراً لأن قائلها كان يستعمل اللغة الهندوستانية[1] .

وبعد برهة من الزمن وجه لنا رئيس الوسيط الدعوة لزيارة بستانه ، الذى ارتحنا فيه قرابة الساعتين تحت أشجار التين الكثيفة ، إلى أن انحسرت حرارة

(١) الهندستانية : مجموعة من لهجات شمالى الهند تعتبر الهندية الفصحى والأوردو أشكالها المكتوبة . (المترجم) .

الظهيرة إلى حد ما . وينبغي علي أن أضيف هنا ، أن الفواكه التي تزرع هنا – البطيخ والتمر إلخ – لابد ، وهذا مفترض ، أن تكون أقل من مثيلاتها التي تعرفناها وألفناها في القصيم ، من حيث الحجم والنوع .

ولم يكن الخروج ، من هذا المنخفض ، أمرًا سهلاً ؛ وخطر ببالي المثل الذي يقول "النزول سهل ولكن .." ، وراح كل واحد منا يستحث دابته في المناطق التي يسهل فيها انحدار الرمال ، وتتحمل دوس الأقدام . وكانت الإبل والرجال يتدحرجون إلى الخلف ، إلى حد أن بعض أفراد الجماعة كانوا يبكون من الإحباط والبعض الآخر كانوا يضحكون من الضيق الذي ألم برفاقهم ، وكان أبو عيسى يجري هنا وهناك بين أفراد القافلة، محاولًا توجيه الجميع وجعلهم يقتربون من بعضهم البعض ، إلى أن استطعنا ، أخيرًا ، بعناية الله ، أن نصل إلى حافة المنخفض المتجهة صوب الشمال .

وكنا نشاهد ، أمامنا بحرًا من النيران الناتجة عن هبوب العواصف ، خلال الضوء الأحمر في فترة المساء ، وشققنا طريقنا خلال هذه النيران ، إلى ما قبل غروب الشمس بساعة واحدة إلى أن اهتدينا إلى ما يشبه المدق أو الأخدود ، وبعد ذلك ، انفتح على طريقنا منحدر طويل جدًا ، شاهدنا عند أسفله مدينة زلفه التجارية المهمة . ومن خلف مدينة زلفه شاهدنا منحدرات جبل طويق التي تشبه الجدران ، التي طالما سمعنا عنها ، وبدأنا نراها الآن رأى العين ، ومن نافلة القول أننا كنا سعداء جدًا عندما شاهدنا هذه السلسلة الجبلية القريبة ، قلب الجزيرة العربية، وعقدة مواصلاتها ، والتي يمكن أن نقول عن كل ما بعدها ، إنه رحلة العودة .

الواقع أننا ، عند هذه المرحلة ، نكون قد عبرنا النفود ، وأصبحنا داخل الوادي الكبير الذي يشكل خط الاتصال الرئيسي بين نجد والشمال ، والذي يصل إلى أكثر مناطق هذا المحيط الرملي انخفاضًا، وتركنا أمواجه الهائلة خلفنا سلسلة أثر سلسلة ؛ واستطعت أنا ويركات ، بفضل ذلولينا ، أن نكون في مقدمة رفاقنا ، وهنا بدأنا نسمح للذلولين بالخروج عن الطريق ليرعيا الطهمام ، ذلك العشب ذكي الرائحة الذي ينتشر في منطقة نجد ، والذي ورد ذكره عند شعرائها ، في حين رحنا ننظر تارة إلى سلسلة الجبال الحمراء التي في الخلف ، وتارة أخرى إلى الوادي الطويل الذي يمتد عن يميننا وشمالنا ، وإلى الشمال والجنوب ، ومعه الحدود الخارجية غير المنتظمة لأسوار مدينة زلفه التي تمتد أمامنا إلى مسافة تقدر بميل واحد أو أكثر ، وحينا آخرًا كنا ننظر إلى سلسلة قلاع طويق شديدة التحدر التي كانت عند خط الأفق .

وعندما دخلنا مزارع مدينة زلفه المبعثرة هنا وهناك ، كان الليل قد بدأ يرخى سدوله ، واستغرق منا عبور هذه المزارع فترة من الوقت ، وسط تساؤلات الفلاحين العائدين إلى منازلهم بعد انتهاء عملهم اليومى ، ونباح الكلاب التى كانت تعترض على دخولنا حدودها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وفى المدينة نفسها أصابتنا الدهشة لأن عدد النساء اللاتى قابلنهن كان أكثر من عدد الرجال ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تغيب عدد كبير من رجال المدينة لاشتراكهم فى حرب عنيزه ، ومن المعروف أن زلفه لا تتبع مطلقًا أيا من المناطق الثلاثة المجاورة لها : فهى تقف معزولة لوحدها فى سجلات الحكومة ، وهى تشارك فى حروب الدولة "الغزوات" ، بتقديم حوالى ستمائة مقاتل . وميول زلفه ميول وهابية ، وسكانها تربطهم قرابة الدم ورابطة المشاعر بكل من سكان الجبال النجديين فى سدير ، أكثر من سكان السهول فى القصيم ، أو تجار الغلال فى الوشم ، كانت زلفه قد أرسلت رجالها المشاركين فى حملة عنيزه قبل يومين فقط ، ولكن مقاتلى زلفه كانوا قد سلكوا طريقًا طويلًا عبر الوادى ، ليجنبوا أنفسهم ويجنبوا خيولهم الطريق الأقصر المحفوف بالمخاطر، عبر النفود ، الذى جئنا نحن منه ؛ ولذلــك لم يتسنى لنا مقابلتهــم فى مســيرتهم – وربما كان ذلك فى صالحنــا – ومن حسن حظنا .

ومضينا فى الطريق الذى يؤدى إلى قصر الحاكم ، وهو من أصل نجدى ، ويقال إنه جمع ثروة طائلة من منصب الرئاسة هنا ، والسبب فى ذلك ، أن المدينة هنا ليست فى حالة حرب وإنما هى مدينة ثرية ؛ فهى نقطة الالتقاء وعقدة التجارة المتجهة إلى الشمال والقادمة من كل من سدير والعارض ، والوشم ، وكل القرى والمدن الأخرى المجاورة لهذه المناطق الثلاثة ؛ يضاف إلى ذلك ، إن سكان زلفه أنفسهم تجار مهرة ورحالة جسورون ، غالبًا ما نراهم فى الزبير ، وفى الكويت وفى البصرة . ومدينة زلفه، هى مفتاح نجد ، من هذا الجانب ، فضلًا عن كونها أيضًا موقعًا عسكريًا مهمًا ، يسد مدخل الوادى من ناحيتها ، كما يتصل هذا الموقع مباشرة بوادى حنيفة ، الذى يؤدى إلى العاصمة نفسها ، وعلى هذا الطريق نفسه ، قاد عبد الله بن سعود ، أفضل الملوك الوهابيين ، وأقساهم ، وأقواهم شكيمة ، على مر التاريخ ، قواته ، منذ ستين عامًا ، ليحاصر مشهد على ، ويسلب كربلاء وينهبها .

وعندما وصلنا بوابة القصر ، أبلغوا الحاكم بوصولنا ، ولكن سعادته لم يكن مزاجه معتدلاً فى تلك الليلة ، ولم يسمح لنا حتى بإيواء أنفسنا فى فناء القصر ،

ولذلك نصبنا خيامنا ، في الهواء الطلق عند أسفل سور القصر الخارجي بالقرب من البوابة . وكانت مجموعة أخرى من الصليبة قد نصبت خيامها على بعد مسافة قليلة منا ، نحو الأسفل ؛ وكانوا قد عادوا لتوهم من رحلة صيد في الشمال ، ليبيعوا صيدهم في زلفه .

وفي الوقت نفسه ، فإن حاكم المدينة ، تعبيراً عن أسفه ، لسوء تصرفه ، ومن باب إكرامه لنا وافق على أن يعطينا إعاشه ، ولكن بدون سكن . وتنفيذاً لذلك ، أرسل الحاكم بعضاً من اتباعه إلى الصليبة ، واشتروا منهم غزالاً جيداً ، وسلم هذا الغزال إلى خدم النائب ، الذين بدءوا يعدونه لوجبة العشاء . وأكد الصليبة أن هذا الغزال من سلالة غريبة لا تشرب الماء مطلقًا ، وأن لحمها لابد وأن تكون له نكهة طيبة جداً ، ومن المؤكد أن العينة التي أمامنا كانت طعاماً ممتازًا ، علاوة على إنها كانت تقدم مصحوبة بأحسن أنواع الصلصة المتمثلة في الجوع ؛ ولكن مسألة أن هذا الغزال كان ينتمي طوال حياته ، بحق ، إلى "ذلك النوع من الغزال الذي يمتنع طوال حياته عن كل أنواع المشروبات" فهذا مالا أعرفه ؛ برغم أن العرب ، هنا يقطعون ، بأن هذا هو حال ، جميع الغزال الموجود في كل أنحاء هذه المنطقة ، ومع ذلك ، فإن أعشاب الصحراء هنا ليس فيها من العصارات ما يعوض حاجة هذه الحيوانات ، إلى الماء ، يضاف إلى ذلك أن الغزال لا يمكن أن يمتص الرطوبة من هذا الهواء المتّقد ؛ وخلاصة القول هي : انني أشك في صحة العبارة التي قالها الصليبة عن الغزال ، وهناك تقارير ، تقول أيضاً ، إن النعام أيضاً لا يشرب الماء ؛ وهذا أمر مؤكد ، إذ يندر أن نشاهد النعام إلا في الأماكن الجافة تماماً ، مما يستبعد أي احتمال من احتمالات الماء .

وفي صبيحة اليوم التالي ، بلغ النائب من التعب مبلغًا لم يتمكن معه من أن يبدأ الترحال في ساعة مبكرة ، ولذلك بقينا في المكان الذي كنا فيه مدة ساعة أو أكثر بعد شروق الشمس ، ورحت أنا وبركات نتجول بين خيام الصليبة ، حيث شاهدنا أجسامهم المشوقة ، وبشرتهم الشقراء نسبيًا ، وعيونهم الواسعة على العكس من عيون البدو الضيقة ، وملامحهم الفريدة ، مما جعلني أقتنع بالرأي الذي يقول إن هؤلاء البدو الجائلين جاءوا من الشمال ، ومن المحتمل أن يكونوا سوريين ، كانوا يضحكون ويمرحون عن طيب خاطر ، معنا ومنًا ، ولكننا لم نستطع الحصول منهم ، على معلومات قيمة ، لأن من عادة الصليبة التحفظ في مثل هذه الموضوعات الخطيرة ، وهذا التحفظ أمر مهم بين أتباع محمد (ﷺ) والوهابيين ، كانت نساء الصليبة غير

محجبات ، ومباشرات وصريحات مثل الرجال ، بل أكثر صراحة ، وفي صبيحة هذا اليوم ، احتالت إحدى فتيات الصليبية على أحد أفراد القافلة ، حيلة ، يستحيل علينا أن نمر عليها مر الكرام ، كان النائب العجوز ضحية تلك الفتاة ، في هذه الحيلة . كان النائب قد استيقظ وتناول شاي الصباح ، وجاءت الشابة الصغيرة ، وبرفقتها اثنان من أقاربها ، وحاولت أن تروح جيئة ذهاباً ، عدة مرات ، أمام المجموعة الإيرانية ، إلى أن أصابت نظراتها قلب محمد علي الشيرازي ، ودخل النائب معها في حديث طويل وحميم إنتهى بأن عرض عليها الزواج منها ، وبفرح بالغ وافقت أسرة الفتاة على الزواج من حيث المبدأ ، وأخيراً وعندما ركبنا ذلولينا لنواصل رحلتنا ، انظر ، فها هي الحورية الغجرية الملامح صاحبة العينان السوداوان ومعها قريبها الصليبي الكهل ، وربما كان والدها ، وكلاهما يركب جملاً مهزول الجسم ، ويسيران إلى جوار النائب ، وهو يقدم ، برقة بالغة ، أجمل عروضه المستقبلية لعروسه ، وراحت الفتاة تستقبل تلك العروض بخجل بالغ ، وراحت تمازح محبوبها قرابة نصف ساعة وتطلعه على مكنونات قلبها ؛ إلى أن توقفنا لتناول الإفطار عند أطراف بساتين المدينة ، وهنا تظاهرت الفتاة بأنها نسيت شيئاً ما في مخيم الصليبية، ورجعت مع قريبها لإحضاره ، بعد أن وعدته ، وعداً نسائياً ، بعودة سريعة ، وعاشت البجعة المخدوعة على الأمل ، وجعلتنا كلنا نعيش في قلق قرابة الساعتين ؛ ولكن لم تعد العروس ولا عاد قريبها ، وهنا راح النائب يعزي نفسه بالفكرة التي مفادها أنه له ست زوجات (لقد سمعت ذلك منه شخصياً) ينتظرن عودته إلى مشهد علي ، وهو يعاود الركوب على ذلوله ، في موجه من الحزن ، ليضيف بذلك فصلاً جديداً إلى مجموعة النكات الكبيرة ، التي كان ، مثل غالبية الرجال السيئين ، يحب أن يعيدها ليؤكد بها خداع الجنس اللطيف .

هانحن قد قطعنا المدينة بطولها ، وشاهدنا العديد من منازلها التي جرفتها سيول الشتاء ، التي تصب جام غضبها قصير الأمد ، في هذا الوادي . ومن أمامنا ، نرى المنخفض الطويل الذي يمتد من الجنوب إلى الشرق ؛ وعن يميننا صحراء النفود ، وعن شمالنا جبل طويق ، ومنطقة سدير ، وهبَّ هواء الجبل بارداً ، وكانت رحلة الليل أجمل من سابقتها ، وواصلنا مسيرنا في الوادي إلى ما بعد الظهر ، عندما رأينا أمامنا رُعْنٌ[1] فريد ، وهم يطلقون على الرعن اسم "الخشيم" ، التي معناها الحرفي "الأنف

(١) الرُّعْن : بتشديد الراء وتسكين العين هو : قُنَّةُ الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر . (المترجم) .

الصغير" وهذا اسم جنس يطلقونه هنا على كل جرف أو صخرة بارزة ، التي تمتد فجأة من جبل من الجبال ناحية أخدود في الأسفل ؛ وهنا ينقسم هذا الأخدود ويذهب قسم منه في اتجاه الجنوب الشرقي ثم يعود شرقًا إلى مدينة شقراء عاصمة منطقة الوشم، أما القسم الثاني فيتجه صوب الجنوب الغربي إلى النفود، ومنها إلى القصيم ، وكانت مفرزة زلفه المشاركة في حرب عنيزه ، قد سافرت عن طريق هذا القسم الثاني منذ ثلاثة أيام ، أما فيما يتعلق بقافلتنا فهي لم تسر في القسم الأول ولا في القسم الثاني ، ولكننا تحولنا إلى أحد الأجناب وسرنا خلال سلسلة من الصخور الضيقة التي ترتفع على شكل زاوية قائمة في اتجاه الشمال الشرقي ، وبذلك نكون قد دخلنا وسط مرتفعات جبل طويق .

هذا الجبل هو الذي يُكَوِّن نجد بصفة أساسية ، وهو عبارة عن سلسلة واسعة ومنبسطة من الجبال ، أو إن شئت فقل هضبة ، شكلها العام عبارة عن هلال ضخم ؛ والجزء الأعرض والأوسط منها العارض ؛ أما قرنها الشمالي الشرقي فيتبع منطقة سدير ؛ وتقع الوشم ، الجزء الأول من امتدادها ناحية الجنوب ، ويعد الوشم يواصل جبل طويق امتداده بين الجنوب والغرب خلف طريق الحجاج النجدي ، وبذلك يفصل الجبل الطريق عن وادي الدواسر ، والقصيم بأراضيها المنخفضة تقع في مقدمة هذا الجزء من الهلال ويضمها بين ذراعيه ؛ في حين تشكل كل من الإحساء من ناحية الشرق ، واليمامة والأفلاج من ناحية الجنوب ، وكذلك وادي الدواسر غير المتناهي من الجنوب الغربي ، خلفية وملحقات جبل طويق ، وأنا استميح القارئ أن احاول تقدير ارتفاع هذه الهضبة الرئيسية ، وسيكون تقديري لهذا الارتفاع مبني على الحياة النباتية والمناخ ، والخصائص المكانية المتشابهه من ناحية ، وعلى تقييم المرتفع نفسه تقييمًا تقريبيًا ، ثم بعد ذلك تقييم المنحدر من ناحية البحر ، من الناحية الثانية ، ومن ثم أقول إن ارتفاع الهضبة الرئيسية يتراوح بين ألف وألفي قدم فوق مستوى سطح الجزيرة العربية ، ومن ثم يقدر ارتفاع هذه الهضبة الرئيسية عن مستوى سطح البحر بحوالي ثلاثة آلاف قدم على اكثر تقدير ، وتحدث انحناءات هذه الهضبة في كل منطقة سدير ، وسوف نمر على هذه الانحناءات بعد قليل ؛ وفرع الهضبة الأوسط وفرعها الجنوبي الغربي منخفضان تمامًا ، ويعد جبل طويق العقدة المتوسطة في كل من الجزيرة العربية والقوقاز ؛ ولا يزال جبل طويق ، مثلما كان في الأزمان السالفة ، هو نقطة التحول في شبه الجزيرة العربية كلها ، أو أن شئت فقل معظمها ، من حيث

المغزى السياسي والوطني ، الاسم "نجد" ومصطلح "نجد" لا يطلق إلا على جبل طويق لأنه ينطبق عليه من الناحية الطبوغرافية ؛ هذا بالرغم من أن العرب يطلقون هذا المصطلح في بعض الأحيان ، بل في أغلب الأحيان على جميع المناطق الداخلية الخاضعة حاليًا للحكم الوهابي ؛ ومن هنا أصبح المصطلح يشمل كلًا من وادي الدواسر ، والقصيم ، واليمامة ، والحريق ، والأفلاج ، ومن هنا يصبح انضواء هذه المناطق تحت هذا الاسم ، من منظور المعنى الحكومي ، وليس المعنى الجغرافي لهذا المصطلح . والأجانب - يستثنى منهم الأوربيون - باستثناء أهل سوريا ، وبغداد ومصر ، يوسعون مصطلح نجد بشكل عام ليشمل كل المناطق الواقعة داخل أو على الحزام الصحراوي الذي يقع بين وسط الجزيرة العربية وحدودها ، ومن هنا نجد أنهم يدخلون جبل شومر ، والجوف ، والكويت ، والأحساء ضمن مصطلح "نجد" ، أو أن شئت فقل "الأرض العالية" ، وهذا خطأ مرفوض تمامًا داخل حدود الجزيرة العربية ، وبالتالي لابد من الغائه من جميع الخرائط الإنجليزية .

وليسمح القارئ لي هنا أن أقول ما مفاده ، إن الأوربيين الذين يزورون الشرق أو يصفونه ، يجب أن يحتاطوا وهم يستعملون العبارات المبهمة التي يستعملها العرب ، وبخاصة العبارات التي يستعملها المصريون والسوريون ، عندما يتكلمون عن الدول الغربية والشعوب الغربية ؛ يضاف إلى ذلك ، أن استعمال المرادفات والمجانسات اللفظية بصورة متكررة ، يعد أيضًا مصدراً شائعًا من مصادر الخطأ عند الباحثين الأجانب . ويمكن عن طريق طرح الأسئلة على مجموعة من الأفراد ، وفي أوقات متباعدة ، وأماكن متباعدة أيضًا ، ثم نقوم بعد ذلك بمقارنة المعلومات التي يتم الحصول عليها بهذه الطريقة ، استهدافًا للوصول إلى أكبر قدر من الدقة ، فيما يتعلق بالموضوعات الرئيسية ، ثم هناك ، وهذا هو الأفضل ، أن يرى الباحث بعينه ويسمع بأذنيه عن الموضوعات التي يدرسها أن استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد سبق أن أشرت ، أن غموض الأفكار عند العرب أمر متكرر ، وهذا يرجع بدوره إلى مجرد غموض في اللغة نفسها ، وليس إلى الرغبة في الخداع والتضليل ؛ ولكن قد يكون للخداع والتضليل نصيب في بعض الأحيان ؛ زد على ذلك ، أن أي نجدي ، كبر أم صغر ، ليس على استعداد أن يعطي الأوربي ، مهما كان ، فكرة دقيقة عن بلاده ، مثلما يضن عليه بدخول هذه البلاد ، إن تيسر له ذلك ، وهذا القول ينسحب على العرب بشكل عام .

والاسم "طُوَيِّق" هو تصغير للاسم "طوق" ، وبذلك يصبح معناه "الطوق الصغير" ، وآمل ألا يكون القارئ قد فشل في ملاحظة صيغة التصغير هذه ، التي وردت في مواقع كثيرة من هذا الكتاب ، وصيغة التصغير هذه يمكن التعبير عنها باللغة الإنجليزية عن طريق استبدال صائت الكلمة الأول بالصائت "O" واستبدال الصائت الثاني في الكلمة بالإدغام "ey" وعلى ذلك فإن تصغير كلمة "كلب" Kelb يصبح "كليب" Koleyb، وكلمة "راجل" Rajel "رُجيل" Rojeyl وكلمة "ضوء" Dow' تصبح "ضوييّ" Do'wey' والنجديون يستخدمون صيغة التصغير هذه في جميع الأحيان ، سواء أكانت منطقية أم غير منطقية ؛ وقليل جداً من الأسماء هو الذي لا يخضع لهذه العملية ، والنجديون يقولون إن صيغة التصغير هذه تستعمل للتعبير عن الألفه ، والمودة ، والإحتقار ، وللتقدير وللتصغير ، بل للتعظيم أيضًا ، وهم يستعملون هذه الصيغة في معظم الأحوال "من باب الإسراف" ، وبدون أي مبرر ، واسم الطويق المصغر على سبيل الخطأ (نظراً لأن هذه منطقة شاسعة جداً) ، يعزى ، كما قال لي بعض الأصدقاء ، إلى الإعزاز الوطني ، وفكرة الطوق تناسب هذه المنطقة وتنطبق عليها نظراً لاحتواء هذا الجبل على متاهة من الوديان الغريبة المعقدة ، والمنحنيات ، والمداخل والمخارج ، والأخاديد ، ومجاري السيول ، والجروف العمودية ، التي لا يمكن تخيلها ، إضافة إلى انثناء سلسة الجبال بكاملها والتوائها ، علاوة أيضًا على شكلها الذي يشبه الهلال ، والذي سبق أن تناولناه بالوصف .

وكتلة الأراضي العليا ، التي يطلق عليها اسم "الطويق" أو "نجد" تتكون في معظمها من الحجر الجيري ، برغم أن القمم الجرانيتيه ، تختلط بالحجر الجيري ، في اتجاه الشرق والجنوب ، أو قد توجد هذه القمم مستقلة عن الحجر الجيري ، وعلى حد علمي ، لا يوجد البازلت في أي مكان من الطويق ، وبذلك تكون الطويق في هذا الصدد على النقيض تمامًا من سلسلة جبال شومر ، إذ يسود في جبال شومر التكوينات الجرانيتيه التي يميل لونها إلى الاحمرار ، كما يوجد فيها البازلت أيضًا ، الذي يرتفع على شكل قمم شاهقة الارتفاع ، أو على شكل مثلَّمات القمم ؛ ولكن الأرض هنا في جبل طويق مستوية ، وتسير على شكل خطوط طويلة متوازية مثل الدرج ، وأقصى طرف لهذه الجبال يرتفع فجأة ليصل ارتفاعه إلى حوالي خمسمائة أو ستمائة قدم ، عن مستوى السهل المجاور له ، وتلي ذلك أرض مستوية ، تتباين امتداداتها ، ولكنها تكون مستوية بشكل عام في جميع الأنحاء ؛ تلي ذلك درجة أخرى من درجات السلم

عرضها ثلاثمائة أو أربعمائة قدم ، تليها أرض مستوية عالية ثانية ؛ ثم تجد من حين لآخر هضبة ثالثة تقف مثل التاج على الأرض المستوية الثانية ؛ ولكن قمة هذه الجبال مستوية بشكل عام ، ولكن باستثناء القمم الجرانيتيه القليلة الموجودة ناحية الطرف البعيد من سدير في اتجاه اليمامة ، وهذه الأراضي العالية ، تغطي الجزء الأكبر من سطحها ، المراعي الواسعة التي تستمر طوال العام ؛ ولكن كلما زاد الارتفاع قلت خصوبة التربة وزاد جفافها ، وتشيع في هذه المناطق الأشجار المنفصلة ، أو في مجموعات صغيرة، وليست الأشجار من قبيل الأشجار الشائعة في السهل، مثل الإثل ، وإنما شجر السّدر (أو السدير طبقًا للهجة السائدة في نجد ، والذي اشتق منه اسم المنطقة) ، وهناك أيضًا شجر المرخ ، بأغصانه واسعة الانتشار التي تشبه أغصان السنديان ، إضافة إلى أشجار الطلح الشوكية ، ولا يوجد في هذه الأراضي المرتفعة سوى القليل من الماء ، وبخاصة في فصل الخريف ، بالرغم من أنني شاهدت بعض الأماكن التي ربما كانت بركًا من المياه ، في فصل الربيع ؛ ولم نعثر سوى على مصدر واحد فقط من مصادر المياه المستمرة ، والذي سوف أصفه عندما نصل إليه .

وتتقاطع داخل هذه الهضبة متاهة من الوديان ، بعضها واسع ، وبعضها ضيق ، وبعضها طويل ومتعرج ، وبعضها قصير ، ولكن كل هذه الوديان لها ضفاف منحدرة ، وعلى شكل جروف في بعض الأحيان الأخرى ، كما تبدو كل هذه الوديان كما لو كانت منحوتة في جبل الحجر الجيري ، وتتركز في هذه المنخفضات التي لا تحصى ولا تعد كل أراضي نجد الخصبة وسكانها ؛ كما تتركز فيها أيضًا البساتين والمنازل ، والزراعة والقرى ، التي لا تراها أعين من يسيرون فوق الأراضي الجافة المستوية المذكورة آنفًا ، نظراً لاختفائها بين المنخفضات ، (ولقد أطلقت على هذه المنخفضات اسم "الوديان" Denes ، واخترت لها هذه الكلمة البريطانية الأصل لأنها تذكرني في معظم الأحيان بتلك الوديان القريبة من يارموث Yarmouth) إلى أن تطالعهم فجأة الكتلة النباتية الخضراء اخضرار الزمرد ، وهناك يحسب المرء أن أرضين مختلفتين ومناخين مختلفين قد انجدلا ، بشكل أو بآخراً ليكونا كلاً واحداً ، ومع ذلك لايزالا متميزين ولم يذوبا في بعضهما ، وتربة هذه الوديان خفيفة ، ومختلطة بالمَرَل ، والرمل ، وحبات الحصى الصغيرة التي جرفتها السيول من أعالي المرتفعات ، والسبب في ذلك أن السيول تنحت أطراف هذه المرتفعات في كل مكان ، ثم تتجمع في فصل الشتاء وتسقط لتحول الجزء الأكبر من الأخدود السفلي إلى مجرى مائي عنيف يستمر يومين أو ثلاثة ،

إلى أن يتم تصريف هذه الكمية المؤقتة من المياه تصريفًا تامًا ، ثم تتبقى بعد ذلك برك وبحيرات المياه طوال أشهر الربيع ، في حين يتسرب الجزء الأكبر من هذه المياه إلى جوف الأرض ، ليكون فيما بعد مصدراً مستمراً من مصادر المياه للآبار في فصل الصيف ، أو قد تتسرب هذه المياه مرة ثانية إلى الآبار الموجودة بالفعل بين أراضي الأحساء والقطيف المنخفضة ، في اتجاه ساحل البحر ، وفيما وراء الحدود الخارجيه لـ – جبل طويق نفسه ، وعلى كل حال ، فإن أى سيل من هذه السيول ليس له مجرى مستمر حتى يصل إلى البحر ؛ إذ أن بعض هذه السيول يعاد امتصاصها على الفور ، وهي ما تزال داخل حدود متاهة جبل طويق نفسه ، الذى يجب أن أضيف هنا ، أن مستجمع مياهه يوجد ناحية الشرق وليس ناحية الغرب ؛ في حين أن قلة قليلة من هذه السيول ، وهذا نقلًا عن أهل هذه البلاد ، هي التي تشق طريقها عبر جبل طويق مباشرة إلى النفود ، في الناحية الغربية ، أو إلى الدهناء في الناحية الشرقية وفي الجنوب ، وبذلك تضيع بسرعة وسط الرمال العميقة ، التي يلقى فيها الراين أو الفرات المصير نفسه ، ومن ثم ، فأنا أقول هنا من باب التأكيد ، ومن باب التصحيح أيضًا ، أن الجغرافيين ، الذين يتعاطفون مع الجزيرة العربية ويزودونها ، وبخاصة في الجانب الشرقي منها ، بأنهار تنساب من الدرعية أو من أي مكان آخر إلى البحر ، كانوا أكثر سخاء على أراضي هذه البلاد من الطبيعة نفسها ، وأنا أقول ذلك ، عن كل هؤلاء الجغرافيين وبلا استثناء ، والسبب في ذلك أن وادي عفتان Aftan الذي يُوَقَّعُ على الخرائط على أنه مجرى مائي ، ليس كذلك ، لأننا سوف نحظى بعد قليل بالسير في هذا الوادي ، ونعرف واقعة الحقيقي .

وعلى كل حال ، ومع أن المياه السطحية نادرة ومؤقتة ، إلا أن المياه الجوفية مستمرة وغزيرة ، وهذا هو السبب في خصوبة تلك الوديان ، يضاف إلى ذلك ، أن الماء لا يصعب الوصول إليه ، نظراً لأن أعماق الآبار في كل أنحاء نجد يندر أن تزيد على ما يتردد بين أثنى عشر وخمسة عشر قدمًا مقاسه من حافة البئر إلى الماء ، بل أنها أقل من ذلك في أحيان كثيرة ، وبخاصة في اتجاه النصف الجنوبي من العارض واليمامة ، ولقد غاب عن ذهني أن أقول في وصفي للقصيم ، أن مياه القصيم مالحة المذاق بشكل عام ، وبشكل يمكن تمييزه والإحساس به ، إلا أنها مستساغه ، وبخاصة لدى أولئك البريطانيين الذين اعتادوا أن يشربوا الجعّة الرديئة المصنوعة في نورفلك Norfolk . ولكن الماء ، هنا في نجد ، ليس له هذا المذاق المالح ، ولكن به بعض شوائب الحديد .

وهذه الظواهر يمكن أن نجد لها تفسيراً في الظروف الخاصة بكل نوع من أنواع التربة . ففي القصيم ، ينتشر ملح الصخور في أنقى صوره ، فقد شاهدناه ورأيناه سلعة رخيصة ومتوفرة ، تباع في بريده ، يضاف إلى ذلك أن التربة في كل أنحاء منطقة القصيم مذاقها مالح عندما نضعها على اللسان ، وعلى الجانب الآخر ، نجد أن نجد ، وبخاصة الجروف الشرقية للهضبة ، غنية بخام الحديد الذي يوجد بكميات كبيرة تسترعي الاهتمام العربي ، وقد شاهدت بالقرب من السُلَيِّع سلسلة كاملة من تلال الحديد الصرف ، وقد أخبرني أهل هذه البلاد ، عن تلال أخرى كثيرة من هذا النوع ، وهذا هو السبب في المذاق الحديدي للمياه ، التي تكتسب هذا الطعم أثناء مرورها إلى جوف الأرض. وهذا هو واقع حال آبار المياه في المناطق المحيطة بحريملاء، والرياض ، وفي وادي حنيفة ، والسُليع وصولًا إلى آبار الأويسيط Oweysit.

ومناخ الجزء الشمالي من جبل طويق ، سواء أكان هضبة أم وادي ، وهو ما يتصادف مع منطقة سدير ، يعد من أحسن المناخات في العالم ؛ والاستثناء الوحيد هنا ربما يكون لصالح جبل شومر وحده . وهاتان المنطقتان : سدير وجبل شومر ، يتشابهان تماماً من حيث الجو الجاف، كما أن سكان سدير ، مثل سكان جبل شومر ، يتميزون بالبشرة المتوردة والقامة الممشوقة ، ولكننا كلما اقتربنا من وسط هلال الجبل ، حيث يقل الارتفاع ، في حين تجعله دائرة العرض الجنوبية أكثر قربًا من تأثيرات المنطقة المدارية السائدة ، نجد أن الهواء يزداد رطوبة واسترخاء ، لينعكس ذلك المناخ غير الصحي ، إلى حد ما ، على أوجه السكان الشاحبة وقوامهم النحيف الهزيل . وسوف أتحدث عن اليمامة وعن المناطق الحارة الأخرى ، الواقعة فيما بين جبل طويق وصحراء الدهناء الكبيرة ، عندما نقوم بزيارة هذه المناطق ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه الموضوعات لا تسترعي في الوقت الحالي اللجوء إلى التصميمات ، والسبب في ذلك أننا على وشك أن نعبر هذه السلسة من الجبال من جانب إلى الجانب الآخر ، وسوف نراها بكل تفاصيلها .

كنت قد قلت إن مرشدنا قبل أن ينقسم الوادي إلى قسمين ، اتجه قسم منهما نحو شقراء ووادي حنيفة ، واتجه القسم الثاني نحو غرب الوشم ، كان قد انتحى بنا جانبًا عن طريق منعطف حاد ، ناحية الشمال الشرقي حيث دخل بنا في ممر ضيق من ممرات جبل طويق ، لنجد أنفسنا بعد ذلك داخل حدود منطقة سدير ، وبعد برهة قصيرة من مسيرنا خلال هذا الممر الضيق ، طالعتنا الأشجار والخضرة التي كانت

تحف بجانبه الأيسر لتعلن وصولنا إلى المساكن البشرية ، ففي هذا المكان توجد قرية الغاط ، ذلك الاسم الشهير في كثير من مناطق وسط الجزيرة العربية ، والذي قد يُحَرَّف أحيانًا إلى غُوَيِّط ، وغوطه ، وغويطه .. إلخ ، وكلها بمعنى "منخفض" مضافًا إليه الخصوبة ؛ وهذه هي الخاصية الطبوغرافية نفسها ، التي تكتسب أحيانًا ، اسمًا مماثلاً "إناء البنش"[1] في أراضينا الوسيطة ، وعلى كل حال ، ينبغي هنا أن أنبه أولئك الذين يتقنون اللغة السنسكريتية واللغة الهندية أن أصل هذه الكلمة العربية لا علاقة له بالكلمتين الهنديتين "غاط" Ghat و"غوط" Ghawt ، والسبب في ذلك أن الإنجليز يخطئون في نطق هاتين الكلمتين ، برغم تشابه نطق الصوائت في هذه الكلمات ، ومصادفات الخلط الصوتي التي من هذا القبيل ، قد تكون من قبيل المصادفة البحتة ، بسبب المحاكاة الصوتية ، بين اللغتين الهندية والعربية ؛ وأنا أعرف جيدًا مواضع النبر في هذه الكلمات ، التي حددتها مصادر عليمة ومحترمة ؛ هذين التخريجين اللذين أشرت إليهما سائبان ، ومن ثم لا يصلحان أن يكونا أساسًا لنظرية متينة تقام عليهما ، ومن المعروف أن وحدة الجذر والأصل الواقعية والمادية بين اللهجتين السامية والآرية – من وجهة نظري على أقل تقدير – فوق مستوى التعرف العملي – لأنها ليست أكثر وضوحًا من المصادر ، واللهجات ليست أكثر وضوحًا من اللغات الأم ، في جميع الأحوال بدءً من بابل إلى ما بعدها .

والأدلة التي تثبت العكس ، إن أردنا لها أن تكون مقنعة ، لابد أن تكون وفيرة ، وأن تكون ، قبل كل شيء من هذا النوع؛ والكلام عن هذا الموضوع يحتاج إلى مجلدات ؛ ودوري في العمل الذي أنا بصدده هنا ، دور جغرافي وليس دوراً لغويًا ، ولذا فأنا أترك للقارئ المثقف مسألة بحث هذا الموضوع ، الذي إن تهيأ لي الوقت المناسب وسنحت لي الفرصة ، سوف أخصه بكتاب مستقل ؛ ولكن يهمني أن أضيف هنا ، وذلك تحاشيًا للجدل المنتظر ، أني أقصد بمصطلح اللغات "الهندية" اللغة السنسكريتيه فقط ومحدثاتها أو تشويهاتها ، وهي بالتحديد البنغالية ، والمهراتية ، الجوزيراتيه ، والكنكانية وما إلى ذلك من اللهجات ، وأنا هنا أستبعد تمامًا لهجة التأميل Tamool واللهجات الأخرى الموجودة في جنوبي شبه الجزيرة الهندية وسيلان؛ والسبب في ذلك ، أن هناك شبه وحدة في الجذور بين هذه المجموعة الأخيرة من اللهجات وبين ما نطلق

(١) شراب مُسْكِرٌ مؤلف من كحول وعصير ليمون وتوابل وشاي وماء – (المترجم) .

عليه اسم اللغات السامية ، أذكر ذات مرة ، عندما اضطررت إلى حضور محاضرة عامة مملة ، رحت أغالب النوم خلالها ، بأن أشغلت ذاكرتي بإعداد قائمة بجذور الكلمات الأولية التي توجد في كل من اللغة العبرية ولغة التأميل Tamool ؛ واستطاعت ذاكرتي خلال فضول استمر نصف ساعة ، أن تسعفني بما يقرب من ثلاثين جذراً ، ولكن هيا بنا نعود مرة ثانية إلى سدير إلى قرية الفاط العربية .

كنا في أواخر فترة ما بعد الظهيرة ، التي يطلق العرب عليها اسم "العصر" ، عندما دخلنا إلى الظلال التي كانت ترحب بنا، واتجهنا مباشرة إلى منزل رئيس القرية. كان منزل رئيس القرية ، شأنه شأن المنازل الأخرى كلها ، يقع على حافة الوادي ، عند سفح الصخرة البيضاء مباشرة ، وقد اختير هذا الموقع تفادياً للأخطار التي تنجم عن السيول التي كانت تنهال على المنخفض الوسيط خلال موسم الأمطار ، كانت آثار الماء واضحة في كل أنحاء الوادي ، كما شاهدنا أيضاً بعض المنازل التي دمرتها السيول ، وكانت قد بنيت على ارتفاعات منخفضة ، كانت غزارة المياه في الآبار قد بلغت حداً حتى في هذا الفصل الذي يعد اشد فصول السنة جفافًا – جعل فيضانها كافيًا لملئ خزان كبير كانت تنساب من جوانبه نهيرات صغيرة يحسبها الناس طبيعية ، وتظللها أشجار التين والرمَّان ، في حين كان النخيل يتفوق على نخيل القصيم من حيث الارتفاع ، وكانت المنازل ، شأنها شأن البساتين ، على شكل صفوف من الرفوف بعضها فوق بعض في اتجاه ارتفاع الجبل ، وكانت هناك ساحة أمام منزل رئيس القرية ، كما يوجد بالقرب منه أيضًا منزل وهابي صرف ، كبير وغير مزين ، مجرد مكان للاجتماعات ، خال من البدع التي جاءت بعد محمد (ﷺ) مثل المآذن والبسط والسجاجيد ، في هذا المكان ، تصبح في نجد ؛ وإذا كنت لم اتعاطف تماماً مع مشاعر تتشستون Touchstone وأحاسيسه عند وصوله إلى أردن Arden ، فإنني لا يسعني هنا إلا أن أعترف بأن ملاحظاته في ذلك الزمان والمكان كانت تنطوي على حقيقة محددة ؛ ومع ذلك ، فإن الرحالة ليس لديهم خيار سوى القناعة والرضا .

وعلى كل حال ، فإن سكان نجد بصفة عامة ، وسكان سدير بصفة خاصة ، لديهم فضيلة واحدة ، هي بمثابة العزاء لأولئك الذين يتركون ديارهم ، ليزوروا نجد وأنا أقصد هنا إكرامهم لضيوفهم ، وأهل نجد يشتهرون بهذا الكرم ، في الجزيرة العربية وخارجها ، ويذيع صيته أيضاً في اشعارهم ونثرهم ، وهم بحق أهل لهذه السمعة الطيبة.

كان رئيس الغاط واحداً من أهل المنطقة ، شاب ، وبشوش ، وفي منتهى الأدب ، ودعانا جميعاً إلى دخول منزله ، وأرسل لنا من يحرس لنا إبلنا ويعتني بها ، ودخلنا جميعاً إلى القهوة الفاخرة وجلسنا نستريح فيها ، بينما كانت أشعة الشمس تتسلل من خلال التعريشه التى تعتلي النوافذ ، لتضيئ المجموعة الأنيقة التى كانت تجلس على الجزء العلوى من القهوة ، فى هذا الجزء العلوى من القهوة ، وإلى جوار المضيف وأفراد عائلته، الذين كانوا يرتدون قمصانا نظيفة ومشالح سوداء، وغير جديدة زاهية الألوان ، ويمتشقون سيوفاً مقابضها مصنوعة من الفضة ، كان يجلس النائب مكوناً شخصية بارزة بثيابه الإيرانية ، وعمامته الكبيرة ، فى حين بدّل أبو عيسى ثياب الطريق بثياب أخرى نظيفة ، حتى يتسنى له مرافقة النائب ، وأجلس نفسه بالقرب من السفير (النائب)؛ وجلس خدم النائب وأتباعه فى جانب وجلست أنا وبركات على الجانب الآخر. وكثر تردد "يا أهلاً" و "مرحباً"، كما تردد أيضاً كثير من العبارات المحلاة بلفظ الجلالة، والتى تعد جزء لا يتجزأ من المحادثة الوهابية . وبطبيعة الحال ، كان التدخين ممنوعاً ؛ بل إن النائب نفسه لم يجرؤ على استعمال نرجيلته ، وكان أبو عيسى قد أخذ بعض الأنفاس الأخيرة من "غليونه القصير" قبل ان ندخل قرية الغاط ، ونصحنى بأن أفعل الشيء نفسه ، قائلاً ما مفاده : "هؤلاء الكلاب سيعدوننا كفاراً إن نحن دخّنا على مرأى ومسمع منهم"، وبدى علينا أننا أبرياء من التدخين براءة الطفل الذى لم يولد بعد. كانت القهوة وفيرة ، وجيده جداً ، وسوف ينصب الحديث اعتباراً من هذا المكان ، ومن الآن فصاعدا إلى أن نصل الرياض ، سواء أكان فى المدن أم القرى ، بين العظام أم الصعاليك ، على موضوعين أساسين لا ينتهيان ؛ أولهما ، مزايا وفضائل الأمير فيصل، وانتصاره الأكيد على كفار عنيزه ؛ وثانيهما حماقة الزامل وفسوقه هو وحزبه ، وهزيمتهم المنكرة وتدميرهم . ثم يلى ذلك : "الله ينصر المسلمين" ، "الله ينصر فيصل" ، "الله يُسلِّمُ فيصل" ، "الله يُسلّط المسلمين على الكفار" ، وما إلى ذلك من هذه العبارات إلى أن بدأنا نقول مع أبى عيسى : "كفّرُونا بالمسلمين" ، ورحنا نتمنى لهم ، الهزيمة ، من كل قلوبنا ، مثل تلك التى انزلوها بأعدائهم ، لم يكن أحد يجرؤ على الحديث عن فيصل إلا بصوت خفيض ينم عن التوقير والاحترام الذى لا يكون إلا لشبيه الإلاه فى لحظة التالية ؛ لم يكن أحد يجرؤ على الكلام عن شخص طاعته واجبة بحكم القضاء والقدر ، ومخالفته عصيان لا يغتفر ، هذا بالإضافة إلى إقحام العبارات الدينية التى من قبيل "استغفر الله" ، "لا إله إلا الله" ، "توكل على الله" وبقية قائمة العبارات التى

من هذا القبيل ، عند كل كلام ، وفي كل حديث ، الأمر الذي يتعذر معه مواصلة الحديث واستمراره حول موضوع أي موضوع من الموضوعات المعتادة ، وبذلك يواجه المرء قوة كثيفة خارقة للطبيعة عند كل منعطف من المنعطفات .

وأنا لن أتكلم ، حاليًا ، هنا عن المعتقدات العجيبة ، أو الحالة الذهنية اللتان تؤديان إلى ظهور العبارات التي من هذا القبيل ، واللتان تفضيان إلى الاستعمالات السائدة هنا لمثل هذه العبارات ؛ مخافة أن يؤدي ذلك إلى إفساد رحلتنا خلال سدير وإصابتها بالسأم والملل ، منذ البداية ، واكتفي هنا بالقول إن أبا عيسى ونحن أيضاً ، راعينا مقتضيات الأدب والتزمنا بها ، ولم يقل أحد منا شيئًا ، بل أننا لم نعرب أيضاً عن موافقتنا في المواقف التي كانت تتطلب ذلك ، وكان المكيان على خطأ في أغلب الاحيان ، كما أثبت الإيرانيون أنهم أقل تأدبًا وحصافة وحرصًا ؛ ولولا أن أخذ أهل الغاط مكانة النائب والمهمة القائم بها بعين اعتبارهم ، من ناحية ، ولولا رغبتهم الطبيعية في تحسين صورتهم امام الغرباء ، من ناحية ثانية ، وامتناعهم على أثر ذلك عن الرد فوراً والتعليق على ما يقوله الإيرانيون ، لولا كل ذلك ، لحدثت مشاحنات شائكة وخطيرة ؛ والواقع أن أبا عيسى ، اضطر أكثر من مرة لاستخدام مهارته التوفيقية ، في تحاشي النتائج السيئة التي كادت أن تترتب على نزوات الإيرانيين وعدم تحضرهم ، وربما كان المستمعون الصامتون هم "الأكثر تفكيراً" ، ربما ، ومع ذلك فهم لا يقولون شيئًا ؛ والنجدي يتفاخر بأنه يتحمل الوقاحة والانفعال ، وينظر إلى التحمل الذي من هذا القبيل ، على أنه يكون بنفس القدر أيضًا ، دليلاً على رقي الشخصية وحسن التنشئة ، ولم أر قط في نجد أثرًا لمعيار اللورد تشسترفيلد Chester Field يعطي الملعون الحق في طعن اللاعن ، نظراً لأن أهل نجد ، يعون تمامًا الحقيقة التي مفادها أن السيطرة على النفس هي أولى خطوات الانسان على الطريق إلى أن يصبح سيداً ماجداً Gentleman ، وهذه القاعدة ، شأنها شأن القواعد الأخرى ، لها بعض الاستثناءات ، على المستوى الشخصي أو المستوى المحلي ؛ ومع ذلك فإن النغمة السائدة في سدير بصفة خاصة ، هي نغمة التأدب الراقي المحترم .

وأهل الغاط ، في قراره انفسهم ، ينظرون إلى كل من مصر ، وإيران ، وبغداد ، ودمشق ، أو باختصار ، العالم كله ، باستثناء نجد ، على أنها اوكار للصوص ومخابئ للكفر والإلحاد ، ومع ذلك ، فإنهم ما أن سمعوا ، ردودنا على أسئلة التقديم المعتادة ،

وأن ضيفهم واحد من الأماكن التى سبقت الإشارة إليها، حتى بدءوا يمتدحون المدينة ، والبلد ، والشعب ، كما لو كانت هذه الأشياء مثار إعجابهم منذ زمن طويل ، وراحوا يبالغون فى إطراء تعليم ، وتقوى ، وشهرة أولئك الذين يختلفون معهم ، والذين هم على استعداد أن يشهروا ضدهم سيف الإسلام فى الحال ؛ وهم على استعداد أن يفعلوا ذلك بطريقة هادئة ، وسهلة ، وطبيعية تماماً ، يصعب معها ألا نصدق أن كلماتهم صدى حقيقى لما يدور فى داخلهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ضيفهم ، إذا ما كان يتمتع بالحصافة المعتادة ، لن يكون لديه أى مبرر لخوفه من أى تلميح إلى عدم الرضا عن تصرفاته أو أعماله الشخصية . وهناك مقولة معادة تشيع بين النجديين تقول : "الضيف ما أقام ملِك" ، وتعبر عن الاحترام الذى يكنه هؤلاء الناس لكل من يستقبلوه مرة فى ديارهم، زد على ذلك ، أن الغريب عندما يسير فى الشارع لن يحملق فيه أحد، ولا يتوقف الناس ليطيلوا النظر إليه ، ولا يتجمع الصبية خلفة ليسخروا منه ، ولا يتهامسون أو يتغامزون أثناء مروره ، وربما لا يمر الأجانب هذا المرور السهل فى أى مكان آخر . ويجب أن أضيف هنا أن ثيابنا شبه السورية كانت غير مألوفة "وتبدو مفراه " فى نجد ، ولكن بدرجة أقل من ثوب اليهودى اللثوانى الطويل ، أو الفراء التى يلبسها شخص قوزاقى ، فى شوارع نورويش Norwich أو ديربى Derby ، وقد بدى الإيرانيون لأهل الغاط غريبين تماماً ، ومع ذلك ، فقد كان الأدب النجدى فوق كل هذه الاعتبارات ، ويجب ألا يغيب عن بال القارئ أن الغاط يتفوق فى هذا الجانب على بقية مناطق جبل طويق ، وهذا يحتم علينا إجراء بعض التعديل وبعض الاستنتاجات قبل أن نقوم بتطبيق الصورة التى رسمناها هنا على كل من العارض ، والأفلاج ، واليمامة ، زد على ذلك ، أننى اتحدث هنا عما يحدث فقط بين الضيف والمضيف ، ومتعارف عليه فيما بينهما ؛ ويجب ألا يغيب عنا بأن الغرباء الصابرين والأجانب غير الرسميين لا يحظون بهذا الأدب والتكريم ، أو حتى بأى شئ منه على الإطلاق .

وكرم أهل سدير رقيق وغزير ، فبعد تناول القهوة ، وتبادل أطراف الحديث فترة قصيرة ، صعدنا إلى الطابق العلوى ، حيث توجد غرفة كبيرة لها شرفة مفتوحة ، مجهزة لاستقبالنا ، ومزودة بالفواكه ، والبطيخ ، والخوخ الناضج ، كلها مكدسة على أطباق كبيرة ، كى نتسلى بها إلى أن يتم تجهيز وجبة العشاء ، وفى هذه الغرفة ، كان من الطبيعى أن نتصرف كما لو كنا فى منازلنا ؛ بل كان من حقنا أيضاً أن نشعل "غليون السلام" ، إذ أن فضيحة المجاهرة بالتدخين لا تطال الغرف أو الأماكن التى من

هذا القبيل نظراً لأنها مخصصة لاستعمالنا وحدنا ، كان مضيفنا وأقاربه يدخلون ويخرجون من حين لآخر ، ليعربوا عن استعدادهم لخدمتنا أو التحدث معنا ، وبدأنا نجمع من أحاديثهم الكثير من المعلومات القيمة عن دولة نجد الحقيقية وعن حكومتها .

وفي قرية الغاط تَرَكَنَا رجال مهنا ليعودوا إلى القصيم من جديد ، ولم نعد نخشى أي خطر قد يواجهنا على الطريق ، وبخاصة الرحالة من أمثالنا لأن ذلك سيكون في "وجه فيصل" كما تقول العبارة العربية ؛ يضاف إلى ذلك ، أننا بدءاً من قرية الغاط سيكون بصحبتنا من قرية إلى أخرى بعض من سكان هذه البلاد : لا من أجل الأمن والسلامة وإنما على سبيل التكريم ، وأنا لابد أن أقر هنا ، أن التكريم كان لكل من النائب وأبي عيسى ؛ أما فيما يتعلق بنا شخصياً ، فقد ظللنا طوال المرحلة الأولى من الرحلة لا نسترعي سوى قليل من الاهتمام ؛ وهذا هو ما تمنيناه ، برغم أننا لم نكن نفتقر إلى الكياسة أو التعامل الودي في كل مكان .

وفي صبيحة اليوم التالي ، وبعد أن ركب كل منا جمله أو ذلوله ، وجدنا رئيس القرية على صهوة حصانة ، ومعه بعض أقاربه من الشباب ، مستعدين لمرافقتنا . وسرنا قرابة نصف ساعة في ذلك الممر الضيق الصاعد ، في ظلال أشجار الغابات. كان مستوى الطريق واحداً ، وهذا هو ما أدهشني – التي كان النخيل يتخللها وتنبعث من خلال سعفه ومضات الضوء الأبيض المنعكس عن الصخرة العالية ، إلى أن وصلنا "العقبة" أو إن شئت فقل المَطْلَعْ ، ويجدر بنا هنا أن نقول : إن جميع المطالع المنحدرة في هذه البلاد يطلق عليها اسم "عقبه" او "ثنيه" Thenee'yah ، والمصطلح هنا دقيق ، نظراً لأن انحدار ارتفاع التل ، هو الذي يحتم أن يكون مسار الطريق حلزونيًا ، كي يناسب ذوات الأربع ، باستثناء الماعز ، ومن هنا ، فإن مثل هذا المسار يمكن تمييزه بأن نضيف إليه اسم المكان القريب منه ؛ كما هو الحال عندما نقول : "عقبة الغاط" بمعنى "مَطْلع الغاط " ، وذلك تحاشياً للخلط .

نحن الآن ، في الطريق غير النافذ ، أو إن شئت فقل : النهاية المفاجئة لصخرة الجبل ، أمام ممر ضيق متعرج ، يشبه شريط غير متعرج من قماش الستان الأبيض ، يمتد عدة مئات من الأقدام ناحية الأرض المستوية الموجودة في الأعلى ، وسط الصخور وكتل من الحجر الجيري والمَرْل المختلط بالحجر الرملي . وهاهو قليل من الماء يتسرب من القاعدة ، مثل "بئر سبيل" ، ويوضح لنا مسار هذا المجرى المائي بعد سقوط

الأمطار . هنا أيضًا نشاهد منافسة في الأدب ودماسة الخلق ، فقد أصر رئيس قرية الغاط على مرافقتنا إلى مسافة أطول من التي نحن عندها الآن ، ولكن أبا عيسى يتمسك ويصر (نظرًا لأن الإيرانيين لزموا الصمت) على عودة الرئيس إلى الغاط . وبعد تبادل الأحاديث الجميلة على الجانبين ، تمنى ضيفنا الكريم لنا جميعًا ، ولكل واحد منا على وجه الخصوص ، رحلة سعيدة ، وسرعة الوصول وعاد إلى الغاط ، في حين بقي معنا بعض من أقاربه لمرافقتنا في رحلتنا .

وبعد ذلك بوقت قليل ، وصلنا إلى الهضبة العظيمة ، التي سبق أن تناولتها بالوصف . وهنا ، ولأول مرة منذ أن عبرنا الغور الموجود بين غزه ومعان – تلك المنطقة المحددة تحديدًا كافيًا – وجدنا أنفسنا تحت سماء ملبدة بالغيوم وجو مضطرب . وهنا يجب ألا يغيب عن ذهن القارئ ان اليوم يوافق السابع من شهر أكتوبر من العام ١٦٨٢ الميلادي ، وألا يندهش لهبوب عاصفة في فصل الخريف ، كانت السماء صافية منذ لحظات ، وفجأة ، تلبدت بالغيوم ، وتدافعت على أثر ذلك عصفه ريح ، بينما أدت سحب الغبار إلى تكدير صفو الهواء ، الأمر الذي أصبح من الصعب علينا ، معه أن نتبين طريقنا ، وقد حدثت هذه العاصفة في الوقت المناسب ، لتوقف استمرار تلك القصة "السخيفة المملة" ، التي تحكي عن الاختفاء الاعجازي لإحدى الاميرات الإيرانيات (لقد نسيت اسمها) ، الزوجة الخيالية للحسين ، ابن علي ، وأم زين العابدين الشهير ، وكانوا جميعًا على ظهر بيغاسوس[1] شرقي ، تلك الحكاية الشيعية السخيفة التي كان النائب يرددها على مسامعي ، بلغه عربية ركيكة ، إلى أن قطعت العاصفة علينا حديثنا ، وأعقب العاصفة سقوط قطرات قليلة من المطر ، ولكن الريح كانت عاتية مما أدى إلى تبديد احتمال سقوط المطر ؛ وعلى كل حال ، فقد كان النسيم الذي أعقب هذه العاصفة ، عليلًا ، ومن ذلك النوع الذي يهب على جبال آبنايين ، وعند الظهر ، توقفنا في سهل تغطية أشجار الآراك ، وشببنا النار وصلّحنا القهوة ، وبعد تناول القهوة ، واصلنا مسيرنا ناحية الشرق ، مع الانحراف قليلاً صوب الشمال ؛ وكنا نمر على الرحالة أو الفلاحين ، من حين لآخر ؛ ولكن الأوربي قد يرى هذه الطرق موحشة إذا ما قارنها بطرق بلاده .

(١) فرس مجنح جعل الماء يتدفق ، ويرفسة من حافره من نبع هيبوكرين ، (المترجم) .

وعلى حد سواء ، لقد أعجبت كثيراً بالخضوع الكامل للحكومة المركزية والنظام الشرطي المفروض من قبلها ، الأمر الذى أدى إلى ندرة السرقات فى المناطق المختلفة ، والقضاء تماماً على قُطَّاع الطرق ، وأخيراً ، وعند دخول وقت العصر ، بدأت تلوح لنا فى الأفق المجمعة ، والتى كانت من قبل عاصمة لهذه المنطقة ، والتى لا تزال من الأماكن المهمة تماماً ، ويقدر عدد سكان المجمعة ، عن طريق التخمين ومن خلال ما سمعناه ، بحوالى عشرة أو اثنى عشر ألف نسمة ، والمدينة تقع على مرتفع صغير وسط وادٍ ضحل واسع ، تحيط بها مجموعة ممتازة من البساتين والأشجار ، تتفوق على كل ما شاهدته فى سدير ، بل حتى فى جلاجل ، برغم شهرة جلاجل فى الشعر العربى ، كانت أسوار المدينة عالية جداً ، بمعنى ، أن ارتفاعها يصل إلى حوالى ثلاثين قدماً ، وكانت هناك ، فى وسط المدينة ، قلعة مربعة الشكل ، وتتحكم هذه القلعة فى المدينة وفى المناطق الريفية المحيطة بها ، أما المتاريس والحصون الخارجية ، فقد كان يحيط بها خندق عميق جداً يكاد يكون مملوءً بالماء ؛ والمزارع فى المجمعة ، بلا أسوار ، على الطريقة النجدية .

حكمت عائلة السديرى ، إذا ما أطلقنا عليهم اسمهم المعتاد واسمهم الإقليمى أيضاً ، هذه المنطقة بكاملها إلى وقت قريب جداً ، كان الملوك الوهابيون ، الذين كان السدايره اتباعاً أشداء لهم ، قد أيَّدوا السدايره فى مطالبتهم بالسلطة الموروثة لهم ، وعوضوهم عن فقدان استقلالهم الاسمى ، بأن جعلوهم يتبوءون السلطة الفعلية . ورئيس الأسرة فى الجيل الحالى اسمه أحمد ، الذى أدت وفاة والده إلى توليه رئاسة المجمعة ، وهو لا يزال صغيراً ، ومعه شقيقة الأصغر منه محمد وعبد المحسن ، كانت سدير على تحالف وثيق مع العارض منذ زمن بعيد ، ولم يحدث بين هاتين المجموعتين أى تنافس أو تعارض ؛ ومن هنا ، فإن الحاكم الوهابى المطلق ، كان يتسامح مع أهل المجمعة فى الخروج بعض الشىء على الخط السياسى المعتاد ، وسمح لأسرة السدايرة أن تظل محتفظة بحقوقها السلفية ، دون أن يحاول الإطاحة بهم لصالح مخلوقاته أو عبيده ، ولكن مع مرور الوقت ، وبعد أن اندمجت سدير فى العارض تماماً ، وبعد أن أدى تغلغل التعاليم الوهابية إلى جعل المقاومة أمراً مستحيلاً ، غامر الأمير فيصل بضم شعبية سدير إلى شعبيته ، وقرر تطبيق حكمه العام على هذه الحالة ، التى استثنيت من هذا الحكم فترة طويلة ، وذلك عن طريق عزل رؤساء المجمعة الأصليين ، وقد أنجز فيصل هذا العمل بحذر واحتراس، ولم يجعله تحصيلاً حاصلاً. ففى البداية ،

عين الأمير فيصل ، أحمد السديري ، قائداً لإحدى الحملات ، التي سوف أتناولها بالوصف فيما بعد ، وجهها ضد عُمّان ، وبعد أن اطمأن فيصل إلى بقاء أحمد السديري في عمان ، عينه حاكماً دائماً لذلك الموقع الوهابي المتقدم في بريمه Bereymah ، ولكن الواقع أن هذا التعيين كان شكلاً من أشكال النفي ، وقد أبعد محمد السديري إلى منطقة نائية أخرى ، بأن عينه فيصل نائباً لحاكم مدينة الهفوف بالأحساء ، التي كان ينتظره فيها المزيد من التغييرات ، أما عبد المحسن السديري ، فقد تركه "فيصل فترة من الوقت ، يشغل المنصب الذي شغر بعد أيفاد احمد السديري إلى عُمّان ، ولكن قبل أن أقوم برحلتي بوقت قصير ، حرم الأمير فيصل ، عبد المحسن السديري من السلطة ومن اللقب ، وجرده إلى مجرد واحد من الأعيان في المجمعة ، التي لم تعد بعد عاصمة لـ – سدير ، وقد طبقت حكومة الرياض هذه السابقة على مدينة التويم أيضاً ، التي تبعد عن المجمعة مسيرة يوم في اتجاه الجنوب الشرقي ، والتي عين لها فيصل حاكماً من أهلها ، وأرسل له مواطنا من أهل العارض ، باسم الملك الوهابي ، وأحدث ذلك جرحاً عميقاً في نفس عبد المحسن ، ولم يكن في وسعة ، هو وكل أفراد أسرته ، أن يفعل أي شئ في مواجهة هذه الإجراءات ؛ وشعرت العائلة باهتزاز قوتها لغياب أحمد ، ولم تجرؤ على الدخول في مقاومة مشكوك في عواقبها ، أو حرب مثل تلك التي حدثت في عنيزه ، ولذلك تغيروا بما يتفق والموقف الجديد ، وبقوا في وطنهم ، يشغلون أنفسهم ، في هدوء ، بالتجارة والممتلكات ، في انتظار أن تثأر لهم دوّامة الزمن" .

استقبلنا عبد المحسن السديري استقبالاً رائعاً – فقصره الذي كان مركزاً لـ – سدير في يوم الأيام ، كبير ومنيف ، وأعد لنا مكان إقامتنا في الطابق الثاني ، الذي كانت شرفاته تطل على منحدرات الجبل الرائعة ناحية الشمال وناحية الشرق ، ومن تحتها البساتين وبيارات النخيل على شكل كتل خضراء ، وقضينا المساء في هذا المكان الجميل ، مثلما قضينا مساء الليلة السابقة ، اللهم باستثناء المسليات ذات النوعيات الممتازة ؛ والتقليل من امتداح فيصل والثناء عليه ؛ وهذا أمر طبيعي ، إذا ما أخذنا الماضي بعين اعتبارنا ، ويبدو أن أبا عيسى كان صديقاً قديماً من أصدقاء مضيفنا ، الذي حصل منه على آخر الأخبار في الرياض والمناطق الداخلية من الإمبراطورية ، تلك التفاصيل التي راح عبد المحسن يناقشها معنا بالتفصيل ، على انفراد ، وراح محمد على (النائب) يكتب مذكراته على ضوء مصباح إيراني ؛ فقد كان من عادته أن يدون أحداث يوم بيوم تدويناً دقيقاً ، وبذلك تجمع لديه كتاب كبير يستفيد به المغرمون

بالقراءات الخفيفة ، بل أن هذا الكتاب ، لو ترجم ، ونشر فأنا أخشى ، أن يطيح بكتابي ويضعه على الهامش ، لقد ألف محمد على هذا الكتاب باللغة الفارسية ، ولكن النائب كان يخصني ، في بعض الأحيان ، بتلاوة قسم منه عليَّ ، كان يترجمه إلى عربية ركيكة أو هندوستانيه سليمة ، ولم أجد من الضروري ، أن أبلغه أنني أدون يومياتي أيضًا ، تحاشيًا مني لإثارة شكوكه ؛ والواقع أن هذه الشكوك كانت على أشدها بفضل ذكريات الإنجليز في كل من حيدر أباد وبومباي ، ثم بدأت تهدأ ثانية بفعل المظاهر العربية ، أو بفعل مُسكِّنات أبي عيسى ، الذي كان يطري مهارة هذه الشخصية الطبية السورية ويثني عليها ، على إثر الشراكه العلاجية التي كانت بينهما في الهفوف .

هنا ، في المجمعة قارب مخزون النائب من التبغ (الدخان) على النفاذ ، ولم يكن لديه علم بالمكان الذي يستطيع أن يحصل منه على مخزون آخر ، وبخاصة في بلد لا يعرف لهذا النبات اسمًا سوى "المنكر" أو بكنيه لا تزال حتى الآن غير قابلة للترجمة، والتي تعني أن الدخان من عمل الشيطان ، ولكن بطريقة مفادها أن الجفاف الناري في وجه إبليس هو الذي يزين تعاطي التبغ وتدخينه ، ومع ذلك ، فهذا هو ما يعتقده الوهابيون ، الذين يؤكدون دومًا أن نفثات التبغ الأولى نشأت عن هذا الرحض[1] الشيطاني ، الذي أخذ منه اسم لا يليق أن تسمعه الآذان المهذبة ، مَنْ ، بعد ذلك ، يستطيع أن يحلم ، وأنا لا أقول باستخدام ، وإنما بتهريب ، أو حتى بامتلاك هذه السلعة سيئة السمعة ؟ وعلى كل حال، ففي كل أنحاء الدنيا ، وبالتالي في نجد أيضًا ، ليس هناك قانون يستعصي على الخرق ، أضف إلى ذلك أن النظم الجمركية تعاني من المهرِّبات ، وبهذا الأمل ، الذي يقوم على ضعف الطبيعة البشرية ، راح حسين ، خادم النائب وفي يده النقود ، يتلصص ، ويبحث عن "المنكر" في دكاكين المجمعة ، ويثير الامتعاض بسؤاله عنه بشكل علني ، ومع ذلك باءت جهوده الأولى بالفشل ، وفي النهاية لجأ حسين إلى أبي عيسى ، الذي اكسبته خبرته بالأرض حقائق ومناورات لا تخطر على بال ذلك البغدادي الغر غير الذكي ، كان صديقنا ، ابو عيسى ، قد وقع مراراً في هذا الحال نفسه ، الذي عليه النائب الان ، ولكنه كان يعرف جيداً أين وكيف يميز بين الحقيقي والظاهري ؟ والأقنعة المختلفة التي تخفي الأعمال الخاصة ، نفسها بها عن

(١) الرُّحْض : بتشديد الراء وتسكين الحاء ، هو التزويد بدفق متواصل من سائل ما ، (المترجم) .

الملاحظة العامة ، والواقع أن عدد المدخنين في نجد ، ليس صغيراً بأى حال من الأحوال ، ويدخل ضمن هذا العدد نفر كثير من أصحاب الجاه والأصول العريقة ، وينطلق أبو عيسى ومعه النقود المطلوبة ، يبحث بهدوء وبطريقة فاعلة ، ويعود إلينا ، بعد وقت قصير ، ومعه ، كيس يحتوى على رطلين من أثقال "أفواردوبوا"[1] avoir dupois من تلك الأوراق الشيطانية ، التى سلمها إلى النائب ، بعد أن خصم منها البقشيش الذى اقتسمه بيننا وبينه .

وصحونا مبكراً فى اليوم التالى ، نظراً لأن هواء الليل كان برداً ، مما جعلنا نكتفى بساعات قليلة من النوم ، ومستوى المنخفض الذى تقع المجمعة فيه ، يتساوى مع مستوى سطح الهضبة الأولى ، ويلى منخفض المجمعة منخفض آخر أكثر ارتفاعاً ، ويشكل جزء من الضلع الأوسط فى جبل طويق ، وسرنا فى الأرض العالية باعتبار أن ذلك هو الطريق الأقصر ، بدلاً من السير فى المنحدر المنخفض ، ومضينا فى طريقنا ، والمناظر الطبيعية الرائعة تحفنا من الجانبين ، ولكن ليس من الأمام ، حيث نرى ناحية الشرق جيداً سامقًا يحجب عنا المنظر البعيد .

وبعد أن أشرقت الشمس شاهدنا إحدى ظواهر الطبيعة، وأظن أن هذه الظاهرة ، ليس لها مثيل ، فى أنحاء وسط الجزيرة العربية ، إلا أن الناس يفرحون بها ، وهى بالتحديد ، ذلك المصدر الكبير من مصادر الماء العذب ، الذى يشكل مجرى عميقًا واسعًا ، تكسو الحشائش ضفتيه ، وتنق الضفادع بين حشائشه ، وعقدت الدهشة ألسنتنا ، إذ كان ذلك المجرى ، أول مجرى ، من نوعه ، نشاهده بعد أن غادرنا وادى الجوف ، وبرغم أن هذا المجرى حقيقة واقعة ، إلا أنه نهير قصير الأجل ، إذ يستمر مسير أربع ساعات إلى أن يصل إلى مدينة جلاجل ، التى يختفى عندها بين المزارع والأعشاب والشجيرات . وقد سبق أن قلت : إن الجبل المتجه شرقًا كان أكثر ارتفاعاً من المستوى الذى نحن عليه الآن ، ولذلك لا يصل هذا النهير ، أو أى مجرى مائى آخر فى المنطقة ، إن قدر أن تكون هناك مجارى مائية أخرى ، إلى الدهناء أو المحيط .

ها نحن ، نقترب الآن من جلاجل ، التى تجاوزناها عند الظهيرة ، ولكننا لم نتوقف فيها ، وجلاجل مكان يشتهر بأطلاله القديمة ، التى أتى على ذكرها كل من امرؤ

(١) ثقل أفواردوبوا : نظام من الموازين يستخدم فى بريطانيا وأمريكا لوزن جميع السلع ما عدا الأدوية والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة ، وهو يعتبر الرطل مؤلف من ١٦ أوقية . (المترجم) .

القيس وعنتره قبل بعثة محمد (ﷺ) ؛ ولا تزال جلاجل ، إلى يومنا هذا، مدينة مهمة، فيها مساحة هائلة من بيارات النخيل ، والري موجود في كل أنحائها ، وهي تحصل عليه من النهير الذي أتينا على ذكره ؛ ولكن مباني جلاجل وقلعتها ليس فيهما ما يستلفت النظر ، اللهم باستثناء أن تلك المباني ، وهذه القلعة تبدو جميلة من خلال هذه الأشجار ، وبعد ساعة واحدة ، طالعتنا على الناحية اليسرى ، مدينة الروضة ، وهذا اسم جنس أيضًا ؛ والروضة ، بدت لنا ، كما لو كانت نظيراً لمدينة جلاجل من حيث الحجم والمناطق الخصبة المحيطة بها ، ويجب ان أضيف هنا أن اسم جلاجل معناه "الأجراس" ، وبخاصة تلك التي تعلق في أعناق البغال أو الأغنام أو الجمال في بعض الأحيان .

وأخيراً دخلنا فيما بين مرتفعات الجزء العلوي من الهضبة ؛ كانت هذه المرتفعات تتسامق هنا وهناك على شكل أبراج ضخمة مستوية القمم أو على شكل حلبات عريضة على الجانبين ، تاركه فيما بينها فتحات كبيرة ، ومراعي واسعة ، وبينما كنا نعبر واحدة من تلك المراعي ، قابلنا مجموعة كبيرة من بدو المطير ، الذين كانوا ، في يوم من الأيام ، سادة وطغاة في شمال شرقي نجد ، ولكنهم أصبحوا الآن ، مثل سائر إخوانهم البدو الرعاة ، مجرد رعايا متواضعين من رعايا الحكم الوهابي ، بل أنهم تحولوا الآن إلى شكل من أشكال التزمت ، الذي يتخلون عنه ، ويلقونه جانبًا ، كلما كانوا على مسافة آمنة عن مركز السلطة ، وينادون ، من حين لآخر ، ويقولون : "باطلنا الإسلام" و "باطلنا الصلاة" بمعنى "لقد تخلصنا من الإسلام" و "تخصلنا من الصلاة" ، والمطير أكثر ثراء من حيث قطعان الأغنام والماشية ، وهم ينتشرون عبر مساحة كبيرة من الأراضي ؛ وسوف نلتقي بالمطير ، بعد عدة فصول في مستوطنه لهم على الجانب الآخر من الخليج الفارسي ، وكان المطير هم البدو الوحيدون الذين صادفناهم ونحن في طريقنا من حائل إلى الرياض ، ولم أر غيرهم في كل أنحاء نجد ، أو الإحساء أو عمان .

وأنا أتوقع هنا ، أن يكون أول لقاء لنا ، بعد ذلك ، مع بعض البدو الرُّحل من بني قحطان ، وهو ما حدث بالفعل في اليوم التالي ، وأصل بنو قحطان من اليمن ، وهم ليسوا جزءاً من الأسرة العربية الشمالية أو إن شئت فقل الإسماعيلية ، وإنما هم جزء من الأسرة العربية القحطانية ، وأنا هنا لن أناقش موضوع التسمية ، ولا في أصلها

التاريخى ؛ والسبب فى ذلك أن انقسام العرق العربى إلى قسمين أمر مؤكد ويقينى ، وسوف ألقى عليه المزيد من الأضواء في الفصول التالية من هذا الكتاب ، والأفراد الذين التقيناهم الآن ، كانوا مختلفين تمامًا من حيث المظهر ، والسلوك ، واللهجة عن بدو شومر وبدو نجد ؛ فقد كانت قامتهم أقصر ، وبنيتهم أنحف ، ويكادوا يشبهون الهنود ، ونغمة صوتهم خفيضة ، وتصرفاتهم أظرف والطف من تصرفات بدو الشمال ، الذين يحبون المرح الصاخب العنيف الذى ينتهى إلى التبجح الشديد ، على حين نجد أن مرح الجنوبيين له طابع محسوب ولا يميل إلى الصخب ، ولهجة الجنوبيين مختلفة أيضًا ، لا من حيث صوامت اللغة العربية "المثيرة للجدل" ، وهى الجيم ، والقاف ، والكاف على وجه التحديد وإنما من حيث الكلمات نفسها . ويستطيع القارئ أن يستجلى كوامن هذه العبارة إذا ما رجع إلى أمثال الميدانى وحماسة أبى تمام ، ولغة القرآن غنية بالأمثلة على ذلك ، ومكانة هذه اللغة عند العرب ، مثل مكانة إغريقية هومر مقاسه بإغريقية كل من ايزوكريتس Isocrates وزينوفن Xenophon ، ودخلنا فى حديث طويل مع هؤلاء الرجال الثلاثة : وقالوا إنهم رحّالة من وادى السليل ، أى أنهم من الزاوية التى تنحصر بين الدواسر ووادى نجران ، وأنا هنا أتحول عن إعطاء المزيد من التفاصيل عن جغرافية ذلك الركن من الإمبراطورية الوهابية ، وعن العرب القحطانيين بشكل عام ، لكى أضيف ، أن قبيلة بنى قحطان بصفة خاصة ، واسعة الانتشار ، ومقسمة إلى فخوذ كثيرة ؛ بعضها يحتل مراعى نجد الجنوبية ، فيما وراء العارض ، والبعض الآخر مستقر فى اليمن ، وبنو قحطان ليسوا بارعين فى الحرب مثل العشائر الشمالية من أمثال مطير ، وعجمان ، وعتيبة ، كما أنهم أقل منهم أيضًا من حيث البنية البدنية والطاقة .

وبعد أن تجاوزنا مخيم المطير بفترة قصيرة ، طالعتنا أسوار التويم ، تلك المدينة الكبيرة التى تضم ما بين اثنى عشر وخمسة عشر ألف نسمة ، وذلك نقلاً عن الحسابات المستعملة هنا ، والتى ألجأ إليها نظرًا لعدم وجود ما هو أفضل منها . والتويم أقل حظًا من المجمعة فيما يتعلق بالموقع والرى ، ولكنها أكثر برودة من المجمعة ، لأن مستواها ليس أعلا من الهضبة الأولى وإنما من الهضبة الثانية ، وتحيط بها أيضًا الأكوام غير المنتظمة فى الهضبة الثالثة ، فضلاً عن سلسلة من الجبال المرتفعة السامقه ، التى تبعد عنها مسافة قليلة ، والحاكم الفعلى الذى جاء بعد السديرى (لقد نسيت اسمه) كان يحاول الكشف عن طبعه الاجتماعى بكل الوسائل .

ورحت أنا وأبو عيسى نجوب شوارع المدينة الضيقة ، جيئة وذهابًا ونحن على ظهور دوابنا ، بحثًا عن مرؤس يقوم بتقديمنا لحاكم المدينة ، ولكننا لم نعثر على أحد ؛ وبعد أن وصلت الرسالة إلى الحاكم، جاء اكرام وفادتنا بطيئًا ، فقد بقى باب القصر مغلقًا ، وكان من الواضح أن الحاكم يتكاسل في السماح لنا بالدخول إلى القصر ، ولا أعرف إن كان سبب ذلك هو الخوف من إطلاعنا على العَوَزْ أو الثراء ، وفي النهاية وزعنا الحاكم لنقيم بين مساكن مرؤسيه : وكان النائب ومن معه فى قهوة من مقاهى هؤلاء المرؤسين ، وأنا وبركات فى مقهى آخر ، والمكيَّان فى مقهى ثالث ؛ وكان أبو عيسى ينتقل فيما بيننا ، كان مضيفنا المُنَاب رجل خشن حسن الطبع ، ومن العسكريين ، وعاملنا معاملة طيبة ، ولكن الحارة التي يقع فيها منزله كانت محكمة وضيقة ، والهواء فيها خانق ؛ وعليه ، وبعد تناول القهوة ، وبعد أن أكلنا بضع ثمرات ، من التشكيلة الطويلة الموضوعة أمامنا ، على الطريقة النجدية ، هم بركات وأنا معه وخرجنا نتفرج على المدينة .

المنازل هنا مبنية بطريقة محكمة ، وهى تتكون من طابقين بشكل عام ، وثلاثة طوابق في بعض الأحيان ، والغرف السفلى يتراوح ارتفاعها بين خمسة عشر وستة عشر قدمًا ، فى حين يتردد ارتفاع الغرف العليا بين عشرة واثنى عشر قدمًا ؛ على حين يحيط بالسقف جدار أعمى يصل ارتفاعه إلى ستة أقدام أو ما يزيد على ذلك قليلًا، إلى أن يصل ارتفاع المنزل إلى ارتفاعات معظم المنازل اللندنية ، وهو مهيب وعظيم أيضًا ، والمنازل من الداخل ليست مزينة أو مزخرفة ، كما أن التوازن لا يراعى بين المنزل والمنازل الأخرى ، إلا ما يحدث بطريق المصادفة ، وشوارع المدينة ضيقة ، ومتعرجة ، والجزء الأكبر منها عبارة عن حارات ؛ كما أن تشكيل لجنة للقيام على أمر التهوية فى المدينة لن يضر أهلها ، ومن المعروف أن الطرق فى هذا المناخ الجاف غير المطير لا تحتاج إلى رصف ، لأنها لا تحتاج إليه أصلاً ، إلا فى بعض الحالات القليلة جداً .

وسوق التويم كبير على غير العادة ، مربع كبير ، وبترتيب خاص ، يقع بالقرب من الجانب الداخلى لأسوار المدينة ، وليس فى وسط المدينة ، ويوجد فى هذا السوق العديد من الدكاكين والمستودعات ، ومسجد كبير ، ولكن افتقار المنشآت الدينية ، فى نجد ، إلى المآذن والقباب ، يحرم هذه المنشآت من المزايا التى تترتب على مظهر هذه المنشآت

الخارجي في الأماكن الأخرى ؛ ومسجد التويم يشبه محطة سكة حديد كبيرة أكثر من أى شيء آخر ، ولكنه يختلف عن محطات السكة الحديد ، في أنه ليس به غرفة للاستجمام ، اللهم ، إلا إذا كان المبنى الجانبي ، المخصص للوضوء بالماء البارد ، يستحق أن نطلق عليه هذا الاسم ، وبوابات المدينة من النوع القوى ، ويعين لها حرس أثناء النهار ، وتغلق عند حلول الليل ، وأسوار المدينة يجرى ترميمها بصورة دائمة ، ويحيط بهذه الأسوار من الخارج ، خندق كبير ، ولكنه خالٍ من الماء .

ومع اقتراب غروب الشمس ، خرجنا لنلقى نظره على حقول المدينة وبياراتها ؛ والتربة في التويم ، جيدة في كل مكان ، ولكن الماء نادر ، ومع ذلك فتمر التويم من النوع الممتاز ، وبينما كنا نجلس على تلة رملية صغيرة ، تشرف على الطريق ، أتيحت لنا فرصة التحدث مع كثير من المارة ، الداخلين إلى المدينة والخارجين منها ، والسبب في ذلك ، أن القرويين يتجمعون حول المدينة من جميع أجنابها ؛ وهي طبقًا للتعبير العربي ، أراضي كثيفة السكان ، واستفدنا من طلاقة لهجة السكان الفصيحة ، وبخاصة الحضر منهم ، وبذلنا كل ما في وسعنا لنجرهم إلى الحديث على نحو يجعلهم يكشفون ما بداخلهم ، الواقع أنهم كانوا وهابيين حقيقيين ، وكانوا مخلصين للأمير فيصل قلبًا وقالبًا هو وأسرته ، ويحتمل أنهم يضمرون شيئًا من الحقد على المجمعة وعلى السديرى مما جعلهم يرضون باعتمادهم اعتماداً مباشراً على الرياض ، ومما لا شك فيه أن أهل التويم حققوا زيادة كبيرة في السكان وفي الثروة خلال السنوات القلائل الماضية ، وعند حلول الظلام رجعنا إلى منزلنا لتناول العشاء ، الذى أرسله لنا قصر الحاكم ، وكان بين بين ؛ وكان الخبز مخموراً بدءًا من هنا إلى الخليج الفارسي ، وهذا تحسن كبير عن الخبز غير المخمور في كل من شومر والقصيم ، برغم أن مرور الحجاج الإيرانيين بالقصيم أحدث عادات جديدة أفضل ، ثم صعدنا بعد ذلك إلى سطح المنزل، ودخنًا غليونا على ضوء النجوم الساطع ، ثم خلدنا بعد ذلك إلى الراحة ، داخل المنزل ، نظراً لأن الجو كان بارداً على نحو يصعب معه النوم في الهواء الطلق على سطح المنزل . ومن النعم الكثيرة على الجزيرة العربية أنك لا تجد فيها نملاً أو بعوضاً ، أو أية حشرة من الحشرات الوثابة التي يكثر وجودها في جنوب أوربا وفي سوريا ، والمدهش أيضًا عدم وجود الذباب ، بأشكاله الكبيرة والصغيرة ، ولا أسرابه أو بيوته ؛ وأنا لا أعرف أرضًا غير الجزيرة العربية خالية من هذه المخلوقات التي يألفها الجميع في كل مكان ، ليتنا نقول الشيء نفسه عن حيوان شهير آخر ، يرمز إلى

الحب ، في الموروث الويلزي Welsh ، على أقل تقدير ! والثعابين في نجد أقل منها في كل من أيرلنده أو مالطة ، وفي الحكاية المسلية التي نشرها من، لامارتين R.Lamartine تحت عنوان "يوميات فتح الله السُّعير" ، رفيق لاسكاريس Lascaris ، سيئ المصير ، هذا الكتاب الذي سبق أن أشرنا إليه ؛ في هذه الحكاية نجد أن لامارتين يتكلم عن هذه الزواحف، على إنها شائعة تماماً في وسط الجزيرة العربية؛ بل يقول إنها مخيفة ، ويقول أيضاً إنه : اكتشف دغلًا مليئًا بجحور الثعابين من مختلف الألوان والأحجام أي ما يشبه ، من وجهه نظري ، معرضاً كبيراً من معارض الزواحف ، يا لسعادة هؤلاء الرحالة الذين يتمتعون بمثل هذا الخيال الخصب الخلاق إذ من المعروف أن التطرق إلى ذكر الحيات والافاعي العاصرة ، من خلال القصص والسرد ، يهيئ للكاتب فرصة التنويع ، ولكنني للأسف ، لم تكن لدى هذه المقدرة أو تلك الرؤى nol' vedi, ne credo . che sia

وفي صباح اليوم التالي ، استأذنا مضيفنا غير الاجتماعي ، الذي أكرمنا ، برغم ذلك ، بأن سمح لنا بالاقتراب من بوابة قصره ، وكان في وداعنا عندما رحلنا ، وعلى بعد مسافة قصيرة من التويم ، مررنا بقرية أخرى ، محصنة ، كانت على الجانب الآخر من الطريق ، وهي عبارة عن قلعة مربعة الشكل ، يغلب عليها طابع العصور الوسيطة ؛ تلك كانت قرية حفر Hafr ، وأبلغنا أهل التويم ، أن تلك القلعة كانت ، من قبل ، منافساً لمدينة التويم ، وأنها شنت عليها حرباً طويلة استمرت عدة سنوات ، مما أدى إلى الإضرار بطرفي الحرب ، ولكن في ظل حكم ابن سعود "ليس هناك سلاَّب أو نهَّاب غيره" ، كما أن سكان سدير يتعين عليهم أن يحافظوا على السلام فيما بينهم ، وأن ذلك من صالحهم وفي مصلحتهم ، وبعد مسير ساعتين وصلنا إلى بلدة الثمير ، تلك البلدة الصغيرة التي تنتشر في غير انتظام وفيها الكثير من الأسوار المحطمة والمهدمة، التي تفوق عدد منازل البلدة ؛ وبالقرب من هذه البلدة الصغيرة ، كانت هناك صخرة بيضاء ، عليها بقايا قلعة قديمة كانت تطل على هذه البلدة ، وتوقفت قافلتنا عند بقايا هذه القلعة القديمة ، في ظلال هذه الخرائب ، لنعد ونتناول وجبة الإفطار ، وقررت أنا وبركات أن نجرب حظنا في القرية نفسها ، ولم يقابلنا أحد من الحراس عند بوابة قرية الثمير ، ودخلنا منها دون أن يعترضنا أحد ، ورحنا نسير خلال حواري ساكنة وأكوام من القمامة ، ونحن نبحث ، دون جدوى ، عن الحليب والتمر ، في مدينة الموتى هذه ، وأخيراً التقينا رجلًا هزيلًا من الحضر ، كان مظهره وملبسة يشبهان ملابس صيدلي

روميو Romeo ، ولكن هو نفسه كان طيب القلب ، وسألناه عن المكان الذى نستطيع أن نحصل منه على ما يمكن أن نأكله ، نظير الحب أو مقابل النقود . وتأسف الرجل معتذراً ، برغم أنه لم يكن هناك داعٍ لذلك الأسف ، لأنه لم يكن فى حوزته او تحت تصرفه شيئ من هذا القبيل ؛ وأردف الرجل قائلًا : "ولكن ، فى منزل فلان وعلان لابد أن يكون هناك شيئًا طيبًا من هذه الأشياء" ، وراح الرجل يوجهنا إلى تلك المنازل . ووجدنا منزلاً كبيراً ولكن بابه كان مغلقًا ؛ وطرقنا الباب ولكن دون جدوى ؛ إذ لم يكن هناك أحد داخل المنزل . وضرب لنا ذلك الرجل مثلًا طيبًا ، وتسللنا من خلال فتحة فى الجدار الطينى ، ووجدنا أنفسنا داخل غرف خالية وَحُوشٌ مهجور ، وقال لنا مرشدنا : "كل أهل المنزل فى الحقول ، فيما عدا النساء" ؛ ثم افترقنا مثلما تجمعنا . وبعد أن يئسنا من الحصول على التموين عن طريق القرية ، تسلقنا أحد الأبراج الصغيرة ورحنا نطل منه على ما حولنا ، وشاهدنا عن بعد ، بيارة نخيل جميلة ، استنتجنا منها أنها لابد أن تحتوى على التمر ، وقصدنا تلك البيارة مروراً بالأراضى التى كانت تفصلنا عنها . وعندما وصلنا إلى هذه البيارة ، اكتشفنا أن ذلك الفردوس كان محاطًا بأسوار عالية ، ولم نكتشف لها بابا ، وبينما كنا نقف خارج ذلك السور ، مثلما وقف شيطان ميلتون أمام جنات عدن ، فى مؤلفه الشهير ، ولكننا كنا عاجزين مثله تمامًا "عن أن نعبر الحدود بقفزة واحدة" ، بينما نحن كذلك ، جاءنا صبى أنيق من الصلبيه ، يرتدى أثمالاً ، ويمشى كما لو كان يرقص ، على طريقة قبيلته . وكان أول سؤال نطرحه عليه : "هل لك أن تدلنا على المدخل الذى يؤدى إلى داخل هذا البستان ؟" وكان رده علينا : "وهل تسمحا لى بأن أغنى لكما أغنية ؟" أجبناه : "نحن لا نريد أغنياتك ، ولكننا نبحث عن التمر : فهل تدلنا على الطريق الذى يوصلنا إليه ؟" ويجيبنا ذلك الصبى قائلًا : "أو أرقص لكما رقصه ؟" وراح يرقص رقصه عربية ، وهو يضحك من ضيقنا ونفاذ صبرنا ، وفى النهاية وافق ذلك الصبى على أن يدلنا على الطريق ، ولكنه بطريقة لا تناسب سوى صبى من أمثاله اعتاد سرقة البساتين ، نظراً لأن مدخل ذلك البستان ، كان يبعد قليلاً عن المكان الذى كنا نقف فيه ، ومن فوق جدار تسلقه ذلك الصبى بمهارة شخص متمرس ، وساعدنا على اللحاق به ، وحذونا حذوه ، ولكن بقصد شريف ، وبعد أن دخلنا إلى البستان وقفنا بين الأشجار ، والظلال ، والمياه . وهنا صاح "ذلك الحدث الرقيق" ، صيحة ، ظهر على إثرها "رجل ، يشبه آدم القديم ، المخصص للعناية بذلك البستان" ، وفيما عدا ذلك ، كان الرجل شاباً وشباباً من جميع

الوجوه ، مثلما كان آدم عندما كان في الجنة ، كنا نخشى أن يستقبلنا الرجل استقبالاً فاتراً ، جزاء دخولنا البستان على ذلك النحو ؛ ولكن ذلك البستاني كان حسن الطبع ، أكثر من أمثاله ، فبعد أن حيانا بأدب جم ، عرض علينا خدماته ، وعندما علم أننا من دمشق ، ازداد وداً وصداقة ، واقتادنا الرجل ، من خلال ممر ضيق إلى كوخ من أكواخ الحراسة في سور البستان ، وقدمنا لابن أخيه الذي قال لنا إنه هو أيضًا زار "الشام" أو "دمشق" . ولكن مصطلح "الشام" في نجد مصطلح عام وغير محدد ، شأنه شأن مصطلح "نجد" نفسه في الشام ، فقد اكتشفنا بعد قليل ، أن هذا الصبي ، الذي تعرفنا عليه ، من خلال الرجل العجوز ، لم يتجاوز حدود الجزيرة العربية ؛ وان كل ما فعله ، أنه سار في طريق الحج الشمالي ناحية تبوك والمناطق المجاورة لها ؛ وهذه الرحلة كانت كافية لتجعل منه أسداً في قريته ، بمعنى أنه أصبح حجة ومرجعًا فيما يتعلق بدمشق ، برغم أنه كان يبعد عن بوابات دمشق مسير أسبوعين . وتصادقنا مع هذا الشاب ، وتناولنا معه إفطاراً مكونًا من اللبن والتمر ، وماءً رائقًا ، من النوع الذي كانت تهفو إليه نفوسنا ، وكان الصليبي قد راح يبحث عن الفاكهة ، لحسابه الخاص، وعرضنا على الصبي أن نشتري منه كمية من التمر ، نستعملها أثناء سفرنا ، وهنا اقتادنا البستاني إلى منزل خارجي كانت فيه أكوام من هذه الرطب : الأحمر ، والأصفر، والمستدير والطويل، وطلب إلينا أن نختار من بينها وبناء على هذه التوصية ، ملأنا منديلًا كبيراً من القماش ، كنا قد أحضرناه لهذا الغرض ، من أفخم أنواع الرطب ، وأعطيناه مقابل ذلك قطعة صغيرة من النقود ، التي كانوا يقبلونها هنا ، مثل سائر الأماكن الأخرى ، واستأذنا من البستاني ، ثم عدنا ، ولكن عن طريق ، بوابة البستان ، إلى الأرض التي تكسوها الجُذَامة ، ومنها إلى أسوار القرية المهدّمة ، ثم إلى رفاقنا الذين بدءوا يستشعرون القلق جراء غيابنا ؛ وأعطانا أبو عيسى محاضرة خاصة وطويلة عن الحرص ، والتدقيق والتحري في الأراضي الوهابية ، وكانت محاضرة قيمة جداً ، ولكن لم نستفيد منها إلا بعد فوات الأوان .

وبعد أن غادرنا الثمير ، صعدنا أعلى رف في وسط جبل طويق ، وعبرنا أرضه المستوية الجرداء ؛ وكان المنظر رائعًا من حولنا ، واستحوذ على اعجاب النائب بصفة خاصة ، برغم أنه لم يكن ميالًا إلى الثناء على أي شيئ في نجد . ومن ناحية الشرق كانت تحد المنظر الخطوطُ الجبلية السامقة، أما من ناحية الجنوب، والغرب ، والشمال ، فقد كانت هناك الهضبة والسهل من تحتنا يشكلان امتداداً كبيراً داخل المنظر الطبيعي ،

ويشتمل هذا الجزء ، وذلك من واقع ملاحظاتي ، على أقصى نقاط الارتفاع داخل الجزيرة العربية كلها ، والتي أقدر المسافة بينها وبين قرية الثمير بما يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ميلاً ناحية الشمال الشرقي من ثمير ، والممر الذي سرنا فيه في هذه المنطقة يطلق عليه اسم "ثنيه عطا الله" بمعنى "الأرض الجرداء" ، برغم أنها يطلق عليها في أغلب الأحيان اسم "الثنيه" أو إن شئت فقل "الممر" في أفضل الأحوال ، والسبب في ذلك أن لفظ الثنية لا يطلق إلا على المنطقة العليا من الأرض ، والجبل الشرقي ، يطلق عليه اسم "جبل عطا الله" ، الذي ورد ذكره في الأغاني العربية . وفي هذا الجبل توجد بلده يابرونYabroon ، تلك المدينة التي كانت لها أهمية في الماضي ، ثم تحولت الآن إلى مجرد قرية ، وقال لي أهل المنطقة عنها : إنها تمثل نهاية وادي السليع 'soley ، في تقاطعه مع جبل طويق من ناحية الشمال ، وإنها أيضًا تمثل السوق ، الذي يقام فيها على مدار العام .

كان الطريق ، الذي سلكناه ، وهو طريق صخري تمامًا ، يسير بحذاء سلسلة الجبال مدة ثلاث ساعات ، وسرنا في هذا الطريق إلى وقت متأخر من المساء ، قبل أن نبدأ السير في ذلك الطريق اللزج شديد الانحدار ، وسط المَرْلْ والحجر الرمادي اللذين يختلطان ببعضهما ، إلى أن وصلنا ونحن نسير خطوة إثر خطوة ، إلى المستوى نفسه الذي كنا نسير عليه في اليوم السابق ، كنا جميعًا متعبين بحق ؛ وكانت الجمال بعد هذه المسيرة الطويلة تمشي متثاقلة ، وراح النائب ينفس عن غضبه بالتشاجر مع خدمه ومرافقيه ؛ وكان موضوع الخلاف رمّانه واحدة أكلها النائب وحده دون أن يعطيهم أي شئ منها ؛ من هنا جاء الغضب والدموع hinc irae et lacrymoe ، وأنا أورد هذه الحادثة هنا ، كمثال على طبيعة المشاجرات الكثيرة المماثلة الأخرى التي كانت تكدر صفو المجموعة الشيعية . ولكن من العدل أن أقول هنا ، أن طبع محمد علي الشيرازي الحسن ، سرعان ما عاد إليه ، وسرعان ما بدأ يشعر بالخجل جراء فعلته .

ووسط هذه التغيرات الداخلية والخارجية ، كان علينا أن نعجل مسيرنا ، إذا كنا نريد الوصول إلى بلدة صادق .S.adik في الوقت المناسب ، والتي قررنا أن نقضي الليل فيها ، وأخيراً بدأت تطالعنا بلدة صادق s.adik من بين الأرض غير المستوية ، بعد أن تجاوزنا عقدة كبيرة من التلال الصغيرة ، التي شاهدنا فيها الغزال الصغير يفزع ويهرب عندما اقتربنا منه؛ ومع ذلك، فقد كانت بيننا وبين حلول المساء فترة طويلة،

فضلاً عن أننا لم نصل إلى البلدة إلا بعد حلول الظلام ، وبلدة صادق عبارة عن مكان رملى نظيف ، يقع إلى جوار أحد الآبار ، ويحميه من جميع الجوانب النخيل السامق ، الذى اخترنا أن نتوقف عنده ، وهنا شب أفراد القافلة نيرانهم ، فى حين ذهب أبو عيسى وحده إلى البلدة ليخطر حاكمها بوصولنا، ووجه حاكم البلدة دعوة رقيقة لنا، كباراً وصغاراً ، الحضور إلى منزله ، برغم أننا كنا فى ساعة متأخرة من الليل ، ولكن النائب ، الذى هدّه التعب ، لم يقو على التحرك أو النهوض من على السجادة التى كان قد طرح نفسه عليها ؛ كان الرمل ناعمًا ، ولم يكن هواء الليل بارداً جداً ، وبناء عليه ، أرسل لنا حاكم المدينة كمية من اللحوم ، ومن اللبن ، ومن العسل ، ومن البطيخ ، والخبز تكفى لأن نصنع منها عشاء مشبعًا ، أضاف إليه العرب القهوة ، ثم الشاى الفارسى ، وعند منتصف الليل بدأنا نتناول عشاءنا ، على أضواء التنانير التى شببناها وخيمنا بالقرب منها .

كان أبو عيسى يعرف ، رغم أنه لم يخبر أحداً بذلك ، أن مسير اليوم التالى يتساوى تقريبًا مع مسير اليوم السابق له وبرغم احتجاجات الرحالة المتعبين ، أيقظنا أبو عيسى عند الفجر ، لنبدأ المسير ، وغادرنا بلدة صادق Sadik دون أن أراها من الداخل ، وقد أبلغنى أولئك الذين زاروها فى مناسبات سابقة ، إنها ليست سوى قرية كبيرة ، أو بلدة صغيرة ، وهى فى حقيقة الأمر ، تساوى المجمعة من حيث الحجم ، وبعد أن سرنا مسافة قصيرة فى طريقنا ، شاهدنا شقيق رئيس صادق ، ذلك الشاب الذى كان يرتدى ثيابًا أنيقة حمراء اللون ، ومعه بعض السيّافة ، وهو يلاحقنا ويرجونا أن نغير مسارنا ونُشرِّف منزله بتناول الغذاء فيه ، فى ساعة مبكرة ، ولكن وقتنا لم يكن يسمح بذلك ؛ ولذلك شكرنا له دعوته ، وعاد إلى صادق ، بعد أن دخن معى أنا وبركات غليونا ممتعًا .

والطريق هنا يتعرج بين الأشجار والشجيرات ، حيث تكثر الحبارى والأرانب البرية ؛ وكان النائب يعلق فى سرج حصانه ، بندقية إنجليزية مزدوجة الماسورة ، تستعمل فى الصيد ، اشتراها خصيصًا من الهند ؛ ولكن مع أنه تكلم كثيراً عن بندقيته وعن منجزاته فى رياضة الصيد ، لم نستطع إقناعه باستعمال بندقيته فى هذه الفرصة السانحة أو فى مناسبات أخرى ، ومن هنا ، يستطيع القارئ أن يخلص إلى النتيجة التى خلصنا نحن إليها قبله ، والتى مفادها أن النائب لم يكن صياداً ماهراً .

وهنا اعترض أرنب برى طريقنا ، مما أدى إلى مناقشة حامية بين كل من الشيعة والسنة فى قافلتنا ، فيما يتعلق بأكل لحوم الأرانب البرية من الناحية الشرعية ، وأهل السنة ، وبخاصة أتباع المذهب الوهابى ، الذى يعتنقه النجديون جميعاً ، سواء أكانوا وهابيين أم لا ، لا يحرمون سوى لحم الخنزير[1] ؛ ولكن الشيعة لديهم قائمة من المحرمات ، تضم عدداً من الأشياء المحرمة مثل اليهود أنفسهم ، والأرانب البرية تدخل ضمن هذه المحرمات ، والواقع أن هؤلاء المتشيعين لا يتهمون بنى إسرائيل بإتباع هذا أو ذاك ، لأن أهل الشيعة يكرهون بنى إسرائيل هم وأهل السنة إلى أبعد حد ؛ والشيعة يقولون أنهم يتصرفون على هذه النحو ، اتباعاً لموروثات محددة ، وصلتهم من أشباه الإله ، من أمثال على ، والحسين ، وزين العابدين ، وجعفر ، ومن شابههم ، والمؤسسة على قياسات تافهة أو أفكار صوفية متناقضة ومغلوطة ، وعلى ذلك ، فهم يحرمون أكل لحوم الأرانب البرية ، لسبب خاص ، يصل من الغباء حداً ، ومن المغالطة حداً يصعب معهما أن أورده ضمن هذا الكتاب ، وأنا لست مندهشاً ، من المدى الذى وصلت إليه وحدة الوجود[2] والمذهب المادى[3] بين الشيعة ، سواء من خلال البابيه Babism ، أو من خلال مسالك أخرى حالياً أو فى الأزمان السابقة ؛ والمذهب الشيعى الحالى مليئ بالسخافات النظرية المنافية للعقل ، برغم أنه يحتوى ، من حين لآخر ، على بعض الحقائق الراقية والنبيلة ، ولكنهم يشوهون هذه الحقائق ويطمسونها بقشرة من الحماقات الإيرانية ، ووصلت هذه المناقشة الحامية إلى ذروتها ، ولم يصل بها إلى الحسم سوى المقولة التى تقول : "اصطد أرنبك البرى أولاً " ؛ ولكن تخلف النائب عن تحقيق هذه المقولة ، ترك الأمور معلقة على المستوى النظرى فقط ، مما أشعرنى أنا وبركات بالأسف والندم ، ذلك الشعور الذى شاركنا فيه جميع النجديين الذين كانوا يرافقوننا فى القافلة .

(١) هذا حصر غير صحيح لأن المحرمات كثيرة وليست قاصرة على لحم الخنزير كما ذكر المؤلف وقد فصلت آية سورة المائدة بعض هذه المحرمات يقول تعالى "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النُصب ... إلخ الآية ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) وحدة الوجود : المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيئ واحد وبأن الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية ، (المترجم) .

(٣) المذهب المادى : نظرية تقول أن المادة هى الحقيقة الوحيدة ، وبأن الوجود ومظاهرة وعملياته يمكن تفسيرها كمظاهر أو نتائج للمادة ، (المترجم) .

وبعد أن خرجنا من متاهة السنط الصخرية والشجيرات ، وصلنا قبل الظهر إلى سهل واسع وكانت مدينة الحولة Hoolah عن يميننا ، وهى مدينة كبيرة تعج بالحركة ؛ ذكرتنى أحجام أسوارها التى تشبه الأبراج بقلعة كنوى، لكن مع اختلاف فى الإنشاء ، فالبلدة هنا مبنية من الطوب اللبِّن ، مع قليل من الأحجار ، إضافة إلى أن هذه الأحجار غير مشذبه . ويقول الناس هنا : إن هذه المدينة تعد واحدة من أكثر مدن سدير ازدهارا ؛ ولعل قربها النسبى من كل من شقراء وطريق الوشم يساهمان فى هذا الازدهار ، وسكان مدينة الحولة ليسوا مجرد تجار نشطين ، وإنما هم فلاحون مجدّون ، يضاف إلى ذلك : إن الأراضى الريفية المحيطة بمدينة الحولة منزرعة ويفلحها الأهالى إلى مسافات بعيدة ، وقد تحسنت الحولة ، شأنها شأن القرى الأخرى ، المجاورة لها ، تحت الحكم الوهابى ، وذلك من منطلق سببين رئيسيين : أولهما توقع المنافسة والتصارع على الحدود ؛ وثانيهما ، زيادة أهمية المناطق الوسطى بشكل عام ، مما أدى إلى إحداث دفق فى كل من الثروة والتجارة ، وهذه المزايا معروفة فى كل أنحاء جبل طويق ، بما فى ذلك الأقاليم النجدية الأساسية الخمس وهى : سدير ، والوشم ، والعارض ، واليمامة ، والأفلاج ، بل أن وادى الدواسر يدخل أيضًا ضمن هؤلاء الخمسة والواقع أن نجد كانت فقيرة جداً ، وكانت مقسمة تقسيمًا مدمراً ، ومنعزلة عن العالم المحيط بها ، بل أنها كانت تجتاحها هجمات البدو المترحلين ، أو يستبد بها صغار الرؤساء ، كل ذلك كان يحدث منذ قرن مضى ، لدرجة أن مسألة إدخال أى شكل من أشكال التغيير ، استهدافًا لتحسين الأحوال ، كان ينتهى إلى الفشل ، ثم بعد ذلك إلى أسفل سافلين فى كل مناحى الحياة ، وترتبت على ذلك ، أن أصبحت الحكومة الوطنية المركزية ، القوية القادرة على المحافظة على النظام ، فى الداخل ، وسحب الثروة والقوة من المناطق الخارجية الأكثر ثراء ، أصبحت مثل هذه الحكومة مطلبًا ملحًا فى كل أنحاء نجد . ولعل القارئ يتخيل ، سويسرا بكل كنتوناتها الصخرية على سبيل المثال ، وقد أصبحت فجأة سيدة وحكومة مركزية لكل من إيطاليا فى الجنوب، وكل الاتحاد الألمانى ومقاطعات الراين فى الشمال، مع مثل هذا الوضع ، يحتمل ألا تستفيد ألمانيا وإيطاليا سوى بالقليل من مثل هذا العمل ؛ ولكن الشئ المؤكد هو أن المقاطعات السويسرية سوف تزداد ثروتها وأهميتها فترة من الزمن ، فى جميع الأحوال . وعلى نفس الشاكلة فإن مناطق الإحساء ، والقطيف ، والقصيم وغيرها من الأماكن الغنية سوف تعانى بحق من هذا الضم الذى فرض عليها بالقوة ، وبعبارة

مبتذلة أن هذه المناطق هي التي "ستدفع أجر الزمَّار" في حين أن نجد نفسها ستكون هي المستفيدة من خسائر هذه المناطق ، وتَسْمُنُ وتستفحل على شحوم هذه المناطق ، ولكن هيا بنا نعود إلى سياق رحلتنا .

كنا قد خلفنا وراءنا كثيراً من القرى والهجر الأخرى قليلة الأهمية ، منها القاصي ومنها الداني ، إلى ما قبل وصولنا بساعات قليلة إلى طريق الهضبة الجميل عبر تموجات الهضبة ، التي تصعد حيناً ، وتنحدر حيناً آخراً ، إلى أن وصلنا مدينة حريملاء عند غروب الشمس ، لنقضي فيها فترة المساء .

هذه المدينة ، مسقط رأس الشيخ الشهير محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس هذا المذهب الذي يطلق عليه اسمه ، والذي ينتشر حالياً في نصف الجزيرة العربية تقريباً ، هذه المدينة تشكل بويِّب ، أو مفتاح معقل وسط نجد الرئيسي ، الذي تحميه شقراء من ناحية الغرب ، والخرفة Kharfah من ناحية الجنوب ، وشِعْب وادي السُّلَيِّ Soley من ناحية الشرق ؛ وهذه المداخل الأربعة تحتل الداخل المؤدية إلى ما كان يسمى في الماضي بأسم وادي مسيلمه واصبح يسمى الآن وادي حنيفة ، الذي تقع العاصمة في متاهته العميقة ، والذي يعد بمثابة القلب من نجد ، وتقع حريملاء على خط الحدود بين العارض وسدير ، ولكنها تتبع سدير ، وحريملاء تسد نهاية الممر الضيق الذي يشبه القمع ، والذي كنا نسير فيه على امتداد نصف نهار بأكمله ؛ ومن حول حريملاء توجد مساحة واسعة تستغل في الزراعة المعتادة التي يمكن أن تقوم حول أية مدينة نجدية ، والاستحكامات الموجودة خارج المدينة ، يوحي موقعها ، إنها من النوع القوى ، ويصل عدد سكان حريملاء إلى حوالي عشرة آلاف نسمة ، والذي أدهشني عندما دخلنا حريملاء أول مرة ، هو منظر القلعة الكبيرة ، المقامة على أرض مرتفعة داخل مدينة حريملاء نفسها ، كما تكشف تلك القلعة من خلال توازنها المعماري عن علم دفاعي ومعماري غير عادي في هذه البلاد ، ولكن اندهاشي هذا قل عندما علمت أن هذه القلعة كانت من القلاع التي أمر إبراهيم باشا بإقامتها أيام الاحتلال المصري لـ - نجد بعد سقوط الدرعية ، وبرغم أن ابراهيم باشا ، كان لا يزال شاباً في ذلك الزمان ، إلا أن قريحته كانت خصبة ، إذ استطاع بثاقب فكرة أن يتخيل المنظومة التي بدأت تغطي ، في السنوات التي أعقبت ذلك ، كلا من سوريا وشمالي الجزيرة العربية ، بآثار هي من وحي عبقريته المدهشة ، ومهارته الفائقة التي مكنته من أن يختار لهذه المنشآت

الاستراتيجية المواقع الدقيقة والمثالية التى تستلزم الخضوع وتقف سداً منيعًا فى وجه الغزو ، ولا تزال هناك نقاط أفضلية أخرى تقف شاهدا على عظمة هذا الباشا ، برغم تفكيكها فى كل من حمص ، وبعالبك ، وفى أنتيوك Antioch ، وفى نبك Nebk ، وفى أماكن أخرى لا تحصى ولا تعد ، تشهد على موهبة المصرى التى شيدها من ناحية ، وعلى استهتار وحماقة كاملين من جانب ذلك العثمانى الذى أهمل هذه المنشآت وتركها معرضة للتحلل والدمار ، كانت قلعة حريملاء أولى المواقع القوية التى أنشأها إبراهيم باشا ، وشاهدتها فى نجد ، ولكننا بدأنا بعد ذلك ، نشاهد المزيد من هذه القلاع والمنشآت على طريق سيرنا ؛ وقيل لى أيضًا أن المزيد من هذه المنشآت ، التى أقامها إبراهيم باشا ، موجودة فى الوشم وعلى الحدود الخارجية لمنطقة القصيم ، ولكن خط سيرى لم يسمح لى بزيارة تلك المنشآت .

كان بطاح Betah حاكمًا لمدينة حريملاء ، وهو واحد من أبناء حريملاء الوهابيين المتشددين ، قلبًا وقالبًا ، لمصالح أسرة آل سعود ، كان بطاح من أصل طيب ، ولم يكن يفتقر إلى التعليم الذى كان سائداً فى بلده وفى مذهبه، واستقبلنا بطاح بحفاوة بالغة ، وسمح لنا على الفور بدخول منزلة الفسيح داخل القلعة ، ولكن المساء كان حاراً ، ويكاد يكون حاراً جداً ، ولذلك أعربنا جميعاً ، بعد بضع دقائق من تناول القهوة ، عن رغبتنا فى الخروج إلى الهواء الطلق، وبناء على هذه الرغبة فُرِشَتْ السجاجيد ونظِّمت ، من فوقها ، المساند ، على سطح الطابق الثانى من المنزل ، الذى صعدنا إليه عن طريق درج مصنوع من الحجر ، قليل الإضاءة ، ويكفى لكسر أعناق أولئك الذين يتجرؤن على الهجوم على هذه القلعة أثناء الليل ، وعلى أحد جانبى السطح ، كان هناك طابق ثالث ، وكان المتراس (الدَّرْوَة) الذى سندنا عليه ظهورنا يطل على سوق مدينة حريملاء المركزى .

كان مضيفنا ، أحد أفراد حاشية الأمير عبد الله ولد الأمير فيصل ومن أصدقائه الشخصيين ، وهذا نقلا عن كلام بطاح نفسه ، وأنه ، أى بطاح ، رافق الأمير فى مالا يقل عن ثلاثين حملة عسكرية ، وقد حكى لنا بطاح ، كثيراً من الطرف والنكات عن شجاعة ، ولى العهد ، ولكنى احتفظ بهذه الطرف والنكات للفصل الذى سوف أكتبه عن أسرة آل – سعود ، كانت تدور بخلدى ، فى هذه اللحظة ، ذكرى ذلك الرجل غير

العادى ، الذى ولد فى هذا الركن من المعمورة ، وعاش ليمارس على مواطنيه نفوذاً مساوٍ لذلك النفوذ الذى كان يمارسه ، ابن بلده ، مسيلمه ، فى أزمان سابقة ، بل يكاد يكون مساوياً لسمية محمد .

ولد محمد بن عبد الوهاب ، مؤسس المذهب الذى يحمل اسمه ، فى مدينة حريملاء قبل منتصف القرن الماضى تقريباً ، ويمتد أصله النسبى ، "الذى تنـــاوله الكثـيرون ولا ينساه أحدٌ مطلقاً" إلى عشيرة المساليخ Mesaleekh القوية ، التى لا يزال الفرع البـدوى منهـا يتـجـول فى المناطق المجاورة للزبيـر وفى الشـمـال الغـربى من الخليج الفارسى ، وقد بدأ محمد بن عبد الوهاب ، حياته ، مثل كثير من النجديين ، تاجراً متجولاً ، وكانت رحلاته الأولى فى اتجاه البصرة وبغداد ، أما مسألة زيارته لكل من إيران ، والهند ، والقسطنطينية ، كما يقول بعض المؤلفين ، فهى غير مؤكدة فى من المصادر المحلية ، التى تعد المصدر الوحيد الذى تيسر لى وأنا أكتب عن هذا الرجل . وقد أوصلته التجارة إلى دمشق ، التى التقى فيها بعض المشايخ المتعلمين المتشددين جداً ، فى تلك المدينة ، حنابلة من أمثاله ، أو شافعية ، ولكنهما (الحنابلة والشافعية) كانوا يعارضون كلاً من التساهلات الشائعة التى كان يجيزها النقشبنديون ومفكروا الشمال الأحرار الآخرين، والأعمال الخرافية التى كان يمارسها الدراويش ، والفقراء Fakeera، والأوليـاء ، وكل الأشيـاء الأخرى التى أدخلها الفرس أو الأتراك إلى منطقة الشرق . كان عُمْرُ بن عبد الوهاب ، فى ذلك الوقت ، يزيد على ثلاثين عاماً ، وكان يتمتع بكامل حيويته البدنية وصفائه الذهنى ، وكانت تلك الحيوية وذلك الصفاء أكثر مما هو معتاد فى البشر العاديين ، زاد بن عبد الوهاب ، على عناد النجديين الشديد ، وشجاعتهم المثابرة ، أنه كانت لدية قدرة فريدة على التجديد والتعميم ؛ كانت عيناه فاحصتان ، وأذناه مصغيتان ، فقد شاهد الكثير وتأمل الكثير أيضاً ، ولكن الدروس التى تلقاها على أيدى المشايخ الدمشقيين ، ساعدته على أن يربط بين كل ذلك فى أفكار محددة ، كانت موجودة، من قبله ولكنها كانت متناثرة وغير منظمة ، هنا ، كان بن عبد الوهاب ، قد تعلم كيف يميز تمييزاً واضحاً بين عناصر الإسلام الأساسية والشوائب Admixtures الحديثة أو الطارئة ، وفى النهاية وجد محمد بن عبد الوهاب ، أنه بحوزته ذلك الذى كان بمثابة الرؤية الأساسية او نقطة البداية التى بدأ منها النبى (محمد) (ﷺ) وصحابته (الكرام) فى الحجاز قبل اثنى عشر جيلاً من الزمان .

ومسألة تقييم الفكر الأعمق والهدف الأعمق عند مؤسس هذا المذهب[1] على امتداد ما يزيد على ألف عام ، ومن خلال مظاهر الاستقامة المتداخلة فى ضوء البدع التى أصابتها بسبب الأحزاب والمعلقين ، بمرور الزمن ومن مختلف الأعراق ، هذه المسألة ليست بالأمر السهل ، كما أن هذه النظرة الجادة المصيفة لا يقوى عليها كل الناس ، إضافة إلى أن هذه النظرة الشاملة لا تتوفر لكل العقول والأذهان ، مثل هذا التقييم يحتاج إلى طاقة تحليلية واستنتاجيه غير عادية ، تتمتع بخاصية الحدس التى لا يتوفر إلا للقلة القليلة من الناس ، ذلك الحدس الذى يطلق عليه الناس اسم العبقرية فى كل علم من العلوم أو فن من الفنون ، وقوة الإرادة ، بل الجراءة نفسها ، فى هذا الصدد ، تعد أهم وأدعى من قوة الفكر نفسها ، وهذه الصفات كلها تجمعت فى محمد بن عبد الوهاب ، وإليه يرجع الفضل ، إن كان ذلك فضلاً ، فى اكتشاف المرتكز من بين أكوام الركام الإسلامى ، كما يرجع الفضل إليه أيضًا فى المخاطرة بصياغة ذلك المشروع الذى يحل محل هذا الركام ، وأن يَسْتَعْمِل المشروع ويوظفه لإعادة بناء ذلك النسيج المهترئ .

هذا المرتكز الأساسى ، هذا الفكر الرئيسى ، هذه الفكرة الأساسية ، التى يعد كل ما عداها مجرد استنتاج حتمى وضرورى منها ، تكمن فى العبارة ، التى يرددها الناس فى معظم الأحيان ، أكثر من فهمهم إياها ، وتقول : "لا إله إلا الله" ، التى نترجمها نحن بالعبارة التى نقول : "ليس هناك من إله غير الله" ، هذه الترجمة الحرفية أقل بكثير من النص العربى ، وغير كافية تماماً لنقل القوة التى لهذه العبارة على ألسنة العرب أو فى عقولهم .

العبارة التى تقول : "ليس هناك من إله غير الله" هى مجرد كلمات تساوى فى اللغة الإنجليزية نفى فكرة الألوهية إلا عن واحد فقط ، وهذا أحد معانى هذه العبارة فى اللغة العربية ، ولكنها تعنى أشياء أخرى أكثر من ذلك بكثير ، ومعنى عبارة : "لا إله إلا الله" لا ينصب فقط على إنكار التعددية ، سواء أكانت هذه التعددية فى طبيعة

(١) عبارة غير دقيقة لأن الإسلام ليس مذهبًا شخصيًا وإنما هو وحى إلهى ومنهج ربانى اكتملت معالمه فى القرآن الكريم الذى نزل به الأمين جبريل من عند الله ليبلغه للأمين محمد (ﷺ) فبلغه للأمة ، وشرح معالم القرآن وبينها من خلال سنته الشريعة ، فالإسلام دين إلهى وليس مذهبًا شخصيًا ، (د. حلمى عبد المنعم) .

أم شخص الكائن الأعلى ، ولا ينصب أيضًا على تأكيد وحدة أنه لم يلد ولم يولد ، بكل وحدانيته البسيطة التي تستعصى على الفهم ، وإنما تنطوى هذه العبارة العربية ، عند العرب ، على أن ذلك الكائن الأعلى هو الوسيلة الوحيدة ، والقوة الوحيدة ، والفعل الوحيد الموجود في كل أنحاء الكون ، وأنه (سبحانه وتعالى) لم يترك لبقية المخلوقات الأخرى ، سواء اكانت مادية أم روحية ، أو غريزية أو ذكية ، أو بدنيه أم معنوية ، شيئًا سوى السلبية التامة غير المشروطة[1] ، والتماثل في الحركة وفي الخضوع ، وفي العمل وفي المقدرة ، فالله هو القوة الوحيدة ، والمحرك الوحيد ، والحركة ، والقدرة ، وهو الفعل أيضًا ؛ وكل ماعدا ذلك هو مجرد قصور ذاتي وجمود ، مجرد أداتيه ، وذلك بدءًا من جبريل archangel إلى أصغر ذرة في الخلق ، ومن هنا ، فإن جملة "لا إله إلا الله" توجز منظومة ، أرجو أن يسمح لي القارئ أن أطلق عليها اسم وحدة وجود القوة ، أو وحدة وجود الفعل ، التي تعزى كلها لله (سبحانه وتعالى) ، الذي يختص بها كلها ، ويمارسها كلها ، والتي تعزى إليه هو وحده (سبحانه وتعالى) ، سواء أكانت حفظًا أم تدميرًا ، أو شرًا نسبيًا أم خيرًا نسبيًا ، وأنا أقول "نسبيًا" هنا ، نظرًا لأنه من الواضح أن اللاهوت ، الذي من هذا القبيل ، ليس فيه مكان للخير المطلق أو الشر المطلق ، أو الرشد أو الإسراف ؛ لأن كل شئ يصبح مقصورًا على الإرادة المطلقة للفاعل الأوحد : "هكذا أريد وعلى هذا النحو آمر فلتقف الإرادة بدلاً من العقل "Sic volo, Sic jubeo, stet pro ratione voluntas" ؛ كما يَشَاءُ طبقًا للتعبير العربي الذي يتردد مرارًا في القرآن .

ولأن الله سامٍ وأبديٌ ، ولأنه مختلف ، عن سائر المخلوقات ، التي هي أمامه سواء على مستوى واحد من الأداتية والجمود، فهو أحد في كلية القدرة وكلية الوجود، التي لا تقر حكمًا ، أو معيارًا، أوْحداً، غير إرادته هو (سبحانه وتعالى) الوحيدة والمطلقة ، وهو (سبحانه وتعالى) لا يوصل شيئًا لمخلوقاته ، لأن قوتهم وعملهم يظلان بيده هو (سبحانه وتعالى) وحده ، ومن ثم فهو لا ينتظر منهم شيئًا ؛ ومخلوقاته مهما كانت ، فإنها في الله وبالله ، ومن أجل الله وحده ، ثانيًا ، لا سيادة ولا تميز ، ولا تفضيل لمخلوق على مخلوق آخر ، في المساواة التامة بينهم في عبوديتهم وخضوعهم الكامل ؛

(١) هذه عبارة خاطئة وربما التقطها المؤلف من خلال قراءاته عن مذهب الجبرية ، وهو مذهب مخالف لتوجيهات الإسلام الصحيح حيث أن الله (سبحانه وتعالى) كلف الإنسان وجعل له اختيارًا وإرادة على الفعل ويحاسبه على عمله وأمره بالأخذ في الأسباب المشروعة ولا تناف بين القدرة المطلقة لله (سبحانه وتعالى) وبين تكليف العبد في ضوء الاختيار والإرادة البشرية التي هي منحة الله للعباد ، (د. حلمي عبد المنعم) .

الكل عبارة عن أدوات متساوية القوة الوحيدة التي تستخدمهم في المحق أو الانتفاع ، في الصواب أو الخطأ ، في التكريم أو الخزي ، في السعادة أو الشقاء ، بغض النظر عن صلاحيتهم الفردية وعن ابتعادهم عن الصواب ، أو المنافع ، لأنه (سبحانه وتعالى) هذه هي مشيئته وبمشيئته .

قد يظن الإنسان ، للوهلة الأولى ، أن هذا الخالق الأوحد الهائل ، أن هذه القوة المطلقة غير المحددة ، يمكن أن يكون فوق أي شئ يكون من قبيل الأهواء ، أو الرغائب أو الميول ، ولكن الحال ليس كذلك ، لأن الله ، لدية فيما يتعلق بمخلوقاته ، شعور واحد ومصدر واحد للحدث ، ألا وهو غيرته (سبحانه وتعالى) عليهم ، خشية أن يعزوا لأنفسهم شيئًا من خصوصياته هو (سبحانه وتعالى) ، وبذلك يتعدون تدرجيًا على ملكه ، ولذا ، فإن العقاب دوما عند الله أكثر من الثواب[1] ، فهو ينزل الألم أكثر من اللذة ، وينزل الدمار أكثر من العمار . إنها مشيئته أن يجعل مخلوقاته تحس دومًا أنها ليست سوى عبيدًا له ، أدواته ، بل وأدواته الحقيرة أيضا ، وبذلك يقرون بوحدانيته ، ويعلمون أن قوته فوق قوتهم ، ومكره أكبر من مكرهم ، وإن مشيئته فوق مشيئتهم ، وأن تعاليه فوق تعاليهم ؛ أو بالأحرى ، ليس هناك قوة ، أو مشيئة أو تعالٍ ، سوى قوة الله ، ومشيئته وتعاليه .

ولكن الله ، عقيم في عليائه ، لا يحب ولا يتمتع بشئ سوى قضائه هو ، بلا ولد أو شريك ، أو صاحب ، وعقمه في ذاته لا يقل عن عقمه مع مخلوقاته ، وعقمه وذاته الفريدة ، هي السبب وهي حكم مشيئته العام اللامبالي فيما حولنا ، والفكرة الأولى هي مفتاح اللحن بكاملة ، كما أن فكرة الإله الرئيسية تسرى في المنظومة بكاملها وتعدلها ، كما تسرى أيضًا في العقيدة التي تتمحور في الذات الإلهية .

هذه الفكرة التي أوردتها عن الألوهية ، برغم أنها قد تبدو وحشية وتجديفيه ، هي بالضبط وحرفيًا تلك الفكرة التي ينقلها القرآن أو يود أن ينقلها؛ وأنا آخذ هذه الفكرة ، هنا ، قضية مسلم بها ، وهذه الفكرة صحيحة ، ولكن هؤلاء الذين لم يدرسوا النص العربي ويتمعنون فيه ، ويتأملونه يترددون في التسليم بهذه الفكرة (نظرًا لأن القراءة العابرة للترجمة لا تعد كافية ولا تفي بالمطلوب) ، والواقع أنني درست بكل ما وسعني

(١) عبارة غير صحيحة لأن رحمة الله سبقت غضبه ورحمته وسعت كل شئ وهو أرحم بعباده وأشفق عليهم من الأم بوالدها ، وخيره على العباد ومدده للخلق لا ينقطع لحظة فهو كما وصف نفسه "الله لطيف بعباده" وهو(سبحانه وتعالى) "وسع كل شئ رحمة وعلمًا ، (د. حلمى عبد المنعم) .

الجهد عبارات الجمل السابقة ، وكل لمسة من لمسات هذه الصورة الكريهة ، كلمة بكلمة أو بالأحرى معنى بمعنى ، من واقع "القرآن" ، الذى يعد مرآة صادقة لذهن وأفق صاحبه[1] .

ولسان الموروث المعاصر يؤيد تمامًا أن ذلك كان ، في واقع الأمر ، هو ذهن محمد (سبحانه وتعالى) وفكره . ومن هذا الموروث لدينا الكثير من النماذج الأصيلة منها : صحيح البخارى ، تعليقات البيضاوى[2] ، ومشكاة المصابيح ، فضلاً عن خمسين كتابًا آخرًا ، كلها تقدم براهين كافية عن هذه النقطة ، ولكن فيما يتعلق بالقراء ، الذين لم يتعمقوا في العقيدة والتعاليم الإسلامية أو لم يغوصوا فيها ، فأنا سوف انضم إلى عينه معروفة لكثير من المستشرقين ، وتبلغ من التميز حدًا يصعب معه - وهذا تكرار قلته مرارًا - الفصل بين هذه الجماعية وبين إعجابها بالوهابيين فى نجد وتأييدها لهم .

وبناء على ما تقدم ، فإن الله - هكذا يقول (الأثر) ، كان من الأفضل أن أقول ، هذا التألة Blasphemy - عندما قرر أن يخلق الجنس البشرى، أخذ قبضة من الطين ، وهى التى تكوَّن منها الجنس البشرى بكامله ، والتى سيعود إليها ؛ وبعد أن قسم كتلة الطين إلى قسمين متساويين ، ألقى بإحداهما فى جهنم قائلاً : "هؤلاء في النار ، ولا أبالى" ؛ ورفع القسم الثانى فى السماء ، وأردف قائلاً : "هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى"[3] ؛

التعليق سيكون هنا بلا مغزى وسطحى ؛ ولكننا هنا أمام فكرة القضاء والقدر الدقيقة ، أو ما قبل - الملعونية ، إن أردنا أن نسميها باسمها الصحيح ، التى تعتنقها مدرسة القرآن وتعلمها الناس ، من هنا تصبح الجنة والنار منفصلتين تمامًا عن الحب والكراهية من جانب الإله ، وعن الحسنات والسيئات ، وعن السلوك الخيِّر والسلوك

(١) رغم إدعاء المؤلف بأنه درس العقيدة من خلال القرآن الكريم إلا أنه لم يستوعبها جيداً ولم يقف على كامل أبعادها الصحيحة كما صورها القرآن الكريم ، وما زالت فكرته عن الله يشوبها الكثير من الخلط ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) ليس البيضاوى فى تعليقاته من مراجع السنة النبوية وكان بالأولى من المؤلف أن يذكر مرجعية السنة النبوية وهى الكتب الستة المعتمدة البخارى ومسلم والترمزى والنسائى وأبى داود وابن ماجة وغيرها من كتب السنة ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(١) صحة الحديث : أن الله تعالى خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى ، قيل يا رسول الله على ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر ، (المترجم) .

الشرير ، من ناحية المخلوق ؛ وطبقًا للنظرية المقابلة[١] ، وهى على حق ، فإنه نظراً لأن جميع الأعمال التى نسميها خيراً ، أو التى نسميها شراً ، أو الصواب أو الخطأ ، أو الأعمال الرذيلة أو الفاضلة ، هى فى جوهرها كلها واحدة ومن أصل واحد ، وبالتالى فهى لا تستحق الثناء والملامة ، أو الثواب والعقاب ، إلا بعد أن تكتسب تلك القيمة العرفية التى تعزوها إرادته (سبحانه وتعالى) كلية التنظيم ، إلى هذه الأعمال أو تنسبها إليها ، وخلاصة القول ، إن الله (سبحانه وتعالى) يحرق فرداً إلى أبد الأبدين وسط سلاسل ساخنة حتى الاحمرار ، وبحار من النيران المنصهرة ، ويجلس آخراً بين أربعين من الحور العين ليتمتع بهن ، لأنه (سبحانه وتعالى) يشاء ذلك .

من هنا يصبح البشر جميعًا على مستوى واحد ، حاليًا وفيما بعد ، فى حقيقتهم البدنية ، والاجتماعية ، والخلقية – مستوى العبيد لسيد أوحد فقط ، مستوى أدوات لـ – فاعل أوحد، ولكن عملية المساواة لا تقف عند هذا الحد: فالحيوان ، والطير ، والسمك ، والحشرات ، كلها تشترك فى نفس التكريم والتحقير ؛ وهى ، مثل الإنسان ، كلها عبيد لله آلات ذاتية لإرادته (سبحانه وتعالى) ؛ ومن ثم فإن محمداً (ﷺ) يصبح منطقيًا ومقنعًا عندما يقول لأتباعه ، من خلال القرآن ، إن الطير ، والحيوان ، وما إلى ذلك ، هم "أمم" مثلهم ، وأنه لا توجد تفرقة أو تمييز بينهم وبين الجنس البشرى ، اللهم باستثناء ذلك التباين النهائى الذى يخضع لمشيئته والذى قدّره ، وفعله ذلك "الملك ، المتعال ، القوى ، الجبار" إلخ ، أسماء الله (الحسنى) الواردة فى القرآن[٢] .

وعلى كل حال ، إذا كان القارئ لا يعجبه ذلك الربط ، فمن حقه أن يعزّى نفسه ، بأن يتأمل ، من ناحية أخرى ، الملائكة كبارهم وصغارهم ، وكذلك الجن والشياطين ، وكذلك المخلوقات الروحية الأخرى التى يتصور وجودها ، وهى على المستوى نفسه

(١) هذا خلط من المؤلف وعدم فهم دقيق للعقيدة الإسلامية الصحيحة وقد خلط المؤلف بين العلم الإلهى والأزلى بحقيقة الأشياء والعباد وبين تكليف البشر فى ضوء ما منحهم الله من قدرة وعلم وإرادة يقول تعالى "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها" والثواب والعقاب ليس أمرًا عشوائيًا وإنما كما ذكر الله "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" فالثواب والعقاب مرتبط بنوع العمل الإنسانى ، (حلمى عبد المنعم) .

(٢) ليس بين الإنسان والحيوان فرق فى الناموس الإلهى من ناحية الخلق ، فهو خلق الأمم وأعطى لكل شئ خلق قانون حياته كما قال سبحانه "الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى" لكن هناك فرق بين وظائف الحيوان ووظائف البشر فهو الجنس الذى حمل أمانة التكليف الإلهى ، (حلمى عبد المنعم) .

أيضًا (أمام الله) ؛ وأن القارئ نفسه ، إذا لم يكن أفضل من جمل من الجمال ، فهو ليس أقل من جبريل أو أى ملك آخر ، وهنا ، تصبح "لا إله إلا الله" فوق الجميع وأعلا من الجميع .

والطبيعة البشرية قد تلام فى بعض الأحيان لتقلبها ، ولولا هذا التقلب نفسه ، لأصبحت الطبيعة البشرية تستحق اللوم فى معظم الأحيان ، وأفضل البشر متقلبين ، وأخس البشر لا يقلون تقلبًا ؛ وهذا هو الذى يثبِّتُ الخير ويجعله باقيًا ، وهذا هو أيضًا الذى يجعل الشر محطًا للعفو والصفح .

ما الذى يبقى الروح صادقة تماماً

مع ذلك المثل (الأعلى) الذى يضربه ؟

ولم يتبع أحد من البشر نظرية (مذهب) محمد بن عبد الوهاب ، علمًا بأنها نظرية جيدة ؛ والسبب فى ذلك ، ان نظريته رغم امتيازها ، كانت لا تزال فى طور النظرية[1] ، ولا تزال بحاجة إلى إجازتها من الظروف المحيطة بها؛ بل الأكثر من ذلك، أن أحدًا لم يكن على استعداد لا تبـاع نظـرية تتفق تمامًا مع نظـرية محمد بن عبد الوهاب ؛ وهذه الانحرافات المذهبية هى ، بشكل عام ، التى انقذت هذه النظرية من السخافات ، وهذه الملاحظة نفسها تنطبق على كل من الخطأ والشر ؛ والخطـأ المطلق لا يقل استحالة عن الشر المطلق والحرمان من المزايا الدينية ، والفكر والأخلاق قد يضيعان ، إلا أنهما لابد أن تكون لهما فترات مشرقة ، أو إن شئت فقل بعض السمات والملامح والخصائص التى يمكن استعادتها . من هنا قد يفهم القارئ ، أننى حاولت ، من خلال الخطة التى أشرت إليها أنفا ، والتى تتبعتها فى نظرية محمد (ﷺ) كما وردت فى القرآن ، توصيل الفكرة الرئيسية ، تصوير السمات المميزة ، او تحليل المكونات الضرورية والنهائية ، دون أن أضع فى اعتبارى الإضافات الصحية ولكن غير المتجانسة ، ولمسات النعم الإلهية غير القياسية والشاذة ، هذه النعم موجودة بلا أدنى شك فى القرآن نفسه ، بل أن بعضها أيضًا مسجل فى الأثر الصحيح ؛) هناك تناقضات مفرحة فى المواقع التى يتفسخ البنى فيها إلى بشر ؛ وينسى القرآن نفسه ،

(١) إن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حركة إصلاحية وليست مذهبًا مبتكرًا فهى عودة بالإسلام إلى متابعة الصافية من الكتاب والسنة ، وإزالة كل ما علق به من بدع وخرافات ألصقها الناس بالتوحيد ، وهى فى جملتها متجهة إلى إحياء الإسلام الصحيح كما كان على عهد النبى (ﷺ) وأصحابه الكرام ، وليست نظرية أو مذهباً شخصياً أبتكره الشيخ من عند نفسه – (د. حلمى عبد المنعم) .

للحظة ، ليصبح فيها معقولاً وإنسانيًا ، ولكن كل ذلك ، من قبيل الاستثناءات الشاذه ، ويمكن أن يقدم في إطار الاعتراض على القرآن ومؤلِّفه[1])، مثلما يحدث عندما تعثر على بيت ضعيف في اشعار شكسبير تحكم بمقتضاه على أن شكسبير ليس بشاعر ، أو عندما تعثر عند فولتير على عبارة من عبارات الورع ، فتحاكمه بتهمة المسيحية . "والفانى لا يدوم" ؛ "Nemo mortalium omnibus horis," وهذا هو كل ما فى الأمر .

إغفال هذا التمييز هو الذى دفع بعض المدافعين عن الدين إلى تأبين محمد (ﷺ) والثناء عليه ، ذلك الثناء الذى كان محمد أول من سيرفضه ؛ لو قدِّر له أن يسمعه ؛ ذلك الثناء والتأبين الذى يحّول "رسول الله" إلى خَيِّر محب للبشر ، ويحوّل القرآن إلى بشارة ، وخدمة لهذا الغرض كان يجرى ، فى بعض الأحيان ، انتزاع جمل بعينها ، من القرآن ، على اعتبار أنها معايير القرآن كله ، كما كان يجرى أيضاً إبراز المتناقضات باعتبارها المغزى العام أو الفحوى الرئيسية لحياة الرسول وكتاباته . وأنا لا أجد أى عجب فى ذلك : "إذا بوسع الشيطان أن يقتبس من العهد الجديد لخدمه أغراضه" ، كما أن الملائكة بوسعهم أن يقتبسوا من القرآن ما ينفعهم ، ولكن البشر العاديين ، يحسنون عندما يأخذون الأمور على علاتها ، ويعطون كل أمر حقه وفقًا لما شاءه الله لهذا الأمر ، وليس وفقًا لما يَشَاؤُهُ هم لهذا الأمر ، وبذلك يمكن أن يكون هناك الكثير الذى يمكن أن يلتقى ، عند منتصف الطريق ، طائفة كبيرة من الاعتراضات ، التى أعتبرها ، جيدة العرض ولكن واهية الأساس . هيا بنا نعود مرة أخرى إلى سياق رحلتنا .

ومنظومة الأخلاق ، أو الحكم ، هى الأحكام الاجتماعية أو التنظيمات السياسية ، وكذلك الحياة وأساليبها القائمة على الأسس أو المبادئ المحددة فى القرآن ، كلها أمور لا تقبل الجدل أو النقاش أو المزايدة . وهناك مثل عربى(*) يصدق فى كل من الدين والحب ، يقول : "كلٌ ميسَّرٌ لما خلقَ له" ؛ والتاريخ يؤكد هذا المعيار وهذه الحكمة ؛

(١) هذا إتهام خطير وعدم فهم للإسلام ولرسالة النبى (ﷺ) ، فالنبى لم ينس القرآن ولا للحظة "سنقرئك فلا تنس" والنبى هو بشر رسول ، وليس ملكًا ، وليس له دخل فى القرآن فليس هو مؤلفه كما يدعى المؤلف ، وإنما القرآن كلام الله ليس فيه حرف واحد من قبل الرسول يقول تعالى " ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين" ويقول تعالى "وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين" ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(*) هذا ليس مثلاً عربيًا وإنما هو نص حديث نبوى "اعملوا فكل ميسر لما خلق له ... إلخ ، (د. حلمى عبد المنعم) .

والأيام الخمسون التى قضيتها فى الرياض ، سوف توضح فى فصول الكتاب التالية ، حال هذه الأرض التى سادت فيها هذه المعتقدات على امتداد قرن من الزمان فى ظل وحدة فكر وهدف نجدية لم تنفصم عراها ، تعززت بوضع بلادهم المنعزل ، والشجرة تعرف بثمارها ؛ وإذا كان أحد من القـراء - برغم أنى أتردد فى هذه الفـرضية - لا يزال يشعر بالتردد فيما بين التسليم بالقرآن ورفضه ، فإن نتائجه العملية وآثاره فى حياة العاصمة الوهابية ، هى خير مُعين لمثل هذا القارئ على أن يحسم أمره .

كل ما يهمنا الآن ، هو أن هذه هى الفكرة السائدة هنا ، الشكل الرئيسى ، أو إن شئت فقل الفكرة الرئيسية أو الفكرة الأم ، مرتكز الإسلام ، كما ارتآه محمد (ﷺ) وكما فهمه الوهابيون ، أما فيما يتعلق بالمعتقدات والمدارس التى جاءت بعد ذلك ، مثل إدخال الإرادة الحرة حينًا ، والمنفعة حينا آخر ، وإدخال المؤسسات الكهنوتية حينا ثالثًا ، وتبادل الاعتماد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، واللجوء إلى الشفعاء والوسطاء ، الموتى منهم والأحياء ، واختيار الأماكن المقدسة ، وتعظيم الأولياء والقبور ، وتأطير أخوانيات الزهّاد ، والجمعيات الصوفية ، فقد راح محمد بن عبد الوهاب ينظر إليها ، منذ ذلك الحين فصاعداً ، من منظوره الشخصى لها باعتبارها بدعًا ، وفساداً ، وتشويهًا للرؤية العظيمة البسيطة التى قوامها حاكم مطلق أوحد ، على كتلة واحدة متساوية من العبيد المتساوين الذين لا يتميز بعضهم على بعض .

وقد جاء استنتاج محمد بن عبد الوهاب هذا منطقيًا للغاية ، إذ كيف يترك المطلق ، فى واقع الأمر ، مجالاً للشفعاء ، او كيف يوافق ، من لم يكن له كفواً أحد ، على كهنوت من البشر يربط المخلوق بالخالق ؟ ما هى الإرادة الحرة التى يمكن أن تجد لنفسها مكانًا فى مخلوق آلى سلبى ؟ وما هو المغزى الذى يمكن أن يعلق على الممارسات التزهديه والأعمال الطيبة ، فى الوقت الذى يعلن فيه رب هذا الكون وحاكمه أنه (سبحانه وتعالى) لا يبالى بما يفعله عباده ، أو بما شاءه (سبحانه وتعالى) لهم ؟ افتراض الطهارة أو الورع أو التميز فى مخلوق من المخلوقات ، ليس سوى افتئات على حقوق الخالق ؛ وأنه لن تكون هناك جدوى للمكانة أو الجاه حيث يتساوى الحيوان وكبير الملائكة (جبريل)[1] ،

(١) هذا خلط من المؤلف بين العلم الإلهى والإرادة والمشيئة الإلهية وبين طبيعة الخلق وتكليف الإنسان وفق ما أودع فيه من قدرة وعلم وإرادة وقدره على الاختيار بين البديلات وبين الخير والشر وأنه مسئول عن فعله وتصرفه ، والعلم الإلهى صفة إنكشاف وليس صفة تأثير - كما يقول العلماء ، (د. حلمى عبد المنعم) .

والجنة والنار ، أمام وبدون الأوحد الثابت العَلِيّ ، كان بن عبد الوهاب يعرف جيداً أن ذلك كان فكر محمد (ﷺ) وتصرفه كلما كانت تواجهه تلك الانحرافات الدينية التجديفيه ؛ وتوصل بن عبد الوهاب إلى استنتاج عادل جداً مؤداه أنه يتعين عليه أن ينظر إلى فساد وتفشيه الأزمان اللاحقة نفس هذه النظرة البغيضة ويعاملها بنفس المعالجة الصارمة .

ولكن إذا كانت النتيجة النظرية أمراً لا مفر منه ، فإن التطبيق العملي لم يكن اقل وضوحاً . واعتباراً من ذلك الحين فصاعدا ، راح المصلح الوهابي يسير على الخط نفسه ، الذى كان ينتهج حياة محمد (ﷺ) مساراً له ، وخط أولئك ، الذين يمكن ، بحكم علاقتهم الشخصية والحميمة ، أن يكونوا كلًا واحداً مع النبى (ﷺ) نفسه ، كانت فترة الصحابة بمثابة الحد الذى لا يمكن تخطيه فيما يتعلق بما يسمح به الإسلام ويقره ؛ أما كل ما جاء بعد تلك الفترة فهو متنافر ومتضارب ومعاد للإسلام[1] ، وبشجاعة تليق بهذه القضية الكبيرة ، إن لم تكن قضية عادلة ، قرر محمد بن عبد الوهاب أن يكرس بقية حياته لاستعادة صورة الإسلام الأولى ، إسلام محمد (ﷺ) ، إسلام الصحابة ، الذى هو إسلامه الآن ؛ اقتناعـًا منه أن ذلك الإسلام فقط ، هو الإسلام الصحيح ، الإسلام الحقيقى ، المسار المحدد من قبل السماء ، وأن كل ما عدا ذلك هو مجرد إضافات بشرية ، أو بعبارة فرانسيس بيكون أصنام الكهف .

وبرغم أن محمد بن عبد الوهاب، كان مخطئًا بل مخطئًا تمامًا فى نقطة البداية ، إلا أنه كان محقًا ومصيبًا فى كل ماعدا ذلك ؛ لقد كان نافذ البصر والبصيرة فى مدركاته الحسية ، وعادلًا ومحقًا فى استنتاجاته ، وأمينا فى هدفه ، والانسجام مع النفس ، برغم أنه لا يكون فاضلاً فى كل الأحوال ، إلا أنه يتسم ، على أقل تقدير ، بالشرف والأمانة ؛ وبغض النظر عن هوية الدين قد يعتنقه أى مخلوق من المخلوقات البشرية، فمن الجدير بهذا المخلوق أن يتمسك بحقائق هذا الدين، ثم يعمل بمقتضاها ، بدلًا من أن يرتضى لنفسه عقيدة فاسدة وممارسة دينية غير صحيحة ، وأتباع محمد (ﷺ) ، عندما يكونون كذلك ، لا يستحقون سوى الثناء والامتداح وهم ينشدون دين محمد (ﷺ) الحقيقى ويتّبعونه .

(١) هذه العبارة المسطحة والأحكام المطلقة تخالف البحث العلمى الرصين ، فتاريخ الإسلام وحضارته زاخر بعصور مشرقة ومتمسكة بالإسلام الصحيح أمثال عهد عمر بن عبد العزيز الأموى وغيره وليس صحيحاً ما يقوله المؤلف أن كل شئ بعد عصر الصحابة هو مخالف ومضاد ومعاد للإسلام . (د. حلمى عبد المنعم) .

والمكانة التي يحتلها محمد بن عبد الوهاب في الدين الإسلامي ، بل الطابع الصحيح للإسلام نفسه ، سوف يتضحان أكثر وأكثر أمام القراء ، إذا ما سمحوا لي برغم أن ذلك سيكون على حساب الإطالة في هذا الاستطراد ، أن أشير بطريقة عابرة ، إلى فكرة غير صحيحة ، وردت ضمن تعبير غير صحيح أيضًا ، يجرى استعماله ، في معظم الأحيان ، في هذا الموضوع . هناك كثير من المؤلفين ، الذين يطلقون على هذه المرحلة من الإسلام ، عندما يكتبون عنها ، اسم "الحَرْفِيَّة المحمدية" Mahometan protestantism ، ويقارنون هذه المرحلة بالحركة الدينية التي حدثت في أوربا خلال القرن السادس عشر ، والتي يطلق عليها اسم حركة "الإصلاح" والواقع أن المغزى المتبادل بين الإسلام والوهابية من ناحية ، والمغزى المتبادل بين المسيحية بصفة عامة والبروتستنتية العقدية (إن جاز لي أن استعمل هذا المصطلح من أجل المقارنة) ، لا سبيل لإيجاد أي نوع من التوازي أو التماثل بينهما ، يضاف إلى ذلك أن هذا القياس الطفيف هو ضرب من الوهم والخيال والخداع ؛ وتفسير ذلك ليس بالأمر الصعب أو العسير .

والمصلح الوهابي هو الذي وضع تصميم إعادة عقرب ساعة الإسلام إلى نقطة بدايته ؛ ومن هنا يكون قد أبلى بلاء حسنا ، والسبب في ذلك ، أن هذا العقرب قُصِد له أن يكون ثابتًا منذ البداية ، والإسلام في جوهرة ثابت ومستقر ، وصمم ليبقى هكذا ، (ولما كان الإسلام عقيم مثل الإهه ، وبلا حياة مثل بادئه الأول (سبحانه وتعالى) وباقية original الأعلا في كل ما يخص تكوين الحياة الحقيقية– لأن الحياة هي المحبة، والمشاركة ، والتقدم ، وألوهية القرآن ليس فيها شيئ من ذلك – فإنه يتبرأ من كل تغيير ، ومن كل تقدم ، ومن كل تطور[1]) ، وليسمح لي القارئ أن اقتبس هنا ، كلمات اللورد هوتون Houghton التي تقول : "الكتاب المدوَّن"[2] عندهم بمثابة "يد الميت" ، متصلبة وبلا حراك ؛ بغض النظر عن نوعية مذاقات الحيوية التي يحكم عليها الإسلام الصحيح بأنها من قبيل الكفر والمروق .

(١) ما بين القوسين كلام لا ينطق به إلا جاهل بطبيعة الإسلام وبحقيقة العقيدة الصحيحة ، فالإسلام ثابت في مبادئه الكلية ولكنه يقبل الاجتهاد في فروعه التشريعية ، وهو يدفع إلى مواكبة العصر والتفاعل مع الأحداث ، ويدعو إلى التطور وعدم الانعزال عن رتم الحياة بكل مستحدثاتها فليس الإسلام عقيمًا ولا جامدًا ولكنه دين يتلاءم مع كل العصور والأجيال لأنه دين الله لكل الأزمان والأجيال والأوطان ، (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) المقصود بالكتاب في هذه العبارة هو القرآن الكريم ، (المترجم) .

ولكن المسيحية بالإله الحي والمحب ، الذي يلِدُ ويولدُ ، والذي هو الروح ، والحركة، بل الأكثر من ذلك ، خالق ومخلوق، والصانع والمصنوع ، كل ذلك في واحد ، ألوهية توصِّلُ نفسها عن طريق تدرج مستمر ، والتي تتدرج من التوحد الحميم تماماً إلى أقل وأوهى شكل من أشكال الاشعاع ، برغم أن كل ما تفعله هو من أجل المحبة وتحكمه المحبة ؛ الإله في المسيحية واحد لا يدعو مخلوقاته عبيداً ، أو خدماً ، وإنما أصدقاء ، بل أبناء ، بل آلهة وخلاصة القول ، إن الدين الذي يقول في تقريره وسره النهائيين : "أن الإله في الإنسان يكون واحداً ومع الإنسان يكون إله"[1] ، لابد أن يكون بالضرورة دين حيوية ، دين تقدم ، ودين تطور ، والتناقض بين الإسلام والمسيحية هو تناقض بين الحركة والسكون ، بين المشاركة والعقم ، بين التطور والجدب ، بين الحياة والتحجر ، وأول مبدأ حيوي ، من مبادئ مولد هذه الإله ، وأول روح منشطة في مولد هذا الإله أيضاً ، هو أن يبقى هذا الإله كما هو إلى الأبد ، ولكن الشكل الخارجي يجب أن يتغير مع تغير الأيام ، وأن أفرع النُّسْغ[2] الجديدة والخضرة لابد أن تخرج إلى العلن لتكون شاهداً على الحيوية الداخلية ، وإلا ذوت الكرمة Vine وماتت الأغصان Branches ، وأنا لا أنوي هنا – لأن المجال لا يسمح بذلك في هذا المقام – الدخول إلى متاهة الجدل ، أو مناقشة احتمالية نجاح أو عدم نجاح أية محاولة عقدية استعادة مرحلة دينية سابقة من دين بعينه ، وإنما أقول هنا إن وجود الحياة يفترض وجود الحركة والنماء ، والحركة والنماء ينطويان على التغيير ؛ وأن مسألة انتقاد كائن حي لأنه ينمو ويتغير تنافي المنطق والعقل ؛ وأن مسألة إعاقة الكائن الحي عن النمو والتغيير، عن طريق تقييده ببطاقة مدونة، أو ربطة بإطار بروكرستيزي[3] Procrustean، تتساوى مع قتل هذا الكائن الحي تماماً ، وهنا تصبح المسيحية حية ، ولأنها حية لابد أن تنمو ،

(١) إن المؤلف يعبر عن المسيحية الفلسفية أو بعبارة أخرى مسيحية بولس الفلسفية وليس مسيحية عيسى الصحيحة ففكرة توالد الإله والواحد في كثرة والكثرة في واحد - كما يقوله الأقنوم المسيحي (باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد) إن هذه الأفكار في المسيحية لا تعبر عن الإله الحقيقي وهو الله سبحانه وإنما هي خليط من الوثنية الرومانية ومن الفلسفة الهلينية وتعاليم بولس المخلوطة منها ، (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) النسغ : سائل يجري في أوعية النبات ، (المترجم) .

(٣) منسوب إلى بروكرستيز أو فراشه (وكان بروكرستيز هذا لصاً إغريقياً خرافياً يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكي يجعل طولها منسجماً مع فراشه) والمقصود هنا ميال إلى أحداث التناسب أو التجانس بوسائل عنيفة أو اعتباطية ، (المترجم) .

ولابد أن تتقدم ، ولابد أن تتغير ، وإنها قصد لها أن تفعل ذلك ؛ والتقدم إلى الإمام والتقدمية ليسا سوى حالة من حالات وجود المسيحية ؛ ومبلــغ ظنى أن أولئــك الذين لا يقرون ذلك أو يعترفون به ، إنما يكشفون بذلك عن جهلهم بطبيعة المسيحية وجوهرها الحقيقيين ، [وعلى الجانب الآخر فإن الإسلام بلا حياة (جامد) ، ولأنه جامد فهــو لا ينمو ، ولا يتقدم ، ولا يتغير ، ولم يقصد له أن يفعل ذلك ؛ وشعار الإسلام جامد وكذلك أحواله الأساسية[1]] ؛ ومن ثم ، فإن ولد عبد الوهاب ، عندما يبذل قصارى جهده ليعود بالإسلام إلى بساطته الأولى ، وأن يستهدف بذلك النقطة التى بدأ منها الإسلام ، يكون على حق إلى حد بعيد ، علاوة على أنه يراهن على معرفته الجيدة بطبيعة دينه والمبادئ الأولية لهذا الدين .

هذه الملاحظات ، إذا كانت تبرئ المصلح النجدى هو وإصلاحه من الموازيات المطبقة تطبيقًا خاطئًا ، فإنها تعطى فكرة أوضح عن الإسلام وعن عملية الإحياء الوهابى ، صحيح أن هذا الإحياء كان على خطأ ؛ ولكن الخطأ الذى وقع فيه هذا الأحياء كان فى الفرضيات التى سلم بها ، ولم يكن بأى حال من الأحوال فى الاستنتاجات التى توصل إليها .

وبعد غياب ، كما تقول الروايات ، دام ست سنوات أمضى محمد بن عبد الوهاب الجزء الأكبر منها فى دمشق ، عاد إلى وطنه نجد ، وذهنه عامر بمشروعه ، وقلبه مفعم بتنفيذ هذا المشروع . كان وسط الجزيرة العربية ، فى تلك الفترة ، مقسم بين عديد من الرؤساء، الذين كان ابن مُعَمَّر أقواهم وأشهرهم ، فى مدينة العيينه ، فى وادى حنيفة ، و الدعَّاس فى مدينة منفوحة المهمة فى منطقة الخرج . ولكن ابن معمر والدعَّاس ، ومعهم كل إخوانهم بل ومنافسيهم على السلطة ، كانوا جميعًا يخضعون بشكل عام لابن مفلق ، الذى كان تابعًا ، وموليًّ من قبل الأمراء القرامطة فى كل من القطيف والإحساء . والواقع أن كل أثر للإسلام ، كان قد انمحى تقريبًا ، فى تلك الفترة ، من نجد ، التى كانت تجرى فيها عبادة الجان ، تحت ظلال أوراق الأشجار الكبيرة ، أو فى الفجوات التى تشبه الكهوف فى جبل طويق ، علاوة على استرحام الموتى وتقديم الأضاحى عند قبورهم ، وجرى خلط كل ذلك ببقايا الخرافات السبئية ، بل أن ذلك لم

(١) هذه مغالطة يكذبها الواقع فقد كان عدد المسلمين فى حياة النبى (ﷺ) لا يتجاوز عدة مئات من الألوف وبعد وفاته انتشر الإسلام ووصل تعداد المسلمين إلى عدة ملايين والآن ينتشر الإسلام فى العالم وفى أوربا بالذات حتى وصل تعداد المسلمين إلى أكثر من خمس سكان الأرض الآن ، (د. حلمى عبد المنعم) .

يخل أيضًا من بعض آثار معتقدات مسيلمه ومعتقدات القرامطة ، كان الناس قد توقفوا عن قراءة القرآن ، ونسوا الصلوات الخمس، ولم يكن أحد يهتم بمكة أو يعرف مكانها ، إن كانت شرقًا ، أو غربًا أو شمالًا أو جنوبًا ؛ وأصبحت العشور ، والوضوء ، والحج أشياء لا يسمع الناس عنها شيئًا ، كان هذا هو حال الدين والسياسة ، في نجد عندما وصل إليها محمد بن عبد الوهاب ، الذي عقد العزم على استعادة أيام الرسول والصحابة بين إخوانه المواطنين الذين ارتدوا عن الطريق القويم ، كما كان واثقًا أيضًا من نجاحه فيما هو مقبل عليه ، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الآمال .

هناك مثل عامي عربي ولكنه حكيم يقول : "أمسك السمكة من رأسها" ؛ وعملاً بنصيحة هذا المثل، غادر محمد بن عبد الوهاب مسقط رأسه في حريملاء، إلى العُيَيْنَه ، ليثبت وجوده في تلك المنطقة المهمة ، التي كانت خاضعة لحماية ابن معمر الذي كان حاكمًا لها ، وتتردد في نجد قصص كثيرة ، وبخاصة تلك القصص التي تبالغ في عظمة العيينه السالفة، واستبداد حكامها . وقد سمعت الناس ، يروون ، أن ابن معمر ، في إحدى مناسبات حرب الحدود، استدعى كل القوة العسكرية الموجودة في عاصمته ، وأصدر أوامره أن يقوم كل حداد من الحدادين المشاركين في القوة ، بتدمير وإتلاف طلقه رصاصية عند بوابة المدينة أثناء خروج القوات منها ؛ ويقولون أيضًا إن الطلقات التي جمعت وأتلفت ، واحصيت بهذه الطريقة بلغ عددها حوالي ستمائة طلقة ، وهذا هو عدد الحدادين فقط في العيينه ، وعدد كبير كهذا من السكان يسهل عده ولكن يصعب تصديقه . ولكن إذا ما نحينا هذه المبالغات والمبالغات الأخرى الشبيهة بها ، جانبًا ، يتأكد لنا أن العيينه في تلك الفترة ، كانت بمثابة المدينة الأولى في نجد ، ولم تكن مطلقًا أقل من أية مدينة أخرى هناك ، من حيث الحجم ومن حيث عدد السكان ؛ بل أن خرائب وبقايا العيينه أقل بكثير من خرائب وبقايا الدرعية وأكثر انتشارًا وأوسع مدى منها أيضًا ، وبالقرب من أسوار تلك المدينة ، هناك أثر يحدد المنطقة التي دفن فيها سعد ، أحد الأبطال الأسطوريين في الأزمان القديمة ، والذي يعتقد الناس أنه دفن في هذا المكان . هذا القبر ، والشخص المدفون فيه سواء أكان حقيقيًا أم وهميًا ، كانا محل تقدير وتوقير الناس لهما؛ كان سعد هذا، يستحوذ على كل صلوات العيينة ، وتبجيلها الديني ، وكان قبر هذا الـ – سعد بمثابة الحافظ(١) Palladium لعاصمة نجد

(١) المعنى الحرفي لهذه الكلمة Palladium ، هو "تمثال بالاس أثينا" الإهه الحكمة عند الإغريق ، وكانوا يعتقدون أن سلامة مدينة طروادة مرهونة بهذا التمثال ، ومن هنا استعملت في الترجمة كلمه "الحافظ ، أو الواق". (المترجم) .

كلها ، وعند هذا القبر كانت تقدم الأضاحى ، وتقام الطقوس الدينية ، وكان فى ذلك ما يكفى لاستثارة حمية الأرواح الكسيله ، ناهيك عن روح محمد بن عبد الوهاب ذلك المصلح الرائد العظيم .

ولم يكن حماس محمد بن عبد الوهاب ، برغم اتقاده وشدته ، من النوع المتهور ، وكان يعرف تمامًا كيف يصبر على إخفاء التطورات البطيئة لمخططاته الكبرى إخفاء حصيفًا وواعيًا ، وقد بقى محمد بن عبد الوهاب ، فى المنزل الذى يسكنه الآن ، بالقرب من السوق ، فترة طويلة من الزمن ، يحيا حياة هادئة شبه منعزلة ، لا يدخل ، خلالها ، فى مناقشات عقدية ، أو يشارك فى أى شيئ يميزه عمن هم حوله ، وسرعان ما اكسبته شخصيته ، والخبرة التى اكتسبها من أسفاره ، سمعة طيبة ومتينة ، وقدراً عاليًا بفضل العلم والوقار ، إضافة إلى فصاحته وفطنته ، فضلًا عن أن هذه الصفات كانت مدعومة ومستورة بثراء كبير . فالكل كان يعرف محمد بن عبد الوهاب ، بل أن ابن معمر نفسه كان يفرح بتكريم محمد بن عبد الوهاب .

وأخيراً أحس محمد بن عبد الوهاب ، أن الوقت قد حان وأصبح مناسبًا لتنفيذ مشروعه ، بل إن تلك الفرصة كانت هى التى طال انتظاره لها ، وذات ليلة ، وعندما كان يجلس على سطح منزله المطل على السوق ، مر إلى جوار منزله ، أحد سكان المدينة ، الذى كان قد فقد بعيره ، وراح يسترحم بصوت عال الراعى المحلى ، أو شبه الإله ، ذلك الـ – سعد ، أن يعيد إليه بعيره الضال ، ونادى محمد بن عبد الوهاب ، ذلك الحضرى متعجبًا ، على مرأى ومسمع من الغادين والرائحين فى السوق وفى الشارع ثم قال للحضرى : "ولم لا تدعو بربٍّ سعد ؟" وجاءت لغة محمد بن عبد الوهاب غريبة وغير معتادة – لأن مثل هذه اللغة لم يكن يسمعها الناس ، منذ قرون ، فى العيينه – وأدت إلى مزيد من الاستفسار والتحرى ، الذى أدى بدوره إلى الجدل ، بما يصاحبه من النتائج التى تترتب عليه . وتكسَّر الجليد ، وأبحرت السفينة ، وسرعان ما انقسم سكان العيينه إلى طائفتين، طائفة تناصر سعداً، وطائفة أخرى تساند الإسلام ؛ وبدأ أنصار المعلمِّ الجديد وأتباعه ومريدوه يتزايدون يومًا بعد يوم .

ولم يهتم بن معمر بأى أمر من تلك الأمور التى كانت تدور من حوله ، ولم يلاحظ ذلك الاختمار الدينى الذى كان ينتشر فى أنحاء المدينة ، ولكن بعضًا من كبار رجال المدينة ، الذين كانوا يتمسكون بمعتقداتهم وعاداتهم القديمة ، كانوا ينظرون إلى هذا

الأمر نظره فاحصه وجادة ، وبعد أن حاول هؤلاء الكبار ، مراراً – لكن بدون جدوى – أيقاظ ابن معمر من لامبالاته وسلبيته ، أبلغوا ابن مفلق ، الحاكم الأعلى في القطيف ، بانتشار العقيدة الجديدة السريع ، والجهل الذي يلام عليه الرئيس المحلي ، كما وضعوا أمام بن مفلق خطر إحياء الإسلام ، لا في العيينة وحدها ، وإنما في كل أنحاء نجد .

كان ابن مفلق يكره الدين الإسلامي كراهية القـرامطة له ، وعلى الفور أرسل بن مفلق أوامره لابن معمر ، وأمره بوقف ذلك الوعظ وإلقاء القبض على ذلك الواعظ ، وحذر ابن مفلق بن معمر ، بأنه سيصب عليه جام غضبه إن هو استمر في تأييد محمد عبد الوهاب وتشجيعه . ولكن ابن معمر ، بدلا من أن يلتزم التزاماً كاملًا بتنفيذ أوامر بن مفلق ، التي ربما كانت ستؤدي إلى إطفاء تلك الشعلة الناهضة ، لجأ إلى واحد من أنصاف الطول ، التي أججت وأثارت في كل العصور وفي جميع الأنحاء نيران الهداية إلى الدين ، وأبلغ بن معمر محمد بن عبد الوهاب بأنه لم يعد قادراً بعد على حمايته ، ونصحه بأن يتحاشى خطر إلقاء القبض عليه ، والنتائج التي قد تترتب على ذلك ، بأن يسارع بالرحيل عن مدينة العيينه .

والواقع أن هذه الإعاقة البينة ، كانت في واقع الأمر ، بمثابة نقطة تحول جيدة في طالع محمد بن عبد الوهاب ، وقد أحسن صنعًا عندما رحل عن العيينة ، وعلى بعد ستة فراسخ من وادي حنيفة ، كان هناك معقل الدرعية ، التي كتبت لها شهرة كبيرة ، وسقوط مريع ، كان يعيش ، في معقل الدرعية هذا ، ومن حوله مجموعة صغيره من السكان النشيطين ، سعود ، ولد عبد العزيز ، ولد سعود الكبير ، أول مؤسس لمنطقة الدرعية ، والمنحدر من عشيرة عنيزه ، ليست عنيزه سوريا بالطبع ، ولكنها فرع من ربيعة الفريسي Rabee'aa'l - feres من خلال أسد Asd ، وأقرب الأقارب إلى كل من وعيل وتغلب ، أما الحاكم الحالي ، وهو سعود الثاني ، فقد كان شاباً وجريئًا ، وقوياً بحكم ولاء أقاربه وحاشيته له ولاءً شديداً ، ولما كان موقع سعود بين كل من ابن معمر من ناحية الشمال ، والدعّاس من ناحية الجنوب الشرقي ، فقد كان كلاً منهما يحسده ويغار منه ، وكانت إمارته معرضه لأخطار كثيرة من جيرانه الأقوياء سيئي الطوية .

وعند أبواب قلعة سعود ، يقف محمد عبد الوهاب ، ويشب ناره ، وراح يطلب تلك الحماية التي يندر أن يرفض رئيس عربي إعطاءها لأي لاجئ أو متوسّل ، وهنا سرعان ما تبادل الاثنان موقفيهما ، ويبدأ سعود ينظر إلى لاجئه نظره أخرى ، وهنا بـدأ

محمد بن عبد الوهاب ، ثقة منه فى روح سعود الشاب المتقدة وعقله الرزين ، يعرض عليه مشروعًا له نتائج طيبة وغزيرة بالنسبة لهذا العالم والعالم الآخر ، وشرح محمد بن عبد الوهاب للأمير سعود طبيعة هذا المشروع ومصادره ، واختتم كلامه قائلاً : "تعهَّد أمامى بأنك سوف تجعل قضية الدعاء إلى الله قضيتك ، وأنك ستتخذ من سيف الإسلام سيفا لك ، وأنا سوف أتعهد لك بأنك ستكون قبل وفاتك ملك نجد الأوحد ، والعاهل الأول فى الجزيرة العربية .

ويرغم أن هذه الوعود كانت تبدو مفرطة للإنسان غير المتمرس فى الشرق وفى مواطنيه ، فقد استشعر سعود ، إمكانية تحققها ، وَقَبِلَ عرض محمد بن عبد الوهاب بلا تـردد ، ونشر الإسلام بكل نقـائه وفى أصوله الأولى "على يدى" محمد بن عبد الوهاب ، أو إن جاز لى أن استعمل العبـارة العربية ، تحت إشراف محمد بن عبد الوهاب ، بل إنه اختاره ، أو بالأحرى عينه ، من ذلك الوقت فصاعدا مستشاراً ومرشداً له . وبطبيعة الحال ، حذى كل أقارب سعود وحاشيته حذوه ، حدث كل ذلك فى العام ١٧٦٠ الميلادى .

وبحماس الداعية إلى الله وطموح الفاتح ، قدم سعود نفسه على أنه رائد العقيدة الجديدة وأنه هو أيضًا سيف الإيمان ، وباسم الله وباسم الإسلام راح سعود يهاجم جيرانه الكفرة[١] واحداً أثر آخر ، أو أنه كان يصد هجماتهم ثم يقوم بغزوهم بعد ذلك مباشرة ، فى الوقت الذى كان يطرح عليهم جميعًا الخيار بين القرآن والسيف . وانحنت الإرادات الضعيفة أو إن شئت فقل تكسرت، وهو ما ينبغى أن يحدث لها دومًا، فى مواجهة الإرادات الأقوى ؛ وعلى حد قول أوليفر كرمويل العجوز "رَاعَى سعود ورجاله "الضمير فى كل أعمالهم" ، وكانوا كل عام يضيفون إلى ممتلكات الدرعية أراضى جديدة ، وكانت أعداد الطائفة الوهابية تزداد ، أيضًا ، عامًا بعد عام . وقد تزامن تقدم هذه الحركة مع انهيار وتدمير العيينه ؛ ذلك الحدث الذى لم ينجم عن الحرب أو التآمر ، حسب ما قيل لى ، وإنما بفعل أسباب داخلية ، والتحلل الذى يصاحب الحكم السيئ والاستبداد إن آجلا أم عاجلًا . وحادث انهيار وتدمير العيينة ،

(١) هذا تعبير يستعمله المؤلف بكثرة وهو غير دقيق فنظرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله إلى الآخرين لم يكن يحكم بكفرهم ولا بخروجهم من الملة وإنما كانوا مسلمين أصحاب شركيات ينبغى التخلص منها لعودة العقيدة إلى صفائها وفرق كبير بين لفظ الكفر ولفظ الشرك بمعنى البدعة ، (د. حلمى عبد المنعم) .

هذا ، تاريخى فى حد ذاته ، غير أن المؤرخين النجديين جسَّدوه على شكل أسطورة شعبية ، سوف أوردها هنا ، لأنها تساعد على تفسير الكثير من تحول العقل العربى ، برغم أنى لا أعلق عليها بعد ذلك ، أهمية تذكر .

وتدور أحداث هذه الأسطورة الشعبية على النحو التالى . ذات مساء وبينما كان بن معمر خارج العيينة فى رحلة صيد ، بصحبة مجموعة من الأعيان والحراس ، قابل بن معمر عند بوابة المدينة صبياً مسكيناً ، الابن الوحيد لأرملة من الأرامل ، كان يحمل على ظهره حزمة من الحطب كان قد جمعها وحضر ليبيعها فى السوق . كان ابن معمر يتمنطق بسيف جديد لم يستعمله بعد ، وعندما رأى ابن معمر الصبى ، التفت إلى حاشيته ، وعرض عليهم ، نكتة سخيفة ، تقضى بأن يجرب سيفه الجديد فى ذلك الصبى الفلاح الموجود أمامهم ، ولم يرتفع صوت أحدٍ من تلك الحاشية معترضاً على هذا العرض البربرى؛ وهنا ينخس بن معمر جواده ليتقدم إلى الأمام ، ثم يستل سيفه ، ويقطع الصبى إلى قسمين بضربة واحدة ، وكانت والدة هذا الصبى المسنة ، قد شاهدت هذا العمل البربرى ، من مسافة قريبة ، وتقدمت الأم المسنة ، ووقفت أمام جواد ذلك الطاغية ، ورفعت يديها إلى السماء ودعت الله أن ينتقم لها من ابن معمر ومن سلالته ، واعتباراً من تلك اللحظة ، هكذا تقول الرواية ، نضبت جميع الآبار الموجودة فى الوادى ، وذبلت البساتين ، وفى أقل من عام هلك الرئيس هو وكل عائلته لأسباب غير معروفة ، فى حين تشتت أهل العيينه فى كل أنحاء الأرض ، وتركوا عاصمتهم المدَمَّرة تذكاراً أبديًا على الجريمة والعقاب ، وسوف نلتقى فيما بعد برواية مماثلة – ولكن لدى من الأسباب ما يجعلنى أسلم بحقيقتها – فى تاريخ الملوك الوهابيين .

ويشن سعود حرباً على دعَّاس حاكم اليمامة المستبد ، ويطول أمر هذه الحرب المبهمة ، وينتصر الإسلام فى النهاية ، ويتم إخضاع جنوبى نجد إخضاعًا تامًا ، فترة من الزمن ، وهنا نلاحظ أيضًا أن الروايات العربية للأحداث لا تخلو من أعمال العدالة السماوية ، وكذلك الإطاحة بالعدو وهزيمته فى النهاية ، وعزو ذلك إلى زلزال إلهى ، وإلى الفزع الذى أحدثه مثل هذا الزلزال بين قوات الكفار ، وينتهى الأمر بهروب دعَّاس إلى القطيف ووفاته هناك .

وفى الوقت نفسه ، كان عرار Arar' ولد ابن مفلق ، قد خَلَفَ أبيه على عرش الإمارة القرموطية ، ووفاء للكراهية الأبدية التى يكنها القرامطة لأتباع دين محمد ،

راح عرّار، يرسل أكثر من مرة، الجيوش كبيرة العدد لسحق الإسلام الجديد ، بل إنه ، إذا ما صحّت إحدى الراويات ، دخل نجد بنفسه وحاصر الدرعية ، أما فيما يتعلق بالظروف التى أبرزت ذلك الصراع المرير بين سعود وعرار ، فأنا لا أعرف عنها شيئًا يستحق أن أورده هنا ، ويقال أن عرار ، بعد أن انزل سعود به هزيمة ساحقة ، هرب وحده عبر الدهناء ، التى ابتلعت البقية الباقية من جيشه ، والتى لم يطالها سيف الملك الوهابى ، ويقال أيضًا : أن عرار حصّن نفسه فى قلعة القطيف ، التى مات فيها على أثر الحزن والغم الذى أصابه بعد هزيمته ، ولكن أقاربه دافعوا عن مدينة القطيف وأمّنُوها ، واستمروا فى حكمها باسم العائلة نفسها .

وبعد أن اصبح سعود سيدًا للمناطق المركزية ، وجه اسلحته بعد ذلك ، نحو المناطق النائية والبعيدة : مثل القصيم ، والإحساء ، والدواسر ، والسليل ، واستطاع أن يضم هذه المناطق إلى الإمبراطورية الوهابية ، وبرغم أن القطيف وحاميتها القرموطية ظلت تقاوم طوال حكم سعود ، وباستثناء القطيف ، استطاع سعود أن يغزو جميع المناطق الواقعة بين حدود مكة والخليج الفارسى ويجعلها تابعة لحاكم الدرعية ، وعندما مات سعود ، بعد خمسين عامًا من السلطة ، كان الوعد الذى قطعه له محمد ابن عبد الوهاب ، قد تحقق تماما ، وخلّف سعود لأبنائه السيادة التى لا ينازعهم أحد فيها ، على وسط الجزيرة العربية ، كما خلّف لهم أيضًا اسمًا يحترمه الناس بل ويخافونه ويخشونه فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية .

ولعلنا نترك جانبًا الآن ، تاريخ الأسرة السعودية المالكة ، ونعود إلى المنبع الرئيسى لهذه الأحداث العجيبة ومنسقها ، وهو محمد بن عبد الوهاب ، أمضى هذا الرجل العظيم ، وهو جدير بهذا الاسم ، سنواته التى أعقبت تركه العيينه ، فى إمارة الدرعية وتعاون قولًا وقلما مع سيف آل سعود ، وكتب هذا الرجل العظيم كثيراً من المقالات ، التى قَرأتُ بعضًا منها ؛ وهذه المقالات تدور حول موضوع واحد ألا وهو تفسير وتأكيد المعتقدات الأساسية فى مذهبه ، هذه المقالات التى ربما يدرسها المهتم بدراسة مسائل البراءة البدلية[1] طلبًا للاستنارة ، والتى قد يخطئها المهتم بدراسة

(١) البراءة البدلية : تصرف لشخص كى يحل محل آخر سبق أن صرف مثلها لكنه قعد عن ممارسة حقه مدة معينه أدت إلى سقوطه واقتضت إحلال غيره فيه ببراءة جديدة ترتب إصدارها على سقوط البراءة الأولى ، والمقصود هنا هو سقوط الحق وانتفاع شخص آخر به ، (المترجم) .

تناقض القوانين ، على إنها من القوانين الصادرة عن السينود[1] الدورتي Synod of Dort . وعلى كل حال -وقد أثبت أن حماسه لم يكن راجعًا إلى غزارة المعرفة أو إلى الإدعاء - فإن محمد بن عبد الوهاب لم يتول قط مسئولية سياسية ، أو انتحل حق التدخل ، المباشر على أقل تقدير ، في شئون الدولة ؛ ورضى لنفسه بمنصب سيد من سادة مملكة إسرائيل (القديمة) ، وحظى باحترام كل المحيطين به إلى آخر يوم في حياته ، ومات محمد بن عبد الوهاب ، في إمارة الدرعية قبل وفاة راعية وحاميه ، ودُفِن في الدرعية ، مخلفًا بعده عديداً من الأبناء ، الذين سمعت كثيراً من الناس يرددون أسماءهم ، ولا يزال ، عبد الرحمن آل - الشيخ ، حفيد محمد بن عبد الوهاب ، على قيد الحياة حتى الآن ، ولكن في شيخوخة مقعدة ، في الرياض ، التي تحدثت إليه فيها أكثر من مرة . كما أن عبد اللطيف ، ولد عبد الرحمن آل الشيخ ، حفيد مؤسس المذهب الوهابي ، يشغل منصب قاض حاليًا في العاصمة ؛ وهو رجل في منتصف العمر ، يبلغ من العمر حوالي أربعين عامًا ، وهو سعيد بأسرته كبيرة العدد ، التي سوف أتحدث عنها وعن عبد اللطيف فيما بعد ، وقد أبلغني مصدر ، غير وثيق أن عبد الله آل - الشيخ ، والد عبد الرحمن آل - الشيخ ، وابن محمد بن عبد الوهاب ، قد حكم عليه بالإعدام في المذبحة التي أقامها إبراهيم باشا لعلماء الرياض الدينيين في العام ١٨١٨ الميلادي .

وقد تبوأت أسرة آل - الشيخ أعلا المناصب القضائية والدينية في الامبراطورية الوهابية ، وجمعت ثروة طائلة ، نأمل أن تكون بالطرق المشروعة . وأعضاء أسرة آل - الشيخ ، الذين لم يحذو حذو سلفهم العظيم ، لهم نفوذ قوى في الدولة ، ومع أنهم لا يتزينون بالألقاب التي تقتصر على أفراد السلطة الدنية والسلطة العسكرية ، إلا أنهم ، في واقع الأمر ، يحكمون حكام المناطق ، علاوة على أن رؤساء آل - الشيخ من أفراد الأسرة السعودية المالكة لا يجرؤن مطلقًا على معارضتهم ، حتى وإن كان ذلك في شئون السياسة والحرب ، ولكني سوف انتاول هذه الأمور من جديد ، فيما بعد ، أما الآن ، فهيا بنا نعود إلى منكراتي اليومية ، التي قاطعتها ذكرى محمد بن عبد الوهاب ، في مدينة حريملاء ، مسقط رأسه .

(١) السينود : مؤتمر كنسي يعقده أقطاب الكنيسة للمداولة في المسائل الدينية ، (المترجم) .

استمرت جمعيتنا المسائية إلى فترة متأخرة من الليل تحت سماء ساطعة النجوم؛ انسحب بعدها النائب ومعه أتباعه وخدمه طلباً للراحة ، في حين بقينا ، نحن ، مع أبي عيسى ، نصغي إلى حكايات بطاح ، ونقتاده من حكاية إلى أخرى ، وأضاف بطاح ، شأنه شأن معظم النجديين ، إلى صفاء اللغة النحوى ، صفاءً فطرياً آخراً يتمثل في اختيار الكلمات، ويضطر بركات ، هنا، مثلما كان يفعل ، في أغلب الأحيان ، طوال رحلتنا ، أضطر إلى أن يعترف بأن اللهجة التي يتكلمها الناس في زلفة واللهجة التي يتكلمها الناس في دمشق ، بما في ذلك اللغة السائدة بين أفضل المتعلمين وأصحاب اللغة الطنانة ، لا تستحق أن نطلق عليها اسم اللغة العربية إذا ما قارناهما باللغة التي يتكلمها الناس في نجد .

وفي صبيحه اليوم التالي استأنفنا مسيرنا ، ومعنا رجال بطاح ، الذين كلفهم بمرافقتنا إلى آخر حدود منطقته ، ولم تعد هذه الحدود بعيدة ، إذ دخلنا قبل حلول وقت الظهيرة سهلاً أبيض من المرل ، هو امتداد للكتلة الضيقة التي كنا نسير عليها ، ثم طالعتنا بعد ذلك بلدة سدوس الصغيرة ، الحد الشمالي للعارض ، والتي شهدت الكثير من المناوشات والاشتباكات طوال الحرب المصرية ، وفي هذه المنطقة نكون قد خرجنا من الأراضي الخفيضة ، ومسارها الواسع غير المباشر ، لنسير في طريق آخر مباشر عبر الجبل ، الذي كنا قد ارتقينا حيده[1] بالفعل (كان شديد الانحدار مما جعل الإبل تلاقي صعوبة في السير عليه) ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى أرض مستوية معقولة الارتفاع ، ولكنها عامرة بالعشب والأشجار ، كان جبل طويق لا يزال يحيط بالأفق من ناحية الشرق ؛ ولكن الأفق كان مفتوحاً من الناحيتين الجنوبية والغربية . كانت مسيرة ذلك اليوم طويلة ، ومع ذلك واصلنا المسير في كدر وصمت ، إلى أن توقفنا قبيل حلول المساء ، عند بيارة جميلة ، شببنا عندها نيراننا ، لنتناول من الزاد ذلك الطعام المعتاد الذي يتسع وقت الرحالة لإعداده أو التي تسمح مواردهم بتوفيره ، وعندما غادرنا هذه البيارة كان المساء قد بدأ يرخي سدوله ، ولكننا استطعنا قبل غروب الشمس ، أن نصل إلى نهاية حافة الجبل الجنوبية ، التي درنا حولها مدة نصف ساعة في ممر ضيق ، ومن تحتنا المناطق العميقة في وادي حنيفة ، ثم دخلنا بعد ذلك ، إلى منخفض صعب داخل الوادي ، شاهدنا فيه ، عند سفح الجرف ، صخرة معلقة

(١) الحيد : هو ما نتأ من الجبل ، (المترجم) .

تأوى تحتها بركة عميقة كبيرة من الماء الرائق ، الذى سعدنا جميعًا بالشرب منه ، لأن النهار كان قائظًا ، علاوة أيضًا على أننا بعد أن غادرنا سدوس لم نصادف بئرًا أو حتى نبعًا .

وشققنا طريقنا ، فى حذر ، فى اتجاه جنوبى غربى ، وما أن بدأت تطبق علينا أولى ظلال النيل ، حتى وجدنا أنفسنا بين أطلال العيينة وآثارها . وعلى امتداد نصف فرسخ تقريبًا كانت الأرض غير معبده بسبب الجدران المهدمة ، والأكوام التى كانت ، فى يوم من الأيام ، أبراجًا وقصورًا ، ووسط نخيل ماتت منه تيجانه ، وسلسلة طويلة من أشجار الإثل ، تشير إلى الأماكن التى كانت فيها البساتين والحدائق ، وآبار جافة ، وأحواض امتلأت بالتراب ، لم يظهر لنا أى مخلوق ، ونحن ندور خلال أكوام الركام التى كانت توضح لنا مواضع الشوارع، ثم مررنا ببوابة السوق الوحيدة ، التى لا تزال باقية إلى يومنا هذا ، والتى تفتح على فراغ ، وأنا لا ينتابنى العجب عندما أسمع العرب يعزون ذلك الخراب الكامل والغريب إلى دعاء أرملة على ابن معمر؛ إذ لابد أن هذه الدعوة كانت قوية ومرة . والواقع ، أن دمار ناينفه Nineveh وستسيفون Ctesiphon ، اللتان تميزتا بانتقام إلهة الانتقام عند الإغريق ، Nemisis ، كان أقل بكثير من دمار العييعه وخرابها ، ومن قبيل الحقائق الغريبة ، أن إبراهيم باشا ، نظرًا لتأثره بموقع بلدة العيينة الممتاز ، وربما أيضًا لرغبة منه فى إنشاء مركز يوازن نفوذ الدرعية ، عن طريق إحياء العداوات القديمة ، حاول ، فى أيامه ، إعادة بناء بلدة العيينة ، وتأهيلها بالسكان ، كما قام أيضًا بتطهير الآبار القديمة وحفر آبارًا جديدة ، وجلب الحرفيين والميكانيكيين للقيام بهذا العمل ، ولكن ذلك كله باء بالفشل ، لأن الدعوة بلغت من القوة حداً طالت معه إبراهيم باشا ، الذى اضطر على إثر ذلك أن يتخلى عن ذلك الموقع البائس الذى لاماء فيه ، للخراب المقيم .

واتساع وادى حنيفة فى هذه المنطقة ، يصل إلى حوالى فرسخ ، وهو مليء بالأشجار وأشجار الأراك ، فى حين أن جوانبه شديدة الانحدار ، فيها تجاويف لا تحصى ولا تعد تأوى إليها الذئاب والضباع ؛ ويكثر الغزال أيضًا فى هذه المنطقة ؛ وقد شاهدنا كثيرًا من الغزلان فى هذه المنطقة ، فضلاً عن سماعنا أيضًا زئير وعواء كثير من الحيوانات المتوحشة ، وتحاشيًا منا لمنحنيات الوادى الرئيسى ، خرجنا منه بعد أن تركنا بلدة العيينة مباشرة ، وسرنا على مدق صغير فى اتجاه الجنوب ،

وكنا خائفين أن نضل طريقنا أثناء الليل ، إلى أن أصاب الإعياء ، فى النهاية ، القافلة كلها بما فيهم الإيرانيون ، والعرب ، والأوربى الوحيد ، جراء الخوض فى الرمال ، والسير بين الصخور ، والأشواك ، وأشجار الأثل ؛ وكان لابد هنا من التوقف حتى تنال القافلة قسطا من الراحة ، واضطر أبو عيسى مرشد المرشدين الذى لا يتعب ، والذى قلما يسمح للآخرين بالتعب الذى يبدو أنه لم يكن يشعر به مطلقًا ، اضطر بعد كثير من الجدل والأخذ والعطاء ، أن ينزل على رغبة الجميع ويوافق على طلبنا العادل ، وشببنا النيران ، إيذانا منا لجيراننا ذوات الأنياب والأسنان ألا يقتربوا منا وأن يدخلوا فى ثباتهم .

ويستفيد أبو عيسى، القاسى، من لبس بسيط بين طلوع القمر وبزوغ فجر النهار ، ويوقظ الجميع قبل طلوع النهار بساعتين أو ثلاث ساعات ، وبمجرد أن استيقظنا ، وافقنا جميعًا على مواصلة سيرنا ، وسرعان ما عدنا إلى وادى حنيفة بالقرب من قرية الروضة ، تلك القرية الصغيرة ، وفى قرية الروضة ، دارت خلال القرن الأول من الإسلام ، المعركة الشهيرة بين خالد بن الوليد "سيف الله المسلول" ، وبين مسيلمه الكذاب النجدى ، والتى أدى قتل مسيلمه فيها وانتصار خالد بن الوليد ، إلى انتشار دين محمد (ﷺ) فى كل أنحاء الجزيرة العربية .

وتاريخ مسيلمه الكذاب معروف ، فقد ولد مسيلمه فى نفس التاريخ تقريبًا الذى ولد فيه محمد (ﷺ) ، واستحل لنفسه لقب النبى الذى أسبغه الله على معاصرة فى الحجاز ، بل إن مواطنى مسيلمه الشرقيين كانوا يعترفون به رسولًا لله ، لا يقل عن منافسه الذى يعترف به سكان الساحل الغربى ، وقد سعى مسيلمه فى البداية إلى التحالف والتعاون مع النبى الحجازى (ﷺ) ، ولكن سعيه هذا باء بالرفض المهين والتعالى عن هذا العمل الحقير ، ومن ثم راح مسيلمه ، منذ ذلك الحين فصاعداً ، يستعمل كل رحيَل البلاغة والتهكم والاستهتار كى يجعل محمداً (ﷺ) هو وقرآنه غريبًا فى أعين أهل نَجد ومحطا لسخريتهم ، ونجح مسيلمه فى هذه المحاولة نجاحًا تامًا[١] .

(١) هذا حكم يعوزه الدليل وهو خبر غير صحيح فما استطاع مسيلمة أن يعارض القرآن ، وأى عربى بسيط فضلاً عن طبيعة العرب الفصحاء يعي ذلك ، وأن ما يقوله مسيلمة هراء ، وإنما كان الدافع الأول لبقاء الولاء لمسيلمة هو العصبية القبلية والتى عَبّر عنها قول قائلهم "كذَّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر ، (د. حلمى عبد المنعم) .

فكلما كان جبريل ينزل من السماء بسورة جديدة على محمد (ﷺ) ، كان مسيلمه يصنع صورة مقلدة لها ، ولقد حظيت ، أثناء وجودى فى نجد ، بتلاوة كثير من هذه المقطوعات التى تثير الضحك والاستهزاء ، ولكنها محفوظة ضمن الأثر ؛ ولكن هذه الأعمال ، شأنها شأن معظم أنواع الباروديا(١) ليست جديرة بالثناء ، ولا تستحق الذكر ، فضلًا عن أنها تكون فظة وغليظة فى معظم الأحيان .

ويبدو أن معتقدات مسيلمه كان لها ما يمكن أن نسميه الطابع الإجتماعى ، وبرغم أن هذه المعتقدات كانت أكثر تواءما مع الحضارة والتقدم عن معتقدات محمد (ﷺ)(٢) إلا أن معتقدات مسيلمه كانت تفتقر إلى الكرامة والاحترام والشكلية الأخلاقية فى عيون أتباعه ومريديه ، كانت معتقدات مسيلمه شكلًا مخففًا من معتقدات المدرسة التى أطلقت على نفسها بعد ذلك بثلاثة قرون ، اسم القرامطة ، الذين رفضوا الجبرية ، وكانت لديهم فكرة متضاربة عن تجسيد الآلهة ، وأضفوا على وعّاظهم ومعلميهم طبيعة شبه توسطيه ؛ غير أن التاريخ أو الافتراء يعزوان للقرامطة وأبيهم الترخيص بالحرية المطلقة التى ليست لها حدود ، والتشجيع المطلق والسافر للانغماس فى الشهوات والملذات ، ونحن عندما نحاول التعرف على أناس مضوا وولوا ، من خلال أعدائهم ، يصعب علينا معرفة حقيقة هؤلاء الناس أو حقيقة أشخاصهم ، من ذلك مثلًا ، أن ريتشارد الثالث ، ربما كان فى واقع الأمر "رجلًا عظيماً" وربما لم يكن أنف كرمويل Cromwell أحمر أو بَصَلىُّ الشكل كما يحلو لبعض المؤرخين أن يقولوا عنه .

وبينما الأمور على هذا الحال ، ظهرت دجّالة ثالثة فى جنوب غربى الجزيرة العربية ؛ كانت هذه الدجّالة امرأة تحمل اسم سجاح ، وأصبح لها هى الأخرى رصيداً بين جيرانها ، وكانت وراءها حاشية كبيرة من الاتباع والمريدين اليمنيين ، ولكن استشعاراً منها ، أنه ليس من صالح المرأة أن تكون وحدها فى صراع وشيك بالسيوف لا يقل عن صراع المعتقدات ، توقعت أن تنشأ بعض الصعوبات ، عندما تبدأ فى تبادل الرسائل مع مسيلمه ؛ وسرعان ما لطف إحساس رقيق ، من حدة الجدل ، وترتب على ذلك توحيد المعتقدات عن طريق رباط الزواج . وكانت النتيجة المباشرة لذلك

(١) الباروديا : أثر أدبى أو موسيقى يحاكى فيه أسلوب أحد المؤلفين على نحو يثير الضحك والهزء . (المترجم) .

(٢) هذا إسفاف فى القول ينمّ دائمًا على احتقار المؤلف للإسلام وهذا شأن كثير من الغربيين الذين لا يعرفون الإسلام معرفة صحيحة . (د. حلمى عبد المنعم) .

الزواج النمساوى عبارة عن مزيد من السلطة لـ - مسيلمة، أو إن شئت فقل "الكذاب" ، كما كناه محمد (ﷺ) من قبل ، لتبقى هذه الكنية ملتصقة به إلى الأبد ؛ ومن ثم فإن صادق مكة وجد أن من الحكمة ألا يحتكم إلى السلاح مع كذاب الرياض وكذابة اليمن مجتمعين ، وظل مسيلمة طوال عشر سنوات يتمتع بعظمته الفائقة فى نجد[1] ، ولكن الغزوات الواسعة بعد أن صبغت مقاتلى الحجاز بالنظام ، وبعد أن زادت انتصاراتهم الكثيرة شجاعتهم ورفعتها إلى أعلى عليين ، أصدر أبو بكر ، الذى كان خليفة المسلمين فى ذلك الوقت ، أوامره إلى خالد بن الوليد هو وقواته ، أن يجبروا مسيلمه على الخيار بين أمرين : القرآن أو سيف غريمه وخصمه ، وكانت الحرب ، التى أذكاها على الجانبيين الحماس الدينى والكراهية الوطنية ، حربًا عنيدة ودموية ؛ ولكن خالد بن الوليد ، شق طريقه خطوة أثر أخرى ، إلى أن وصل إلى وادى حنيفة ، ومنه إلى قرية الروضة ، التى كان فيها مسيلمه ، ومعه أفضل قواته ، ويحتل آخر مواقعه وأفضلها ، الذى يقفل جميع المداخل المؤدية إلى كل من العيينة ، والدرعية ، والرياض ، وكذلك اليمامة . وقد بلغت القوة النجدية من المتانة والصلابة حدًا ، قيل أن خالد بن الوليد نفسه ، تردد معه نهارًا كاملًا وليلة كاملة ، فى المخاطرة باقتحام قرية الروضة ، وقيل أيضًا أن مجلس حربه حاول بالإجماع أن يمنعه من ذلك الاقتحام ، ولكن مع صبيحه اليوم التالى ، عادت إلى خالد بن الوليد شجاعته المطلوبة ، واصدر أوامره لرجاله بالتقدم صوب قرية الروضة ، وما أن بدأت المعركة حتى استمرت إلى غروب الشمس . وقتل مسيلمه أثناء القتال وسيفه فى يده ، كما قتل معه عدد لا يحصى من المقاتلين النجديين؛ وخسر المنتصرون ما لا يقل عن أربعمائة قتيل ، إن كانت المصادر صحيحة ،

(١) هذا تدليس للتاريخ ، لأن مسيلمة وفد على النبى (ﷺ) فى عام الوفود سنة سبع من الهجرة تقريبًا وطلب أن يكون له الأمر بعد النبى ، ولما رفض النبى (ﷺ) رجع مسيلمة إلى قومه ولكنه لم يعلن نبوته إلا قبل وفاة النبى بقليل فأرسل مسيلمة رسالة إلى النبى بعد عودته من حجة الوداع يخبره بأنه نبى مثله قائلاً (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك فإنى قد أشركت فى الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشًا قوم لا يعدلون) فكتب إليه رسول الله (ﷺ) "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من أتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ولكن رسول الله عاجلته المنية فلما توفى أرسل أبو بكر الجيوش لقتال المرتدين والمتنبئين فأرسل إلى مسيلمة عكرمة بن أبى جهل على رأس جيش وأمدّه شرحبيل بن حسنة ، ثم ألحق بهم خالد بن الوليد وقتل مسيلمة وعاد قومه إلى الإسلام ، وعلى ذلك فقول المؤلف أن مسيلمة مكث عشر سنين يتمتع بنبوته وسلطانه قولاً غير صحيح ، (د. حلمى عبد المنعم) .

من أولئك الذين تشرفوا بلقب الصحابة ، أو أن شئت فقل الرفاق الشخصيين للنبي ، إضافة إلى عدد كبير آخر من الجنود العاديين ، وأمكن التعرف ، بصعوبة بالغة ، على جثة مسيلمة ، بين أكوام القتلى ؛ وقطعت رأسه وأحضرت إلى خالد بن الوليد ، الذى أمر بوضعها على رأس رمح ، ليراها الجميع ، خشية أن يشك أحد من بين أصـــدقائه أو أعدائه فى وفاة ذلك النبى المشئوم . ثم أتجه خالد بن الوليد بعد ذلك إلى الرياض ، مسقط رأس مسيلمة ، وقررت العاصمة ، عندئذ ، كما هى الآن ، استنفار سكانها ، وحثهم إلى امتشاق سيوفهم . ولكن المواطنين الذين كانوا يعرفون جيداً عدد الخسائر التى تكبدها خالد بن الوليد ، ويعرفون أيضاً شراسته في القتال والغزو ، اتبعوا خطة جيدة حسبوها حساباً دقيقاً ، يستطيعون بها الحصول على أفضل الشروط ، مقابل الاستسلام ، وهنا أخرجت جميع السيوف والحراب التى كانت فى ترسانة الرياض ، وأعطيت للنساء ، والأطفال ، وللعجزة والمسنين ؛ وتم وضع هذا الجمع الضـعيف ، المزود بقناع عسكرى ، فى مواقع خلف أسوار المدينة المحصنة وعند بواباتها ، وعندما وصل خالد بن الوليد إلى الرياض ، حيته السيوف المصنوعة من الصلب ، وهى تتلألا فى الحصون والأبراج ، بينما كانت الرماح المصوبة والسيوف المسنونة تعكس أشعة شمس الصباح ، وعلى أثر الدهشة التى أصابت خالد بن الوليد ، بعد أن شاهد هذا الاستعراض للمقاومة ، فى مكان كان ينتظر أن يرى فيه فريسة لا حول لها ولا قوة ، وإدراكا من خالد بن الوليد أيضا للنقص الذى طرأ على أعداد مقاتليه ، عرض الدخول فى مفاوضات ، وقبل النجديون هذا العرض قبولا ينطوى على عدم المبالاة شكلاً وليس موضوعاً ، وقالوا، إن ما فقدوه لحد تلك الساعة، ليس سوى الجزء الأصغر من قوتهم ، وأنهم على استعداد أن يخسروا الكثير قبل أن يستسلموا ، واختصاراً لكل هذه الروايات طلب أهل نجد ضمان حياتهم وحريتهم ، وضماناً للتحرر والحكم الذاتى ، مقابل شرط واحد فقط من ناحيتهم هم ، وهو اعتناق الإسلام ؛ ولم يدر خالد هو وجيشه كيف أضاع أو ضحى بهذه الغنيمة السهلة ، إلى أن جعل العهد الذى قطعه أهل نجد على أنفسهم، مسألة الاستيلاء على الرياض أمراً بعيد المنال ، وعلى كل حال، فقد أصابت هذا المذهب (القرموطى) ضربه قاتله ، أصبح الإسلام على أثرها الدين الرسمى فى البلاد ، وهاجرت البقية الباقية من أتباع المذهب القديم ، من تلقاء نفسها ، إلى كل من الإحساء والبصرة ، التى أرسوا فيها مع الساخطين ، الآخرين على نظام الحكم ، أسس الطائفة القرموطية . وأصبح أسم مسيلمه يرتبط بالخزى والعار

والازدراء، وأطلق على الوادي الذي كان يحمل اسمه ، اسم وادي حنيفة ، ومع ذلك ، فإن التعاطف الوطني ، غالبًا ما يؤدي ، حتى بين الوهابيين ، إلى التخفيف من حدة الكراهية المذهبية ، ويذكر أهل الرياض مرارًا أن زعيمهم المنكوب (مسيلمة) كان رقيق القلب إلى حد الندم ، وقد قال ، أحد المتعصبين ، ذات يوم ، وعلى مسمع مني : "كان محمد ومسيلمه نبيين ، ولكن نجم محمد كان مبشراً بالخير" .

ولعل القارئ العزيز يود أن يعرف مصير النَّبيَّه سجاح ، التي كانت في يوم من الأيام زوجة لـ - مسيلمة الكذاب ، والتي أصبحت أرملة شقية بعد وفاته . ويسعدني أن أعثر ، في بعض المصادر ، الوثيقة ، إن هذه السيدة ، شأنها شأن سيدات أخريات كثيرات ، أثبتت أنها طالما عرفت كيف تدخل في ورطة أو في مأزق ، فهي تعرف أيضاً الطريق إلى الخروج من هذه الورطة أو ذلك المأزق ، أكثر من الرجال ، وفي النهاية ، جففت سجاح دموعها ، وشجبت واستنكرت ذكرى نبيها وزوجها السابق ، وتحولت إلى امرأة مسلمة ، أو إن شئت فقل : دخلت في الإسلام ، على طريق بيبو Beppo في علم الإملاء ، وتزوجت رجلًا أفضل من مسيلمة ؛ وبذلك تكون قد صححت ارتباطها بكافر بارتباطها بمسلم : وذلك على النقيض تمامًا من ذلك الذي "لم يحب بتعقل ، وإنما أفرط في حبه" ، وحظيت باعجاب بنات جنسها بها وتقليدهن لها ، أكثر من إعجاب بني جنس أوثلوا Othello به وتقليدهم له .

كان أبو عيسى ، والنجديون الذين يصاحبونا ، يُسلُّوننا بهذه الحكايات ، بينما كنا نمر في ساعات الصباح الأولى ، بالقرب من مزارع الروضة في الوادي ، الجاف الهادئ حاليًا ، بعد أن كان قد طفح في يوم من الأيام ، هو والممر الضيق ذو الجدران العالية ، الذي يفضي إلى المدخل المؤدي إلى التحصينات الكبيرة في هذه المنطقة ، بأفضل دماء الجزيرة العربية ، وأشرقت الشمس ، وكشفت لنا جروفًا هائلة على جانبي الممر ، كما كشفت لنا أيضاً كتلة معلقة من الصخور المكسَّرة ومن تحتها شجرة من أشجار الأراك ، في حين فزعت أسراب الحبارى من تحت أقدامنا ، وهرب الغزال عن طريق الممرات الضيقة والشعاب ، متجها ناحية اليمين وناحية الشمال ، وشاهدنا أيضاً سحابة من الغبار تدل على جماعات من الفلاحين والخيالة الذين ينتشرون هنا وهناك ؛ كما شاهدنا أيضاً البساتين والهجر ، من خلال الفتحات الجانبية في الممر ، وهي تمرق لامعة أمام أعيننا ، بل كنا نشاهد أيضًا بعض الهجر في نتوءات الوادي نفسه ، إلى أن وصلنا ، قبل دخول وقت الظهيرة ، إلى هجرة ملَّقى Malk.a .

واسم هذه الهجرة مشتق من موقعها ، والوادى عند هجرة ملقى ينقسم على شكل حرف "واى" Y ، إلى فرعين – يتجه فرع منهما صوب الجنوب إلى الدرعية ، ويتجه الفرع الثانى إلى الجنوب الشرقى ثم ناحية الشرق ، عبر منتصف المنطقة ، ليتصل بالعاصمة الفعلية ، أى مدينة الرياض ، وعند النقطة التى ينقسم الوادى عندها إلى فرعين يقع ذلك الذى يطلقون عليه فى الهند اسم Bungalow وفى سوريا اسم خان Khan ؛ وأنا أعنى بذلك هنا ، نوعًا من المنازل العامة المخصصة للإعاشة والإقامة والتى يرتاح فيها الرحالة ؛ وإلى جوار هذا المنزل توجد بئر كبيرة ، وبستان ، من ممتلكات ولى العهد الأمير عبد الله ، والنباتات عريضة الأوراق مثل أشجار التين وأشجار الأرَج تتدلى فوق الطريق ، وتدعو المارة إلى أخذ قسط من الراحة ، وارتحنا طوال ساعات الظهيرة ، أحيانًا داخل دار الضيافة وأحيانا أخرى فى البستان ، فى حين استغل النائب وقته فى صباغة لحيته وشاربه بالحناء ، خشية أن يفضح ابيضاضهما التحتى الشباب المصطنع الذى توحى به أطرافهما ، وكان النائب يمنى نفسه ، بل ويأمل أن يحظى بلقاء سريع مع الملك الوهابى ، ولذلك كان النائب ميالاً إلى استغلال كل مزايا المظهر الشخصى باعتبار أن ذلك يدعم أهميته الدبلوماسية ويزيدها ، تلك كانت آمال خادعة ! ومحاولات لا طائل من ورائها ! ولكن دعه يُسَوِّد شعر لحيته الرمادى هى وشاربه الرمادى أيضًا ، على أمل أن يضفى على صاحب سن الستين عامًا مظهر صاحب الخمسة والثلاثين ؛ إذ من الواضح أن هذه الصباغة تحسِّن قسماته وملامحه .

كان أبو عيسى قد اتخذ قراره بأن يصل بنا ، فى المساء نفسه ، إلى الرياض ولكن ما يزال بين ملْقى والرياض مسافة تقدر بحوالى ثمانية فراسخ : وبعد أن أنتهى النائب من عملياته التجميلية ، كانت ظلال الشمس توحى بأننا لن نصل الرياض قبل حلول الظلام ، ومع ذلك ، واصلنا سيرنا ، فى اتجاه فرع الوادى المتجه إلى الدرعية ؛ ولكن قبل أن نصل الدرعية ، خرجنا من الوادى ، وسرنا فى طريق أقصر بجوار الأراضى المرتفعة الموجودة على الجانب الأيسر ، كان ذلك الطريق يمر بسلسلة من الأبراج ، التى شيدها إبراهيم باشا لتكون مواقع متقدمة تستعمل فى الدفاع عن هذا الموقع المهم ، وعلى خط هذه الأبراج كانت توجد أسوار تكنه عسكرية مربعة الشكل ؛ وكانت تلك الأبراج من الطراز الذى يطلق عليه اسم "مارتلو" martello – وهى أبراج قصيرة ، وكبيرة ومستديرة ، هذه أشعة شمس الغروب تغمر السهل ، وبدأت تطالعنا

أطلال الدرعية ، التي تشغل عرض الوادي كله من تحتنا ، وهذه أسوار القصر ، المصنوعة من اللبِن ، مثل سائر الأسوار الأخرى ، ترتفع عالية في اتجاه الحافة اليسرى ، أو إن شئت فقل الحافة الشمالية ، ولكنها بلا سقوف وهجرها سكانها ، وخالية من الحياة ؛ وإلى الأسفل قليلاً منا ، ترى مساحة واسعة من الانقاض التي تشير إلى المكان الذي كان قد أقيم عليه المسجد ، وإلى جواره مباشرة السوق ؛ وأنا أعتقد ، أن هذا القصر المقام على أعلى بقعه هنا ، الذي يعيش فيه الرؤساء المحليين حاليًا كان المسكن الأساسي للأسرة السعودية ، قبل أن تنقلهم العظمة المتنامية إلى قصرهم الإمبراطوري ، وقد بقيت التحصينات الخارجية ، في معظمها ، بلا أذى وبدون المساس بها ، وبقيت معاقلها وبزبجانها ، التي نراها وقد اصطبغت باللون الأحمر بفعل شمس الغروب ؛ وفي بعض الأماكن الأخرى ، نرى بعضًا آخرًا من تلك التحصينات وقد سوِّيت بالأرض إما بفعل المدفعية المصرية أو بفعل عوامل الزمن ؛ وفي داخل المدينة كانت لا تزال هناك بعض المنازل ، ولكنها خالية من السكان ؛ يضاف إلى ذلك أن مسارات الشوارع من بوابة إلى أخرى كانت واضحة كما لو كنا نراها على مخطط لهذه الأرض ، ومن حجم المدينة الكبير ، إذ يبلغ طولها أكثر من نصف ميل ، ولا يقل عرضها كثيرًا عن طولها ، ومن تجاور منازل المدينة والتصاقها ببعضها ، استطيع أن أقدر عدد سكانها بما يزيد على أربعين ألف نسمة تقريبًا ، والبساتين موجودة خارج المدينة ، ولا تزال هذه البساتين "حية في مكان توقفت فيه حياة الإنسان" ، وبكامل جمالها وبهائها ، على شكل حزام من الخضرة الداكنة يحيط بتلك الأطلال الرمادية . وبالرغم من أن النجديين ، يعتبرون إعادة بناء أي مدينة مدمرة فألا سيئًا ، وبرغم أنهم نقلوا مقر الحكومة معهم ، ومعه السواد الأعظم من سكان الدرعية ، إلى الرياض ، إلاَّ أنهم وجدوا أن مسألة التخلي عن المزارع الغنية والحقول جيدة الري التي تقع في زمام العاصمة القديمة ، أمرًا غير ضروري ؛ ومن هنا نشأت على أطراف الأطلال المتبقية من هذه المدينة ، مستوطنة صغيرة يعيش فيها فلاحوا البساتين في أكواخ مبعثرة تنتشر بجوار أسوار المدينة .

وبينما كنت أحملق ، من ذلك الارتفاع الحاكم ، في ذلك المشهد متأملاً ، ذلك المشهد المليء بالذكريات ، عادت الشمس إلى مغربها وأرخى الليل سدوله علينا ، وكان من الطبيعي أن نطلب من أبي عيسى ، أن نتوقف ؛ ولكنه لم يلق لنا بالاً ، وأكد لنا أن هناك بستانا مملوكًا لـ عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، يقع على

مسافة قريبة ، وأن من الأنسب لنا ان نمضي فيه ليلتنا بدلاً من هذه الأنقاض والخرائب . والواقع أننا كان بيننا وبين البستان المذكور ، مسير ثلاث ساعات يتعين علينا أن نمشيها اثناء الليل ، يضاف إلى ذلك أن مرشدنا لم يكن يرغب في دخول الدرعية ومعه إيرانيون ، وسوريون ، وشيعيون ، ومسيحيون ؛ وقد اعترف لي أبو عيسى بذلك فيما بعد ، وسواء أكان سكان الدرعيه يشكلون اثراً من تلك الآثار ، التي تبقى حتى بعد تغير الأعراق ، ويضفي لوناً واحداً على السكان الذين يتعاقبون على المكان نفسه ، وسواء أكان ذلك من جراء نظرتهم المستمرة إلى اندحارهم وانتصار أعدائهم عليهم ، فإن سكان الدرعية القليلين يشتملون على مجموعة هي ، في واقع الأمر ، اشد الناس الذين عرفتهم العارض ، تعصباً وشراسة ، ولعل القارئ يتذكر هنا مصير الرحالة المشئوم الذي سبقني في استكشاف نجد ، ويذكر أيضاً تلك الأحداث التي لطخت هذه الرمال بدمائه ، وبناء على كل ذلك ، مضينا في مسيرنا ، والتزامنا المرتفعات ، وهبطنا في فترة متأخرة من الليل ، إلى منخفض صغير ، حيث شاهدنا فيلا عبد الرحمن الريفية تقف وسط حديقة مترامية الأطراف .

ولم نحاول دخول المنزل ؛ وبخاصة أن أحداً في هذه الساعة من الليل ، لم يكن مستيقظاً كي يستقبلنا ، ولكن كانت بالقرب منا تعريشه ، في البستان ، تكفي كل أولئك الرحالة ، الذين لم يكونوا يريدون شيئاً سوى النوم ؛ وسرعان ما غططنا في نوم عميق رغم نباح الكلاب، وعواء ابن آوى ، الذي يوجد بأعداد كبيرة في كل أنحاء نجد .

كانت المسافة من بستان عبد الرحمن إلى العاصمة الرياض ، تقدر بحوالي أربعة أميال ، وفي صباح اليوم التالي جرى تقسيم القافلة على النحو التالي : بقي النائب ومن معه في البستان ، في حين قصدت أنا وبركات وأبو عيسى إلى المدينة مباشرة ، التي أبلغ أبو عيسى فيها القصر بوصول الإيراني المحترم ، على أمل استقباله استقبالاً رسمياً قبل دخول العاصمة ، وبناء على طلب منا أيضاً ، بقي المكيان في المؤخرة ؛ إذ لم نكن نرغب أن يكونا بصحبتنا أول مرة ونحن في القصر .

ومشينا قرابة ساعة في اتجاه الجنوب ، خلال أرض جرداء ، تكسوها الكثبان الرملية ، لم نستطع خلالها أن نتبين البلد من أي ناحية من النواحي ، وأخيراً صعدنا فوق مكان مرتفع ، عبرناه ، لنرى بعده الرياض بكاملها ، الهدف الرئيسي الذي حددناه لرحلتنا الطويلة ، عاصمة نجد ونصف الجزيرة العربية ، بل قلب الجزيرة العربية كلها .

الفصل التاسع

الرياض

«مثل كشاف عندما
خلال طرق مظلمة وسرية انزاح عنها الخطر
طوال الليل ، أخيراً وعند طلوع الفجر البهيج
يحصل على جبهة تل مرتفع ،
يكشف لعينه المستورات
الأمل الطيب المرتقب في أرض أجنبية
ترى لأول مرة ، أو مدينة شهيرة»

ميلتون

منظر الرياض والمناطق المحيطة بها - لقاء - المدافن - مدخل المدينة - السوق التوقف عند القصر - عبد العزيز ، وظيفته وشخصيته - القصر من الداخل - عمارة القصر ، حجمه ، وتنظيماته - القهوة - الغداء - استقبال النائب - غضب النائب- إقامتنا في قصر جلوي- تأثير زيارتنا على فيصل- ذهابه إلى خارج المدينة - جواسيس الرياض - عبد الحميد البيشاوري - تاريخه - شخصيته ، وحديثه - عبود المضَيِّعي - الكوليرا في نجد - مؤسسة "المطوعين" - النظام - السلطة - نتائج هذا النظام في الرياض ، وفي نجد المناطق - الوضع الحالي للمطوعين - رد الفعل - عبود ومحادثته - العرض المقدم من عبد العزيز - الرفض من جانبنا - مقابلة أبي عيسى مع فيصل - مصاعبنا - رشوة الحكومة - الترتيبات السرية مع أبي عيسى -

مسكننا الجديد بالقرب من مسكن النائب - البن - خصائصه وتجارته - النبيذ - وأسباب تحريم محمد (ﷺ) له - المحرمات المماثلة في الإسلام - الاتجاه الغالب في الإسلام - مكانة الإسلام بين الأديان الأخرى - طبيعة الصلاة في الإسلام وطبيعة مؤسساته - مركزية التعليمات المحمدية - النتائج العملية - الاستثناءات ورد الفعل - حياتنا في الرياض - زيارتنا للسوق - خليط من السكان - رسم صور سريعة - أحياء المدينة الأربعة - الساحة الكبيرة والجامع - خصوصيات التعبد الوهابي - طرفه الشيخ الدمشقي في الرياض - خطبة الجمعة - الاختلافات الوهابية الأخرى - أسوار المدينة - البساتين - المناخ - الأغنام ، الماشية ، الصيد - السكان الزنوج ، أسباب كثرتهم في الرياض - المصاهرة والنسب بين الأفارقة والعرب الجنوبيين- إسماعيل وقحطان - تحرير العبيد - الخضيرية - وضعهم الاجتماعي - سكان نجد - بنو رميم- شخصيتهم العامة- تدهور التجارة - الزراعة - النزعة القتالية - تأملات - لغة نجد - اللهجتان العربيتان الرئيستان - أصل هاتين اللهجتين والفرق بينهما - ملاحظات .

كنا نرى أمامنا واديًا طبيعيًا واسعًا ، ومن أمام ذلك الوادي كنا نرى ، تحتنا مباشرة ، منحدراً من الحصى ، كنا نقف على قمته ، وتقع عليه مدينة الرياض ، العاصمة ، تلك المدينة الكبيرة الواسعة ، التي تصنع الأبراج العالية ، والأسوار الدفاعية المتينة ، تيجانا لها ، كما كنا نرى أيضًا كتلة من الأسطح والشُّرف ، التي كانت تشرف وتطل عليها قلعة الأمير فيصل الملكية ، تلك القلعة الضخمة غير منتظمة الأجناب ، وإلى جانبها مباشرة ، يوجد قصر فسيح ، بناه وعاش فيه ابنه الأكبر (الأمير) عبد الله ، وكانت تنتشر هنا وهناك أيضًا مباني أخرى مميزة ، خلال متاهة من الأسطح الرمادية ، ولكننا لم نكن قد عرفنا بعد شيئًا عن هذه المنازل أو عن سكانها ، ومن حول المدينة ، وعلى امتداد ثلاثة أميال عبر السهل الذي يحيط بالمدينة ، شاهدنا بحراً من النخيل المتمايل فوق الحقول الخضراء ، وبساتين جيدة الري ؛ بينما تناهى إلى مسامعنا في المكان الذي توقفنا فيه أزيز غناء السواقي ، على بعد حوالي ربع ميل ، أو ما يزيد على ذلك قليلاً ، من أقرب أسوار المدينة إلينا . وعلى الجانب الآخر ، في اتجاه الجنوب ، كان وادي الرياض يتصل بسهول اليمامة الأكبر والأكثر خصوبة ، تلك السهول التي تزداد فيها كثافة بيارات النخيل والقرى ، التي نستطيع أن نميز من بينها مدينة منفوحة الكبيرة ، التي لا يقل حجمها كثيراً عن حجم مدينة الرياض نفسها ، ونشاهد أيضا في الخلفية البعيدة سلسلة الجبال الزرقاء ، وسلسلة جبال اليمامة مثلمة القمم مثل أسنان المنشار ، التي شبهها ، عمرو بن كلثوم ، منذ حوالي ألف وثلاثمائة عام ، بالسيوف التي يمتشقها أصحابها أثناء القتال ؛ وكانت تلك

السلسلة تخفي خلفها صحراء الجنوب الشاسعة ، أو إن شئت فقل الدهناء .
وفي ناحية الغرب، يطبق الوادي ، وتضيق التواءاته المتجهة إلى الأعلا، ناحية الدرعية ، في حين تشكل جبال الأفلاج المنخفضة ، في الجنوب الغربي ، فاصلاً بين وادي الرياض ووادي الدواسر ، ومن ناحية الشرق يتصل وادي الرياض ، عن طريق الأرض المكسرة والمتموجة ، بوادي السُلَيّ ، الذي يمتد فرعه الشمالي إلى ما بعد سلسلة جبال طويق الداخلية أسفل جبل عطا الله، أما فرعه الجنوبي فيعبر مساحة كبيرة من الرمال، التي تندر فيها بيارات النخيل أو القري ، وبعد أن يتجاوز الفرع هذه القرى ، ينتهي عند بلدة الحوطة ، التي كانت منافسًا للرياض في يوم من الأيام ، والتي تمثل في الوقت الحالي ، دور الإقطاعي الساخط على الرياض ، هنا ، تقع منطقة الحريق على حدود الصحراء ، وتطبق عليها من ناحية الشمال ومن ناحية الشرق ، إلى أن تتصل بحدود قطر الخارجية وآخر حدود الحكم العماني ، ومن ناحية الشرق ، ومن مسافة بعيدة ، أرى خطًا أزرق طويلاً ، يحدد أبعد مرتفعات جبل طويق ، ويخفي عن الأنظار كلاً من أراضي الأحساء المنخفضة وشواطئ الخليج الفارسي ، وفي جميع الدول التي زرتها ، وما أكثرها ، يندر أن أرى منظراً طبيعيًا جميلاً يتساوى مع هذا المنظر من حيث الجمال ، ومن حيث المغزى التاريخي ، ومن حيث الثراء والوفرة ، ولو قدر للقارئ الكريم ، أن يدخل دمشق من ناحية لبنان – المعادي ، وينظر إلى غوطه دمشق ، من المرتفعات الموجودة فوق المازه Mazzeh ، فلربما تكونت لديه فكره تقريبية عن وادي الرياض ، عندما ينظر إليه الرائي من ناحية الشمال ، ويتمثل الفارق هنا ، في أن وادي الرياض أوسع ، وأكثر تنوعًا ، وأن دائرة البصر هنا ، تحتضن سهولاً أكثر اتساعًا وجبالاً شديدة الانحدار ؛ في حين يشكل الخليط المكون من الجفاف الداري ، والخضرة النباتية الشديدة ، وازدحام السكان ، والدروب الصحراوية ، تشكيله لا تجدها إلا في الجزيرة العربية وحدها ، والتي إذا قارناها بتشكيلة كل من دمشق وإيطاليا نجد أن الأولى متواضعة والثانية تبعث الملل في النفوس .

كانت سحابة من الضباب الخفيف ، أول ما شاهدناه منذ أيام كثيرة ، وهي تغطي المدينة ، وتدل على غزارة رطوبة البساتين ، ولكن الشمس الحامية سرعان ما بددت ذلك القناع الخفيف من الضباب ، في حين كانت الزيادة الطفيفة ، في درجة الحرارة ، تشير إلى أن هذه المنطقة لا تصطبغ بصبغة المناطق الجنوبية من حيث دائرة العرض ، أكثر من تلك المنطقة التي تجاوزناها بالفعل ، وإنما هي أيضًا معرضة لهبوب رياح الصحراء الحارقة المجاورة لها ، والتي تمتد إلى ما بعد الحافة الداخلية في منطقة اليمامة ، على شكل فرن شاسع ، يصل إلى شواطئ المحيط الهندي .

ووقفت ، مع بركات ، بذلولينا بضع دقائق فوق هذا المرتفع ، لأدرس وأتمتع بذلك المشهد الفريد ، وأحاول تناسي القلق الذي يلازم أول زيارة أقوم بها إلى عرين الأسد ، في حين توقف معنا أبو عيسى ، أيضًا برغم أن هذا المشهد ليس مألوفاً له ، توقف الرجل معنا ، عن طيب خاطر ، ليوضح لنا معالم المنظر الأساسية ويسميها لنا ، ويوضح لنا أيضًا الطريق الذي يؤدي إلى منزله في الإحساء ، وهبطنا من ذلك المنحدر ودرنا حول حزام المزارع الأول الذي يحيط بالمدينة ، وفي هذه الأماكن ، كان كثير من الرجال يحيون مرشدنا تحية تنم عن الود والإخاء ، وأنهم يعرفونه منذ زمن بعيد ؛ وكان في مقدمه كل هؤلاء ، صبي صغير ، كفله أبو عيسى قبل عدة أعوام ، وهو من أيتام هذه المنطقة ، ووفر له كل ما يحتاجه من التعليم ووسائل الحياة ، بكرم منقطع النظير في الجزيرة العربية بل وفي أي مكان آخر ، إلى أن استطاع ، ذلك الصبي ، أن يشق لنفسه طريقًا في هذه الدنيا ، تصادف أن ذلك الصبي كان يملأ قربة ماء ، لحظة وصولنا ، من بئر قريبة من الطريق الذي نسير عليه ، ويجري الصبي ناحية أبي عيسى ليقبل يده ، وليثبت ، بكل إخلاص سروره البالغ لرؤية أبي عيسى مرة ثانية ، إن الاعتراف بالجميل ليس فضيلة عربية خالصة وإنما هو فضيلة أوروبية أيضًا ، وذلك بغض النظر عن الجهل والإساءة من جانب بعض الأجانب الذين حاولوا إثبات العكس ، ومع صحبة صغيرة من الأصدقاء الذين كانوا يسيرون معنا ، ويضحكون ، ويتحدثون ، دخلنا طريقًا فرعيًا ، يقع بين الإسطبل الملكي من ناحية وبستان فسيح يملكه عبد اللطيف ، قاضي المدينة ، من الناحية الأخرى ، وبعد فترة قصيرة شاهدنا منطقة المدافن الكبيرة ، التي تمتد بحذاء سور المدينة الشمالي – الشرقي ، والتي تضم رفات كثير من السكان منذ زمن بعيد ؛ مقابر منخفضة ، بدون شواهد ، وبدون تذكارات ، وبدون نقوش أو تواريخ ، ويرقد بين هؤلاء الموتى الأمير تركي ، والد الملك الحالي ، ويجانبه أيضاً منافساه القتيلان مشاري وابن ثنيان ، مع رجال آخرين ذاع صيتهم أيام أن كانوا على قيد الحياة ، ولكنهم اليوم يتساوون مع أحقر وأفقر إخوانهم المواطنين .

ومنطقة المدافن هذه ، تمر بها عدة مدقات تتجه صوب بوابات الرياض الرئيسية ؛ ونحن بدورنا سرنا في واحد من تلك المدقات ، الذي أوصلنا إلى البوابة الشمالية الشرقية ، وهي عبارة عن مدخل واسع ومرتفع ، توجد على جانبيه ، أبراج سميكة مربعة الشكل ؛ ونرى داخل الممر مجموعة من الحراس المسلحين بالسيوف .

ويرد أبو عيسى على اعتراضهم له ، ثم يقودنا بعد ذلك إلى داخل المدينة ، وهنا ، نجد أنفسنا وللمرة الأولى في شارع واسع ، يفضي إلى القصر مباشرة ؛ وكانت على جانبي هذا الشارع منازل كثيرة ، كان معظمها مكونا بين طابقين ، كما كانت هناك أيضا آبار الوضوء ، ومساجد مختلفة الأبعاد والأحجام ، وقليل من أشجار الفاكهة المزروعة هنا وهناك في أحواش المنازل . وبعد أن سرنا حوالي مائتي ياردة ، أو ما يزيد على ذلك، شاهدنا عن يميننا قصر الأمير عبد الله، وهو بناء متوازن شيد مؤخراً ، وهو مربع الشكل ، له بوابات من الخشب المحفور حفراً جيداً ، ومكون من ثلاث طوابق وله نوافذ يعلو كل منها الآخر ، وتأملنا مجموعات العبيد ، والخدم ، الذين كانوا يجلسون بالقرب من الأبواب ، أو على المقاعد الموجودة في الخارج ، في بَرَاد ظل الصباح ، وتأملّوناهم أيضاً . وبعد أن مضينا في طريقنا ، إلى مسافة صغيرة ، شاهدنا قصر جلوى ، شقيق الملك فيصل ، على الجانب الأيسر ، والذي كان خارج مدينة الرياض في مهمة ، في اتجاه قلعة بيشه ، وفي النهاية وصلنا الساحة الكبيرة المربعة ، والتي يتكون جانبها الأيمن، الجانب الشمالي إن شئت ، من دكاكين ومتاجر ؛ بينما يشغل جانبها الأيسر بالكامل منزل ضخم للأسرة المالكة النجدية ؛ ومن أمامنا ، وإلى ناحية الغرب ، أشاهد ممرا طويلاً مغطى ، تحمله مجموعة من الأعمدة غير المتقنة ، يعبر الساحة كلها ، ويصل القصر بالمسجد الكبير ، الذي يصبح بذلك متصلاً اتصالاً مباشراً بالقلعة من الداخل ، ويتيح الفرصة (للملك) فيصل المسن ، أن يمر دون أن يراه أحد إلى المكان الرسمي المخصص له في صلاة الجمعة ، دون أن يُعَرِّض نفسه لفضول الآخرين أو لخطر الخيانة ، والسبب في ذلك أن المصير الذي لقيه والده ، وعمه اللذان سبقاه في تولي العرش ، وكان على يدي مغتالين طعناهما بخنجريهما أثناء الصلاة وسط الجماعة ، هو الذي زاد حرص الملك فيصل في هذا الصدد الذي لم يقتصر على وقت الصلاة وحدها ، ومن خلف بهو الأعمدة هذا ، هناك أيضًا بعض الدكاكين والمتاجر الأخرى التي تكمل المربع ، أو إن شئت فقل متوازي الأضلاع ؛ ويصل طول ذلك المتوازي ، إلى حوالي مائتي خطوة ، أما عرضه فيصل إلى ما يزيد على نصف طوله ، وفي منتصف هذه المسافة ، وفي ظل أسوار القلعة الذي يمتد إلى مسافة بعيدة ، تجلس حوالي خمسين أو ستين امرأة ، كل واحدة منهن معها بضاعة من الخبز ، والتمر ، والحليب ، والخضراوات ، أو الحطب تعرضها للبيع ؛ ومن حولنا ، نشاهد ، جموعًا من المتسكعين ، ومن الإبل ، ومن الذلول ، ومن الجوالات المكدسة ، وكل ما يصاحب ذلك من مستلزمات السوق العربية .

ولكننا لم نتوقف لنطيل النظر إلى هذه الأشياء ، ولم نلق لها بالا ؛ فقد كان لقاؤنا الملك أول مرة ، والموقف الحرج الذى ينتظرنا يستحوذان على كل تفكيرنا . وعليه سرنا بحذاء هذا السور الأخير ، الذى يمتد من الداخل ، ويشبه إلى حد كبير المظهر الخارجى للقلعة أكثر من كونه مسكنًا آمنا ، وإلى أن وصلنا إلى بوابة منخفضة وضيقه، هى المدخل الوحيد للقصر ، وتقع هذه البوابة بين باستينين[1] ، ولها أبواب ضخمة الحجم تفتح عن طريق الطى ، ولها إطار من الحديد ، مع إنها كانت مفتوحة فى تلك الساعة من النهار ، وتؤدى إلى ممر مظلم ، ظننته ممراً من ممرات السجون ؛ فى حين بدى لنا عدد الحراس ، الذين منهم الأبيض ، والأسود ، ولكنهم جميعًا يتمنطقون سيوفًا ، ويكادوا يسدون الطريق ، ولا يستسيغهم من هم من خارج القصر ، وبخاصة الأجانب ، كانت تحف جدران هذا الممر مقاعد مصنوعة من اللبِّن ، لكى تكون بمثابة أماكن للانتظار ، يجلس عليها الزوار ؛ وهنا بدأنا نرتاح على بعد مسافة صغيرة ، من بوابة القصر ؛ ولكن أبا عيسى دخل على الفور ليعلن نبأ وصولنا ، ووصول النائب .

كنا لا نزال فى فترة الضحى، وربما كانت الساعة الثامنة أو تزيد على ذلك قليلاً . كان المارة كثيرون ، والسبب فى ذلك أن السوق المجاورة كانت قد فتحت أبوابها ، وبدأ الجميع يغدون ويروحون سعيًا على أعمالهم ، ومع ذلك لم يقترب أحد منا لاستجوابنا على أى نحو من الأنحاء ، برغم أن العديد من المحيطين بنا كانوا يطيلون النظر إلينا ؛ وشعرنا بالدهشة إلى حد ما ، بسبب عدم معرفة الناس لنا والفتهم معنا ، وهو الشئ الذى ما زلت لا أعرف له سببًا حتى الآن ، ولكن الجليد ذاب بعد انتظار دام نصف ساعة .

كان أول من أقترب منا وحيانا رجل طويل هزيل ، شاحب المحيا ، ذكى من سلالة "الدبابيس" السريين ، ولكنه كان حاد الطبع ، كان هذه الشخص مهندمًا جداً ، برغم أن ثيابه كان فيها شئ من الحرير الشرعى ، كما كانت تحيط به مسحة من الأهمية الواضحة تتجلى فى دماثته وأدبه الجم ، وكان ذلك ، هو عبد العزيز ، ذلك الشخص ، الذى لم أعثر على لقب يصلح أن أطلقه عليه ، وبونما إشارة من أى نوع كان إلى دوانتج ستريت ، مقر رئيس الوزراء البريطانى ، أجدنى أطلق عليه لقب وزير الشئون

(١) البستين : هو الجزء البارز من القلعة (المترجم) .

الخارجية ، لأن ذلك في نظرى هو عبارة عن ترجمة أمينة لحقيقة عمله ، أو إن شئت فقل "وزير الخارجية" ، ووظيفة عبد العزيز تتصل بكل مالا يتعلق بالإدارة الداخلية ، سواء أكانت سياسية أم مالية ، أو عسكرية ، من هنا ، فإن عبد العزيز هو الذى ينظم مسألة استقبال السفراء القادمين من البلاط الملكي الأجنبي ، أو إيفاد السفراء من الرياض نفسها؛ ويتبع إدارة عبد العزيز مسألة إرسال المعاملات، والرسائل الحكومية ، وكل ما يتعلق بتفاصيل المسائل الصغيرة التى تتعلق بالحلفاء أو الجيران ، وبخاصة ما يتعلق منها بقبائل نجد البدوية ، كما تتبع له أيضًا سجلات أسماء المدن والمناطق ؛ كما تتبع له أيضًا مسئولية الإشراف على فرض وجباية المكوث على الصادرات والواردات ، وتلك مهمة مربحة ، وبخاصة عندما تسند إلى شخص لا يكون له ضمير حيٌّ أو محب للكسب ، إن خصائص عبد العزيز هى تلك الخصائص التى تميز الغالبية العظمى من عائلات الرياض العريقة ، بل أن ذلك يشيع فعلاً في كل أنحاء العارض ، ومظهر عبد العزيز يدل على إنه شخص متحفظ ومباشر دائمًا ، حلو اللسان ، ومجامل رغم أن تصرفاته وسلوكه يتسم بالتجهم ، ومن تحت كل ذلك كراهية ، وحسد ، ونزعة إلى السلْب ، وإلى الفسِق كفيلة بأن تجعل القرب منه مسألة تنطوى على كثير من المخاطر ، وتجعل عداءه قاتلاً ، وصداقته تثير الشك والريبة ، هذا هو الطابع الفريد فى أهل العارض ، وهذا هو جوهر ولب الحكومة الوهابية ؛ وقد رأينا بالفعل عينه ومثالاً لهؤلاء الناس فى مهنا حاكم بريده ؛ ولكن هنا ، فى الرياض ، منطقة كاملة من أمثال مهنا ، وعندما كنت بينهم ، كانت تتردد على مسامعى دومًا الكلمات التى تقول : "مكروهين ، ويكرهون بعضهم بعضًا" ؛ وإذا كان لى أن أبسط هذه المسألة للقارئ فأنا أقول إنهم من أشباه الشخصيات الشهيرة التالية : سول **Saul** أو دويج **Doeg** ، أو جوءب **Joab**، أو اشيتوفيل **Achitophel** ، وعلى كل حال ، الأساس والأصل فى شخصية أهل نجد هما الحسد والكراهية ؛ أما النزعة إلى السلب والنهب والفسق ، برغم ندرتهما بشكل عام ، فهما من قبيل التزيين والزخرفة ؛ والتباهى هنا يشيع بين الجميع ، أما الغرور فأمر نادر هنا ، يضاف إلى ذلك أن أهل العارض يتميزون بالشجاعة العظيمة ، والقدرة على التحمل ، والإصرار على الهدف ، وإرادة لا تلين مشوبة بمكر شديد ، وعواطف وانفعالات تنتظر الوقت الملائم ، وجراءة ووقاحة مؤجلة إلى أن يحين أوانها تمامًا ؛ ومن السهل جداً أن نعرف الأسباب التى تجعل امبراطورية هؤلاء الرجال واسعة الانتشار وتحظى بكراهية واسعة على حد سواء ، وكذلك أيضًا الأسباب التى

تجعل الناس يخضعون لهذه الامبراطورية ويشمئزون منها ، وأيضًا الأسباب التي تجعل هذه الإمبراطورية تمارس الضغط الحاسم الهادئ حينا ، واللجوء ، حينا آخراً إلى الرعب المخيف الذي يترتب عليه إسالة الدماء على نطاق واسع .

وقبل أن أدخل في تفاصيل الخمسين يومًا التي مضت عليَّ في هذه المدينة الغريبة ، وكل ما يتعلق بهذه المدينة ، فلا بد أن أكون قريبًا ما أمكن من مخزون الثقة والصدق اللذان يوليني القارئ إياهما بوصفي إنجليزيا ، برغم أني رحَّال ، وأنا أعلم تمامًا أن الأحداث ، والشخصيات ، والمشاهد التي يتعين عليَّ أن أضعها الآن أمام القارئ ، عرضه ، من حيث روايتها ، لأن تكون مصدراً لكثير من الإزعاج من ناحيتين ؛ أولهما ما يتعلق بمظهر هذه الأحداث والشخصيات والمشاهد ، التي لا يصدقها البعض ، وثانيهما أنني أجعل نفسي في كثير من الأحيان بطلاً لهذه القصة ، ولكن أي من هذين الجانبين غير الملائمين ، لابد وأن يؤدي بالضرورة إلى أصل الحقائق ؛ وهذا هو ما رأيته ، وهذا هو ما حدث فعلاً ؛ وكل ما يسعنى عمله هو أنني سوف أحكي وأترك التعليق للآخرين ، وأنا أهدف من وراء كل ذلك إلى تقديم فكرة صحيحة وكاملة بقدر المستطاع عن هذا البلد ، وعن هذه الحكومة ، وعن هذه المدينة ، وعن هذا الشعب ، المهم والمثقف سواء أكان ذلك عن طريق النظر إليه بمعزل عن الآخرين ، أم بالقياس إلى الأمم الأخرى ، والأنظمة الأخرى ، أو الحكومات الأخرى . وهذه القياسات هي التي تفرض نفسها في معظم الأحيان ، أو رغمًا عني في أحيان أخرى ، هذه القياسات لا يمكن أن تغيب عن ذهن القارئ ؛ ولن يكون ذلك من قبيل الخسارة أو الضياع أن نفرض هذه القياسات على ذهن القارئ ؛ والسبب في ذلك أن أفضل مرآة يرى المرء فيها نفسه هي وجه جاره ، وليسمح لي القارئ أن أقول ما مفاده ، أن كل من ينظر بمحض الصدفة إلى وجهه الطبيعي في هذه المرآة الشرقية لن يذهب ، مثلما كان يحدث في الماضي ، إلى حال سبيله ، وينسى نوعية وسلوك الرجال الذين كان ينتمي إليهم ، أو الذين ينتمي إليهم بالفعل ، وأنا على ثقة أن هذه الملاحظات ، تكفي أن تكون بمثابة مقدمة واعتذار ، إذا ما تطلب الأمر ذلك ، عن كل ما سأورده بعد ذلك .

وصل عبد العزيز ومعه بعض خدم القصر، إلينا في مهمة رسمية وجلس بجانبي ، ثم بدأ بعد ذلك يسألنا عن المكان الذي جئنا منه والغرض الذي جئنا من أجله ، بفم لا تغيب عنه الابتسامة وترحيب شديد . وبعد أن استمع إلى ردودنا ، التي كانت الردود نفسها ، التي رددنا بها في الأماكن الأخرى، وجه إلينا دعوة للدخول إلى فِنَاء القصر ،

ونشرب قهوة صاحب الجلالة ونتمتع بكرمه وضيافته ، ووعدنا باتصالات سريعة من الملك نفسه ، خلال نهار ذلك اليوم ، وعلى أثر هذه الدعوة ، سرنا خلف عبد العزيز ، وتجاوزنا البوابة ، وبعد أن تجاوزنا الجزء المكمل لهذه البوابة وصلنا إلى ما يشبه الحارة الداخلية ، أو إن شئت فقل ممراً مفتوحًا ، وعلى أحد جانبي هذا الممر كانت توجد الأجنحة التي يشغلها الملك ، وغرفه اجتماعاته الخاصة ، ومكان العبادة ، أو إن شئت فقل المصلّى ، ومن خلف هذا الجناح يوجد الجناح الخاص بحريمه كثير العدد ، وجناح كريمته غير المتزوجة ، تلك الآنسة العجوز التي لا يقل عمرها عن خمسين عاماً على أقل تقدير ، والتي تقوم بدور السكرتيرة بالنسبة لوالدها في المراسلات الهامة ؛ والتي لم يكن الملك فيصل ، على استعداد للتخلي عنها ، لهذا السبب نفسه ، وذلك على الرغم من تقدم كثير من الخطّاب لطلب يدها ، وهذا القسم من القصر واسع وفسيح ، ومرتفع ، إذ يصل ارتفاعه إلى ثلاثة طوابق ، ويتردد ارتفاعه بين خمسين وستين قدماً من الأرض إلى السطح، وفي هذا الجناح قتل مشاري ، على يدي عبد الله بن الرشيد ، والد صديقنا طلال بن الرشيد ، وأمام هذا الجناح ، ولكن على الجانب الداخلي وإلى اليمين من ذلك سابق الذكر، يوجد حوش مربع الشكل غير مسقوف ، تحيط به مقاعد ، وفيه يلتقي الملك فيصل الناس في بعض الأحيان ، وفي هذا الحوش يوجد باب خاص ، عليه حراس شداد ، وضيّقٌ مثل الباب الأول ، ويؤدي إلى الجناح الذي سبق أن وصفناه ، والذي يشكل ، بطريقة أو بأخرى ، قصراً مستقلاً داخل القصر ، ولهذا الجناح ، على كل حال ، نقطة اتصال أخرى ببقية القصر ، وذلك عن طريق ممر مسقوف ، ينزل من الطابق الثاني إلى الممر الذي نقف فيه الآن ؛ وهناك مدخل ثالث عن طريق البهو المعمد الطويل الذي يمر من فوق الأعمدة إلى المسجد الذي لا يبعد عن هذا المكان سوى مائة ياردة ؛ ولا توجد على كل أجناب القصر أية مداخل أخرى من خارجه ، سوى هذا المدخل ، وينبغي عليَّ أن أضيف هنا أن جميع نوافذ القصر من النوع المتين القوي ، كما أن أبواب القصر من النوع الصلب ومزودة بأقفال ومزاليج كبيرة ، في حين يوجد خارج القصر منحدر خفيف ، يحيط بالجزء الأسفل من الأسوار ، ويزيد من سمكها ، علاوة على أنه يضفي عليها شكل التحصينات المنتظمة ، أخيراً ، الدور الأرضي ، خال من النوافذ سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، تطل على القصر من الخارج .

وعلى الجانب الآخر من المر ، توجد القهوة فى الطابق الأول ، ويدخل الزوار إلى هذه القهوة عن طريق ردهة يتركون فيها أحذيتهم أو سيوفهم ، أو الاثنين معًا إن كان الزائر يلبس حذاء أو يحمل سيفًا ؛ والقهوة كبيرة ، ويصل طولها إلى ما يزيد على أربعين قدمًا وعرضها يقترب من هذا الرقم ، ولكنها منخفضة السقف وغير جيدة الإضاءة ، وعلى مسافة بعيدة ، داخل هذا المر يوجد أيضًا الباب الذى يؤدى إلى السجن ، وقد زرت اثنين من غرف هذا السجن أو إن شئت فقل ، زنزاناته ؛ وهذه الزنازين تستحق الانتقاد فهى كبيرة ، جيدة التهوية ، ومزودة بكل ما يلزم لراحة النزلاء ، وحبس الدم ، أى المجرمين من الدرجة الأولى ، موجود فى الأسفل ، تحت الأرض ، وربما يكون أردأ الزنازين ؛ وأظن أنه ليس من اللائق أو المناسب أن أطلب الدخول إليه ، وخلف سجن الدم مباشرة ، ومقابل الحوش الموجود على الجانب الآخر وسبق أن وصفته ، هناك سلم آخر ، فى العراء ، يؤدى إلى الطابق الثانى ؛ حيث توجد غرفة الضيوف ، تتسع لحوالى أربعين فردًا وهى جيدة التهوية وهواؤها بارد ، ومن خلف هذه الغرفة مباشرة ، يقال أن هناك بوبيا صغيراً داخل الجدار ، يفتح على المر السرى المؤدى إلى جناح الحريم ؛ ومن هذا الفتحة غير النافذة فى الجدار ، تحجب الفضيحة الشعبية ، فيصل ، الذى ربما يسترق السمع ، وهو لا يُرى ، من خلال حاجز رقيق على كل ما يقوله زواره المطمئنون ، فى لحظات الانطلاق الحر ، ويسجله ليستخدمه فى أغراضه الخاصة ، إن مغْوَلْ هاملت لجدير بتلك الفئران التى تختفى وراء هذه الستائر المزركشة ؛ والأمر هنا أنكى وأشد ، وبخاصة إذا ما أجبنا بالإثبات على السؤال الذى يقول : "هل الملك هو الذى وراء الستار ؟" ومن تحت غرفة الضيوف هذه يوجد الجناح والغرف التى يسكنها خدم القصر والموظفون .

ويمتد المر بعد ذلك إلى الجزء الرئيسى من القصر ، بحيث يمر من تحت الطابق الثانى ، ثم يتفرع فجأة على الجانبين ، فهو يفضى، من الناحية اليمنى ، إلى المطبخ ، ثم بعد ذلك إلى المصلّى الداخلى الخاص بسكان القصر ، باستثناء فيصل وحريمه ؛ وينتهى المر بعد المصلى إلى حوش (فناء) ثان واسع ، توجد على أحد جانبيه ترسانة الأسلحة ومخازن البارود ، وعلى الجانب الآخر ورش متنوعة ، من بينها محل لتصليح الساعات ، كلها تعمل فى خدمة الملك مباشرة ، وبجوار المطبخ مباشرة يوجد المسكن الذى ينزل فيه عبد الحميد ، ذلك المواطن البلخى Balkh ، الذى تدور من حوله الشكوك ، والذى يقال عنه إنه من المهتمين جدًا بالدراسات الدينية ، والذى يشغل نفسه

أيضًا بكثير من الأمور ؛ والذى سوف أورد الكثير عنه فيما بعد ، وعلى نفس هذا الجانب من الحوش يسكن صديقنا عبد العزيز ، وزير الخارجية ؛ ولكنى لم أدخل ، غرفة استقبال عبد العزيز ، واكتفيت بمشاهدة بابه والتعرف عليه وعلى المكان ، من قبيل زيادة معلوماتى عن المكان .

والممر الأيسر يفضى إلى الجناح الكبير الأنيق الذى يشغله محبوب ، رئيس الوزراء فى الامبراطورية ، ومقابله مباشرة يوجد المكان الذى يشغله مطوع القصر ، وفى المكتب الذى يليه مباشرة يوجد عالم نجدى آخر ، وهما اللذان يقومان على أمر الدراسات الخاصة باستهجان ، وتكفير كل المذاهب الأخرى ، باستثناء مذهبهم ، وعلى مسافة قريبة من جناح المطوع وزميله يوجد جناح كبير يشغله جوهر ، وزير الخزانة (ويبدو أن اسمه يتفق مع وظيفته) ، ومقابل جناح جوهر يوجد الجناح الذى يشغله نصير ، وهو ما يشبه كبير الياوران ولكنه يتصرف بناء على أوامر سعود الولد الثانى للملك فيصل ، عندما يزور والده فى الرياض ، وأخيرًا ، يوجد جناح أبو شمس رئيس مدفعية الجيش . وإلى جانب هؤلاء الكبار (الأعيان) هناك مجموعة أخرى من الموظفين تضم ستين أو سبعين موظفًا ، معظمهم من العبيد ، يسكنون فى هذا القسم من القصر ؛ فى حين أن كل واحد من هؤلاء ، كبيرهم وصغيرهم ، له جناح مستقل تعيش فيه زوجاته اللائى خولهن له الشرع ؛ ويضاف إلى ذلك ، أن كل عائلة مستقلة بذاتها تماماً عن العائلات الأخرى : ومن هنا ، يستطيع القارئ أن يتخيل مدى كبر حجم هذا القصر ومدى تجانسه ، وأخيرًا ، هنـــاك على الجانب الأيسر فنـاء كبير ، أو مساحة كبيرة ، تساوى المساحة التى أشرنا إليها ، فى الجانب الأيمن ؛ وفى هذه المساحة يوجد الباب السِّرى ، الذى أنشئ للاستفادة منه فى أوقات الحصار ، أو فى حالات الاغتيال والخيانة ، أو الطوارئ الأخرى ، وتحيط بهذه المنازل التى تشبه خلية النحل أسوار عالية وأبراج مستديرة مجوفة تستعمل فى الدفاع عن القصر ، وثلثًا الدائرة عبارة عن خندق دفاعى عميق ، ولكنه خالٍ من الماء .

وإذا كان القارئ قد شاهد ، والأغلب الأعم أنه فعل ذلك ، مبنى التواليريز Tuileries فى باريس ، فإنه يستطيع ، وعلى الفور ، تخيل ضخامة القصر الذى أتكلم عنه هنا ، لأنه يساوى من حيث المساحة والإنشاء ثلثى هذا المنشأ الفرنسى ، كما أن ارتفاع القصر يقل قليلاً عن ارتفاع ذلك المبنى الفرنسى أيضًا ؛ وذلك باستثناء الأسقف

الهرمية الزاوية أو إن شئت فقل الطفايات الخاصة بالمبنى الفرنسي ، ولكن من حيث المنظر والشكل الجمالي فإن المُنْشَأ الفرنسي هو الأحسن ، نظراً لأن هذا اللوفر الوهابي خالي من الذوق والمظاهر المعمارية ، وقد أهملت الاعتبارات الأخرى كلها ، في سبيل القوة والأمن والسلامة ؛ زد على ذلك ، أن الشكل الخارجي لمبنى النيوجيت Newgate ، في بريطانيا ، شبيه إلى حد بعيد بقصر الملك فيصل ، برغم أني لا أعرف مدى الشبه الذي بين أوكار المجرمين في لندن وأوكار اللصوص في نجد . وعلى كل حال ، فإن أوكار اللصوص في نجد ، مؤثثة تأثيثًا جيداً ، ومجهزة تجهيزًا طيبًا ، وبخاصة الأقسام المخصصة للعائلة المالكة نفسها ، ولمحبوب ، ولجوهر ؛ وغرف الدور العلوي مضاءة إضاءة جيدة ؛ ولكن الدور الأرضي ليس كذلك ، مما يجعله مناسبًا لاستعمال الغاز ، إذا ما أمكن إدخاله إلى هذا المكان .

كان ينبغي على أن أشير إلى أن القسم المخصص للعائلة الملكية ، أي ، القسم المخصص (للأمير) فيصل وملكاته الكثيرات ، رباعي الأضلاع ، وله فناء (حوش) داخلي ، ولكن لم يُسْمَح لي مطلقاً بدخول هذا الحوش ؛ لأن هذه هي الأجنحة الخاصة بالنساء اللاتي يجب ألا تنظر اليهن الأعين، والديوان، المخصص للاستقبالات الخاصة ، في هذا الجناح ، وهو المكان الوحيد الذي يسمح للغرباء بالدخول إليه ، واسع ومريح ، ويصل طوله إلى حوالي خمسين قدماً ، وعرضه حوالي عشرين قدمًا أو ما يزيد على ذلك قليلاً ، وارتفاعه أكبر قياساً على أبعاده .

في الحوش (الفناء) الأول ، وفي ذلك الحوش الموجود على الجانب الأيسر والذي يعيش فيه أبو شمس الشجاع ، توجد بعض النماذج التي علاها الصدأ ، من المدفعية التي تثير الفزع والرعب في النفوس العربية ، وعددت من مدفعية الميدان حوالي عشرين قطعة ، ست منها لا تزال صالحة للاستعمال ؛ وقد قيل لي ، أن هناك قطعًا أخرى ، لم أرها ، وقيل إن في الأحساء والقطيف ، هناك حوالي ثلاثين قطعة أخرى ؛ وذلك يعني أن بطارية مدفعية الملك فيصل تقدر بحوالي ستين قطعة ، أو ما يقرب من ذلك من تلك الماكينات الحربية ؛ وحسب تقديري الشخصي فإن ربع هذا العدد فقط هو الذي يصلح للاستعمال ، وذلك من منظور تفتيشي أنا شخصياً على هذه القطع ؛ أما بقية القطع "فلا تصلح لشيء إطلاقًا ، وجلالته يعرف ذلك" ، ومع ذلك فهي "للمظهر" وليست للمخبر .

هذا هو حال القصر ، الذي عرفته فيما بعد بالتفصيل ، وهذه هي مشتملاته . ونحن كنا قد توقفنا عند زيارتنا للقهوة ، كان كبير صناع القهوة شاباً حسن الطبع ، ومن الغريب أن اقول : إنه لم يكن عبداً ، أو حتى رجلاً من رجال العارض ، ولكنه كان واحداً من أهل الحريق ؛ كان يجلس في القهوة العديد من البشر ، وتلي ذلك تجاذب أطراف الحديث ، ولكن يبدو أن الجميع كانوا متوترين ، والسبب في ذلك ، أن أحداً في هذه المدينة ، بل في هذا القصر بطبيعة الحال ، من أولئك الذين لا يودون أن يصيبهم الأذى ، لا يمكن أن يطلق لسانه العنان ؛ وبالتالي فإن الجميع يتصرفون تصرف التلاميذ عندما يكون المدرس معهم في الفصل ، ومع ذلك ، كانت القهوة لذيذة ؛ والرياض هي ومقاهيها لا تباري ولا مثيل لها في إعداد القهوة ، ويقينا فترة من الوقت نتمتع بتلك النكهة الطيبة ، في انتظار وصول المزيد من الأوامر ، من عبد العزيز ، أو من أي شخص آخر من أفراد البلاط الملكي .

ولكن مصادفة وصول النائب وحاشيته شغلت الجميع إلى حد لم يلتفتوا معه إلى الاهتمام بنا ؛ ومع حلول وقت الظهر كنا ما نزال ننتظر في القهوة دون أن يهتم بنا أحد ، بينما كانت أمتعتنا وإبلنا تنتظر ، في صبر ، خارج القصر في وهج الشمس . وأخيراً جاءنا عبد زنجي ، ووجه لنا الدعوة باسم الملك ، لتناول الغداء في غرفة الضيوف الموجودة في الطابق العلوي ؛ وفي تلك الغرفة تناولنا الأرز مع لحم الضأن ، المجّمل بالتمر ، وعندما نهضنا بعد تناول الطعام ، ذكّرنا الفاينميد(*) الأسمر بأن نحمد الله ونشكره وندعوه أن يطيل حكم فيصل مضيفنا .

كان أبو عيسى ، في الوقت نفسه ، قد خرج بصحبة بعض المرافقين الراكبين الموفدين من قبل القصر ، لمقابلة النائب واصطحابه إلى المسكن المخصص لاستقباله . وقد اندهش الإيراني تماماً عندما لم يجد أحداً من الأسرة المالكة بين من جاءوا لمقابلته، بل لم يكن هناك أحد من كبار القوم أو من أصحاب المراكز الكبيرة ، بل الأكثر من ذلك ، إنه ازداد دهشة على دهشة عندما ، اقتادوه ليس إلى حضرة جلالة الملك فيصل مباشرة وإلى العناق ، وإنما إلى غرفة الجلوس التي كانوا قد اقتادونا إليها من قبل ، وقدموا له غداء مماثلاً لذلك الذي تناولناه تماماً ، وأبلغوه بعد تناول الغداء أن

(*) الفاينميد : هو ساقي الآلهة (في الأساطير الإغريقية) والمقصود هنا : الخادم الذي يقوم على أمر تقديم الطعام للضيوف ، (المترجم) .

يدعو لفيصل وأن يعود المنزل المخصص له ، في حين سيحدد الملك الساعة واليوم اللذان يسمح وقت جلالته باستقباله فيهما .

ولم أر قط شخصًا بمثل هذا الاشمئزاز الذى كان عليه هذا الإيرانى فى تلك المناسبة ، وبلغة عربية مكسرة ، وبصوت عالٍ يسمعه نصف من هم فى القصر ، راح هذا النائب ينفس عن غضبه من العرب ، والبدو ، والوهابيين ، ومن نجد ، ومن المدينة ، ومن البلاد ومن كل شئ ، وبدا التجهم على رجال العارض الذين ، سمعوا ما يقوله النائب وفهموا بعضًا منه ، ولكنهم بلغوا من الأدب حدًا لم يستطيعوا معه أن يقـولوا أو يرنوا بأى شئ ، وربما كان فيصل موجودًا ، وغير مرئى ، يسمع ما يدور من خلال تلك الفتحة الموجودة فى الجدار ، كان أبو عيسى يعلم جيد أن العداء يكون متبادلاً فى مثل هذا الحال ، وأن النائب إذا كان يحسب أن الوهابيين وملكهـم هم مجرد همج ، ولا يستحقون ، بالتعبير الأوربى ، ان يسمح لهم بمسح حذائه ، فإنهم كانوا يعتبرونه أيضًا أجنبيا حقيرًا، وكافرًا ، وكتلة سيلقى بها فى نار جهنم ، وبذلك يتساوى العداء ويتوازن. ومن ثم ، بدأ أبو عيسى يشعر بحرج الموقف ، وحاول أن يواسى الشيرازى الغاضب بأعذار وتفسيرات من قبيل : ..... Se non vero, ben trovato حدث كل ذلك ، على مسمع ومرأى منا ، نظراً لأن المجموعة الإيرانية وصلت بعد أن كنا قد انتهينا من تناول غدائنا . وقد كتمت أنفاسى كى لا أضحك من أى من الجانبين ، وحاولت تصنُّع الجدية والتجهم ، آخذًا فى اعتبارى النجديين الذين كانوا من حولى ، وكنت التقط مفاتيح كلامى من أبى عيسى ، وفى الوقت نفسه ، همسنا إلى أبى عيسى ، بصوت خفيض ، إننا أيضًا بحاجة إلى مسكن لنا ومأوى لدوابنا ، كما أبلغناه أيضا إننا إذا كنا قد تناولنا الغداء فإن ذلولينا لم يتناولاه بعد ، كان مرشدنا على دراية تامة بمداخل القصر ومخارجه ، وبأسرع من البرق ، عثر أبو عيسى على عبد العزيز ، ورتب معه الأمور التى تخصنا ، نيابة عنا ، بل ، وافق وزير الخارجية ، أن يحضر بنفسه ، ليبلغنا ، وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة ، أن مسكننا المؤقت جاهز ، وأن أبا عيسى سيقوم ، على الفور ، بتوصيلنا إليه . والتمسنا منه أن نعرف ، إن أمكن ، إن كان الملك راضيًا وموافقًا على مقامنا فى المدينة وعلى المهمة التى جئنا من أجلها ، والسبب فى ذلك ، أننا كنا قد سبق لنا ، عند تقديم انفسنا أول مرة ، أن قلنا وبعبارات وهابية شديدة الوضوح ، أننا جئنا إلى الرياض "طمعاً فى كرم الله أولاً ثم فى كرم فيصل ؛ وأننا نطلب من الله ثم من فيصل ، أن يسمح لنا بممارسة مهنة الطب ، فى المدينة ،

فى حماية الله أولاً ثم حماية فيصل" ، وقد التزمنا ، فى مدينة الرياض ، بالنصيحة التى أسداها دوجبرى Dogberry التزامًا حرفيًا ، ويقول فيها : "قدِّم الله ، لأن الله يحمى ، ولكن اسم الله يجب ألا يقترن بهؤلاء الأوغاد" ؛ وأيا كان الشئ المطلوب أو المراد ، أو المرتجى ، لابد أن يسبقه اسم الله ، وليس هذا فحسب ، وإنما ذكر اسم المخلوق لا يمكن أن يقترن باسم الخالق باستعمال واو العطف ، نظرًا لأن ذلك يعنى المساواة بين الخالق والمخلوق ؛ وهذا تجديف أو تألهٌ واضح فى القول أو الفكرة . ومن هنا يجب استعمال "ثم" بدلاً من واو العطف ، ثم قال بركات : "من سوء الحظ ، أن من يزور نجد ولا يكون على معرفة سابقة بكل هذه الأمور النحوية ، قد يخسر رأسه إن هو ارتكب خطأ من هذا القبيل فى وجود هؤلاء الحْرفِيِّين" ، وسوف أقول الكثير عن ذلك فيما بعد : ولكن هيا بنا نعود إلى سياق حديثنا عن عبد العزيز ، ذلك السياسى الحق ، الذى رد على استفسارنا الثانى ، بتأكيد مبهم لنية الملك الحسنة ، ورعاية غير واضحة المعالم ، كما أنصرف ، فى الوقت نفسه ، النائب هو وحاشيته ، وهم فى كرب شديد ، إلى المكان المخصص لإقامتهم ، ونخس أبو عيسى ذلولينا ، يستحثهما على النهوض ، وساقهما أمامنا إلى منزلنا الجديد .

كان مقر إقامتنا فى قسم من قصر جلوى ، الذى كان خاليًا فى ذلك الوقت ، كما سبق أن قلت ، نظرًا لتغيب الأمير فى مهمة شبه عسكرية وشبه مالية أيضًا ، فقد خصصوا لنا قهوة فسيحة ، ملحق بها غرفتان ، وغرفة نوم فى الطابق العلوى ، وتركنا ذلولينا فى الحوش ، وجلسنا نستريح فى القهوة .

ولكن أظن أن الوقت قد حان "لتغيير المشهد ليمثل" الإجراءات التى كانت تتخذ من وراء ستار داخل القصر نفسه فيما يتعلق بنا ، ولتبين الأثر الذى تركته أحداث هذا الصباح على كل من (الملك) فيصل وبلاطه ، وسرعان ما عرفنا التفاصيل ، ومن الطبيعى أن تكون تلك التفاصيل مضحكة لسخافتها ومتأصلة فى الأرض وفى حكامها ، كما أنها محسوبة حسابًا جيدًا لتحدد نقاط ضعفهم ، كما تحدد أيضًا الظروف التى أمدتهم بقوتهم . وكانت الحقائق على النحو التالى :

عندما تلقى (الملك) فيصل الاستخبارات الخاصة بذلك السرب من الغرباء الذين وصلوا إلى بابه : القائم بالأعمال الإيرانى وشكاواه ، والمكيان بكذبهم الوقح ، والسوريان بأهدافهما الطبية ، فقد توازنه تمامًا ، وكاد يشتط غيظًا وغضبًا . عجوز

وأعمى ، أم خرافي ورعديد ، أم متعصب ومستبد ، ويغض النظر ، عن أي تركيبه من هذه التراكيب، التي يمكن أن تحدثها الظنون لدى هذه الجماعة المتنافرة التي اندفعت، على هذا النحو ، إلى عاصمته ، بل والتي خيمت عند أبواب قصره ، كل ذلك زاد انزعاج الملك فيصل ، وزاد شكوكه واستياءه أيضًا ، لقد تدنس مركز الصفاء الديني النجدي المقدس في لحظة واحدة وفي آن واحد من ثلاثة مصادر بغيضة وكريهة : الإيرانيين ، والمكيين ، والسوريين ، والشيعه ، والسنيين ، والمسيحيين ، والمهرطقين ، والمشركين والكفرة ، وكل ذلك كفيل بإنزال جهنم من السماء إلى الأرض ، أو بزلزلة الأرض من تحتهم ، وأن ما يمكن أن ينتظره الناس بعد ذلك ، هو أن يغزو مرض الكوليرا البلاد ، ومع ذلك ، كان لا يزال هناك ما هو أسوأ من كل ذلك : فالمكيان الشحاذان ، من السهل التخلص منهما ، وتقديم هديه بسيطة لهما يمكن أن ينقذ العاصمة من التلوث الذى أصابها بسبب وجودهما ، ولكن النائب ، ومن خلفه شاه إيران يسند ظهره ، فقد كان شأنًا آخرًا مختلفًا تمام الاختلاف ، يضاف إلى ذلك أن فيصل كان يعرف جيداً أن الشكاوى التي سيقدمها له النائب ، أكثر من صادقة وأكثر من صحيحة ، وإنه هو نفسه كان مسئولاً أولاً وأخيراً عن المضايقات التى تسبب فيها أبو بطين أو مهنا للحجاج الإيرانيين ، وذلك من منطلق أن فيصل كان سيدهما ، فى واقع الأمر ، يضاف إلى ذلك ، أن سلفه عبد العزيز بن سعود ، قد سقط قتيلاً على يدى مغتال إيرانى وبخنجر إيرانى أيضًا ؛ ومن يدرى إن كان النائب ، أو أى واحد من حاشيته ، ليس معه سلاحًا مماثلاً ليغتال به كبير المطاوعة ؟ أما فيما يتعلق بالسوريين ، فالأمر كان سيئًا أيضًا ، فلا بد أن يكونا مسيحيين ، وربما مغتالين ، بل من المؤكد ساحرين ، وأقل ما يمكن توقعه منهما ، السحر ، أو الحسد ، وربما تعويذه سامة ، وخلاصة القول هى أنهم جميعًا جواسيس ؛ وأن ذلك الاستنتاج لا يحتمل أدنى شك .

وأنا لا أظن ولا أعرف إن كان محبوب ، وعبد العزيز ، أو البلاط بصفة عامة يشاركون (الملك) فيصل هذه المخاوف ، وعلى كل حال ، فقد حرصوا على الاشتراك فى لحن سيدهم ، وأقروا جميعاً أن الخطر حقيقى وبالغ ، ترى ما هى الإجراءات الكفيلة بمنع هذا الخطر المحدق ؟ أو ما هى الطريقة التى يمكن بها التخلص من هؤلاء الأعداء الكثر ، دفعة واحدة ؟ وكانت النتيجة الاجتماعية التى توصلوا إليها تفيد أن الحرص هو أفضل أجزاء الشجاعة ، وأن صاحب الجلالة والقداسة ، يتعين عليه ،

على الفور ، أن يهرب من العاصمة ، ومن الجوار المشئوم لهذا العدد الكبير من الكفرة والمحتالين ، والجواسيس ، والقتلة ، وأن يخفى شخصه الملكى فى خلوة آمنة ، فى حين سيتم خلال تغييبه اتخاذ الإجراءات المناسبة بما يناسب نوايا هؤلاء الغرباء الذين يثيرون الشك والريبة ، ومراقبه ما يقومون به من أعمال ، واكتشاف مخططاتهم الخيانيه أو الحيلولة دون تنفيذها .

وبناء على ذلك ، وما أن استكن النائب فى المنزل الذى حددوه لإقامته ، وما أن عدنا نحن أيضًا إلى المنزل المخصص لنا ، وما أن تم وضع المكيين فى مكان آخر لا يبعد عنا كثيراً ، حتى خرج (الملك) فيصل ومعه كل من محبوب ، وعبد العزيز ، وقليل من الرجال الآخرين ، فى سرية كاملة من باب السر ، وتركوا القلعة ، واجتازوا المدينة بأكبر قدر من الهدوء ، وأخفى الملك نفسه فى تجاويف البستان المنعزل الذى يملكه عبد الرحمن الوهابى (آل الشيخ) ، واصطف الحراس من حول البستان ، وانتعش لدى الجميع أمل مفاده : أنه فيما بين بعد المكان ، وبركات الصلاح الخالص لصاحب هذا المكان ، وكثافة أغصان النباتات ، وسيوف العبيد السود ، يستطيع فيصل أن يزوغ من عدوى الشرك ، وأخطار الاغتيال ، والسحر والتعاويذ والحسد ، وبذلك أمكن ضمان فترة راحة للملك ، وكسب مزيد من الوقت استهدافًا لكشف سر ذلك الشر ، وتفريغه من محتواه .

وعل كل حال ، لم يضع المسئولون الوقت ، وأمروا بتشغيل الآلة الضخمة فى الحكومة الوهابية ، منظومة التجسس ، التى تفوقت على المنظومة التى أنشأها تايبيريوس Tiberius. وفى الوقت نفسه راح المتآمرون الذين لا يدرون عما يدور شيئًا ، وكذلك السحرة يرتبون أمتعتهم عن طيب خاطر وبراءة كاملة ، وهم يدخنون الأدخنة المخدرة الذين لم يستطيعوا الإقدام عليها من منطلق الأدب الجم ؛ ولكنهم لم يبدءوا التدخين إلا بعد أن أغلقوا الباب والنوافذ ، خشية أن تفوح رائحة "المنكر" خلال نسمات الشارع المقدسة ، وفجأة سمعنا طرقًا متواضعًا على الباب ، وبسرعة ، تم إخفاء الغلايين ؛ ثم يتجه بركات إلى الردهة ليعرف ذلك الذى يطرق الباب ، ويتيح لدخان التبغ فسحة من الوقت يتبخر خلالها ، قبل أن يفتح الباب .

ويدخل من الباب شخص لم نكن نتوقع أن نراه فى الرياض ، كان يرتدى ملابس مواطن أفغانى ، وعلى رأسه عمامة بيضاء أنيقة ، وله ملامح أهل الجنوب الغربى من

حدود البنجاب ، إنه عبد الحميد ، باحث القصر ، يقف أمامنا بشحمه ولحمه ، إنه جاسوس جيد ، أو من المحتمل إنه جاء ليجعلنا نتخلص من حذرنا ، هاتان الفكرتان لم تخطر لنا على بال ، والسبب في ذلك ، أنه كان غريبًا مثلنا ، ومن ثم يمكن أن يستثير تعاطفنا ومكنون قلوبنا ، ولأنه له أسلوب رقيق ، وصراحة ظاهرية ينجح إخوانه المواطنون في انتحالها ، إذا لزم الأمر ، والتي ربما خبرها بعض القراء في الشرق . عبد الحميد هذا أستاذ في مدرسة التخفي وراء مظهر آخر ، لدرجة أنه خدع الوهابيين أنفسهم ، الذين لم يحسبوه أي شئ سوى ما كان عليه في واقع الأمر ، وربما وثق بنفسه أنه قد ينجح معنا بالرغم من تعاويذنا واسحارنا .

عبد الحميد هذا ، من واقع ما يقول هو ابن حاكم بلخ Balkh ، وهو سني متشدد من أتباع المذهب الحنفي، وبعد أن غادر عبد الحميد وطنه قاصداً الحج إلى مدينة مكة، ومعه ثروته ، وخدمه وحاشيته ، وأشياء أخرى كثيرة لا تخطر على البال ، وقع لولد الملك صاحب هذه الحكاية الأسطورية ، حادث وهذا نقلا عما قاله هو شخصياً تحطمت فيه السفينة التي كان يستقلها ، على صخرة غير معروفة في الخليج الفارسي ؛ والأقسى من ذلك ، أن قراصنة البحر سلبوا كل ما استطاع أن ينقذه من البحر العميق ، ووصل عبد الحميد إلى الحدود الوهابية بلا خدم ، وبلا مـال ، وبلا صحبة أو رفاق ، وقد شده ذيوع صيت كرم (الملك) فيصل إلى الحضور إلى مدينة الرياض ، على أمل أن يحصل على العون المطلوب الذي يمكنه من إكمال رحلة الحج والعودة إلى والديه اللذان ينتظرانه على أحر من الجمر ، ولكن عبد الحميد بعد أن وصل إلى فردوس التقوى والعلم على الأرض ، فتح عينيه على نور الإيمان الوهابي النقي غير المدنس ، ومن ثم قرر أن يتخلى عن وطنه وكل مباهجه ، وأن يقضي بقية حياته في دراسة وممارسة الإسلام الحقيقي، بين أرواح متجانسة، وبعيداً عن التبغ (الدخان) ، والوسطاء السماويين ، والشرك .

وبعد أن أفاء فيصل عليه من كرمة بأن زوده بالكتب المناسبة والحريم ، بدأ ينور القصر والمدينة بصلاته الصحيحة ومظهره الهادئ ؛ كان وقته مقسمًا بين المسجد والحريم ، وإنه يشكر الله دومًا ويثني على فيصل في كل الأوقات ، وكان حديثه ينصب على التقوى والصلاح ، أو النساء ، ومما لا شك فيه ، إن مثل هذه الشخصية يمكن إكرام وفادتها في ضوء صدق حديثها ، إضافة إلى أن النـاس ، في كل مكان ،

كانوا يثنون على تضحيات عبد الحميد ، ويقدرونها ، قد يكون من القسوة أن يحاول المرء تلطيخ ذهب له مثل هذه الجودة والنقاء ، أو التقليل من قدر هذه السمعة التى اكتسبها صاحبها عن حق ، ولكننا الآن بعيدين جداً عن الرياض ، ولن يضار عبد الحميد إذا ما نشرنا فى إنجلترا تاريخه الحقيقى وصورته الأصلية ، لم يكن عبد الحميد مواطنا بلوشيا وإنما من بيشاور ، ولم يكن عبد الحميد سنياً وإنما هو شيعى من الشيعة ، ولم يكن عبد الحميد ولد أحد الحكام وإنما كان شخصًا عاديًا جداً ، بل إن أخلاقياته كانت أدنى وأحط من أخلاقيات العامة ، كان عبد الحميد قد طعن رجلاً فى مشاجرة فى السوق، وظن أن هربه سينجيه. وبعد أن تجول فى منفاه عدة سنوات ، حال حرصه خلالها ، بينه وبين العودة وضع الرياض نصب عينيه لتكون ملاذا آمنا له إلى أن تنتهى العاصفة فى بلدة ، واستغل عبد الحميد السذاجة النجدية عن طريق التنكر الذى هو عليه الآن ، ولكن الواقع أن عبد الحميد كان شيعيًا خالصًا ، إذ لم يفوت فرصة يقترن فيها اسم الخلفاء ، الصحابة وتابعيهم ، دون أن يلعنهم جميعًا فى السّر ، وكان يسلّى نفسه بسذاجة أولئك الرجال الذين كان يعتبرهم كفاراً وشديدى الحماقة والغباء ، زد على ذلك ، أن الإعاشة والسكن ، والملبس الطيب ، والحريم كانت كلها أشياء ممتازة ، وأن المُسَلِّيات ، التى من هذا القبيل ، تسهل عليه منفاه ، طوال فترة انتظاره للظروف المواتية التى تسمح له بالعودة إلى بلده .

لقد عرفت كل هذه الحقائق، فيما بعد من النائب، الذى كان من بلد شيعى أيضًا ، بل أنه كان ، فى مقتبل حياته ، يترحل دومًا فى الوادى الأعلى لنهر الأندوس ، والذى أثبت لنا أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وكان قاسيا جداً على عبد الحميد البشاورى ، بل أنه أمتعنى بنص هندوستانى عن كل هذا الموضوع ، وعندما حصلت على هذا المفتاح ، شرعت فى تشغيل ذكائى ، واستخلصت من عبد الحميد (برغم أن هذا الاسم ، أيضًا ، كان مجرد ستار فقط) ، ولكنى نسيت كنيته الحقيقية) كل ما يؤكد صدق ما قاله الشيرازى ، وبرغم أن هذه الأحداث ليست مهمة ، فى حد ذاتها ، إلا أنها تستحق أن أرويها القارئ ، لأنها تفسر كثيراً من الأحداث المماثلة فى تاريخ الشرق ، وليس معنى ذلك ، أن الخداع وانتحال الشخصيات فى الشرق ، بصفة عامة ، أسهل من الغرب ، أو أنه كان فى الأزمان القديمة أسهل من الأزمان الحديثة . إن لدينا فى الغرب أمثلة كثيرة من هذا الخداع والانتحال ، وإذا كان الأوربيون والأزمان الحديثة تتميز تميزاً كبيراً فيما يتعلق بمسألة التعليم التحليلى والتقصى والبحث

العلميين ، فإن الشرقيين ، والأزمان الماضية ، التي هم يمثلونها الآن ، يركزون أعينهم الآن على البحث التطبيقي والاكتشاف ، لأنهم بدأوا يقللون من اعتمادهم "على الكتب المملة البائسة" ، وبرغم كل ذلك ، وحتى مع حدوث هذا التغيير ، فإن "كل البشر كذابون" ، على حد قول أحد الناس في عجاله ؛ إن جميع البشر وبشكل عام ، يمكن خداعهم ، بما في ذلك العرب والنجديون .

ويجلس هذا البشاوري ، أو إن شئت فقل البلخي ، وبعد أن أبدى قليلاً من الملاحظات التي لا تقدم ولا تؤخر بدأ يستشيرني في مرض أصابه ، غير أن تلك الاستشارة لم تكن السبب الرئيسي وراء زيارته لنا ، وسرعان ما خرج هذا البشاوري عن مساره ، وبدأ يسألنا وتسائله ، ويلقي ببعض التلميحات مثل من يجهز سنارته ، على أمل أن يصطاد حقيقة من أعماق البئر ، وفي الوقت نفسه ، يصل المكيان ، ويخضعان لهذه المنظومة الاستجوابية نفسها ، ولكنهما لم يتأخرا كثيراً ، إذا أن هدفهما الرئيسي كان الاستجداء ، وسرعان ما فهمناه ، وعليه عاود عبد الحميد الاشتباك معنا ؛ وراح يجرب معي استعمال اللغة الهندوستانية ، والفارسية ، بل وبعض الكلمات القليلة من لغة إنجليزية مكسره ، ولكن ذلك كله لم يجد فتيلاً ، وانتهى في قراره نفسه إلى أن الأمر أكثر من مرضي ، ثم يقف عبد الحميد فجأة بعد ذلك ، ويتركنا ليقدم تقريره إلى أولئك الذين أرسلوه لنا .

وقد علمت فيما بعد أن ذلك التقرير لم يكن في صالحنا مطلقًا ، ولم يتصور عبد الحميد مطلقًا أن مجيئنا لم يكن ينطوي على أي خطر لشخص (الملك) فيصل ، ولم يصدق مطلقًا أننا لم نكن سحره أو نمارس السحر ، ولكن كان يخشى وجود أي منافس له في افضال القصر وعطاياه ، بل إنه كان لديه إحساس التاجر الذي يرى دكانا منافسًا يفتح بالقرب من دكانه ، ومن ثم حرص عبد الحميد على أن يجعلنا نترك القصر ونبتعد عنه إلى أبعد مسافة ممكنة ، وبالتالي لم يدخر وسعًا أو مكراً في سبيل تحقيق هذا الهدف .

وبعد أن انصرف عبد الحميد إلى حال سبيله بفترة قصيرة وقف على بابنا عميل آخر مختلف تماماً عن عبد الحميد ولكنه كان أكثر خطراً ، ويبدو عليه أنه صاحب سلطة ، ويبدو عليه تواضع مصطنع ومدروس ، وعينان كسيرتان تلاحظان كل ما لا يلاحظه الآخرون ، كان ذلك هو المطيعي (المطوع) ، أحد أفراد المجلس السري ، ذلك التنظيم وثيق الصلة بالحكومة في الرياض .

ولكن نظراً لأن القارئ ليست لدية فكرة واضحة وكافية عن هؤلاء الموظفين ، قد يكون من المفيد هنا ، أن استطرد بعض الشئ فيما يتعلق بتنظيم المطاوعة وأصل هذا التنظيم وطبيعته ، ومدى تقدمه ، وأولئك الذين يعملون فيه ، وسوف يلقى هذا الاستطراد المزيد من الضوء على هذا التنظيم ، أكثر مما قلناه عن التنظيم الوهابى ، الذى يشكل المطاوعة فيه المرتكز الأصلى والمدراء الأصليين .

تنظيم المطاوعة ، على الأقل فى شكله الراهن ، له تاريخ قديم ؛ فهو ينتمى إلى الحكم الحالى ، ويرجع إنشاؤه إلى بعض الأحداث التى وقعت مؤخراً ، ففى العام ١٨٥٤ أو ١٨٥٥ الميلاديين ، نظراً لأن التواريخ الدقيقة فى هذه البلاد تعد أمراً ميئوساً منه - انتشر وباء الكوليرا فى كل أنحاء الدنيا ، وبعد أن وصل إلى المناطق والممالك كثيفة السكان فى الشرق ، تذكر هذا الوباء وسط الجزيرة العربية ، التى ربما ظن أهلها أن الوباء نسيهم أو تغافل عنهم بسبب انشغالاته العاجلة فى مناطق أخرى . وبعد أن عبر هذا الوباء الصحراء من ناحية الغرب ، انتشر فى نجد انتشار العاصفة الرعدية ، وبدأ تفاقمه المعتاد ، بنجاح منقطع النظير ، ولم تجد معه الإجراءات الوقائية أو العلاجية ، ولم ينج من وباء الكوليرا سوى منطقة سدير التى تقع فى الجزء العلوى من جبل طويق ؛ ولكن المناطق الخفيضة مثل اليمامة ، والحريق ، والوشم ووادى الدواسر قاست الأمرين من ذلك الوباء ، وكانت العارض نفسها واحدة من تلك المناطق التى عانت الكثير من ذلك الوباء ، فعاصمة العارض التى تقع فى وادى رطب ، والتى تتلاصق مبانيها ، تخلخل عدد سكانها ، إذ يقال أن ثلثى سكان العارض ماتوا خلال أسابيع قليلة ؛ وكان من بين ضحايا ، وباء الكوليرا فى العاصمة ، بعض أفراد الأسرة المالكة ، وكثير من الأعيان .

حدث ، خلال بعض سنوات خلت ، شئ من التراخى فى الخصائص الدينية والمذهبية ، فى مدينة الرياض ؛ وقد ساعد على هذا التراخى ، الرفاه ، بل يجئ الاحتلال المصرى ، قبل الرفاه ، لأن ذلك الاحتلال ترتب عليه مزيد من الاتصال والتواصل مع أهل القاهرة وحكومتها ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا الاتصال استمر طوال حكم عباس باشا بالكامل ، ولم يتوقف تماماً طوال حكم سعيد باشا ، من هنا ، فإن الممارسات ، التى عرف عنها من خلال الجدل والنقد الجدلى اللاذع ، أنها كانت تثير الرعب والفزع ، أصبحت الآن أقل بغضاً من حيث اتيانها والتعرف عليها ، ومن

حيث النظر إليها والتدقيق فيها ، ومن هنا يتضح أن المثل السيئ يكون معديا وقابلاً للانتشار ، وهنا بدأ "المنكر" يطلق أبخرته في أجواء مقاهي العاصمة ، وبدأت الرءوس تتدنس بخطيئة الحرير والخيوط الذهبية ، وهنا كان من الطبيعي على أصحاب العقول العلمية ألا يترددوا في معرفة مصدر الكوليرا ؛ كانت الجريمة سيئة السمعة ، وكان العقاب مجرد عدالة ليس إلا ، وبطبيعة الحال ، كان العلاج الناجح ، أو إن شئت فقل العلاج الوحيد ، هو الإصلاح السريع ، والعودة الحقيقية إلى نقاء وسماحة الأيام الفضلى .

وهنا دعا (الملك) فيصل مجلسًا مكونًا من كبار الشخصيات ، في المدينة ، إلى الانعقاد ، وعندما انعقد ذلك المجلس ، ألقى (الملك) فيصل على أعضاء ذلك المجلس خطبه ، لن أرهق بها صبر القارئ ، برغم أني أنا نفسي استمعت إليها بكل تكرارها . وكانت تلك الخطبة تتكون أصلاً من تلك الشروح العرفية التي لا تقبل الجدل أو النقاش، لبعض الأحكام الإلهية على الإنسان ، التي تشيع في كل مكان ، ولا يعمل الناس بها في أي مكان ، وكانت زبده كل هذه الخطبة وخلاصتها أن الناس أخطأوا ، بل أخطأوا خطئًا شديداً ؛ إن الناس سمحوا للعار والقيل والقال والافتراء أن تدخل حياتهم ، وأن المعدن الحر النفيس بدأ يفقد بريقه وتغشاه العتامة ، وأن الفضة انصهرت مع الخبث ، وأن الأمل الوحيد في الإنقاذ يتمثل في أن يحاسب الناس أنفسهم على أعمالهم ويتدبرونها ، وأن يتوبوا توبة نصوحًا ، ويتوجهون نحو الإصلاح ، وأردف الملك قائلاً ، أنه فيما يتعلق به شخصياً ، فإنه أصبح رجلاً عجوزاً ومسنًا ، وأنه لا يستطيع أن يقوم وحده ، وبلا مساعدة ، بتنفيذ الإجراءات التي تتناسب مع خطورة هذا الموقف . وبناء عليه ، فإنه يلقي على كاهلهم ، مسئولية كل ما يدور بخاطره ، وأنه يَعُدُّهُمْ مسئولين أمام الله عن استمرار انتشار وباء الكوليرا ، وعن كل شئ آخر يمكن أن يحدث ، إذا ما أغفلوا أو تجاهلوا الإنذار الذي وجهه إليهم في حينه .

انصرف كبار المدينة ، وتداولوا طويلاً فيما بينهم ، وعادوا ومعهم المقترح التالي ، الذي حظي بأكبر قدر من التأييد ، كان المقترح يقضي باختيار أثنين وعشرين رجلاً من بين أنقى وأصلح سكان المدينة ، ويطلق عليهم اسم " المطيعية " وسوف استعمل هذا المصطلح من الآن فصاعداً ، وسرعان ما أمكن العثور على هذا العدد المطلوب من المرشحين . وخوَّل (الملك) فيصل هؤلاء الاثنين والعشرين سلطة مطلقة في القضاء على كل ما يتعارض مع المذهب والطقوس الوهابية ، بل كل ما يتنافى مع الخلق

الطيب بشكل عـام ، على أن يبـدأوا أولاً بالعـاصـمـة ، ثم بعـد ذلك فى كل أنحـاء الإمبراطورية . ولم يكن هناك من هو أعلا من هؤلاء الرجال أو من يمكن أن ينتقدهم ، ولم يكونوا يتقيدون أيضًا بأى قيد من القيود المعتادة ، ولم تكن مهمة هؤلاء "المطيعية" تنصب فقط على تحـديد المذنبين ، وإنما كـان من حـقـهم أيضًـا إنزال العـقـوبة بحق المذنبين أيضًا، وأن يكون العقاب على شكل الضرب أو الغرامة حسب مقتضيات الأمر، ولم يكن هناك حد معين لمقدار أو عدد الضربات ، ووضعت أمـام هؤلاء المنتقدين الجدد قائمة شاملة بالذنوب والأعمال المحظورة ؛ ومنهـا التغيب عن صلاة الجماعة ، ومن ثم أصبحت المواظبة على حضـور الصلوات الخمس يومياً فى المسـاجد العامة ، مطلباً أساسيًا ؛ ومنها أيضًا "شرب الدخـان" أو تعاطى السعوط ، أو السَّفه (تلك العادة التى يطلق عليها الاسم المبتـذل "الدخان المُضْغَة" ، التى دخلت المنطقة عن طريق القطران الذى كان يأتى عن طريق الكويت وبعض الموانى الأخرى فى الخليج الفارسى) ؛ ومنها أيضاً لبس الحرير أو الذهب؛ التسامر أو إضاءة الأنوار فى المنازل بعد صلاة العشاء ؛ ومنهـا أيضًا الغناء أو العزف على الآلات الموسـيقـية ؛ بل منهـا أيضًـا جـمـيع الألعاب الصبيـانيـة فى الشـوارع ، أو التى يـأتيـهـا تلكم الأفـراد الذين يتـصـرفـون تصـرفـات صبيانية ، كانت تلك بعض الأشياء التى وردت ضمن هذه القائمة ، والتى كانت بحاجة إلى التصحيح والشدة ، يضاف إلى ذلك ، الحلف بغير اسم الله ، والابتداع ، أو حتى العيب ejaculation فى الذات الآلهية ؛ والخلاصـة هى أن كل مـا يتعـارض نصًـا وعمـلاً وحديثًا أو سلوكًا مع الإيمان الصحيح ونص القرآن والشروح الوهابية ، يعد منكراً ويتم العقاب عليه فى الحال ، وفى المحصلة النهائية ، امتدت رقابة هؤلاء المطيعية إلى السلوك غير المعتاد الذى يثير الشك ؛ من ذلك مثلاً ، التسكع فى الشوارع بعد حلول الليل ، الإكثار من دخول منازل الجيران ، وبخاصة فى الأوقات التى يفترض فيها غياب الرجال عن المنازل ، وبخاصـة ذلك الدخول الذى لا تراعى فيه أصـول الأدب واللياقة ؛ كل هذه الأعمال اعتبرت أعمالاً مكروهة وتحتاج إلى اصـلاحها وتعديلها ، ومن السهل علينا أن نتـخـيل حـال مثل هذه السلطة الواسـعـة إذا مـا خـولت لأشـخـاص من ذوى المصالح أو المحبين للانتقام ، وعلى كل حال ، فإن عدد المطيعية أنفسهم ، إضافة إلى صـلابة الشـخـصـية العربية وصمودها ، قللا إلى حد مـا ، النتائج السيئة ، التى كان يمكن أن تترتب بطبيعة الحال ، على تلك السلطة فوق المطلقة وغير المحددة ، برغم أنه تردد على مـسـامـعى كـثـيـر من الأمـثلة الصـارخـة عن ممارسة تلك السلطة وإسـاءة استعمالها .

ويرتدى هؤلاء "المطيعية" ثياباً غاية في البساطة خالية من الزينة والخيلاء ؛ وهم لا يحملون السيوف ، أو يتمنطقون بها ، لأنها إشارة إلى السلطة الزائلة المؤقتة ، أو إن شئت فقل إنها رمز إلى السلطة العسكرية ، ولكن عوضاً عن السيف ، يحمل كل واحد منهم ، في يده ، عصا طويلة ، تنطوى على هدفين أولهما إنها بمثابة شارة رسمية ، وثانيهما إنها أداة العقاب ، ولذلك فهي تشبه إلى حد كبير العصا التي يمسكها الشرطى الإنجليزى في يده ؛ ويمكن تعرف هؤلاء المطيعية للوهلة الأولى ، من بين بقية الناس ، من ثيابهم ، وبصرهم المغضوض ، ومشى الهوينا ، والصوت الخفيض ، والغتره التي يسدلونها على جباههم ، ولا يضعون من فوقها عقالاً ، وسلوكهم وتصرفاتهم الصارمة الحازمة ، وتتكرر في حديث هؤلاء المطيعية ؛ وذلك على العكس من سائر بقية المؤمنين ، النصوص الدينية ، والكلام بصورة مفاجئة ، مصحوبة برفع السبّابة إلى الأمام ، كل نصف دقيقة تقريباً ، بمناسبة وبغير مناسبة ، إشارة إلى الله الواحد الأحد ، وهؤلاء المطيعية يتنقلون بين الشوارع ، أو يدخلون البيوت فجأة ليتبينوا إن كان بداخلها أمراً غير صحيح أم لا ، وهم هناك يترددون في إنزال العقاب فوراً ، دون اللجوء إلى أى شكل من أشكال المحاكمة المبدئية أو القضاء ، وتوقع عقوبة الجلد على المذنب الذى يجرى القبض عليه، بغض النظر عن شخصه وهويته أو حتى مكانته ؛ وإذا ما وجد المطيعية أن عصيهم لا تكفى ، فإنهم سرعان ما يطلبون الواقفين أو العبيد أن يساعدوهم ، ويقوم هؤلاء الواقفون أو العبيد بطرح ذلك المذنب أرضاً ، ويوسعونه مع المطوع ضرباً على النحو الذى يرضيه ، وهذا الإجراء يتخذ أيضاً مع أولئك الذين تغافلوا عن أداء الصلاة مع الجماعة ؛ وهنا يتوجه مطوع الحى ، وبصحبته مجموعة من الأتقياء ، المزودين بعصى غليظة ، إلى المنزل المحدد ، ويطلب الدخول ، الذى لا يجرؤ أحد أن يمنعه منه ، وعند هـذا الحد يقتصر الأمر على كلمة واحدة وضربة واحدة ، أو قد يصل الأمر إلى عدة ضربات وقليل من الكلمات ، إلى أن يتم إدخال شخص هذا المذنب بسرعة ، فى حالة جديدة من الحماس الدينى عن طريق أقوى الحجج المقنعة المتلازمة ، وإذا حدث ولم يكن ذلك المذنب فى بيته فى تلك اللحظة التى يزور المطوع فيها المنزل ، بل في بعض الأحيان بعد تنفيذ هذه العقوبة الشافية ، فإن المطوع يأخذ من البيت ، ضماناً، مثل مشلح ، أو سيف، أو غتره ، أو أى شئ من هذا القبيل ، مقابل الالتزام الجيد مستقبلاً ، ولا يرد المطوع ذلك الضمان ، لصاحبه إلا بعد أيام عدة من المواظبة على الصلاة فى المسجد ، ليكفر المذنب بها عن تغافله السابق عن

الصلاة ، ويثبت صدق تحوله عن طريق المواظبة على الصلاة والحفاظ عليها ، ولكن إذا قام الفرد بمقاومة القوة بالقوة ، فقد يلقى أشد العقاب ؛ وإذا ما رفع مثل هذا الفرد يده على شخص المطوع الموقر يصبح من حق الأخير أن يلجأ إلى العصا الغليظة والسكين ، ومع ذلك ، فإن قضايا قطع الأطراف أو الإعدام ، كما هو الحال في الهرطقة والكفر ، تحال إلى محكمة الملك فيصل شخصيًا ، الذى لا يتورع عن إنزال أشد العقاب بالمجرم .

ومع تخويل هؤلاء "المطيعية" مثل هذه السلطات ، ومع دعم الحكومة الكامل لهم ، يمكن القول إن المكنسة الجديدة ، بدأت تكنس جيدًا ، وأن تنظيم المطيعية الجديد ترتب عليه الكثير من الأعمال الناجحة ، ولم يعد المنصب ، حماية لصاحبه ، ولم يعد المحتد ملجأ لصاحبه ، يضاف إلى ذلك ، أن العداوات الخاصة وكذلك العداوات السياسية لم يكن لها أى أثر إطلاقًا ، بل إن المطيعية ، ضربوا جلوى ، شقيق الملك فيصل ، وهو على باب قصر الملك لأنه كان يدخن التبغ ؛ ولم يستطع جلالته التدخل لإنقاذ أخيه وهو في سن الخمسين من خزى وعار لا يطاق حتى فى سن الخامسة عشر ، كما أن سويليم ، رئيس الوزراء الذى جاء قبل محبوب ، لقى عقابا مماثلاً أيضًا ، ولكن الواقع (وهذا نقلاً عن شائعة شعبية) أن ضرب سويليم كان بتحريض من منافسه على المنصب ، إذ أمسك المطيعية به ، في أحد الأيام أثناء عودته إلى منزله من القلعة ، وطرحوه أرضًا ، وأوسعوه ضربًا موجعًا لفترة طويلة أدى إلى وفاته فى صبيحة اليوم التالى ، وإذا كان ذلك هو العقاب الذى ينتظر الشخصيات الرئيسية فى الدولة ، فما هو العقاب الذى ينتظر أفراد الشعب ؟ الضحايا كثيرون ، كثيرة أيضًا الأظهر التى ألهبت ، وكثيرة أيضاً الأطراف التى قطعت أو كُسِرت ، واختفى الدخان فى العلن ، ولكن ليس في الخفاء ، وديس الحرير في الشوارع ، والقى به على أكوام الروث والحمأة ؛ وازدحمت المساجد بالناس ، وهجر الناس دكاكينهم ، وخلال أسابيع قليلة ، بدأ مظهر ساكن العاصمة يحظى برضا واعجاب الوهابى الأول نفسه .

وجرى تطبيق إجراءات مماثلة في كل أنحاء نجد ، وبدأ المطيعية المسلحين بالعصى والقرآن ، ويتوعدون "المفسدين اليمينيين واليساريين" ، يزورون مختلف المدن والقرى مما أسفر عن أعظم النتائج وأحسنها ؛ وبذلك تم على وجه السرعة إصلاح كل من العارض بكاملها ، وسدير ، والوشم واليمامة والمناطق المجاورة لها ، وأصبحت كلها تحذو حذو الرياض تمامًا .

ولم يتوقف حماس الإصلاح عند هذا الحد ، إذ تحتم ، عند هذا الحد ، على "الكفار" في كل من القصيم والإحساء ، وأيضاً عصاة الحريق ، أن يعرفوا ويعلموا أن (الملك) فيصل لن يصبر أو يطيق بعد الآن ، تلك الجرائم التي يبلغ عنها المؤمنون الحقيقيون ، وأن هؤلاء الكفار وأولئك العصاه لابد أن يوحي مظهرهم بمكارم الإيمان ، وذلك بغض النظر عما يدور في قلوبهم أو أذهانهم، وتأسست حملات، بقيادة المطيعية ، وشنت هذه الحملات هجومها على المنكرات في مناطق العصيان ، وبرغم الحجج العملية التي كانت تصاحب الحكمة والموعظة الحسنة ، فإن الإيمان لم يصب سوى نجاح جزئي في تلك الأماكن ، فقد حدث رد فعل قوي ، في بعض الأماكن ، مثلما حدث في بريده ، على سبيل المثال ، وفي زكّاره Zekkarah ، في الإحساء ، إذ تبادل الناس بالفعل الضرب مع هذه الحملات ، وحسب علمي ، يقال إن الناس في إحدى قرى القصيم ، على أقل تقدير ، قد اطفأوا حماس المطوع بتغطيسه تماماً في إحدى برك المياه القريبة من القرية ، وهنا تم الوصول إلى حل وسط : إذ سُمِح للناس بارتداء الأقمشة الحريرية التي تصل فيها نسبة الحرير إلى الثلث أو النصف على أكثر تقدير ، برغم أن ذلك كان ينتقد أيضاً ؛ وكان لابد أن يراعي باعة الدخان والمدخنين ، من الآن فصاعدا ، مسألة الاستتار في بيع أو استهلاك تلك المادة الممنوعة ، وأن يراعوا هم أنفسهم تنفيذ ذلك الشرط والالتزام به ، دون أن يضايقهم أو يزعجهم أحد ، على ألا يجري التدخين في الشوارع العامة ، أو الأسواق ، وتخفف قيد إجبار الناس على الصلاة في المساجد ، وألغيت قوائم مواظبة حضور المصلين على الصلاة ، والتي كان يُعْمَلُ بها في نجد ، ومع ذلك ، أمكن الحفاظ على قدر معين من الالتزام الشكلي ، وهنا اكتفى الملك فيصل ومعه مجلسه الموقر ، في تلك المرحلة ، بما وصلوا إليه ، على أمل تحقيق المزيد من التقدم عندما تسمح الظروف بذلك .

هذا وقد سبق أن تناولت بعثة المطيعية في كل من حائل وجبل شومر ؛ وسوف أتناول النتائج التي أسفر عنها الإصلاح الوهابي ، عندما تبدأ قصة الرحلة في تناول مناطق المنطقة الشرقية .

زد على ذلك ، إن الحملة في الرياض نفسها ، انتهت بشئ من الاسترخاء ، كما أدى ذلك أيضاً إلى نيوع صيت ذلك التنظيم الجديد ، واستمر ذلك التنظيم ، برغم أن الكوليرا ، التي خافت بلا شك من تلك الثورة الإيمانية الشديدة ، كانت قد رحلت عن البلاد ،

وهربت منها ؛ ولم تتغير نظرية الرقابة الجدية ، اللهم باستثناء الاعتدال فى الممارسة العملية لهذه الرقابة ، وبذلك بقى جوهر نظرية الرقابة كما هو ، واقيا من الكوارث السماوية المستقبلية ، أو العصيان الأرضى ؛ أو بمعنى أصح ، بقى نظام المراقبة هذا بمثابة ماكينة إدارية قوية ، أو إن شئت فقل العصا الإدارية الغليظة التى يمكن استعمالها إذا ما تطلب الأمر ذلك .

وقل استعمال العبيد أكثر من ذى قبل ، كما قلت أيضًا الزيارات المنزلية ؛ وفى بعض الأحيان كان التحذير يسبق العقاب ، كما قل أيضًا كسر فقرات العمود الفقرى . ولكن كان يجرى، باستمرار شغل مناصب المطيعية التى كانت تخلو بالوفاة أو التقاعد ؛ وكان تعيين المطوع الجديد ، يتم بواسطة المطيعية أنفسهم ، وبالتنظيم والتنسيق مع (الملك) فيصل ، وكان من حق المطيعية أن يجتمعوا إلى (الملك) فيصل مرتين كل أسبوع ، وكان اليومان المخصصان لذلك الاجتماع هما الاثنين والخميس ، وكان موعد لقاء المطيعية بالملك عند طلوع الشمس أو قبل ذلك بقليل ، وهذا تفضل كبير من الملك الذى لا يعقد اجتماعات عامة سوى مرة واحدة فى الشهر، يضاف إلى ذلك ، أن الملك ، عندما يكون وحده ، لا يدخل عليه أحد سوى رئيس الوزراء ، وعبيده السود ، والحريم . والواقع ، أن المطيعية ، هم المجلس الحقيقى فى الدولة ؛ زد على ذلك ، أن المسائل الخاصة بالسلم وبالحرب ، أو التحالف أو التعاهد ، لا يجرى البت فيها أو تعديلها إلا بواسطة هؤلاء المطيعية ، وهؤلاء المطيعية يمثلون ذلك الذى يمكن أن نسميه بكل الاحترام والتقدير المجلس الأعلى لحزب المحافظين ، وسط اتجاه هذا المجتمع المنظم اتجاهاً حتمياً صوب التقدم ، الذى لا يمكن استثناء الوهابيين منه . ولكنى سوف أورد الكثير عن هذا التقدم وعن هؤلاء الوهابيين فيما بعد .

وهنا ، سوف ، اترك للقارئ أن يتخيل نظرة السكان إلى مثل هذه الهيئة وإلى الأفراد الذين يكونونها ، هؤلاء المطيعية ، بكل ما يحيط بها من احترام ، وبكل الكراهية المصاحبة لوظائفهم وطبيعتهم ، يقابلهم الناس فى كل مكان باحترام شكلى ، ولكنهم يضمرون لهم الكراهية والشك ، دع مجموعة من الأصدقاء يجتمعون ، ويروحون يتجاذبون أطراف الحديث فى شئ من التحرر ، ثم ادخل عليهم مطوعًا ، لتجد أصواتهم قد أخرست ؛ وعندما يستأنفون حديثهم بعد ذلك ، تجد أن حديثهم بدأ ينحو منحى آخر ، لا يستطيع معه ملائكة الإسلام التسجيليين ، أن يفعلوا شيئًا ، هل

رأيت مجموعة من الأصدقاء وهي تسير مرحًا في الشارع ؟ إذا ما التقت هذه المجموعة مطوعًا ، فإنهم يخففون خطوهم ، ويشيحون بنظرهم إلى الأرض تواضعًا . وإذا ما كان هناك مصباح مضاء في ساعة غير مناسبة، فإن مجرد طرقه على النافذة، تجعل السامع من الداخل ، يحسبها طرقه مطوّع ، فيبادر السامع على الفور إلى "إطفاء ضوء المصباح" ، ويتحول المكان كله إلى صمت وظلام ، والأبشع من ذلك كله ، هل رأيت الغليون الممنوع الذي يطلق أبخرته المحرمة في ركن من الأركان ؟ إذا ما طرق المطوع الباب الخارجي ، فسرعان ما يقوم الحاضرون بإفراغ تلك الآلة المحرمة من محتوياتها في الوجار ثم يخبئونها بعد ذلك تحت السجادة ، بينما يسارع كل واحد منهم على غسل فمه وشاربه ، ثم يضفي على نفســه رائحــة ذكية باستعمال العطــر أو الأعشاب ذكية الرائحة ليسبغ على نفسه رائحة إيمانية من جديد ، وخلاصة القول : إن تلاميذ المدارس عندما يمسك بهم وكيل المدرسة وهم يأتون ببعض الأعمال غير المشروعة ، أو السيدات المنقبات اللائي يداهمهن وهن تقرأن آخر الروايات الفرنسية ، أو الممتنعين عن تناول المسكرات امتناعًا تامًا عندما تضبط أمامهم قارورة سوداء شبه فارغة على الطاولة لا يشعرون بالحرج ، أو السخافة ، أو الذعر الذي ينتاب النجدي عندما يداهمه المطوع في أي وضع من هذه الأوضاع .

كنت أعجب في أحيان كثيرة (وأنا أتوقع أحداث الأيام التالية) بشخصية أبي عيسى وطريقة عمله في هذا الجو ، فقد كان أبو عيسى يعرف هؤلاء المطيعية حق المعرفة ، كما إنهم أيضًا كانوا يعرفونه حق المعرفة ؛ ولكن الحماية الملكية والمنصب الذي يقوم على الثراء والنفوذ في جانب ، والطابع الرسمي الذي لا يمكن اتهامه بالإفلات من العقوبة على الجانب الآخر ، كانا يحدثان نوعًا من التحمل المتبادل ، المقيد بشكل غريب والمثير للضحك من الناحية الشكلية ، وطوال الفترة التي حدثت خلالها فوره الإصلاح الديني ، وجد أبو عيسى أن من الحكمة الابتعاد عن طريق الخطر ؛ وأنه عندما كان يضطر إلى الحضور إلى الرياض ، فإنه كان ينصب خيمه لنفسه خارج أسوارها ، يجلس فيها مع رفاقه المحرّمين ليدخنوا التبغ ، ويأكلون ويشربون ، ويلعنون المطوعين ، كما كانوا لا يدخلون المدينة إلا خلسة ، ولزيارة القصر فقط ، وبعد أن هدأت الفوره الأولى ، شأنها شأن الفورات الأخرى كلها ، بدا أبو عيسى يجترئ على الإقامة داخل أسوار المدينة ، وحرص أن يبتعد عن طريق المطوعين أيام الجمع وفي أوقات الصلاة . وعلى كل حال ، فبينما كان أبو عيسى في المدينة ، ذات مرة ، اختفى

ثوبه الحريرى ، واستبدلت غترته المزينة ، بخرقه بالية من القطن ، وكان من المناطق المجاورة للأسرة الوهابية الكبيرة ، وعندما كان يذهب أبو عيسى لزيارة أحد منهم ، فإنه كان يبدو كما لو كان ذاهباً لزيارة العفريت أو الشيطان نفسه . ولكنه عندما كانت تضطره الضرورة إلى لقاء - هؤلاء المطيعية ، فإنه كان يحاول أن يبدوا على ما يرام ، كما كان يزين حديثة بالعبارات المناسبة - أما المطيعية ، من الناحية الأخرى ، فقد كانوا يتغامزون بلطف عن عيوبه التى يخفيها بأدب برغم أنه لم ينجح فى اخفائها تماماً ، كما أفلحت هذه العيوب فى ستر ذلك الذى لا يمكن تخبئته تماماً ، وعلى كل حال ، فإن كل طرف من الطرفين ، فى لحظات الغياب المتبادل كان يغتاب الطرف الآخر : فقد كان أبو عيسى ينعتهم بـ "الكلاب" و "المنافقون" ، وبما هو أكثر من ذلك ؛ فى حين أن أصابع المطيعية كانت تشير إلى أنه كان يمارس مهنة "تنقية جلده" ، لأن هذا هو الوصف الذى تطلقه الفنية النجدية الدنيوية ، على العقاب الذى يستحقه المنشقون والعصاه ، ولكنى أرى أنه قد آن لنا أن نعود إلى معرفتنا الجديدة ، التى تسببت لنا فى هذا الاستطراد .

وانتهج عبود ، فهذا هو اسمه ، وبرغم أنى لم أر مثله قط من قبل أو من بعد فى الجزيرة العربية ، وبرغم شيوع هذا الاسم فى كل من سوريا ولبنان ، انتهج هذا الرجل فى التجسس ، أسلوباً مختلفاً وأكثر فاعلية من الأسلوب الذى انتهجه عبد الحميد من قبله ، فقد تظاهر ، عبود ، بأنه يعرف أننا من أتباع محمد (ﷺ) ، وأننا من العلماء أيضاً ، ثم دخل معنا مباشرة فى موضوعات دينية ، تختص بطبيعة الإسلام الحقيقى ، ونقائه أو فساده ، وراح يتساءل كثيراً عن التعليم الإسلامى وتطبيق الإسلام فى كل من سوريا ودول الشمال ، على أمل أن يصطادنا من كلامنا . ولكنه لسوء حظه لقى ما يستحق ؛ والسبب فى ذلك أننا كنا نقدم من القرآن استشهادين بدل الاستشهاد الواحد ، وأثبتنا له أننا على معرفة وثيقة بكل من الشرك الأكبر والشرك الأصغر فى الأمم الأجنبية وبين أتباع محمد المبتدعين ، أثبتنا له أيضاً أننا على صلة وثيقة بتعليقات البيضاوى ، وما ورد فى الحديث، إلى حد جعل صديقنا يتحول إلى الثقة بنا ، وفرد شراعه كاملاً على بحر النقاش ، وبذلك حول نفسه إلى مثقف وإلى شخصية مهمة فى نظر رجال لم يدور فى قلوبهم أو بخلدهم شيئ سوى أن يتعلموا تعاليم المذهب من فم واحد من أكثر علمائه حماساً ، بل هو مطوع فى حقيقة الأمر .

ومن المعروف أن الخطأ ، في مثل هذه الأمور وفي ظل مثل هذه الظروف ، يوحي للعقل المفكر بالمزيد من التعاطف والاشفاق بدلاً من الاستياء ؛ والإشفاق ، إذا لم يكن دوماً مرادفاً للحب ، فإنه يكون ، على أقل تقدير ، جاراً للتسامح والصفح ، ووجدنا أن من السهل علينا أن نكشف له عن بعض دلائل علامات التعاطف ، بل في بعض الأحيان نكشف عن بعض دلائل وعلامات الموافقة المتحفظة ، وهو الأمر الذي شجع أستاذنا على استعراض العقيدة بكاملها ؛ في حين أننا كنا على ثقة أن تقديمه تقريراً طيباً في حقنا ، ربما يقلل من عدائه وعداء زملائه لنا . وأنتهى عبود إلى أن أصبح شبه صديق لنا ، ومما خفف من أسفه لأننا ، مثل سائر الدمشقيين الآخرين ، كنا لا نزال في كوة الظلام الخارجية ، إنه كان يراوده أمل لم يخفه عنا ، بأن يفتح نافذة صغيرة في كوتنا ليدخل منها المزيد من التنوير الصحيح .

وزارنا أناس آخرون ثم انصرفوا عنا ؛ كما زارنا أبو عيسى أيضاً ، من قبيل القيام بواجبه ، قبيل المساء ، ليتأكد أن كل شئ على ما يرام ، ويرى بنفسه المنزل الذي نقيم فيه ، والواقع أننا لم نكن راضين تماماً عن السكن ، نظراً لأنه كان قريباً جداً من قصر الملك ، بل يكاد يكون تابعاً له ، في واقع الأمر ؛ زد على ذلك أن الغرف كانت أكبر من اللازم بكثير ، وبالتالي لم نستطع ترتيبها ترتيباً مريحاً بسبب كبر حجمها ؛ كما أن امتعتنا بلغت من المحدودية حداً لم يمكننا من تنسيق الغرف تنسيقاً مريحاً ، هذا بالإضافة أيضاً إلى محدودية مواردنا ، ولذلك طلبنا من أبي عيسى أن يبحث لنا عن مسكن آخر يناسبنا بشكل أفضل ، ويناسب ظروفنا المتواضعة وطبيعة مهنتنا . كان الكثيرون قد بدأوا فعلاً يطلبون منا المشورة والمعونة الطبيتين ، إضافة إلى أن أية مهنة أخرى ، غير مهنة الطب ، لا تصلح لنا في هذه المدينة . ووعدنا أبا عيسى ، وبر بوعده .

وبينما كنا نتسكع ، بعد ظهر اليوم التالي ، في السوق التقينا الوزير ، عبد العزيز الذي كان قد عاد إلى العاصمة في صباح اليوم نفسه. وبوجه تعلوه الابتسامة ، ورقة بالغة ينتحي عبد العزيز بنا جانباً ، ليبلغنا أن الملك لا يعتبر الرياض مكاناً مناسباً نمارس فيه مهارتنا الطبية ؛ وأن من الأفضل لنا أن نواصل رحلتنا إلى الهفوف ، التي سيرشدنا إليها أبو عيسى على وجه السرعة ؛ وأن جلالة الملك سوف يزود كلانا بجمل وطقم من الملابس الجديدة ، وشئ من النقود .

ومن المعروف أن صناعة جسر من الذهب (برغم صغر المبلغ المعروض) للعدو الفار ، هو إجراء يتسم بالحكمة سواء أكان في مقدونيا أم في نجد ؛ فقد ظن (الملك) فيصل أن أفضل طريق يضمن له السلامة منا ومن تعاويذنا وأسحارنا ، هو أن يجعل منا أصدقاء له ، وأن نكون على مسافة معقولة منه ، أما نحن ، بحكم براءتنا ، لم نكن بعد قد عرفنا سبب تلك المناورة ، بل إننا عللنا ذلك وارجعناه إلى دوافع وأسباب غير جوهرية ، وعليه ، وبدلاً من النزول على رغبة الملك ، شرحنا لـ - عبد العزيز ، أن مقامنا في الرياض سوف يكون مفيداً لأجسام أهل المدينة ومفيد أيضًا لجيوبنا ، في حين أن التعجيل برحيلنا ، قد يبدو غير مناسب ويؤثر على نجاحنا في الهفوف ، ووعد عبد العزيز بالرجوع إلى (الملك) فيصل مرة ثانية بشأن هذا الموضوع ، ولكنه أفهمنا أن الأمل ضعيف في إحداث أي "تعديل" في المرسوم الملكي ، وكان من الطبيعي أن يؤدي الحاحنا على البقاء في الرياض ، إلى تأكيد شكوك ذلك المستبد العجوز ؛ ولكننا لم ندرك ذلك .

وفي الوقت نفسه ، كان المجلس الخاص ، المجتمع حول الملك في البستان ، قد توصل إلى قرار آخر بشأن الإيرانيين يشبه إلى حد ما ذلك القرار الذي صدر بحقنا ، ويقضي بطرد الإيرانيين في أقصر وقت ممكن ، ولكن باستعمال الكلمات المعسولة ، وتقديم هدية تافهة ، ولكن دون أن يلتقي بهم الملك أو ينصفهم تمامًا ، والسبب وراء هذا القرار له مبررات كثيرة ؛ كان أقواها الخوف من الاغتيال الذي كان يثقل ضميره السيئ .

وعلى كل حال ، فإن الحرص العربي جعله يتردد في تعجل الأمور ؛ ولذلك أرسل ، بعد الظهر ، في طلب أبي عيسى ، الذي اتجه مباشرة إلى البستان الذي كان يختبئ فيه صاحب الجلالة ، وقد عرفت ، فيما بعد ومن مصادر مختلفة ، كل ما دار في هذا اللقاء ، فقد استقبل (الملك) فيصل أبا عيسى استقبالاً قاسيًا ، ووبخه على احضار هذه القافلة السيئة إلى أبواب قصره ، والتمس مرشدنا كل الأعذار الممكنة ، وسانده رئيس الوزراء محبوب وأيده في ذلك الدفاع والاعتذار ، وكان رئيس الوزراء صديقًا حميمًا من أصدقاء أبي عيسى، او إن شئت فقل : صديقًا حميمًا لهدايا أبي عيسى ، ولذلك تقرر ، في ضوء أهمية الإيرانيين ، ارضاؤهم إلى حد ما ؛ ولكن (الملك) فيصل الذي كان يخشى الخيانة دومًا ويخافها ، لم يقتنع باستقبال النائب بشخصه ؛ وبالتالي

أوكل الملك هذا الجزء من المهمة إلى محبوب ، الذى صدرت له الأوامر بالاستماع إلى ما يقوله الشيرازى ، ثم ينقل للملك ، فيما بعد ، تقريراً عن ذلك ، ثم عرض أمرنا بعد ذلك على الملك : الذى لم يستجب له الملك وعاند فيه عناداً شديداً ، وقد شارك محبوب ، أو تظاهر بأنه يشارك الملك قلقه ، كان الملك فيصل ، في واقع الأمر ، ميال إلى طردنا ، لا إلى الإحساء ، وإنما ، بل من الطريق نفسه الذى أتينا منه ، وهذا اجراء مشئوم بالنسبة لنا، ومن المحتمل ، أن ينتهي بإرسالنا عن طريق "حصان البريد إلى السماء"[١] بدلاً من الذهاب ، عن طريق الجمال إلى القصيم أو شومر ، وفى النهاية هدأ الملك ، وأنهى كلامه بالسماح لنا بالذهاب إلى الأحساء ، وزاد على هذه الموافقة المساعدة التى كان عبد العزيز قد أخطرنا بها من قبل ؛ ولكن الملك ومستشاريه كانوا يعارضون تماماً بقاءنا فى الرياض أكثر من ذلك .

وعندما وصل النائب خبر القرار الذى أصدره الملك بشأنه هاج وغضب وقال الكثير مما لا يتفق مع الطبيعة الدبلوماسية ، فى حق الملك ووزرائه ؛ ولم يستوعب النائب الطريقة التى جعلت ذلك البدوى – لأن النائب كان يصر على الصاق هذا الاسم بالملك فيصل – يعامل ، بمثل هذا التعالى البارد ، جلالة شاه إيران ، المتمثلة فى مبعوثه، وعلى كل حال، لم يكن هناك بديل لذلك ، وعليه راح النائب يجفف عرق جبهته ، ومضغ قليلاً من الأفيون ، ودخن نرجيله ، وبدأ يعد قائمة طويلة من الاهانات والاضرار التى لحقت بالإيرانيين ، كى يقدمها لـ محبوب عند التقائه به .

وهنا أصبح وضعنا حرجًا تمامًا ، ولم نكن نعرف سبيلاً إلى تعديله ، كنت قد عقدت العزم على ألا أغادر الرياض إلا بعد أن أشبع فضولى فيما يتعلق بحكومتها ، وشعبها ، وكل شئ فيها : ولكن ما هو السبيل إلى إطالة بقائنا فيها ؟ ومسألة الإصرار على البقاء فى الرياض ، بعد أن صدر الأمر مرتين برحيلنا عنها ، تعنى الجنون ، ولابد أن تترتب عليها نتائج وخيمة ؛ يضاف إلى ذلك أن التخفى أو التنكر سيصبح مسألة لا تقبل النقاش ، كان أبو عيسى يشعر بالضيق مثلنا تماماً ؛ فصداقتنا التى بدأت فى بريده ، وصلت إلى الحميميه الحقيقية ، عن طريق تكرار لقائنا فى القصيم ، وقويت أكثر خلال رحلتنا من القصيم إلى الرياض ؛ وبرغم أن أبا عيسى لم يفهم حقيقة

(١) المقصود بهذا التعبير هو الوفاة أو الموت ، (المترجم) .

رغبتنا في البقاء في الرياض العاصمة الوهابية ، إلا أنه كان يتعاطف معنا في ضيقنا من تلك العقبة الخطيرة التي اصطدمت بها رغباتنا ، وأخيراً ، وبعد كثير من التفكير ، اقترح أبو عيسى علينا ، أن يجرب أسلوباً تعلمه من خبرته الطويلة . فالملك بحكم عناده وإصراره ، كان يلجأ إلى هذا الأسلوب كيما يهتدي في النهاية بنصح وإرشاد وزرائه . وإذا ما أمكن ضم كل من عبد العزيز ومحبوب إلى جانبنا فإن احتمال تغيير المرسوم الملكي يصبح أمراً وارداً ، وهنا تصبح مسألة الاستقامة في البلاط النجدي فضيلة لا تقل عنها في بلاط شارل الثاني أو بلاط لويس فيليبس ، وأن أسباب ذلك معروفه لأبي عيسى، وعلى كل حال، فإن تقديم النقود المعدنية بشكل مباشر لن يكون أمراً محموداً . وحلاً لهذه الكارثة ، فإن رطلين من الخشب الطيب ، أو إن شئت فقل "العود" ، الذي يفضله العرب ، وبخاصة أهل نجد ، ربما يشكلان هدية استرضائية ذات مذاق خاص ، وتجعل التماسنا المتواضع أمراً مقبولاً ومؤثراً ، وقد عرض أبو عيسى أن يشتري هذين الرطلين من حسابه الخاص ، ويتولى هو تقديمها ، وأنا أعتقد أن القارئ ، مثلي لا يمانع في ذلك ، كان الليل قد أرخى سدوله ؛ ولكن أبا عيسى لم يكن ذلك الرجل الذي يتوانى في المواقف التي يعد الوقت فيها أمراً حاسماً ، فقد أنصرف الرجل ، على الفور ، لإحضار الطِّيبِ المطلوب ، وقد سهلت له معرفته بأهل المدينة ، مسألة الحصول على الطِّيبِ المطلوب ، على وجه السرعة ، وعاد به ليرينا إياه ، ثم انصرف عنا مرة ثانيه ، على الفور ، ليوصل هذين الرطلين ، باسمنا ، إلى بابي كلاً من محبوب وعبد العزيز ، وعاد إلينا أبو عيسى في ساعة متأخرة من الليل ، وطلب منا أن ننتظر حتى الصباح على أمل الحصول على أخبار طيبة في الصباح .

ولم تخب توقعات أبي عيسى ، فقد استدعى أبو عيسى مرة ثانية إلى المنتجع الذي يقيم جلاله الملك فيه خارج المدينة ، ليبلغوه هناك ، أنه بعد دراسة الأمر دراسة متأنية فإن مدينة الرياض بحاجة إلى طبيب Aesculapius ، واننا سوف يسمح لنا البقاء في المدينة بهذه الصفة ، وأن تمارس مهنتنا بحرية تحت رعاية (الملك) فيصل ، دون خوف من المعارضة أو القلق .

كانت الأمور ، إلى هذا الحد ، تسير على ما يرام ، غير أن هذه الأحداث هي وبعض الأحداث الأخرى ، كانت قد فتحت أعيننا على الصعوبات التي تحيط بنا ، ملك شكاك ، وبلاط شكاك ، ومجلس معادي ، ومدينة سيئة السمعة يقال عنها إنها مصيدة

فئران الجزيرة العربية : وأصبحنا على يقين إننا إذا أمضينا بسلام ساعة واحدة تعيسة ، فإن هناك ساعات وساعات من القبيل نفسه ، تنتظرنا ، كما فهمنا أيضاً أن الصداقة التى تشترى بالمال تكلف كثيراً حتى يمكن الحفاظ على استمرارها ، أو إنها قد تتحول إلى عداء سافر ومميت ، وهنا أجدنا ، أكثر من ذى قبل بحاجة إلى النصح والمساندة ، أصبحنا بحاجة إلى إنسان ينبهنا إلى الصخور التى تعترض طريقنا ، ويساعدنا على تجنبها ، وكان أبو عيسى هو رجل كل هذه المهام ، وبذلك يكون التبصر الذى جعلنا نطلع هذا الرجل على طبيعتنا وهدفنا ، ما يزال هو دافعنا إلى التعامل مع هذا الرجل، وإعطاؤه الفرصة ليتصرف بما يراه مناسباً، يضاف إلى ذلك ، أننا إذا صارحناه بكل شئ ، فذلك يعنى أننا وضعنا أعناقنا وأعقابنا تحت رحمته ، ونهيئ له الفرصة مغرية يشترى بها حظوة وأهمية كبيرة لدى البلاط الملكى ، مقابل بيعنا ، وعلى كل حال ، فإن كل ما شاهدناه وسمعناه من هذا الرجل أوصلنا إلى حكم مفاده أنه يعجز عن ارتكاب وقاحة أو وضاعة من هذا القبيل ، كما وافقنا أيضاً على أنه قد يتدخل فى آرائنا إلى حد ما ، ويساعد على تحقيقها .

وتكلمت كثيراً مع بركات ، حول هذا الموضوع ، فى مساء اليوم التالى ، وفى النهاية اتفقنا أن نولى أبا عيسى الثقة نفسها التى أوليناها للأمير طلال أكثر مما هو عليه ، وتمنيت لو أن بركات يضطلع بمسئولية القيام بهذه المهمة الدقيقة ، التى يقل فيها احتمال قيام شخص عربى المولد بدور الوساطة عن الشخص الأوربى أو الأجنبى، ولكن بركات لم يقرر القيام بهذه المهمة ، ولذلك وفى ظل غياب من يقوم بها غير بركات قررت أن أقوم بها أنا ، فى صبيحة اليوم التالى .

وبعد تناول القهوة والأشياء الأخرى المصاحبة لها ، انتحيت مع مرشدنا جانباً ، وشرحت له بحق حقيقة أمرنا ، والهدف من رحلتنا الطويلة ، كما أحطته علماً بكل الأشياء الضرورية الأخرى كيما يساعدنا مساعدة فعالة ، ويقدم لنا المساعدة فيما هو مقبل .

واستمع أبو عيسى إلى باهتمام بالغ وصمت بالغ أيضاً لم يقطعه سوى سؤال عارض فى بعض الأحيان ، أو توبيخ ، على الماشى ، لترددنا السابق فى مقابلة صداقته لنا بما تستحقه من ثقة وتقدير ، واستمر حديثنا إلى أن دخل وقت الظهيرة ، وانحسر الظل العربى عن الجدار الذى كنا نجلس بجانبه ، ليصبح على شكل خط رفيع

لا يكفى لجلوس أحد ، وجاءت النتيجة التى توصلنا إليها على النحو التالى : "أن يساعد بعضنا بعضاً فى السراء والضراء ، وفى الحلو وفى المر ، فى الأمور التى تربط فيها العناية الالهية مصائرنا بعضها ببعض ، ثانيًا ، تعهد أبو عيسى أن يبرز مكانتى الطبية إلى أبعد حد ممكن ، وأن يضمن لى ، بكل الوسائل ، سمعة طيبة واسعة الانتشار ، ثالثًا ، ألا يغادر أحد منا الرياض دون موافقة الآخر ، إلى أن تنتهى أعمال أبى عيسى فى العاصمة ، وإلى أن ننهى نحن أيضًا أعمالنا فيها ، وأن نغادرها كلنا سويًا . رابعًا ، أن يبذل أبو عيسى كل ما فى وسعه ، كيما أتعرف على الأحساء والمنطقة الشرقية تعرفًا كاملاً . خامسًا ، وأخيرًا ، ان صديقى أقترح علىَ وأوصانى مشدداً ، بزيارة جزر الخليج الفارسى ، وقبل كل ذلك زيارة مملكة عمان ، وفيما يتعلق بهذا الملحق الأخير لم يكن لدى ميل حقيقى لزيارة هذه المملكة ، نظراً لأن رحلتى كانت أطول مما ينبغى ، وبخاصة إذا ما أضفت إليها الفترة التى سوف أقضيها فى الإحساء ، وعليه اتفقنا على أن نؤجل هذه النقطة إلى مزيد من النقاش فى المستقبل . وبعد أن رتبنا خططنا على هذا النحو ، نهضنا وعدنا إلى القهوة ، التى كان بركات ينتظر فيها نتيجة اجتماعنا ، وهنا أسْدى أبو عيسى لبركات بصفته شاباً قليل الخبرة ، نصيحة مفادها أنه يجب أن يسلك سلوكًا يتسم بالجدية ، وأن يحفظ لسانه طالما هو موجود فى الرياض ، ثم تناولنا بعد ذلك ، وجبه أشهى والذ من جميع الوجبات التى تناولناها طوال أيام كثيرة ، وسعدنا كثيراً بالأمن الذى يتولد عن الثقة المتبادلة ، كما سعدنا أيضاً بالرابطة الثلاثية التى لا يمكن فصل عراها بسهولة .

وبينما كانت تدور كل هذه المؤامرات بيننا ومن حولنا ، وقعت ظروف عديدة لابد من الإشارة إليها هنا ، لأنها تعد ضرورية لخيوط القصة ، برغم انى حذفتها عن عمد ، حتى ينساب الموضوع الرئيسى انسيابًا واضحًا ، لأنه هذا الموضوع هو الذى يعتمد على كل شئ ، وليسمح لى القارئ بأن أعود خطوة إلى الوراء فى سياق هذه القصة ، حتى أصل بها إلى نقطة التوقع ، ثم أجعل القصة تتبع بعد ذلك مساراً منهجيًا سلساً .

كنت قد قلت فى صفحات سابقة أن قصر جلوى لا يصلح ، من وجهة نظر بركات ومن وجهة نظرى أيضًا ، أن نمارس فيه الطبابة ، إضافة إلى أن القصر قريب جداً من قلعة فيصل مما يجعل اقتراب الغرباء و" الكفار " أمثالنا منه امراً صعبًا ، وبناء على

ذلك ، وعد أبو عيسى أن يبحث لنا عن مسكن جديد آخر ، وفي صبيحة اليوم التالي ، وقبل أن نلتقي عبد العزيز ، زارنا أبو عيسى ، ليقول لنا إن منزلاً مريحاً جداً قد خصص لنا ، وتحت تصرفنا ، وبدون إيجار ، وقد توصل أبو عيسى إلى ذلك الترتيب عن طريق صديق له في البلاط الملكي ، وذلك دون الرجوع إلى فيصل أو الوزراء ، وعلى الفور توجهنا لإلقاء نظرة على ذلك المسكن .

غادرنا قصر جلوى ، وعبرنا الشارع الكبير حتى وصلنا إلى السوق ، الذى عبرناه إلى أن أصبحت القلعة مقابلة لنا على الجانب الآخر ، ثم اجتزنا بعد ذلك متاهة من الشوارع الجانبية الضيقة ، وبعد مسير دام ثماني دقائق وجدنا أنفسنا أمام ممر مرتفع ضيق ، ومن خلال هذا الممر دخلنا طريقاً مسدوداً ، كانت على جانبية مجموعة من المنازل الصغيرة ، في حين كان يوجد عند آخر هذا الطريق ، منزل كبير مكون من طابقين . كان النائب محمد علي الشيرازى الإيرانى هو وحاشيته يسكنون فى ذلك المنزل ، كان صاحب ذلك المنزل، سليل واحدة من الأسر الطيبة وثرى بالمعايير العربية ، ولكنه أصبح شخصية كريهة لدى "مطيعية" المدينة ، وكان يتوقع علقة ساخنة يوسعه المطيعية خلالها ضرباً بالعصى أو يغادر المدينة على الفور إلى الاحساء ، التى التقيناه فيها فيما بعد ، وهذا واحد من مئات على هذه الشاكلة ، وصادرت الحكومة منزله ليس بصورة نهائية ، وإنما بصورة مؤقتة ، وبأمر من (الملك) فيصل أصبحت جدران ذلك المنزل الخالي تأوى النائب ورفاقه ، وفي موقع قريب ضمن هذا المكان ، كان هناك باب بني يؤدى إلى منزل متواضع، يتبع القصر مثل كثير من منازل المدينة المحيطة بالقصر، ولكنه معروض للإيجار ، كان ذلك المنزل يناسب أسلوب حياتنا من جميع النواحي ، وإذا كان مستأجروا هذا المنزل السابقين ، قد اصابهم ضرر بسبب اخلائه كي نقيم نحن فيه ، فإن ذلك الضرر أمكن تعويضهم عنه بأن أعطيناهم هدية نقدية مقدارها ستة جديدات (وهو مصطلح سوف أشرحه فيما بعد) ، أى ما يعادل شلنين إنجليزيين ، أفاء كرمنا بهما عليهم ، ومن هنا يستنتج القارئ ، أن قيمة النقود في الرياض ، ونسبتها إلى إيجار المنازل ، لا تفرق كثيراً عما هي عليه في لندن أيام حكم إدوارد الثاني ، بل ما بعد ذلك الحكم .

وأصبح لدينا في ذلك المنزل الجديد ، مالا يقل عن ثلاثة شقق صغيرة : جعلنا أولاها غرفة للاستقبال ، أو إن شئت فقل مقهى ، وكانت بالقرب من مدخل المنزل ، وملحق بها ردهة صغيرة ، ووجار ، كانت هذه الشقة مستطيلة الشكل ، ومظلمة إلى

حد ما ، شأنها شأن غالبية المقاهى فى الرياض ، التى يحتم مناخها الجنوبى ، وحرارتها المتزايدة ، على المُنْشأ أن يوفر أكبر حماية ممكنة من أشعة الشمس ، وبدرجة أكثر بكثير عما هو معمول به فى حائل ، بل حتى فى كل مكان من القصيم وسدير ، وفى مؤخرة المنزل ، وخلف القهوة كان للمنزل حوش ، كانت فى وسطه ، نباتات زعى الحمام ذكية الرائحة ، تشهد على ريفية حضر نجد شبه الوجدانية ، بمعنى تربية نبات أو اثنين استهدافًا لإضفاء شئ من جو القرية على مسكن المدينة ، وبذلك لا يصبح مثل هذا العمل مقصوراً على لندن وحدها وأصص الزهور التى توضع فى شرفاتها . وفى ذلك الحوش ، كان هناك ، مطبخ منعزل عن بقية المنزل ، وعلى الجانب الآخر ، من الحوش كان هناك غرفة نوم معقولة الحجم ، استعملتها غرفة للكشف وتخزين العقاقير ، كان سطح الغرفة منبسطًا ، مثل سطح المقهى ، وكان كل منهما يحيط به ساتر مرتفع ، كما كان هناك سلم مصنوع من الخشب يوصل إلى إحدى الشرفات ، كما كان هناك أيضًا درج مصنوع من الحجر يؤدى إلى الشرفة الثانية ، وكانت فى المنزل غرفة صغيرة أخرى حولها المستأجرون السابقون إلى مستودع يخزنون فيه الأثاث غير المستعمل والمؤن التى يحتاجونها دائما ، وقد احتفظوا معهم بمفاتيح هذه الغرفة ، ولم يسلموننا إياها .

كان منزلنا الجديد لا يبعد كثيراً عن السوق ، ولكنه كان يبعد مسافة معقولة عن القصر ، وفى الحى الذى تسكنه قلة قليلة من المطيعية ، ولا يسكنه أحد من الأسرة الوهابية القديمة ، والواقع أن هذا الجزء من الرياض كانت له سمعة – ساءت أم حسنت – بأنه لا يعد اقل أحياء الرياض تعصباً، وإنما هو أيضًا معقل لأنصار التقدم ، طالما أن فى الرياض أنصار من هذا القبيل ، أخيراً ، أصبحنا جيرانًا مباشرين للنائب كثير الكلام ، الذى حولته حصافته وبساطته ، ولسانه السليط وعربيته المكسرة إلى رفيق مسل ومثقف فى بعض الأحيان ، وخلاصة القول : إننا نعتقد أننا قد وفقنا فى اختيار ذلك المسكن الجديد واعتبرناه مناسبًا للمهمة التى نقوم بها فى الرياض . وعلى الفور بدأنا فى ترتيب أشياءنا ، وأصبحنا ربى بيت راقيين ولكن بطريقتنا الخاصة .

وكنا نحصل من القصر بصفة دائمة على الطحين (الدقيق) ، والأرز ، واللحم ، والبن ، باعتبار أننا كنا ضيوفاً عليه . ولكن إدراكًا منا لأننا لم نعد بعد بحاجة إلى الكرم الملكى واننا لن يصيبنا اى ضرر إذا ما استغيننا بعض الشئ عما يصلنا من القصر ، بدأنا لا نسعى إلى التموينات أو حتى استلامها ، وكانت تلك التموينات تذهب

عن رضا من جانبنا ، لصالح أولئك الذين كانوا يحضرونها ، وكل ما كنا نصر على الحصول عليه، وهو الحصة المقررة لنا من البن ، لأنه كان من نوع ممتاز ، إضافة إلى أن استهلاكنا منه كان كبيراً ، وقام أبو عيسى الذى يمضى ثلثى وقت فراغه فى منزلنا ، بتزويدنا بأوانى القهوة ومتطلبات أخرى ، واصبحت مسألة الحصول على هاون ، من قبيل ذلك الهاون ، الذى سرقة هباش وفرّ به من بريده ، موضع اهتمامنا منذ وصولنا إلى الرياض ، لقد تحول مرشدنا إلى شريب مفرط فى القهوة ، وهذا هو ما حدث لى أنا وبركات ، يضاف إلى ذلك ، أننا التزمنا بقاعدة مؤادها ألا يخرج أحد من منزلنا ، بأى حال من الأحوال، دون أن يتناول جرعة من القهوة ، وترتب على ذلك ، ان نارنا كانت تظل مشتعلة منذ الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة فى المساء ، علاوة على أن فنا جيلنا لم تكن تجف مطلقاً .

وأنا استميح القارئ هنا ، عذراً فى أن اورد هنا فقرة خاصة استطرد فيها بشأن المشروب سالف الذكر ، وأنا بصفتى مستشرقاً منذ سنوات كثيرة أشعر بالضيق تماماً إزاء ذلك الجهل ، الذى يعم ، ولا يزال ، الغرب المستنير فيما يتعلق بموضوع القهوة ، وأنا بصفتى طبيب (فى الجزيرة العربية على اقل تقدير) لا يمكن أن أكون متبلداً وأنا أرى أجهزة إخوانى المواطنين العصبية تتأثر ، أو أغشيتهم المخاطية تجف بلا سبب واضح ، بالشكل الذى هى عليه فى المنطقة التى تقع إلى الغرب من البسفور[1] .

ويجب أن نسلم بادئا ذى بدء ، إن البن برغم أن سمه واحد إلا أنه متعدد الأنواع فى واقع الأمر ، يضاف إلى ذلك ، إن أى نوع من البن لا يستحق أن نضفى عليه المواصفات الراقية التى تنطبق على الجنس بأكمله ، وأفضل أنواع البن ، بغض النظر عما يقوله الفرسان ، هو البن اليمنى ، الذى يطلق عليه اسم "المخا" **Mokha** ، الذى اشتق من ميناء المخا الذى يستعمل بصورة أساسية فى تصدير البن ، وأنا آسف إن كنت سأتسبب فى رفع قضية تشهير من تجار الجملة أو تجار التجزئة ، ولكن لو أن الأداة "ليس" لم تسبق البطاقات الإعلامية التى لا تحصى ولا تعد ، والموضوعة فى نوافذ العرض فى دكاكين لندن ، التى تحمل اسم مرفا البحر الأحمر ، لكان لتلك البطاقات مغزى حقيقى تماماً ، غير المغزى التى لها الآن ، إن قدرا صغيراً جداً من بن المخا أو اليمن ، أو إن شئت فقل كمية لا تذكر من هذا البن هى التى تتجه ناحية الغرب

(١) المقصود هنا هو مضيق البسفور والدردنيل - (المترجم) .

من القسطنطينية زد على ذلك ، أن الجزيرة العربية ، وسوريا ، ومصر تستهلك ثلثى صادرات البن اليمنى ، ويذهب الثلث الباقى إلى المرئ التركى والأرمينى . كما أن الأتراك والأرمن برغم هذه الحصة المحددة ، لا يحصلون على أفضل وأنقى أنواع البن اليمنى . والسبب فى ذلك ، أن جوالات البن اليمنى ، وهى فى طريقها إلى ميناء الإسكندرية ، أو يافا ، أو بيروت ، .. إلخ ، لإعادة تصديرها من هذه الموانى ، تتخللها أصابع اللصوص المدربة ، حبة إثر حبة ، لتأتى على ما يداخلها من الحبوب الصلبة المستديرة ، شبة الشفافة ، التى يميل لونها إلى الاخضرار والاحمرار ، والتى تستحق التحميص ، والطحن ، ولا يتبقى للشحن على ظهور المراكب والسفن سوى حسالة البذور الخسيسة ، المعتمة التى يميل لونها إلى الابيضاض ، وعملية سرقة بن المخا ، أو إن شئت فقل : البن اليمنى ، عملية مستمرة ومتدرجة ويمكن ملاحظتها فى نوعية البن داخل حدود الجزيرة العربية نفسها ، وهذه السرقة تتناسب تناسبًا طرديًا مع الاقتراب أو الابتعاد عن كل من وادى نجران والمناطق المحيطة بمكة ، تلك الأماكن التى تعد بمثابة المراحل الأولى من هذه السوق الرائجة ، ولقد شهدت بنفسى مرارًا عملية الإنتخال هذه ، إذا تجرى هذه العملية بمنتهى الحذر وبمنتهى الدقة ، الأمر الذى كان يذكرنى بالمهارة والاتقان اللذين يعزوان إلى الباحثين الأمريكيين عن الماس ، عندما ينعمون النظر فى رمال السيول بحثا عن كنزهم الثمين رغم صغره .

وفيما يتعلق بطريقة زراعة البن ، وطريقة حصاده ، وطريقة تخزينه ، يستطيع القارئ أن يجد مادة كافية ومفصلة عن هذه الجوانب ، فى هذا الكتاب الذى كتبه نيبور عن الجزيرة العربية ، والذى تحدث فيه باستفاضة عن اليمن وجيرانها ، وقد سبق أن اشرت إلى ذلك الكتاب أكثر من مرة ، ونيبور فى كتابه ، صادق صدق الإنجليز ، ودقيق دقة الألمان ، اللهم إلا إذا خدعتنى خبرتى وتجربتى ، وفيما يتعلق بدقة الملاحظة وأمانة الوصف ، يعد نيبور أهم الرحالة الذين ارتحلوا فى الجزيرة العربية ، وعندما كان طريقى يصادف طريق هذا المستكشف المتميز ، أو يقترب من طريقة ، كنت أجد أن الأماكن ، والأعراق ، والعادات والتقاليد ، وكذلك المؤسسات ، تتطابق تمامًا مع بحثه واستقصائه دونما زيادة أو نقصان ، وكتاب نيبور يتناقض تناقضًا صارخًا مع بعض الكتب غير الدقيقة التى كتبها بعض الناس المتيمين بالرحلات ، كما يتناقض تناقضًا صارخًا أيضًا مع الخطأ الفادح وعدم الدقة فى بعض الكتب الأخرى ، وآمل أن يسمح لى القارئ بإحداث بعض التعديلات والتغييرات، من حين لآخر، والسبب فى ذلك ،

إن هذا الكتاب قد مضى على اصداره ما يقرب من قرن من الزمان ، كما أننا ينبغي أن نفرق بين ما يقوله نيبور على مسئوليته الخاصة ، التي ترتكز على بحثه واستقصائه الدقيقين ، وبين ما يرويه نقلاً عن العرب وعن الشخصيات الأخرى ، والمعلومات التي يحصل المؤلف عليها عن طريق روايات الآخرين لها لا تكون دقيقة أو صحيحة في كثير من الأحيان ، يضاف إلى ذلك ، أن افتقار المؤلف إلى معرفة اللغة العربية لا يمكن تعويضه عن طريق المعرفة الواسعة بالنقاط الأخرى ، كما أن أحكام مثل هذا المؤلف تثير الحرج بدرجة كبيرة ، وفي هذا الصدد نجد أن كتاب لين lane - إن قدر لمصر أن تنسب لقبها إلى جنسيته - يمتاز على كتاب نيبور الألماني الجنسية ، ومن ثم فإن الصورة التي رسمها لين lane للعرق العربي ، أو بالأحرى لمستعمريه على ضفاف النيل ، تصبح أكثر حياة وحيوية من تلك الصورة التي رسمها نيبور ، إضافة أيضاً إلى أن صورة لين تعد أوفى وأكمل ، ولكن هيا بنا نعود من جديد إلى الفناجيل - أقصد فناجيل القهوة - فإن لنا حديثًا مع أول وأفضل أنواع البن ، البن اليمني .

يغادر البن اليمني أرض اليمن من ثلاثة محاور رئيسيه للتصدير - محور البحر الأحمر ، ومحور الحجاز الداخلي ثم محور القصيم - والمحور الأول يستهدف مصر ، ولكن المحور الثاني يستهدف سوريا، أما المحور الثالث فيستهدف كلاً من نجد وشومر. ومن ثم تصبح كلاً من مصر وسوريا هما الوحيدتان ، عن سائر بقية الدول ، اللتان تقعان خارج حدود الجزيرة العربية ، وتحصلان على أفضل صادرات البن اليمني ، برغم المحظورات التي أشرنا إليها من قبل ، وتحصل القسطنطينية والشمال على حصصهما الصغيرة من هذا البن ، عن طريق ميناء الإسكندرية البحري أو الموانئ السورية، ولكن هذه المرحلة الأخيرة، من مراحل النقل ، يندر أن تنقل السلعة الحقيقية ، اللهم باستثناء الوساطة و الترتيبات الخاصة أو الصداقات الشخصية أو المصالح الخاصة ، ففي الأماكن التي يجري فيها بيع البن أو نقله ، تدور عمليات استبدال نوعية بنوعية أخرى ، أحط ، كما تجري أيضاً عمليات الغش التي تكاد تصل إلى حد الاستبدال داخل المستودعات المختلفة الموجودة على الشاطئ ، إلى أن يصبح ذلك الذي يقال عنه بن المخا ، شيئًا لا يشبه ، من قريب أو بعيد المنتج اليمني الحقيقي ، وبذلك يختلف البن المصدر عن البن الحقيقي اختلاف النبيذ الذي يتم تحضيره من خشب الوقيم ويبيعه تاجر التجزئة من الدرجة الرابعة ، عن الشراب الحقيقي الذي يجري تحضيره من بستان من بساتين أوبورتو Oporto .

النوع الثاني من البن ، والذي يفضله البعض على البن اليمني ، ولكنه من وجهة نظرى المتواضعة أقل منه ، هو البن الحبشى (الأثيوبى) ، وحبة البن الأثيوبي أكبر من حبة البن اليمني ، ونكهته مختلفة ، كما يقل عنه حرارة ، ومع ذلك ، فإن الحبشى نوعية ممتازة ، وكلما سمحنا للتربة الخصبة التى تنمو فيها أشجار البن الحبشي بأن تنعم بخصائص الخصوبة التي حباها الله بها ، فإن ذلك يحتمل أن يؤدى إلى التوسع فى زراعة البن وفى تجارته ، ومن وجهة النظر والمذاق الشرقيين ، تنتهى قائمة البن الحبشى ، وتبدأ قائمة أخرى هى قائمة حبوب البن نفسها .

فى مسألة حبوب البن نفسها تحتل حبوب البن الهندى مكان الصدارة والمقدمة ، مع حبة أخرى ، تشبه الحبة الهندية إلى حد ما ، وتنتجها المزارع العمانية ، وحبوب البن العمانية يستعملها الناس فى المنطقة التى تمتد من ظفار إلى البصرة ، ومن البصرة إلى بغداد والموصل . والناس فى هذه المنطقة سواء أكانوا عربًا ، أم فرسًا ، أم أتراكًا ، أو اكراداً لا يستعملون غير البن العمانى ، والبن الهندى يستسيغه أولئك الذين لم يعتادوا مذاق أو نكهة البن اليمنى ، ولكنى أقرر دون رياء أو نفاق ، أن الوافدين الجدد من نجد ومن القصيم لا يستسيغون نكهة البن الهندى ، وشكل حبة البن الهندى مشوه وغير منتظم ، ولون الحبة يميل إلى الاسوداد ، يضاف إلى ذلك أن البن الهندى يفتقر إلى ذلك الشكل شبه الشفاف الذى يشبه المرمر والذى تتمتع به حبوب البن اليمنى وهذا الفارق يُسَهِّل على غير الخبراء ، التعرف على البن اليمنى بالعين المجردة ، وليس عن طريق المذاق فقط .

وقد يكون البن الهندى فى المستقبل منافسًا للبن اليمنى فى النهاية ، أو للبن الحبشي على أقل تقدير ، وإلى الآن ، لا يعد البن الهندى منافسًا للبن اليمنى أو الحبشى ، برغم أننا لا نستطيع أن نحدد الأسباب الخاصة ، سواء أكانت متمثلة فى التربة ، أو المناخ ، أو الزراعة ، التى تجعل البن الهندى أدنى درجة من البن اليمنى والبن الحبشى .

ومن وجهة نظر الشرقيين جميعًا ، يحتل البن الأمريكي المرتبة الأخيرة ، يضاف إلى ذلك ، أن تدهور هذا المنتج فى العالم الجديد عنه فى العالم القديم ، يظهر بصورة واضحة أيضًا فى التدهور الذى نلاحظه فى الحبوب الأخرى مثل الأرز والشاى .. إلخ .

وأنا لا أستطيع أن أقول شيئًا هنا عن بن بتافيا Batavia نظراً لأنى لم أذق طعمه . وأنا أسـمع الناس يثنون عليـه في بعض الأحـيـان ، ولكن ذلك الثناء يجئ من قـبل الأوربيين ؛ نظراً لأن أهل الشـرق لم يأتوا على ذكـره قط أمـامي ومن يدرى فلربما خلطوا بينه وبين البن الهندى .

كنت ونحن في الجوف ، قد وصفت باستفاضة ودقة بالغين ، الطريقة التى يجرى بها تجـهـيز حـبـوب البن للاسـتـعـمـال ، وهذه الطريـقـة لا تخـتلف عن الطرق الأخرى المستعملة في نجد أو في البلاد العربية الأخرى، ولكن يزيد على هذه الطريقة في نجد ، إضـافة الزعفران ، والجنزبيل ، وما إلى ذلك من التوابل الأخرى ، وهذه الحقيقة يمكن تفسـيرها بالإفـتـقـار إلى الحـافـز الذى يتوفـر عن طريق التبغ فى المناطق الأخرى . والنتيجة الثانية التى تترتب على عدم التدخين بين العرب هو زيادة قوة المستخلصات عن طريق الغَلْى في نجد ، والاكثـار من اسـتـعـمـال تلك المسـتـخلصـات ، التى يجب أن نضـيف إليـها كـبر حـجم الفناجيل التى تسـتـعمل هنا ، وهكذا نجـد أن البشـر عندما يحرمون من لذة أو متعة ما ، يعوضونها من طريق آخر .

وليسمح لى القارئ أن أضـيف ، بضـعـة أسطر تتـصل بتحـريم القرآن للنبيذ ، والذى يعرفه جميع القراء ؟ هناك كلام كثير ، حول هذا الموضوع ومع ذلك أظن أنه غير كاف ، لتفسير امتناع النبى (ﷺ) عن تناول النبيذ تفسيراً مقنعاً ، يُرَوِّجُ مسيحيوا الشرق قصة ، هى فى حقيقة الأمر من اختراعهم ، مفادها أن محمداً (ﷺ) كان قد ثمل في وقت من الأوقات ، وأنه بينما كان سكرانا قتل معلمه الراهب النستورى Nestoritian بوحيره Bohyerah ، الذى يعرف فى السجلات الدينيـة باسم سـيـرجـيـوس Sergius وأن استياء محمد الشـديد وضيقه بهذه النتيجة المؤسفة التى ترتبت على كأس النبيذ ، كما يقول مسيحيوا الشرق ، هى التى دفعت محمد (ﷺ) إلى تحريم تعاطى النبيذ ، تماماً ، وهذه الخرافة ، تفندها أبسط الحقائق وتثبت التواريخ بطلانها ، وكـان ينبغى الا أشير إليها هنا من قريب أو من بعيد ، لولا أن بعض الأوربيين كانوا قد أخذوها مأخذ الجد ، بعض آخر ، من أمثال أولئك الذين يسلمون بأن (سيدنا) موسى قد حرم أكل لحم البجع في الشرق لأنه نجس (وهذا السبب لا يتفق مع القائمة الطويلة التى تشتمل على لحوم أخرى ، تستعمل فى هذه الأيام ولا يقال عنها نجسه ، ولكنها محرمة عند بنى إسرائيل) ، خُيِّل لهم أن محمداً (ﷺ) فى نوبة من الحماس ، مثل الأب متَّى ،

أغضبته التجاوزات الناتجة عن إساءة استعمال النبيذ بين أتباعه، وبخاصة المتشاحنين، والمتنازعين، وسفاكي الدماء، وما إلى ذلك، وإنه لهذا السبب قرر استئصال هذا الشر المستشري من جذوره، عن طريق تفجير اعتراضه المطلق على هذا الشراب.
وأنا أود أن أورد هنا ملاحظة مفادها أن عرب ما قبل الإسلام، برغم أنهم مثل سائر البشر، كانوا يتعرضون للحفلات الصاخبة من حين لآخر، ولكنهم مع ذلك، لم يكونوا أيرلنديين. ولم يكونوا تابعين للعرف السائد في نجد. ومن ثم يصبح الأساس الأول للقياس هنا، هو الحاجة أو الضرورة، صحيح أن بعض الشعراء العرب القدامى أتوا على ذكر النبيذ، وإثاره المنعشة والمنبهة مثلما فعل كل من هوراس Horas وأنا كريون Anacreon، ولكن الشعراء مثلما يقول القرآن "يقولون ما لا يفعلون" ولا يصح الاستشهاد بهم في مثل هذه الأمور الخطرة أو الاتهامات الكاسحة. وصحيح أيضاً أن بعض الكتاب المحدثين، من أتباع محمد (ﷺ)، قد ساندوا الفكرة نفسها المتعلقة بذلك التحريم، ولكن جهل هؤلاء الكتاب بالماضي، وافتقارهم الكامل والواضح إلى التمييز النقدي هو الذي يفرغ تعليقات هؤلاء الكتاب من قيمتها ويجعلها أقل بكثير مما كان يظنه الناس فيها، والسُكْر لم يكن مطلقًا واحدة من رذائل العرب، لا قبل مجيئ محمد (ﷺ)، أو حتى، في هذه الأيام، بين الناس الذين لا يعلمون شيئًا عن محرماته أولاً ينقذونها.

تُرى ما السبب الحقيقي وراء هذا الحظر الغريب غير الحكيم؟ غير الحكيم بالتأكيد، إذا كان لا يقوم على أسباب سوى تلك الأسباب التي رفضناها من منطلق أنها أسباب غير مقنعة وليست كافية، أو أنها أسباب مبعثها الخرافة وعدم الدقة، وأقوى الحجج تجعلنا نعزو ذلك التحريم إلى كراهية النبي (ﷺ) للمسيحية، وإلى رغبته في توسيع الحد الفاصل بين أتباعه وأتباع المسيح.

الواقع، أن مؤسس المسيحية، لم يسمح فقط بتعاطي النبيذ، وإنما رعاه ورفعه إلى منزلة لها مغزى ديني كبير، بل أن هذه المنزلة، في نظر ثلاثة أرباع العالم المسيحي، تصل إلى حد الخوارق تمامًا، وبعد مكانة النبيذ الدينية والصوفية تأتي مكانته الاجتماعية، ولا يزال النبيذ، بين جميع الشعوب، التي تقول لغة الشرق عنها، إنها "تتخذ من الإنجيل كتابا لها"، أو إن شئت فقل: المسيحيين بالمعنى الأشمل لهذا

المصطلح ، لا يزال النبيذ عند هذه الأمم ، هو رفيق الالفة السياسية ، والمنزلية والاجتماعية ، وأنه من هذا المنطلق يجرى تقديره واعزازه واستعماله ، فى كل مكان على نطاق واسع ، كان محمد (ﷺ) يعرف كل ذلك ، ويكفى أن يكون الإغريق وحدهم ، وهم جيران محمد (ﷺ) الذى لم يكن على علم بعاداتهم وتقاليدهم ، أن يكونوا مثالاً واضحًا على هذه الحقيقة ، زد على ذلك ، أن حكمة محمد (ﷺ) التى تشبه حكمة العرَّافين[1] ، والتى ليس لها مثيل ، هى التى جعلته يتوقع من المسيحيين ، أعداءًا أكثر خطرًا ، وعداءً مستديمًا وأكثر خطورة ، مما كان ينتظره من اليهود أو الفرس ، أضف إلى ذلك ، أن التسامح الحريص القائم على الاحترام الذى كانت تقتضيه القوة وكثرة العدد ، هو الذى حتَّم وضع علامات مميزه ، بل علامات فارقة ، تهدف إلى الإبقاء على أتباعه فى عداء دائم مع أولئك الذين لم يستطع أتباع محمد (ﷺ) أن يستخفُّوا باحتقارهم ، أو يضطهدونهم اضطهاداً مأمون العواقب ، وقول محمد (ﷺ) عن الشراب الاجتماعى ، الشراب المقدس ، الذى يكاد يلتصق بالمسيحية ويعد شعارها المميز ، بشكل من الأشكال ، قول محمد (ﷺ) عن هذا الشراب بأنه "نجس" و "محرم" ومن عمل الشيطان "كان الهدف منه هو تحديد شعار مضاد لاتباع محمد[2] ، بحيث لا يخطئه أو يتلاعب به أحد ، وله طبيعة الدوام على مر الزمان ، ويتردد فى حياة الناس كل يوم ، ويسرى بنفس الدرجة أيضًا فى المسجد الذى يُعَدُّ نقيضًا للمطهر ، وفى الحريم الذى يعد نقيضًا للمبغى أو الماخور ، يضاف إلى ذلك ، أن هذا التحريم البارع ، برغم أضراره الشديدة ، لم يفشل فى تحقيق مآربه .

(١) ما هذا الافتراء على مقام النبوة ، إن محمداً (ﷺ) هو نبى يوحى إليه وليس يشرع شيئاً من عند نفسه وإنما يتلقى معالم التحليل والتحريم من الله تعالى يقول عز وجل "قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير ... إلخ الآية ويقول تعالى " إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ... إلخ الآية سورة المائدة ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) إن تحريم الخمر للسبب الذى ذكره المؤلف وهو معاداة المسيحية قول غير سديد ولا تؤيده الوقائع التاريخية لأن العداء بين الرسول والنصارى لم يكن له وجود فى عهده (ﷺ) وإنما العداء كان من اليهود وقد تكرر غدرهم ونقضهم العهود التى أبرمها معهم النبى (ﷺ) ، وإنما كان تحريم الخمر لعلة الإسكار والصد عن سبيل الله ولأنها فى ذاتها نجس وخطر على الصحة وقد أثبتت البحوث التجريبية ذلك الخطر على الصحة وتوصى كل البحوث بالامتناع عن شرب الخمر لضررها المحقق على الكبد وغيره ، (د. حلمى عبد المنعم) .

وعلى أية حال ، هذا مجرد مثال واحد: بل إن هناك "دلائل واضحة أخرى كثيرة على أن هذه النزعة السياسية ، موجودة في العقيدة المحمدية سواء أكنا نراجعها في القرآن أم في الأثر المعاصر لصاحب القرآن ، وأنا لا يمكن أن أعزو ، بطريقة عقلانية الكراهية العميقة للتصوير أو الرسم بكل أشكالها ، واللذان يعدان شيئًا ضروريًا في الفكر المسيحي الشرقي ، ويمكن أن يراهما القُرَّاء الذين يتصادف أن يدخلوا كنيسة إغريقية أو أرمينية، ومكروهين تماماً من محمد (ﷺ)، الذي استغل الوقت المناسب ، ليطبع في نفس أتباعه وجنوده شعوراً مماثلاً ، هذه الكراهية العميقة لا يمكن أن أعزوها إلا إلى تلك النزعة السياسية الموجودة في العقيدة المحمدية ، ومما لا شك فيه ، ان محمداً (ﷺ) قد استمد كراهيته للأجراس (إن جاز لنا ، عن طريق القياس ليس إلا أن نطلق ذلك الاسم على الاختراعات ، التي تحل محل الأجراس في الشرق ، والتي تطلق أصواتًا لدعوة الناس إلى الذهاب إلى الكنيسة) من المصدر نفسه ، وليس خوفًا من إقلاق منام الملائكة أو لأن هذه الإشارة الخاصة بالصلاة كانت إشارة كونية بين أتباع العقيدة المنافسة لعقيدة محمد (ﷺ) ومن هنا أيضًا تجيئ كراهية محمد (ﷺ) للموسيقى ، التي قال عنها إنها أبشع أعمال الشيطان ، لأنها تضلل الجنس البشري ، وبذلك تتأكد جملة لورنزو Lorenzo التي يستشهد بها الناس كثيراً وتقول : " الرجل الذي روحه خالية من الموسيقى إلخ" ، وهي من قبيل السطور التي لا تجد مقاماً مناسباً لتطبيقها أكثر من هذا المقام ومن هنا ، أيضاً تجيئ كراهية محمد (ﷺ) للصلاة في الفترة ما بين شروق الشمس والساعات الثلاث التي تلي ذلك ، إلى ما قبل الظهر أو الضحى ، أو الدعاء خلال الفترة المحصورة بين العصر وغروب الشمس ، لا تحاشياً لقرون الشيطان ، وهذا نقلاً عن تعليق شعبي ذائع ، وإنما لأن هذه الأوقات بالذات هي التي يتجمع فيها مسيحيوا الشرق لصلاة المساء وموسيقى القدّاس ، تلك الصلاة التي تتردد كثيراً في بلادهم ، ويجوز لنا أيضًا أن نعزو إلى هذه النزعة التناقضية نفسها ، برغم أن ذلك يمكن التدليل عليه بطريقة غير مباشرة ، عدم تشجيع محمد (ﷺ) للتجارة ، الذي يلمح إليه القرآن ، والذي يتضح في الأثر ، وكذلك كراهية محمد (ﷺ) السفن وللإبحار التي وردت في كلمات الجمّال الحجازي، غير الإنجليزية عندما قال لي: "من نزل البحر مرتين فقد كفر" ، والواقع أن التجارة، مع بعض الاستثناءات البسيطة ، كانت تسير سيراً منتظماً ويداً بيد في المسيحية ، بدلاً من الركود والتدهور الذي أصابها في الإسلام؛ كما أن الدين الذي انتقى رئيسه المناب من قارب أحد الصيادين،

قد فعل الكثير من أجل تبييض سطح البحر بتلك الأشرعة التي لا تحصى ولا تعد ، هذا الدين هو محط كراهية وشكوك محمد (ﷺ) الفطرية[١] .

وخلاصة القول ، هى أن مسألة جعل دين محمد واتباعه فى تباين واضح مع كل من المسيحية والمسيحيين ، كانت سمة أساسية فى عقيدة محمد (ﷺ) ، الذى نجح فيها نجاحًا تامًا ؛ زد على ذلك أيضًا ، أن ما يزيد على ألف عام من الزمن لم تؤد إلى التقارب ولو مثقال شعرة واحدة بين عقيدتين يكشف شعارهما عن "عداء فطرى شديد" ينطوى عليه المصطلحان المتناقضان ، وبقى فى الجزيرة العربية بعد المسيحية ، عقيدتان أخريان ، كانتا أيضًا معاديتين للإسلام ، واللتان كان لا بد من اتخاذ بعض الاحتياطات تحسبًا لتأثيرهما، ولكن بدرجة أقل من المسيحية ؛ هاتان العقيدتان كانتا : اليهودية والوثنية. وتم تمييز الإسلام عن اليهودية عن طريق توجيه القبلة ناحية الكعبة ، وأكل لحوم الجمال ، التى كانت محرمة فى الشرائع القديمة ؛ وعن طريق التعديلات الخاصة التى طرأت على تعدد الزوجات فى الإسلام ، وعن طريق أمور كثيرة أخرى ، يصعب حصرها هنا[٢] ، ولم يكن لدى وثنيى أو سبئيى الجزيرة العربية ، بالشكل الذى كانوا عليه ، شيئ يخشاه محمد (ﷺ) أو يخاف منه ، من حيث التعارض المباشر ، أو من حيث الاستيعاب والفهم الجيد ، يضاف إلى ذلك ، أن الحلول الوسط

(١) هذا تحليل عجيب من المؤلف حيث يجعل قائمة المحرمات فى الإسلام مرجعها إلى كراهية النبى (ﷺ) - إلى المسيحية ، وليس الأمر كذلك ، فمنع الصلاة عند شروق الشمس وعند غروبها هو تشريع إسلامى صريح لأنها تشرق وتغرب بين قرنى شيطان وليس مقولة شعبية كما يدعى المؤلف ، وقوله بأن التجارة كسدت فى البحر وعند العرب لأن النبى حرم الاتجار قول غير صحيح فقد ثبت عنه (ﷺ) أنه قال "تسعة أعشار الرزق فى التجارة ، وكان هو تاجرًا ، والعرب كانت لهم شهرتهم التجارية فى رحلتى الشتاء والصيف ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) إن هذا التحليل الشخصى عن المحرمات فى الإسلام وتصور المؤلف له بأنه نوع من الحنكة السياسية للنبى محمد (ﷺ) فى مخالفة أعدائه هو تفسير خاطئ وجهل بطبيعة الدين الصحيح فى المسيحية وفى اليهودية وفى الإسلام ، فمن المعلوم أن النصرانية الصحيحة واليهودية الصحيحة لا تختلف مع الإسلام فى أصول العقائد والشرائع والأخلاق ، يقول تعالى "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه وما وجد من خلل فى أصول المحرمات والعقائد والأخلاق فى المسيحية واليهودية إنما مرجعه إلى تحريف دين الله ، والمسيحية التى يتحدث عنها المؤلف ليست هى مسيحية عيسى عليه السلام وإنما مسيحية بولس المؤلفة من وثنية الرومان وفلسفة الإغريق والمجامع المسكونية بشهادة علماء المسيحية أنفسهم والدراسات النقدية التى صدرت فى أوربا فى عصر التنوير حول الكتاب المقدس شاهدة بذلك ، (د. حلمى عبد المنعم) .

كانت أمراً مستحيلاً ، كما أن التصارع مع هؤلاء الخصوم ، لم يكن مقدراً له أن يستمر طويلاً علاوة على ان نتيجته كانت مضمونة ولا تثور من حولها الشكوك . ولكن الأمر ، فيما يتعلق بالمسيحية ، كان مختلفًا تمامًا ، نظراً لأن أمد الصراع قد يطول لآماد مقبلة، فالقوى المتعادية لم تكن متوازية تماماً ، في حين كان على الجانبين ، قدر محتمل كبير من النِّسب ، كاف لجعل الحلول الوسط تشكل خطراً قاتلاً على جوهر الاسلام نفسه ، إذا ما أدى الاتصال والزمن إلى أحداث نوع من الألفة بين العقول التي سئمت الحروب والجدل الطويلين . وتأسيسيًا على ذلك ، أصبحت مسألة الفوارق الخاصة ، والتيار المضاد الذي يسري في كل تفصيله من تفاصيل الحياة اليومية ، مطلبًا ضرورياً وأساسيًا للحفاظ على مسألة المخالفة التي تعد أمراً حيوياً في بقاء العقيدة الإسلامية على هذا النحو .

وقد أيَّدت القرون المتوالية كلاً من حقيقة ذلك الخطر وأهمية الإجراءات التي سبق اتخاذها تحوطاً لمثل هذا الخطر ، وتاريخ أخوانيات الزهد والتنسك هو والمذاهب والمعتقدات السرية في الشرق ، بدءاً من الدردنيل إلى الهند Indus ، يوضح هاتين النقطتين ، كما يثبت هذا التاريخ أيضًا كيف أن الإسلام كان على وشك الانحلال أكثر من مرة ، وذلك عن طريق تسلل الأفكار التوسعية والفكر المسيحي إلى الإسلام بطريق غير مباشر ، وإذا ما سمح لي الوقت والظروف ، فإنني قد أكتب موضحًا هذه النقطة أكثر مما هي عليه الآن ، وأنا من رأيي الآن ، رغم أسفي على ذلك ، أن أعود إلى محمد (ﷺ) حيث تركناه ، وهو ينظم مثل القادة المهرة ، نسق معركته في صراع تثور من حوله الشكوك .

كان الهدف الذي حدده النبي (ﷺ) ، وحققه إلى حد كبير ، يرمي إلى تذكير أتباعه كل يوم وكل ساعة بماهية الدين ، وبماهية التنظيم الذي ينتمون إليه ، وذلك عن طريق سلسلة متكررة من الطقوس والواجبات الموجزة كي لا تُتْعِبْ ، والتي تتكرر دومًا كيما تجعل النسيان أمراً مستحيلاً ، في حين يجب أن تحتوي كل صلاة ، وكل مصطلح على خلاصة للعقيدة الأساسية ، خلاصة للروح المتميز ، تستثير الانتباه برتابتها ، وغزيرة ، في ايجازها ، كما كان النبي (ﷺ) يهدف في الوقت نفسه إلى جعل أتباعه يحسون دومًا بأنهم متميزون دوماً عن العقائد الأخرى ، ويعارضون كل العقائد الأخرى ، ولا يتجانسون مع العقائد الأخرى ، وبعد أن أخذ محمد (ﷺ)

كل ذلك بعين اعتباره ، وبعد أن جسده عملاً وممارسة ، استطاع أن يأتى بعبارات وسيطة محددة ، وأحكام مختصرة دمسه عن دين مهاب برغم انه مكروه ، وطوال ذلك الصراع ، كان النبى (ﷺ) يطالب بالاعتدال ، وبالاحترام الذى تستوجبه السلطة والنفوذ .

الموضوع مهم ، وأنا على ثقة أن القارئ ، سوف يطيق معى صبراً فى هذا الاستيفاء المطول لموضوع قصتى ، وأن يسمح لى أن أعود ثانية إلى بداية ذلك الاستقصاء ، إلا وهى مسألة تحريم عصير العنب ، الواقع أن محمداً (ﷺ) كان له هدف ثان ومباشر ولم يكن واضحًا له هو شخصياً ولكنه لم يكن أقل فاعلية أو تأثيراً . والواقع أن مسألة زيادة التوحد بين أتباع محمد (ﷺ) أنفسهم فيما يتعلق بالدين والحرب ، ومسألة دمج هذين الهدفين فى هدف واحد ، ومسألة استبعاد وتثبيط أنواع التوحد الأخرى التى يغلب عليها أن تصرف اهتمام اتباع محمد إلى أمور أخرى ، مما يؤدى إلى التقليل من طاقة التركيز الكامل ، كل هذه المسائل كانت ضمن خطة يجدر أن يقوم بها النبى المكىُّ ، يضاف إلى ذلك أن الوسائل التى انتهجها النبى المكىُّ لتنفيذ هذه الخطة كانت سمات مميزة لمنظومة هذا الرجل ولشخصه أيضًا . من هنا ، حرص النبى ، فى المقام الأول ، على أن يضمن تكرار تجمع "المؤمنين" ليس مرة واحدة فى اليوم وإنما خمس مرات ، فى الصلاة الشرعية ، كدت أقول الصلاة الرسمية ، فى حين أنه أعطى لهذه الصلوات الخمس نفسها ذلك الدور والمظهر العسكرى الخارجى الذى لابد وأن يسترعى اهتمام المراقب السطحى العشوائى ، تُرى هل هى كتيبة وعلى رأسها رقيب مدرب أم أنها مجموعة من المتعبدين ومعهم إمام ؟ هذا السؤال يخطر على بال كل من يرى مجموعة ، كبرت أم صغرت من اتباع محمد فى مسجد ، أو فى العراء ، وهم يؤدون صلاتهم القومية المفروضة عليهم . وهنا تجد أيضًا أن الإطار العام للحكومة ، والإطار العام للإدارة المدنية ، والإدارة القضائية ثم الإطار العام للإدارة العسكرية ، لم يتم تشكيله ، كما فى المسيحية ليسير جنبًا إلى جنب مع الدين ، ويستقل عنه ، رغم أنه يتعاون معه ، وإنما لينجدل مع الدين ، أو أن شئت فقل ، ليكوِّنا منظومة واحدة ووحيدة ، ويشكل مع العقيدة المميزة ذاتها وحدة لا تقل عن الوحدة التى يكوِّنها وجها الميدالية الواحدة ، أو يدا الجسم الواحد . وهنا يكون النبى (ﷺ) قد وضع أمام أتباعه " الغزو " السنوى ، الحرب ضد الكفار ، باعتبـــاره هدفًا رئيسيًا ، بل هو الهدف الرئيسى لوجودهم المشترك ، أى أنه جعل الغزو مهمة أساسية ، أى شرط لابد منه .

كان ذلك كثيراً ، ولكنه كان مطلبًا ضرورياً لضمان تحقيق خطة صعبة لأنها شاملة ، علاوة على أن إجراءات المنع والاستبعاد كان لابد لها أن تصاحب كلاً من الأوامر الإيجابية والشعائر ، ومن ثم ، فإن كل ما يؤدى إلى تشتيت الذهن أو تبديد طاقة المؤمنين من خلال مجالات الفكر والعمل الأخرى ، لابد من تحاشيه ، أو تثبيطه أو تجريمه بقدر المستطاع ، [فالتجارة والاتجار صورتا على أنهما لا يليقان بالمسلم الحقيقي ، بل أن الزراعة لم تلق سوى قليل من الاستحسان في نظر بن "عبد الله" . وتقول كلمات النبي المكى ، نقلاً عن عائشة زوجته المحظية : "الملائكة لا تدخل منزلاً يكون المحراث معطلً فيه[1] " ، وهذه الكلمات لا تحتاج إلى تعليق[2]] ، ومع ذلك تظل الحياة الاجتماعية سواء أكانت متمثلة في ذلك الجزء الخارجي الذى ، يتمثل أصلاً فى ذلك الذى نطلق عليه مصطلح "اللهو" غير الدقيق، أم مصطلح "المنزل" Home الحميم ، والشهير والعزيز على كل مسيحي ، بل العزيز قبل كل شئ على كل قلب تيوتونى[3] Teutonic هي حياة الأسرة والعائلة ، هذان الجانبان (اللهو والمنزل) قدما قربانا على مذبح ملوخ[4] العسكرى والمتزمت .

كان محمد (ﷺ) يعلم أن البشر لن يجتمعوا إلى بعضهم طلبًا للمتعة الاجتماعية دون أن يكون بينهم ما يتسلون به ، وبالتالي يمكن أن يكون رابطة بينهم ورمز لتوحدهم . كان محمد (ﷺ) يعلم ذلك ، ولذلك أنزل تحريمه على كل ما يمكن أن يشكل مثل هذه الرابطة أو هذا الرمز ، ومن هنا أصبحت العاب التسلية والتغنى بالأدب والشعر ، وتمثيل المشاهد ، والموسيقى ، بل الحديث الذى يكون اسم الله فيه ، هو الموضوع الرئيسي أو موضوعاً للنقد والتجريح ، كل هذه الأعمال مكروهة

(١) عن أبى أمامه الباهلى ، حين نظر إلى آلة حرث (محراث) فقال : سمعت رسول الله ، (ﷺ) ، يقول : "لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل" – (د. حلمى عبد المنعم) .

حديث رواه البخارى فى كتاب المزارعة .

(٢) ما بين القوسين كلام خطير وهو محض افتراء على الإسلام ، لأنه لا يوجد دين مثل الإسلام دفع إلى الزراعة والتجارة والصناعة مثل الإسلام حتى وجدنا النبى (ﷺ) يقول "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل" والحديث الذى ذكره عن المحراث حديث صحيح لكنه محمول على حالة معينة وفى شأن قوم معينين ، فهو تحذير من الانشغال بالدنيا على حساب الآخرة وهو خاص بشأن قوم على الثغور والحدود قد انصرفوا عن الجهاد وخلدوا إلى الدنيا وقد يؤتى المسلمون من قبلهم فى ظل غفلتهم عن الجهاد . (د. حلمى عبد المنعم) .

(٣) واحد من التيوتون وهم شعب جرمانى أو سلِىٌ قديم . (المترجم) .

(٤) إله سامى كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه . (المترجم) .

أو ممنوعة منعًا تامًا ، ولدينا عن ذلك ، مدونات معاصرة لا يرقى إليها الشك ، وعصير العنب ، روح التواصل الاجتماعي السائلة ، مثير النوايا الحسنة ، وباعث الحضارة ، وباعث الأخوة الحانية على نطاق واسع ، هذا العصير لا مثيل له بين سائر الوسائل التي اخترعتها عبقرية الانسان - أو التي أرسلها الله رحمة به - لنخفف بها كآبة الحياة ، وتنشر الود والمرح ، كان لابد عندئذ من تحريم كل ذلك على وجه الخصوص ، بل أن ذلك حرِّم تحريمًا قاطعًا . ولن يكون من قبيل المبالغة هنا أن أضيف ، أن مسألة مضى محمد (ﷺ) قدمًا في قلة قليلة من تشريعاته المخربة ، إلى أبعد من ذلك بأن ابتلى أتباعه بالتقدم العقيم العاجز والمشاركة العقيمة والتسامح العقيم والتطور العقيم الذي جعل هؤلاء الأتباع محطًا لإعجاب الإقطاع العرقي ، ومحطًا للكراهية والأقوال المأثورة عن المسيح Christian بل الأقوال المأثورة عن العالم الوثني ، هذه المسألة كانت أقل مما فعله محمد (ﷺ) عندما أمر أتباعه باجتناب النبيذ باعتباره رجس من عمل الشيطان ، وحرم استعماله على الأمم المسلمة[1] .

ألا ليت القيود الزمنية لهذا الكتاب تسمح لي باقتباس الكثير عن حوليات التاريخ العربي ، والمأثورات الشعرية من العصر الجاهلي والمجتمع الجاهلي ، فيعرف القارئ مدى التحضر الذي وصل إليه قسم كبير من العرق العربي ، والمهمة التي اضطلعت بها البهجة والمرح على صعيد التقدم الوطني ، ولكن موضوعًا من هذا القبيل ، يحتاج إلى معالجة مستقلة ويحتاج أيضًا إلى دارسين لا يكلون ولا يملون ، وفيما يخص بقرائي فقد وصلت بهم إلى منتصف شبه الجزيرة العربية ، ولا يزال أمامهم النصف الثاني الذي يتعين عليهم أن يقطعوه معي أيضًا ، وأنا يسعدني أن أسمح لنفسي باقتباس بعض العبارات والمقتطفات عن بعض المأثورات الشعرية التي سبقت الاشارة إليها ، غير أن هذه الاقتباسات ينبغي أن تكون كثيرة ومكتملة حتى يمكن أن تقوم مقام البرهان والدليل ، وهذه كلها شروط لا تتفق مع القيود التي تحكم مجال العمل الذي أنا بصدده هنا .

(١) لست أدرى لماذا هذا التعصب لشرب الخمر ؟ مع ما ثبت فيه من أضرار ، ولو أن المؤلف ملم بالمسيحية لعلم أن الخمر محرمة منها وهذا ما أثبتته الدراسات النقدية للكتاب المقدس وأن الشراب المقدس ليس هو الخمر - كما يدعون - وإنما كان عصير العنب الطبيعي الذي شربه عيسى مع تلاميذه ، ووصف المؤلف تشريعات النبي بأنها تشريعات مخربة ، وصف ينمّ عن حقد على الإسلام ، هذا في الوقت الذي تقدمت فيه الدراسات حول تطلع الغرب المسيحي إلى تشريعات الإسلام وحكمته التشريعية في الزواج والطلاق وتحريم المسكرات ... إلخ ، (د. حلمي عبد المنعم) .

زد على ذلك ، ولكن مما يؤدى دومًا إلى النتيجة الخانقة نفسها ، إن الزوجات والأبناء ، في نظر محمد (ﷺ) "غواية خطيرة" ، وقد تم تخريب كل ثمار الارتباط الأسرى والروابط العائلية ، وهى لا تزال في مهدها ، عن طريق تشريعات جعلت الزواج لا يزيد عن مجرد كونه ارتباط بين رجل وامرأة ، في حين أن تعدد الزوجات وسهولة الطلاق ، الذى يجيء نتيجة طبيعية للتعدد بفصل الأبناء عن والديهم ، ويحرِّض الواحد منهم على الآخر، إلى أن يصبح منزل التابع المحمدى يشبه إسطبل الحيوانات، أو ميدان القتال الذى تعارك فيه منشئا الاسطورة الرومانية التوأم ، والقارئ الذى يصبر على الخوض خلال المشاهد الدموية غير النقية في الأسرة المالكة المحمدية ، ربما يستطيع أن يتبين على مسرح الحياة الملكية أو السلطانية ، كل ذلك الذى يدور داخل منزل الفلاح أو راعى الدكان في المناطق التى ابتليت بالقرآن[1] .

من هنا ، فإن طاقة أتباع محمد كلها ، بل وجودهم كله كانت تتركز ، من وجهة نظر محمد (ﷺ) في ثلاثة أهداف ليس إلا – الصلاة ، والحرب ، والنساء . والصلاة والحرب من قبيل الواجبات أما النساء فمن قبيل التسلية والاستمتاع .

هذه الحياة الخالية من اللهو ، ومن التسلية ومن العمل الجانبى والتى كان لابد أن يحياها الناس، في ظل استثناء حسىٍّ واحد هو أدنى واحط هذه الاستثناءات ، يحتمل أن تدفع الناس خطوة إلى الأمام ، وتساعد على انتشار رذائل لا حصر لها ، كما أن "محظورات العار" كما يقول كوير ، ربما لم تغب عن بصيرة محمد (ﷺ) النافذة ، بل أنه (ﷺ) توقع هذه المحظورات ، كما ورد في أحد الأقوال المسجلة في الأثر : "أخشى على قومى من جرائم قوم لوط ومن العقاب الذى نزل بهم" . ونحن لسنا بحاجة إلى الرجم بالغيب كى نفهم أن الإنسان عندما يحرم من المتعة الشرعية ، سوف يبحث عن المتعة غير الشرعية ، وأن النساء عندما يقل احترامهن ، يزيد أيضًا احتقارهن عند ممارسة الجنس معهن ، ولكن محمداً (ﷺ) عندما كان يتبصر كان يتحمل أيضاً

(١) لا يعرف العالم نظامًا أسريًا مترابطًا مثل نظام الأسرة في الإسلام فهو يقوم على ذلك الرباط المحكم رعاية الأولاد والزوجة والمسؤولية عنهم جاء في الحديث "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ... إلخ وقال تعالى "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ... إلخ الآية وقد حث الإسلام على إكرام الزوجة ورعايتها وإلى تربية الأولاد على العلم ومكارم الأخلاق ، وإكرام الوالدين والحفاظ على ترابط الأسرة وكلها أمور مقررة في الدين بقول تعالى "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، (د. حلمى عبد المنعم) .

تحملاً يقوم على الوعي والحصافة ، كما أن العقاب الطفيف، بل العقاب شبه الأسمى ، الذى كان ينزله بهذه الطائفة من المذنبين في شريعته ، كان ينذر بتكرار وقوع الشرور ، في الوقت الذى يعترض فيه على الاستنكار المهذب للعقوبة الخفيفة .

هناك مثل قديم وصحيح يقول : "العمل الدائم بلا لعب يجعل جاك صبيًا مكتئبًا ؛ بل يمكن لنا أن نضيف هنا ، إن ذلك يحوله إلى صبى شرير ، والقتال والصلاة ، ثم الصلاة والقتال ، ثم فترة مقحمة من حين لآخر من التسلية الحسية الخسيسة ، قد تمتص طاقات المقاتلين في أول موجه من موجات الغزو ، وطاقات المتحمسين ذوى الدم الحار الذين دخلوا فى التزمت حديثًا، ولكن متى تفتر أو تفشل هذه المحفِّزات ، برغم قوتها التى لا شك فيها إذ أن ذلك لابد أن يكون مصيرها فى النهاية فيما بعد ارهاقًا وتخمه للعقــل عندما يتراجع ؟ لا فيما يتعلــق بالجنس لأنه أحط قدرًا من الشهوة ، ولا فيما يتعلق بالروابط الأسرية التى أصابها الطلاق والتعدد بالضعف والوهن ، ولا فيما يتعلق بالنبيذ ، أو اللعب ، أو المرح ، لأنها كلها من عمل الشيطان ولا فيما يتعلق بالزراعة ، في ظل عقوبة الحرمان من زيارات الملائكة ، ولا فيما يتعلق بالتجارة ، لأنها انصراف عن "القوى" ، "الرزاق" ، إلى الوسائل المخلوقة ، ولا فيما يتعلق بالعلم ، نظرًا لأن "الإكثار من التساؤل والتقصى يعد هرطقة" ، حسب قول النبى (ﷺ) . إن من الصعب علينا أن نفهم الطريقة التى يمكن للمرء أن يلوم بها حصانا هو ليس مستعدًا لقفز الحاجز ، إلا ، بعد أن يلقى بنفسه أرضًا ليتمرغ فى الأقذار وفى الكسل والتراخى[1] .

وإذا كان ذلك هو الاتجاه الطبيعى والحتمى للأعراف المحمدية ، التى يقف تحريم النبيذ فيما بينها مجرد عينه مقبولة ، وليس أفضل العينات ، فأنا أرى ذلك الاتجاه رؤية واضحة تمامًا ، ومن رأيى أنه سيظل كذلك عند كل المُلِمِّين بالطبيعة

(١) لقد حث الإسلام على التجارة وحث على الزراعة وحث على العلم وحث على التقدم ، وأقر التعدد للزوجات في ضوء ضوابط شرعية تجعله نافعًا وليس ضارًا ، وتشريعات الإسلام فى المباحات والمحرمات كلها تقوم على رعاية المصالح ودرء المفاسد وإن الدارس لتشريعات الإسلام بعين الإنصاف يجد أنها أحكم نظام تقوم عليه الحياة السليمة ، وقد لجأت الكنيسة مؤخرًا إلى إقرار الطلاق ، وإباحة تعدد الزوجات أفضل من تعداد العشيقات ، كما أقرّ الغرب بخطر الخمر والمخدرات ، وتقطعت فى الغرب أواصر الرباط الأسرى وأصبحت الأم تمرض وتموت ولا يعرف الابن عنها شيئًا ، وكل ما صوره المؤلف عن الإسلام يتم عن جهل وتعصب أعمى ، (د. حلمى عبد المنعم) .

البشرية ، وإذا كانت النتائج هى اختبارات المنظومات (الأنظمة) فإن تاريخ الحكومات والأعراق المحمدية كان عامراً بضيق الأفق ، والفساد المخيف أو بالأحرى انقراض الأخلاق، والحروب القاسية أو المدمرة على الحدود ، وفى ظل صراع مستمر ، بكل أشكاله الأسرية، والاجتماعية ، والمدنية ، وتزمت متشنج يتعاقب مع كسل لا مبال ، وحيوية قصيرة الأجل[1] ، وقد أوضحنا واقع هذا الحال ، ورؤيتنا له رأى العين ، توضيحاً جزئيًا من خلال التطور القائم ، ومن خلال مجرى الأحداث ، فى تلك الدولة النموذج للإسلام الحقيقى ، تلك المدينة الفاضلة للنظرية القرآنية ، أو إن شئت فقل : الامبراطورية الوهابية ، بل أن هذا الواقع سوف يتضح بصورة أكبر ، فى كل أشكاله القبيحة ، طوال المضى قدماً فى سرد أحداث هذه القصة - أو إن شئت فقل - عن طريق تلاوة ذلك الذى شاهدته عيناى ، وذلك الذى سمعته أذناى ، لا من بعيد وإنما من قريب وفى المكان نفسه .

وأنا أعى تماماً الاستثناءات الفردية ، بل الاستثناءات القومية رغم كونها استثناءات انتقالية ، من هذه القاعدة العامة . ففى ظل أسوأ أنظمة الحكم ، يمكن لنا أن نتوقع بزوغ الخير ، فى وقت من الأوقات وأن مثل هذا الخير قد يستمر فترة من الزمن ، وهذا هو حال الشرِّ فى ظل أفضل أنظمة الحكم ، والطبيعة البشرية مهيأة لمقاومة تدميرها أو القضاء عليها ، والقرآن ، بالطريقة نفسها ، لا يمكن أن يؤيد تماماً جراثيم الحب العائلى أو الولاء الزوجى ، أو النشاط الوافر السخى ، أو التسامح الحانى أو الحضارة النظيفة ، فضلاً عن أن القرآن لا يمنع مطلقًا وصول هذه الأمور إلى مرحلة محددة ، فى أقل الأحوال ، وأن يكون لها ثمار غير عادية ، وهذا يصدق على جميع البلدان وعلى جميع الشعوب، ولكنه يصدق بصفة خاصة على العرق العربى، الذى حبته الطبيعة بأفضل عطاياها، وفى مقدمة ذلك كله حيوية مرنة لا يمكن إيقافها . وعن طريق تركيز الاهتمام على هذه الاستثناءات السعيدة رغم ندرتها ، وعلى تلك

(١) هذا النظام الذى يتندّر به المؤلف ، إنه بعبارة موجزة تعاليم الإسلام التى نهضت بها الأمة الإسلامية ، وقامت بها الجزيرة العربية من ثباتها العميق واستطاعت بتعاليم هذا الدين أن تحقق ذاتيتها وأن تنشر الخير فى العالم وأن تبنى حضارة إسلامية رائعة فى العلوم وسائر جوانب النهضة ظلت طيلة خمسة عشر قرنًا من الزمان هى منارة العالم فى التقدم والتحضر بل أن النهضة الأوربية قامت على أكتاف الحضارة الإسلامية وإن روجر بيكون هو الذى نقل المنهج التجريبى فى القرن السادس عشر الميلادى إلى أوربا وكانت النهضة الأوربية مدينة للحضارة الإسلامية فى تقدمها الحالى ، ولكنها أنكرت وتعصبت ، (د. حلمى عبد المنعم) .

المسائل الشاذة الحظيظه غير المقصودة ، استطاعت بعض العقول المثقفة ، التى لآرائها وزنها وهذا هو رأيى فى هذه العقول أن تخدع نفسها خداعًا غريبًا أو سعت إلى خداع نفسها ، عندما راحت تعزو إلى القرآن ما ليس فيه ، فى واقع الأمر ، وراحت هذه العقول تطرى الإسلام وتفرط فى الثناء عليه فيما يتعلق بالنتائج التى ترتبت على ردة الفعل على الإسلام وخلاصة القول : إن هذه العقول المثقفة صائبة الرأى ، راحت تستبدل الشذوذ بالقاعدة ، والاستثناء بالمبدأ ، وبنفس القدر من العدالة يمكن لنا أن ننسب إلى شارل الأول فضل إلغاء الغرفة النجمية Star Chamber ، أو أن ننسب فضل إلغاء قانون الأمر بالمثول[1] إلى حس ولده السياسى .

والواقع أن ردود الفعل الاجتماعية والسياسية والوطنية ، والدينية كانت واسعة الانتشار فى معظم الأحيان داخل المناطق التى تتبع عقيدة محمد ، وقد اسفرت ردود الفعل هذه ، عن نتائج عجيبة فى بعض الأحيان ، بل أن هذه النتائج كانت هائلة ومخيفة فى أحيان أخرى ، وهذا هو القانون الحتمى لهذه العملية ، فى جميع الأماكن ، سواء أكانت هذه الأماكن مادية أو معنوية ، ولكن من العدل أن نتبين ونفهم ذلك الذى يستحق الثناء والإطراء ، الاتجاه الحقيقى للذهن الذى يمثل رد الفعل ، على حين أننا نلاحظ ، فى التجاوزات الشائنة التى تكاد ترتبط فى أحيان كثيرة بأشياء وأمور أفضل منها ، تلك الاهانات الوحشية الناتجة عن الرزوح تحت النير فترة طويلة من الزمن ، ثم فى النهاية التحرر من ذلك النير وتكسيره . والبشر لم يولدوا حيوانات ، وإنما قد يدفعهم غيرهم إلى أن يتحولوا إلى حيوانات .

ونحن عندما نعود ثانية ، إلى الأرض التى نترحل فيها ، نجد أننا قد لاحظنا شيئًا ما من ردة الفعل الحتمية هذه ، داخل شبه الجزيرة العربية ، وسوف نورد فيما بعد ، المزيد من ردود الفعل ، التى تتسم بالعمق أكثر مما سبق أن أوردناه ، ولكن آمل أن يتفهم القارئ الأسباب التى دفعتنا إلى التركيز على هذا الموضوع فى هذه المرحلة من الكتاب ، وعليه سوف أعجل بالعودة بالقارئ إلى المقهى ، التى جرتنا فناجيل القهوة فيها إلى كئوس النبيذ الذى جرنًا بدوره إلى نظرية الإسلام كلها ، من منظور مؤسس هذه النظرية على أقل تقدير .

(١) أمر قضائى بإحضار شخص للمثول بين يدى المحكمة ، أو أمر قضائى بالتحقيق فى قانونيه شخص معتقل ، (المترجم) .

وبعد استقرارنا على النحو الذى بيناه ، وعلى مدى شهر أو ما يزيد على ذلك ، فى هذا المسكن الجديد ، نظمنا أمورنا المنزلية ، واتفقنا فيما بيننا على تقسيم العمل بيننا ، وكان أبو عيسى مسئولاً عما يمكن أن أسميه علاقاتنا الأجنبية ، وجلب الأخبار من البلاط الملكى ، وأن ينظم الأخبار المهمة بما يخدمنا ، ويضفى علينا سمعة طيبة فى كل مكان . فى حين أصبح بركات مسئولاً عن الأعمال المنزلية ، والمشتروات الضرورية اليومية ، وطهى الطعام إذا سمحت الظروف لنا بذلك أى أنه كان ، باختصار ، مسئولاً عن كل شئ فيما عدا قسم القهوة ، الذى احتفظ أبو عيسى به لنفسه . وفيما يتعلق بى أنا شخصيًا ، فقد كان مفترضًا أن أكون أن شخصيًا ايسكولبيس Aesculapius العظيم العليم ، الذى يقوم بسحق الدواء ، ومعالجة المرضى ، وأن "أبدو أعقل وأحكم من أى رجل آخر" ، كما يقول اللورد ثورلو Thurlow وأن أتكلم من هذا المنطلق .

وكان من الطبيعى لنا ألا نشكو من قلة العمل ، ولكنى قبل أن أقدم للقارئ ذلك الجمهور متعدد الألوان الذى يحاصر باب دارنا ، وقبل أن أكشف للقارئ خيوط المؤامرات الغريبة التى دارت خلال تلك الفترة من حياتنا الترحالية ، كما لو كانت عقدة فرعية من عقد الرواية وانتهت مثلما تنتهى الرواية أيضًا ، بكارثة غير متوقعة ، قبل كل ذلك هيا بنا إلى جولة صباحية خلال مدينة الرياض ، تعطينا بعض المعلومات والأفكار العامة عن هذه المدينة ، وعن سكانها .

الشمس الآن على وشك أن تشرق ، وقلة من الناس ، من أمثالنا ، هم الذين استيقظوا ويبحثون هنا وهناك ، ولكن الشخصيات العظيمة ، من أمثال الملك وبلاطه لا تزال نائمة ، ماذا أقول هل أقول ينامون؟ إنهم نائمون ، إذ أن أهل الرياض الوهابيين يستيقظون قبل طلوع الفجر ، كى يستعدوا لأداء صلاة الفجر والدعاء وقراءة القرآن إراحة لصدورهم ، وبعد أن ينتهوا من أداء طقوس هذه العبادة الصباحية المطولة ، التى يؤمهم فيها "مطوع" فظ ، يطيلها إلى حد لا يطاق ، بعد كل ذلك يهجع الوهابيون فى منازلهم مرة ثانية ، ليناموا فيها ساعتين آخريين ، إلى أن يوقظهم ضوء الشمس ويصلون الضحى ، ثم ينصرفون بعد ذلك إلى حياتهم اليومية ، وعلى كل حال ، فإن البشر الأقل مقامًا أو اقل تدينا من أمثالنا ، يستيقظون ويبدءون أعمالهم ، ويتمتعون أيضًا بالهواء البارد ، نظرًا لأن أشعة الشمس الأولى هنا ، تقل حدتها بفضل ذلك الضباب الخفيف ، الذى ينتشر فى وادى حنيفة طوال النصف الأول من فصل الشتاء .

نحن الآن بحاجة إلى أن نشترى بعضًا من الرطب والبصل والزبد وهذه السلع الثلاثة ، هي من السلع الضرورية والممتازة في العارض، والرطب هنا أشكال وأشكال ، وأفضل أنواع الرطب هو النوع الأحمر ، ولكن هناك أنواع من الرطب صفراء اللون ، بلا نوى ، وهذه الأنواع رخيصة الثمن ، ولكن لها نكهة طيبة ، أما فيما يتعلق بالبصل في العارض ، فأنا لم أر لبصل العارض مثيلاً ، في أي مكان من العالم ، سواء من ناحية الحجم أو النوعية ، وأنا أشفق على ملائكة الإسلام إذا لم يوافقوني على ذلك ، ومن ثم ، فإن الوهابيين المتدينين يأكلون البصل شريطة أن يغسلوا أفواههم وأيديهم منه بعد تناوله ، وبخاصة عندما يدخل وقت الصلاة ، مخافة أن تبعد الرائحة – ليست الطهارة – الملائكة عن المصلين ويتركونهم بلا عون في صلاتهم غير الصحيحة . ومن حسن الحظ أن الصابون والبطاس متوفر هنا بكميات كبيرة ، يضاف إلى ذلك ، أن هناك أعداداً كبيرة من الوهابيين غير الحقيقيين ونحن منهم ، ولون الزبد هنا يميل إلى الابيضاض ، ويباع هنا على شكل كعك صغير مستدير ، كما هو الحال في القصيم ، وأنا أعتقد أن القارئ الهندي ليس بحاجة إلى الملاحظة التي تقول : إن هذه المادة يتعين حفظها في الماء بصورة مستمرة حفاظاً عليها من الانصهار .

ونحن نلف غطاء الرأس ، مثل العرب ، حول ذقوننا ، ونرتدي العباءات السوداء التي تنم عن الجدية ، ويمسك كل منا عصا طويلة في يده ، ونخترق الشوارع الضيقة التي تفصل منزلنا عن السوق ، ونسير بخطوات جنائزية ، ونتكلم بصوت خفيض . والذين يقابلوننا يسلمون علينا أو نسلم عليهم ، ويجب أن يكون معلومًا أن الجماعة الأقل عدداً هي التي تبدأ بالسلام ، والراكب هو الذي يسلم على الماشي ، والماشي هو الذي يحيي الواقف ، والواقف هو الذي يحيي الجالس ، .. إلخ ، ولكن يستحيل على أي رجل أن يحيي امرأة ، والفارق في السن أو المنزلة بين الرجال لا دخل له في أولوية السلام ، وإذا كان أولئك الذين نلتقيهم من بين معارفنا أو من المرضى الذين نقوم بعلاجهم ، أو حتى عندما يكونون من المنتمين إلى المدرسة المتسامحة ، فإنهم يردون التحية على الفور ، أما إذا حدث وكان أولئك الذين نلتقيهم ، من الجماعة المتدينة المتشددة ، فإن ردهم علينا يكون عبارة عن نظرة تحتية مشوبة بقليل من العبوس . ونحن نواجه مثل هذا الرد بابتسامة ، ثم نمضي لحال سبيلنا .

ونصل إلى السوق ، وهو مليئ بالنسوة والفلاحين ، يبيعون ذلك الذي نود شراؤه فعلاً ، علاوة على اللحم ، والحطب ، والحليب ، إلخ .. إلخ ، ومن حولنا الزبائن ، الذين جاءوا لأغراض مثل التي جئنا من أجلها إلى هنا ، ونختار سلة مغرية من الرطب ،

ونبدأ مساومة السعر مع هذه المرأة غير الجميلة التى جلست إلى جوار أشيائها الريفية ، ونكتشف أن السعر مرتفع جداً ، وترد علينا هذه المرأة قائلة : "بحق من يرعى فيصل ويحميه ، أنا الخاسرة إن بعت بهذا الثمن" . ونصر على موقفنا ، وترد علينا هذه المرأة قائلة : "بحق من سيحيى فيصل حياة طويلة ، أنا لا يمكن أن أبيع بهذا الثمن" ، ولم يكن أمامنا ما نفعله فى مواجهة هذه التوكيدات ، وبالتالى كنا نوافق وندفع الثمن أو نمضى لحال سبيلنا ، طبقًا للظروف .

لقد فتح عدد كبير من الدكاكين أبوابها ، وبدأت تغصُّ بالزبائن ، وبخاصة دكاكين البقالة ، والأدوات المنزلية ، ودكاكين الغزَّازين والحدادين ، وسبب ازدحام الدكاكين هنا ، هو أن عاصمة هذه الإمبراطورية المركزية تكون دوما مليئة بالغرباء ، الذين يحضرون إلى السوق لقضاء كثير من مصالحهم ، ولكن يوجد حول دكاكين اللحامين أكبر تجمع من البشر ومن الكلاب أيضًا : ولعل القارئ يعلم أن القمَّام[1] الوحيد المرخص فى الشرق هو الكلب ، والنجديون يأكلون مقادير كبيرة من اللحم ، ولا عجب ، أن نجد اللحم رخيصًا هنا (فالطَّلى الطيِّب هنا يصل سعره إلى خمسة شلنات إنجليزية أو أقل) ، والطلب عليه شديد ، وأنا أتمنى أن يسفر فرض القواعد الشرطية عن اهتمام أكثر بتنظيف المنطقة المحيطة بهذه المجازر ، واللحامون هنا يتركون البقايا والفضلات على الأرض ، على مسافات متقاربة لا تزيد عن ياردتين ، ولكن الكلاب والجو الجاف يخففان من هذا الأذى وهذا الإزعاج وقد سبق لى أن أبديت هذه الملاحظة فى كل من حائل وبريده ، ويبدو أنها تصدق على وسط الجزيرة العربية كلها .

ولكن قبل أن نُواصل مسيرنا ، هيا بنا ننعم النظر قليلاً فى تلك الشخصيات التى تتجمع فى المكان الذى تشرف عليه أسوار القلعة العالية والذى يحده بهو الأعمدة الكبير فى أحد الممرات السرية فى قصر الملك فيصل بالإضافة إلى الدكاكين والمنازل التى تكمل ذلك المربع غير المنتظم ، يوجد ضمن هذا الجمع من الناس مجموعة من الحضر حسنى المظهر ، ومظهر هؤلاء الحضر لا يختلف كثيراً عن مظهر أهل شومر اوالقصيم، باستثناء بساطة الملبس وقامة قصيرة إلى حد ما وبشرة تميل إلى السمرة . كما تغيب عنهم هنا فى الرياض خصلة الحب[2] التى تشيع بين الرجال فى كل ومن

(١) القمَّام : بفتح القاف وتشديد الميم هو الحيوان آكل القمامة ، (المترجم) .

(٢) خصلة شعر طويلة كان الرجال فى القرن السابع عشر والثامن عشر يرسلونها فوق الكتف ، (المترجم) .

شومر والقصيم ، وتشكل فارقهما ، ولكن يوجد فى الرياض كثير من الغرباء أيضًا ، وقلة قليلة من الأجانب من أمثالنا ، هذا الشكل النحيف داكن البشرة ، الذى يرتدى صدرية مصبوغة باللون الأصفر والأقصر قليلاً من القميص النجدى ، ويعلق حول وسطه خنجراً معقوفاً ، ويحمل فى يده عصا صفراء قصيرة ، هو من مواطنى حدود عمان الخارجية ، ذلك البلد الذى تجمع الوهابيين به أعمال مستمرة ولكنها ليست طيبة فى معظم الأحوال ، وهذا شخص آخر يلبس ثوبًا خارجيًا ملونًا فى بعض أجزائه ، ويلبس عمامة زرقاء كبيرة لها حافة حمراء وصفراء ، والذى له ملامح مختلفة تمامًا عن ملامح سكان وسط الجزيرة العربية ، وملامحه تقترب من ملامح الإيرانيين أو الهنود ، إنه واحد من أهل البحرين ، جاء إلى هنا بغرض التجارة أو لدفع الجزية ، رغما عنه ، هذا البحرينى ، مثل شقيقة العمانى ، الذى يبدو أنه على وفاق معه ، ليس له من هم سوى أن يحول الصفقة الخاسرة إلى صفقة ناجحة، ثم يعود إلى بلده بأسرع مما جاء، هؤلاء هم خدم النائب صديقنا ، تبدو عليهم الملامح والسمات البغدادية ، وهذان هم المكيان العابسان المتضايقان ، يمكن تمييزهما بسهولة من بين هذا الجمع من الناس ، هذا هو موكب قادم ، إنه موكب شخصية مهمة من شخصيات المدينة المنورة ، يكره الذين يحيطون به، وهم يكرهونه أيضًا ، وهو وخدمه يرتدون ثيابًا غالية الثمن وفاخرة ، فهو نفسه يرفل فى ثياب من الحرير والمطرزات ، هذا الرجل شق طريقه إلى الرياض فى مهمة على قدر كبير من الأهمية ، ربما للوساطة ، التى لا طائل من ورائها ، لدى الملك ، نائباً عن أصدقائه فى عنيزه ، وربما جاء أيضًا لتنفيذ مؤامرة شريرة لصالح الوهابيين ، وتتعلق بسقوط نظام حكم الشريف الحالى ، وبغض النظر عما جاء من أجله ، فإن الجميع ينظرون إليه شذراً : وأنا لا أستطيع تمييز الجانب الراجح من هذه الكراهية .

وأنا أرى بالقرب منى شخص طويل نحيف ، وأنيق بشكل ملفت للنظر، ويرتدى ملابس أنيقة رغم إنها ليست مزركشة أو مزينة إنه ، رافع Rafia أحد أفراد أسرة السديرى ، وهو من الرؤساء الذين تُحْسَبُ لهم شجاعتهم فى الحرب وتحمد لهم فطنتهم فى السلام ، ولكنه الآن ، مثل بقية أفراد أسرته ، تخيم عليهم جميعًا سحابة رسمية ، والسبب فى ذلك أنهم ينتمون إلى الجماعة الوطنية المغالية فى المنطقة ، كما تدور من حولهم الشكوك بأنهم ليسوا مخلصين فى ولائهم لأسرة العارض الملكية ، ويحتمل أن تكون هذه الشكوك فى محلها ، ولو قدر للبلاط ، أن يعرف ، مثلما أعرف أنا

وأبـو عيسى ، فى الخفاء ، أن هاتين الشفتين غير الممتلئتين (تشرب) دخانًا معينًا من أصل أمـريكى ؟ ، لكان رافع فى موقف أسوأ مما هو عليه الآن ، العذر الذى انتحله لوجـوده هنا فى الرياض ، هو رغبـة قـريبـة عبـد المحسن السـديرى فى أن يقف على إمكانية إعادته إلى سلطته السالفة ، وهذه إشارة إلى اليوم الذى توقفناه فى المجمعة ، وورد ذكره فى الفصل السابق ولعل ذلك يفسر الكثير للقارئ ، إذا كان قد نسى اسباب الاستياء الذى كان قد انتشر بين أعيان سدير .

وهذا هو رئيس من رؤساء عتيبة أو عجمان يتدافع خلال هذا الحشد من الناس ، ويجر مشلحه من خلفه ، على طريقة البدو إلى أن تحول طرفه إلى مجموعة من الخيوط المتنسلة ، كانت عتيبة وعجمان تتسودان غربى نجد وشرقيها على أثر الفوضى التى أعقبت الحرب المصرية ، وكانت هاتان القبيلتان أول من استشعر وطأة سيف الأمير عبد الله ولد الملك فيصل ، وبعد أن أحصتا قتلاهما بالمئات ، وإبلهما المنهوبة بالآلاف ، بدأتا تبديان الخضوع والامتثال لحكم الملك فيصل ، والآن ، وبعد أن أُجْبِرَ العتبان والعجمان – مثل أشباح الكسندريوب – على التردد على الأماكن التى احتضرت فيها حريتهم فهم يزورون الرياض زيارات حزينة ويتسكعون ويتجولون فى شوارعها ، أشهرًا فى انتظار أن يسمح لهم "عمهم" فيصل بلقائه ، وفيصل يسقيهم جرعات كاملة من كأس المرارة والغزو والاحتقار، ويل للمغلوب فى الجزيرة العربية بل فى كل الدنيا . زد على ذلك أن هؤلاء البدو لا يستحقون أن نشفق عليهم وأن نتعاطف معهم لأنهم نزل بهم ما يستحقون ، على أيدى أناس هم أيضًا لصوص كبار ومستبدون مخربون .

وتوجد بين هذا الجمع من الناس عناصر أخرى ، غريبة عن الرياض ، برغم أنها لا تنقطع يومًا عن زيارتها ، هؤلاء هم جمَّاله من مدينة زلفة خلطوا ، بحكم اتصالهم المتكرر بكل من الزبير والبصرة ، الصرامة الوهابية والدماسة النجدية بالأسلوب الطائش المتهور الذى يسود فى هاتين المدينين الغامضتين اللتين نصفهما من الشيعة والنصف الآخر من الكفار ، وهذا شاب سيئ الحال ، راح ، بعد أن هـرب من والده أو من المطوع فى الرياض ، يبحث عن الحرية والثروة بين البحَّارة فى الكويت أو تاروت ، ثم عاد إلى بلدة باخلاقيات وسلوكيات من قبيل بورتسموث Portsmouth ، والسبب فى ذلك أن البحارة هم البحارة فى كل مكان ، وهذا بائع جائل يمنى نحيف ، يأتى عن طريق وادى نجران ووادى الدواسر ليدلف فى هدوء إلى شوارع العاصمة ثم يخرج

منها ليسخر من كل ما يشاهده ، وهذا شخص آخر ربما يكون درويشًا من البلوش أو من قندهار Candahar ، مثل أولئك الدراويش الذين رافقونا إلى بريده منذ شهر ، وقد يكون في انتظار بعض الرفاق الذين سيعبر معهم ذراع الصحراء الشرقي في طريقهم إلى الخليج الفارسي ؛ ويختلط بهذا الجمع من الناس ، شحاذوا الدواسر ، الأكثر تشدداً ، سيئي الطبع بشكل منفر ، والأضيق أفقا وصدرا من أهل العارض أنفسهم ، يضاف إلى ذلك أن شحاذي الدواسر يتميزون بالكسل والوضاعة والجشع ، وأرى بالقرب مني طالبًا شابًا هزيلاً يبدو أنه مصاب بمرض السل ، ابتلي بالعبقرية ، فجاء ليدرس في الرياض ، حيث يعيش بالقرآن والصدقات القليلة التي تصيبه من القصر ، إن رأسه مليئ بعلوم التقوى والدين والصلاح ، ولكن جوفه خالٍ أو يكاد يكون كذلك ، في حين أن هناك آخرين أقل منه ، وكل منهم "ميسر لما خلق له" مثلما يقول هاملت العرب[1] .

وقررت أنا وبركات مواصلة مسيرنا في المدينة ، والرياض تنقسم إلى أربعة أحياء رئيسية : الحي الشمالي الشرقي ، الذي توجد فيه قصور الأسرة المالكة ، ومنازل موظفي الدولة، وطبقه الملاك الأغنياء ورجال الحكومة، والمنازل ، في هذا الحي ، مرتفعه بشكل عام ، والشوارع مستقيمة ، وليست ضيقة بشكل ملحوظ ، ولكن مستوى الأرض في هذا الحي ، منخفض وربما يكون هذا الحي الشمالي الغربي ، وهو الحي الذي نسكن فيه ، وهو عبارة عن كتلة كبيرة من المساكن غير المنتظمة ، متباينة الأحجام وتتدرج من الأحسن إلى الأسوأ ، ويسكن في هذا الحي ؛ الأغراب والشخصيات المماثلة لهم ، وهذه النوعية من البشر لا تفتقر إليها اية مدينة من المدن الكبيرة ، بغض النظر عن القواعد والتنظيمات ، ويسكن هذا الحي أيضًا كثير من الغاضبين والرافضين ، كما يعيش في هذا الحي أيضًا اتباع آخرين غير أتباع محمد بن عبد الوهاب ، أناس من أولئك الذين يَحِنُّونَ إلى العادات والتقاليد العربية القديمة

(١) إن ما ذكره المؤلف "كل ميسر لما خلق له" جزء من حديث صحيح عن النبي (ﷺ) وينبغي احترام ذكره وليس - كما وصف المؤلف - هاملت العرب ، وينبغي هنا أن أشير إلى نقطة هامة تبيّن من الناحية الشرعية أننا معشر المسلمين نؤمن بكل الأنبياء ونجلهم ونوقرهم ، وإذا نظرنا من الناحية الحضارية فمن هو الأكثر تحضراً الذي يحترم نبيك ويصدقه ويؤمن بما جاء به أم الذي يسبه ويطعن فيه ، إننا معشر المسلمين نحترم سيدنا عيسى بينما معشر الأوربيين يكيلون التهم والسبّ لنبينا محمد ويصفون أنفسهم بالتحضر ، فمن المتحضر إذن ؟ (د. حلمي عبد المنعم) .

فيما يتعلق "بالدين والدولة" أن جاز لي أن اقترض هذا التعبير العربي ؛ يعيش في هذا الحي رؤساء القرى ، كما يعيش هنا أيضًا البدو ومواطني زلفة والمناطق المحيطة بالعاصمة ، وفي هذا الحي يبيع الناس الدخان ويشترونه ، ويتجاهل الناس القرآن إلى حد ما ، ومع ذلك ، أرجو ألا ينصرف ذهن القارئ إلى أن المنطقة المحيطة بنا كانت سيئة السمعة ، بل يوجد في هذا المكان بعض المطاوعة الفضلاء والمتدينين الذين يشبهون الأضواء في مكان مظلم ، وهم يعدون أمثلة طيبة أو جواسيس بين كبار المتعلمين ، ومن منطلق ، لا يرقى إليه شك ، مفاده أن ذلك المطوع أو الجاسوس لا يستطيع محاكاة أولئك السكان أو تقليدهم .

ولكن يسعدنا أن نحول أنظارنا عن هذا المنظر الكئيب إلى الحي الجنوبي الغربي، المقر المفضل لسكنى الأصوليين والمتدينين. ويعيش في هذا الحي ، من أحياء الرياض ، أشد المطوعين حماسًا وتشدداً ، وانشط المطيعية ، هنا تعيش الأغلبية النجدية التي تداوم على أداء الصلوات الخمس يومياً ، كما تعيش في هذا الحي أيضًا كل زهور النقاء والصفاء الوهابي ، وقبل كل هؤلاء ، تعيش في هذا الحي أيضًا العناصر الرئيسية التي لا تزال على قيد الحياة ، من أسرة ذلك المؤسس الديني العظيم ، أو إن شئت فقل : ذرية محمد بن عبد الوهاب ، التي أفلتت من السيف المصري ، والخالية تماماً من أي شكل من أشكال التلوث الأجنبي . والمساجد هنا تحتفظ في هذا الحي ببساطتها البدائية ، ومبانيها الفسيحة ، التي يجري – لأن ذلك ليس مقصوراً على الرياض فقط – فيها يوميًا طبع المقولة التي مفادها "نحن الذين على صواب أما الآخرون فهم على خطأ" في أذهان جماهير المستمعين ، الفرحين بأن الجنة كلها لهم وليست لأحد سواهم ، والمصلات ، وآبار الوضوء ، وفتحات اتجاه القبلة تزين كل ركن من الأركان ، وفي كل منطقة من المنزل أو البستان ، شوارع هذا الحي مفتوحة ، وهوائها صحي كي تؤيد امتيازات العناية الالهية المرئية والمحسوسة تلك البركة المعنوية غير المنظورة ، حذاري أيها القارئ الراقي أن تظن أنني أقحم نفسي في تهكم لا مبرر له أو من عندياتي ، لأنني هنا أترجم تعبير بتعبير وكلمة بكلمة ، حديث الوهابيين الحقيقيين ، عندما يصفون الحي المثالي من مدينتهم المثالية ، هذا الحي الفسيح من المدينة تسكنه نخبة طيبة من الناس ، وهو عامر بالترف ، وهو قلعة السماحة الوطنية والدينية ، وصخرة التقوى ومعقل الإسلام الحقيقي ، هذا الحي لا يخلو من قدر ضئيل من الفسوق والفجور السري والرذيلة المرخص بها ، بين أولئك الذين يعدون التقوى هي الفضيلة الوحيدة ، والخروج على الإجماع هو الشر الوحيد أو الجريمة الوحيدة .

وأخيراً ، هناك الحى الجنوبى الشرقى ، الذى يطلق عليه اسم "الخزيق" وهذا الحى كبير أيضًا ، وكثافته السكانية أعلى من الأحياء الأخرى ، ولكنه يفتقر إلى الأعيان والأثرياء ، والطبقات الدنيا من السكان تسكن هذا الحى بشكل عام ، كما يسكنه الفلاحون أيضًا ، كما يقصده أيضًا أولئك الذين يفدون من المناطق المحيطة بالعاصمة . وهاذ الحى بطبيعة الحال ؛ هو أسوأ الأحياء من حيث المبانى ، ومن حيث التنظيم وأرضه شديدة الانخفاض ، وهواؤه غير صحى ، وقد قيل لى أن وفيات الكوليرا هنا فى العام ١٨٥٤ - ١٨٥٥ الميلادى وصلت إلى اعداد مخيفة ، وأنا أصدق ذلك تمامًا .

وهذه الأحياء الأربعة ، ليست بينهما فواصل واضحة سوى الشوارع الواسعة ، إذ ليست هناك بوابات أو جدران تفصل هذه الأحياء عن بعضها ، وعلى كل حال ، فإن كل حى من هذه الأحياء يعد "دائرة" مستقلة ، والمواطن البارسى قد يطلق على كل حى من هذه الأحياء (كنية مضحكة ، تعنى التصدعات والشروخ أو التقاطعات) . ولكل حى من هذه الأحياء اسمه الخاص ، ولكنى نسيت الأسماء الثلاثة التى يطلقونها على الأحياء الثلاثة الأولى ، ولكن الاسم "خزيق" يطلق على الحى الرابع ، ومعناه "المزدحم" أو "الخانق" ، وفى الحيين الثالث والرابع ينـدر ان يكون للمنازل حدائق أو بساتين ، وفى الحى الأول يوجد قليل من هذه الحدائق والبساتين ، ولكنها تكثر فى الحى الثالث ، ولكن القاعدة العامة فى نجد ، هى أن الحدائق ، تكون ، فى أغلب الأحيان خارج كردون المدينة ، وهذا هو المعمول به فى الرياض .

ونقطة التقاء ، أو إن شئت فقل : مركز التقاء هذه الأحياء الأربعة هو السوق ، الذى يجاوره القصر الملكى من أحد الأجناب ، والمسجد الكبير ، أو الجامع على الجانب الآخر ؛ وكلمة الجامع معناها الحرفى "التجميع أو التوحيد" ، نظراً لأن الناس يتجمعون فى هذا المكان بأعداد كبيرة لصلاة الجمعة اتباعًا وتنفيذًا لعمل عام ، يختصر فى الأماكن الأخرى . ومن هنا أيضًا فإن ذلك اليوم يطلق عليه اسم "الجمعة" ومعناه "الاجتماع" ولا يوجد فى أى منطقة من مناطق نجد سوى "جامع" واحد ، أما اللفظ "مسجد" فيطلق على بقية أماكن الصلاة التى لا تحمل اسم جامع أو مصلى ، ولفظ "مصلى" يطلق على المسجد الصغير ، والنجديون فى هذا الصدد يلزمون أنفسهم بالأثر النبوى أكثر من أتباع محمد الآخرين ، إذ أن محمداً (ﷺ) ، لم يقر تعدد

الجوامع[1] مثلما هو معمول به في كل من سوريا ومصر وتركيا .. إلخ وجامع الرياض عبارة عن متوازي أضلاع له سقف كبير منبسط ، محمول على حوامل خشبية مربعة الشكل عليها غلاف سميك من اللبن ، ومبنى الجامع منخفض ، وخال من بهارج الجمال المعماري ، وقد حسبت أنا وبركات المسافات التي بين صفوف الأعمدة ، وتوصلنا إلى أن هذه المسافات تتسع لما يزيد على ألفي مصلٍ في آن واحد ، وأن عدداً مماثلاً لهذا العدد أيضًا يستطيع أن يجد لنفسه مكانًا في الملحق المكشوف الموجود أمام الجامع . وأتباع محمد (ﷺ) عندما يصلون ، يتركون مسافات شاغرة بين الصفوف حتى يكون هناك متسع للسجود دون أن تصطدم رءوسهم بأعقاب أقدام الصف الأمامي ، ومن ثم فإن ضعف العدد السابق ، وأنا أقصد هنا ، الفين آخرين ، يمكن أن يستوعبهما الجامع أيضًا ، كما يمكن أن يستوعب أعداد كبيرة أيضًا داخل الملحق ، إذا ما رضي المصلون بمجرد الجلوس أو الوقوف ، ومن هنا ، يمكن للقارئ أن يتخيل حجم هذا المبنى الضخم غير الأنيق ، والبرج ، أو إن شئت فقل : المئذنة (المنارة ، كما نسميها نحن) لا وجود لها هنا ؛ ولكن يستعاض عن المئذنة هنا ، بحلية صغيرة ترتفع قليلاً فوق سطح المسجد؛ ومن فوق المحراب ، أو المكان المخصص للإمام عند الصلاة ، يوجد على سطح الجامع فوق هذا المكان ، ما يشبه الصندوق أو الشقة الصغيرة ، التي يدخل منها الملك فيصل العجوز يوم الجمعة عن طريق الممر المغطى الذي سبق أن وصفته ، وبذلك يصبح أماماً لا يراه جمهور المصلين من تحته ، والجامع ليس فيه حصير أو سجاد ، وسبب ذلك ، أن محمداً (ﷺ) والصحابة لم يستعملوا أشياء من هذا القبيل ، وأرض المسجد مفروشة بحصى صغير يضايق عظام سيقان المؤمنين وركبهم .

وأنا هنا أوصي قرائي الذين ليسوا على معرفة كاملة بأساسيات الصلاة المحمدية بان يقرأوا الوصف الدقيق والمضبوط الذي ورد في مؤلفات لين Lane عن هذا الموضوع . ومع ذلك ، فأنا لا يسعني إلا أن أتعرض لبعض الفروق الطفيفة السائدة هنا فيما يتعلق

(١) هذا دعوى بلا دليل ، ولكن العكس هو الصحيح حيث حث النبي (ﷺ) على بناء المساجد فقال من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاه بنى الله له بيتًا في الجنة ، وحث القراء على عمارتها فقال تعالى "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .." وكان في كل حي من أحياء المدينة على عهد رسول الله مسجد خاص بالحي ، ولكن الشرع يفضل التجمع العام في المسجد الجامع يوم الجمعة حرصًا على التقاء المسلمين وتعارفهم وتحابيهم ، (د. حلمي عبد المنعم) .

بالصلاة ، وأنا عندما أقول طفيفة ، أعنى إنها كذلك ، من وجهة نظر المراقبين غير المسلمين ، ولكنها لها أهمية "كبرى" بين المؤمنين وهذه الفروق هى التى تميز المذهب الوهابى ومن ثم تصبح شارات محددة ومميزة كما هو الحال عندنا فيما يتعلق بالانحناء ، أو الجلوس ، والرداء الأبيض أو الرداء الأسود فى القرن السابع عشر ، بل إلى ما بعد القرن السابع عشر .

أولاً ، أن أصدقاءنا النجديين ، لا يعدون الوضوء بالماء قبل الصلاة أمراً مهما وملزمًا مثلما يفعل أتباع محمد العاديين ، وأقل الأعذار ، الذى يتمثل فى الكسل ، يمكن استبداله بالتيمم ، الذى وصفه لين Lane ، وليس مرد ذلك إلى ندرة الماء ، لأن الرياض (ناهيك عن المدن النجدية الأخرى ، والتى ينتشر فيها التغافل نفسه) مليئة بالآبار ، إضافة إلى أن كلاً من هذه الآبار يوجد إلى جانبه خزان للوضوء الكلى أو الجزئى ، ولكن الوهابيين فى هذا الصدد يفعلون مثلما كان يفعل النبى (ﷺ) الذى كان مدققًا إن صح ما ورد عنه فى الأثر[1] .

ثانيًا ، أن الوهابيين يدخلون المساجد ، والجوامع ، والمصليَّات دون أن يخلعوا أحذيتهم أو بالأخرى نعالهم ، بل أنهم يلبسون هذه النعال وهم يؤدون الصلاة ، وهذا منظر غريب ومخزى عندما يراه أحد من أتباع محمد (ﷺ) العاديين . وعندما تسأل الوهابى عن شرعية هذا العمل ، فهو إما أن يجيب عن سؤالك بالشرح والتفسير أو مدافعاً قائلاً : "أرضنا طاهرة" ، برغم إنى لم أستطع أن أقف قط على علاقة أرضهم بتلك الطهارة المبهمة ، وأنا أتخيل أن قسوة حصى هذه الأرض ، وكثرة نمو الأشواك الصغيرة فيها ، هما السبب الحقيقى وراء بقاء هذه الأرض على حالها السيئ ، وليكن ما يكون ، فإن الشافعى الدمشقى والمالكى المصرى قد يفيدا قليلاً من هذا المشهد ، وعلى كل حال ، فإن سابقة أن محمداً (ﷺ) ، كان فى بعض الأحيان ، يصلى وهو مرتديًا نعليه ، تفيدهم فى هذا الصدد .

(١) إن التيمم مشروع فى الإسلام وهو رخصة مباحة بشروط ، ويجوز لكل مسلم أن يلجأ إلى التيمم عند تعذر استعمال الماء حسًا أو معنى ، بمعنى : إذ فقد الماء ولم يجده أو كان له عذر فى استعماله كأن يكون به جرح أو مرض ، أو برد شديد يضر مع استعمال الماء ، وعلى أية حال فالتيمم طهارة من الحدث الأصغر والأكبر يلجأ إليه المسلم والمسلمة عند فقد الماء أو الضرر من استعماله ، وليس الأمر كما وصفه المؤلف من أن الوهابيين لا يعدّون الوضوء أمر مهمًا ، لأنه لا يجوز التيمم مع وجود الماء والقدرة على استعماله ، وهذا ينمّ عن جهل المؤلف بتشريعات الإسلام وأنه ينصب من نفسه حكمًا غير أمين فى الحكم والنقل ، (د. حلمى عبد المنعم) .

ثالثًا، الأذان عند الوهابيين يساوى نصف زمن الآذان الشائع فى البلدان المحمدية الأخرى : يضاف إلى ذلك أن ما يكرر أربع مرات فى الأماكن الأخرى ، يكرره الوهابيون مرتين ، والوهابيون عندما يفعلون ذلك يقتربون من الأثر القديم ، زد على ذلك أن الآذان الوهابى خال من الإضافات الأخرى ، مثل الصلاة على النبى ، وتمجيد الصحابة بل أنهم يرفضون ذلك رفضًا باتًا .

رابعًا ، والوهابيون أثناء أداء الصلاة لا يحرصون مثل المذاهب الأخرى على تحاشى الحركات غير المعتادة والتغييرات الطفيفة فى وقوف المصلى ، والوهابيون فى ذلك ، كما هو الحال فى الفروق التى سبقت الإشارة إليها، يقتربون كثيراً من الصلاة ، التى كانت تؤدى قديماً فى المدينة – التى كان بلال يقوم فيها بدور المؤذن ، ويقوم محمد (ﷺ) بنفسه بدور الإمام ، ومن خلفه الصحابة يشكلون المأمومين – عن إخوانهم أتباع محمد فى البلدان الأخرى ، والسبب فى ذلك ، أن المؤسس الأول للإسلام ، هو وصحابته ، كانوا فى المقام الأول لا يستحسنون الاحتفائيات الصغيرة ، أو تقييد أنفسهم بالتفاصيل والفرعيات الصغيرة التى تدور من حولها الشكوك[1] . والدقة البالغة التى يراعيها كل من الشافعية والمالكية والأحناف فى كل من دمشق ، والقاهرة ، والقسطنطينية تستسيغ من هذه الاحتفائيات الصغيرة ، أو أن شئت فقل التفاصيل الصغيرة التى تثير الشكوك ، قدراً كبيراً من الاحتفائيات الفارسية ، والتركية والكردية ، بل الإغريقية ، أكثر من الاحتفائيات العربية والتى لا تتعلق بالإنسان وحده وإنما بالإله أيضًا ، ومن هنا ، فنحن نرى هنا أن الوهابيين أكثر صوابًا ومتميزين فى ذلك عن المذاهب الإسلامية الأخرى .

وعلى كل حال ، فإن أتباع محمد (ﷺ) المحدثين ، بشكل عام ، لهم رأى مختلف فى هذا الموضوع ، وقد مرت الآن ثلاث سنوات على آخر الأحداث المهمة التى من هذا القبيل . فقد وصل إلى العاصمة النجدية فى خريف العام ١٨٦١ الميلادى ، الشيخ محمد البكرى ، وهو دمشقى له قيمة كبيرة فى وطنه ، يعد حجة فى المسائل

(١) إن الصلاة لها شروط ولها أركان ولها سنن ولها هيئات وقد جاءت تفصيلات ذلك فى كتب الفقه ، وقد حث النبى (ﷺ) على الخشوع فى الصلاة ، وألزمنا بالسكون والثبات فى أدائها فحينما رأى شخصًا يعبث فى صلاته قال : لو خشع قلبه لسكنت جوارحه ، ونهى عن العبث بالبصر فى الصلاة وأمر بالسكون فى أدائها إلى غير ذلك من تفصيلات ، وقول المؤلف إن النبى لم يهتم بهذه الشكليات قول غير صحيح لأن الصلاة لها سمت معين حرص عليه الإسلام . (د. حلمى عبد المنعم) .

الدينية والشرعية وأنا لا أعرف شيئًا عن الرياح التى حملته إلى هنا ، ومن المحتمل أن يكون الشيخ محمد البكرى ، مثل كثير من الشخصيات الأخرى ، قد اكتشف ان دمشق ، وفؤاد باشا والمفوضين لم يعودوا يطيقونه بعد أحداث شهر يوليو من العام ١٨٦٠ الميلادى ، وأن تغيبه عن الأراضى الخاضعة لتركيا هو مجرد شكل من أشكال التَّحوط والحرص ، وأيا كانت الأسباب ، فقد حضر الشيخ محمد البكرى من مكة إلى الرياض ، حيث ذاع عنه أنه عالم وشيخ جليل فى مملكة إسرائيل القديمة Israel أو بين الشافعية ، على أقل تقدير ، وقد استقبل الملك فيصل ، الشيخ محمد البكرى استقبالاً مشرفًا، بل أن قاضى المدينة ، نفسه، عبد اللطيف حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، زعم بأنه وجد ضالته فى الشيخ محمد البكرى ، وسار كل شيئ على ما يرام ، فى بداية الأمر ، زد على ذلك أن الأنب العربى أخمد كلا من العداء المذهبى والاستياء الذى ينجم عن الجدل ، وجاء يوم الجمعة ، ولم يكن من الأدب ، فى ذلك اليوم أن يرفض الشيخ البكرى ، الذى كان يتحاشى صلاة الجماعة مع الوهابيين ، دعوة مضيفة الذى كان هو نفسه خطيب تلك المناسبة ، ويذهب الشيخ محمد البكرى إلى المسجد ، فى إطار المسلم الصحيح ، وملتزم روحياً بكل ما هو صحيح ، ورافضًا كل المحادثات الإخوانية ، ووقف الشيخ محمد البكرى فى صفوف المصلين الأولى لأداء الصلاة ، وهنا وللأسف الشديد يسمح الإمام، الذى كان يؤم المصلين ، وهو واحد من مطاوعة المدينة ، بعد تكبيرة الإحرام (راجع لين Laine) التى تبدأ الصلاة بعدها مباشرة وأثناء قراءة الفاتحة ، يسمح ليديه ، بدلاً من أن تكونا مطويتين على صدره أن تنشغلا ، بأطراف غترته ، وتعديل ياقة قميصه . وهنا لم يستطيع الشيخ محمد البكرى أن يكظم غيظه أو يخفى إستياءه ، لأن الأفضل له ألا يؤدى الصلاة خلف هذا الإمام الغريب ، ويصيح الشيخ محمد البكرى ، بأعلى صوته قائلاً : "اللهم إنى نويت الخروج من الصلاة" ، ويستدير ، ثم يخرج فجأة ، ويترك المسجد وقد اعتراه اضطراب مخيف .

وينهى المصلون صلاتهم كالمعتاد ، إذ أن حدوث زلزال لا يمكن أن يحول بينهم وبين ذلك ، وبعد التسليم مباشرة ، اندفع الكبار والصغار ، والعظماء والحقراء والمتينين والنحفاء غاضبين إلى منزل عبد اللطيف ، الذى كان الشيخ محمد البكرى ، يجلس وحده فيه على حصير ، وهو غاضب أشد الغضب ومستاء أشد الاستياء ، وطلبوا منه أن يفسر لهم سلوكه المشين أثناء الصلاة ، ولو كان الشيخ محمد البكرى نجديًا لاعتذر لهم عذراً حكيمًا ، أو بالأحرى ، لم يكن ليلجأ إلى الحلول الوسط مطلقاً ، ولكن الواقع

أن الشيخ البكرى كان سوريا ، بل دمشقيًا ، ومعروف أن الدمشقيين هم أشد السوريين غضبًا ، وكان دمه فائرًا فى ذلك الحين ، ورد عليهم الشيخ البكرى بسلسلة من الشتائم ، فهموا منها ، وبلغة عربية فصيحة ، أنهم ، وصلاتهم ، ومذهبهم ، ومؤسس مذهبهم ، ليسوا من التقوى فى شئ ، وأنهم مكروهون وأنهم محدثون ، ومهرطقون ، وكفرة ، بل إنهم أسوأ من الكفرة ، وهنا وجدت المياه المحتجزة على الجانب الآخر منفذا لها ، وانهالت عليه الشتائم ، وما هو أبشع من الشتائم من كل جانب ومن حسن حظ الشيخ البكرى أنه كان فى نجد ، التى يندر بل يتعذر اتخاذ أى إجراء فيها عقب الاندفاع الأول مهما بلغت حدته أو عنفه ، ولكن الواقفين أوضحوا له رأيهم فيه ، وفى أعماله ، وتركوه إلى ما بعد ذلك ، وتخيل الشيخ البكرى أن الأمر قد أنتهى عند ذلك الحد ، ولكنه قبل غروب شمس ذلك اليوم وصلته رسالة من الملك فيصل يحذره فيها ، بأن الأفضل له أن يرحل فى تلك الليلة ، نظرًا لأن الملك لا يمكن أن يضمن سلامته حتى الصباح، والمعروف ، عن الغضب النجدى، أنه ليس نارًا من قش ، إذ أنها تؤلم فى اليوم الثانى أكثر من اليوم الأول وفى اليوم الثالث أقسى من اليوم الثانى ، وعمل الشيخ محمد البكرى بالنصيحة ، وغادر الرياض قبل طلوع فجر يوم السبت ، فى طريقه إلى الإحساء .

وخطبة الجمعة ، التى تعد جزءًا أساسيًا من صلاة الجمعة ، غريبة الشكل فى الرياض ، فهى لا تأتى على ذكر الخلفاء أو الصحابة ، بل كل ماله علاقة بالامتياز الشخصى الوراثى، ومحمد فقط هو الذى يُصلَّى عليه ، وبكلمات قليلة ، وليس باستعمال التضخيمات البلاغية التى تزين اسمه فى البلدان والأماكن الأخرى ، وهم هنا فى نجد ، يحذفون من خطبة الجمعة اسم سلطان القسطنطينية ويستعملون بدلاً منه "سلطاننا" ، أى فيصل ويستعملون أيضًا تعبير "جيوش المسلمين" ، بمعنى الوهابيين ، والسبب فى ذلك أنهم لا يطلقون اسم المسلمين إلا عليهم وحدهم ؛ فالأتراك والمصريون إلخ ، هم هنا جميعاً "كفار" أو "مشركون" ، وأهل الرياض هنا لا يطلقون على غير المؤمنين اللعنات التى تترد فى كل من القاهرة ودمشق ، واللعنة "ذليل الكفار" وحدها تكفى لأن يتوجه المرء بها إلى السماء ضدهم ، أما عن الخطب الأخرى ، وما يرد فيها ، فسوف أتحدث عنها فيما بعد ، عندما تتهيأ لى فرصة توضيح المذهب الوهابى ، وهذا الاستطراد هو من قبيل الاحتفاء بهذا المذهب وليس من قبيل التعصب العقدى .

ولن أجرؤ في هذه الصفحات أن أجعل القارئ يسخر من بعض غرائب الوضوء في نجد أثناء التوضؤ ، ولن ألجأ أيضًا إلى الهوامش المكتوبة باللاتينية كما هو شائع ، ومع ذلك ، فإن غرائب الوضوء هذه ، تشكل متعة لا تنتهي عند العرب في المناطق الأخرى ، أو أتباع المذاهب الأخرى ، وإن قدر لأحد مثلي أن يسألهم عنها باللغة العربية ، فسوف أحصل لنفسي على مرادفات من تلك اللغة الشاملة ، تكفي أن أروى بها قصة أو قصتين تكفيان لاستثارة ضحك السائل ، مثلما حدث لأهل البحرين وعمان الطيبين ، الذين كانوا يحكون أو يستمعون إلى قصص مشابهة وأنا معهم .

هناك فارق آخر في العبادة ولكنه سلبي ، ولكنه يظهر بشكل واضح ، فمن عادة أتباع محمد (ﷺ) [أن يكرروا بعد صلاة الفجر وصلاة المغرب جملة طويلة مأخوذة من القرآن عشر مرات ، وتشتمل على الحمد لله والثناء عليه[1]] ، ولكن الآن ، وفي كل مكان باستثناء نجد يمسك كل فرد في يده المسبحة الشرقية المعتادة ، ويعد على حباتها التسبيحات منعًا للخطأ ، ولكن الوهابيين ، لاحظوا بدقة أن النبي (ﷺ) لم يستعمل أداة من هذا القبيل ، وبالتالي فهم يرفضونها ، ويستعملون أصابعهم ، بدلاً منها ، في عملية العد أثناء التسبيح ، بأن يفردوا أصابعهم ويطوونها على التوالي . والمسبحة لا ترفض في هذه المناسبات فقط وإنما الغريب أن من يحملها يكون عرضه لأن يسمع تعليقات غير مناسبة عن البدع الحديثة والبدع الخرافية .

هيا بنا ، نعود إلى سياق ، قصتنا ، ونختتم الجولة التي قمنا بها في مدينة الرياض . لقد شاهدنا الجامع الكبير ، ويوجد في الرياض حوالي ثلاثين أو أكثر من المساجد الصغيرة ، وبعض هذه المساجد كبير وفسيح ، وبخاصة ذلك المسجد الذي يؤم فيه القاضي عبد اللطيف المصلين ، وكذلك أيضًا المسجد الذي يصلي فيه الأمير عبد الله ولي العهد ، والمسجد الذي يصلي الأمير عبد الله يقع في الحي الأول من المدينة ، أما المسجد الذي يصلي فيه عبد اللطيف فيقع في الحي الثالث ، والمسجدان يسترعيان الانتباه بسبب حجمهما وأناقتهما ، ولكنهما ، مثل سائر المساجد الأخرى ، غير مزينين .

(١) لعل ما يقصده المؤلف هو الذكر الوارد في الحديث وهو "لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير" فمن السنة أن يقوله المسلم عشر مرات بعد الفجر وعشر مرات بعد المغرب ، وعلى ذلك فليس هو مأخوذ من القرآن كما يقول المؤلف وإنما هو ذكر وارد في السنة النبوية ، (د. حلمي عبد المنعم) .

وفى كل مسجد ، وفى المساجد كلها ، يجرى فى الصباح والمساء ، قراءة أسماء أولئك الذين يتعيَّنُ عليهم أداء الصلاة فى المسجد بحكم قربه منهم ، وهناك قائمة حضور ، وهى تعد أفضل وسائل التعرف على المواطنين الذين يداومون على الصلاة فى المسجد وأولئك الذين لا يداومون عليها ، وأتباع "النظام التطوعى" يشكلون قلة قليلة فى الرياض .

والأسوار توجد من حول مدينة الرياض كلها ، ويصل ارتفاع هذه الأسوار إلى حوالى ثلاثين قدمًا ، وهذه الأسوار سميكة وقوية ، وبحالة جيدة ، وتجرى حمايتها بواسطة خندق عميق وتكسيات ، ومن خلف هذه الأسوار توجد الحدائق ، وهى تشبه حدائق وبساتين القصيم بدرجة كبيرة ، من حيث الترتيب والامتداد ، برغم أن اختلافها من حيث العرض الذى يستعاض عنه بارتفاع مستوى سطح الأرض هنا عنه فى القصيم ، ولكن فى اتجاه الجنوب ، صوب اليمامة مباشرة ، تستطيع العين المجردة أن تشاهد تغييرًا فى الحياة النباتية التى تقترب من الحياة النباتية المدارية ، وأنا لن أقول شيئًا ، حاليًا ، عن هذه الحياة النباتية .

وهناك ملمح بارز يتميز به هذا المنحدر الجنوبى من الهضبة الوسطى ، ألا وهو وفرة المياه هنا عنها فى الشُّرفة الشمالية لهذه الهضبة نفسها ، فى سدير ، والرطوبة النسبية هنا لكل من التربة والجو ، والتى من المعروف أن الثانية تترتب على الأولى ، تتجلى بشكل واضح فى حريملاء ، التى تبدأ منها الرطوبة النسبية ، فى الزيادة كلما اتجهنا جنوبيًا إلى أن تصل إلى أقصى ارتفاع لها فى اليمامة ، وكلما اتجهنا صوب حائل ووادى الدواسر ، تبدأ هذه الرطوبة النسبية فى التناقص من جديد ، وأنا أرى أن ذلك يرتبط من ناحية بالابتعاد عن المنطقة الجبلية ، وبالقرب من الصحراء الكبرى ووسطها الجاف من الناحية الأخرى .

كنت قد تطرقت بالفعل إلى كثرة دكاكين اللحَّامين فى السوق ، وسلالة الاغنام النجدية معروفة وشهيرة ، وتحتل منزلة جيدة ، حتى خارج حدود الجزيرة العربية ، وهذا أمر طبيعى ، والسبب فى ذلك هو كثرة المراعى وجودتها ، إضافة إلى أن المناخ المعتدل يجعل نجد تناسب تمامًا تربية ونشر الأنواع الممتازة ، وعلى كل حال ، وفى رأى الكثيرين ، وأنا واحد منهم، فإن الأغنام النجدية ، لا ترقى ، من المنطلق الغذائى ، إلى مستوى أغنام ديار بكر ، والأغنام التى تربى على حدود كردستان ، وفى أسواق

دمشق ، التى قد تصل الاغنام النجدية إليها فى بعض الأحيان ، تحصل هذه الأغنام على أسعار معقولة ولكنها ليست أعلى الأسعار ، وأصواف الأغنام أسعارها معقولة ولكنها ليست أعلى الأسعار ، وأصواف الأغنام النجدية من النوع الراقى والجيد ، وهى تتساوى مع أصواف الأغنام الكشميرية ، من حيث النعومة والرقة ، وأكفال الأغنام النجدية ليست عريضة ، والأغنام العربية كلها ، من هذا القبيل ، على وجه التقريب ، ولو قدر للجزيرة العربية أن تتمتع بظروف تجارية مواتية ، وكل ما يصاحب التجارة من أشياء أخرى ، لأمكن توفير نصف احتياجات الإمبراطورية التركية من الصوف ولحوم الضأن ؛ إذ تتساوى على وجه التقريب أراضى المراعى فى الجزيرة العربية ، مع الأراضى القابلة للزراعة وأراضى الصحراء غير القابلة للزراعة مجتمعتين ، ولكن هناك صعوبة فى التصدير من وسط الجزيرة العربية عبر الحدود ، بل إن هذه الصعوبة زادت أيضًا بطريقة مصطنعة ، وأنا أعنى بذلك ، إنها ازدادت صعوبة بسبب سوء الحكم أو بسبب الكسل واللامبالاة .

والإبل تكثر فى الرياض : إنها "أرض قفر عامرة بالإبل" ، والإبل هنا تشبه الإبل فى شومر من حيث المبدأ ، ولكن لون الإبل فى شومر يتردد بين الأحمر والأصفر ، أما فى الرياض فلون الإبل يتردد بين الأبيض والرمادى ، ويندر أن تشاهد اللون الأسود فى أى مكان ، وقامة الجمل ، النجدى ، تميل أيضًا إلى النحالة والطول أكثر من جمل الشمال ، ووبر الجمال هنا أجود من وبر جمال الشمال ، والجمال هنا أرخص ثمنًا من الأغنام ، ويتردد متوسط ثمن الجمل بين خمسة وعشرين وثلاثين شلنا ، وهذا ليس ثمناً كبيراً لحيوان قوى مثل الجمل ، وبدأت أعداد الذلول تتزايد ، ولكنى سوف أتكلم عنها بالتفصيل فيما بعد .

والثيران والأبقار أكثر شيوعًا فى نجد عنها فى المناطق الشمالية ، وقد قيل لى فى وادى الدواسر ، إن الثيران والأبقار توجد بكثرة فى اليمامة وليست نادرة ، والثيران هنا صغيرة الأطراف ، ولكنها لها سنام مثل سنام الأبقار الهندية ، برغم أن الأبقار هنا أتعس حظًا فيما يتعلق باحترامها وتأليهها ، واللون السائد هنا هو اللون القاتم ، والجاموس غير معروف فى وسط الجزيرة العربية .

وطيور وحيوانات الصيد هنا ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، ريشية أم ذوات أربع توجد بأعداد كبيرة ، فى كل أنحاء هذه المنطقة ، ولكن يندر صيدها ، والحبارى ،

والسمان ، والقطا (نوع من أنواع الحبارى) ، والحمام موجودة هنا فى كل مكان ، وقد سمعت عن القلاَّم ، وهو نوع من الدجاج البرى ، ولكنى لم أشاهده ، وهو شبيه جداً بالحبارى المذكورة فى المعاجم ، العربية الفصيحة : شاهدت هذا الطائر واصطدته رميا بالرصاص فى المنطقة المجاورة لـ راجكوت Rajcote ، ولكن البنادق صغيرة الطلقات لا يسمح بدخولها نجد مطلقًا ، كما أن مسألة اصطياد طائر أثناء طيرانه فوق مستوى مهارة معظم الرماة العرب ، زد على ذلك أن بنادق الفتيل وطلقاتها لا تصلح لصيد السمان أو الحبارى . وأراضى الطويق العالية خالية من النعام ، والغزال يوجد هنا بأعداد كبيرة ، أكثر من أى مكان آخر ، وقد تكلمت بالفعل عن الغزال ، ولكنى لم أر أو أسمع عن أى نوع آخر من أنواع الغزال ، يضاف إلى ذلك ، أن الغزال هنا ، لا يجرى صيده فى كثير من الأحيان ، إلا إذا تصادف وكان الصياد من الصلبيه ، كما تكثر فى الجبال أيضاً الدببة البرية والخنازير البرية ، وأنا بحاجة إلى التذكير بأن هذه الحيوانات لا يستفاد منها هنا إلا فى الزينة فقط، ويجرى تحويل أنياب هذه الحيوانات، فى بعض الأحيان ، وخارج الأراضى الوهابية ، إلى علب غريبة لحفظ السعوط (النشوق) أو الشمه) ، وأحيانًا إلى غلايين وهذان الحيوانان مكروهان فى نجد ، ومع ذلك ، فإن الصليبه لا يقربون لحم الحيوان غير الطاهر ، وذلك فى شئ من التعاطف القليل مع المسيحيين الشرقيين ، أكثر من تعاطفهم مع أتباع محمد أنفسهم ، وذلك باستثناء الأماكن التى يشكل الأوربيون فيها مجموعة صغيرة من الأفراد تقر فيما بينهما بأن ذلك الحيوان النجس هو شكل من أشكال التُّرف المشروع .

والقارئ ربما يتطلع الآن ، إلى معرفة شئ عن الخيول فى وسط الجزيرة العربية ، ومنزلة الحصان النجدى بالنسبة للخيول العربية هى نفس منزلة الخيول العربية نسبة إلى خيول البلدان الأخرى ، زد على ذلك ، كيف يستقبل القارئ الإنجليزى كتاباً عن الجزيرة العربية دون أن يورد فيه مؤلفه عشر صفحات ، عن هذا الموضوع على أقل تقدير ؟ وأنا بدورى كلِّى رغبة فى أن أركب على وجه السرعة ذلك الذى اعترف بأنه لدى وأسميه خيول الهواية ، ولكنى يتعين على أن أقلل من تعجل القارئ وضيق صدره وصدرى ، واستميحه أن ينتظر معى إلى أن يجئ اليوم السعيد الذى سنزور فيه الإصطبل الملكى فى الرياض ، ونجد متسعًا من الوقت ندرس فيه "زبده الزبده" فى هذه السلالات ، ومن هنا سيكون كل المهتمين بذلك الأمر فى صحبتى ، وأنا داخل هذا الاصطبل .

وعن الكلام ، من خلال هذا الذكر العابر للخيول ، وأفضل أنواعها ، هيا بنا نخطو خطوة إلى الإمام نحو الإنسان ونضيف بعض الأشياء القليلة ، فيما يتعلق بالخصائص العامة والعناصر الرئيسية فى سكان الرياض نفسها والمناطق المحيطة بها ، والسبب فى ذلك ان المبانى الجيدة ، والبساتين والحدائق ، والحيوانات البرية ، والحيوانات الأليفة ، والوديان ، والجبال ليست هى التى تصنع بلداً ؛ والمثل العربى القديم يقول : "البلد بأهله"، يضاف إلى ذلك أن اللعبة الرئيسية التى تشغل العقل الباحث الفاحص ، هى الإنسان ، ولكن بمعنى غير المعنى الذى ذهب إليه النمرود Nimrod وليسمح لى القارئ هنا أستعير تلك الأبيات غير البليغة التى كتبها شاعر شرقى قديم وبخاصة أن هذه الأبيات تذكر القارئ بواحدة من أبلغ الحكم التى وردت على لسان هاينريش هاينز Heinrich Heins :

«أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبى ..
ولكن حب من سكن الديار ..»

وهنا نرى تدرجًا لذلك الأمر المهم ، وأن هذا التدرج يبدأ من المرحلة الأدنى على السلم البشرى بمعنى أن هذا التدرج يبدأ من العبيد negro .

لقد التقينا العبيد مراراً فى كل أنحاء الجزيرة العربية فى الجوف وفى شومر ، وفى القصيبيم ، وفى سدير ، لقد التقيناهم بصفتهم عبيداً ولم نلتقيهم خارج نطاق الأسر الثَّرية ، إلا نادراً ، وبخاصة أن هؤلاء العبيد الأفارقة يعيشون قانعين وسعداء وشبعانين ووجوهم مشرقة ، ومع كل ذلك فهم يعيشون مستعبدين ، وبالتالى ليس من حقهم أن يشاركوا فى المشروع السياسى أو المشروع المدنى للمجتمع العربى ، وحال العبيد متماثل فى كل أنحاء نجد بل وفى العارض أيضًا ، ولكن يحدث هنا فى نجد شيئ من التغيير ، والأمر لا يقتصر هنا على مجرد كثرة أعداد العبيد هنا عن الشمال ، وإنما بدأت تظهر طائفة من السكان الأفارقة الأصل ، وما يصاحب وجود هذه الطائفة من سكان خلاسيين ، إلى أن أصبحوا ، فى النهاية ، يشكلون حوالى ربع بل وثلث إجمالى سكان نجد ، والرياض تعج بهؤلاء السكان ، ومنفوحة والسُّليمية فيها

المزيد من هؤلاء السكان ، في حين أنهم ينتشرون مثل أسراب الجراد في كل من الحريق ، ووادى الدواسر ، والمناطق المجاورة لهما . وقد جاء ذلك نتيجة لمجموعة من الأسباب : أولها ، قرب أسواق العبيد سواء أكان ذلك على الساحل الشرقى أم الساحل الغربى كما هو الحال فى جده وفى الحجاز ، والعديد من الموانئ البحرية العمانية على الساحل الشرقى ؛ ولا تعد المسألة هنا مسألة قرب المكان ، وإنما المسألة تتصل أيضا بطرق المواصلات، والاتصال وتجارة العبيد نفسها، ومن هنا يمكن القول ، إن الجرعات الأولى من العبيد ، التى وصلت إلى وسط الجزيرة العربية ، سواء أكانت من نقطة البداية فى مكة أو من نقطة البداية فى الهفوف ، كانت تمر مباشرة خلال العارض ، وبالتالى كان الناس يشترون هؤلاء العبيد قبل أن يصلوا إلى الداخل . ويضاف إلى هذا السبب ، سبب آخر يعتمد عليه وهو رخص أسعار العبيد النسبى : والعبد الزنجى هنا يتراوح ثمنه بين ثلاثة عشر وأربعة عشر جنيهًا إنجليزيًا ، زد على ذلك ، أن مناخ جنوبى نجد ، الذى يشبه المناخ الإفريقى ، يجعل ذلك المكان مناسبًا لعادات الزنوج وتقاليدهم أكثر من أراضى جبل طويق العليا ، أو شومر ، وهذا يساعد أيضًا على تكاثرهم وزيادة أعدادهم ، وأخيراً ، يسود بين السكان الأصليين ، ميل إلى التعاطف مع هذه الأعراق السمراء ، وهذا ناشئ عن حقيقة لها مغزى تاريخى وعرقى واسع ، ويستحق منا مزيداً من التفسير وليسمح لى القارئ بأن أقول شيئًا عن هذا الموضوع .

فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : فى مركزها الجغرافى ، يبدأ ، بشكل عام ، التداخل بين الأسرتين القحطانيه والإسماعيلية ؛ وقبل أن نذهب إلى بعيد ناحية الجنوب وناحية الشرق ، سوف نجد أن الأسرة القحطانية تتسود الأسرة الإسماعيلية ونستعبدها فى النهاية ، والعرق القحطانى هو همزة الوصل بين العرقين العربى والحبشى ، وبذلك يرتبطون بالأسر البيضاء أو الشقراء من الجنس البشرى الموجودة على الجانب الأيمن ، ومع الأسر السمراء الموجودة على الجانب الأيسر ، هذه التداخلات اللونية ، وهم وبخاصة فى عرب الشمال ، الإسماعيليين ، وعرب الجنوب ، القحطانيين ، وكذلك الأحباش ، جاءت ، وبغض النظر عن الاستثناءات الفردية أو المحلية ، فى أغلب الأحيان نتيجة لظروف شاذة ، تميزت بشكل واضح بظلال مختلفة فى السلوكيات ، والفكر ، والارتباطات ، ولا تقل بحال من الأحوال عن السمات البدنية الفارقه فى البشرة وفى العضلات أيضًا ، ومن خلال هذه السلسلة ، يصبح العرب

القحطانيون أقـرب ما يمكـن إلى القبـائل الزنجيـة ، عن العرب الشماليـين ، أو الإسماعيليين ، ومن ثم يتزامل العرب الجنوبيون عن طيب خاطر ، مع الأفارقة ، ويتزوجون منهم ، ويمنحونهم الحقوق المدنية ، بل ، ويعطونهم أيضاً حق الحكم - وهذه الحقيقة لم تغب عن عيني نيبور الفاحصتين .

ومصطلحًا قحطاني وإسماعيلي لهما ، في ذهني ، دلالة رمزية أكثر منها قيمة محددة والحال هنا يشبـه إلى حد كبير ، مسألة تصنيف اللغات عندما نقول هذه سامية وتلك كذا .. إلخ ، وذلك اقتداء بالتسمية الثلاثية في أسرة سيدنا نوح ، والوزن التاريخي لهذه المصطلحات يدور من حوله نقاش كثير ، وأنا في هذه القضية بالذات ، ومع احترامي وتقديري للعلم والباحثين الذين يختلفون معي في الرأي ، أود أن أسجل هنا واقعية الحقائق الأساسية ، في حين أنني لا أستطيع ، في الوقت نفسه أن أثني على جميع النتائج والتفاصيل التي توصل إليها كثير من المؤلفين الشرقيين وبعض المؤلفين الأوربيين ، والواقع أن الأثر المستمر والسجلات التاريخية المتيسرة بشكل أساسي ، وبرغم كل عيوبها العفوية والواضحة ، لها قيمة كبيرة ، وتستحق منا الاحترام ، حتى في المواقع التي لا تحظى منا فيها بالثقة الكاملة ، ومع ذلك فنحن عندما نقبل حقيقة الأصل العامة التي يحددها الأثر الوطني أو القومي ، لابد أن نتوقع كثيراً من التعديلات والاستثناءات والتشوهات ، في رواية الاحداث المرئية عبر ضباب الأجيال الكثيرة ، وانتقال تلك الأحداث إلينا عن طريق أدوات معيبة وسيئة السمعة . وعلى ذلك ، فنحن عندما نسلم ، والواقع أننا ليس أمامنا غير ذلك ، بصدق نسب (سيدنا) موسى ، بالصورة التي هو عليها ، وعندما نسلم أيضًا بصدق الاحداث وشجرة النسب المسجلة فيه ، نجد أنفسنا نطبق هذه المعطيات نفسها ، سواء أكانت مأخوذة من مؤرخين قدامى أم من النقاد المحدثين ، ونسلم بما مفاده أن العمل الأساسي أو الأصلي ربما يكون مصممًا على نحو يبلغ من الضيق حداً لا يسمح بالاعتراف بالبنية القومية الفضفاضة التي يساندها ويؤيدها بعض الدارسين للانجيل ، في حين أن هذا العمل الأساسي أو الأصلي ، يبلغ أيضًا من الصلابة حداً يصعب معه على النقاد المفرطين أو المبالغين أن ينالوا منه أو يصيبوه بأذاهم . وهؤلاء قد لا يجدون شيئًا في ذلك ، وأولئك قد يجدون فيه الكثير ، وبالتالي ، ليس هناك ضرر ، من استعمال الرموز ، بغض النظر عن عيوبها ، لتمثيل معنى من المعاني ، إذا لم يتيسر لنا شئ آخر أفضل منها ، والأمر لا يتطلب هنا ، سوى قليل من الحرص ، كي نعطي

هذه الرموز قيمتها الحقيقية ، زد على ذلك ، أن الأسلم هنا ، أن نعهد بهذه الرموز إلى أى إنسان آخر غير المتحمسين أو المتشككين . وأنا ، في ظل هذه التحفظات والقيود ، استعمل مصطلحى قحطانى واسماعيلى .

قحطان ، أو جيكتان كما هو مدون بالعبرية ، يعترف به كل العرب كاول مؤلف ومؤسس لعرقهم وقوميتهم ، كما أن مقره محدد بإجماع كل العرب في اليمن ، ونجد شيئاً من التأكيد لهذه الفكرة في أسماء ذريته العديدة المسجلة في الكتاب المقدس ، وهذه الأسماء ما تزال موجودة فى جنوب غرب الجزيرة العربية في كثير من الأماكن الممسوخة ، وبعض هذه الأسماء يمكن استقاؤه من حوليات التاريخ في الأمم المجاورة وبخاصة الأحباش . ولعل القارئ ، يقتنع بأن تحرى هذا الموضوع واستقصائه استقصاء كاملاً لا يدخل في إطار هذا الكتاب وبخاصة أن هذا الكتاب وصفى أكثر منه تاريخى ، وأن هذه الملاحظات والبراهين يمكن تطبيقها أيضًا على ما نتعلمه من السجلات العربية أو العبرية فيما يتعلق (بسيدنا) إسماعيل ورواج حاله في شمالى الجزيرة العربية ، وهنا سرعان ما يبرز تفاوت غريب بين الرواية اليهودية والرواية العربية ، نحن نجد في العهد القديم أن (سيدنا) إسماعيل تزوج من امرأة مصرية ، ومن هذا الزواج نتجت الذرية التي جاءت بعد ذلك ، وعلى الجانب الاخر نجد أن السجلات التاريخية العربية ، تزوج إسماعيل من امرأة من جرهم ، سليله قحطان . هذه العقدة الغوردية[1] يسهل قطعها بفرضية أن إسماعيل كان متزوجًا من امرأتين ، وهذا أمر عادى في تلك الأيام ، وتظل الحقيقة بعد ذلك ، أعمق من هذا بكثير .

وما لم تخنّى الذاكرة فإن فريسنل Fresnel ، العالم الشهير ، قد عثر على مفتاح لحل هذه المشكلة العويصة ، ويقول هذا المفتاح ، أن المؤلفين الذين يتناولون مسألة زواج إسماعيل من قبيلة جرهم ، كلهم من أتباع محمد ، وبالتالى يكون من الواجب عليهم أن يوردوا كل ما يمكن أن يساعد على ذيوع شهرته بينهم ، وهنا ، يجب أن نقول : إن محمداً (ﷺ) كان بلا أدنى شك ، من سلالة إسماعيل ، وقبيلة كنانة التى نشأ منها ، كانت أقرب أقارب قبيلة قيس ، وقد إنحدرت القبيلتان عن النيزار Nezar ، التى كان اسمها ، يمثل صيحة الحرب عند عرب الشمال ، اثناء معاركهم مع جيوش

(١) العقدة الغوردية : عقدة أحكم شدها غورديوس ملك فريجيا ؛ وقد زعموا أنه لن يحلها إلا سيد آسيا المقبل ، فجاء الاسكندر وقطعها بسيفه ؛ والمقصود هنا مشكلة أو معضلة عويصه . (المترجم) .

اليمن ، ولكننا نجد ، على الجانب الآخر ، أن عتاقة بنو قحطان الضاربة في القدم ، ونقاء سلالتهم النسبية ، قد أعطيا أسلاف قحطان ميزة النبالة التي تقرها شبة الجزيرة العربية ، لدرجة أن اسم العرب لم يكن يطلق إلا عليهم وعلى أسلافهم ، ومن هنا يصبح محمد أقل نبلاً من حيث المولد[١] ، عن أولئك الذين أخضعهم بمعنى أن النبي يصبح من عامة الشعب أو الدهماء عندما نقارنه باتباعه الأرستقراطيين ، ولتوضيح هذا التناقض ، وهو تناقض خطير في أعين الشرقيين ، اخترعوا مسالة زواج إسماعيل من أسرة قحطانية ، وبذلك أمكن تعويض الشرف الذي لا يمكن الحصول عليه من طريق أبوة ولد إبراهيم عن طريق الأم الجرهميه ، هذا الزواج الحظيظ نفسه هو الذي أضفى صفة النبالة بشكل عام ، على قبائل الشمال كلها ، وجعلها في مستوى واحد مع رؤساء اليمن المتفاخرين ، في حين أن هناك سببا إضافيًا آخرًا ، لهذا الارتباط السياسي والديني تم استخلاصه من مصاهرة حدثت في تاريخ بعيد جداً .

وعلى كل حال ، فإن شواهد تاريخ ما قبل الهجرة كله وكذلك الأثر نرفض هذا الارتباط الصحيح ولكنه خيالي ، كما أن مجرى الأحداث ، في الأزمان التي تلت ذلك ، تشهد على هذا الفارق ، ولا يشهد أي منها على ارتباط العرقين العظيمين ، وسوف أوضح هنا من خلال ملاحظاتي الشخصية للخصائص الفعلية والحياة الحالية ، واللغة ، والتنظيمات واللوائح المختلفة داخل الجزيرة العربية ، كمية الضوء التي يمكن أن تسلطها هذه الملاحظات على هذه المسألة ، زد على ذلك ، أن الحقائق القائمة تعد أيضاً مصادره للمعرفة الحقيقية ، ويمكن الاعتماد عليها إلى حد بعيد والسبب في ذلك أنها تُعَدُّ أقل الأمور تعرضاً للتشويه أو التحريف ، ومن ثم تكون رحلتنا بين الأعراق الشمالية ، وأننا بعد أن أصبحنا في الرياض نكون قد أصبحنا أيضاً على حدود الأعراق الجنوبية ، ومن هنا فإن مُضيفينا من حقهم أن يقولوا إنهم أبناء نيزار Nezar واسماعيل ؛ وإذا مضينا قليلاً إلى أبعد مما نحن عليه الآن ، فإنهم سوف يسمون أنفسهم أحفاد يعرب وقحطان ، ولقد وقفنا بالفعل على أولويات السلم وأولويات الحرب ، وأولويات الأسرة ، وأولويات التجارة ، وأولويات الحكومة ، وسوف أوضح بعد قليل

(١) إن المؤلف يخضع حقائق التاريخ لخياله ويبنى إستنتاجه على فرضيات خاطئة من أجل تحقيق هدفه وهو الحط من شأن نبينا محمد (ﷺ) وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن النبي (ﷺ) من نسل إسماعيل ابن سيدنا إبراهيم عليه السلام وأن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم العربية وأن النبي (ﷺ) تنقل بين الأصلاب الطاهرات والأرحام الزكيات حتى خرج من أفضل حيين من العرب هشام وزهرة ، (د. حلمي عبد المنعم) .

أولويات الحكومة ، أما مسألة كيف تؤيد كل هذه النقاط مسألة تركيزها على عدم الارتباط الوراثي ، فسوف أشير إليه أنا بنفسي في بعض الأحيان ، وأترك القارئ يستخلصه بنفسه في أحيان أخرى . ولكن مسألة التعرف على شخص كل من إسماعيل وقحطان فهي مسألة أخرى تماماً ؛ وهي تعتمد على التاريخ وعلى النقد ، ولا تؤثر بحال من الأحوال على حقيقة اختلاف الدم الثابتة ، سواء أكان أصل هذا الاختلاف في الشخصيتين اللتين سبق أن سميناهما أم في أي مكان آخر . وأنا أظن أن هذه المقدمة تكفي لمساعدة القارئ على فهم بقية الكتاب ، التي يتعذر فهمها بغير هذه الطريقة ، وهيا بنا نعود مرة أخرى إلى أصدقائنا الأفارقة .

عدد العبيد من الزنوج في هذه المناطق يُعَدُّ بداية لمرحلة ثانية من وجود السود ، الذي يشيع في الشرق ، برغم أننا لا يمكن أن نربطه بحالة السود في أقصى الغرب ، وأنا لا أتمنى بذلك التحرر فقط ، وإنما المساواة الاجتماعية أيضاً ، مع من هم حولهم لا من طريق قوانين برلمانية أو قوانين يصدرها الكونجرس ولكن عن طريق الإدارة الفردية والشعور العام . والشيء الأكثر شيوعاً بين أتباع محمد (ﷺ) ، بل بين العرب جميعاً ، سواء أكانوا أتباعاً لمحمد أم لا ، هو تحرير العبيد ، إبان حياتهم وعندما يحققون نجاحاً كبيراً ، أو بسبب الدين ، أو عندما يؤدي العبد خدمه خاصة لسيدة ، بل وفي أحيان أخرى كثيرة من قبيل الخير والتطوع ، أو عندما يكون السيد على فراش الموت ، وهو يتطلع إلى الخير في الحياة الآخرة عن طريق عمل إنساني (يكون على حساب الوارث) يفعله قبل مغادرة الحياة الدنيا ، وهناك سبب آخر لتحرير العبيد ، يصعب أن نتخيل أنه يدور في أرض تنعم الأخلاق فيها بالاسترخاء ، بل أن العوائق الشرعية هي الأخرى أكثر استرخاء وأنا أعني بذلك شيوع اتخاذ السيد من العبدة خليلة له ، ولو قدر لهذا الزوج البديل أن يكون من أتباع محمد (ﷺ) فإن الأبناء الذين ينتجون عن هذا الارتباط يكونون أحراراً ومن ثم تكون البنات ، في رأيي ، كذلك من وجهة نظر الشرع[1] ، ولكن إذا كان الزوج البديل ، ليس

(١) ما يشير إليه المؤلف هو من روائع التشريع الإسلامي في قضائه على نظام الرق ، حيث جاء الإسلام بتعاليمه ليفتح الباب على مصراعيه أمام تخليص الإنسان من العبودية لغير الله وتحريره من الرق فشرع نظام المكاتبة ، وشرع عتق الرقبة في الكفارات وحث على تحرير العبد قرباناً إلى الله تعالى ، وما أشار إليه المؤلف هو ما يعرف "بأم الولد" فحينما يستضيع السيد من أمته وتنجب منه يصبح الأولاد أحراراً ، (د. حلمي عبد المنعم) .

من أتبـاع محمد ، يصبح الأطفال عبيداً ، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً ، ما لم يتم تحريرهم بشكل رسمي ، والسبب في ذلك أن الارتباطات التي من هذا القبيل ليس لها الطابع الشرعي، في حين أن محمداً (ﷺ) يتساهل تماماً من أتباعه في هذه النقطة. وعلى كل حال ، فقد بلغني أنه يشيع بين العرب من غير أتباع محمد ، ومنهم بياضية عمان على سبيل المثال ، ألا يعطي الأب الحرية لأطفاله ، أيا كان مولدهم ، وهذا أيضاً مصدر كبير أيضاً من مصادر المواطنين السود أو السمر في الجزيرة العربية .

وسرعان ما يتزوج هؤلاء المتحررون الجـدد . والآن ، وبرغم أن الزنجي أو المولَّد لا يسمح له على الفور بالانضمام إلى دوائر الحياة الأرستقراطية ، إضافة إلى أن أي رئيس عربي لا يسمح بتزويج ابنته من شخص أسود ، إلا أن هؤلاء العبيد يعانون بالفعل من الخطر الناجم عن عجزهم واستبعادهم ، ذلك الخطر الذي له وقع ثقيل على أنفسهم في كل من ولايتي ماساتشوستس Massachusettes وأوريجون Oregon ، حتى بعد الإجراءات القانونية التي صدرت عن الكونجرس ، وبعد الانتصار البلاغي الذي حققه رعاة هؤلاء العبيد من الأمريكان ومن الإنجليز ، وبناء على ذلك ، فإن العبيد يستطيعون ، وبلا أية صعوبة ، تزويج بناتهم وأبنائهم من بنات الأسر المتوسطة أو دون المتوسطة ، وتنتج عن ذلك ذرية خلاسية يكنونها هنا باسم "الخضيريه" أو إن شئت فقل "بنو خضير" ، يجب ألا ينصرف ذهن القارئ هنا ، إلى أن لحم المولَّد هنا يشبه العشب الأخضر ، كما تقول التسمية . والسبب في ذلك أن الألوان الأخضر ، والأسود ، والبني ، يجري الخلط بينهما في الكلام العربي العامي ، برغم أن الفرق بين هذه الألوان ، معروف وثابت ، بطبيعة الحال ، في المعاجم ، وفي السياقات التي تحتاج إلى الدقة . وهؤلاء الخضيرية ، بدورهم ، يتزوجون ، ويتكاثرون ، وينتحلون أشياء لها لون العشب الأخضر ، الزمرد الأخضر ، والأوبال ، وما إلى هذه الأشياء ، أو بعبارة أدق ينتحلون أشياء بنية اللون ، أو نحاسية اللون أو زيتونية اللون ، وذلك الذي يطلق الأمريكان عليه اسم اللون الأصفر ، وأنا استلطف أسلاف هؤلاء الخضيرية وأجدادهم ، فهم لا يحتلون مكاناً ، كما ينبغي ، بين الأعيان أو طبقة العشرة آلاف ، ومع ذلك ، فهم قد يحققون ذلك بمرور الزمن ؛ ولقد شرفت أنا بنفسي بكثير من حب وحميمية عدد كبير من هؤلاء الخضيرية ، الذين كان كل منهم يعلق في خصره سيفاً له مقبض من الفضة ، ويلبس ثوباً غالياً على جسده الأسمر ، ولكنهم يسمونه هنا شيخاً أو أميراً ، ويغازله العرب من سلالة إسماعيل وقحطان ، غزلاً وضيعاً ، والرياض تعج

بهؤلاء الخضيرية الذين يعملون في الدكاكين ، وفي التجارة ، وضباطًا مع الحكومة ؛ وينبغي عليّ أن أضيف هنا ، أن رغبة هؤلاء الخضيرية – التي يعرفها محدثوا النعمة هنا – في تقليد الكبار ، ومحاكاة نظام الحكم ، هي التي تجعلهم ، في بعض الأحيان ، وهابيين متعصبين ومنفرين في مدينة الرياض ، وضيق الأفق والصدر عند الخضيرية هو الذي يدعم هذا الميل ويقويه ، بعض هؤلاء الخضيرية يسير في اتجاه معاكس ويحاكون جداتهم وأجدادهم الأفارقة في اللامبالاة وعدم الاكتراث ، الذي يشيع في كراهيتهم السرية لعقيدة محمد والمذهب الوهابي على حد سواء، وقد قال لي ذات يوم ، أحد شباب الخضيرية المتهورين ، والذي كان من أتقى المسلمين : "ما هذا الكلام الفارغ الذي يقولونه عن الجبرية والقضاء والقدر والأوامر الإلهية ؟ وأنا إذا ما أردت أن أفعل شيئًا فإني أفعله ، وإذا أردت ألا أفعله فلن أفعله : كما أن المادة لها نهاية" ، هذا منطق ، وإذا لم يكن كافيًا وشاملاً فهو يصعب تكذيبه على أقل تقدير .

من هنا ، يكون مجتمع نجد الوسطى ، يقدم عنصرًا جديدًا ، يتخلل كل طبقاته من عاليها إلى سافلها ، هناك سمة أخرى غريبة ، ليست سمة مادية وإنما هي سمة أخلاقية ، تكشف عن نفسها في طبيعة السكان المتجانسين ، إذا ما نحيناهم جانبًا عن التزيين أو التشويه اللذين ينتجان عن المفاهيم الدينية ، فأهل العارض ، والافلاج ، واليمامة ، والحريق ، والدواسر ، لا يختلفون عن إخوانهم العرب في كل مكان من شومر ، والقصيم ، بل الوشم وسدير ، من منطلق أنهم وهابيون فقط وإنما أيضًا من منطلق أنهم نجديون خلصًا ، وسبب هذا الاختلاف أقدم بكثير من الحركة الوهابية ، ولابد من تتبع ذلك السبب أولاً وقبل كل شئ في السلالة النسبية نفسها .

يزعم سكان الشمال والوسط باستثناء المناطق الخمسة التي سبقت الإشارة إليها وليس هناك أي مبرر لتكذيب هذا الزعم أو تفنيده بأنهم انحدروا عن قبائل الطائي ، ووعيل ، مازن ، وحرب وكنانه وسدوس ، وتغلب ، وقبائل أخرى ذاع صيتها في سجلات العرب ؛ غير أن كل هذه القبائل ، باستثناء قبيلة الطائي ، ترجع أصولها إلى كل من قحطان ، ربيعه ، ومدور ، وتشكل الجزء الأكبر من ذلك الاتحاد الوطني العظيم ، الذي كسَّرنير اليمن ، قبُيل بعثة محمد (ﷺ) بمائة وعشرين عامًا ، وأعطى نجد حريتها وكانت الأسر المهاجرة من اليمن ، تختلط بهذه القبائل ، من حين لآخر ، وكانت تختلط بهذه القبائل، من حين لآخر، بعض الأسر القحطانية المهاجرة من اليمن ،

ومنها قضاعة ، على سبيل المثال ، وصليعه Salee'h ، وكلب ، ومضج Madhej ، وعنزه الصحراء السورية ، ومعها كل من بشر والحويطات ، وشومر الفرات ، كلها تنتمى إلى هذه السلالة نفسها ، ولكن فى المنطقة الممتدة من الحدود الشمالية للعارض إلى الصحراء الكبرى ، أو إن شئت فقل : الدهناء ، تقابل ، بدلاً من السلالة النسبية التى سبقت الإشارة إليها اسمًا جديداً ، يقتصر على هذه المنطقة وحدها ، ولكنه مألوف للأذن العربية ، ويتردد كثيراً فى الشعر وفى النثر . هذا الاسم هو تميم ، وهذه العائلة هى الأكثر عدداً ، وحبًا للحرب بين عائلات النذارNezar ؛ وعرب العارض ، واليمامة ، والافلاج ، والحريق، وجزء من الدواسر هم ، أو يظنون ، من نسل بنى تميم . كان بنو تميم على مر العصور ، يتميزون عن العرب الآخرين ، بسمات شخصية واضحة ، جعلت الشعراء الوطنيين يبالغون فى امتداحهم ويبالغون أيضًا فى هجائهم ، وسواء أكانت تلك الصفات التى وصفها الشعراء منذ ألف عام مضت، حسنة أم سيئة ، فهى ما تزال ملتصقة بصورة أسلافهم الحقيقيين أو المزعومين . قال أحد سكان الأحساء ، رداً على تعليقاتى غير الجيدة ، فى معرض الكلام عن الرياض وأهلها : "هل تتعجب من أهل العارض ؟ هل نسيت أنهم بنو تميم ؟" وأهل الرياض أقل من بقية العشائر العربية الأخرى من حيث الناحية الروحية ، ومن حيث الكرم ، ومن حيث الحركة والأعمال المحفوفة بالمخاطر ، وأقل بشراً وصراحة ، وأهل الرياض يشتهرون بالمثابرة، وهم أكثر توحداً وأكثر حرصًا ؛ وقليلى الكلام ، وليس من السهل استثارتهم ، ولا يكشفون عن مشاعرهم بشكل سريع ، ولكنهم حازمون ، ومخيفون فى الانتقام ، وكراهيتهم دفينة وعميقة، ويتشككون فى جميع الأصدقاء باستثناء أقربائهم المباشرين وهل يسمح لى القارئ أن أقولها دون لوم ؟ إن أهل العارض فى ظل هذه السمات الواضحة ، هم اسكتلنديو Scots شبه الجزيرة العربية ؟ وتعبيرات ملامحهم ، المتحفظة ، والمقتضبة فى معظم الأحيان ، والكئيبة ، أو الجادة فى أضعف الأحوال ، تتناقض تناقضاً غريباً مع أوجه القبائل الشمالية التى تشع صراحة وتفيض بشراً ، مما يعكس قدرة كبيرة على ممارسة الحكم ، والتنظيم وقلة التعسف والقمع . وأهل العارض ، على العكس من العرب الآخرين ، يتبعون النظام أكثر من النزوات ، وآفاقهم ضيقة ، ولكن أرادتهم قوية ومركزة ، كما أن وحدتهم ومثابرتهم ، سوف تنتصر على المدى البعيد ، على جيرانهم المفككين والمنعزلين ، زد على ذلك ، أن الامبراطورية النجدية يغلب عليها أن تستوعب أو ستسحق الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية خلال فترة قصيرة من الزمن .

هذا الطابع نفسه تنطبع به حياة أهل العارض سواء فى كلامهم أو حياتهم المنزلية وكذلك أيضاً فى معاملاتهم في الأسواق ، ومن يقدر له أن يتعامل معهم ، يجب أن يحسب عباراته حساباً دقيقاً ، وكذلك إشاراته ، كما يتعين عليهم أن يفعلوا الشيئ نفسه ، وإلا فإنه سيعطى الكثير ، ولن يحصل على شئ ، وعليه ألا يفتح قلبه ، لأناس ، يفكرون عشرين مرة ، بل مائتى مرة ، قبل أن يفتحوا له قلوبهم ، ويجب ألا يستعرض المرء كثيراً أمام الحاسدين منهم ، وألا يثق بعرق تشيع فيه الخيانة والغش شيوع الإيمان . وليس معنى ذلك أن المرء سيواجه كذباً صريحاً ؛ ولكنهم قد يمسكون عليه كذبة حقيقية ؛ إذ أن مسألة ألا يقول المرء شيئاً ، ومع ذلك فهو يكذب ، تعد مسألة شهيرة فى كل أنحاء العارض ويمارسها أهلها .

وتسير جنباً إلى جنب مع هذه الخاصية العقلية المكروهة ، بساطة الملبس وبساطة الزينة المنزلية، والبساطة فى قص الشعر، وعدم التباهى فى استغلال الثراء والبضائع ، وكل هذه الأمور طبيعية وبسيطة عند رجال العارض ، واليمامة ، الذين لا يلتزمون بالمذهب الوهابى أو تعاليمه الصارمة ، ولكن هذه الصرامة المزدوجة ، رغم فطريتها وشرعيتها ، لا تحول دوماً بين أهل العارض وبين التباهى بمقتنياتهم الضخمة والأثاث الفاخر ، عندما تتوفر لهم السلطة والقوة التى تؤمن لهم ذلك ، ومن حسن حظ أهل العارض أن عدد أولئك الذين يستطيعون التمتع بمثل هذه الامتيازات الاستثنائية ، صغير جداً ؛ أما النظام السائد هنا ، فيقوم على الاعتدال ، الذى يقترب من التقشف .

والمناطق النجدية ، من بين هذه المناطق ، يغلب عليها الطابع الزراعى أو الرُّعوى . والواقع أن الوشم ، بحكم موقعها على طريق الحجاز السريع ، وشمالى سدير ، بحكم قربها النسبى من حدود كل من الكويت ، والبصرة ، يغلب عليهما الطابع التجارى ، الذى يعنى فى العرب حُبَّ السفر والترحال ، وعدم التردد في تغيير مناظر أوطانه ، ولو مؤقتاً ، بمناظر أخرى أجنبية . وقبل ذلك ، كانت الحكومة الوهابية ، عن طريق جعل نجد نفسها مركزاً جديداً ومهماً ، ترمى من وراء ذلك إلى جذب القوى السابقة نحو الداخل مرة ثانية ، بعد أن اتجهت صوب المحيط ، وبخاصة هذه القوى المكونة من التجار الرحالين ، الذين يعيشون الآن فى كل من شقراء أو زلفة ، كانت توجد بأعداد كبيرة فى كل من سدير السفلى وفى العارض ، ويعتبر اسم محمد بن عبد الوهاب خير مثال على هذه الطبقة من التجار ؛ وبوسعنا العثور على أمثلة أخرى عند المؤلفين العرب

القدماء ، من أمثال الحريري وابن خلِّكان وفي كتب الأغاني ، وفي روضة الأبرار ؛ بل في المؤلفات المتأخرة ، مثل سيَر المَقرِّي Makarree ، وفي المستظرف Mustadref . ولكننا ، في هذه الأيام ، يندر أن نرى أهل سدير اعتباراً من التويم في اتجاه الجنوب ، وأهل العارض ، وأهل اليمامة ، والأفلاج ، والدواسر ، يندر أن نراهم يقومون بأعمال تجارية في المناطق التي تقع خارج نطاق دائرة المناطق التي يعيشون فيها ، يضاف إلى ذلك ، أن تجارة الرياض والمراكز السكانية النجدية الكبيرة الأخرى ، متروكة في معظمها للأجانب وتجار من الأحساء ومن القطيف ، ومن عُمان ، ومن مكة ، ومن وادي نجران ، ومن اليمن ، والنجدي الحقيقي لا يحتفظ لنفسه بمستودع تجاري ، ولا يبحث عما يخزنه داخل مثل هذا المستودع ، وهنا يجب أن نستثني سكان الحريق من ذلك ؛ وسوف أتكلم عن أهل الحريق فيما بعد .

وعلى العكس من ذلك ، تزداد الزراعة والبستنه في الرياض بشكل كبير ، إذ أن كل واحد من أهل الرياض يملك قطعة من الأرض ، التي يعيش منها هو وأسرته ؛ بل إن الملك نفسه ليس معفيًا من هذا القانون ، والسبب في ذلك أن جزءًا كبيراً من المتحصلات الملكية مستثمر في المزارع والحقول ، يضاف إلى ذلك أن النجديين زراع مهره ، كما أن إنتاجهم الوفير من التمور ، ومن القمح ، ومن حقول الذرة ، لا يشهد على مهارة نظرية فقط وإنما يشهد أيضاً على مهارتهم العملية . صحيح ، أن المحراث النجدي عبارة عن آله في منتهى البساطة ، ولكن تربة الرياض الخفيفة ، ومناخها المعتدل ، لا يتطلبان ضغطًا كثيراً أو خطوطًا عميقة من ذلك النوع الذي يتطلب استعمال المحراث المعقد الذي يستعمله أهل الشمال ، والحاجز العشوائي يفي بكل الأغراض التي تقوم بها الشوكة المستنة ، كما أن الكوريك الكبير ، الذي يصنع من الخشب في أغلب الأحيان ، يستعاض به عن الفأس . والري ، لا يمكن الاستغناء عنه في أي مكان من الرياض ، ولا يمكن هنا إنتاج أي محصول ، على نطاق اقتصادي ، إلا بالري ؛ وقد أشرت بالفعل إلى أن ميكنة السواقي والدلاء هنا قد تفيد الناس كثيراً . وعلى كل حال ، وفيما يتعلق بأعداد السكان وباحتياجاتهم – وهما أقل منهما في أي مكان من أوربا وبخاصة في ظل تساوي المساحة وفي ظل الظروف المماثلة – نجد أن ما لدى النجديين يكفيهم ؛ زد على ذلك ، أن النجدي ، إن لم يكن نشيطًا فهو ليس كسولاً .

وعلى كل حال ، [فقد أضر احترام التراث النبوى والتشدد الدينى ، إلى حد ما ، بالزراعة[١]] ، إضافة إلى أن الكثيرين من النجديين يفضلون الانقطاع للعمل الدينى والتفرغ له على الأعمال اليدوية البشرية ، والنجديون فى هذا الصدد يتميزون بخاصة الرضى عن أنفسهم ، برغم إن انكبابهم على هذا العمل انكباباً أعمى قد يضرهم . وهناك آخرون ، الذين لم يتبلور أو يتميز حسهم العام تبلوراً تاماً بفعل القرآن الكريم والسلف الصالح ، يندمون ويأسفون لتدهور هذه الوسيلة من وسائل العيش الرغد ، وبذلك يضيفون شكوى أخرى إلى شكاوى الناس الكثيرة من العمل الوهابى والنتائج التى أسفر عنها .

يضاف إلى ذلك ، أن الظروف السائدة حالياً قد افتتحت مصدراً آخر مختلفاً من مصادر العمل والأشغال ، أو إن شئت فقل : إن هذه الظروف سهَّلت ووسَّعت هذا المصدر على أقل تقدير ، فالنجديون ميالون دائماً إلى الشجار والحرب ، فطبيعتهم التى سبق أن صورناها فى الصفحات السابقة، لا تقل عن ذلك؛ كما أن الشعار الذى يقول : "لن تريد قبل أن أريد أنا" الذى عرفته أراضى إسكوتيا Scotia العالية ، ينطبق هنا فى مناطق كثيرة من أراضى نجد العليا ، ولكن طالما أن نزاعات النجديين ، ومشاجراتهم ، وسلبهم ونهبهم ، كان مقصوراً فقط على مناطق الطويق ، فإن مكاسبهم كانت محدودة كما أن خسائرهم كانت محدودة أيضاً ؛ فالفقير كان يسلب الفقير وينهبه ، كما أن الشحاذ ، وليسمح لى القارئ باستعمال هذا اللفظ ، ينهب الشحاذ ، ولكن ، فى ظل الظروف الراهنة ، وتحت حكم أسرة أبناء سعود الملكية القوية ، نجد أن هذه الأمور قد تغيرت ، بمعنى أن الحرب أصبحت من الآن فصاعدا موضوعًا عقديًا ، وبالتالى تهيأ لها النجاح ؛ والأفضل من ذلك ، أن الحرب أصبحت حرباً موجهة ، لا إلى النجديين الفقراء والمحتاجين ، وإنما إلى ساحل الأحساء الغنى ، إلى تجار وصيادى اللؤلؤ فى عمان ، أو الحصول على الغنائم من مكة والمدينة ، ومن مشهد على ، ومن الزبير ، لتوضع فى منازل وخزينه الدرعية هى والمناطق التابعة لها . معنى ذلك ، أن الحرب

(١) هذا غير صحيح لأن الإسلام الصحيح يحث الناس على الزراعة ، ويعد ذلك عبادة فقد جاء فى الحديث الصحيح "ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة" فمن احترم التراث النبوى - على حد تعبير المؤلف - يسارع إلى الزرع وإعمار الأرض ، وليس فى التراث النبوى وتعاليم القرآن ما يدعو إلى الرهبنة والانعزال عن عمارة الأرض يقول (ﷺ) "لا رهبانية فى الإسلام" ، (د. حلمى عبد المنعم) .

أصبحت على طريقة اليانصيب ، وعوامل الجذب فى "اليانصيب" أكثر منها فى المحراث والفأس ؛ ولكن الحرب التى تكون محفوفة بالظروف التى من هذا القبيل ، والتى تمثل كل الاضطراب والاستثارة الناتجة عن التشدد ، والتجديد ، والسلب والنهب والجشع ، لابد وأن تغضب الرأى العام وتسيئ إليه ، برغم وفائها بالاحتياجات العامة ، وبدءاً بالحملات الأولى التى قادها سعود بن سعود ، وإلى الوقت الراهن ، فإن رجال العارض والمناطق الشقيقة ينظرون إلى السيف باعتباره الوسيلة الأولى التى تضمن العيش والحياة للأفراد وللعائلات ، كما أنه (السيف) أيضًا هو وسيلة جمع المتحصلات العامة ومستحقات الدولة ؛ ومن هنا فإن تيّار الإنسان الوهابى يتجه اتجاهًا معاكسًا لاتجاه التجارة ، ولا يحبذ الزراعة بدرجة كبيرة ، ومن هنا فإن "جيوش المسلمين" – أى جيوشهم ، وانتصاراتهم ، وآمالهم ، وانتصارهم المنتظر على "الكفار" جيرانهم ، هو كل ما تدور حوله وتستقر عليه أفكارهم ، بمعنى أن هذه الأمور هى الموضوع الرئيسى فى حديثهم ، الأمر الذى يستبعد كثيراً من الأمور السلّمية الأخرى ، التى تصطبغ بالطابع الإنسانى أكثر من الأمور التى تتركز عليها أفكار الوهابيين ، كما تنطوى أيضًا على فائدة أكثر ، ومن هنا ، تغلب على الوهابية ، من هذا المنطلق ، إضافة إلى منطلقات أخرى كثيرة ، أن تعمل على تدهور الشخصية النجدية .

واللغة التى يتكلمها الناس فى الرياض ، شأنها شأن لغة أهل القصيم ، لا تزال هى نفس لغة القرآن النقية الخالصة بلا تغيير ، وهذه اللغة ما تزال حية ومعروفة من الجميع أكثر من القرن السابع ، وعلى كل حال ، فقد بدأت هذه اللغة ، يعتورها شئ من التغيير فى العارض ، والسبب فى ذلك هو اللغة المبتذلة المستعملة فى الرياض ، أو إن شئت فقل : اللهجة السائدة فى الرياض ، العاصمة ، ويتمثل ذلك الإفساد اللغوى فى المبالغة فى استعمال صيغه التصغير ، التى يضحك منها من يزور الرياض لأول مرة ، والتى تفسد دقة المصطلحات المستعملة فى كثير من الأحيان ، ولو قدر لكتابى هذا أن يكون عن فقه اللغة ، لأوردت عن طيب خاطر ، بعض الأمثلة المهمة التى جمعتها من الرياض ؛ غير أن هذا الأمر يفقد قيمته إذا ما ترجمته إلى الإنجليزية . وثمة عيب آخر هنا ، يتمثل فى تضييق ما يطلق عليه النحويون العرب اسم "الصوائت المشبعة" (الحركات المشبعة) ، والتى تتمثل فى الفتحة الطويلة والكسرة الطويلة والضمة الطويلة ، وهذه الصوائت المشبعة تتحول فى الرياض فى جنوبى نجد إلى مجرد فتحة

عادية ، وكسرة عادية ، وضمـــة عادية ، زد على ذلك ، أن عامة الناس فى الريـــاض لا يتقنون ، مثل مواطنى القصيم وسدير ، التعبير عن الاشتقاقات الصوتية التى توضح تباين الحالة النحوية ، وفى بعض الأحيان ، يخلط عامـة الناس نهـاية بأخرى ، وفى أحيان أخرى يحذفون هذه وتلك ، وعلى كل حال ، وهـذه حقيقة عجيبة ، فإن الإبدال عندما يحدث لا يكون عُرفيًا أو اعتباطيًا ، وإنما يخضع لقانون يعرفه كل الباحثين ، والذى أود أن أقول عنه بعض الأشياء هنا .

يعرف كل مستشرق ، الحالات الثلاثة ، الرفع والجر والنصب ، فى الأسماء عربية النسج والتـصريف [ويعـرف أيضًـا أن حـالة الجـر تشـتمل أيضًـا على صـيـغـة الإضافة Dative وعلى صيغة النصب عندما يكون المفعول غـير مباشر[١] dative] ، فى حين تتوزع حالة النداء فى الإنجليزية بين الحالتين العربيتين الأولى والثالثة ، أو إن شئت فقل بين الرفع والنصب ، كمـا يعرف أيضًـا أن هذه الحالات الثلاثة تتميز عن بعضـها البـعض بالحاق الأصـوات النهـائية التى يطلق عليـها اسم الفـتـحة والكسـرة والضمة على الصامت الأخير من الكلمة ، كما يعرف المستشرق أيضًا أن ما يطلق عليه النحاة العرب اسم "التعريب" إنما يكمن فى هذا التنويع وهذا التباين . ثانيًا : يعرف المستشرقون أيضًا أن الكلمات الغريبة ، أو غير العربية ، أو إن شئت فقل : الكلمات غير العربية النسج ، يجرى فيها حذف الكسرة واستبدالها بفتحة[٢] ، والتى يتعين عليها القيام بوظيفة مزدوجة ، وبذلك تختصر الحالات الثلاثة إلى اثنتين ، وهنا يَكمُن المقـيـاس الحـقـيـقى الذى يمكن به تمـيـيـز المصطلحـات التى من أصل عـربى عن المصطلحات التى ليست من أصل عربى . وهذه القاعدة تطبق على نطاق كبير على الأسماء فقط أو الكلمات التى تستعمل استعمال الاسم ؛ والسبب فى ذلك أن الأفعال ، والأدوات ، العنصران المتبقيان من عناصر الكلام العربى ، تتحرران من الكسرة إلا فى بعض ظروف محددة ، تسهل ملاحظتها وتعليلها .

(١) لست أفهم ما يقصده الكاتب من هذه العبارة (إن حالة الجر تشمل ... على صيغة النصب عندما يكون المفعول غير مباشر) ولعله يقصد أن المنصوب قد ينصب بالكسرة نيابة عن الفتحة كما فى جمع المؤنث السالم مثل "رأيت الفتيات" فإعرابها : مفعول منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة ، لأن جمع المؤنث السالم يرفع بالضمة وينصب ويجر بالكسرة ، (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) يقصـد الممنوع من الصـرف فهو يرفع بالضمـة وينصب ويجـر بالكسـرة ومن بين أنواعـه الاسم الأعجمى مثل "رأيت إبراهيم ومررت بإبراهيم ، (د. حلمى عبد المنعم) .

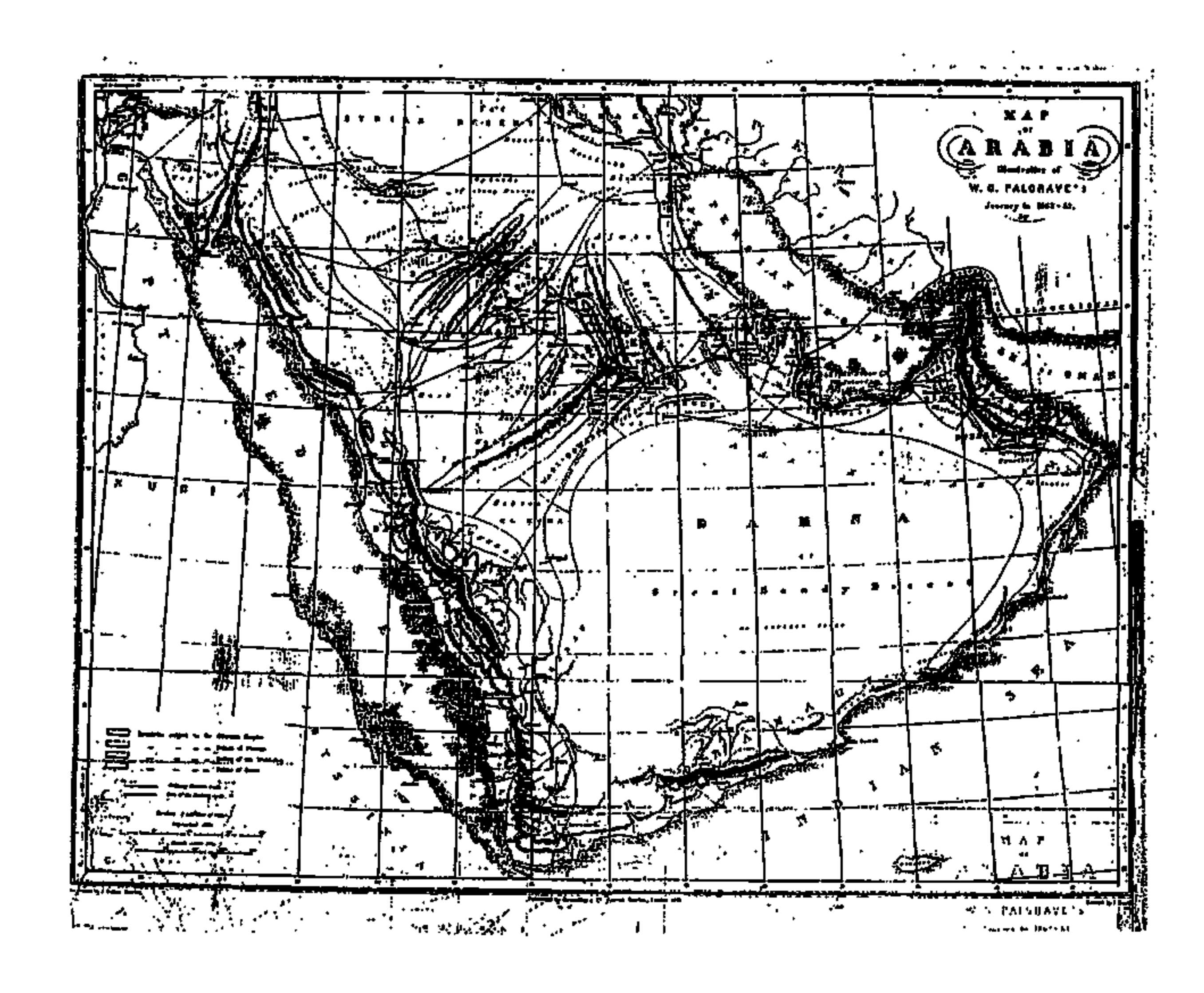
ومن المعروف تمامًا أيضًا أن القرآن ، إن جاز لى أن استعمل الصياغة العربية ، هو كتاب واحد لا يأتيه الباطل من ورائه أو من خلفه ، لأنه منَّزلٌ من السماء ؛ بل أنه هو الحجة السماوية فيما يتعلق بالنحو، بل في كل شئ آخر، وكذلك أيضاً لغة قريش ، أو إن شئت فقل : اللهجة الإسماعيلية ، وكونها اللهجة الوحيدة التى نزلت بها التعاليم الإلاهية ، والتى لا تزال ، كما أوضحنا ، الموروث الكائن فى وسط الجزيرة العربية ، فضلاً عن كونها أيضًا اللغة العربية الفصيحة التى يتكلمها كل فقهاء اللغة من أتباع محمد (ﷺ) ، إضافة إلى أن هذه اللهجة الإسماعيلية هى التى تعد المقياس الذى يميز اللغة العامية عن اللغة الفصيحة ، والصواب من الخطأ . ولكننا نلاحظ ، فى الوقت نفسه ، أن هؤلاء المؤلفين ، يسلمون أيضاً بوجود لهجة أخرى مصاحبة للهجة الأولى ولكنها تختلف عنها ، ومع أن هذه اللهجة المصاحبة لا يمكن إنكار نحوها ، إلا أنها تعد لهجة أجنبية ، أو بالأحرى ، لهجة غير قرآنية ، وهذه اللهجة الثانية ، لدينا عنها ثلاثة حقائق مؤكدة ؛ وهذه الحقائق هى : أن هذه اللهجة الثانية لها أصل قديم ، معاصر تقريبًا للهجة قريش التى استعملها النبى (ﷺ)؛ ثانيًا، أن هذه اللغة عربية ، وأخيراً ، أن هذه اللغة تنتمى إلى عرق متميز عن ذلك العرق القطرى أو الطبيعى فى كل من الحجاز ، أو وسط الجزيرة العربية .

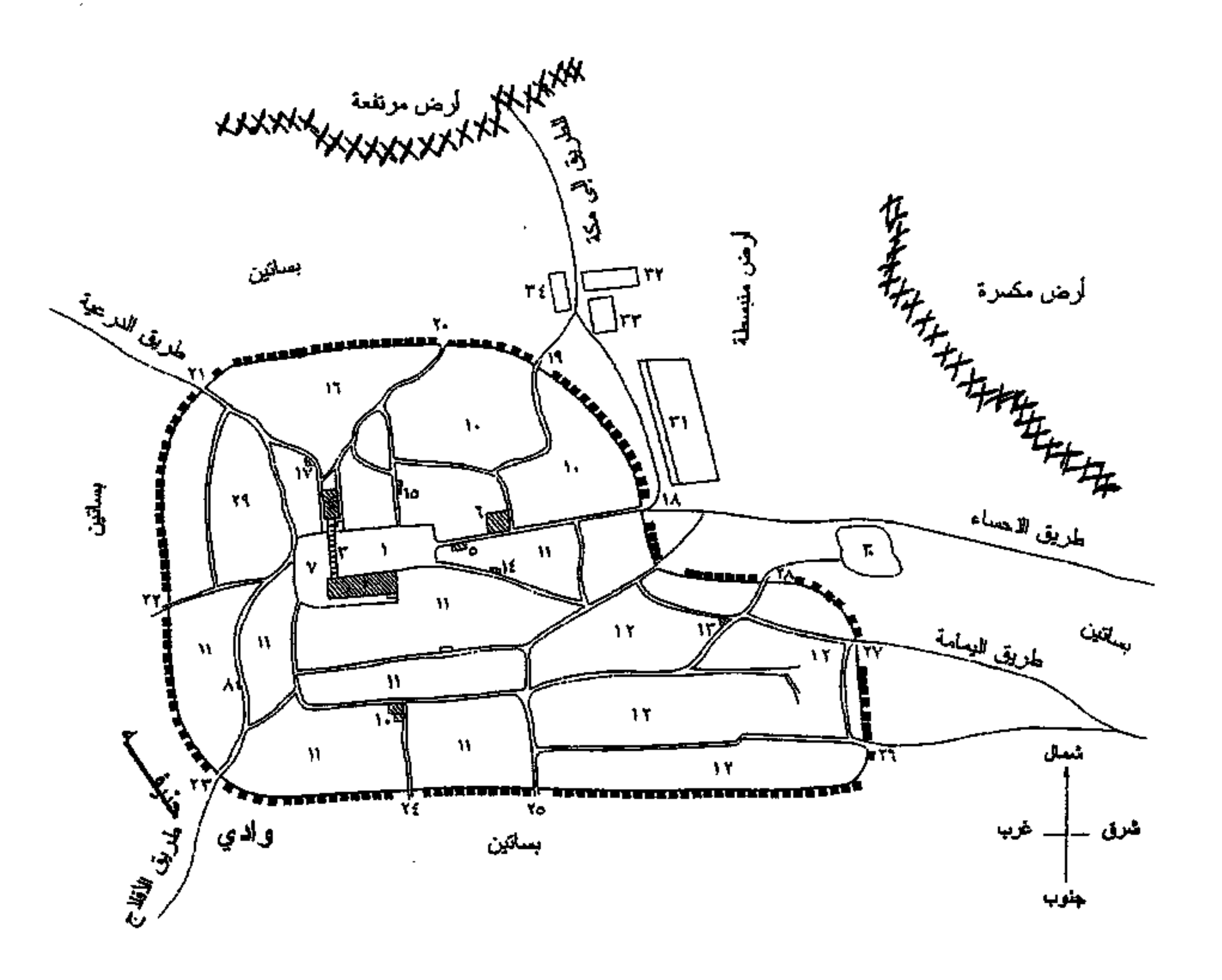
ومن الملاحظ هنا ، فى المناطق المجاورة للرياض ، وبخاصة فى المنطقة التى يبدأ فيها ظهور العرق القحطانى بشكل ملحوظ ، أن نَجِدَ هذه اللهجة التى أقرها النحاة واعترفوا بها ، تبدأ فى تعديل اللغة السائدة ؛ كما نُلاحظ أيضًا أن هذه اللهجة تزداد ازدياداً مضطرداً كلما اتجهنا جنوبيًا أو شرقًا ، إلى أن تحل فى عُمَان ، محل لغة القرآن ، أو إن شئت فقل : اللهجة العربية الإسماعيلية ، ووسط هذا التباين ، الذى تحيط به مثل هذه الظروف ، وكون هذا التباين ينطبع بطابع محلى ، يصعب علينا ألا نعترف بوجود مؤشر إضافى إلى وجود هذه اللهجة أو العرق الآخر ، الذى أشرنا من قبل إلى وجوده ، وأن يكون له وجوده الحقيقى والتاريخى ، فى المنطقة ما بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها، وبذلك تكون مدينة الرياض واقعة، من الناحية الطبوغرافيه ، على الخط الفاصل بين هاتين اللهجتين ، ومن المؤكد ، هنا أن الكسرة التى تأتى فى نهاية الكلمة تبدأ فى التحول إلى فتحه ، بل إن الكسرة تنتهى تماماً متحولة إلى فتحة كلما توغلنا جنوبيًا أو شرقًا ، وسوف نلاحظ المزيد من الفروق بين اللهجة العربية الإسماعيلية (العربية الشمالية) واللهجة القحطانية (العربية الجنوبية) عندما نصل إلى عُمَان ، التى تعد معقلاً من معاقل العربية الجنوبية .

قد تبدو هذه الملاحظات جديدة على القارئ، أو محرّفة أو خيالية . وعلى كل حال ، هذه الملاحظات ، هي من واقع الخبرة والتجربة ؛ إذ سمعت هذه الملاحظات من أفواه أهل العلم من المواطنين في هذه البلاد ، وهؤلاء العلماء مؤهلون لمثل هذه الملاحظات ، وقادرين على تفسيرها وتعليلها ، وكون نيبور ، هو والرحالة الآخرون الذين وصلوا اليمن ، لم يتوصلوا ، أو يحددوا ملاحظات من هذا القبيل ، أو يتوصلوا إلى أية نتائج من قبيل ما توصلت إليه هنا ، ينبغي ألا يكون مدعاة للدهشة أو العجب ، والسبب في ذلك ، أن اليمن التي انفتحت للغزو الحبشي ، وفي أحيان أخرى للغزو التركي وحاليًا للغزو المصري ، تعد سوقًا تجارية رائجة ، يلتقي فيه اليهود ، والأفارقة ، والشماليون والجنوبيون (أقصد الآسيويون وليس الأمريكان) ؛ هذا اليمن لابد أن يكون قد ضاع منه نقاء اللغة مثلما ضاع منه النقاء العرقي ؛ في حين أن علاقات اليمن ومعاملاته الكثيرة ، بل علاقاته الدينية والتجارية الحميمة مع كل من مكة والحجاز اللذين يجاورانه ، لابد وأن تكون قد أدت إلى انتقال الأشكال الصوتية المعتادة في كل من مكة والحجاز إلى اليمن أيضًا ، ونحن لا نجد أثرًا يذكر للعربية الجنوبية في تهامة أو المناطق الساحلية .

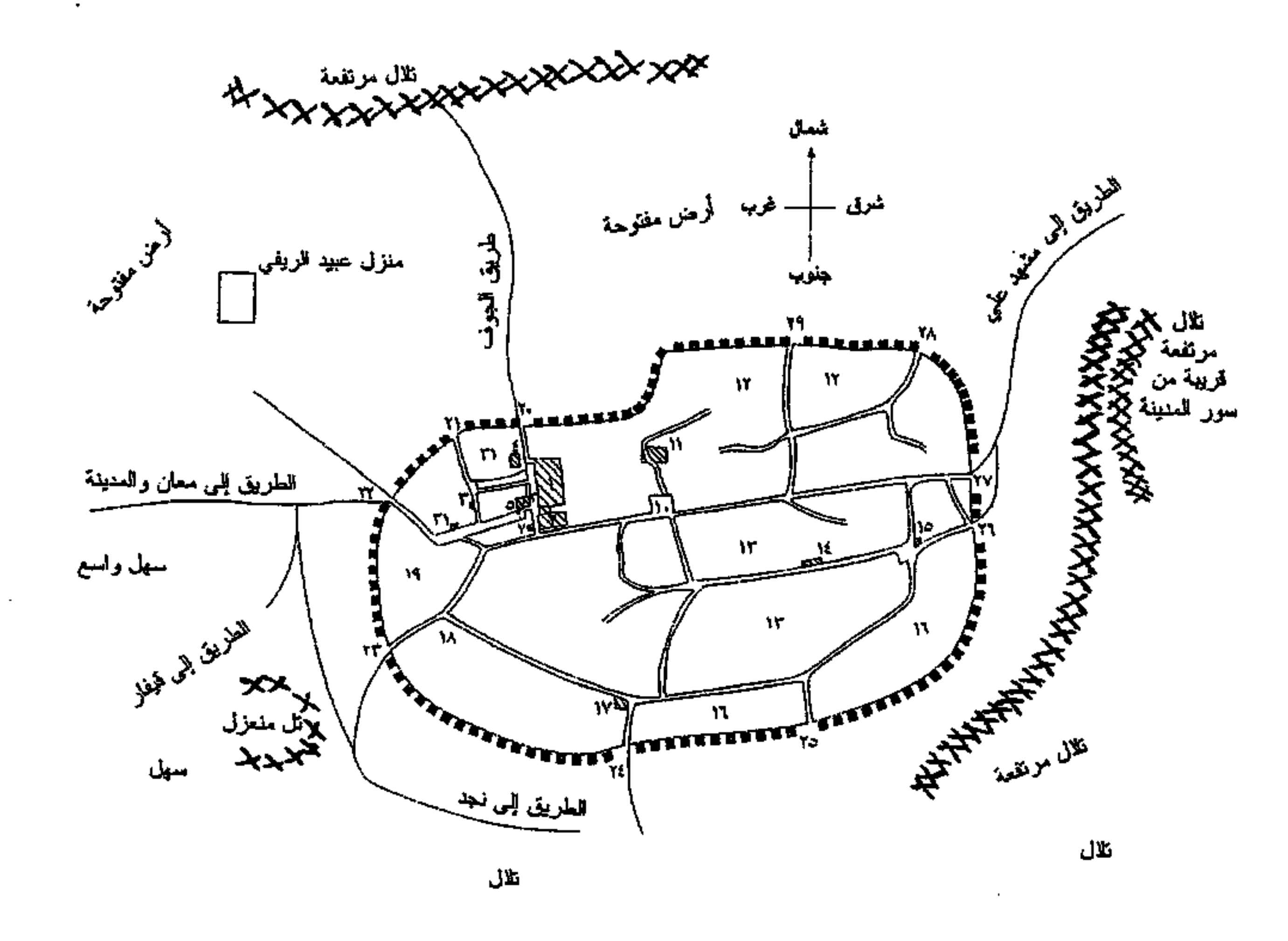
ويحق لنا الآن ، أن ندخل في مناقشة موضوع آخر يحتاج إلى كثير من النقاش الطويل ، ألا وهو موضوع النبطيين والحميريين ، الذين سمعت عن أسمائهم ، وبخاصة النبطيين ، واقتفيت آثارهم ، لأول مرة ، في الجزيرة العربية ، ولكن النبطيين ، يمكن ملاحظتهم بصفة خاصة في الاحساء ، أما الحميريين فيمكن ملاحظتهم بشكل خاص في عُمان ، وربما كان من الأنسب أن أتكلم عن الآثار الجانبية التي تصيب وسط الجزيرة العربية نتيجة لنفوذ ووجود هذين العنصرين .

لقد نسيت طوال هذه الفترة ، إننا نتجول في العاصمة أو نتمشى في حدائقها ؛ وشمس الظهيرة حارقة ، وربما كان رفاقي متعبون ، ويودون العودة إلى المنزل ، لتناول وجبة هادئة من التمر والبصل ، ونحبسها بثلاثة فناجيل من القهوة ؛ أسفي ! على هذا القارئ الذي لن يستطيع أن يتمتع بمثل هذه القهوة في المنطقة من باريس إلى اسطنبول . سوف نأخذ قسطًا من الراحة ، نستأنف بعده حكايتنا التي توقفت بسبب الاستطراد ؛ وسوف نقوم من خلال حياتنا الطبية والعملية في الرياض ، برسم وتصوير بقية الخطوط المميزة لكل من الرياض وسكانها .


MAP
OF
ARABIA
W. G. PALGRAVE'S
MAP



أرض مرتفعة
الطريق إلى مكة
بساتين
أرض متبسطة
أرض مكسرة
طريق الدرعية
طريق الاحساء
طريق اليمامة
بساتين
بساتين
وادي
طريق الأفلاج
بساتين
شمال
شرق
غرب
جنوب



تلال مرتفعة
شمال
شرق
غرب
جنوب
أرض مفتوحة
أرض مفتوحة
منزل عبيد الريفي
طريق الجوف
الطريق إلى مشهد علي
تلال
مرتفعة
قريبة من
سور المدينة
الطريق إلى معان والمدينة
سهل واسع
الطريق إلى قيفار
تل منعزل
سهل
الطريق إلى نجد
تلال مرتفعة
تلال
تلال

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	اوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	الدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت: محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا الرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ - السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ - نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ - صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميثوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ - جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ - العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ - شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ - الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ - مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ - مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ - طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ - نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ - الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ - الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ - وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ - محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ - الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ - تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ - مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ - السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ - أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ - الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ - صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه جون بولوك وعادل درويش ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي حسنة بيجوم ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ أرلين علوي ماكليود ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد سادي پلانت ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع وول شوينكا ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام ليلى أحمد ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر بث بارون ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهري سنبل ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلى أبو لغد ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيقل الكسندر وفنادولينا ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب چون جراي ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي سيدريك ثورپ ديڤي ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة ڤولڤانج إيسر ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب صفاء فتحي ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن سوزان باسنيت ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) مجموعة من المؤلفين ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة مايك فيذرستون ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا طارق علي ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة باري ج. كيمب ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا كينيث كونو ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية چوزيف ماري مواريه ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف إيڤلينا تارروني ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال ريشارد ڤاچنر ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار هربرت ميسن ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي ديريك لايدار ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة كارلو جولدوني ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جي أتيال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	والتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو–أمريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسنتير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – عولمة السياسة العالمية	جون بايلس وستيف سميث	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ – رايولا	خوايو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركي	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدراقيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق علي منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : علي إبراهيم علي منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	انطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروجان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريين	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦٢٦ / ٢٠٠١




Central And Wastern Arabia

William Gifford Palgrave

المشروع القومي للترجمة

هذا الكتاب كتبه مؤلفه منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عامًا ، ويتناول فترة زمنية مراجعها السياسية نادرة جداً وغير دقيقة ، وإذا كان بوكو Pocoke الفرنسي ، وبركخاردت Burckhardt ونيبور الألمانيين قد كتبوا عن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية أو الطبوغرافيه فقط ، بحكم أن ما كتبوه كان على مرأى ومسمع من السلطات التي كانت تقوم على أمر تلك المنطقة فى ذلك الوقت ، فإن كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" يتناول الجانب الديموغرافى والأنثربولوجي الذى غاب عن هؤلاء المؤلفين .

ومؤلف هذا الكتاب إنجليزى دمًا ولحمًا ، أعد نفسه لموضوع هذا الكتاب إعداداً جيداً ؛ فقد درس العربية إلى أن كادت تكون لغته الأم ، فضلاً عن إجادته للغات الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، وكذلك اللغة اللاتينية ، ومعرفته أيضًا للغة اليونانية القديمة ، كما درس أيضًا مقرراً فى طب المناطق الحارة .

وتستمر رحلة هذا المغامر عامًا كاملاً ، يجمع خلاله مادة علمية أصيلة ، من أفواه الناس ، ومن ملاحظاته الشخصية ، ليكتب كتابًا فى مجلدين إجمالى صفحاتهما حوالى ألف ومائتى صفحة من القطع الكبير .

وعلى الصعيد اللغوى يندرج الكتاب ضمن الأدب الراقى ، ودقة مؤلفه فى اختيار ألفاظه ومصطلحاته تغيظ قارئ النص الإنجليزى ، وتفاصيل الكتاب كثيرة وتشد الانتباه وتوحى بغزارة مادته .

والكتاب جرئ سياسيًا ؛ لأنه يتعرض لكثير من الأمور السياسية الحساسة التى لا يعرف كثير من المثقفين وصناع القرار حقائقها الأصلية ، كما يكشف الكتاب أيضًا عن كثير من حقائق المطبخ السياسى فى ذلك الوقت ، وسيثير الكثير من الجدل السياسى والعلمى ، ويصحح كثيراً من المفاهيم المغلوطة .



الجزء الأول